جون ميلتون

# الفردوس المفقود

## الملحمة الكاملة

ترجمها وقدم لها وكتب حواشيها

د. محمد عنانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

الإخراج الفنى والغلاف

---

أميمة على أحمد

# الفهرس

صفحة



# تصدير

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لملحمة **الفردوس المفقود** التى كتبها شاعر الإنجليزية الكبير جون ميلتون فى القرن السابع عشر ، وقد صدرت هذه الترجمة فى أجزاء متفرقة على امتداد السنوات العشرين الماضية ، وتلقاها النقاد والأدباء بالاستحسان ، ولكن الأجزاء الأولى نفدت ، وخصوصًا الجزء الأول الذى يضم الكتابين الأول والثانى (١٩٨٢) ، والجزء الثانى الذى يضم الكتب التالية - الثالث والرابع والخامس والسادس (١٩٨٤) وعندما أعيدت طباعة الجزء الأول وأعيد نشره فى إطار **مكتبة الأسرة** (عام ٢٠٠١) كان مصيره النفاد أيضًا ، وقد كان ذلك أيضًا مصير الجزء الثالث (٢٠٠١) الذى يضم الكتب التالية - السابع والثامن والتاسع - بل والرابع (٢٠٠٢) الذى يضم الكتب الأخيرة - العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، وقد يجد القارئ مشقة فى قراءة جزء لاحق دون أن تتوافر لديه الأجزاء الأولى ، فرأيت من المستحب إخراج الترجمة العربية كاملة ، فى طبعة واحدة ، على ضخامتها ، حتى يجد فيها القارئ ما فاته ، وحتى يقتنيها من يطّلع لأول مرة على الملحمة

ويبلغ طول الملحمة الحالى ١٠٥٦٥ (عشرة آلاف وخمسمائة وستين) سطراً

وعدد كتبها (أو أسفارها) ١٢ كتابًا ، وذلك بعد أن أضاف ميلتون ١٥ سطرًا إلى الطبعة الأولى الصادرة فى عام ١٦٦٧ ، وكانت تتكون من عشرة كتب ويبلغ عدد سطورها ١٠٥٥٤ ، إذ إنه زاد فى الطبعة الثانية (١٦٧٤) ثلاثة أسطر على الكتاب الخامس وقسم الكتاب السابع إلى كتابين هما السابع والثامن مضيفًا ثلاثة أسطر فى بداية الثامن ، وقسم الكتاب العاشر إلى كتابين هما

الحادى عشـر (مضيفًا أربعة أسطر فـيه ، ثلاثة من ٤٨٥ - ٤٨٧ وسطر واحد ٥٥١ - ٥٥٢) ، والثانى عشر (مـضيفًا خمسة أبيـات فى مطلعه) . ولا توجد أدلة تاريخية توضح سبب التحـول من الكتب العشرة إلى الكتب الإثنى عشر ، ولكن الناقد ويلار (Whaler) [ انظر المراجع ] يقول إن مـيلتون أراد أن يؤكد رمزية العدد فى القصيدة دون التخلى عن الإتساق مع عدد الكتب فى الملحمة التقـليدية (التى كـتبهـا فيـرجيل مـثلاً) وهو ١٢ كتـابًا، بمعنى أن يظـل العدد الأصلى عشرًا ثم إلى اثنى عـشر، والمعروف أن فيثـاغورث كان يرى أن الرقم عشرة يمثل الرباعـية المقدسة (the divine tetractys) أى حاصل جـمع واحد واثنين وثلاثة وأربعة (الأرقام الأربعة) التى تتكون منـها جميع الأرقام ومن ثم 'النبع الذى تخلق منه جميع الأشياء'، وأما باركر (Barker انظر المراجع) فى الكتاب الذى حرره عـام ١٩٦٥ فيقول إن التقسـيم دلالة على التحول من البناء الدرامى الذى يعتمد على اعـتبار القصيدة تتكون من خمـسة فصول يتكون كل منها من كتابين إلى البناء الملحمى. وأيًا كان الأمر، فإن طول الكـتاب العاشر فى الطبعة الأولى (وهو الذى أصبح الكتابين الحـادى عشر والثانى عشر) يدل على أن ميلتون كان يعتزم هذا التقسيم منذ البداية، ويؤكد ذلك قوله فى مطلع الكتاب السابع "أنشودتى مازال نصفها بلانغم" (السطر ٢١) بمعنى أن الكتب الستة السابقة تمثل النصف فقط ، ولابد أن تتلوها ستة كتب أخرى .

وأما عن البناء الدرامى الذى عَدَلَ عنه ميلتـون فالمعروف أو "من المرج" كما يقول فاولر فى الطبعة التى اعتمدنا عليها لنص الفردوس المفقود:

Fowler, Alastair. (ed.) Paradise Lost, in *The Poems of John Milton* ed. John Carey and Alastair Fowler, Longman, London, 1968.

إن مـيلتـون لم يكن يرى فى **الفردوس المفقود** عندما بدأ التـفكير فيـها ملحمة بل تراجيديا (مـأساة) ، وفاولر يورد هذا الرأى الذى رآه إدوارد فيليبس

فى كتابه **سيرة ميلتون** (١٦٩٤) مؤكدًا إياه بما ذكرته هيلين داربيــشر فى كتابها (انظر المراجع) وهو يشــير أيضًا إلى وجود أربعــة مخطوطات فى مكتبــة كلية ترينيتى فى كيمبريدج ، ويقول إنه من المــحتمل أنها كتبت عام ١٦٤٠ وتحمل أوجه شبه كثيرة بالملحمة ، رغم أنهــا مخططات تمهيدية لمأساة عن الفردوس المفقود . وسوف أورد فيما يلى ترجمة لما أورده فاولر منها :

| المخطوط الأول | | المخطوط الثانى | |
|---|---|---|---|
| **الأشخاص** | | **الأشخاص** | |
| ميكائيل | | موسى | |
| الحب السماوى | | العدل | |
| جوقة الملائكة | | الرحمة | |
| الشيطان | | الحكمة | |
| آدم | مع الثعبان | الحب السماوى | |
| حواء | | الزهرة - كوكب المساء | |
| الضمير | | جوقة الملائكة | |
| الموت | | الشيطان | |
| العمل | صامتة | آدم | |
| المرض | | حواء | |
| السخط | | الضمير | |
| الجهل | | العمل | صامتة |
| وغير ذلك | | المرض | |
| الإيمان | | السخط | |
| الأمل | | الجهل | |
| الإحسان | | الخوف | |
| | | الموت | |
| | | الإيمان | |
| | | الأمل | |
| | | الإحسان | |

وأما المـخطوط الثالث فـعنوانه **الفردوس المفقود** وفيـما يلى ترجمـة ما أورده فاولر :

**الأشخاص**

" يروى موسى فـى المقدمـة (الاستـهلال أو البرولوج) كـيف تأتّى له الاحتـفاظ بـجسـده الحق ، وأنه لم يفسـد ، والسبب أنه كلّم الله فـوق الجبل، قائلاً إنه أصبح مـثل أخنوخ وإيليّا ، وبسبب نقاء المكان وطهره أيضًا حـيث تعـمل رياح وأنداءٌ وسحـبٌ نـقيـة طاهـرة على صـونه من الفـسـاد، ومن ثم يسـرع إلى نظر الله ، قـائـلاً إنهم [ أى النظارة ] لا يستطيعون رؤية آدم وهو بعد فى حال البراءة بسبب الخطيئة المركبة فيهم.

العدل
الرحمة } يناقشون ما ينبغى أن يحدث للإنسان إذا سقط
الحكمة

جوقة الملائكة تنشد ترانيم الخلق

**الفصل الثانى**

الحب السماوى

كوكب المساء

جوقة الملائكة تغنى أغنية الزواج وتصف الفردوس

**الفصل الثالث**

الشيطان يدبّر لتدمير آدم

الجوقة تعبر عن خوفها على آدم وتحكى عن تمرد الشيطان وسقوطه

### الفصل الرابع

آدم / حواء } بعد السقوط

الضمير يقدمهما إلى الله حتى يفحص أمرهما .

الجوقة تندب مآلهما وما فقده آدم من الخير .

### الفصل الخامس

آدم وحواء بعد طردهما من الفردوس التى يمثلها مَلَكٌ مع :

العمل
الحزن
الكراهية
الحسد
الحرب
المجاعة
الطاعون
المرض
السخط
الجهل
الخوف
الموت

} شخصيات صامتة يسميها آدم بأسمائها هى والشتاء والحرارة والعواصف . . . إلخ . وهو يدخل إلى العالم

الإيمان
الأمل
الإحسان

} تُعزّيه وتُعلّمه

الجوقة تختتم المسرحية ختاما موجزًا

### المخطوط الرابع

## إخراج آدم من الفردوس

## (Adam Unparadized)

يُقبل المَلَكُ جـبريل ، هابطًا أو داخـلاً المسـرح ، فيـصف الفردوس ، قائلاً إنه منذ خَلْق هذه الأرض الكروية وهو يعتادها اعـتياده للسماء . ثم تتحدث الجـوقة لتبيان سبب مـجيئه ألا وهو حراسة الفـردوس بعد تمرد الشيطان على أمر الله ، وللإعراب عن رغبـته فى مشاهدة الإنسان ، ذلك المخلوق الجـديد الممتاز ، ومعـرفة المزيد عنه . والمَلَكُ جبـريل اسمه يعنى الأمـير ذا القـوة ، ويتـمتع بحـرية القيـام بمـا يراه من مهـام فى الفـردوس، وهو يمر أمـام الجوقـة فتطلب منه أن يقص مـا يعرفـه عن الإنسان وعن خلق حواء وعن حـبهما وزواجهما . ويظهـر الشيطان بعد ذلك ، وبعد أن أطاحت الملائكة الأبرار به ، فيبكى مآله وسوء حاله ، ويعرب عن سـعيه للثـأر من الإنسان ، وتستـعد الجوقـة لمقاومـته عند اقترابه، ولكنه يحـادثها حديثًا ينم عن العداء المـتبادل ثم يرحل . وهنا تنشـد الجوقة شـعرًا عن المـعركـة والانتصار فـى السماء عليـه ، وعلى المتـواطئين معـه ، وعلى نحو ما حـدث فى البداية تنشد الجـوقة ترانيم الخلق فى ختام الفصل الأول . وقد يعود الشيطان إلى الظهور ليحكى ما فعله لتدمير الإنسان متفاخـرًا متباهيًا، وبعد ذلك يظهر آدم وحواء بعد أن يكون الثعـبان قد أغواهمـا ، وقد أصابتـهما الحيـرة واختلطت عليهـما السبل، 'يرشدهما الضمير' فنراهما وقد طفـقا يخصفان عليـهما من ورق الجنة ، ثم يهديهـما 'العدل' إلى السـاحـة التى يطلب يَهْوَهْ أن يراهمـا فيها، فيخرجـان ، وتُغنّى الجوقة على المسرح أثناء ذلك ، ويدخل أحد الملائكة فيطلع الـجوقة على أسلوب سقوط آدم ، فـتندب ما حدث له ، وهنا يعود آدم وحواء فـيتبادلان التهم ، وبخاصة آدم الذى يلـقى تبعة ما حـدث على حـواء ، ويبدى المـكابرة فى الإثم ، ويدخل 'العدل' إلى

المســرح ثانيًا فيجرى مــعه حوارًا منطقيًا ينتــهى باقتناع آدم بما ســمعه ، وتلوم الجوقــة آدم وتطلب إليه أن يحــذر من الشيطان البــذئ المتطاول . ويُرسل مَلَكٌ لإخــراج آدم وحــواء من الفــردوس ، ولكنه يعــرض عليــه مشاهد مجسدة لجميع شــرور هذه الحياة وهذا العالم ، وتتقاصر نفس آدم فى عينه ، ويلين جانبه ثم يصيــبه اليأس . وأخيرًا تدخل 'الرحمة' إلى المسرح فتعزّيه وتعده بمقدم المسيح ، ثم تنادى على 'الإيمان' و'الرجاء' و'الإحسان' ، وترشــده بالعلم فيــتوب ، ويــقر لله بالمــجد ، وينصــاع للعقوبة الصادرة عليه . ثم تختتم الجوقة المسرَحية ختامًا موجزًا . تقارن هذه المسودة بالمسودة السابقة .

وترجع أهمية هذه المســودات إلى أنها تُهيئنا للنظر إلى **الفردوس المفقود** باعتــبارها مــأساة فى بعض جــوانبها ، بــل وقد تكون - كمــا يذهب إلى ذلك فاولر- ملحــمة مأسوية لا مــلحمة خالصــة ، فالأمر لا يقــتصر على احتــوائها حوارات كثــيرة بل أكثر ممــا نجد فى الملحمة العــادية ، وإن كان ذلك يصدق على الكتب : ٢ و ٣ و ٨ و ٩ ، ولكن الشــخصــيات أيضًا تمــيل إلى القــيام بأدوار الأبطال المأسويين ، وعلى رأسهم إبليس نفــسه الذى يكثر من المناجاة الدرامية (Soliloquies) إلى الحد الذى جعل دنيس بيــردن (فى كتابه **الملحمة المنطقية** - ١٩٦٧ - انظر المراجع) يعــتبره بطلاً شريرًا مــثل الأبطال الأشرار فى المسرح الإليزابيــثى ، وكانت هيلين داربيشر Helen Darbishire قد سبقت بيردن فى الإلماح لهــذا فى مقال نشرته عام ١٩٤٨ (انظر المــراجع) وقد وجد كل منهما ذريعة فى قول ميلتون فى مطلع الكتاب التاسع :

. . . إذ لا مناص لى الآن من تغيير

تلك النبرات إلى لحون المأساة . . . ٥ - ٦

والواقع أن 'النبرات' المأسـاوية تتجلى بأكبر وضـوح فى الكتب الأربعة الأخيـرة ، حيث يحـافـظ ميلتـون على الوحدات المـسرحـية الكلاسيـكية ، خصوصًا 'وحدة الزمن' إذ تجرى الأحداث كلها فى غـضون ٢٤ ساعة ، وأما المشاهد التى يسـتدعيها ميكائـيل من المستقبل فهى لا تعـتبر 'حبكات ثانوية' بقدر ما تعتبر قصصًا تصـب فى الحدث الرئيسى كأنما هى تنويعات عليه ، ولو أن فاولر يعـتبرها 'مأساوات صغيرة' ، ويحافظ مـيلتون على تقـاليد المـأساة الكلاسيكية فيما يسمى 'بالانقلاب' وما يسمى بالتكشـف . ولقد تطارح النقاد الآراء بشأن النوع الأدبى المحدد (genre) الذى تنتمى إليه **الفردوس المفقود** نظرًا للتعدد والـتشابك بين الأقاصيص والخطب والـوصف والحوارات الدائبة بين الشخصـيات ، وإن كانت الملحمة - تعـريفًا - نوع أدبى يستطيع أن ينتظم فى داخله عدة أنواع ، على نحو ما بينـت باحثة هى بربارة لوالسكى فى دراسة لها بعنوان "الأنواع الأدبية فى **الفردوس المفقود**" وأُدرجت فى الكتاب الذى حرّره دنيس دانيلسون (١٩٨٩) [طبعة ١٩٩٦] - انظر المراجع .

وقد آثرت أن أثبت هذه المـسألة **فى التصدير** قبل أن أعرض فى المـقدمة تفصيلاً لمـعنى الملحمة ، حتى يكون القارئ على وعى بذلك الـثراء العجيب فى الأساليب ، وفى تحوّل زمن الفعل الذى يستخدمه ميلتون من الماضى إلى الحاضر والمـستقبل ، كما يتـغير الفاعل (فيـما يشبه الالتفات بالعـربية) بسبب تعدد 'المنظورات' التى يقيمها الشاعر للأحداث تبعًا لتغير النوع الأدبى ، وهى مسألة أعتبرها وراء الكثيـر من الصعوبات التى تواجه قارئ اليوم ، ولقد بذلت ما استطعت من جهد لتذليلها فى الترجمة .

وأمـا ما يحـفل به نص ميلتـون من إشـارات إلى الكتاب المـقدس فلقـد استعنت فى رصـدها بكتاب لم يعد جديدًا وإن كان الوحـيد من نوعه ألا وهو كتاب سـيمز (Sims) الصـادر عـام ١٩٦٢ وعـنوانه "**الكتـاب المقـدس فى**

**ملحمتى ميلتون**" (انظر المـراجع) وكنت أرجع إلى نصـوص العـهد القـديم والعهـد الجديد فى الطبعات الانجلـيزية والعربية المـتوافرة ، فأهتـدى بها فى صوغ عبارات ميلتون فى التـرجمة ، مسترشداً 'بالمعنى الشعرى' الذى ظننته يرمى إليه ، خصـوصًا لأنه أحيانًا ما يأتى بعـبارات مقتبـسة من الشروح لا من المـتن ، أى إن فهم مـيلتون كـان محكومًا بقـراءته لتلك الشروح ، وهـو ما وجدته فى كتاب كتبه أرنولد ويليامز عام ١٩٤٨ عن شروح **سفر التكوين** (انظر المراجع) .

وأود أن أتطرق فى هذا التصدير الموجز ولو بكلمـة أو كلمتين إلى مسألة الأسلوب أو اللغة بصـفة عامة فى نص مـيلتون ، فأسلوب ميلتـون ليس فقط أسلوب القرن السابع عـشر الذى يختلف كثيرًا عن أساليب الإنجـليزية الحديثة (فى معانى الكلمات وفى بناء الجملة وفى علامات الترقين) بل هو يختلف فى شعره ونثره عن أساليب معاصـريه ، مما جعل ستانلى فيش (Fish) يبنى قضية كاملة على خـصائص هذا الأسلوب (تقـول بأن معنى مـيلتون دائمًا مضـمر ، وبأنه يقول ما لا يعبر عنه بالكلمات) . ولكن كتاب **النحو [فى أسلوب] ميلتون** (من تألـيف ر.د. إمّا Emma انظر المـراجع) يلقى بأضـواء غامـرة على هذا الأسلوب ويساعد القارئ فى الفصل بين 'التعقيد' النابع من اختلاف المنظور الفنى والصـعوبة الناشـئة من تقـاليد الأسلوب الكلاسـيكى (وخصـوصًا البناء اللاتينى) ولقد أساء الكثيرون فهم المقصد الحقيقى من هجوم ت.س. إليوت على نَظْم ميـلتون ، فلم يكن يقـصد به إلا الهـجوم على "**تأثير**" ميلتون فى الشعراء لا الـنظم نفسه ، على نحو مـا أوضح إليوت فيمـا بعد عام ١٩٤٧ ، ولقد صـدرت عدة كتب بعـد ذلك تتناول ذلك الأسلوب بالتحليل وتضـعه فى مكانه الصحيح ، مثل كتاب ك.س. لويس ، وأرنولد ستاين وإيزابيل ماكافرى وأخيـرًا كريستـوفر ريكس (انظر المراجع) . ولقـد حاولت فى الترجـمة نقل 'مذاق' هذا الأسلوب للقارئ العربى ، وأردفـت بالنص شروحًا فى الحواشى

لتوضـيح ما أفعل ، ولكن همّى الأول كـان إخراج المعنى الدقـيق كاملاً غـير منقـوص ، ولم أحاول التضـحيـة بأى قدر من المـعنى مهـما يكن فى سـبيل 'تمثيل' الأسلوب .

وأخيرًا ، قبل أن أترك القارئ للمقدمة والنص والحواشى ، أود أن أشيد بما لقـيته من عـون من أستاذى الدكـتور مجـدى وهبة رحمـه الله ، إذ كانت كلمات التشـجيع التى لم يضن علىّ بها حافزًا لى على الاستـمرار فى العمل ، ولقد قرأ الكتب الأولـى التى ترجمتها ونبـهّنى إلى ضرورة كتابة هذه المـقدمة الطويلة ، بل وأعـارنى عدة كـتب من مكتبـته الخـاصة ، ولذلك فـأنا أهدى الترجمة إلى ذكراه العطرة ، وأكاد أحس أنه يعرف ما أفعله الآن ويبدى السعادة به .

محمد عنانى

القاهرة ٢٠٠٢

# مقدمة

ربما كان أهم سؤال يواجه دارس الأدب الإنجليزى عندما يتعرض لملحمة الفردوس المفقود هو كيف تأتّى للشاعر (جون ميلتون) أن يخرج هذه القصيدة الرائعة فى عصر تدهور فيـه الأدب ولم يكن النقد الأدبى قد بلغ أى درجة من درجات النضج ؟ لقد ساد القرن السابع عشر - بعد السنوات الأولى التى تعتبر امتدادا للعصـر الإليزابيثى الذى شهد شكسبـير ورفاقه من كبار الشـعراء وكتاب المـسـرح ، وهى السنوات التى شـهـدت أيضًا ازدهار من يسـمون بالشـعـراء الميتافيزيقيين - انحطاطٌ أدبى شهد به أبناؤه أنفسهم . فالصورة التى تتبادر إلى الذهن عن ذلك العصر صورة أبعـد ما تكون عن المناخ الصالح لكتابة الروائع الأدبية - انظر ما يـقوله (ابراهام كاولى) الذى توفى فى العام الذى نشـرت فيه الفردوس المفقود (١٦٦٧) :

**إنه ليـحـزننـى ويسـوؤنى أن أرى ذلك الفن الجلـيل (يقـصـد فن الشعر) يستنزف ثرواته الطائلة من براعة الذهن ورشـيق العبارة فى كتابة المدائح الآثمة الحقيرة للعظماء أو فى التشبب المخنث بناقصات العقل من النساء أو فى إثارة الضحكات الماجنة بسلاح الهجاء أو - وهذا أرقى ما حـققه المـعاصرون - فى نسج أضـغاث الأحـلام وباليها فى أسـاطير الخرافة ومسخ الكائنـات . إنها جميعا لحوم باردة خلفـها الأقدمون على موائدهم فأعدنا وضعها على النار وتقديمها للطعام .**

( دفاع عن ملحمة داود - 'الداوودية' - التى كتبها عام ١٦٥٦ ).

والحق أن أهم ما يتسم به القرن السابع عشر هو الاضطراب الشديد فى شتى مناحى الحياة إذ اندلعت حرب أهلية طاحنة انتهت بإنشاء النظام الجمهورى لأول وآخر مرة فى بريطانيا كما أنه القرن الذى ازدهرت فيه الفلسفة العلمية وازدهر فيه العلم الطبيعى كما نعرفه فى عالمنا اليوم فكان حافزًا على الهجوم على الشعر (والفن بصفة عامة) لما فى الشعر من مجافاة للحقيقة (أى عالم الواقع المحسوس) ومن تهويم فى الخيال ، وهو القرن الذى شهد تطورات اقتصادية غيرت من وجه الحياة فى أوروبا لأجيال كثيرة ، إلى جانب ما ساد القرن من فتن دينية وسياسية أثرت فى البناء الاجتماعى أيما تأثير ، وبالتالى فى الأدب والنقد .

ويرجع هذا الاضطراب إلى عوامل كثيرة بعضها اقتصادى وبعضها سياسى وبعضها دينى محض . أما العوامل الاقتصادية فتنحصر فى أن بريطانيا بعد توحيد انجلترا واسكتلنده، وبعد الكشوف الجغرافية والتوسع فى التجارة الخارجية - كانت تقف على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخها وهى مرحلة جنى ثمار حركة الإصلاح الدينى والتحولات الصناعية والاجتماعية. كان النظام الاقتصادى قد بدأ يتحول تدريجيا نحو الصناعة ولوفى صورة صناعات صغيرة، وكانت الزراعة قد بدأت تفقد أهميتها باعتبارها المصدر الأساسى للاقتصاد إذ لم يكن يعمل بالزراعة إلاّ حوالى ربع السكان- ما بين صغار الملاك والأجراء- وبدأت التجارة فى اكتساب أهمية لم تشهدها البلاد من قبل.

فعندما قام الملك هنرى الثامن بنزع ملكية الأديرة وأوقاف الكنيسة القديمة كان فى الحقيقة يغير من أنماط الملكية السائدة التى ورثتها بريطانيا من عصور الإقطاع تغييرًا شاملاً إذ وفر رؤوس الأموال اللازمة للاستثمار وخلق لونًا جديدًا من النشاط الرأسمالى . كما أن الازدهار الصناعى قد حول دفة التجارة من الجنوب (أى من البحر المتوسط) إلى الشمال وأصبح بحر الشمال هو البحر الذى تتجه إليه أنظار كبار التجار ومن ثم أصبحت بريطانيا مرتبطة -

لأول مرة فى تاريخها - بأوروبا القديمة . وكان من ثمار هذه النهضة الصناعية أيضًا بناء السفن الشـراعية الكبرى والمدافع الضـخمة القادرة على التـدمير أى بناء القوة البحرية القادرة على الغزو والاستعمار وقد اعتمدت بريطانيا على هذه السفن فى فتح الأسواق الجديدة لتجارتها.

وإذا كان القـرن السادس عـشر بحق عصـر الإكتـشافات الجـغرافـية - إذ وصلت فيـه السفن الأوروبية إلى الأمـريكتين كمـا اكتشـفت سواحل إفريقـيا وبدأت تجارة الرقيق - فإن القـرن السابع عشر كان العصر الذى بدأ فـيه التجار الإنجليز ينـتفعـون بهذه الإكتـشافات وهذا التـوسع الذى لم يسبق له مـثيل ، يساعدهم على ذلك توافر رأس المال اللازم للمغامرة .

ولكن التنظيم الاقتصادى الذى بدأ يتغير حتى يواكب الظروف الجديدة كان دائمًا مـا يصطدم بالنظام السـياسى الذى أصـبح يمـثل عائـقًا كبـيرًا أمـام هذه المرحلة الجديـدة . كان نظام الحكم عتيقًا باليـا لا يستطيع مجاراة هذا التـغير السـريع فعندمـا جاء الملك جـيمس الأول إلى الحكم فى عـام ١٦٠٣ وتولى شخصيا توحـيد انجلترا واسكتلنده كان يواجه تناقضا كبـيرًا، فهو حاكم مطلق يدين له الجـمـيع بالولاء ، ومع ذلك فـهو يحـكم من خلال برلمـان انتـخب الشعب أعضاءه. والحق أن البرلمان كان قائما فى عصر الملكة إليزابيث ولكنه كان مـؤسسـة مسـالمة مطيعـة إذ كان يوافق على مـا تطلبه من أمـوال ويذعن لآرائها ولا يعترض عليها إذ هاجمـته وقرعته لاختلاف فى الرأى أو لتناقض فى القرارات ، أمـا مجلس العموم الذى كـان الملك جيمس الأول يواجـهه فكان يمثل التغيرات الاجتماعـية التى بدأت تؤثر على مفهومات السلطة والحكم يومًا بعد يوم إذ كان يمثل الطبـقات الجديدة التى تعمل بالتجارة والصناعـة كما كان يمثل بعض أصحاب الحيازات الزراعية الذين بدأوا يطالبون بالمشاركة فى إدارة الحياة السياسية فى البلاد .

وكان مجلس العموم يعارض حكم الملك آنذاك لعدة أسباب أهمها أنه كان تعسفيا ولم يكن من اليسير التنبؤ بمــا سيتخذه من قرارات . كما أن الملك كان يعتمد على المقربين إليه ويحابيهم مثل دوق بكنجهام الذى كان جشعا لا يشبع له نهم وكان إلى ذلك أبعد ما يكون عن الكفاءة فى الإدارة الـسياسية . وكانت حكومـة آل ستـيوارت هذه تنزع إلى التـدخل لصالح بعض أفـرادها وبخـاصة أعضــاء الأسرة المالكة فى إدارة التـجارة والصناعة وتـنظيمهــما ولم يكن هذا التدخل فى صــالح السواد الأعظم من التجــار والصناع بطبيعـة الحال ومن ثم ارتفعت الأصوات فى البرلمان معترضة على هذا التدخل ، وبخاصة على نظام الاحتكار الذى كان من أهم ملامحـه ، إذ كان الملك يبيع حق احتكار صناعة من الصناعــات لفرد أو لشركـة مقـابل مقـدار معين مــن المال مما يتنافى مع انطلاقة الاقـتصاد الجديدة ويضـر بالصالح العام . وأخيـراً فقد كان البــرلمان يعارض السياسة الخـارجية لانجلترا لتضاربها وغموضهـا فقد حاولت الحكومة مـثـلا إيجاد عـروس للملك الـجديد (شـارل الأول) من أسـبـانيـا التى تدين بالكاثولـيكيـة وأدان الشـعب (الذى كـان قـد تحـول عن الكاثـوليكيـة) هذه المحاولات، ومن ثم نشأ صراع مرير فشلت على أثره المحاولات بل إنها أدت إلى قيـام الحرب بين انجلتـرا وأسبـانيا ، وتلا ذلك قـيام الحرب بين انـجلترا وفرنسا بذريعة زائفة هى الدفاع عن المـذهب البروتستانتى فى أوروبا وقد كانت الحرب باهظة التكاليف خاسرة من جميع الوجوه .

وقد وصــل هذا الاضطراب إلى ذروته فى عام ١٦٢٨ حـين عقـد الملك شارل الأول اجتماعــا للبرلمان للموافقة على تقديم الأرصـدة والمؤن الخاصة بالحرب فإذا بالبرلمان ينتهز الفرصة لإثارة الاعتراض على حكمه وبالفعل أصدر «تظلما قانونيا» قدمه إلى الملك يعتـرض فيه على فرض الضرائب دون موافقة من البرلمــان ، والقبض على الأفـراد وسجنهم دون اتهــام ودون محاكــمة بل دون اللجــوء إلى أى قناة من قنوات العدالة المـعروفـة وعلى تقديم الـقروض

قسرًا إلى الملك ، وتجنيـد أعداد كبيرة من أبناء الشعب للاشـتراك فى الحرب وجاء فى نهايته :

**ومن ثم فهم يتوسلون إلى جلالتكم الكف عن إرغام أى رجل على تقديم العطايا أو القروض أو الهـبات الخيرية أو الضرائب أو ما شـابهها دون موافقة الغالبية ، أى دون قرار برلمانى ، وألا يساءل أحد أو يستدعى للشهادة أو يحتجز أو يحبس أو يضطهد أو ينكل به بسبب إدلائه بشهادته أو امتنـاعه عن الإدلاء بها، وألا يـسجن أو يعـتقل أى رجل حر بـالصورة التى وصـفناها آنفًا وأن تتكرم جلالتـكم بتسـريح الجنود والبحـارة الذين أشرنا إليهم وألا يتحمل شعبكم مثل هذه الأثقال فى المستقبل .**

وكان هذا التظلم بمـثابة إعلان للحرب بين البرلمـان والملك ومن ثم قام شارل الأول بحل البرلمان واستمر فى الحكم دون برلمان أحد عشر عامًا حتى اضطر تحت ضغط الحاجة المادية إلى دعوة البرلمان للانعقاد ثانية عام ١٦٣٩

ويعتـقد الكثيـرون أن القضيـة الأساسيـة التى شغلت الرأى العـام وجرت وراءها الفتنة الكبرى ومن ورائها الحرب الأهلية لم تكن قضية سياسية بقدر ما كانت قضيـة دينية . إذ إن حركة الإصلاح الدينى لم تكن قد اكـتملت وكانت **الكنيسـة الإنجليزية** حـلا وسطا لا يمكنه أن يرضى الجـمـيع إذ أن «صـيغـة» الكنيسة الإنجليزية كانت تعتمـد على نظام الأساقفة بل إن الكنيسة الأنجليكانية كلها كانت تعتمد على سلطة الأساقفة غير المحدودة وكان وجه الاعتراض على هذا النظام هو أن الأساقفة لم يكونوا يمثلون سلطة دينية خالصة ولكنهم كانوا دعامة من دعامات الملكية أى أنهم كانوا دعامة من الدعامات التى ارتكز عليها الحكم الذى أثار سـخـط البـرلمـان ومن ورائه الشـعب . وعندمـا اعـتـرض المشـيخيون (الـبرسبتـريانز) على حكم الأساقفـة فى عصر جـيمس الأول رد عليهم بالمقولة الشهيرة «إذا ذهب الأساقفة ذهب الملك» .

ولكن الاعتراض على حكم الأساقفة كان يمثل جانبًا واحدًا من جوانب القضية إذ إن الإحساس الذى ساد تلك الفترة هو الخوف من البابوية وذلك لارتياب أهل انجلترا فى إخلاص أى مواطن يدين بالكاثوليكية باعتبارها مذهب الأجانب الذين يتربصون بالبلاد وباعتبارها - بطبيعة الحال - المذهب القديم الذى تحررت منه انجلترا حين انفصلت الكنيسة فيها عن كنيسة روما . وفى عام ١٦٠١ وضع توماس ولسون كتيبًا يشرح فيه الأسباب التى تحتم الولاء للكنيسة المعتمدة وقال فيه :

**إن أهم قضية هى أن نكسر شوكة الأعداء الذين يعيشون بين ظهرانينا فالأهالى ينقسمون إلى أربع فئات أولها البروتستانت الدينيون وثانيها البروستانت السياسيون وثالثها البابويون الدينيون ورابعها البابويون السياسيون . وأول هذه الفئات هم الذين يخلصون للدولة الإخلاص كله أما الفئات الثلاث الأخرى فهى خطرة.**

ويكفى أن نتذكر أن الملك شارل الأول - رغم اعتناقه الأنجليكانية وإصرّاره على الدفاع عنها - كان قد اقترن بزوجة كاثوليكية وكان أفراد الأسرة الحاكمة متهمين بعطفهم على البابويين مما جعل الشعب يخاف من عودة الكنيسة الأسبانية ومحاكم التفتيش وما صاحبها من أهوال .

وكان أفراد الشعب لا يستطيعون الإطمئنان إلى الأساقفة لهذا السبب نفسه أى لأنهم كانوا يوحون بإيمانهم بنظام الحياة البابوى فكان الكثيرون من القسس يهتمون بالمال وبالعيش فى بذخ وأبهة بل كان بعضهم يزاول الأعمال الدنيوية- كالعمل بالقانون أو التدريس - إلى جانب عملهم فى الكنيسة وكانوا من ثم يهملون رسالتهم الأولى وهى الوعظ والإرشاد وأهم منها ضرب المثل لغير المتفقهين فى الدين . وربما كان هذا هو ما أشعل الشرارة الأولى للبيوريتانية أو ما يترجم عادة بمذهب المتطهرين وإن كان أقرب إلى الحركة الدينية العامة

منه إلى المذهب المقنـن . ولما كانت الثورة الإنجليزية التى أتت بالجـمهورية ووهب الشاعـر ميلتون نفـسه لها قلبـا وقالبا ثورة بيـوريتانية فى المـقام الأول فلابد لنا أن نقف على أهم ملامحها.

البيـوريتانيـة فى جوهرها حـركة إصـلاح دينى يرجع منشؤها إلـى الدعوة الكالفينية ( نسبة إلى **كالفن** الذى عاش فى جنيـف فى القرن السادس عـشر ) وإن كانت قـد تطورت فى انجلتـرا فى القرن السابـع عشر من حـيث مظاهرها وأنمـاط السلوك التى اقـتضـتهـا . أمـا أساس الكالـفينيـة فـهو الرفض التـام للكاثوليكية بكل ما تشتمل عليه من مقومات طقسية وكنسية معقدة والدعوة إلى الإيمان بالتسيير : فكان **(كالفن)** يقول إن الله قد اصطفى عباده المخلصين قبل بداية الزمـان وهم يعـرفون بـهذا الاصطفـاء عن طريق التـهـجد وقـيـام الليل والإصغاء إلى صوت الهداية فى أعماقهم . فعلى من يريد أن يعرف إن كان من بين المصطفـين أن ينشد الهدايـة ويسعى لها سـعيها وينـهى النفس عن الهوى وأهم من هذا كله هو التوفر على كلمات الله فى الكـتاب المقدس . أما الذين اتبعـوا طريق الضلال فإن الله يعاقـبهم رغم علمه المـسبق بفسقـهم لأن علمه المسبق لا يـعنى رضاه عن فسوقهم . وهـكذا فقد رفض **(كالفن)** وساطة أى شىء أو أى إنسان بين الفرد وربه ودعا إلى إزالة الحـجب التى أقيمت على مر العصور عن طريق الكهنوت المعقـد . وقال إن على الفرد أن يكثر من الصلاة ومن تأمل كلمـات الله وآياته - وقد ورث البيـوريتانيون هـذه العقيـدة إذ كانوا يرون فى الكتاب المقدس آية ناطقة فإذا ما عكف عليه الإنسان وأحله من قلبه محل الروح من الجسد استطاع أن يسمع صوت الرب وهو يتحدث إليه .

وربما لم نجـد فى الأدب الإنجليزى ما يمـثل هذه الروح مثل الرواية التى كتبها (جون بنيان) فى ذلك الوقت بعنوان **رحلة الحاج** فهى تعبر ببساطة ويسر عن تغلغل الروح الكالفينية فى صميم الثقافة الشعبية بل والريفية فى انجلترا . وفى أحد مواقفها يعرض **المفسر** صورة لطفلين على **كريستيان** (أى المسيحى)

يظهر فيـها أحدهما وقـد علا محياه السخط والاستياء ويظهـر الآخر وهو ينعم بالرضى والسعادة . . .

**وهنا قال كـريستـيان للمـفسر : زد هذا الأمـر إيضاحًا لى . فـأجابه قـائلاً : هذان مثـلان . الأول يمثل أشـواق أهل هذه الدنيـا والثانى يمـثل صـبر أهل الآخـرة . فكمـا ترى تريد الأشـواق تحقـيق كل شىء دونمـا إبطاء، هذا العـام أى فى هذه الدنيـا . فـهكذا أهل الدنيـا، يريدون كل الخيـرات الآن ولا يستطيـعون الإنتظار حـتى العام القـادم أى حتى الدار الآخرة ليحصلوا على نصيبهم . وهم يعترفون بالمثل القائل «عصفور فى اليد خيرمن عشرة على الشجرة » أكثر من اعترافهم بكل الشواهد الإلهية على خـيرات العالم الآخـر ولكن ذلك الطفل كـما ترى قد أنفـق كل ما كسبه ولـم يعد لديه ما يكسوه إلا ذلك الثوب البالى . فهكذا أهل الأرض عندما ينتهى هذا الكون .**

**وعندئذ قـال كريسـتـيان : الآن أرى أن الصبـر هو أسمى حكمـة وذلك لأكثر من سبب : فصاحب الصبر ينتظر حتى ينال أفضل الخيرات كما أنه يحظى بالمجد فى نهاية المطاف بعد أن يزول كل شىء ولا يبقى لصاحبه إلا الثوب البالى .**

والاستـعارة التى تقوم عليـها الرواية قديمة قـدم الإنسان نفســه ونعنى بها تصوير الحياة على أنها رحلة عبر هذا العـالم ، رحلة قصيرة محدودة لا أهمية لها فى ذاتهـا ، ولكن البيوريتـانيين كانوا يبدون أشـد الاهتمام بوســائل تأمين المسافـر وتزويده بخير الزاد وهو التقوى . فكانوا يرون أن الأسـاقفة والملوك يحولون وجـهة نظر المســافر عن الصراط المـستقـيم . ويذكر المؤرخ الكبـير ر.هـ. طونى أن البيـوريتانيين كـانوا يفسرون الـروح الكالفينية تفـسيرا علمـيا وذلك بأن جعلوا حلبة الصراع ضـد الشر هى نفس الإنسان أى أن الفرد الذى

يشعر بمعنى « النهاية المحتومة » لابد أن يحول هذا الشعور إلى موقف إيجابى يتمثل فى ضبط النفس وقمع الشهوات والعمل الصالح . وهكذا أصبحت الإرادة البشرية عنصرًا أساسيًا من عناصر العقيدة البيوريتانية وكان لابد لها فى نظر البيوريتانيين من أن تتجلى فى الأفعال أى فى مظاهر السلوك التى تنم عن الإحساس الجارف بأن الإنسان يحيا دائمًا فى ترقب للدار الآخرة .

وقد استطاعت الكالفينية أن تتغلغل فى المجتمع الإنجليزى فى ذلك الوقت لأنها كانت تشبع حاجة إنسانية عميقة يحسها الجميع . كان ثمة علاقة لا شك فيها بين افتقار الإنسان إلى الأمن ونشدان العالم الآخر : إذ إنه عندما تضعضع النظام الإقطاعى وازدادت أهمية المدن تزلزل النظام الاجتماعى كله واهتزت ثقة الناس فى الأعراف الاجتماعية القديمة ، وكما يقول المؤرخ طونى فى كتابه **الدين ونشأة الرأسمالية** . كان الناس فى حاجة إلى اليقين فى تلك الفترة الهامة من فترات التحول والشك والبلبلة ومن ثم اتجهوا إلى التجربة الفردية المتمثلة فى علاقة الفرد بخالقه . ولهذا كانت البيوريتانية مذهب الفرد الذى لا يحتاج إلى وساطة أى إلى نظام دينى (كنسى) أو اجتماعى ليحدد معنى حياته ويبلور قيم تجربته الخاصة . فلقد كانت تعلى من شأن الإحساس الدينى الفردى ولا تتطلب من الأفراد إلا أن يلجأوا إلى الله مباشرة لينشدوا الهداية ويعرفوا أنهم من المصطفيين. ويقول طونى :

**إن الروح البيوريتانية قد اختارت منزلها فى تلك الطبقات الاجتماعية التى تجمع بين الاستقلال الاقتصادى والتعليم والإعتزاز المعقول بمكانتها. وقد ظهر هذا الإعتزاز فى إصرارها على انتهاج سبيل الحرية والاستقلال دون الخنوع والاستخذاء لأسياد من البشر . كما تجلى هذا الاعتزاز أيضًا فى احتقارها لكل من كان يفتقر إلى الشعور بالسيادة والاستقلال أى لكل من أبدى الخضوع لغيره سواء عن ضعف فى الشخصية أو نتيجة لضغوط اقتصادية لا قبل له بها .**

. وهكذا فقد ساهمت معارضة البيوريتانيين للكنيسة الرسمية فى تعزيز المشاعر الجديدة للطبقات المتوسطة وتدعيم رغبتها فى التخلص من القيود القديمة المفروضة على العمل ، ونشدانها إقامة نظام حكم ذاتى مستقل مأمون. وكان الإصرار على حق الكنيسة فى تنظيم نفسها بعيدًا عن تدخل الدولة يسير جنبًا إلى جنب مع الإصرار على تحقيق الحريات المدنية، أى أن البيوريتانية كانت تدعو إلى تحرير الدولة من سلطة الكنيسة بقدر ما كانت تدعو إلى تحرير الكنيسة من سلطة الدولة . وكان السبيل لتحقيق هذا الهدف «البيوريتانى » هو العمل أى الإيجابية الاجتماعية لا الانزواء والتقوقع يقول ميلتون فى كتابه الشهير **أريوباجيتيكا** الذى يدافع فيه عن حرية النشر والصحافة

**لا أستطيع الإطراء على فضيلة هاربة منعزلة لا يمارسها صاحبها ولا ينطق بها .. فضيلة لا تتقدم لملاقاة غريمها بل تنسحب من السباق ، وهو السباق الذى لا يفوز فيه بأكاليل الغار الخالدة إلا من ينصب ويعرق ويثير الغبار فى المضمار .**

وربما كانت هذه الفقرة التى كتبها ميلتون عام ١٦٤٤ إبان الحرب الأهلية الكبرى مقدمة صالحة لحياة هذا الثائر الذى أخرج أعظم قصيدة فى أدب بلاده.

## ٢

ولد ميلتون عام ١٦٠٨ فى لندن . وكان أبوه أول من تمرد فى الأسرة على الكاثوليكية - دين آبائه - وضحى فى ذلك بميراثه ، إذ حرمه منه أبوه (جد ميلتون الشاعر ) مما اضطره إلى العمل حتى يكسب الرزق ومن ثم عمل كاتبا عموميا فى لندن ينسخ المخطوطات والوثائق والمستندات وما إليها ولكنه سرعان ما عزف عن هذا العمل واحترف الموسيقى وتأليف الأغانى . وقد لاقت هذه الأغانى نجاحا جماهيريا لا بأس به . ولا شك أن الآلات الموسيقية

( وأهمها الأرغن ) التى كانت فى داره قد هيأت مناخا فنيا مواتيا لتفتح مواهب جون الصغـير فأولع بالموسيقى مـن صغره وانكب على الدرس والاطلاع منذ نعومة أظفاره وهو يقول عن تلك الفترة:

**نذرنى والدى للأدب منذ طفـولتى وقـد كانت لدى شـهـية بالغـة للمـعرفـة حـتى أننى منذ الثـانية عـشرة لم أكـن أترك القراءة أو أنام قـبل منتصف الليل . وكان هذا هو السبب فى فقدانى نعمة البصر . فلقد كنت أعانى دائمًا مـن ضعف البصـر وكان الصـداع يؤرقنى دائمًا دون أن يؤثر على حماسى للاطلاع والعلم أو يقعد بى عن مواصلة الدرس .**

(ف.ب. تليارد: الـمراسلات الخـاصة والتـمارين الدراسـية لميـلتون - كيمبريدج ١٩٣٢)

والثانية عشرة بالتحديد هى السن التى دخل فيها مدرسة (سانت بول) وبدأ مرحلة تعلم اللغـات الأوروبية حيث أتقن اليونانية واللاتيـنية أولاً ثم الإيطالية والفرنسية وقليلا من العبـرية . ولكن الإيطالية كانت أهم لغة لديه بل أهم لغة لدارسى الأدب لأنها لغة عصر النهضة . وفى عام ١٦٢٥ - عندما بلغ السادسة عشـرة - التحـق بكلية (كـرايست كولدج) فى كـيمـبريدج وانخـرط فى سلك الدارسين الذين كان نشاطهم العلمى ينحصر فى «الدفاع عن قضية ما» . فهكذا كان المنهج المـتبع فى الدراسة آنذاك أى أنه كان على الطالب أن يتـعلم كيف يتلاعب بالأفكار والحـجج حتى يدافع عن القضـية التى يكلفه أستـاذه بالدفاع عنها ، وأن ينتصـر لها ويهزم خصومـه مهما كانت آراؤه الشخـصية . ومن ثم أحس الشاعـر الشاب بعـقم هذا اللون من التعليـم وما ينطوى عليـه من نفاق وخاب أمله فى الدراسـة بها بل لقد اشتـبك أكثر من مـرة فى نزاع مع أساتذته حول هذا المنهج .

وكان أثناء دراسته غير مـحبوب لا من أساتذته ولا من الطلاب لأن نزعاته الثـورية كانت تعـكر صفـو الأروقة الـجامـعيـة وإن كـانت كتـاباته باللاتينيـة

والإنجليزية تحوز أكـبر الإعجاب وتتمتع بأعظم قـدر من الثناء . وعند تخرجه فى عام ١٦٢٨ - ١٦٢٩ كـتب أولى قصائده الشـهيرة وهى الاحتـفال **بصبيحة عيد الميلاد** وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين ثم حصل على درجة **الماجستير** عام ١٦٣٢ .

ومنذ هذه اللحظة بدأت مـرحلة الإعداد لكتابـة الشعر فـقد رفض أولاً أن ينخـرط فى سلك الكهنوت لأنه أحس - مـثل الكثـيرين من أبناء بلاده - بمـا ينطوى عليـه ذلك العمل من مسـئوليـات جسام قـد تتناقض مع حرية العـبادة والتأمل والعمل الجاد دونما قيود «وظيفية» وبخاصة أن النماذج التى كان يراها فى هذا المجـال لم تكن تتفق والصـورة المثاليـة التى كان يرسـمها فى خـياله للإحساس الدينى الذى كان ولا شك يسـتلهم عصر النهضة ويبتعـد عن طقسية حياة الكهنـوت . وهكذا قرر أن يتفرغ بعض الوقت للدراسـة فعاش مع والده فى قرية صغيرة بالريف هى (هورتون) فى مقاطعة (بكنجهامشاير) ووضع لنفسه خطة عمل ودرس تتـضمن تاريخ العالم منذ الـبداية اعتمـادًا على كل ما كتـبه الثقـات فى هذا الموضوع . وربما كـان خير ما يمـثل المنهج الذى كان يريده للدراسة هو تلك الفقرة التى كـتبها أثناء دراسته فى كيمبـريدج وطالب فيها بأن يكون إعداد الشاعر شاملا معارف العصر بحيث لايقتصر على المعرفة التقليدية بل يتبع سبل عصر النهضة والتطور العلمى الذى ساد القرن السابع عشر :

**أمـا كـان الأحرى بكـم أيها السـادة وأجـدر بكرامـتكم أن تدعـوا عيونكم تطوف بشـتى البقاع التى تصورها الخـريطة وأن تشهدوا الأرض التى وطأتها أقدام الأبطال القـدماء ، وأن تطوفوا بالأقاليم التى ذاع صيـتها فى الحروب والفتوح والغزوات وقصص مـشاهير الشعراء ، وأن تعبروا البحر الأدرياتى العاصف أو تتسنموا مرتفعات جبل (إتنا) التى نجت من حريق البركـان ثم تدرسوا عادات البشـر والدول التى تتبع نظما سيـاسية محكمة وأن تكتشفوا طبائع الكائنات الحيـة جميعا ، ثم تصبوا اهتمامكم**

**على أسرار الأحجار والأعشاب وخصائصها ولا تجفلوا من التحليق فى السماوات وتأمل الأشكال المنوعة للسحب وجبال الثلوج ومصادر أنداء الفجر . ثم انظروا فى خزائن البرد والصواعق ولا يفوتكم مقصد جوبيتر أو مقصد الطبيعة عندما ترون مُذَنَّبا ضخما رهيبا وهو يهدد بإشعال النيران فى السماء . ولا تغفلوا أصغر نجم فى السماء من بين الآلاف المبعثرة ما بين القطبين.**

أى إنه كان ينزع إلى «التكامل» فى اكتساب المعرفة وقد استطاع أن يحقق ذلك إلى حد كبير فبعد أن قضى ست سنوات فى تلك القرية الصغيرة كتب فيها قصيدتى **الليجرو والمفكر** ومسرحية **كوموس** وقصيدة رثاء لصديقه إدوراد كنج (هى **ليسيداس**) وافق والده على إرساله فى رحلة إلى إيطاليا مارًا بفرنسا . ويجمل بنا قبل الحديث عن هذه الرحلة أن نشير إلى بذور مذهبه الشعرى فى هذه الأعمال الأولى التى يخصص لها النقاد كتبا كاملة وتتلخص هذه «البذور» فى الصراع الذى كان قد بدأ يدب فى نفس الشاعر آنذاك بين ما اصطلح على تسميته بالدين والفلسفة وهو ما يمكن أن نسميه اليوم الصراع بين الإحساس الفطرى بالوجود (وما يتبعه من نزعات تأمل للجمال ونبض الحياة فى أوصال الكون) وبين الاتجاه العلمى الذى يعتمد على معطيات الحس وعلى (الرؤية المقيدة) أى الرؤية الفنية التى تعتمد على الاتجاه العقلانى بل وتتخذ العلمانية سبيلا لإدراك الوجود ومنزلة الإنسان فيه.

ويتجسد هذا الصراع فى المقابلة التقليدية بين روح قصيدة **الليجرو** وروح قصيدة **المفكر** فالأولى تمثل بصفة عامة الاحتفال بالحياة المشرقة الوضاءة وتعيد إلى الأذهان أفراح عصر النهضة وبالذات أفراح العصر الإليزابيثى وروح شيكسبير الذى يمثل الصحة النفسية والانطلاق للطبيعة ، وأما الثانية فتمثل الأحزان التى لابد للعقل أن يحيا بها ولها ما دام يواجه الليل الطويل بظلماته وتراث الفكر الإنسانى الذى يحير الألباب. وإذا كان (ليشمان) وهو

أحد كبـار نقاد ميلتون قـد ذهب فى كتابه عن هذه القصائـد (دار هتشنسون – ١٩٦٩) إلى أن التناقض ظـاهرى فـحـسب وأن القـصـيدتـين مـتكاملتـان فى الحقيقة، فإن جمهور النقـاد يرى فيهما هذا الصراع، ويميل إلى أن يعزو ذلك إلى التقـابل الناشئ بين نزعة عـصر العلم ونزعـة الشعر الفطرية الـتى تتخطى العلم .

ويتجلى هذا الصـراع فى صورة أخرى فى مسـرحية **كوموس** التى تعكس روح شعراء الـعصر الإليزابيـثى خيراً من القصـيدتين الأوليين (بل إن ليـشمان يذهب إلى أن هاتين القصيدتين تمثلان شعر القـرن السابع عشر خير تمثيل لما فيهما من جدليـة وجدل وصور محكمة تذكرنا بالشعراء الميتافـيزيقيين وخاصة جون دَنْ) فالمـسرحية تنتـمى لنوع المسرح الفكرى وإن كانت تتـوسل بالشعر الغنائى المرسل الـحافل والنابض بالحيـاة. ففى المشـهد الثالث نرى السـاحر الذى يحاول إغواء إحـدى الفاتنات يتحدث عن «الطبيعـة» وعن الحكمة البادية فى كل ما صنعته يد الطـبيعة ، محاولا إبراز مناحى الجمـال فى كل ما يحتويه الكون ، وداعيا العذراء إلى التخلى عن تعففـها وعزوفها عن المتعة ، ومن ثم فهو يهاجم أهل التقشف والصبر، ويرجع كل الشرور إلى أصل واحد ألا وهو تقطع الروابط بين الإنسان والطبيعة وهنا ترد عليه الحسناء قائلة :

**أيها الدعىّ ! لا تكل الاتهامات للطبيعة البريئة**

**فتقول إنها تريد لأبنائها التبذير**

**فى خيراتها ! إنها كريمة تنعم بخيراتها**

**على الأخيار فحسب ، أولئك الذين**

**يطيعون قوانينها العاقلة**

**وأمرها المقدس بالاعتدال والتدبير !**

**فإذا نال كل رجل منصف ممن أصابهم الفقر بالنحول**

**نصيبه المعقول من ذلك الترف الفاجر**

**الذى تنعم به اليوم قلة قليلة**

**أتخموا بالخيرات أيما تخمة**

**لأصبحت نعم الطبيعة موزعة توزيعًا عادلا**

**وبنسب صحيحة لا إفراط فيها**

**ولما بقى فى خزائنها ما يزيد عن الحاجة حقًا.**

ولا شك أن الإشارة إلى «سوء توزيع خيرات الطبيعة» فى حديث الفتاة الفاضلة هنا إشارة سياسية ، بمعنى أنها كانت بمثابة دعوة إلى «الجمهورية» وهجوم على النظام الملكى (ولكن المسرحية مرت بسلام ولم يصب ميلتون أى أذى نتيجة لهذه العبارات) ويهمنا بطبيعة الحال أن نرصد فى هذا العمل المبكر بذور الفكرة التى شغلت ميلتون طوال حياته ألا وهى فكرة الاعتدال ومن ورائها تصوره أنه يستطيع أن يدرك خيرًا من غيره المقصد السامى للطبيعة والمعانى العميقة التى يمكن للشاعر أن يستقيها من تأمل الوجود دون اللجوء إلى «وساطة» الكهنوت أى مباشرة وعن طريق العبادة الفردية.

فى عام ١٦٣٨ - كما قلنا - بدأ ميلتون رحلته إلى إيطاليا فحط الرحال أول الأمر فى باريس حتى يستطيع أن يلتقى بأحد كبار رجال القانون وهو (هوجو جرونتيوس) واستطاع أن يتناقش معه فى أصول تطوير القانون الدولى ولكن الجو العام فى فرنسا كان يبعث على الانقباض إذا كان (ريشيليو) فى ذروة سلطانه ، فترك باريس واتجه إلى إيطاليا فزار أهم مدن عصر النهضة وخاصة فلورنسا حيث قابل (جاليليو) الذى كان قد فقد بصره وتحددت إقامته، كما التقى برجال الجامعة وأهل الأدب والعلم ، ثم اتجه إلى نابولى واجتمع مع أشهر الكتاب والفنانين فى أوروبا فى ذلك الوقت . ثم ذهب إلى روما

وقضى بهـا أربعة أشـهر عاد بعـدها إلى فلورنسا ومن ثم زار البندقـية وفـيرونا وميلانو وهناك سمع بنشـوب الحرب بين انجلترا واسكتلنده لأن الملك شارل الأول حاول أن يفرض النظام الأسقـفى الأنجليكانى على كنيسة اسكتلنده التى كانت تتـبع المذهب المشيـخى . ولهذا قرر العودة فـورًا ليكون قريبًا من تلك الأحداث الجسام .

وعندما عاد ميلتون إلى لندن استأجر مـسكنا مستقلا وعمل بالتدريس. كان يريد أن يكون قـريبًا من البرلمـان وهو البرلمـان الذى اسـتدعـاه شارل الأول ليوافق على تمويل الحـرب ضد اسكتلنده بعد أن ظل يحكم البلاد أحـد عشر عامـا (كمـا ذكرنا آنفـا) دون برلمان . ولكن هذا البـرلمان - كمـا اتضح منذ اللحظة الأولى لم يكن ليرضى بتـمويل حرب الأساقفة دون إجـراء إصلاحات واسعـة النطاق فى مملكة انجلتـرا أولاً - وكانت نذر صراع جـديد بين الملك والبرلمـان تلوح فى الأفق ممـا اضطر الملك إلى حل البرلمـان بعد أسبـوعين فقط من الاجتـماعات ومحـاولة فرض نظام الأساقفـة بالقوة على اسكتلنده . ولكن هذه المـحاولات باءت بالفـشل الذريع ممـا جعل الملك فى مـوقف لا يحسـد عليه ولم يكـن ثم أمامه إلا أن يسـتدعى برلمـانًا آخر فى نوفـمبـر عام ١٦٤٠ وكان هذا هو «البرلمان الطويل» الذى شهد الحرب الأهلية.

وقد شغل ميلتون نفسه منذ البداية بهذه الأحداث ، وعندما لاحت الفرصة أمامه سخر مواهبه وقلمه للدفـاع عن القضية التى آمن بها . كان ما زال يعمل بالتـدريس فى لندن ولكنه كـان تدريسًا من نوع جديـد إذ كان يقـوم على فكرة ضرب المـثل ويتعدى التـلقين وتقديم المـعلومات إلى تشـجيع طُلاّبه على أن يعيشوا حياة تنشد القيم المثالية وتسعى لتحقيق هذه القيم عمليا. فكثيرًا ما كان يدعـو إلى المـذهـب الرواقى فى دروسـه وهو ضـبط النـفس والتـحـرر من الانفعـالات المتطرفـة وتحكيم العقل دون إفراط أو تـفريط واتخاذ الاعـتدال سبيلاً فى كل شىء . بل كان يريد لتلاميذه أن يكتسبوا المعارف الإنسانية العامة

(العلوم الإنسـانيـة) إلى جـانب بعض الخبـرات العـمليـة (الحـرف والمـهن والصناعـات) . ولكن هذا كله لم يكتب له أن يتـحقق لانشـغاله بالدفـاع عن القضية الكبرى وهى إقصاء الأساقفة عن الكنيسة الانجليزية .

وقد بدأت نذر الحرب فى آخر عام ١٦٤٠ عندما قـدم البيوريتانيون عريضة إلى البرلمان يطالبون فيها بهذا ( وكانت مـمهورة بخمسة عشر ألف توقيع) ورد عليهم أسقف كنيـسة (إكستر) واسـمه (جوزيف هول) بعريضة يدافع فـيها عن النظام الأسـقفى (يناير ١٦٤١) ثم رد عليـه خمـسة من المـشيـخيـين (مارس ١٦٤١) فـرد عليهم (هول) ثانيا وأخيرًا عرض الأمر على مجلس العموم فوافق على إقصاء الأساقفة عن كنـيسة انجلترا ولكن مجلس اللوردات لم يوافق ومن ثم اشتد الجـدل وحمى وطيس المعركة وكانت تكاليف الطبـاعة زهيدة والورق متاحا فبدأت حرب المنشورات والكتـيبات وصدرت المئات منها من كل حدب وصوب وماجاء يونيو ١٦٤١ حتى اشترك ميلتون فى المعركة فأصدر أول كتيب له بعنوان «سبب حكم الكنيسة» يدافع فيه عن وجهة نظره قائلاً :

**إذا شئنا لـلدين أن يتحلى بالنقـاء والروحانيـة والبساطـة والتواضع مثل الكتاب المقدس فـينبغى أن يتحلى القساوسة بهذه الصفـات جميعا وهكذا إذا قـام نـظام القـسـاوسـة عـلى الدرجـات الدنيـويـة من سلطان وتشريف وأحكام دنيوية نراها بعـيوننا فسوف يحيل الطاقـة الباطنة والنقاء اللذين نجدهـما فى الكتاب المـقدس إلى المادية الظاهـرة للقانون ومن ثم فسوف تتبخر العبادة الباطنة وتخرج فى صور مادية فارغة ومظاهر من البهرج والترف .**

ونلمح هنا أهم ما كان يشغل بال ميلتون ألا وهى كلمة «باطنة» إذ إنه كان يرى فيها جـوهر العقيدة البيوريتـانية لأن فيها جوهر الحريـة فهو يعود إلى هذه الفكرة نفسها فى كتاب آخر بعنوان **عن العقيدة المسيحية** يقول فيه :

**يتضـمن الكتاب المـقدس نوعـين من النصوص أولهـا هو النص المكتوب أى الكلمة التى نقرؤها وهذا هو النص الظاهر أما النص الآخر فهو باطن أى أنه روح القدس التى خطت فى قلوب المؤمنين .**

وكان لهـذه العبارات مـعنى سياسى بطبـيعة الحـال إذ إن معاداة الأساقـفة معناها معاداة الملك لنفس الأسباب تقـريبًا . وقد جاء فى الكتاب المقدس ذكر الملوك الفاسدين (انظر سفر الملوك وسفر أخبار الأيام مثلا) وكما يتضح من الاصحاح الثـامن من سفر صمـوئيل الأول فإن رغـبة بنى إسرائـيل فى اتخاذ ملك لهم لم تلق الرضى بل هى مـدانة ومذمـومة وقـد عاد ميلتـون إلى نفس الفكرة فى الفردوس المفقود - فى الكتاب الأخير - حيث يقول ما موجزه :

**عندما اقترف الإنسان الخطيئة الأولى ، أضاع حريته الحقيقية وهى صنو العقل الصـائب وتوأمه، ولا وجود لـها دونه فإذا اكتـنفت الظلمات عـقل الإنسـان ، أو إذا عـصى الإنسـان عـقله فـسوف تنشب الرغـبـات الجامحة والانفـعالات الجائحة لتستحوذ عـلى الحكم وتبعده عن العقل ومن ثم تخضu الإنسان للرق وتـستعـبده بعد أن كـان حرا ولهـذا فإذا سمح الإنسـان للقوى الحطيطه فى باطنه أن تتحكم وتتـسلط على العقل الحر فـإن الله بحكمه العادل يخـضعه فى حـياته الظاهرة لتسلط الأسـياد العتاة الذين غـالبا ما يستـعبدونه دون وجه حق ويحرمـونه من الحرية فى حيـاته الظاهرة وهكذا ينشأ الطغـيان حـتمًا ولو كان من المـحال التـماس العذر للطاغية.**

**(١٢/ ٨٣-٩٦)**

وميلتون يقصـد «الضمير» حينما يتكلم عن العقل الصائب كـما أنه يقصد بالطاغـية كل ملك يحكم دون الرجـوع إلى هذا الضميـر . وفى الوقت الذى انشغل فيـه بكتابة النشرات والكتيـبات كان الملك شارل الأول يمـثل «الأسياد العتاة» الذين يتحتم وجـودهم فى الأمم التى تنصرف عن نور الله ولكن - كما

يقـول - لا يمكن التمـاس العـذر للطاغيـة ، وهكذا سـاهم ميلتـون فى هذه المعـركة الفكرية التى تحولت بالفـعل إلى معارك حـربية طاحنة تشكلت فيـها جيوش للبرلمان وجيوش ملكية ، ودارت رحاها على مدى سنوات طويلة .

وفى هذه الأثناء فاجأ مـيلتون أبناء أخته الذين كانوا يقيـمون معه فى لندن بزواجه من فتـاة تدعى (مارى باول) والظاهر كما يقول المؤرخـون أنه كان قد قضى شهرًا لدى أسرتها إما ليسترد النقود التى كان قد أقرضها لوالد (مارى) أو ليتم مـراسم القران وذلك فى مـقاطعـة (أكسفـوردشيـر) . وكان ذلك زواجًا غريبًا إذ إن أسرة (مـارى) كانت تناصر الملكية ولم يكن ثم وفـاق بين ميلتون وزوجته فلم تدم حياتهما معا فى البداية إلا شهرًا. وبعد عدة أسابيع من انعدام التـفاهم وانصـرافه إلى كتـبه ولضـيقـها بهـذه الكتب وربما لضـيقـه بأفكارها المـحدودة أيضًا طلبت إلـيه أن تعـود إلى (فورست هـل) لزيارة أهلها فـوافق بشرط أن تعود بعد قليل ولكنها ذهبت ولم تعد . وظل يكتب متوسلا إليها أن ترجع ولكنهـا لم تلق إليه بالا وتجاهـلته تمامًا . وهنا كـتب كتـيبًا بعنوان **مبدأ الطلاق ونظامه** (١٦٤٣) يدافع فيه عن الطلاق . ويقـول (ادوارد فيليبس) ابن أخته إنه كان متـأثرًا فيه بأزمته الشخصية ولكن النـص نفسه يوحى بأن الشاعر كان يحس أنه قد أخطأ فحسب ومن ثم أراد تصحيح الخطأ. والطريف أنه كان يريد من البرلمان تعديل قانون الطلاق حتى يتحلل من زواجه بمارى فلما فشل فى ذلك قـرر تحدى القـانون واتخـاذ زوجة أخـرى له. ولمـا تناهى ذلك إلى أسماع مارى قررت أن تعود إلى زوجهـا وبالفعل فاجأته مارى أثناء زيارته لأحد الأصدقاء وتوسلت إليه أن يعيدها إلى منزل الزوجية. وبعد تردد وتفكير قبل أن تعود .

ولكن قـصة دفـاعه عن الطلاق لم يكتب لهـا أن تنتهى بعـودة الميـاه إلى مجـاريها إذ إن الكتيب الذى نفد عـن آخره كان غفـلا من الاسم ولذلك وبعد نفاد نسخه جـميعا أصدر ميلتون طبـعة ثانية مزيدة منقحة - كـما نقول اليوم - وعليهـا اسمه ولم تمض خـمسة شهـور حتى بدأت ردود الفعل لهـذا الكتاب

الثورى. فـقام أحد القـساوسة من المشـيخيـين بمطالبة البرلمـان بإحراق هذه الطبعة . ويبدو أن البـرلمان كان متعاطفًا مع ميلتـون لمناصرته إياه ضد الملك فلم يستجب لـلنداء ولكن هذه الحادثة جعلت شركـة المكتبات Company of Stationers (التى كانت تحتكر تراخيص النشر بصورة غـير رسمية وتقوم بعمل يوازى عمل الرقابة على المطبوعات فى عصـرنا هذا) تتنبه إلى حقيقة الموقف وهو أن عددًا كبيرًا من المطبوعات كان يرى النور ويوزع على نطاق واسع دون ترخيص . والحقيـقة أنه عندما قام البرلمان الطويل بإلغـاء البلاط الملكى عام ١٦٤١ ألغى معه « غرفـة النجوم » وهى الهيئة التى كانت تتولى رسـميا الرقابة على المطبوعات بدلاً من الشـركة . ولذلك فقد كانت ثم ثغـرة زمنية بين إلغاء الغرفـة وعودة الرقابة - رسـميا هذه المـرة - إلى الشركة ، وهى الثـغرة التى سمح فـيها بنشـر مؤلفات مـيلتون ومع ذلك ، وبالرغم من عـودة الرقابة إلى الشركة فـإن البرلمان سمح له بنشـر مؤلفاته أو قل تغاضى عنهـا للسبب الذى ذكرناه . ولكن ميلتون لم يكن قانعا بأن يسمح له وحده بالنشر وإنما كان ينشد الحرية للجـميع فأخـرج كتابه الشهـير **أريوباجتيكا** دفـاعـا عن هذه الحـرية ، والكتاب يتضمن هجـومًا على التعصب المشيخى وتأكيدًا لحـرية الاختيار لدى الإنسان (وهو مذهب يعـارض مذهب التسيـير لدى أتباع **كالفن** ) ويعتبر بحق نموذجا لآراء ميلتون الخاصة فى الإرادة البشرية الحرة وهى الآراء التى جسدها فيما بعد فى **الفردوس المفقود** .

يقول ميلتون فى إحدى الفقرات من هذا الكتاب :

> **ليست الكتب كائنات مـيتة تمامًا بل إن بها حيـاة كامنة شأن أرواح من كتبوها . إنهـا لتحفظ أنقى عصارة وفعاليـة للذهن الحى الذى أنتجها كـأنما هى قنيـنة محكمـة . وإنى لأعـرف مدى حـيويتـهـا وقدرتهـا على التكاثر فكـأنمـا هى أسنان ذلك التنين الـخرافـى ، التى يقـال إنهـا كـانت تُغرس فى الأرض فينبت فى أماكنها رجـال مسلحون . ومن ناحية أخرى**

**يجب أن نلتزم الحـذر لأن قتل الكتاب الجـيد يماثل قـتل الإنسان بل إن من يقتل إنسـانا لا يعدو قتل مـخلوق عاقل صوره البارئ فى صـورته أما من يهلك الكتاب فإنه يقتل العقل نفسه وصورة الله فى الصميم .**

ويقول فى فقرة أخرى :

**نعلم أن الخـير والـشر لا ينفـصلان فـى هذا العالم مـثلهـما مـثل الشجر الملتف الأغصان فى حقول هـذه الدنيا وإدراك الخير مشتبك مع إدراك الشر ومختلط به بل إنهما كثيراً ما يشتبكان ويشتبهان حتى ليصعب التفـريق بينهما . وما أشـبه ذلك بالعقاب الذى أنزل على (سـايكى) حين قدمت إليـها بذور منوعـة مختلطة وفـرض عليها أن تفـصل بين كل نوع منها . لقد تسبب مذاق تفاحة واحدة فى جلب المعرفة بالخير والشر إلى هذا العالم بـاعتبـارهما توأمين مـلتصقـين . وربما كـان هذا القدر الذى انساق إليه آدم بمعرفة الخير والشر هو أن يعرف الخير عن طريق الشر . ومن ثم فـإن حـال الإنسان اليـوم يطرح السـؤال التـالى : أنى لنا أن نتـأتى حكمة الاختيار، أو الفضيلة والصبر دون أن نعرف ما الشر ؟**

وفى فقرة أخرى يقول :

**ينعى الكثيرون على العناية الإلهيـة أن تركت آدم يقترف الإثم ! ما أحمق تـلك الألسنة ! إن الله حين وهبـه العقل وهبـه فى الحقـيقـة حرية الاختيار فما العقل إلا الاختيار.**

ثم يتناول مـوضوع الرقابة علـى المطبوعات مـباشـرة على ضوء مـا سبق فيقول:

**فلنفرض أننا استطعنا أن نناهض الرذيلة بـهذه الوسيلة (أى الرقابة على الكتب) : لنوازن إذن بين مـقدار ما نناهض من الرذيـلة وما نناهض**

**من الفضيلة إذ إنهما متوازيتان : فـإذا قضيت على الأولى قضيت عليهما معا . وهذا يبرر العناية الإلهية العليا للبـارئ فهو يأمرنا بالإعتدال والعدل والتعفف ومع ذلك يغدق علينا من النعم والرغائب ما يفوق كل وصف ، ويهبنا عقولا تصول وتجول فتتخطى كل حدود وكل إشباع .**

وباختصار فإن ميلتون يبرز فى هذا الكتـاب مساوئ الرقابة باعتبارها وصاية لا تليق من قبل سلطة تزعم لنفسـها المعرفة بالخير والشـر دون الناس أجمعين ويتكرر ذكر التشبيه بالمدرسة وبالعصا كـما يتردد ذكر الحاجة إلى ترك الحقيقة لتفصح عن نفـسها - وهل من المعقول أن تندحـر الحقيقة فى مـعركة حرة ؟ ومع ذلك فهو لا يطالب بالحرية المطلقة أى التى لا تعرف القانون أو النواميس الخلقية ولذلك فهو يقول إن القانون يجب أن يحرم الإلحاد والتشهير بالأبرياء واستخدام الألفاظ الفاحشة كـما ينبغى أن يحرم الدعوة إلى ما يدين به الأعداء أو ما يدعو إلى التعصب إذ إنه ثم ما يمكن تسميـته بحرية التعصب (ولهذا فهو يرفض الدعوة إلى الكاثوليكية) وفيـما عدا ذلك يطالب بالحرية الكاملة للكتب والمطبوعات على اختلاف ألوانها .

والحق أن ميلتون كان يشعر آنذاك بسعادة غـامرة مبعثها الأمل الذى أشرق فى نفســه منذ أن أعلنت الحرب بين الملك والبـرلمان - الأمل فى أن تنتـصر الجـمهـورية ويسود الخيـر والعدل وكل القـيم العليـا التى تدعو لهـا الأديان السماوية - وما أشبه إحساسه آنذاك بما أحسه ( وليم وردزورث ) عندما نشبت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ! لقد أحس بأن « فرنسا تقف على أعتاب العصـر الذهبى وأن الطبيعة البشرية تشهـد ميلادها الجديد ! » - ولكن مـيلتون كـان يحس الآن أن كلمة الله توشك أن تصـبح الكلمـة العليا وكلمـة الذين كفـروا السفلى ، وقـد أعرب عن هذا الأمل الغـامر فى كـتيب كـان قد أصدره عام ١٦٤١ بعنوان **الإصلاح الدينى ونظام الكنيـسة فى بريطانيا** - وكان هذا الإحساس هـو الذى أوحى إليه فى هذه الظروف بفكرة **الفردوس المفقود**

فكأنما كان الأمل فى استعادة الفردوس براقًا وضّاءً غامرًا وكان يحس أنه يعيش أحداث مسرحية كبرى لابد أن تنتهى نهاية سعيدة .

انظر ما قاله فى هذا الكتيب :

**وسط ترانيم القـديسين وتهليلهم وتكبـيرهم ، ربمـا سمعـنا صوتا يعرض أن ينشد أنغاما عليا ، وألحانا جديدة سامـية يحتفل فيها برحمتك التى وسـعت كل شىء وحكمتك وحكمك البـديع فى هذه الأرض على مر العصور ، فإذا بهذه الأمة العظيمة المحاربة التى تدربت وتعلمت فن إعلاء الحق والخـير بحمـية وإخلاص ومثـابرة ، وقد نزعت عن نفسـها مثالب الرذيلة القديمة .**

ولا شك أن تأخيـر كتابة **الفردوس المفقود** إلى ما بعد عـودة الملكية قد صبغ الملحـمة بصبغـة مأسوية وقـد كان ميلتون يريد لهـا أول الأمر أن تكون مسرحية من نوع التراجيديا ثم رأى من الأفضل كتابتها فى قالب ملحمى.

ولا يهـمنا الآن أن نرصد تفكيـر ميـلتون فى هذه السنوات العـاصفـة أى سنوات حكم (كرومويل) - منذ إعدام الملك شارل الأول فى ٣٠ يناير ١٦٤٩ وحتى عودة شارل الثانى ملكا فى ٢٩ مايو ١٦٦٠ - ويكفى أن نذكر أنه ارتبط بالنظام الجمهورى ارتباطا وثيقا إذ عينه مجلس الدولة (يقابل مجلس الثورة فى أيامنا هذه) فى منصب (أمين المجلس لـلغات الأجنبية) وكانت مهـامه تتضمن كتابة الرسائل باللاتينية إلى الدول الأوروبيـة ، وترجمة ما يتطلبه المجلس من نصوص إلى هذه اللـغة ومنها ، فكان أشـبه بالمدافـع الرسمى (إعلامـيا) عن النظام الجمهورى . وقـد ركز فيما كتبه فى هذه الفـترة على الحكمة البادية فى الإطاحـة برأس الملك وعلى مناحى العدالة والـحق فى السيـاسة التى يتـبعـها المجلس . وقد أجهـد نفسه فى هذا السبيل إجهادا كبيـرًا حتى جاء اليوم الذى

أحس فيه أنه يفقد بصـره بالتدريج وبالفعل لم ينقض عام ١٩٤٩ إلا وقد ذهب بصر إحدى العينين.

وفى عام ١٦٥١ فقـد ميلتون بصره تمـامًا ومع ذلك فقد كان مسـتمرًا فى كتابـة النشرات والكتيبـات دفاعا عن النظام الجمـهورى ودحضا لحـجج أنصار الملكية وهى الـحجج التى كانت تتناقلهـا أوروبا بإيعاز من شـارل الثانى الذى كان يعيش لاجـئا طول هذه الفترة فى فـرنسا . وبعد ذلك بعام توفـيت زوجته مارى تاركة له ثلاث بنات . وقد أثر عليه فقد البصر ورحيل زوجته فقل نشاطه السيـاسى خاصة أنه قـد أحس أنه قد أتم دفاعـه عن الجمهـورية وأنه قد أدى واجبه وقام به خير قيام - ويمكننا أن نقـول بصفة عامة إنه قد توقف عن كتابة النشـرات العنيفـة بعد عـام ١٦٥٥ . وفى عام ١٦٥٦ - بعـد أربع سنوات من وفاة زوجته - تزوج للمرة الثانية . وكانت خير القرين لهذا الرجل الحاد الطبع الذى يعانى الأمـرين من فقـدان البصر ومن تبـعات منصب لم يعـد قادرًا على النهوض به . ولكن الهناء لم يدم طويلا إذا توفيت فى عام ١٦٥٨ أثناء الولادة (وتوفى المولود أيضًا) وهو نفس العـام الذى مات فيه أوليفـر كرومويل . ولا يستطيع قلم تصوير مـدى معاناة هذا الشاعر الكفيف ذلـك العام ومدى إصراره على العمل لإنقاذ الجمهورية من الفـوضى التى انحدرت إليها بعد وفاة الزعيم المهـاب. والروايات التى وصلتنا عن حـياته فى تلك الفـترة مـتضـاربة ولكننا نسـتطـيع أن نحـدس أنه بدأ يحس أن الـنظام الملكى لابد عـائد وأن أعـداء الجمهوريـة لابد منتصرون ، ولهذا أصدر المزيد من الكتـيبات التى تدافع عن كرومويل وتقاوم حركة إعادة الملكية .

وعشية عـودة الملكية فى عام ١٦٦٠ أصدر ميلتون كـتيبا عنوانه «**الطريق الممـهد السهل لإنشـاء جمهـورية حرة**» - كـأنما يحـاول لآخر مـرة أن يقنع مواطنيه بالمنطق وبالعقل ألا يذعنوا للرجـعية القادمة . ولكنه نسى أو لعله لم يدرك فى غمرة حـماسه للنظام الجمـهورى ما تكبده الناس من عناء فـى سبيله

والويلات التى جرتها عليهم الحرب الأهلية الطاحنة بل ونزوعهم إلى الاستقرار ولو فى ظل حكومة ملكية ظالمة . ويكفى أن نورد صـورة عامة لحال انجلترا فى ظل حكومة كـرومويل وتسلط البيوريتـانية لنرى مدى ضيق النـاس بما كان ميلتون يدافع عنه .

كانت البيوريتانية قد بلغت ذروتها فى عام ١٦٥٠ - ونقصد بالذروة تحول المشاعر الدينية المستلهمـة من الكالفينية (انظر الجزء الأول من هذه المقدمة) إلى أنماط سلوكـية محددة . فـقد سادت البـيوريتانية الـطبقات المتـوسطة أما الطبقات الفقيرة فقد انحازت إلى المذاهب المعارضة (العماديون والكويكرز أو الكاثوليك) وأما الارستقراطية القديمة والأعيان (أى الملاك الذين لا ينحدرون من أسـر أرستـقراطيـة) فقـد تمسـكوا بالكنيسـة الانجليكانيـة التى رفضـتهـا الجمهورية. وبعد أن كان البيوريتانيون ينادون بالتـسامح أصبحوا يتعصبون أشد التعـصب لمذهبهم ولا يرتضون سـواه ويضطهدون كل من يخالفـهم . وكانوا يدعون الناس إلى إنعـام النظر فى الكتاب المقـدس وبخاصة فى العهـد القديم لأنه يمثل مجتمعـا يعيش فى ظل الله أى فى ظل الإحساس بالدار الآخرة ودنو يوم الحساب. وكـان مـا يشغل البيوريتانيين فى شـتى مناحـى السلوك هـو قهر الشـيطان الـذى لا ينى يطارد الإنسـان ويتـربص به حتى يجـره إلى نار جـهنم ولذلك كانوا يتجنبون كل ما ارتبط فى أذهـانهم بالفتنة أى الانغماس فى الملاذ الحسية التى يقدمها الشيطان ليضـل بها عن سبيل الله، فابتعدوا فى حياتهم عن الملابس الـمترفـة المعـقدة التـصميم أو ذات الزخـرف والبهـرجة، وحـبذوا الملابس البسيطة ذات الألوان القاتمة أو الرمـادية كما نهجوا فى حديثهم منهج التفكير والتعقل كأنما كـانت كل لفظة يلفظونها درة بها عصارة الحكمة ولذلك فتـصويرهم فى الأدب يوحى بالرزانة والرصـانة، وكانوا يدعون إلى البـعد عن الهزل والمرح وإلى التزام الوقـار والجد، ومن ثم فعلى المؤمن فى نظرهم أن يبتعد عن اللهو واللعب وأن ينحصر تفـكيره فى المصير الجاد الذى ينتظره بعد الموت .

ولما كانت المسارح قد أغلقت بسبب الحرب عام ١٦٤٢ لم يكن هناك فى ظل هذا الجو القاتم الكئيب ما يدعو لإعادة فتحها حتى بعد انتصار الجمهورية- فظلت مغلقة حتى عام ١٦٥٦ - وإلى جانب ذلك نزع البيوريتانيون إلى تحريم كل ما يتصل بالفن من لهو ولعب فخرجت كتاباتهم جادة صارمة ، وتغلغلت هذه الروح إلى نظرتهم للفن نفسه فأعادوا النظر فى معنى الجمال باعتباره فتنة تصرف الإنسان عن تأمل ما بعد الموت والدار الآخرة ولذلك لم يكونوا يحترمون جمال المرأة - فالمرأة فى نظرهم أم وزوجة صالحة فحسب ، أما المفاتن التى تحدث عنها الشعراء فهى المفاتن التى أخرجت آدم من الجنة ولذلك فلابد من مقاومتها حتى يستطيع الإنسان أن يعود إلى الجنة . وقس على هذا نظرتهم إلى الموسيقى والرسم والتمثيل فكلها فنون لهو وعبث . وباختصار فقد كان حكم البيوريتانيون حكم قتامة وجهامة لم يكن الجميع بقادرين على تحمله.

ويكفى لتصوير معاناة الطبقات الفقيرة أن نذكر السلطة التى خولها كروموبل للشرطة وهى سلطة التأكد من التزام الأهالى بالتعاليم الدينية (كالصوم مثلا) ولو اقتحموا البيوت لهذا الغرض ، ومنع أى نشاط تجارى أو صناعى أو غيره يوم الأحد ومنع السير «دونما هدف محدد» كأنما هو لون من ألوان اللهو، ولذلك لجأ الكثيرون إلى النفاق ونشأت عادات اجتماعية جديدة مثل ترديد الآيات من الكتاب المقدس فى كل مناسبة ، والتذكير بالبعث والحساب والعقاب، ومحاولة الانتصار فى أى مناقشة بالرجوع إلى الكتاب المقدس باعتباره الكتاب الذى يتضمن فصل الخطاب فى أى موضوع .

والغريب أن هذا كله كان يجرى باسم الحرية . ويكفى أن نذكر فقرة من الكتاب الثانى من «**الفردوس المفقود**» لتصوير نوع المناقشات التى كانت تجرى آنذاك على مستوى رجال الكنيسة الكبار :

**وجلس آخرون فى عزلة على تل بعيد**

**يتطارحون أفكارًا أسمى وآراء أعمق**

**عن العناية الإلهية والعلم الأزلى والإرادة والقدر**

**القدر الذى لا يحول والإرادة الحرة والعلم الأزلى المطلق**

**فلم يهتدوا إلى شىء بل ضربوا فى الشعاب فضلوا وما اهتدوا**

الأبيات ٥٥٧ - ٥٦١

ويقول أحد الشراح إن هذه الأبيات تنطبق على المناقشات التى كانت تدور فى مجمع (وستمنستر) للمشيخيين الذين كانوا يحاولون ضم كنيسة إنجلترا إلى المشيخية . ولكن الواضح أن هذه القضايا التى كانوا يناقشونها لم تكن لتفضى إلى شىء حقا ولذلك فإن ميلتون ينسبها هنا إلى الملائكة الفسقة .

وبعودة الملكية انطوت صفحة تاريخية نادرة من التاريخ الإنجليزى وأحس ميلتون بالمرارة ولكنه لم يستسلم أو يسلم بالهزيمة . بل إنه أصدر طبعة ثانية من كتابه الذى ذكرناه «**الطريق الممهد السهل لإنشاء جمهورية حرة**» . يحذر فيها البرلمان من أن الملك لن يفى بالوعود التى يقطعها على نفسه ، ويقول إنه وإن كان الشعب يريد للملك أن يعود فليس من حق الأغلبية أن تفرض على الأقلية المتنورة آراءها المضللة وقد استند فى هذا أيضًا إلى فكرة الحرية لأنه لا يمكن التضحية بحرية الأقلية إرضاء لرغبة الأكثرية . وقد كانت هذه الطبعة سببًا فى إثارة أنصار الملكية العائدة عليه، فأودع السجن وظل به ثلاثة أشهر حتى توسل بعض الوسطاء إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته وفقدانه البصر ويخرجه من السجن وفعلا خرج ميلتون من السجن فى آخر عام ١٦٦٠ (١٥ ديسمبر) وكأنما كان القدر يهيئ له هذه الفرصة حتى ينصرف إلى كتابة العمل العظيم الذى كان قد نذر حياته له فانقطع للكتابة . وبعد عامين تزوج

من اليزابيث منشل (١٦٦٣) وكـانت بارعة فى إدارة منزله وكانت بصفـة عامة خيرًا وبركة عليـه إذ تحملت كل شيء حتى ترضيه، كمـا تحملت بناته الثلاث طباعه الحـادة وطالما اشتكين من قسـوته وغلظته فى تلك الأيام ، ويكفى أن نذكر أنه كان يجبرهن على القراءة له بلغات لا يجدنها .

وفى عـام الطاعون (١٦٦٥) انتـقل ميلـتون إلى بيت أحـد أصدقـائه من الكويكرز وهو منزل صـغير فـى الريف الانجليزى حـيث عكف على ملحمـته فأكملها ونشرت فى عـام ١٦٦٧ . ومع بلوغه سن الستين ازداد نشاطه الأدبى فكتب **عودة الفردوس** و**شمشون الجبار** ونشرهما فى عام ١٦٧٠ ولم يعمر بعد ذلك طويلا إذ وافته المنية فى نوفمبر ١٦٧٤ وهو يناهز السادسة والستين .

## ٣

ربما بدا للقارئ أن هذه الأحداث الجسام التـى شهدتها بريطانيا فى القرن السابع عشر ، وبخاصة ذلك الانشغال الذى لم يسبق له مثيل بالدين ، لا يتفق مع ما يقال من أن ذلك العـصر هو عصر العلم والتنور. وربما تسائـل متسائل كيف يمكن أن يزدهر العلم الطبيـعى الذى يقوم على استقراء الحـواس ويعتمد على المادية الخالصة فى هذا الجو المشحون بذكر الحساب والثواب والعقاب؟ وسـوف نتبـين أنه لم يكن ثمـة تعـارض على الإطلاق إذا ذكـرنا أن المصـدر الأساسى لفلسفة العصر ( وإن لم يكن المصـدر الوحيد ) هو الفيلسوف الكبير (ديكارت) فإذا كانت بريطانيـا تفخر بأحد المفكرين الذين صـوروا روح العصر خير تصوير ألا وهو (توماس سـبرات) مؤلف كتاب **تاريخ الجمعـية الملكية** ، فإن جوهر نظرته مستمد من كـتابات (ديكارت) ويتلخص هذا الجوهر فيما يلى : يقول سبـرات إن هذه الجمعية العلميـة قد حذفت من برنامجها مـوضوعين أساسـيين هما الله والنفس لسـبب بسيط وهمـا أنهما بديهـيتان . فـإذا كان من البديهى أن الله والنفس موجودان فلماذا نشـغل أنفسنا بهما ؟ إن تأمل الإنسان

ذاته واستـبطانه كيانـه كفيل بهـدايته إلى هذه الحقـيقة الأوليـة التى لا يتطلب إدراكها الانكباب على الدرس أو تجـارب المعمل . أضف إلى ذلك أن أفضل وسيلة لمعرفة الخالق والاهتـداء إلى سبيله القويم هى تأمل ما خلق وتدبر آياته فى البر والبـحر . ومن ثم فـإن الفلسفة ( أى علم تأمل الكـون) تهدى للدين القويم بعد أن كان الشعراء القدماء يقومون بهذه المهمة فى الماضى.

وبداهة وجـود الله - كـمـا نعـرف - فكرة ديكارتيـة . وكـان معـاصـرو (ديكارت) يرون أن المزية الكبرى لمذهبه هى أنه ، على رفضه القاطع للتقاليد الاسكولائية ، يبقى على جوهر العقيدة الدينية ألا وهو الإيمان بالله . والواقع أن (ديكارت) قد أوضح أن الفكر الجديد يقيم أسسه على افتراض بداهة فكرة الألوهية ومن ثم فهو يدعمها تدعيما كـبيرا بل إنه اجتذب إلى مذهبه الفلاسفة الأفلاطونيـين الذين اقترن اسمـهم بجامعـة كيمبـريدج لأنهم كانوا يريدون أن يمزجوا بين الدين وبين أفضل المذاهب الفلسفية فى عصرهم.

ومن المنبع الديكـارتى نهل عدد من مـفكرى القـرن السـابع عشـر الذين احتفلوا بمشرق التنوير وأولهم (سبرات) كـما ذكرنا فكتابه المذكور يشترك مع كتاب «**عبث الدجماطيقية**» لمؤلفه (**جوزيف جلانفيل**) فى الاحتفال بانتصارات العلم الحديث وإرسـاء الحقيقة عـلى أسس ثابتة ، وإطرائه على أولئك الذين أزاحوا «قمـامة العصور الخـوالى» وحرروا أذهاننا من سحر الأشـباح الخاوية وفى العديد من فقـرات الكتاب يفصح (سبرات) عن مزاج عـصره بالدفاع عن دور النثر فى «عصر العلم والتنوير» ويطرح جانبـا وفى نبرات واثقة وعنف كبير خيالات الشـعراء «الخاوية» . وهو يبرر وجـود الشعر أول الأمر تبـريرًا منطقيًا يتفق مع روح عصره إذ يقول إن العلـم قد نشأ أول الأمر فى الشرق وفى بلاد اليونان القديمة ، وكان الحكماء والفـلاسفة آنئذ يريدون أن يوضحوا أفكارهم للقراء كـما كانوا يريدون أن يتقـبلها القراء فاسـتعانوا بالرمز أى أنهم «قـدموها ممـزوجة بالخـرافات وزخـرف الخيـال» ولذلك فقـد كان أوائل علمـائهم من

الشعـراء والفلاسفة فى نفس الوقت أو قل إن الشـعراء كانوا فلاسـفة يرتدون قناع الشعر. فكان (أورفيوس) و (لينوس) و (هوميروس) مثلا يستعينون بسحر النظم فى شعرهم وجمال الصور الخياليـة لتقديم الأفكار الفلسفية التى أتى بها (صولون) و (طاليس) و (فيثاغـورس) . وقد نجح هذا فى البداية لأن الخداع كان يرمى إلى الهـداية ولكنه أحدث تأثيرًا ضـارًا فى فلسفة اللاحقـين إذ جعل اليـونان مثـلا يتأملون الطـبيـعة لا فى نطاق المنـطق العلمى بل فى إطار هذه الخرافات الشعرية التى حلت محل الفلسفة .

وقد أكد هذا الهجوم على الشعر باعتباره منافيا للحقيقة والصدق ، ما كتبه هنرى رينولدز فى كـتابه **ألغاز الأساطير** من أن الخرافات جمـيعًا قصص رمزية عميقة فهى لا ترمز فقط للحقائق الخلقـية بل تتعدى ذلك إلى الفلسفة الطبيعية فالأساطير ألغاز ومهمتنا فى هذا العصر العلمى - كما يقول - هو أن نفسر هذه الألغاز تفـسيرًا صـائبًا يتفق مع روح العـصر، ولن يتأتـى ذلك إلا بالعودة إلى الطبيعة حتى ننظر إلى الحقائق وجهًا لوجه بدلا من الاستعانة بالرمز والخرافة- فمـا الرمز والخرافة إلا مـرآة داكنة تظهر الصور والأشبـاح ولا تبدى الحقيـقة والجوهر .

ويتفق فرانسيس بيكون فى مقدمته لكتاب **حكمة القدماء** مع (رينولدز) فى أن الشعر لم يعد صـالحا للاستعمال بالصورة التى وضعـها الأقدمون أى إنه لم يعد صالحا لتوصيل الأفكار العميقة وتجليات الحقيقة. صحيح أن منشد الشعر كان يشبـه من «يقرع الطبل ليوقظ الذهن والوعى والعقل أيام طفولة المـجتمع المتحضر ولكن الذهن قد استيقظ الآن ولم يعد بنا حاجة إلى الشعر » . وكان بيكون يؤكد أن الشعـر «تاريخ زائف» سواء كان قصصيًا أم درامـيًا أم رمزيًا أما ضروبه الأخرى من هجـاء ورثاء وإبجرام وشعر غنائى - فهى تنتمى جـميعًا فى رأيه إلى فنون القـول أو التعبـير . أى أنه كـان يفرق بين هذه الفنون الأخـيرة باعتبـارها مجالات للإبداع اللغوى وبيـن القصص الشعرية أو الدرامـا الشعرية

باعتبارها أمـثالا أو رموزًا ترمى إلى إيضاح الأفكار الغامضة لغيـر المتعلمين أو إلى تقديم الدروس الأخلاقـية ذات الفائدة المباشـرة . ولكن بيكون يقول فى كتابه الأشهر «تقدم المعرفة» (٢ - ٤) .

**ومع ذلك فإننى أميل إلى القـول بأن الخرافة فى كثيـر من الأحيان قد سبقت الدرس الأخلاقى أى إن القصة التـمثيلية قد أتت أولا ثم تلتها العظة المستقاة منها .**

وبإيجـاز يمكننا أن نقول إن روح العـصر التى اكـتست ثوبًا علمـيًا صارمًا كانت ضـد الشعر باعـتباره عـدوًا للحقيـقة والواقع ، أى إنه سـجل لأكاذيب وترهات عصر غير علمى . ويلخص الـبروفسور (بازيل ويلى) هذا الاتجاه فى كتابه خلفية القرن السابع عشر قائلاً :

**إن تطور الشعـر الإنجليزى منذ عـصر النهضـة قد صـاحبه جـهد دائب وإصرار عنـيد على التوصـل إلى صورة حقـيقـية للعـالم فى ضوء العلم الطبيعى . وقد شهد القـرن السابع عشر هذا الجهد الذى تجلى فى الفصل الحاسم الدقـيق بين الحقيقة والخـيال بغية تقديم صورة فلسـفية للعالم تختلف عن الصـور القديمة المتوارثة. ومن ثم فـقد أصبح وضع الشعـر غير آمن لأن الـفكر فى الشعرليس نقـيا أى أن الأفكار فى الشـعر ليست فقط ثمرة للنشاط العقـلى وإنما تخضع أيضًا للمشاعر والإرادة أو كمـا يقول فـرانسيس بيكون «إن الشـعر يخضع مظاهر الأشـياء لرغـبات الذهن» وهذا هو النقـيض لما نسـميـه العلم الطبيـعى . وهكذا فقـد بدا للعديد من الفـلاسفة أن الشعر هو عـدو الحقيقـة أو عدو الصدق . ولا شك أن مكانة الشـعر قد هـبطت وتضاءلت فى القـرن السابع عـشر لأن الثقة التى يكتب بها الشعر فى عصر ما تتوقف على درجة اليقين أو الشك إزاء القضايا المـطلقة ومن ثم فإن نغمة الشـعر وإيقاعه وصـوره تتفاوت**

**بحسب المـرحلة التى وصل إليهـا تطور موقف الإنسان من التـصديق أو التكذيب . ومعنى هذا أن الشاعر الذى يشعر أن تركـيباته الشعرية صادقة مثلما هى معبـرة يكتب فى الحقيقة شعرا يختلـف عن شعر الشاعر الذى يحس أن هذه التـركيبـات كاذبة أى إنهـا تسئ تقديم الواقع مـهمـا كانت درجة رمزيتها لهذا الواقع بل إن شعره يختلف أيضًا عن شعر من لم ينتبه يومـا إلى الفـاصل بين الحـقيـقـة والخيـال أو مـتى بدأ هذا الفـاصل فى التلاشى حـتى يلتقى الإثنان . وفى القرن السابع عـشر اشتد الاتجـاه نحو تخصيـص الفلسفة لمعـالجة الواقع أو الحقيـقة نثرًا وحصـر دور الشعر وقصـره على الإمتـاع وذلك بالتصوير الذى يسـر القلب والذهن دون أن يخدع القارئ فيتصور أن الخيال حقيقة.**

ومن ثم فيمكننا تحديد الملامح الأساسية للمناخ الفكرى فى عصر ميلتون على هذا النحو : كـان انشغال الناس بالعـالم الجديد الذى يتفتح أمـامهم عن طريق العلم الطبيعى (والاكتشافات الفلكية والجـغرافية إلخ ) مدعاة للانشغال بالواقع والإصرار علـى الوصول إلى «الحقـيقة» ولهـذا رفض كبـار المفكرين «خيالات الشعراء» وفى الوقت نفـسه ازداد انشغال الناس بالدين والدار الآخرة ولم يكونوا بقادرين على الشك فى أن الدين صادق والدار الآخرة حقيقة ومن هنا كان لابد من التوفيق بين العلم والإيمان . وإذن كان على الشعراء إذا كانوا يطمحون فى النجـاح إما أن يقبلوا مبدأ الصدق العلمى أى التـخلى عن المجاز (من استعارة ورمز وتشبيه وأسطورة إلخ ) والنـزوع إلى التعبير الحقيقى - ولم يكن هذا بيسير ، وإما أن يسخروا شعـرهم لتمجيد الدين ولم يكن هذا باليسير أيضًا ولعلنا نذكر البيتين الشهيرين للشاعر الميتافيزيقى جون دن :

**إن الفلسفة الجديدة تدعو إلى الشك فى كل شىء**

**وهكذا انطفأ عنصر النار من حياتنا تمامًا.**

أى إن قبول الفلسفة الجديدة بما تتطلبه من بحث عقلانى وخضوع لمنطق الحواس قد أطفأ فى الإنسان الجذوة التى ورثها عن أسلافه - جذوة العاطفة التى تمكن الإنسان أن يتناول أبعد الأشياء عن التصديق فيصدقها لأن مشاعره (أى عنصر النار فيه) ما زالت متوهجة. ويجمل بنا قبل أن نتعرض لمعنى «الملحمة» أن نلقى بمزيد من الضوء على موقف ديكارت . يقول (بازيل ويلى) فى نفس الكتاب:

من المحتمل أن تأثير ديكارت على الفكر فى عصره لم يكن فى صالح الدين ولا فى صالح الشعر على المدى الطويل . وربما كان رفض (هنرى مور) لمذهب (ديكارت) مدفوعا بإدراكه لهذه الحقيقة . ولا يدرك المرء لأول وهلة كيف يمكن لمذهب يقول بأن الله والنفس هما أول آيات اليقين أن يناصب الدين العداء أو أن يكون ضد الشعر ولكن الدهشة ستزول إذا تذكرنا أن مفهوم (ديكارت) لله وللأنا يعتمد على تجريدات ذهنية أى إن الله الذى يراه لا علاقة له بالتجربة الدينية الحقيقية وإن مفهومه للأنا لا يزيد عن كون الأنا الجانب المفكر فى الإنسان وإذن فإن اليقين من هذه الحقائق معناه فى نهاية المطاف اليقين من علم الرياضيات وحسب .

... ... ...

والواقع أنه مع بداية القرن الثامن عشر تحول الدين إلى مجرد إيمان مبهم بالله وتحول الشعر إلى مصدر للإمتاع أى إلى فن يقدم ألوان الزينة والبهرج التى تمتع الخيال بينما يدرك الذهن أنها لا علاقة لها بالواقع . فها هو درايدن يقول فى دراسته «دفاع عن الشعر البطولى والمجاز الشعرى» - «إن الصورة تسرنا وتمتعنا دون أن يخدعنا الخيال الذى تقوم عليه» أى إن الروح الديكارتية عملت على الفصل الحاسم

**بين مـجـال النثـر ومجـال الشـعـر ومن ثم سـاهمت فى الإسـراع بذلك الإنفـصام الشـعـورى الذى قـال (إليوت) إنه وقع بـعد عـهـد الشعـراء الميـتافـيزيقـيين . أى إنه كـان انفصـاما بين القـيم وبين الحقـائق أى بين إحـساسك باعـتبـارك إنسانا أو شـاعرا وبـين فكرك باعتـبارك رجل عـقل وحكم وتنور . وبعـد أن كان الإنسان ( مـثل الشاعـر جون دن أو الكاتب سيـر توماس براون) يفكر ويحس فى نفس الوقت نـثرًا أو شعـرًا أصبح عليه أن يفكر نثرًا ويحس نظما .**

... ... ...

**إن الإحـســاس بأنك إذا أدركت شـيـئًا بوضـوح وجـلاء فـإن هذا الشىء حـقـيقى مـعناه أن بناء الأشـيـاء يتفق مـع قوانين الذهـن البشـرى والنقيض هو أنك إذا لم تستطع أن تدرك شيئًا بوضوح وجلاء (أى إدراكا رياضـيا) فـلابد أن يكون هذا الشـىء غيـر حـقيـقى . وهكذا فـإن الفكر الديكارتى قـد دعم الإتجاه إلى قبـول الصورة العلمـية للعـالم باعتـبارها الصورة الحـقيـقيـة الوحيدة ... ولمـا كان الدين والشـعر (مـهمـا كانت مفهـوماتنا لهما) ينبعـان ويعتمدان على مناهج للمعـرفة تختلف عن هذا كله فإن الروح الديكارتية كانت ضدهما جميعا .**

ولنا أن نتساءل الآن : إذا كانت هذه القوى العلمية والفلسفية قد تضافرت للعمل مـعا للتوصل إلى «الحقـيقة» ولإثبـات أن الصور الشعرية التـقليدية بل (والصور الدينيـة أيضًا) عبارة عن خـيالات عفـى عليها الدهر وأوهام مـقضى عليهـا بالزوال ، فكيف تأتى للقرن السـابع عشـر أن يخرج **ملحمة الفردوس المفقود** - وهى القصـيدة التى وصفهـا درايدن نفسه بأنهـا «من أعظم وأشرف وأسمى القصـائد التى أبدعها هذا العصر أو أبدعتـها هذه الأمة ؟ » **(دفاع عن الشعر البطولى)** ينبغى أن نؤكـد أولا أن القرن السابع عشر لم يـكن يحترم إلا

نوعًا واحدًا من أنواع الشعر ألا وهو الشعر الملحمى أو ما كانوا يسمونه الشعر البطولى . ولم يكن يتمتع باحترام أكبر من **الإلياذة والأوديسة** (للشاعر هوميروس) **والإنيادة** (للشاعر فيرجيل) إلا الكتاب المقدس نفسه وقد كانت هذه فى الحقيقة تركة عصر النهضة إذ إن الرغبة فى محاكاة أشرف ما أبدعه الأقدمون قد امتزجت بالوطنية والمشاعر القومية آنذاك فحاول الشعراء فى كل بلد أوروبى أن يرفعوا من مستوى لغاتهم المحلية (وهى لغات جديدة نسبيًا) بأن يبدعوا بها أعمالا ترقى إلى مستوى **(الإلياذة والإنيادة)** . وخير شاهد على استمرار هذا الاحترام حتى نهاية القرن ما كتبه درايدن عام ١٦٩٧ فى إهدائه **للإنيادة** من أن الملحمة الشعرية هى «بلا جدال أعظم عمل تستطيع النفس البشرية أن تبدعه » ولهذا أسباب لا بأس من أن نعرض لها بإيجاز.

توج القدماء إنتاجهم الشعرى بالملاحم بل إن أرسطو نفسه قد بارك هذه الأعمال الأدبية . كما أن دانتى وأريوستو وتاسو قد أبدعوا ملاحم منوعة رفعت من قدر اللغة الإيطالية وسمت بها إلى مصاف اللغات القديمة. ولذلك كان الفرنسيون والإنجليز يشعرون أن لغاتهم التى بنيت على لهجات محلية لن ترتفع وتنأى عن أصولها غير المتحضرة إلا إذا أبدعت أعمالا مماثلة فى نطاقها وتركيبها وسمو موضوعها. أضف إلى هذا أن موضوع الملحمة كان عادة بعض الأحداث العظيمة فى التاريخ القومى لأمة من الأمم ويمكن عن طريق هذه الأحداث إذكاء الروح القومية والكرامة الوطنية والنزوع المشبوب لإنجاز ما يمكنها من أن تفاخر به سائر الأمم . وأهم من هذا كله - أى العامل الذى احتفظ للملحمة بمكانتها فى عصر التنوير العلمى - هو أنها ولو توسلت بالخيال، ولو اعتمدت على «التاريخ الزائف» ، فإن هدفها لا يقل أهمية عن هدف الحقيقة نفسها ألا وهو التربية الخلقية والنفسية . وقد اتفق جميع النقاد منذ عصر النهضة حول هذا العامل الفريد .

٤

ولكن ماذا يقصد بالـملحمة ؟ لقد سمعنا أخيـرًا فى بلادنا من يتحدث عن «ملحمة العـبور» بل ومن يكتب قصائد غنـائية (قصيرة أو طويلة) يطـلق عليها هذا الاسم. وهذا اسـتخـدام شائـع يتضـمن قسـمًا واحـدًا من المعـانى التى تتضمنها الكلمة فالكلمة - اشتـقاقًا - تعنى الالتحام أى تلاقى المقاتلين جسديًا أثناء الاشتباك فى حومة الوغى ومن ثم فهى تعنى الحرب. ولا شك أن الحرب كانت دائمًا مـوضوعًا ممـيزًا للملحمة . ولكن مـعنى الملحـمـة يتجاوز حدود الحرب- فكثيرًا ما يقصد بها الكتـاب أى عمل تتخطى أبعاده حدود الواقعية فى الحـياة أو فى الفن (فى السـينما والرواية مـثلا) وعـزرا باوند نفسـه (الشـاعر والناقد الأشهر) يضع يده على أحد المعالم الهامـة للملحمة دون سائر معالمها حين يقول إنهـا قصيدة تشتمل على تاريخ، وقـد حاول (ميرشانت) فى كـتيبه الصغير عن الملحمة أن يرسم لها صـفات خارجـية تعيننا على إدراكـها لأول وهلة حين يقول إن الملحمة تتميز بشقلها أى بطولها وضخامة هيكلها وأبعادها الكبيرة. ولا يعنى الطول بالضرورة كثرة الأبيات ولكن هيكل أحداثها ينبغى أن يكون شاسع الأبعاد إذ إنهـا لا تختص بلحظة واحدة أو لمحة من حـياة إنسان بل ولاتركز عـلى إنسان فرد مـهمـا كانت أبعاد حـياته هو نفـسه ولاتتـخذ من المشـاعر العـابرة موضـوعهـا الأساسى أو من «اللقطات» الـعادية فى الحـياة اليومية.

ولكن هذا كـمـا نرى تعريـف بالسلب أو بالنفى ، ولن نسـتطيع أن نجـد المدخل للملحمة حتى نضع يدنا على المادة الأسـاسية التى تتشكل منها وهى مادة مستقـاة من مصادر شعبية قديمة شـاعت على مدى قرون من الزمان حتى اتخذت الشكل المـقبول اجتمـاعيا وحتى تطورت اللغـة التى تكتب بها ولانت وتطوعت للصياغـة الفنية البديعة على أيدى المؤلف الفـرد. وربما استطعنا أن نرجع منشأها إلى حاجة الإنسان إلى رصد جذوره التاريخية وتأصيل وجوده فى مجتمع مرتبط بزمان محدد ومكان محدد أى حاجة الإنسان إلى تاريخ ثابت.

هذا هو الشق الأول للملحمة وهو الشق التاريخى بمـعنى أنها سجل لحياة القبيلة وعاداتها وتقاليدها الرئيسية . أما الشق الثانى فهو أنها قصة شعرية تهدف إلى الإمتاع الفنى . ولا ينفصل الشقان فى أى ملحـمة . وقد أشار (تاكيتوس) فى دراسته للشعـوب الجرمانية إلى أن القبائل التى كـانت تعيش فى عصره أى فى القرن الأول للميلاد كانت تحتـفل بالأجداد الذين أرسوا الأساس لوحدتها باعتبارها شـعبا متجانسـا ، وذلك بإنشاد الأغانى التقليدية أى الأغانى الشـعبية العريقة التى توارثها الأبناء عن الآباء فهى تمثل الذاكرة الجماعية لهذه القبائل أو تاريخـهـا الـقـومى . ولا شك أن أولى آثار الأدب الأوروبى هى مـلحـمـتـا هوميروس **الإلياذة والأوديسة** ويرجح النقـاد أنهمـا أول ما كـتب من أدب أى أولى الأعـمـــال التى انتـقلت مـن مـرحلة الأدب الشـفـــاهى ، أدب الرواة المتوارث، إلى الأدب المكتـوب (الذى يطلق عليه الدكتور عبد الحـميد يونس اسم «الأدب الرسمى» ) . وكذلك كـانت ملحمة **قلقامش** وأساطير المصريين والعرب والعـبرانيين فـى الشرق الأوسط. ولذلك فقـد انعكس هذا على البناء الفنى للملحمة فهو فضـفاض يسمح بالأحاديث المطولة والخطب التى تتراوح فى نبراتها وفى مستواها اللغوى بين العامية والفصحى.

ويفـرق البروفـسـور ك.س. لويس فى كتـابه **مقـدمة الفردوس المفـقود** (١٩٤٢) بين الملاحم التى استقت مادتها مباشرة من التراث الشفاهى واتسمت بالصفـات التى ذكرناها آنفا وبين الملاحم التى كـتبت محاكـاة لها أى فى إطار **العمل الأدبى** المكتوب مباشرة وليس بالرجوع إلى أية مصادر شعبية. فيقول :

**كـان النقاد القـدمـاء يقسـمون الـملحمـة إلى نوعـين : الملحمـة البدائية والملحمة المـصطنعة . وهو تقسيم لا يصلح إذ إننا لا نستطيع أن نصف بالبدائيـة حقا أى شـعر قديم وصلنا كـما أن الصنعـة لا يخلو منها الشعر أيا كـان . ولهذا فأنا أفضل أن يكون الـتقسيم هو الملحـمة الأولية**

**والملحمة الثانوية . وهاتان الصفتان تشيران إلى الزمن فحسب ولا تتضمنان أى حكم على قيمة العمل .**

**فكلمة «ثانوية» هنا لا تعنى من الدرجة الثانية ؛ ولكن تعنى أنها جاءت بعد الأولى ونبعت من الملحمة «الأولية» ص ١٢ .**

ويمكننا أن ندرج فى القسم الأول ملحمتى **الإلياذة والأوديسا** لهوميروس ، والملحمة الانجليزية القديمة **البوولف** وربما أدرجنا أيضًا **أنشودة رولان** وفى القسم الثانى يمكننا إدراج ملحمة **الإنيادة** لفيرجيل **والفارساليا** للوكان **وتحرير بيت المقدس** لتاسو ، **والفردس المفقود** لميلتون.

أما الخصائص العامة للملحمة فى الأدب الأوروبى فهى أنها قصيدة شعرية طويلة مكتوبة بالبحر سداسى التفعيلة (أى الذى يشتمل البيت فيه على ست تفعيلات) أو ما يماثله، وهى تدور إما حول بطل (مثلا أخيلاس أو بوولف) أو حول حضارة مثل الحضارة الرومانية أو الحضارة المسيحية . وأما الخصائص الفنية الدقيقة فيوجزها البروفسور ف . ل. لوكاس قائلاً إنها:

**وحدة الحدث ، والسرعة ، وفن البداية فى منتصف الأحداث واستخدام الخرافة والنبوءة والعالم السفلى ، والتشبيه الزخرفى والصفات المتكررة وأهم من هذا كله نبرة السمو والصدق التى لا يمكن مجاراتها أو إيجاد مثيل لها إلا فى بعض نماذج الأدب الشعبى الذى توارثناه عن أمم شمال أوروبا.**

**( دائرة معارف تشيمبرز )**

وهذا يصدق بطبيعة الحال على شتى الملاحم «الثانوية» بل إننا نجد أعمالا شعرية طويلة يمكن وصفها فى ظل هذا التعريف بالملحمة مثل **الكوميديا الإلهية** لدانتى رغم اختلافها البين عن النماذج التى أوردناها فالملاحم الأولية - مثل **الإلياذة والبوولف وأنشودة رولان** - نماذج صادقة

للشعر البطولى الذى يتناول الحرب فموضوع **الإلياذة** هو غضبة رجل واحد هو أخيـلاس وخلفيـتها سـقوط طروادة وسـياقهـا الحقـيقى هو الحـرب وكذلك البوولف فموضوعها هو حكم رجل واحـد هو الملك الرشيد بوولف وخلفيتها انهيار حضارة ما وسـياقها بطولى. وكذلك **أنشودة رولان** فإن بطولته كما نرى تقابل حروب الفرنجة والأتراك وسـياقها أيضًا هو الحرب والبطولة ولا شك أن الأوديسه تنتمى فى جوهرها إلى هذا اللون فهى ملحمـة مخاطرات وشخوصها الرئيسية (أوديسـيوس وبنيلوبى وتلماخوس) يشغلون مواقـعهم الكلاسيكية أى التقليدية المتوارثة فى مثل هذه القصص . إن البطل يصول ويجول وينتقل بين البلدان والأماكن ثم يعود إلى وطنه وراغبو الزواج يحيطون بزوجته كل يريدها لنفسه وابنه دائم البـحث عن أبيه. وتتطور هذه المواقف بطبيعـة الحال فالبطل الجوال يقابل ساحرة وعملاقا ويفـقد أصحابه ويزور العالم السفلى ويعثر على أرض الجن فى (فيـاكيا) بينمـا تنسج زوجته نسـيجًا وتفكه لتـخدع الخطاب ثم يلتقى الإبن وأبوه فى المعركة الأخيرة ، للقتال جنبا إلى جنب .

أما **الكوميديا الإلهية** فتختلف عن هذا كله لأنها مكتوبة بضمير المتكلم بل إنها أول ملحمة فى التاريخ تكتب بضمير المتكلم وهى ملحمة دينية ورمزية فى الوقت نفسه ولا يخفى على القارئ الإشارات المستترة التى تحفل بها الملحمة والتى يمكن تصنيف بعضها على أنها استعارات ورمـوز تمثيلية . وأهم ما فيها حقًا هو وجود الفرد التاريخى أى الإنسان الفرد الذى يتمتع بوجود مستقل عن الجماعة أو القبيلة . يقول (أورباخ) فى كتابه **دانتى شاعر هذه الدنيا** :

> **ولد مع دانتى الفـرد التـاريخـى مرة ثـانيـة وهو يتـسم هنا بوحـدة واضحة بيـنة فى الجسد والروح . لقد كـان هذا الفرد قديما وحـديثا معًا إذا خرج من طى النسيان بقوة طاغية وفى نطاق بالغ الإتساع .**

ومن ثم فـإن من حاولوا كـتـابة القصـيـدة الطويلة الذاتيـة أو «الملحمـة الشخـصية» فى العـصر الحديث ابتـداء،بوردزورث وانتهاء بعـزرا باوند مدينون

لدانتى بتـصوير هذه الـذات المفـردة فى صراعـهـا مع أفكار الوجود والبـعث والعدم.

وإلى جانب **الكوميديا الإلهية** وُجدت كما ذكـرنا ألوان أخرى من الملاحم «الثانوية» مثل **الفارساليا** للوكان التى تعالج موضوعـا بطوليا من التاريخ القديم وكان من المعتزم أن تشتمل على اثنى عـشر كتابا ، وهى تتضمن نشدان العون من الآلهة وتغص بالتشبيهات والاستطرادات إلخ ، ومثل **مسخ الكائنات** لأوفيد التى تتمـتع بجميع سـمات الأسلوب الملحمى (فـهى مكتوبة بالبحـر سداسى التفعيلة، وهى تستلهم الآلهة وتشتمل على تشبـيهات كثيرة وتتراوح نبراتها بين الإنطلاق وبين الرفعـة والسمو كما أنهـا حافلة بالاستطراد ومثل قـصيدة **ملكة الجان** التى كتبها سبنسر قبل ميلتون بقلـيل فجمع فيها بين الملحمة والرومانسة واعتمـد على قوة الرمز التمـثيلى . ولكن كل هذه الأنواع تشترك فى صـفتين يجمل بنا أن نركز عليـهما وهما **أولاً** البداية فى منتصف الأحداث In Medias Res كما يقـول هوراس وهى الصفة التى اتسـمت بها المأساة اليـونانية (ولعلنا نذكر مـا يقوله أيسـخولوس الكاتـب المسرحى الـيونانى القـديم من أنه يعتـبر مسرحياته «شرائح مقتبسة من المائدة العظيمة التى قدمها هوميروس») **وثانيًا** أن الصـورة الفنية الأسـاسيـة فى الملحمـة هى التشـبيـه الذى يتمـيز بالـوضوح والتفـاصيل الحـية ويكفى مثل واحـد من أسلوب هوميـروس فى (الأوديسه) لتصوير ذلك. إنه يصف ما يحدث لبطله أوديسيوس فى البحر فيقول :

**ثم لمح اليابسة من بعيد**

**فرمى ببصره محدقًا وقد رفعته موجة عظيمة**

**أرأيت إلى الأبناء كيف يرون فى حياة أبيهم خيراً وبركة**

**وهو يرقد فى قبضة المرض العاصرة**

**وقد أخذ يذبل ويذوى بينما تداهمه روح شريرة**

**وإلى الآلهة وقد أنعمت على الرجل فخلصته من آلامه ؟**

**فهكذا كانت اليابسة بأشجارها خيرا وبركة على أوديسيوس**

**فأخذ يسبح جاهدا حتى يضع أقدامه على الشاطئ .**

**(٥/ ٣٩٢ - ٣٩٩)**

لا شك أن الصفات التى أوردناها للملحمة - الخاص منها والعام - تنطبق على ملحمة **الفردوس المفقود** . ولكن ميلتون يختلف عن كل من سبقه فى اختياره موضوعا دينيا بل إن موضوعه - كما قال أحد النقاد - هو الدين. ولكنه لم يتوصل إلى هذا الاختيار إلا بعد تردد طويل فنحن نعلم أنه قد نذر نفسه لكتابة الشعر فى سن مبكرة (مثل وردزورث وكيتس) وربما كان ذلك عندما بلغ الحادية والعشرين.

ولا شك أنه كان يطمح منذ البداية فى كتابة أعظم الأنواع الشعرية احترامًا وتقديرًا آنذاك وهو الملحمة - وبخاصة الملحمة التى تعالج موضوعا وطنيا ودينيا. كان النموذج الذى أراد أن يحتذيه هو ملحمة **الإنيادة** للشاعر الرومانى فيرجيل فهى الملحمة التى يتغنى فيها ذلك الشاعر بأمجاد وطنه روما . وقد أراد ميلتون أن يتغنى هو الآخر بوطنه انجلترا ، مثلما فعل سبنسر من قبله فى **ملكة الجان** ، بأن يعالج أهم الأحداث فى تاريخها ألا وهو خروجها ظافرة من الحرب الأهلية (بفضل جهود أسرة تيودور) وتأكيد استقلالها الدينى والقومى (الذى حازته بفضل الإصلاح الدينى) والدفاع عن هذا كله ممثلاً فى هزيمة الأسطول الأسبانى (الأرمادا).

ولكن ميلتون لم يكن يريد أن يجعل أحداثه تقع فى إطار من التاريخ القريب أو المعاصر (محاكيا بذلك فيرجيل الذى استلهم أقدم الأساطير

الرومانيـة وأكثرها عراقـة ) وهكذا فقد خطر لمـيلتون أن يحكى أحداث قـصة الملك آرثر القديم الذى تربطـه الأساطير بأسرة (تيـودور). وقد كتب قصـيدة باللاتينيـة وهو فى نابولى ( وكان فى الثـلاثين من عمـره ) يتحـدث فيـها عن اعتزامـه كتابة ملحمة يكون أبطالهـا هم الملك آرثر وفرسان المائدة المـستديرة وتدور أحداثها حول انتصارهم وهزيمة الساكسونيين ، بحيث يرمز آرثر هنا إلى الملك المسيـحى وأسرة (تيودور) وبحيث يرمـز الساكسونيون المـشركون إلى أعداء انـجلترا وأوروبا من الأتراك والكاثوليك. أمـا الإشارات الـمباشـرة إلى أحداث التاريخ المعاصر فقد اعتزم تقـديمها فى صورة نبوءات قدرية مثلما فعل (فيرجيل) و (سبنسر) فى ملحمتيهما .

وكمـا سبق أن ذكرنا فإن اندلاع الحـرب الأهلية فى ١٦٣٩ جعل مـيلتون يعود من انجلترا كمـا جعله يرجئ مشروع كتابة الملحمة . ويـقول البروفسور (تليارد) :

**فى السنوات الأولى للحـرب الأهليـة ... خطرت لمـيلتـون فكرة كتـابة قصيدة عن سـقوط الإنسان . ويوجـد فى مكتبة كليـة (ترينيتى) فى (كيـمبـردج) مخطوط يتـضمن مـعظم قصـائد ميلتـون القصيـرة وبعض الملاحظات الخاصـة بما يعتزم كتـابته فى المستقـبل وتشمل هذه خططًا لكتـابة مسـرحيـة أو عدة مـسرحيـات وأبرز الموضـوعات المطروحـة موضـوع الفـردوس المفـقود . ولا دليل لدينا على أن مـيلتون كـان يريد إحلال مسرحية سقوط الإنسان مـحل الملحمة التى كان يريد كتابتها عن آرثر . بل على العكس من ذلك : فهـو يقول لنا فى إحدى الفـقرات التى يتحـدث فيهـا عن نفسـه فى كتابه السـبب فى حكم الكنيسـة ، وهو أحد الكتـيبات التى هـاجم فيهـا الأساقـفة ، إنه كـان يفكر فى نفس الوقت فى كتابة الملحمة والمأساة والأنشودة الكلاسـيكية باعتبارها الصور الشعرية الرفيعة للموضوعات الشعرية الوطنية السامية.**

وليس لدينا أى دليل تاريخــى على أسبــاب تحوله عــما اعــتزمــه ، ولكننا نستطيع أن نحدس بقدر ما من اليقين أن آمــاله كانت تتوقف إلى حد كبير على مجريات الأمور ووقــائع الحرب الأهلية . فحينما كــان ميلتون واثقًا من صلابة مواطنيه وزعماء الفريق الذى كــان يناصره فى الحرب الأهلية ، كان قادرًا على التفكير فى كتابة قصيدة ذات أحداث بطولية ولها بطل قومى مثل الملك (آرثر) أو (ألفريد الأكبر) . ولكنه حين رأى أن المشيخيين المنتصرين لم يكونوا أقل تعصبًا وطغيــانا من أنصار الأساقفة ، وحين رأى أن مواطنيــه يتخلون بالتدريج عن معــاداتهم لأسرة ستــيوارت الملكيــة ، بدأ فى التخلى عن فكرة الملحــمة الوطنية وفكر فى أن يجد مــوضوعا من العصور الوسطى يسبق نشــأة القوميات الأوروبيــة ألا وهو موضــوع الإنسان - كــل إنسان أو أى إنســان - أى الجنس البــشــرى الذى تتنازعــه قــوى الخيــر والشــر . وهذه فى الــواقع هى الفكرة الأساسية فى **الفردوس المفقود**.

ونستطيع أن نقول بثقة إن ميلتون قد عدل من تصوره للموضوع الذى كان يراه مناسبًا للملحمة ، وإن الموضوع الذى كان قد اختاره للمأساة أصبح اليوم موضوع الملحمة - وذلك فيما بين عامى ١٦٤٢ و ١٦٥٥ . ولكن ما هو حقًا موضوع **الفردوس المفقود** ؟

قلنا إن ميلتون جــعل الإنسان بطلا لملحمته - آدم وحواء يتنازعــهما الشر والخير . ولكن مــيلتون جعل هذا التنازع شامــلاً لتصوره الخاص عن العــقيدة الدينية وعن تصــوره لمجرى تاريخ الإنسانيــة . أى إنه يجعل موضوعــه شاملا متــرامى الأطراف مثلمــا فعل دانتى فى **الكوميديــا الإلهية** . إذ إنه كان عــميق الإحساس بما يجرى حوله من أحداث (كما رأينا) **وبأن الأحداث الجارية تمثل حلقة من حلقــات التاريخ البشرى المــتداخلة والأهم من ذلك أنها تعتــبر جزءًا من حركة أزليــة لا تتوقف وهكذا** فإن آدم وحواء ليسا مجــرد شخصيات ذكرت فى الكتب الدينية ونماذج للبشرية بصفة عــامة: بل هما نموذجان للبشر الذين

يعيشون بين ظهرانينا . انظر الأبيات الأخيرة من القصيدة حيث **يصف طرد آدم** وحواء من الفردوس :

**ذرفا بعض العبرات – عبرات الطبيعة البشرية – ثم جففاها على الفور**

**كانت الدنيا تمتد كلها أمامهما ، تدعوهما لاختيار**

**مقر راحتهما ، تهديهما العناية الإلهية**

**وهكذا – بأيد متشابكة وخطوات حائرة بطيئة –**

**سارا وحيدين فى أرض عدن .**

ونحن نؤكد وعى ميلتون الدائم بالحياة الواقعية فى عصره لأن الملحمة أبعد ما تكون (من ناحية موضوعها الظاهر) عن الحياة اليومية للإنسان . فليس بها شخصية بشرية واحدة ومكان الأحداث غريب كل الغرابة بل إن ميلتون يتعمد أن يجعله مخالفا لكل ما يعرفه الإنسان على الأرض . ومع ذلك فإن النظرة المتأنية سوف تكشف للقارئ عن مدى نجاح ميلتون فى إسباغ الطابع البشرى على تصوراته للجحيم والعماء . إن الشياطين كائنات ذات أبعاد أكبر كثيراً من البشر ولكنها ذات عقول تفكر كالبشر ، كما أن مناقشاتها تتخذ أنماط المناقشات السياسية بين الناس . ويعتمد ميلتون كذلك فى تشبيهاته على التاريخ الحقيقى للإنسان بل إن الشياطين لديه هم آلهة الوثنية فى العهد القديم وفى الأساطير الكلاسيكية ، كما أن الصور المجازية لديه مستقاة من صور الحياة العادية على الأرض (من حياة الصيادين والفلاحين وأنغام الأرغن والمناقشات الدينية المألوفة إلخ) . وكثيرا ما يخامرنا الإحساس ونحن نقرأ الملحمة أن ميلتون كان يحاكى فيرجيل فى **الإنيادة** – يقول البروفسور تليارد:

**مثلما كانت الإنيادة تدور حول روما فى عهد الإمبراطور أغسطس ودورات القدر التى أدت إلى إنشاء روما فى البـداية وحققت لها العظمة فإن الفـردوس المفـقود تدور حـول الحَيـاة المعـاصرة فى زمن ميـلتون وحول الإطار الأكبر الذى خلقت الحياة فى ظله وسارت . ويرجع نجاح مـيلتون إلى أنه اسـتطاع أن يمزج بـين الموضـوعين مـزجًا وثيقًا بحـيث أصبحت الحياة المعاصرة هى أيضًا الحياة الأزلية .**

كان مـيلتون يكتب - كـما ذكرنا - فى ظل تـقاليد الملحـمة الكلاسـيكية ولهذا فهو يبدأ قصته فى منتـصف الأحداث . فنحن نرى الملائكة الفسقة بعد أن تمـردوا على البارىء وبعـد أن تمت هزيمـتهم وبعـد أن خلق الله الجحـيم والكون - وهنا يفيق إبليس من إغمائه ويرفع رأسه من البـحيرة الملتهبة حيث يرقد عـاجزًا لا حول لـه ولا طول . وبعد أن يفيق ويقـوم بإفاقـة أقرانه ويبث فيهم روح شجاعة جديدة ، نرى أن الأحداث التالية سوف تتوقف على الشائعة التى كـانت تتردد فى الجنة قـبل سقـوط الملائكة ومـؤداها أن الله يوشك أن يخلق نوعًا جديدًا من الـكائنات . ويقرر الشيـاطين أن أفضل سبـيل لمواصلة الحرب ضـد العلى القدير هى محاولة إفـساد هذا الكائن الجديد . ويعـهد إلى إبليس بهـذه المهمـة ومن ثم يلتقى مع أبنائـه ( الخطيئة والمـوت ) عند بوابة الجحيم . وبعدها يرحل إبليس عبر العماء إلى مشارف النور ويرى أبراج السماء ويرى الكون معلقًا منها بسلسلة . وهذه هى نهايـة الكتاب الثانى . ويقول أحد النقاد إن هذين الكتابين يمثلان «حركة» من حركات السيمفونية الكبيرة - وهى حركة تتكون ألحانها من مجموعة قوى الشر التى تتربص بالإنسان وتريد القضاء عليه - ممثلاً فى آدم وحواء .

ويبدأ الكتـاب الثالث باسـتلهام النور - رمـز الألوهية والخـير - وهذا هو اللحن الثانى أى لحن الجنة . ويصف ميلتون هناء الجـنة بصورة تجعله مماثلا

أو مقـابلا لـشقـاء الجحـيم ، ومثلمـيا عرض إبليس ( فى الكتـاب الثانى ) أن يقوم بالرحلة وحده إلى الدنيا لإفساد البشرية ، يعرض المسيح أن يقوم بالرحلة وحده هو الآخـر لإنقاذها . وبـعد أن يصف مـيلتون الجنة يتـابع رحلة إبليس حـتى يختـرق قبـة الكون الذى يشتـمل على النجـوم والكواكب والأرض فى المركز ثم يحط على الأرض فى النهاية . وهنا يحـين موعد تقديم الأبطال من البشر .

ويصف ميلتون فى الكتاب الرابع جنة الفردوس بقـاطنيها من بشر وحيوان ويطلعنا على أن آدم وحواء قد حرما ثـمار شجرة واحدة فى الجنة. وأثناء ذلك يكون إبليس قـد دخل الجنة متـخفـيا ويـوحى لحواء أثناء نومـها بحلم شـرير ويكتشف الملائكـة الحراس ما صنعه إبليس فيطردونه من الـجنة وبهذا تفشل أول محاولة لإغواء حواء .

وتتوقف الأحـداث قليلاً بعد فشل إبليـس - ويستغل ميلتـون هذا التوقف فى سرد الأحداث الماضية . ويتضمن الكتابان الخامس والسادس زيارة الملاك الأكبـر روفائيل إلى الفردوس وقـصة تمرد المـلائكة الفسقـة وسقوطهم كـما يرويها لآدم وحواء ورغم أن زيارة روفائيل تمتد على طول الكتابين التاليين فإن ميلتـون يقول لنا إن مسرح أحـداثه الآن مسرح أرضى وإنه انتهى من الـمسرح الكونى الشاسع وأن بقية القصيدة سوف تركز على الإنسان .

وهكذا فإن آدم يحدد المسار الجديد للملحمة بأن يتساءل كيف خلق الكون الذى يعيش فـيه . ويقص روفـائيل قصـة الخلق فى ستة أيـام . وفى الكتاب الثامـن يطرح آدم مزيداً من الأسـئلة عن الكون ثم يحكى ما حـدث له منذ أن أشرق فى نفســه الوعى لأول مرة . وبعد ذلك يعود روفائيل إلى الســماء مردداً تحذيره ألا يعصى ما أمر الله به .

ويستأنف الحدث الرئيـسى فى الكتاب التاسع ويبلغ ذروته (أى الأزمة) فى هذا الكتاب وفى الكتاب العـاشر . ومع الأزمة تتغير «ألحان» الملحـمة - كما يشير ميلتون إلى ذلك فى مقدمته لهذا الكتاب . فهو يقول إنه يغير من أسلوبه السـابق إلى أسلوب المـأسـاة . ونحس بالفـعل منذ هذه اللحظة أنه فى لجـة تجربة بشرية حقيقيـة . ويتخفى إبليس ثانيًا - فى صورة ثعبان هذه المرة - ثم يعاود الهجوم ويسعده الحظ بأن يجـد حواء وحدها ويتوسل بالأكاذيب والملق والإطراء حتى يقنعـها بأن تذوق الثمـرة المحرمـة . وعندما يأتى آدم يشاركـها الطعام فيسـقطان معًا فى وهدة الذنب . أما الثمرة فإن مـذاقها يسكر أول الأمر ثم يجعل الإنسان يصـحو نادما يتجاذبه الشقاء والألم . وينتـهى الكتاب التاسع بالتشاجر وتبادل التهم ويبدو فى الظاهر أن إبليس قد انتـصر ولكن الحدث لم يكتمل بعد . إن المـسيح يذهب إلى الفردوس ليصدر الـحكم على خطيئة آدم وحواء ، وهو يحكم عليهما بتكبـد المشاق التى تنتهى بالموت على الأرض . ولكنه أيضًا يشفق عليهما ويجعلهما يخصفان عليهما من ورق الجنة . وهنا تبدأ آثار سقوط الإنسان إذ يتغير الجو وتتقـاتل الحيوانات وتتعاون الخطيئة والموت فى بناء جسر عـبر العماء ييسـر لهما الانتقال بين فـوهة الجحيم وباب الجنة . ويعتصر الأسى آدم وهو يرى ما يحـدث ويتصور أنه قد ضاع إلى الأبد . وهنا ترى حواء أن الـخلاف مع آدم لا يطاق وتود أن تتـحمل وحـدها مسـئوليـة ما حـدث . ويصدها آدم فى البـداية ، ولكنه يسـتنزل رحمـة الله دون أن يدرى فيعـترف بخطئه هو الآخر ويتصـالحان . وهذا النموذج الصادق للخـشوع أمام الله يمثل الخلاص لآدم وحـواء . وينـتهى الكتاب العاشر بأن يطلبـا العفو من الله :

**بعبرات تروض الأرض ، وآهات تغشى الهواء ،**

**صادرة من قلوب التائبين ، آيات**

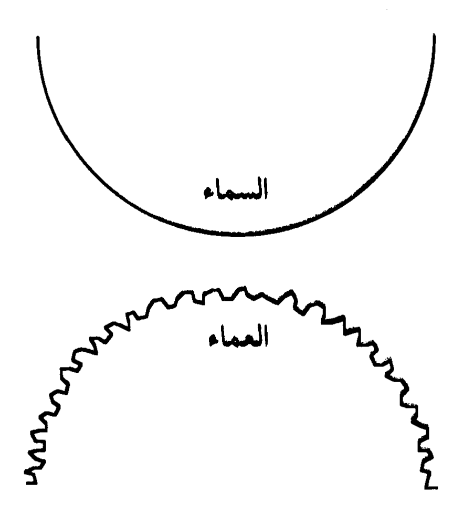
**صادقة على الأسى والخشوع .**

وبمجرد أن يبدى آدم وحواء ندمهما يتحدد مسار الأحداث التالية ، ولذلك يخصص ميلـتون الكتابين الأخيرين لـمستقبل البـشرية . فالله سبـحانه وتعالى يقبل توبة آدم وحـواء ويرسل إليهـما ميكائيل - ذلك المـلاك الأكبر - ليـقدم إليهـما رؤياه عن مـسار تاريخ العالم فـيشاهدان عـدة لوحات تصـور الأحداث الرئيسية المـذكورة فى سفر **التكوين** حتى عـهد الطوفان . وهنا ينتـهى الكتاب الحادى عشر أما الكتاب الثانى عشـر (والأخير) فإن ميكائيل يلخص فيه تاريخ البشـرية بلغتـه الخاصة ابتـداء من الطوفان وحتى يوم الـقيامـة ( بما فى ذلك الأحداث المذكورة فى **العهد الجديد** ) ويدرك آدم طبيعة الأمور ويتـقبلها فهو قد تعلم طاعة الله وأصبح يدرك أن التواضـع والخشوع أقوى فى نهاية المطاف من كبرياء إبليس . ويتـسلح آدم وحواء بهذا الإدراك ويستعـدان للحياة به على ظهر الأرض ، عندما تأتى الملائكة فى نهاية الملحمة لطردهما من الفردوس .

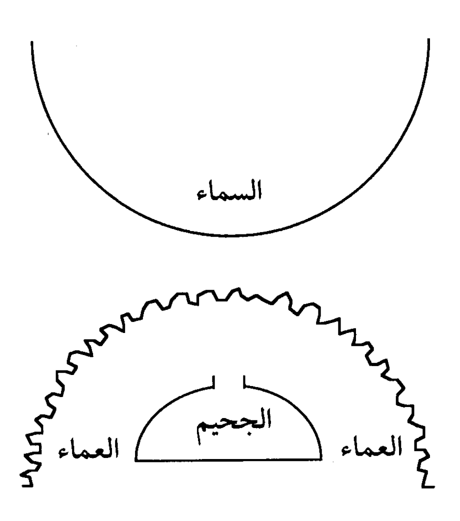
ومن المستـحب قبل قراءة النص أن ندرك تصور ميـلتون الخاص للكون. وسأعتـمد هنا ( مثلما اعتـمدت فى الجزء السابق من هذه المـقدمة ) على آراء البروفسـور (تليارد) إما بالتلخيـص أو الاقتباس . إن ميلتـون يرسم لنا تصوره الخاص للكون بالتـدريج أى على مراحل ولذلك فسـوف نقدم الرسوم البيـانية الثلاثة التى قدمها لتبيان هذه المراحل . يقول (تليارد) :

**علينا أن نتـخيـل زمنا كان الـوجود فـيـه مقـصوراً عـلى السمـاء ،**
**ويحدها سور من البلّور ، وتحتها ، على مسافة ما غير محددة يقع العماء،**
**وهو كتلة مظلمة مبـهمة فهو المادة المختلطة المـتنافرة التى يتشكل منها**

كل خلق جديد . وتقع بين العماء والسماء منطقة مفتوحة تتمتع بنور السماء . وهناك منطقة أخرى على الحدود ( هى التى يجدها إبليس فى الرحلة التى يصفها ميلتون فى نهاية الكتاب الثانى ) تقل فيها كثافة العماء ولا يسودها الظلام الدامس أو النور الساطع بل يغشاها ضوء خاب أشبه بالغسق . ويوضح الرسم البيانى المبسط التالى ما نعنيه بذلك :

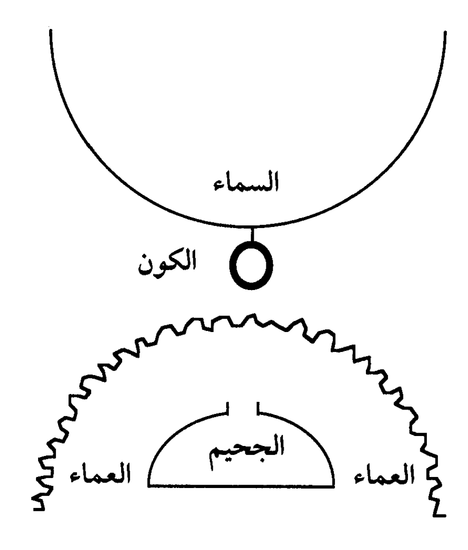


وعندما طرد الله الملائكة الفسقـة من السماء ، خلق لهم سجنا هو الجحيم بـحيث يقع فى قاع العماء ولـه قبة وفى سقف القبـة بوابة تغلقه عليهم وإذن فينبغى أن نضيف إلى الرسم هذا التعديل .




وكانت آخر مـرحلة من مراحل الخلق هى أن يخلق الله الكون من مادة العـماء ولا حاجة بنـا لوصف التركيب الداخلى للكون حـيث توجد الأرض فى المنتـصف وتحيط بها أفـلاك متـداخلة تدور فيهـا الكواكب والنجـوم الثـابتـة . ولكن على القـارئ أن يعلم أن الكون (فى ضـوء هذا التصـور) كان محاطًا بـقوقعة صلبـة وأنه كانت لتلك القـوقعة فتـحة فى رأسها يستطيع المـلائكة النفاذ منها كما استطاع الشـياطين أن ينفذوا منها

**فيما بعد لزيارة البشـر . وأن الكون كان يتصل بالسماء بسلسلة من ذهب وهكذا نصل إلى الرسم البيانى الأخير .**




وأخيراً فإننا نعلم فى نهاية الكتـاب الثانى أن الخطيئة والموت سوف يبنيان جســراً يمتد من باب الجـحيم عبر العـماء حتى مـوقع خارج الكون يؤدى إلى فتحة يستطيعان النفاذ منها إلى الداخل .

ورغم أن الشياطين تـهبط من السماء فى غيـر نظام فإنها تحتـفظ بدرجاتها التى تحدد منزلة كل شـيطان ومدى اقترابه من إبليس . ويوضح مـيلتون ذلك حين يصور لنا مـجيئها إلى إبليس وهو واقف على شـاطئ بحيرة اللهب . ولا شك أن ميلتـون كان يؤمن بأن الكون يحكمـه نظام دقيق يقتـرب من دقة علم الرياضـيات (وهى الفكرة الـتى ورثها من العـصور الوسـطى) كمـا أن التنظيم الاجتماعى فى ظل الإقطاع كـان معقداً وذا درجات دقيقة مـحددة . وقد صاغ

الناس تصورهم لدقة تنظيم المجتمع السماوى فى ظل تنظيم مجتمع الأرض ودرجات أفراده .

وكانت الفكرة الشائعة هى أن للملائكة عدة طبقات أعلاها هم أصفى الملائكة كيانا وأقدرهم على تقبل الجوهر الروحى القدسى وأحطها هو أقلهم قدرة على التأمل وأكثرهم نشاطا وكان للملائكة تسع مراتب مقسمة على ثلاث طبقات . فالطبقة الأولى تضم الصاروفيم والشاروبيم والمتوجين (أو العروش) والثانية تتكون من الرياسات/ والفضائل والسلاطين (انظر الحواشى) أما الثالثة فتضم أنشط الجميع وأقلهم قدرة على التأمل وهم الرؤساء وأكابر الملائكة والملائكة . وكان الرأى فى العصور الوسطى أن هذا التقسيم يقابله تقسيم مماثل للشياطين وقد استخدم ميلتون بعض هذا التراث ولكن التحديد السابق للدرجات لم يعد قائمًا فى عصره فإنه رغم رجوعه إلى التقسيم القديم وتحديد أهم الشياطين (وهم إبليس وبعلزبول ومامون) لم يرجع إلى التقسيم القديم للشياطين واكتفى بتقسيم الملائكة ثم طبق هذا التقسيم على الجميع . ولكنه فى الواقع قد عدل من المراتب القديمة فجعل أكابر الملائكة فى أعلى الطبقات أى أعلى من الصاروفيم والشاروبيم . كما أنه لا يفرق بين المراتب النسبية للمتوجين (أو العروش) أو الفضائل أو الرياسات بل أحيانًا يجعل لفظة الرياسات تشمل جميع الطبقات مما راعيناه فى الترجمة (انظر الحواشى) .

وكان تفكير أهل العصور الوسطى يقوم - إلى جانب فكرة المراتب - على فكرة التناظر والتقابل . ولذلك كان لابد للشياطين من درجات تسع حتى يقع التناظر مع درجات الملائكة ، كما كانوا يرون أنه مثلما أغوى الشيطان الإنسان فى جنة الفردوس وجعله يستبدل بها برية يحار فيها ، كان على المسيح

أى آدم الجديد (وابن آدم) أن يهـزم غواية الشيطان فى البرية ويعـيد الفردوس إلى آدم الأول .

وتبقى كلمة موجزة عن إبليس وتصويره فى الملحمة . من المحال أن نلم بآراء النقـــاد هنا لأنهم مـا زالوا علـى خـلافـهم القـديم لا يـقـر لهم رأى . والاتجاهان الأسـاسيان همـا أولا اتجاه يجـعل منه بطل الملحمـة وثانيًا اتجاه يرمى إلى تصغير شأنه بحـيث يصبح شخصية حقيرة ومـثيرة للسخرية. والحق إنه شخصية معقدة فهو «ملاك أكبر محطم» - كما يصفه ميلتون - إنه ما يزال يحتـفظ بعلو القامة وبعض ملامح السـمو القديم ولكنه اليـوم فاسق منحط . وهذا المزج بين الخصال والسمات فيه يقربه من أبطال المأساة من البشر .

ويقول (تليارد) إن ميلتون كان يذكـر جيدًا المثل القائل «إن شر من يَفْسَدُ خَيرُ الناس» أى إنه كلما عـلا قدر الشخصية ازدادت حطة مهـواها . فكثير من الشراح الذين أعلوا من شأن إبليس فى الملحمة يتناسون أن ميلتون يصوره فى حال خداع مع نفـسه منذ البداية وحال غبـاء تدفعه إلى رفض تقبل الحقـيقة . وبعـد أن يضطر بعلزبول إلى الاعـتـراف فى أول خطاب له بأن الله عليٌّ قـديرٌ حقا، نرى إبليس يصر على تصوره أنه يستطيع إفساد مسعى الخالق سبحانه :

**فإن قضـت مشيئته**

**بأن يـخـرج مـن شـر فـعـالنا خـيـراً**

**فـعـلينا أن نـحـاول إفـسـاد مـسـعـاه**

**فنجـعل من الخـيـر سـبـيـلاً إلى الشـر !**

**لطـالمـا كلل هذا الـمـسـعى بـالنجـاح**

١/ ١٦٢ - ١٦٦

ويصور ميلتون إبليس على أنه يتمتع بشخصية أقوى من شخصية بعلزبول وبأنه أحَدُّ ذهنا . ولكن الكبرياء يفسده إلى الحد الذى يبلد ذهنه ويكسوه غباء شديدًا . ويظهر هذا جليا فى بداية الكتاب الثانى حيث يقول ميلتون إن إبليس لم يتعلم من عاقبة ما حدث ( البيت ٩ ) أى إن غباءه جعله لا يتعلم من التجارب التى يمر بها وتصل ذروة مأساته حين يستعرض كتائب الشياطين :

**وألقى على هذه الصفوف المدججة**

**عينه الخبيرة واستعرض فى لمحة واحدة**

**ذلك الجحفل بأسره ، فتبين له انتظام درجاتهم**

**وبدت له وجوههم وقاماتهم فى صور الآلهة**

**ثم أحصاهم وعدهم عدا فانتفش قلبه بالزهو**

**والخيلاء وقسى فى قوته**

**. وتباهى**

**١/ ٥٦٧ - ٥٧٣**

ويقول (تليارد) إن مصدر البشاعة فى هذه الصورة هو الاحتفال الزائد عن الحد بضخامة الجرم وكثرة العدد . والمشاعر التى تنتاب إبليس هنا لا تتمشى مع المشاعر الرقيقة التى يعبر عنها الشاعر فى الفقرة التى تتلو ذلك مباشرة حين يجد أن الندم قد نال من عزمه الثابت وكبريائه الوطيد فتغلبه العبرات ويبكى ثلاث مرات قبل أن يستعيد رباطة جأشه ويستطيع الحديث . وإذا وضعنا الفقرتين جنبا إلى جنب رأينا ما يرمى إليه ميلتون من تصوير للتناقض فى نفس إبليس وراعتنا مظاهر التعقيد والتشابك فى هذه الشخصية . ولكن جوهرها - مهما اختلفت آراء النقاد - واضح فهو هبوط العظيم وسقوطه ، فحدة الذكاء لديه تصبح غباء وبلادة ذهن ، واعتداده بنفسه وبمنزلته بين

الشياطين يتحـول إلى كبرياء أجوف وعناده عندما يصر على انتهـاج سبيل الشر يقترب من درجة البلاهة التى لا تقبل من العظماء .

**٤**

ولا أريد أن أختتم هذه المقدمة التى طالت بعض الشىء دون أن أؤكد أنها تقديم وتمهـيد لا تعليق وشرح ، فلقد خـصصت كثيرًا من الحـواشى للتعليق والشرح لكل من يريد الاستزادة من التراث الفكرى الذى يمثل 'خلفية المتن' ، ولم أدخر وسعًا فى عـرض آراء النقاد ولو بإيجاز فيـها ، كما أرفـقت قائمة زاخرة بالمراجع التى ورد ذكـرها فى المقدمة وفى الحواشى حـتى يطلع عليها كل من يريد التعمق ، وأما المـعاجم وطبعات **الكتاب المقدس** فلم أوردها - وفق المنهج الأكاديمى المعمول به - فهى متاحة ميسرة لكل من يطلبها . وقد اقتـصرت فى الإشارة إلى الكتـاب المقدس على ذكر اسم الـسفر متـبوعًا برقم الأصحاح ورقم الآيـة ، مقتبسًا كل ذلك مـن طبعة **الكتاب المقدس** المصرية ١٩٦٦ (مطبعـة عنتر) وأما الإشـارات أو الاقـتباسـات الأخرى فقـد ترجمتـها وأدرجتها فى سياقها الجديد .

وأخيرًا فأنا أحـمد الله أن أمد فى عمرى حتى أتممت الـترجمة الكاملة ، ولا شك أن عمـلاً كهذا لن يسلم من الهنات ، ولكننى واثق فى قـدرة القارئ على تجاوزها .

**والله وراء القصد**

**محمد عنانى**

**القاهرة ٢٠٠٢**

# الكتاب الأول

## الموضوع

يعرض الكتاب الأول ، بإيجـاز فى البداية ، الموضوع بصفـة عامة - أى عصيان الإنســان وما أدى إليه من فقد الفردوس الذى أنزل فـيه - ثم يشير إلى السبب الأول لسقـوطه أى الثعبان ، أو بالأحرى إبليس الذى تمثل بالـثعبان . وكـان إبليس قـد فسق وخـرج على الله وضم إلى صـفـه كتـائب عـديدة من الملائكة، فقضى أمر الله بطرده من الجنة مع رفاقه جميعا وإلقائهم فى الخضم العظيم . وبعـد التعـرض لهـذه الواقعـة تسرع خطى الـقصـيدة إلى منتـصف الأحداث فـتصور إبـليس مع الملائكة من أتبـاعه الذين هبطوا فى الجـحيم ، وأوصافها ليس باعتبارها قائمة فى مركز الأرض ( إذ يفترض أن السماء والأرض لم تخلقـا بعد ، ولم تحل عليـهما اللعنة بعـد يقينًا ) ولكن فى مكان يـكتنفه الظلام الدامس حتى يمكن تسميته بالعماء وهنا يرقد إبليس وأتباعه من الملائكة على البحيرة الملتهـبة ، مصعوقين ومذهولين وبعد فترة مـا يفيق كأنه عاد إليه صوابه وينادى من يـرقد إلى جواره ويليـه فى الرفعة والمنـزلة فيتطارحـان أمر سقوطهمـا المزرى وبعدها يوقظ إبليس سائر كتائبه الـتى كانت ترقد حتى تلك اللحظة ذاهلة مثله ؛ وصف نهوضها وذكر أعـدادها وتشكيلها القتالى ؛ أسماء أهم زعـمائهـا ، وفقًا للأصنام التى عـرفتـها فـيمـا بعد أرض كنعـان والبلدان المتاخمـة لها . ويوجه إبليس حديثه إلى هؤلاء فيـواسيهم بأن الأمل قائم فى استـعادة الجنة ويذكر لهم آخـر الأمر أن إحدى النبـؤات القديمة أو الشـائعات

التى تتردد فى الجنة تقـول إن الله يوشك أن يخلق عالمًا جـديدًا ونوعًا جديدًا من المخلوقات، إذ يذهب رأى الكثيريـن من الآباء القدماء إلي أن الملائكة قد خلقوا قبل هذا الـعالم المرئى بوقت طويل . وللتحقـق من صدق هذه النبوءة وتحديد ما ينبغى فعله بصددها ، يحـيل الموضوع إلى البحث فى مؤتمر عام ؛ وصف ما يفعله رفـاقه هناك إذ يرتفع بناء (بانديمونيام) وهو قصـر إبليس فجأة من الخضم : وفيه يعقد سادة الجحيم مجلسا للتشاور .

عن أول عصيان يقترفه الإنسان ، وعن ثمرة
تلك الشجرة المحرمة ذات المذاق المهلك
الذى أتى بالموت إلى الدنيا وجر علينا الأحزان
لضياع جنات عدن زمنًا ريثما يعيدنا رجل أعظم
ويسترد لنا عرش النعيم ٥
أنشدى يا ربة الشعر قاطنة السماء يا من تدنيت إلى الذروة
الخبيئة لجبل
(حوريب) أو طور سينين فأوحيت إلى ذلك الراعى
ما يوحى ، فعلم الذرية المصطفاة أولا
كيف فى البدء نشأت الأرض والسماء
من العماء ! فإذا راقت لك ذروة (صهيون) ١٠
ونهر (سلوام) الذى يتدفق حثيثًا

بجوار بيت الله فإننى من ثم

أناشدك العون على صوغ أنشودتى المحفوفة بالمخاطر

إذ لا تعتزم أن تطوف بالسماء الوسطى بل أن تحلق عاليا

فوق قمة جبل (أيونيا)، لتعالج ١٥

ما لم يعالجه أحد من قبل نثرًا أو شعرًا

ولا سيما أنت أيها الروح - يا من تنزل

من طهر فؤاده واستقام أمره منزلة تسمو على كل معبد

علمنى مما علمت رشدًا - فلقد كنت قائمًا

منذ بداية الوجود ، باسطا جناحيك الجبارين ٢٠

فوق الهوة الشاسعة ، ثم رقدت فوقها

مثل الحمامة ، حتى دبت الحياة فى أحشائها !

بدد ظلمات نفسى ! شد أزرى وارفع القواعد من بيتى !

لعلى وقد سموت إلى مقام هذا المقال

أن أبين العناية الإلهية السرمدية أيما بيان ٢٥

شارحا حكمة ما يفعله الله بالإنسان .

حدثينى أولاً - إذ لا تخفى عليك خافية فى الجنة

ولا فى أغوار الجحيم السحيقة - حدثينى أولا

عما حدا بجدينا العظيمين - وهما فى أعطاف النعيم

هائتان برضوان الله أن يغضبا ٣٠
خالقهما ويعصيا مشيئته -
بعد أن دان لهما العالم - فى محظور أوحد ؟
من الذى أغواهما أولاً بهذا العقوق الذميم ؟
الثعبان الدنىء ! لقد أثار مكْرَه الدفين
نازعُ الحسد وطلب الثأر ، فخادع أم البشر ٣٥
بعد أن لفظته الجنة لغروره وخيلائه
ومعه أتباعه ، حشد كبير
من الملائكة العاصين ، طمع فى أن يساعدوه
على أن يبز أقرانه عزا ومجدا
وأن يضارع منزلة الله ٤٠
إذا تطاول عليه ! وهكذا حفزه هذا المرمى الطامح
إلى تحدى عرش الله وملكه
وإثارة قتال عاق في الجنة : معركة يشينها الخيلاء
وحصادها هباء ! وهكذا قذف الإله الجبار به من حالق
فانقلب ساقطا يتقد لهيبا من السماء العليا ٤٥
ذميمًا مدحورًا مشتعلاً فى هوة
مالها من قرار ، فأقام بها

تغله الأصفاد الصلبة ويصطلى بعذاب الحريق
ذلك بأنه تجاسر على منازلة ذى القوة والجبروت
وهكذا - طيلة أيام وليال تسع ٥٠
مما يعد أهل الأرض - انبطح مع رفاقه البغضاء
فى هوة الهزيمة ، يتقلبون فى لجج اللهيب
وقد جللهم العار رغم خلودهم . ولكنه قد كتب عليه
أن يزيد من غضب الله عليه ، إذ بدأ التفكير
فى سعادته الغاربة وعذابه المتواصل ٥٥
يؤلمه . فأخذ يقلب عينيه الخاسئتين فيما حوله ،
عينيه اللتين شهدتا على الألم والخسران المبين
وما اختلط بهما من الغرور العنيد والحقد الشديد
وسرعان ما أدرك - قدر ما يدرك الملائكة -
ضنك حاله وضياع مآله ٦٠
فهو فى قبو موحش مخيف ، تنور متأجج الأوار
تصاعد منه النار ويحيط بهم سرادقها ،
نار بلا نور ، بل ظلمات مبصرة
لا تفصح إلا عن مشاهد كرب
وأصقاع أسى ، وظلال غم وهم ، وساحات ٦٥

لا يمكن أن يحل بها السلام والدعة ، بل لقد
امتنع فيها الأمل ، وهو مالا يمتنع على أحد !
إنه عذاب دائم يتدفق ، وطوفان من اللهب تغذيه
منابع كبريت لا تخبو جذوته ولا ينضب له معين .
هذا هو المكان الذى أعده العدل السرمدى ٧٠
لأولئك العصاة ، إذ حكم عليهم بهذا السجن
الدامس البهيم فابتعدوا فيه
عن الله وعن نور السماء
ثلاثة أمثال بعد مركز الأرض عن القطب الأقصى .
ما أشد ما يختلف عما هبطوا منه ! ٧٥
وسرعان ما أبصر ثم رفاق سقوطه يتقاذفهم
بحر النيران المتلاطم ودوامات السعير العاصفة
وأبصر إلى جواره رفيقا يتلوى ألما
يليه فى السلطان ويليه فى جسامة الجرم
وعرفته أرض فلسطين بعد ردح طويل ٨٠
وأسمته بعلزبول . ومن ثم اتجه إليه العدو الأكبر -
والذى أصبح اسمه فى السماء إبليس -
وطفق يتكلم كلمات جسورة كسرت طوق السكون الرهيب :

هـل أنت حقا هو ؟ إن كنت فوا أسفاه ! لشد ما انكسرت

وتبدلت !

ما أبعدك عمن كنت أراه فى أصقاع النعيم الوضاءة ٨٥

يشع بهاء علويا يطغى بريقه

على الآلاف ! إذا كنت حقا من ربطنى به العهد الوثيق

وتضافر الفكر واجتماع الكلمة وتساوى الأمل

والخطر ونحن ننهض بذاك العمل العظيم

فإننى مشدود إليك اليوم برباط الأسى ٩٠

وخيبة الرجاء ! ما أحط وهدة المهوى

وأرفع جنة المأوى ! لقد برهن على تفوقه الحاسم

حين أرعد وأبرق - وهل كان أحد يدرى قبلها

قوة ذراعيه الجبارتين ؟ ولكن هذا جميعًا

بل وكل ما يستطيع القوى الظافر فى سورة غضبه ٩٥

أن ينزله بى من تنكيل - لن يدفعنى إلى الندم

ولن يجعلنى ما فقدته من بهاء المظهر أغير ما عقدت عليه العزم

ولن ينال من كبريائى الوطيدة أن امتهنت قدرتى

إذ إن هذه الكبرياء هى التى دفعتنى لمنازلة أقوى الأقوياء

دافعا إلى المعمعة الضارية ١٠٠

بقوة لا يحصى عددها من الأرواح المدججة
ممن تجاسروا على مناوءة حكمه وانحازوا إلى صفوفى
فقارعوا قوته العارمة بقوة غاشمة
فى معركة سجال فى وديان السماء
زلزلت عرشه. وماذا إذا خسرنا الموقعة ؟ ١٠٥
إننا لم نخسر كل شيء . ما زالت لدى عزيمة لا تُفَلّ
ومواصلة السعى للإنتقام . وحقد لا ينفد
وصمود لا يعرف التسليم أو الاستسلام .
وهل ثَمَّ ما لا يقهر بعد هذه الخصال ؟
إن ذلك ظفر لن يستطيع غضبه أو جبروته ١١٠
أن يسلبنى إياه . أما الخضوع وطلب المغفرة
والركوع فى خشوع أمام سلطانه
وهو من ذاق بطش ذراعى هذه منذ برهة
خاف فيها على ملكه ، فهو الذلة والمسكنة
بل عار جلل لا تدانيه مهانة هذا السقوط ١١٥
أما وقد قضت الأقدار لقوة الآلهة
وهذا الكيان السماوى ألا يصيبه الوهن
ولما كنا قد خضنا غمار هذا الحدث الجلل

وخرجنا بأسلحة لا تقل مضاء وبصيرة أبعد نفاذا

فإننا نستطيع إذا حزمنا أمرنا - يحدونا أمل أصدق - ١٢٠

أن نشن - عَنْوةً أو بالمكر - حربا سرمدية

لا يخمد لها أوار على عدونا اللدود

الذى عقد له النصر اليوم فغدا فى غمرة فرحه

يطغى فى السماء وقد دان له السلطان غير منازع .

هكذا تحدث الملاك الذى فسق ، رغم عذابه ، ١٢٥

متباهيًا ، زاعق النبرة يعصره يأس عميق .

ولم يلبث أن جاءه الجواب من رفيقه الجسور :

أيها الأمير ! يا زعيم العديد من الصناديد المتوجين

يا من قدت المقاتلين الأفذاذ من طبقة الصاروفيم فى حومة الوغى

فقاموا تحت إمرتك بفعال رهيبة ١٣٠

جسورة تهددت بالخطر ملك السماء الدائم

وقدمت البرهان على سمو رفعته

سواء كان مردها إلى القوة أم المصادفة أم القدر

إن الحدث الرهيب ليمثل أمام ناظرى فيثير الأسى

على هذا الانقلاب المؤلم والهزيمة النكراء ١٣٥

التى أفقدتنا الجنة وبصحبتنا هذا الحشد العاتى !

يا للتهلكة المخزية ويا لدرك الحضيض الخفيض !

لقد فنى منا ما يفنى من الأرباب وكائنات السماء

إذ ما زال الذهن منا والروح

صامدين وسرعان ما يعود بأسنا شديدا ١٤٠

رغم انطفاء جذوة المجد والبهاء ، ورغم أن الهناء

قد ابتلعه إلى الأبد يَمُّ الشقاء !

ولكن ما بال قاهرنا الجبار - ( ولابد

لى أن أومن اليوم بأنه على كل شىء قدير

إذ ما كان لغيره أن يفتك هذا الفتك بقوانا ) ١٤٥

أتراه قد أبقى على هذه النفس وهذه القوة كاملة

حتى نقوى على مر المعاناة وأليم العذاب

فنشبع غضبة انتقامه

أم لننهض بأعباء ما يأمرنا به وقد صرنا عبيدًا له

بحق الغلبة والنصر - أيا كان ما يأمرنا به ١٥٠

سواء كنا فى قلب النار نكتوى بشواظ الجحيم

أم نقضى له المآرب فى المحيط البهيم ؟

وما جدوى قوتنا التى لم تنتقص وكياننا السرمدى

إذا كان لن يأتى إلا بعقاب سرمدى ؟ ١٥٥

وسرعان ما جاء رد الشيطان الأكبر قائلاً :

أيها الملاك الذى هوى ! الضعف شقاء

سواء فى العمل أو المعاناة . ثق فى قولى هذا

لن نفعل الخير يوما

بل سنرى فى الشر دومًا متعة مثلى ١٦٠

فهو نقيض المشيئة العليا

لمن نقاوم ونناوئ . فإن قضت مشيئته

بأن يُخْرِجَ من شر فعالنا خيرًا

فعلينا أن نحاول إفساد مسعاه

فنجعل من الخير سببا إلى الشر . ١٦٥

لطالما كلل هذا المسعى بالنجاح ومن ثم فربما

عكر صفوه ! وإن لم يخب ظنى فربما

أطاش سهام نواياه الصادقة فلم تصب أهدافها .

ولكن انظر ! لقد استدعى الظافر الغاضب

رسل الإنتقام والطراد فعادت ١٧٠

إلى أبواب السماء : إن شآبيب الكبريت

التى أطلقت علينا عاصفة جائحة قد أخمدت

لجة النيران التى كانت قد تلقفتنا

حين هوينا عند شفا حفرة السماء ! أما الرعد
بأجنحته من برق أحمر وغضب جامح ١٧٥
فربما نفدت سهامه ! لقد أقلع
عن عوائه فى أعماق المحيط الشاسع المترامى .
ينبغى ألا تفلت هذه الفرصة ، سواء كان مردها
استصغار عدونا لشأننا ، أم أنه قد أشبع غضبته ورواها !
أترى ذلك السهل الكئيب ، الموحش الرهيب ، ١٨٠
مقر الخراب والهباء ، وما به من ضياء
إلا ما تلقيه ألسنة اللهب الشاحبة من بصيص
خاب مخيف ؟ فلنأو إليه
ليعصمنا من لجج السعير المتلاطمة
ولنسترح إن كان ثم للراحة مرفأ ١٨٥
وليلتئم شمل قوانا المنهكة
فنتطارح الرأى فى أشد ما نؤذى به - منذ يومنا هذا -
عدونا ، وفى وسائل استعادتنا ما فقدناه
وتخطى هذه الكارثة الباقعة
وما عسى أن يمدنا الأمل به من قوة ١٩٠
إن لم يكن اليأس بحافز على العزم المبين !

وهكذا فرغ إبليس من الحديث إلى رفيقه المقرب
وقد اشرأب رأسه فوق الأمواج ، وجحظت عيناه
فبرقتا والتهبتا ، أما سائر أعضائه
فمالت على اليم ، وامتد طولا وضخامة ، ١٩٥
سابحا فراسخ عديدة ، هيكل هائل
مثل وحش الأساطير ذى الجرم الضخم
(تيتان) أو مثل أبناء الأرض الذين نازلوا (جوبيتر)،
أو مثل (برياروس) أو (تايفون) الذى اتخذ عرينه
فى (طرسوس) القديمة ، أو مثل وحش البحر ٢٠٠
(ليفاياثان) الذى جعله الله من بين الخلائق
أضخم من مخر عباب المحيط !
ويروى الملاحون فيما يروون أنه كان يغفو فى مياه بحر (النرويج)
إذ رآه ربان سفينة صغيرة غرقت ليلا
فظنه جزيرة ٢٠٥
فألقى المرساة على جسده ذى القشور الصلبة
وأرسى الفلك إلى جواره والليل
يغشى البحر ، وطال به انتظار الفجر .
وهكذا استلقى الشيطان الأكبر ماردا عملاقا

تغله الأصفاد فوق بحيرة اللهب ! ولكنه لم يكن ليرفع رأسه ٢١٠

وينهض منها لو لم تكن مشيئة السماء -

مشيئة العلى الكبير - قد أذنت

فأطلقت سراحه لتنطلق مكائده الدفينة

فيقترف الجرم من بعد الجرم

فتصيبه اللعنة من بعد اللعنة ، وهو يسعى ٢١٥

لإيقاع غيره فى أشراك الشر ، فيرى فى سَوْرَتِه

مكره وقد خاب فلم يثمر

إلا الخير كل الخير وأتى بالرحمة والغفران لمن

أغواهم من بنى الإنسان ، بينما تنهال على رأسه

الكروب مضاعفة ، وينصب عليه جام الإنتقام والغضب . ٢٢٠

وهنا نهض من البحيرة لفوره وانتصب

بقامته الجبارة ، وعلى الجانبين كانت ألسنة اللهب

ترتد فتلتف أسنانها المدببة وتتكور

فى أمواج كالجبال تنفرج عن واد شائك مسنون .

ثم نشر جناحيه فحلق طائرا ٢٢٥

فى الجو ينوء الهواء البهيم بحمله

ويدرك عبء ثقله الخارق ، وأخيرًا على اليابسة

استوى ، إن كانت تلك هى اليابسة ! إنها تلتهب أبدًا
بنيران صلبة ، مثلما التهبت البحيرة بالنيران السائلة .
وبدا لونها مثل بركان تثيره قوى ٢٣٠
الرياح الحبيسة فى باطن الأرض فتنقل التل من مكانه
وتنتزعه من جبل (بلوروس) ، أو مثل السفح الذى مزقه
بركا (إتنا) الراعد ، فاشتعلت
أحشاؤه بوقود جبار سرى فيه الضرام
وفارت فيه المعادن فغدت أبخرة تندفع مع الريح ٢٣٥
وخلفت القاع محترقا ، يغلفه
الدخان ويغمره كريه الرائحة يا له من موطن راحة
لأقدام لعينة ! وتلاه رفيقه الذى يتلوه فى المنزلة
وقد أسعدهما أن هربا من بحيرة اللهب الجهنمية
وما زالا أربابا وأنهما فى ظنهما قد أفلتا بفضل القوة التى عادت لهما ٢٤٠
لابفضل ما أذن به ذو القوة والجبروت
وهنا أنشأ يقول من كان ملاكا أكبر :
أعلينا اذن أن نستبدل هذه البقعة وهذه التربة وهذا المناخ
بجنة النعيم ؟ أعلينا أن نستبدل هذا البلقع المدلهم
بالضياء العلوى الغامر ؟ فليكن ! فإذا كان ٢٤٥

من له الملك اليوم يصرف الأمر كما يشاء ويقضى
فَيُقْضَى له ، فأفضل المواقع أبعدها عنه !
لقد جعلنا العقل نظراء ولكنه تفوق بالقوة
على نظرائه ! وداعا إذن يا رياض الهناء
يا موطن السرور الأبدى ! ومرحبا بالهم والغم ! ٢٥٠
مرحبا بالدرك الأسفل ! وأنت يا أغوار الجحيم السحيقة
تقبلى ربك الجديد : رب يأتى إليك بذهن لا يتبدل
ولا ينال منه مكان أو زمان .
فالذهن هو الذى يخلق المكان ، وهو فى باطنه
قادر على أن يحيل الجحيم جنة أو الجنة جحيما ٢٥٥
وماذا يضيرنى أن أكون هنا أو هناك ما دمت الكيان
نفسه - كما ينبغى - أكاد أضارع من تفوق علىّ
بقوته العاتية ؟ إننا - على الأقل -
سننعم بالحرية هنا ! إن ذا الجبروت لم ينشئ
هذا المكان ليبعث على الغبطة ، ولذلك لن يخرجنا منه! ٢٦٠
لنا أن نسود هنا آمنين ، وإننى لأرى
أن السيادة مطمع رفيع ولو كانت فى الجحيم !
سيد فى جهنم أكرم من عبد فى الجنة !

ولكن ما لنا خلفنا رفاقنا المخلصين

شركاء الضياع وزملاء السقوط ٢٦٥

يرقدون ذاهلين فى بحيرة النسيان ؟

ما لنا لا نناديهم ليتقاسموا معنا

تعاسة مأوانا أو ليجتمع شملنا ثانيا

فنضم الصفوف المدججة لنسترد ما بقى

لنا فى الجنة أو نتحاشى مزيدا من الضياع فى الجحيم ؟ ٢٧٠

وبعد أن فرغ إبليس من حديثه

جاءه رد (بعلزبول) : يا زعيم الأجناد البهية

من لا غالب لها سوى ذى القوة والجبروت

إن فى صوتك عهدا وثيقًا يحيى الأمل

ويبعثه فى بهمة المخاوف والمخاطر ! وكثيرا ما دوّى ٢٧٥

فى لحظات أحلك من هذه ونحن على شفا حفرة

من الهلاك وقد اضطرم سعير المعركة ، فكان أصدق

حافز على الكر والنزال ! إنهم إن سمعوا صوتك

فسوف تشرق الشجاعة فى الصدور ولسوف يهبون من هذا الرقاد

الخاضع الذليل فى بحيرة النار ٢٨٠

كشأننا منذ برهة وقد ذهلت منهم العقول وغابت

ولا غرو بعد أن هووا من ذلك الارتفاع الشاهق .

ولم يكد ينتهى من حديثه حتى نهض الشيطان الأكبر

فاتجه إلى الشاطئ يحمل درعه الثقيل

الذى صاغته نيران السماء ضخما كبيراً مستديراً ! ٢٨٥

كان يحمله على ظهره وقد بدا محيطه الشاسع

فوق كتفيه مثل القمر عندما تطلع إليه

فنان ( توسكانا) فى منظاره المقرب

ساعة المساء من قمة جبل (فيزولى)

أو (فالدارنو) ليشهد الأرض الجديدة ٢٩٠

والأنهار والجبال على صفحته الرقشاء !

أما رمحه فتتضاءل إلى جواره أطول أشجار الصنوبر

التى تؤخذ من سفوح (النرويج) لتصبح سوارى

على أضخم السفن ! بل إنها لتبدو عصيا قصيرة إن قيست به !

كان يتكئ عليه ليسانده فى خطوه المتعثر ٢٩٥

فوق التربة المشتعلة ! ما أبعدها عن خطواته الثابتة

على صفحة السماء اللازوردية ! كان الهواء الساخن

يشوى الوجوه ، وقد حملته النيران حملا !

ولكنه احتمل العذاب حتى وصل إلى مرفأ

البحر المتأجج فوقف ونادى أجناده - ٣٠٠
ملائكة فى الصورة يستلقون فى إغماءة
وقد تكدست جسومهم مثل أوراق الخريف الذابلة
على صفحة غدران (فالومبروزا) ، ومن فوقها ظلال
(أتروريا)
كالخمائل السامقة ، أو مثل الأعشاب المبعثرة على وجه الماء
عندما سطع نجم الجبار فأرسل ريحه الصرصر العاتية ٣٠٥
لتلاطم ساحل البحر الأحمر فغشيت أمواجه
فرعون وجنوده وانقلبوا أى منقلب !
كانوا قد جدوا فى أثر قاطنى أرض (جاسان) ، وتعقبوهم
بأحقادهم ومكرهم
ولكن المهاجرين وصلوا إلى بر الأمان فشاهدوا
أجساد أعدائهم طافية ٣١٠
وعجلات عرباتهم وقد تحطمت وتناثرت أشلاء ! فهكذا كانوا
الآن - أكواما بشعة ضائعة فوق صفحة اليم
ذاهلين لما حل بهم من خسوف .
ونادى بصوت عريض ترددت أصداؤه فى هوة
الجحيم الفاغرة : أيها الأمراء ! أيها القواد ! ٣١٥

أيها الأجناد ! إن زهور الجنة التي كانت لكم لضائعة
إذا كان لهذا الذهول أن يصيب
الأرواح الخالدة ! أم تراكم اخترتم هذه البقعة
بعد عناء الموقعة لتريحوا
بسالتكم اللاغبة – وهل فى النوم من راحة ٣٢٠
هنا مثل الرقاد فى وديان الجنة ؟
أم تراكم قد أقسمتم بهذا الاسترخاء الذميم
على الخنوع للظافر ؟ إنه يشهد الآن
كل ملاك من طبقتى الشاروبيم والصاروفيم وهو يتلوى فى اليم
وقد تناثرت أسلحته وراياته وسرعان ما ٣٢٥
يدرك فرسان الكر الخاطف – الذين يقفون الآن لدى
باب الجنة – أن الفرصة مواتية فيهبطون وينقضون علينا
وقد طرحنا أرضا ! ولربما أطلقوا علينا سهام الصواعق
المتصلة
فرموا بنا فى قاع هذا الخضم ! ٣٣٠
هبوا وانهضوا وإلا ترديتم ها هنا للأبد !
أصغوا إليه فخامرهم خجل وفى الحال هبوا
محلقين – كأنهم حراس من بنى البشر

فاجأهم رئيسهم المهاب فى سهرهم وقد غفلوا

فنهضوا ينشدون اليقظة وما هم بيقظين ٣٣٥

لم يكونوا غافلين عن الخسران الفادح

الذى غشيهم ولا الآلام المبرحة التى تعتصرهم

ولكنهم أصاخوا على الفور لصوت رئيسهم

فى أعداد لا تحصى . مثلما رفع

موسى عصاه فى زمن الشدة بمصر

وأشاح بها على الساحل فأرسل الله سحابا مدلهما ٣٤٠

من الجراد مالت أسرابه مع ريح الشرق

فظلّلت مسلك فرعون الكافر

كأنها الليل البهيم يرخى سدوله على وادى النيل !

هكذا بدت هذه الأعداد التى لا تحصى من الملائكة الفسقة

وهم يحلقون بأجنحتهم فى سرادق الجحيم ٣٤٥

والنار من فوقهم ومن تحتهم ومن حولهم

ثم رفع رئيسهم رمحه ، مشيرًا به إليهم

وصوب القائد الأكبر طرفه ليحدد

مسارهم فإذا هم يهبطون فى استواء

على أحجار الجحيم الكبريتية الصلبة ويملأون السهل ! ٣٥٠

يا له من حشد حاشد ! لم تتدفق مثله الجحافل

من أصقاع الشمال ، من صلب مارد بارد

لتركب نهر (الراين) أو نهر (الدانوب) ، عندما كان البرابرة

من أبناء الشمال يتدفقون مثل الطوفان جنوبا وينتشرون

وراء جبل طارق إلى صحراء ليبيا ٣٥٥

وعلى الفور انطلق من كل سرب ومن كل كتيبة

رؤساؤها وقوادها مسرعين إلى حيث يقف

زعيمهم الأكبر ، على محياهم سمات الآلهة

ومخايل نبل تبز أشراف البشر وأمراءهم .

لقد كانوا منذ هنيهة عتاة يتربعون على عرش الجنة ، ٣٦٠

رغم أن أسماءهم قد انمحت الآن من سجلات السماء

ولم يعد لها من ذكر بعد أن كشطها فسوقهم ومحاها

من ألواح الحياة !

لم يكونوا قد اكتسبوا بين بنى حواء

أسماء جديدة حتى ينتشروا فى الأرض ٣٦٥

بمشيئة الله العليا ليبتلوا الإنسان

بأباطيل وأكاذيب فيغووا أكثر

الناس على الفساد حتى يخرجوا من كنف

الله بارئهم ويحيلوا

سناء من خلقهم - ذلك السناء الخفى - ٣٧٠

إلى صورة حيوان أعجم زينوه

بأكاليل من طقوسهم حافلة بالبهرج والنضار

وحتى يتخذوا الشياطين آلهة من دون الله :

عندها عرفهم الناس بأسماء شتى .

وغدوا أصناما شتى فى عالم الوثنية ٣٧٥

خبرينى يا ربة الشعر ! لقد عُرِفَتْ أسماؤهم ، من كان أول من

نهض

من الرقاد على تلك الأريكة المتأججة ومن كان آخرهم

عندما دوى نداء سلطانهم العظيم ؟ إنه التالى فى المنزلة

وقد أتى وحده إلى حيث وقف على الشاطئ المقفر ،

والحشد المختلط ما زال بعيدًا ينظر ! ٣٨٠

إن أعظمهم أولئك الذين نهضوا من وهدة الجحيم

فانتشروا ينشدون ضحاياهم على الأرض فتجاسروا

على إقامة عروشهم - بعد زمن طويل - فى موقع يلى عرش الله

وإقامة مذابحهم بالقرب من مذبحه ، فأصبحوا آلهة تعبدها

الشعوب ، وتجاسروا على مواجهة ٣٨٥

(يهوه) وهو يرعد خارجا من (صهيون) متوجًا

بين ملائكة الشاروبيم ! أجل ! بل إنهم كثيرًا ما أقاموا

معابدهم وسط قدس أقداسه !

تلك الأرجاس !! بل دنسوا بكل ذميم

شعائره القدسية وموائده المباركة ٣٩٠

وتجاسروا على لطم أنواره بدياجيرهم !

أولهم (ملكوم) – الملك الأشأم الذى لطخت يديه دماء

الضحايا البشرية ودموع الآباء والأمهات

ولولا ضجيج الطبول وجلبة الدفوف

لسمع صراخ أطفالهم وهم يلقون فى النار ٣٩٥

أمام صنمه الجهم! لقد عبده بنو ( عَمُّون )

فى ( ربَّه ) حيث ينبسط الماء سهلا عريضا

وفى ( أرجوب ) و ( باشان ) وحتى النهر

الذى يحد أقصى تخوم ( أرنون ) ! وكأنما لم تكفه

كل هذه البقاع المهيبة فخادع قلب أحكم الحكماء ٤٠٠

سليمان حتى يبنى له معبدا

بجوار معبد الله

على تل تدنس من ثم ، وحتى يتخذ بستانه

فى وادى (بنى هِنُّوم) الجميل الذى تغير اسمه من ثم إلى (توفه)

وجهنم السوداء - رمز الجحيم الحق ! ٤٠٥

وتلاه (كموش) رجس المؤابيين

من منطقة (عروعير) إلى (نَبُوَ) والبرية

فى أقصى جنوب جبال (عباريم) وفى (حشبون)

و (حورونايم) التى تخضع لملك (سيحون) وراء

وادى (سبمة) المزهر الذى تكسوه عرائش الكروم ٤١٠

ومن (العالة) حتى البحر الميت .

كان قد تسمى باسم (فغور) عندما أغوى

بنى إسرائيل بالإقامة فى (شطيم) بعد خروجهم من وادى النيل

ليؤدوا له طقوسهم الدنسة التى جرت عليهم المصائب

ومع ذلك فقد وسع من نطاق طقوسه الماجنة ٤١٥

حتى بلغ التل الدنس ، وبستان

مذابح (ملكوم) ، فى شهوة تصحبها الأحقاد !

حتى أخرجهم (يُوشِيًّا) الصالح منها إلى الجحيم .

ومع هؤلاء أتى قوم تسموا بأسماء عديدة

فى المنطقة ما بين (الفرات) العريق والنهر الذى يجرى بين ٤٢٠

أرض (مصر) وأرض (سورية) - وقد كانت أسماؤهم الشائعة

هى (البعليم) للذكر و (عشتورث) للأنثى

إذ إن للأرواح عندما تشاء

أن تتخذ صورة الذكر أو صورة الأنثى أو كلتيهما فهى رهيفة

وبسيطة فى جوهرها النقى ٤٢٥

لا يربطها أو تغلها المفاصل أو الأطراف

ولا تقوم على قوة العظام الهشة

مثلما يقوم اللحم الثقيل - ولكنها فى أى صورة تختارها

متمددة أو مضغوطة ، مضيئة أو مظلمة

تستطيع أن تقضى مآربها الأثيرية ٤٣٠

فتقيم وشائج الحب أو أسوار العداء .

وقد تخلى بنو إسرائيل - من أجل هؤلاء - عن

قوتهم الحية ، وتركوا وراءهم ظهريا

معبد الله الحق ، راكعين فى خشوع

لآلهة من الحيوان ، ومن أجلهم أيضًا كانت رؤوسهم ٤٣٥

تنحنى وتركع فى حومة الوغى ، خاشعة أمام حراب

أعداء أرجاس . ومع هؤلاء - فى هذا الحشد -

أتت (عشتورث) - التى أسماها الفينيقيون

(عشتروث) ، ملكة السماء ، بقرون كالأهلَّة

وأمام صورتها الوضاءة - ٤٤٠

كانت عذارى (صيدا) يحلفن الأيمان كل ليلة فى ضوء القمر

وينشدن الأهازيج

التى أنشدت فى (صهيون) حيث انتصب

معبدها فوق الجبل المدنس الذى بناه

ذلك المَلك المفتون بزوجته والذى وقع رغم رحابة قلبه

فى حبائل الغيد من عابدات الأصنام فسقط ٤٤٥

أمام الأصنام الدنسة . وأتى بعد ذلك (تموز) الذى

كان جرحه يدمى كل عام فى (لبنان) فيخلب لب

بنات (سورية) إذ تأتين للبكاء على مصيره

منشدات أهازيج غرام طول أيام الصيف

بينما يجرى نهر (أدونيس) هابطا من صخرته ٤٥٠

مصطبغا بالأرجوان حتى يصل إلى البحر ، كأنما سرى فيه دم

(تموز) الذى يسيل جرحه كل عام ، أما قصة الحب هذه

فقد بثت شهوة مماثلة فى جوانح بنات (صهيون)

بل شهوات ماجنة فى القبة المقدسة

أبصرها (حزقيال) عندما هدته الرؤيا ٤٥٥

ليشهد الشرك والتعبد فى الظلام

لـ (يهوذا) المغضوب عليه ! وجاء بعده
من بكى مر البكاء ، حين شوه فُلْكُ الله
الأسير صورته البهماء ! بل إنه قطع رأسه ويديه
فارتمى (الصنم) لدى الباب فى عقر معبده ٤٦٠
طريحا وجلب العار لعباده !
كان اسمه (داجون) وهو وحش بشرى نصفه الأعلى بشر
ونصفه الأسفل حوت ! ومع ذلك فقد ارتفع معبده
عالى البنيان فى (أشدود) ، وكانت له مهابة فى أرجاء ساحل
(فلسطين) ، فى (جت) وفى (عسقلان) ٤٦٥
وفى (عكا) وفى (غزة) حتى أقصى التخوم
وجاء من بعده (رمّون) الذى اتخذ مقره الجميل
فى ( دمشق ) الفيحاء على الضفاف الخصبة
لنهرى ( أبانة ) ونهر ( الفرفر ) بمياههما الرقراقة !
كان قد تجاسر هو الآخر على بيت الله ٤٧٠
فخسر قلب المجذوم وفاز بقلب الملك (آحاز)
الفاتح المأفون ، فجعله
يسخر من معبد نبى الله ويقيم مكانه
معبدا سوريا ليحرق فيه

قرابينه البشعة ويصلى للآلهة ٤٧٥

الذين قهرهم ! وجاء بعد هؤلاء

رهط ذاعت أسماؤهم فى غابر الزمان -

(أوزوريس) و (إيزيس) و (حورس) ومن تبعهم

من ذوى الصور الممسوخة وأرباب السحر الذين أضلوا

فرعون وكهنة مصر المتعصبين الذين عبدوا ٤٨٠

آلهة من الرُّحّل الذين اتخذوا صور الحيوان

لا الإنسان ! ولم ينج بنو إسرائيل من هذا

الوباء إذا صنعوا من الذهب الذى اقترضوه

عجلا فى (حوريب) ! أما الملك العاصى

فقد ضاعفت من هذا الإثم فى (بيت ايل) وفى (دان) ٤٨٥

حين مثل لخالقه بثور يرعى الكلأ -

(يهوه) الذى ضرب ضربة واحدة وهو خارج

من مصر ، فأتت فى ليلة واحدة ودون تفرقة على

أكبر أبنائها وبهائمها - آلهة مصر الثاغية !

وأخيراً أتى (بَلِيَّعَال) أمجن الجن التى ٤٩٠

خرجت من الجنة ، وأغلظها طبعا لحبه

الشر لذاته ! لم يكن يعترف بمعبد قائم

أو مذبح يحرق فيه البخور ! ومع ذلك فما أكثر ما اختلف

إلى المعابد والمذابح ليجعل من الكاهن

ملحدا مثلما فعل بنو (عالى) الذين أفعموا ٤٩٥

بالشهوات الدنيا وبالبطش بيت الله

وبلاط الملوك والقصور ! إنه ليبسط سلطانه

فى المدائن المترفة حيث تعلو أصوات

الحفلات الصاخبة فوق أبراجها العالية كما تعلو

أصوات الفسق والفجور ! وحينما يرخى الليل ٥٠٠

ظلامه على الطرقات يخرج أبناء

(بليعال) وقد انتفخت بطونهم بالنبيذ وانتفخت أوداجهم بالبذاءة!

انظر إلى طرقات (سدوم) وتلك الليلة الليلاء

فى (جِبْعَة) عندما تبرجت لدى باب رجل كريم

امرأة لتجنب صاحب الدار هتك عرضه ! ٥٠٥

تقدم هؤلاء لعلو منزلتهم وجبروتهم ،

أما الباقى فيطول ذكر أسمائهم رغم ذيوعهم وشهرتهم

إنهم آلهة (الأيونيين) الذين انحدروا من صلب (ياوان) فاعتُبروا

آلهة رغم نسبتهم فيما بعد إلى السماء والأرض

وتفاخرهم بهذين الأبوين . كان (تيتان) ابن السماء الأكبر ٥١٠

وكانت ذريته من المردة الغلاظ ، وقد اغتصب ملكه الموروث
(ساتورنوس) الذى يصغره سنا ثم لقى من (جوف) الجبار
المعاملة نفسها هو وابنه الذى أنجبه من (ريا)
وهكذا حكم (جوف) اغتصابا : إذ عُرِفَ هؤلاء أولاً فى
(كريت)
وعلى جبل (أيدا) ثم اعتلوا الثلوج التى تكسو قمة جبل ٥١٥
(الأوليمب) بزمهريره وحكموا السماء الوسطى فكانت
أرفع سماواتهم ، واستقر بعضهم على صخور (دلفى)
أو فى (دودونا) وحتى أقاصى
أرض (دوريس) وأما البعض الآخر فقد اصطحبوا
(ساتورنوس) الهرم
وانطلقوا فوق مياه البحر (الأدرياتى) إلى حقول ٥٢٠
(هسبيريا)
وفوق سهول (الكلت) محلقين حتى الجزر القصوى.
احتشد هؤلاء وغيرهم . كانت نظراتهم
زائغة وعيونهم كسيرة ، على ما لاح فيها
من بصيص فرحة خابية حين وجدوا أن رئيسهم
لم يبتلعه اليأس ، ووجدوا أنهم لم يضيعوا بعد ٥٢٥

حتى وهم فى غمرة الضياع ! كان على محياه
ظل كسوف ، بيد أن كبرياءه الأصيلة
سرعان ما عادت إليه فطفق يتكلم كلمات طنانة توحى
بمعان جليلة وهى منها خواء ! كانت كلمات رفيقة أذكت
شجاعتهم الذاوية وبددت مخاوفهم . ٥٣٠
ثم أمر بأنه عندما يدوى صوت الحرب
عاليا من كل بوق ونفير فعليهم أن يرفعوا
رايته الجبارة – وهو شرف كبير أصر على أن يناله
(عزازيل) قائلاً إنه من حقه لعلو قامته .
وعلى الفور نُشرت من القناة البراقة ٥٣٥
رايةُ السلطان فارتفعت شَمّاء
وتألقت مثل مُذَنَّبٍ ينساب فى الريح وقد لمعت فيه
الأحجار الكريمة وسطع بريقه الذهبى الأخاذ
إذ تألقت فى الراية رموز الأسلحة وأكاليل النصر التى ظفر بها
الملائكة
بينما أخذت الأبواق الرهيبة تدوى بأنغام الحرب . ٥٤٠
ثم ندت من ذلك الحشد الحاشد
صيحة مزقت قبة الجحيم وتخطتها

لتفزع ملك العماء والليل الهرم

إذْ تَبَدَّتْ فجأة فى البهمة

عشرة آلاف راية ترتفع عاليا فى الهواء ، ٥٤٥

خفاقة بألوانها المشرقة ! وارتفعت معها

غابة لَفَّاءُ من الرماح الشائكة والخوذات المحتشدة

والدروع الكثيفة التى حشرت حشرًا

فما يسبر لها من غور ! وإذا بها جميعا تتحرك

فى فيلق محكم على أنغام مقام (دوريس) من ٥٥٠

النايات والمزامير الرقيقة ! كانت هذه الأنغام هى التى سمت

بالأبطال القدماء إلى أرفع درجات الشرف وهم يتأهبون

بأسلحتهم لخوض القتال ، وجعلتهم يتنفسون أنفاس

الشجاعة الرزينة ، لا أنفاس الغضب ، فثبتوا ولم ينكصوا على

أعقابهم خشية الموت ، ولم يولوا الأدبار يومًا ما ٥٥٥

فلديهم طاقة التخفيف عن أذهانهم المضطربة ،

والترويح عن نفوسهم الثائرة ، باللمسات الرصينة الرزينة ،

بل وإقصاء القلق والشك والخوف والحزن والألم

عن أذهان الفناء وأذهان الخلود جميعا . فهكذا كان هؤلاء الآن ،

يتنفسون قوة موحدة ، ثابتة العزم ، ٥٦٠

ويسيرون فى صمت على أنغام المزامير الساحرة التى يسرت
خطوهم الموجع فوق التربة الملتهبة . وها هم الآن
يبرزون للعيان ، ويتوقفون : جبهة شاكية السلاح
طولها مهيب وسناها يذهب بالأبصار ، فى صورة
الصناديد القدماء ، وقد سووا صفوف الحراب والدروع ، ٥٦٥
فى انتظار الأمر الذى كان على زعيمهم الجبار
أن يصدره . أما هو فقد ألقى على هذه الصفوف المدججة
عينه الخبيرة ، واستعرض فى لمحة
ذلك الجحفل بأسره ، فتبين له انتظام درجاتهم ، وبدت له
وجوههم وقاماتهم فى صور الآلهة ٥٧٠
ثم أحصاهم وعدهم عدا فانتفش قلبه بالزهو
والخيلاء ، وقسى فى قوته وتباهى ،
إذ إنه منذ أن خلق الإنسان
لم يلتق مثل هذا الحشد لقاء رجل واحد ، ولن يبدو أمامهم
أى جيش أكبر من صغار فصائل المشاة التى ٥٧٥
هزمتها الكراكى ! أوَ تَذْكُرُ سلالة العمالقة الذين
خاضوا معارك (فليجرا) وقد تضافرت معهم ذرية الأبطال
الذين حاربوا فى (طيبة) وفى (إليوم) ، وما انضم إلى

كل فريق من آلهة تعينه ؟ أو ما ترويه

الأسطورة والرومانسة عن ابن ( أوثر ) الذى ٥٨٠

أحاط به فرسان ( بريطانيا ) و ( أرموريا )

وكل من قاتل منذ ذلك الحين ، مؤمنا أو كافرا ،

فى (اسباراموتنى) أو (مونتالبان) ، وفى

(دمشق) أو (المغرب) أو (طرابزون)

أومن خرجوا من (بنزرت) على ساحل (إفريقيا) ٥٨٥

ليكسروا (شارلمان) وفرسانه فى موقعة

(فونتارابيا) ؟! فهكذا كان هؤلاء الذين تجاوزوا كل

صورة لعنفوان البشر يقفون الآن تكريما

لقائدهم المهيب . كانت هامته تعلو على الجميع

وكان فى صورته وحركته شامخا متكبرا ٥٩٠

كالبرج الأشم . لم تكن طلعته قد فقدت بعد

بهاءها الأول ، فبدا ملاكا أكبر

أناخ عليه الدهر ، وغام من فرط

السناء وأظلم ! مثل الشمس عند شروقها

وهى تشخص من خلال ضباب الآفاق ، ٥٩٥

عاطلة من أشعتها ، أو عندما تطل من وراء القمر

ساعة الخسوف المدلهم ، جالب الكوارث ، فتسكب الظلال
على نصف أمم الأرض ، وتثير الخوف من التحول
والقلق فى قلوب الملوك . ورغم الظلام الذى كان يلف
الملاك الأكبر فقد فاق ضياؤه كل من حوله . كانت ٦٠٠
الجراح الغائرة من أثر الرعود تُغضّن وجهه ، وكان الهم
يقبع فوق خده الذابل ، مستظلا بحاجبين ينطقان
بشجاعة لا تُفَلّ ، وكبرياء الرزين المتدبر
الذى يتحين الثأر ! وكانت فى عينيه قسوة تشوبها
آيات ندم وشوق إلى رؤية ٦٠٥
رفاق جريمته ، أو قل أتباعه
( وما أشد اختلافهم عمن رآهم فى النعيم ) الذين كتب عليهم
الآن أن يتحملوا الآلام إلى أبد الآبدين !
ملايين من الجان الذين أخذوا بجريرته فحُرِموا
الجنة ونُبِذوا من روائع الخلد ٦١٠
لفسوقه وعصيانه ! ما أشد ولاءهم له
حتى بعد أن ذوى بهاؤهم . أرأيت إلى نيران السماء
حين تحرق أشجار البلوط فى الغابات أو أشجار الصنوبر على
الجبال

فتظل قاماتها المهيبة ، رغم عريها وشيب رؤوسها
منتصبة على الربى الجرداء ؟! وتهيأ الآن للحديث ٦١٥
بينما أخذت صفوفهم المزدوجة تنحنى
من الجناحين حتى كادوا يحيطون به
هو وأقرانه وقد عقد الترقب ألسنتهم .
ثلاث مرات حاول أن ينطق ، وثلاث مرات – رغما عنه –
تفجرت من عينيه دموع كدموع الملائكة ، وأخيراً ٦٢٠
اختلطت الكلمات بالآهات خارجة من شفتيه إذ قال :
يا آلاف الأرواح الخالدة ! أيتها القوى التى
لا غالب لها إلا القوى القدير ! لم يكن ذلك النزال
شائنا رغم انكسارنا المزرى
الذى يشهد عليه هذا المكان ، وهذا الانقلاب المهين ٦٢٥
الذى يشق ذكره ! ولكن أى طاقة للذهن
على التنبؤ أو رؤية للغيب ، غوصا فى أعماق
العلم بالماضى أو بالحاضر ، كانت لتخشى اندحار
هذه القوة المتضافرة من الآلهة ؟ وكيف لمن
يقف وقفتكم هذه أن يُرَدَّ على عقبيه ؟ ٦٣٠
ومن ذا الذى يصدق ، حتى بعد الضياع ،

أن جميع هذه الكتائب العاتية التى أقصيت
من الجنة فتركتها خاوية ، لن تستطيع أن ترتقى ثانيا
بشدة بأسها لتستعيد عرشها العريق ؟
فليشهد على ما أقول كل أهل الجنة ٦٣٥
إننى إذا كنت رأيت رأيًا آخر أو تفاديت الخطر
لضاعت آمالنا جميعا ! ولكن الذى يحكم
وله الملك فى السماء كان فى مأمن حتى تلك اللحظة
جالسا على عرشه ، يُعزّزه صيته القديم
أو تقبل سلطانه أو العرف القائم ، وبينما كان يبدى ٦٤٠
شتى مظاهر ملكه كان يحرص دائمًا على إخفاء قوته
مما أغوانا أن نقدم على محاولتنا وتسبب فى سقوطنا !
أما الآن فنحن ندرك قوته وندرك قوتنا
بحيث نحجم عن إثارة حرب جديدة ، ولا نخشى
خوض حرب جديدة إذا شُنَّتْ ! والأفضل لنا الآن أن ٦٤٥
نعمل فى الخفاء حتى ننال بالمكر أو الخديعة
ما لم ننله بالقوة ، عسى أن يتعلم هو الآخر
منا فى النهاية أن من ينتصر على عدوه
بالقوة وحدها إنما يحرز نصف انتصار فحسب .

قد تولد فى الفضاء عوالم جديدة ، بل كثيرًا ما ترددت ٦٥٠
الشائعات فى السماء أن الله يعتزم خلقها
قريبًا ، وأنه سوف يبذر فيها
سلالة يُحْسِنُ خلقها
ويقربها منه لتضارع أبناء الجنة !
هيا إلى ذلك العالم إذن، ولو لاستطلاعه فحسب، فربما كان كذلك ٦٥٥
بادرة انطلاقنا ! هيا إليه أو إلى أى مكان سواه ،
إذ لن نسمح لهذه الحفرة الجهنمية أن تغل أرواح السماء
فى الأصفاد ، أو لهذه الهوة أن تظلنا
بظلامها ردحا طويلا ! ولكن هذه الأفكار
لن تنضج إلا بتشاورنا جميعًا : السلام ميئوس منه. ٦٦٠
إذ من يفكر منا فى الاستسلام ؟ إنها الحرب إذن ! الحرب !
وينبغى أن نحسم إذا ما كانت ستشن سافرة أو خفية .
فرغ من حديثه فارتفعت ملايين الأسياف الملتهبة
نصرةً لكلماته - أسياف استلت من أغمادها على
جنوب الجبابرة من ملائكة الشاروبيم ، فأضاء وهجها بغتة ٦٦٥
جنبات الجحيم وأقاصيها : لقد تعالوا فتطاولوا
على الأعلى ، وفى حمياهم دقوا بقبضات أسلحتهم

على دروعهم الرنانة دقات الحرب

وأرسلوا التحدى مدويا نحو قبة السماء .

كان ثم جبل غير بعيد ، وكانت قمته الرهيبة ٦٧٠

تتجشأ النيران والدخان المتكور ، أما سائر جسمه فكان

يبرق بقشور زاهية ، وهى دلائل مؤكدة على أنه

يخفى فى بطنه زُبَرَ الحديد والمعادن

التى ولدها الكبريت فانطلقت إليه على جناح السرعة

كتيبة عرمرم ، مثل فرق الرواد ٦٧٥

الذين يحملون المعول والجاروف

ويتقدمون جيش الملك ليحفروا الخنادق

أو يقيموا المتاريس . كان على رأسهم (مامون)

وكان (مامون) أقل الأرواح سموا بين من خرجوا

من الجنة ، وحتى فى الجنة كانت نظراته وأفكاره ٦٨٠

تتجه دائمًا إلى أسفل ، إذ تبهره ثروات أرض الجنة

والنضار الذى تطؤه الأقدام ، أكثر من أى قداسة

أو مشاعر ربانية مما يُسْتَمْتَعُ به

فى الرؤى المباركة . كان أول من حفز البشر

وأوحى إليهم فعلمهم أن ينهبوا ٦٨٥

باطن الثرى فيدنسوا أيديهم
ويبقروا أحشاء الأرض أمهم الرؤوم
ليستخرجوا الكنوز التى أُحكم إخفاؤها . وسرعان
ما شق فريقه جرحًا عظيمًا فى جسد هذا الجبل
واستخرج منه ضلوعا من الذهب . لا يَعْجَبَنَّ أحد ٦٩٠
أن الكنوز تنمو فى الجحيم ، إذ إن تربتها
أجدر ما يحمل ذلك البلاء النفيس . وهنا ، فليعلم
الذين يتباهون بكل فان زائل ، والذين يحكون فى إعجاب
عن (بابل) وأهرامات ملوك (ممفيس) ، ألا
فليعلموا أن أعظم آثارهم الذائعة ٦٩٥
وقوتهم وفنونهم ، ما أيسر أن تبزها
أرواح الجن المغضوب عليها ، فتنجز فى ساعة واحدة
ما لا يقدرون عليه فى دهر طويل بالجهد الدؤوب
وما لا يحصى من أيدى البشر !
وعن كثب فى الحجرات التى أعدت على السهل المنبسط، ٧٠٠
الذى تجرى من تحته عروق النيران السائلة
التى تتدفق من فتحات فى البحيرة ، كان حشد آخر قد انهمك
بفنه الرائع فى صهر كتل الإبريز ، وأخذ

يفصل بين كل نوع ويجمع الشوائب كالزبد على سطح الذهب

بينما كان فريق ثالث قد صاغ فى الأرض ٧٠٥

قوالب منوعة ، وصب فيها الذهب الذى يغلى فى الحجرات

فملأ أركانها المجوفة ، ناقلا إياه نقلا عجيبا

مثلما يُنفخ فى الأرغن نفخة واحدة فتنتقل إلى

صفوف المزامير المنوعة فتعلو أنفاس أنغام متباينة .

وسرعان ما ارتفع من الأرض بناء ضخم ٧١٠

تصاعد كالزفير تصاحبه أصوات

الألحان المتوافقة والأناشيد العذبة !

بناء يشبه المعبد ، يرتكز على عضادات

فى الأركان ، عمد ( دُورِيّة ) مكسوة

بطلاء ذهبى ، لم تكن تنقصها ٧١٥

الأطر والأفاريز التى نحتت فيها التصاوير البارزة .

كانت عارضة السقف من الذهب المنقوش . لم تشهد

(بابل) أو القاهرة العظيمة مثل هذه الفخامة ولم

تضارعاها بكل أمجادهما وبكل المفاخر التى أعدت لتكريم

إلهيهما (بعل) و (سيرابيس) ، أو لإعداد عروش ٧٢٠

ملوكهما عندما كانت (مصر) و (آشور) تتنافسان

ثراء وترفا . وسرعان ما ارتفع العمود الأوسط

فدعم ارتفاع المبنى الفخم ، وعلى الفور

انفتحت أبوابه على مصاريعها النحاسية لتكشف عن رحابة

فى داخله ، وفراغات شاسعة امتدت فوق الأرضية الملساء ٧٢٥

المستوية ، وتدلت من قبة السقف

كأنما تعلقت بسحر ساحر ماكر صفوف عديدة

من المصابيح كأنها النجوم ومشاعل وهاجة توقد

من النفط والقار فتنشر ضوءًا يضاهى

نور السماء ، ودخل الحشد المتعجل ٧٣٠

مبديا إعجابه ، فهذا يطرى البناء

وذاك يطرى مهارة البَنَّاء . كان أسلوبه معروفا

فى السماء ، إذ شاد الكثير من شاهق الهياكل ذات الأبراج

التى أقامت بها الملائكة المتوجة

وحكم كلا منها أمير رفعه الملك الأعلى ٧٣٥

إلى مكان مكين ونصبه حاكما

فى درجة معلومة من درجات الرفعة ، على الكتائب الوضاءة ،

وما كان اسمه مجهولا أو غير مكرم

عند اليونان القدماء أو فى أرض (أوسونيا)

إذ أسماه البشر (مولكيبر) ، أما عن خروجه ٧٤٠
من الجنة فيزعمون فى أساطيرهم أن (جوف) قد غضب عليه
فألقاه عاريا من فوق الأسوار البلورية ، فظل يهوى
من الصباح إلى الظهيرة ، ومن الظهيرة حتى المساء الندىّ
طيلة يوم من أيام الصيف ، حتى سقط عند غروب الشمس
مثل شهاب ثاقب من كبد السماء ٧٤٥
على أرض (ليمنوس) وهى جزيرة فى بحر (إيجه) . هذ روايتهم
الكاذبة ، إذ إنه كان قد سقط مع هذا الحشد العاصى
قبل ذلك بدهور ، وما أغنى عنه اليوم
ما بناه فى السماء من سامق البروج ، وما استطاع الفرار
بكل حيله ، بل أُلْقِىَ به فانقلب ٧٥٠
مع عماله المهرة ليرفعوا الأبنية فى الجحيم .
وفى هذه الأثناء كان المنادون المجنحون ، مؤتمرين بأمر
سلطانهم الأكبر ، يتولون المراسم الرهيبة
ويرسلون صوت الأبواق إلى آذان الحشد الحاشد ، فيعلنون
انعقاد مجلس مهيب على الفور ٧٥٥
فى ( بانديمونيام ) - العاصمة الكبرى
لإبليس وأقرانه . فاستدعى نداؤهم

من كل فريق وكل فصيلة رباعية التشكيل
أعلاها مكانا وأرفعها درجة . وهكذا جاء الجميع فوراً
مع المئات والآلاف من أتباعهم ٧٦٠
فملأوا الطرقات عن آخرها والبوابات
والمداخل الواسعة ، لا سيما تلك الردهة الرحيبة
( كانت تشبه الميدان المغطى حيث كان الأبطال البواسل
يركبون جيادهم مشرعين سلاحهم فى مجلس السلطان
ليتحدوا أعظم فرسان الوثنية وليشتبكوا ٧٦٥
فى نزال حتى الموت أو يتلاقوا بالرماح على ظهور الخيل )
كان الزحام كثيفا فى أكناف الردهة وفى فراغها ، وانتشر
حسيس خشخشة الأجنحة . كانوا يشبهون النحل
فى زمن الربيع عندما تعتلى ذُكاءُ برج الثور
فيتدفق صغارها الكثار حول الخلية ٧٧٠
أسرابا ويطيرون بين الأنداء والزهور اليانعة
غادين رائحين ، أو يحطون على اللوح الناعم كأنه
ضاحية من ضواحى قلعتهم المبنية من القش
وقد كسته طبقة من العسل العطر ، فيحومون ويناقشون
شئون دولتهم . ما أشد ازدحام هذا الحشد من كائنات الهواء ٧٧٥

وما أشد تكاتفهم وأضيق حشرهم ! حتى إذا صدرت الإشارة

شهدت عجبًا ! إن من كانوا يبزون فى ضخامتهم

أبناء الأرض من العمالقة قد استحالوا

الآن إلى كائنات أصغر من أصغر الأقزام ، وقد حشروا فى بقعة

ضيقة بأعداد لا تحصى ، مثل تلك السلالة من الأقزام التى ٧٨٠

تعيش وراء جبل (الهند) ، أو مثل صغار بنات الجان اللواتى

يمرحن عند منتصف الليل فى جانب من جوانب الغابة

أو حول عين من عيون الماء ، فيراهن فلاح تأخر فى العودة

أو يحلم بأنه رآهن ، بينما يجلس القمر فى السماء

مجلس الحكم ليشهدهن من عل ثم يقترب من الأرض ٧٨٥

مسرعًا فى خطوه الشاحب، وهن يواصلن اللهو والرقص

على أنغام مرحة تسحر أسماع الفلاح

فيضطرب قلبه فرحًا وفرقًا معًا !

وهكذا استطاعت هذه الأرواح التى لا جسد لها أن تحيل

هياكلها الضخمة إلى كائنات دقيقة ، وانطلقت حرة ، ٧٩٠

على كثرة أعدادها التى لا تحصى وسط ردهة

ذلك القصر الجهنمى . ولكن حشدًا آخر من

شيوخ ملائكة (الصاروفيم) و (الشاروبيم) بأحجام مماثلة لها

كان قد التقى فى ركن قصى من هذا القصر

فعقد اجتماعًا مغلقًا وجلسة سرية !　　٧٩٥

كان ألف من أنصاف الآلهة يتربعون على كراسى من ذهب

حافلة وغاصة . وبعد صمت قصير

وبعد قراءة الدعوى بدأت المشاورة الكبرى .

# الكتاب الثانى

## الموضوع

عندما يبدأ التشـاور يناقش إبليس حكمة المخاطرة بحرب جـديدة لاستعادة الجنة فينصح البعض بها ، ويوصى البعض باجـتنابها . ثم يلقى القبول اقتراح ثالث كان إبليس قد طرحـه من قبل ألا وهو التحقق من مدى صـحة النبوءة أو الشائعـة التى ترددت فى الجنة عن حلول موعد خلق عالم آخـر ونوع آخر من المخلوقـات مساو للـملائكة أو دونها قليـلاً . يتساجلون فـيمن ينبـغى إرساله للنهوض بهـذا المسعى الـشاق . يتعـهد زعيمـهم إبليس بأن يقوم وحـده بهذه الرحلة فـيلقى التكريم والتـرحيب . وعندمـا انفض المجلس تفـرق الجمـيع فمـضى كل واحد فى سبيلـه وشرع يقوم بما تنزع إليـه نفسه ، تزجـية للوقت انتظارًا لعـودة إبليس . أما إبليس فـإنه يذهب فى رحلتـه إلى أبواب الجحـيم فيجدها مـوصدة . ويتلو ذلك الحديث عن حارسها ، وعن فـتح الحارس لها آخر الأمر ، وعن رؤية إبليس عند فتح الأبواب هوة عظيمة تفصل بين الجحيم والجنة ، وعن الصعوبة التى يتـجشمها فى عبـور تلك الهوة لا هادى له سوى العماء حاكم ذلك المكان ، حتى يرى العالم الجديد الذى ينشده .

عاليًا على العرش الملكى - عرش يبز

لألاؤه كنوز (هرمز) والهند

أو حيث يغدق الشرق الرائع بكفّ الثراء

أنداءه على ملوكه من لآلئ البربر ونضارهم -

جلس إبليس ! رفعه قدره إلى ٥

أسمى مكانة فى الشر، ورفعه يأسه

حتى تجاوز الأمل ، فأصبح يطمع فيما

هو أعلى ، ويتعطش لخوض

حرب لا طائل منها مع السماء . لم يتعلم من عاقبة ما حدث

فأفصح عن كبرياء تصوراته قائلاً : ١٠

أيها الأقوياء والصناديد ! يا أرباب الجنة ! أجل !

فطالما لا يتسع بحر

لطاقاتكم الخالدة ، حتى بعد اندحارها وسقوطها ،

فلا إخال الجنة قد ضاعت - إن هذا الهبوط

ليرفع خصال السماء فيكم فتبدو ١٥

أمجد وأعتى من خصال من لم يهبط

إذ إنكم لا تخشون - يقينًا - هبوطًا آخر !

إننى أشغل مكانى الحق ، وقد نصبتنى قوانين السماء الثابتة

زعيما عليكم ، ثم أتت الإرادة الحرة

وما أحرزته فى مجال الرأى أو فى حومة الوغى ٢٠

من امتياز أصيل . والآن يأتى هذا الضياع

وقد أفقنا من غمراته شيئًا ليزيد من تثبيت عرشى

آمنا غير منافس ،

وقد قدمتوه لى بالرضا الكامل . إن سعادة

الجنة – وهى التى تلى الكرامة فى المنزلة – يمكن أن تثير ٢٥

الحسد فى نفوس المرؤوسين ، ولكن من ذا الذى

يحسد اليوم من تعرضه رئاستكم

لسهام الراعد فيتصدى لها كأنه

درعكم الواقى ؟ بل إنها تقضى عليه بأوفى قسط

من العذاب الدائم ؟ وإذا لم يكن ثم خير ٣٠

نتصارع من أجله فلن ينشأ الصراع من

التشتت . ولن يطمح أحد – يقينًا – أن ينال فى الجحيم

امتياز السبق ، ومن صغُر حظه

من العذاب لن يدفعه طموح الذهن

إلى طلب المزيد ! إنها لمزية إذن تضيف إلى ٣٥

الوحدة والإيمان الثابت والوفاق الراسخ

بأكثر مما يكون فى الجنة - إننا نعود الآن
لنطالب بميراثنا العريق الحقيق بنا
وقد وهبتنا التعاسة ثقة فى السعادة أكبر
من ثقتنا فيها لو كنا سعداء ! فلنبحث أفضل الطرق لتحقيقها ٤٠
الحرب السافرة أم المكائد الخبيئة ؟
فلنشرع فى المطارحة ومن لديه رأى فليدل به .
وصمت . ومن بعده هب ملكوم ذلك الملك ذو الصولجان
فانتصب قائمًا . كان أعتى وأشرس جنى
قاتل فى الجنة والآن زاده اليأس شراسة ! ٤٥
كان يثق فى مساواته للسرمدى
وتكافئهما فى القوة ، وكان يؤثر العدم
على أن يكون أقل قوة منه ! أما وقد تلاشت تلك الثقة
فقد تلاشى كل خوف لديه ولم يعد يعمل حسابا لله أو للجحيم
أو لما هو أدهى !
لم يعد يكترث لشىء وهكذا طفق يتحدث قائلاً : ٥٠
رأيى هو الحرب السافرة أما المكائد
فلست بها خبيرا ولا بها فخورا ! ألا
فليدبرها من يحتاجها ، أو حين يحتاجها ، أما الآن فلا !

أفبينما يمكر البعض هنا يظل سائر القوم - الملايين
الذين يقفون اليوم مدججين ويتلهفون على رؤية ٥٥
إشارة الصعود - جالسين هنا متخاذلين كأنما
هربوا من الجنة ؟ أوَ بدلا من موطنهم عليهم أن
يقبلوا هذا الجحر المظلم البشع الذى يجلله العار
والسجن الذى أعده طاغية ما زال يهنأ بملكه
لأننا نتلكأ ونتأخر ؟ كلا ! الأفضل ٦٠
أن نتسلح بشواظ الجحيم وغضبتنا الشعواء معا
فنقتحم أبراج الجنة المشمخرة غاصبين طريقنا غصبًا
ولنجعل من عذابنا سلاحًا فتاكًا
ضد من يعذبنا ! وسيتصاعد ساعة اللقاء ضجيج
آلاته الحربية الجبارة فيسمع إزاءها ٦٥
رعود الجحيم ، وإزاء بروقه سوف يرى سهام
النيران السوداء والرعب الجائح منطلقة فى غضبة مماثلة
نحو ملائكته : بل إن عرشه نفسه سوف ينصب عليه
كبريت (تارتاروس) وغرائب النار
وهى آلات العذاب التى ابتدعها . ولربما ٧٠
بدا هذا الطريق عسيرًا شاهق المطلع ، إذ يقتضى

التحليق نحو عدو عالى الموقع ! ولربما
استطعنا أن نركبه إذا كان الشراب المخدر الذى تجرعناه
فى بحيرة النسيان لم يعد يشل حواسنا ،
ولربما استطعنا أن نعود إلى طبيعة حركتنا الصاعدة فنبلغ ٧٥
موطننا الأول : إن الهبوط والسقوط
ضد طبيعتنا . ومن ذا الذى لم يشعر منذ قليل
- عندما انقض العدو الشرس على مؤخرة جيشنا المتقهقرة
شامتًا فطاردنا فى أغوار المحيط -
كيف اضطررنا اضطرارًا وجهدنا جهدنا كى ٨٠
نهبط إلى هذا الدرك الأسفل ؟ الصعود سهل إذن
ولكننا نخشى عاقبته ! فإذا عدنا إلى استفزاز من هو
أقوى منه فلربما وجدت غضبته سبيلا أشد وبالا
لتدميرنا - هذا إذا كان لنا فى الجحيم
أن نخشى دمارا أشد وبالا ! وهل ثم وبال أشد ٨٥
من الإقامة فى الجحيم ، وقد لفظتنا جنات النعيم ، وحكم علينا
فى هذا العباب البشع بعذاب مطلق ، بل
بعذاب الحريق الذى لا ينطفئ أواره ،
ونكتوى بناره ، دون أمل فى انحساره ، إذ صرنا

عبيد سعاره ، وأصبح سوط العذاب ٩٠
يصب علينا حتى إن ساعة الألم
لتدعونا إلى التوبة ؟ إذا كان ثم دمار أشد من هذا
فهو النهاية والموت
ماذا عسانا أن نخشى إذن ؟ ولماذا نتردد فى إثارة
أقصى غضب له ؟ إنه إن بلغ به الغضب مبلغه ٩٥
فقد يفنينا فناء تاما ، ويحيل
إلى العدم جوهر كياننا ، وهى حال أهنأ كثيرا
من الشقاء الذى يحيا فيه كياننا الخالد !
أما إذا كان كياننا كيان آلهة
لا تفنى ، فحالنا الآن أسوأ ما يُتَرَدَّى فيه - ١٠٠
باستثناء العدم ! ولدينا البرهان على أن
قوتنا تكفى لقلقلة جنته ،
وأننا نستطيع بالغارات المتواصلة إقلاق
عرشه المنيع المكين - عرش القضاء !
وهكذا فإن لم نظفر بالنصر كنا قد أخذنا بالثأر ! ١٠٥
فرغ من خطابه مقطب الجبين ، تنم نظراته عن
استماتة فى طلب الثأر ، وفى خوض قتال خطر

على من هم دون الآلهة . وعلى الجانب الآخر نهض
(بليعال) - أرشق حركة وأرق رسما ،
لم تفقد الجنة أجمل منه . على محياه ١١٠
رباطة جاش وسيماء عزة وجليل فعال
ولكنه زائف أجوف ، رغم أن لسانه ذلق
يقطر مَنًّا ، ويجعل أفسد الحجج تبدو
عين الحجى والرشاد ، حتى تختلط وتنهار
أحكم الآراء . فهو منحط الفكر ، ١١٥
فى فعل الشر دؤوب ، عن فعل الخير
متقاعس عزوف . لكن كلامه يشنف الآذان
ونبراته تحمل على الإقناع . وهكذا بدأ حديثه قائلاً :
قد كنت خليقًا أن أناصر الحرب السافرة أيها الأقران
( فأنا لست أقل منكم غلا ) إذا لم تكن الدعوى القائمة ١٢٠
- وهى الدافع الأول إلى الحرب العاجلة -
ترتد بى عنها أيما ارتداد ، وتتراءى لى وقد ألقت
ظلالا شأماء على عاقبة هذا الأمر .
إن من يفوق الجميع فى قوة السلاح
ويجمع إلى سداد الرأى وذياك التفوق ١٢٥

دهاء وريبة ، يقيم شجاعته على أن يصيبنا اليأس
فنتفكّك ونتشتت بعد محاولة ثأر رهيبة
وهذا هو عين ما يرمى إليه . فلنسأل
أولا أى ثأر ذياك ؟ إن أبراج السماء قد ملئت
حرسا شديدًا مدججًا ، حتى لقد سُدَّت المنافذ جميعًا ١٣٠
وامتنعت . إنهم كثيرًا ما يهبطون فى المحيط المتاخم
فتعسكر كتائبهم ، أو يحلقون على أجنحة خَفِيَّة
فيطوفون بأقصى أطراف مملكة الليل
كيلا يباغتهم مباغت ! أما أن نشق طريقنا
عنوة لتهب فى أعقابنا الجحيم بأسرها ١٣٥
بأحلك تمرد وأبهمه ، ليطمس نُورَ الجنة -
أنقى الأنوار وأطهرها - فإن عدونا اللدود
سيظل على عرشه لا يمسه سوء
قائما لا يأتيه أذى ، وسيظل الجوهر الأثيرى نقيًا
لا تشوبه شائبة - وسوف يرد ١٤٠
كل أذى وينفض آثار حطيط النار
منتصرًا . إننا إن رُدِدْنا هكذا فلن يبقى لنا من أمل
إلا اليأس الكامل ، إذ سينفد صبر

الظافر ذى الجبروت فيطلق كل ما فى جعبته من غضب

حتى يهلكنا - وهذا فيه شفاؤنا ١٤٥

أى العدم! يا له من شفاء محزن ! إذ من ذا الذى يرضى

مهما أفعمه الألم بفقدان هذا الكيان الذهنى -

تلك الأفكار التى تصول وتجول إلى الأبد -

مفضلا العدم - أى أن يُبْتَلَعَ ويضيع

فى رحم الليل الرحيب الذى لم يخلق بعد ، ١٥٠

محروما من الإحساس والحركة ؟ ومن يدرى ؟

لنفترض أن فى هذا خيرا سواء كان عدونا الغاضب

قادرا أو راغبا فى منحه ( أما قدرته على منحه

فأشك فيها وأما أن يرغب فى منحه فمحال ! )

أتراه فى حكمته حريا بأن يطلق العنان لغضبته - ١٥٥

إما عن عجز فى التبصر أو دون ترو -

فيجيب أعداءه إلى طلبهم ، ويهلكهم فى سورته ،

بينما تقضى عليهم غضبته

بعقاب سرمدى ؟ لماذا نتوقف إذن ؟

يقول الذين ينصحون بالحرب إننا قد حكم علينا ١٦٠

وكتب علينا وقضى علينا بعذاب لا ينتهى ، وإننا

- أيا كان ما نفعله - لن نعانى ما هو أمرّ ويتساءلون
إن كان ثم ما هو أدهى وأنكى ؟ أفهذا هو الأدهى حقًا ؟
أن نجلس لنتشاور وقد حملنا أسلحتنا ؟ كلا!
ألم ننشد حين ولينا الأدبار مسرعين - تطاردنا وتصعقنا ١٦٥
رعود السماء القاصفة -
ذياك البحر ليعصمنا منها ؟ ألم تبد لنا تلك الجحيم
منجاة لنا من الجروح ؟ وعندما رقدنا
فى الأغلال على بحيرة اللهيب ألم يكن ذلك أنكى وأمرّ ؟ بلى!
ألا يمكن أن تهب الأنفاس التى أوقدت تلك النيران الجهمة ١٧٠
فتنفخ فيها ثانية لتلهب حممها أضعافا مضاعفة
وتقذف بنا فى النار ؟ أم لعل الثأر من فوقنا -
ذاك الذى يهدأ ليفور - يستل سيفه ثانية
فيهوى به من يده اليمنى الحمراء علينا ؟ أم لعل الجحيم أن
تفتح أبوابها فيطلق خَزَنَتُها من قبتها ١٧٥
شآبيب النيران وصواعق اللهب
فتتأرجح مرعبة فوق رؤوسنا ، تنذر بأن تهوى
ذات يوم فوقنا ، وربما كنا آنذاك
ندبر لحرب مجيدة أو نحث على شنها

حين تلقفنا عاصفة السعير وتلقى بنا ١٨٠

وكل منا مشدود إلى صخرة ، تلهو به وتنهشه

العواصف الدوارة أو تلقيه إلى قاع

العباب الذى يفور تنوره، فيستقر إلى الأبد، مغلولا فى الأصفاد،

حديثه أنات لا تنقطع

دون هوادة ، ودونما رحمة أو شفقة ، ١٨٥

دهورا لا ترجى لها نهاية ! أليس هذا أنكى وأمر ؟

بئس الرأى إذن رأى الحرب - سافرة أو خبيئة - وأنا

أنصح باجتنابها . إذ كيف نستطيع بالقوة أو الخديعة

أن ننال منه ؟ وكيف نغافله وعينه

تبصر كل شىء فى لمحة واحدة ؟ إنه الآن فى ذروة السماء ١٩٠

يشهد تدبيرنا الضال ويسخر منه .

وطاقة يده على سحق قوانا لا تقل

عن طاقة مكره على إحباط سعينا ومكائدنا .

هل ضُرِبَتْ علينا الذلة والمسكنة إذن ؟ وأنَّى لذرية السماء

أن تطأها الأقدام ؟ وهل أخرجت من الجنة لتتلوى هنا ١٩٥

فى الأصفاد وتذوق مر العذاب ؟ إن هذا أخف وقعا

إذا أصختم لنصحى - مما هو أنكى وأدهى ، لأننا نُستَذَلُّ

بحكم قدر لا رادَّ لمشيئته ، حكم ذى الجبروت
ومشيئة الظافر ! إننا نستطيع أن نصبر على المعاناة وننهض بكبير
الفعال
وطاقتنا عليهما واحدة ! وقد أنصف القانون الذى ٢٠٠
يقضى بذلك . كان ينبغى أن نرى هذا الرأى أولا -
لو تحلينا بالحكمة - ونحن ننازل هذا العدو الجبار
ونقارعه وقد ارتبنا فى العاقبة !
إننى لأضحك ممن يهرعون إلى رماحهم جسورين
راكبين الخطر ، حتى إذا ما خانتهم رماحهم ، أجفلوا خشية ٢٠٥
المصير الذى يعلمون أنه محيق بهم ، ألا وهو
النفى أو العار أو الأصفاد أو العذاب - مما يقضى به
حكم قاهرهم . هذا هو
مصيرنا الآن . فإذا استطعنا تحمله والصبر عليه
فربما خفت غلواء عدونا الأكبر بعد زمن ما وانفثأ ٢١٠
غضبه ، ولعله - فى بعده الشاسع عنا
ألاّ يأبه لنا - طالما لم نعصه - قانعا
بالعقاب الذى أنزله بنا . ولربما رأيتم هذه النيران الجائحة
وقد بدأت تخبو حين تتوقف أنفاسه عن الهبوب عليها ،

وعندها فسوف يتغلب جوهرنا النقى على ٢١٥

دخانها السموم ، أو ربما نعتاد عليها فلا نشعر بها ،

أو لربما نتبدل بعد ردح طويل فنتكيف مع هذا المكان

ذهنا وبدنا ، فتصبح

الرمضاء مألوفة لا ألم فيها ،

ويصبح هذا السعير قريرا والظلام بصيرا ٢٢٠

إلى جانب الرجاء الذى سيأتى به الكر الدائب

لأيامنا القابلة ، ودورة الحظ والتقلب الخليقة

بأننا نتطلع إليها ، فإذا كان نصيبنا اليوم

من السعادة هزيلا فإن نصيبنا من الشقاء لن يتفاقم

إذا لم نجلب نحن على أنفسنا مزيدا من المصائب . ٢٢٥

وهكذا فرغ (بليعال) من حديثه الذى يكتسى حلة المنطق

فأوصى بالتراخى الذميم وتقاعس المسالمة

لا السلام . ثم قام من بعده (مامون) فأنشأ يقول :

إما أننا نريد خلع ملك السماء عن عرشه

بشن الحرب عليه ، إذا كانت الحرب أفضل السبل ، أو نريد ٢٣٠

استعادة

حقنا المهضوم : فأما خلعه عن العرش فلن

نأمل فيه إلا حين يذعن القدر السرمدى
للحظ المتقلب ، لتقضى فوضى العماء فى الصراع .
ومثلما يبدو أملنا فى خلعه سرابا ، يبدو أملنا
فى استعادة الجنة ! إذ كيف يتأتى لنا أن نشغل مكانا ٢٣٥
داخل الجنة إلا إن استطعنا أن نهزم ملك السماء الأعلى
ونقهره ؟ ولنقل إنه سيلين جانبه
وينعم بالغفران على الجميع إذا وعدناه
بالخشوع له من جديد – بأى عيون آنذاك يمكننا أن
نقف فى حضرته خانعين فنتقبل ٢٤٠
القوانين الصارمة التى يفرضها علينا ، ونهلل لعرشه
وننشد لربوبيته رغما عنا أناشيد الحمد والثناء
بترانيم التكبير والتعظيم ، بينما يجلس على الكرسى
ملكا نغبطه ونحسده ، ويشع محرابه
عبيرا قدسيا وروحا من أزاهير الفردوس ٢٤٥
التى قدمتها أيدينا نحن – عبيده الصاغرين ؟ لن نفعل إلا هذا
فى الجنة ونهنأ به ! ما أشق
الخلود إذا كنا سنقضيه فى الصلاة
لمن نكره ! فلنقلع إذن عن محاولة الوصول

بالقوة المستحيلة ، أو بما سيسمح به ٢٥٠
ولا نقبله إلى مكانتنا فى الجنة - مكانة
الذل فى أعطاف النعيم ! ولننشد
الخير لأنفسنا من باطن نفوسنا ولنستمد من ذواتنا القدرة
على الحياة الحرة - رغم هذا البلقع الشاسع -
لا سلطان لأحد علينا ! لنضع ٢٥٥
مشقة الحرية فوق ملاذ الأصفاد
وأبهة الاستخذاء . ولسوف تشرق عظمتنا
وتسطع عاليا إذا استطعنا أن نخلق الكبير من الصغير
والنفع من الضرر ، والنجاح من الفشل
بل وأن نحيا فى أى مكان كنا ٢٦٠
ونزدهر فى ظل الشر فنصوغ النعيم من العذاب
بالجهد والصبر ! هذا العالم السحيق
من الظلمات - ترى هل نخشاه ؟ ألا يشاء كثيراً
ملك السماء وحاكمها أن يسكن السحب الكثيفة الظلماء
دون أن تخفى بهاءه ، ثم يكسو ٢٦٥
بجلال الظلمة من حوله
عرشه ويحيطه بها - ثم تزأر الرعود من ذلك الخضم

وقد عبأت قوى غضبها ، فتتشابه الجنة والنار ؟

فإذا كان قادرًا على محاكاة ظلمتنا أفلا

نستطيع نحن محاكاة نوره أنى شئنا ؟ إن تربة هذه الصحراء ٢٧٠

لا ينقصها بريق الكنوز الخبيئة من اللآلئ والنضار

ولا ينقصنا نحن فن أو مهارة حتى نخرج منها

الروعة الأخاذة – وبماذا تزيد الجنة على ذلك ؟

بل إن ما يعذبنا الآن يمكن أن يصبح على كر الزمان

جونا الطبيعى – هذه النيران النفاذة سوف تصبح ٢٧٥

بردا وسلاما بعد حدة وشدة لأن كياننا سوف يتحول

ويستوى مع كيانها – وهكذا لن

نشعر بآلامها . إن كل شىء يدعونا إلى

أن نجنح للسلم ولحال من الاستقرار

والنظام ، حتى نستطيع فى أمان أن نجد أفضل السبل ٢٨٠

لمعالجة بلائنا الحاضر ، غير غافلين

عن كياننا الحق ومنزلنا هنا ، وقد طرحنا جانبا

أى نزوع للقتال : فاقبلوا ما أنصح به .

ولم يكد ينتهى حتى دوت التمتمات فى

القاعة ، مثلما ترجع الصخور الجوفاء أصداء ٢٨٥

ريح هوجاء عصفت طول الليل

بأمواج البحر ، ثم بح صوتها فهدهدت

الملاحين الذين طال سهرهم فى سفينة ألقت بها المقادير -

أو قارب ألقى مرساته - بين صخور خليج مقفر

بعد العاصفة . هكذا ارتفع صوت التصفيق ٢٩٠

عندما انتهى (مامون) من خطابه وحاز رأيه الرضى

حينما نصح بالسلام : لأنه إن كان ثمة

ما يخشونه أشد من خشيتهم للجحيم

فهو رعد الراعد وسيف ميكائيل ! كانت خشيتهم له

ما زالت تهز جوانحهم ، رغم طموحهم ٢٩٥

لبناء امبراطورية العالم الأسفل ، وتشييدها

بالمكر والدهاء وجهود الزمان المديد

حتى تضارع الجنة وتعارضها .

وعندما لاحظ (بعلزبول) ذلك - ولم يكن أحد أرفع منه مكانا

إلا إبليس ، علت محياه سيماء الجد ٣٠٠

والصرامة فانتصب واقفا ، وبدا فى وقفته كأنه

من العمد المشيدة ، فى غضون جبينه العميقة

ارتسم التفكر والتدبر وحلت هموم الجمهور من حوله ،

وما زالت ملامح الأمراء تبرق فى وجهه

الذى يعلوه الجلال رغم سقوطه . كان يقف فى رزانة ٣٠٥

بمنكبين عريضين مثل منكبى (أطلس) الخليقين بحمل

أعباء أعظم الممالك ، وكانت نظراته

تجتذب الآذان والأذهان مثل أنسام الليل

أو هدأة الضحى فى الصيف عندما بدأ حديثه قائلا :

أيها المتوجون ! أيها الصناديد الدهاقين ! يا أبناء الجنة ٣١٠

ومعدن الأرواح ! - أينبغى علينا الآن أن نتخلى عن الألقاب

وننبذها ، ونغير من أسمائنا فنصبح

أمراء الجحيم ؟ هذا هو ما يجنح إليه جمهور الحاضرين

إذ يفضلون المكوث هنا ، بل وأن يبنوا هنا

دولة ناشئة . لا مراء فى هذا إذا غفلت عيوننا لنحلم ٣١٥

ناسين أن ملك السماء قد قضى بأن يكون

هذا المكان سجنا لنا ، لا ملجأ آمنا

يقينا من بطش ذراعه القادرة ، ويعفينا من الخضوع

لأحكام السماء الرفيعة وقد اجتمعنا ثانيا

لنناوئ عرشه ! كلا ! إنه يريدنا أن نبقى ٣٢٠

فيه عبيدًا أذلاء ، رغم البعد الشاسع عنه

وقد التف القيد المحتوم على أيدينا فظللنا
أسرى أرقاء . ثقوا أنه سيظل
على الذرا أو فى الأعماق قائمًا على العرش، فهو الأول والآخر
وله الملك وحده ، ولن يفقد من ملكه قيد أنملة ٣٢٥
حين نتمرد ونثور ، بل إن ملكه ليشمل الجحيم
وسوف يهيمن بصولجانه الحديدى
علينا مثلما يحكم بصولجانه الذهبى على من فى الجنة .
ما الذى يجعلنا نجلس هنا إذن نتأمل الحرب والسلام ؟
لقد قضت علينا الحرب ونكبتنا بخسارة ٣٣٠
لا تعوض . أما شروط السلم فلم يضمنها أحد بعد
أو ينشدها . وهل السلام الذى نُمْنَحُه
ونحن أرقاء إلا السجن الأليم
والجلد والعقاب المهين الذى
يصب علينا سوطه ؟ وأى سلام يمكن أن نَمْنَحَه نحن إلا ٣٣٥
كل ما فى طاقتنا من عداء وحقد
ومقاومة لا تلين ، وثأر متمهل ،
ما يفتأ يدبر السبل حتى يمنع الظافر من
جنى ثمار ظفره ، ومن التمتع بأن

يفعل بنا ما نشعر به ونتلوى له فى مكابدتنا ؟ ٣٤٠
ولن ينشأ ما يدعونا - بل إننا لن نحتاج أبدًا -
إلى أن نقدم على مخاطر حملة نشنها لغزو
الجنة ، فأسوارها عالية ترد الهجوم وتصد الحصار
وتحبط أى كمين يدبره أهل هذا المحيط . ألا يمكن أن نعثر على
سبيل أيسر من هذا ؟ يقال إن ثمة مكانا ٣٤٥
( إذا صدقت الشائعات التى تروى من قديم والنبوءات التى
تتردد فى الجنة ) - أو قل عالما آخر ، سوف يصبح مقر هناء
لسلالة جديدة اسمها الإنسان ، حان الآن موعد
خلقه بحيث يشبهنا وإن كان أقل منا
قوة وامتيازًا ، وأكثر منا استئثارًا بحب القاهر ٣٥٠
الذى يحكم بالأفق الأعلى . هكذا كانت مشيئته
التى نطق بها بين الأرباب ، وتلاها قسم
هز جنبات السماء وآفاقها، فأكدها.
فلنتجه إلى ذلك العالم إذن بكل أفكارنا لنعلم
أى المخلوقات تعيش فيه ، وما شكلها ٣٥٥
وما مادتها ، وما مواهبها وما قواها
وما موطن ضعفها وما أفضل سبيل لإغوائها -

عنوة أو بالمكر - : ورغم أن الجنة موصدة
وحكم السماء الأعلى يجلس آمنا مطمئنا
إلى قوته وجبروته ، فلابد أن يكون ذلك العالم الجديد عاريا ٣٦٠
مكشوفا
إذ يقع فى أقصى أطراف مملكته ، ولابد أنه قد كلف
بحمايته من يسكنونه . ربما استطعنا فى هذا السبيل
أن ننهض بما فيه نفعنا
إذا هجمنا عليه بغته ، إما بشواظ الجحيم
لَندمر هذا الخلق الجديد كله ، وإما للاستيلاء عليه ٣٦٥
كله وامتلاكه ، ثم نُخْرِجُ منه - مثلما أُخرِجْنا -
سكانه الصغار ! فإن لم نستطع إخراجهم ، فلنغوهم
بالانضمام إلى حزبنا بحيث يصبح إلههم
عدوا لهم ، وبحيث يقدم نادمًا ٣٧٠
على تدمير ما صنعت يداه . هذا أفضل من
الثأر المألوف إذ سيفسد مُتْعَتَه
سوءُ مسعانا ، ويزيد من سعادتنا
إقلاقُ مأمنه ! حين يرى أبناءه المقربين
وقد أُلقى بهم من حالق ليشاركونا حالنا ، ويلعنوا

ضعف معدنهم وينعوا سعادتهم الغاربة التى ٣٧٥
ذوت سريعا . انظروا ! أفلا ترون أن هذا أخلق
بالإقدام عليه من جلوسكم هنا فى الظلام
تدبرون بناء الممالك فى الهواء ؟ وهكذا انتهى (بعلزبول)
من عرض رأيه الشيطانى ، والذى كان قد ابتكره
إبليس أول الأمر بل واقترح جانبا منه . إذ أنى لهذا ٣٨٠
المكر الدفين أن يخرج إلا من رب الشر كله ؟ - هذا
الحقد الراسخ الذى يرمى إلى إفساد سلالة
الإنسان كلها بإفساد جذر الشجرة وإقحام الجحيم فى الأرض
حتى تتشابكا وتمتزجا - وكل ذلك لمناهضة
الخالق العظيم ؟ ولكن حقدهم لا يفلح إلا فى ٣٨٥
السمو بجلاله وعظمته ! لقد حظيت تلك المكيدة الجسورة
بأعظم الرضى لدى دهاقين الجحيم ، فبرقت السعادة
وتلألأت فى عيونهم جميعًا ، فصدرت موافقتهم الكاملة
وإجماع أصواتهم ، وعندها عاد إلى حديثه قائلاً :
لنعم ما حكمتم به ، وما انتهت إليه مطارحتكم الطويلة ٣٩٠
يا مجمع الأرباب ، وما أحرى بعظمة كيانكم
أن تتخذ قرارات عظيمة ، من شأنها أن ترفعنا من الدرك الأسفل

مرة ثانية وتسمو بنا - رغم الأقدار -

وتقترب بنا من موطننا العريق ، ولربما نبصر

تلك التخوم الوضاءة ثانيا ، فنتكاتف ونتعاضد ٣٩٥

ونخطو الخطوة المناسبة ، ولربما

نعود إلى الجنة - أو ربما وجدنا منطقة معتدلة

فأقمنا بها حيث لا نعدم إشراق ضياء الجنة الساطع

الأمين ، وعندما يبزغ نور الفجر فى الأفق الشرقى

نزيل أدران هذه الظلمة الكئيبة وسوف تهب الريح رُخاءً ناعمةً ٤٠٠

ولسوف تلتئم الجراح الغائرة التى خلفتها هذه النيران الحارقة

ولسوف تبث الأنسام بلسمها الشافى . ولكن دعونا ننظر أولا

فيمن ينبغى أن نرسله

ليبحث لنا عن هذا العالم الجديد - من ذا الذى نراه

كفؤًا لهذا العمل ؟ من ذا الذى يستطيع أن يجوب بأقدامه الدؤوبة

الأغوار الحالكة السحيقة التى لا نهاية لها ولا قرار ، وأن يتبين ٤٠٥

فى خضم الظلمات الكثيفة المحسوسة

طريقه المجهول ؟ أو يحلق فى الهواء ويطير

عاليًا بأجنحة لا تعرف الكلال

فوق الهوة السحيقة الفاصلة ، ليصل إلى

جزيرة النعيم ؟ أى قوة وأى مهارة تلزمه أو ٤١٠

تكفيه ؟ وأى طاقة على المراوغة تحمله سالما

بين الحرس الشديد على الأبواب والحاميات الكثيفة على البروج

من الملائكة الراصدين لكل منفذ ؟ إنه يحتاج إلى

الحذر البالغ ، ونحتاج نحن إلى بالغ

الحصافة فى اختيارنا له ، إذ يقع على من نرسل ٤١٥

عبء آمالنا - بل عبء آخر أمل لنا !

قال ذلك ثم جلس - وقد جعله التوقع

يقظ الملامح إذ كان ينتظر أن يلوح من بينهم من

يؤيد أو يعارض أو يعرض القيام

بالمجازفة الخطرة : ولكن ران الصمت على الجميع ٤٢٠

إذ استغرقوا فى تأمل الخطر والتفكر فيه ، ورأى كل منهم

فى ملامح صاحبه أسفا يعكس أسفه

وذهوله ! لم يكن بين هؤلاء الأفذاذ ، صفوة

مغاوير معارك السماء ، من يأنس فى نفسه

بأسا وشدة ، فيعرض أو يقبل أن ينهض ٤٢٥

وحده بتلك الرحلة الرهيبة . وأخيراً قام

إبليس - وقد رفعه سمو بهائه

فوق أقرانه ، عزيزا بكبريائه الملكية ،

مدركا رفعة شأنه ، فبدأ يقول فى نبرات رزينة :

يا ذرية السماء ! أيتها العروش السماوية ! ٤٣٠

خليق بالصمت العميق أن يلفنا ، وبالعار

أن يجللنا ، رغم رباطة جأشنا ! ما أطول طريقنا

وما أشقه من ظلمات الجحيم إلى أنوار الجنة !

إن سجننا محكم شديد فهذه القبة الهائلة من النار

نهمة تريد أن تزدردنا ، وأسوارها التسعة قد ضربت حولنا ، ٤٣٥

وأبوابها صخور موقدة

موصدة تحول دون خروجنا .

فإذا استطاع أحد أن يتجاوزها ، وجد هوة فراغ سحيقة

لِلَّيْلِ دون كيان تلقفه

فاغرة فاها وتتهدده بالعدم ٤٤٠

إن ابتلعه خضم ضياعها الأكبر !

فإذا أفلح فى الهرب وجد عالما

مجهول الأصقاع لا تقل أخطاره عما

يزخر به المجهول ، والهرب منه أشق وأعسر !

ولكننى ما كنت لأستحق الجلوس على هذا العرش أيها الأقران ٤٤٥

وهذا السؤدد الملكى ، أو التحلى

بهذا السنى ، والتسلح بهذا السلطان ، إلا لأننى لا أتقاعس

عن التصدى لأعباء الدولة وقضاياها الهامة ، مهما بلغت

مشاقها وأخطارها ! لا شىء ثم يثنينى

عن الإقدام ! وهل كنت لأحمل شعائر ٤٥٠

هذا الملك - بل ألم يكن حريا بى أن أرفضها -

إذا رفضت أن أتحمل

من الأخطار مقدار ما أحمله من الشرف ؟ أليس ذلك قدر

كل حاكم ؟ بل أليس خليقًا بأن يتحمل

المزيد من الأخطار إذا كان فى منزلة شرف ٤٥٥

تعلو على الجميع ؟ انصرفوا إذن أيها الصناديد الجبابرة

يا من ترهبون السماء رغم سقوطكم ! عودوا إلى منازلكم -

( وقد اتخذنا هذا المكان منزلا ) - فتفكروا فيما عساه أن يخفف

من الضنك الذى يرين علينا ، وما عساه أن يهون من عبء

احتمال الجحيم ! انظروا إن كان ثم علاج أو تميمة ٤٦٠

تريحنا ، أو تخفف عنا ، أو تطبب آلام

هذا المنزل السقيم ! لا تغفلوا لحظة فى سهركم

فعدوكم لا ينام ، أما أنا فسأنطلق لأطوف

بكل ساحل من دياجير الهلاك ، سعيا فى
خلاصنا جميعًا ، ولن يشاركنى أحد ٤٦٥
فى هذه المهمة . قال الملك هذا وانصرف
فمنع الجميع الرد عليه ! كانت هذه - لا شك -
حصافة منه ، إذ منعتهم أن يستمدوا الشجاعة من عزمه وتصميمه
فيعرضوا مثل ما عرض الرئيس ، وهو
ما كانوا بعد يخشونه ( ومآله الرفض لا محالة ) ! ٤٧٠
فإن كان العرض والرفض صاروا له فى الرأى أندادًا
ينافسونه ، ويشترون ذيوع الصيت بثمن زهيد -
وهو ما لابد لإبليس أن يكسبه بمجالدة عظيم الأخطار - ولكنهم
كانوا
يخشون الأخطار أقل من خشيتهم لصوته
الناهى ، فنهضوا للانصراف واقفين ، ٤٧٥
وكان لقيامهم جميعا صوت كهزيم
الرعود النائية ، ثم توجهوا إليه وقد أحنوا الهامات
مكبرين معظمين ، إذ رأوا فيه إلها ،
فرفعوه مهللين إلى منزلة إله السموات الأعلى
وما توانوا فى حمده والثناء عليه ٤٨٠

حتى لقد حقر من شأنه ابتغاء لسلامة الجميع !
فإن الجان حتى حين تصيبها اللعنة
لا تفقد كل فضائلها ! ( وهذه عبرة للبشر الذين يتفاخرون
بفعالهم البراقة على الأرض ، يحفزهم عليها طلب المجد
أو الطمع الذى تخفيه كسوة زاهية من التفانى والحماس ) ٤٨٥
وهكذا انطوت مساجلاتهم السرية
وانتهت باحتفالهم برئيسهم الذى لا يضارع. ولنضرب لهم مثلاً!
أرأيت إلى السحب الدكناء وهى تتصاعد من قمم الجبال
فى غفلة من رياح الشمال ، حتى يتلبد
وجه الخضراء الصبوح بالغيوم ، وإلى السماء المربدة آنئذ ٤٩٠
وهى تغمر صفحة البسيطة الظلماء بالثلوج أو الأمطار ؟
فإن قدر للشمس الوهاجة أن تودع الكون وداعا رقيقًا
وتطل بأشعة الغروب عليه ، وجدت الحقول وقد عادت إلى
الحياة
والطيور وقد أرسلت عذب ألحانها ، وثغاء القطعان وقد
شهد على فرحها الذى ترجع أصداءه الجبال والوديان . ٤٩٥
عار على البشر ! إن الشياطين الملعونة
لتجنح للوفاق الوطيد ، ولا يتناحر من بين المخلوقات العاقلة

إلا الإنسان ، رغم أنه يحيا برجاء

غفران السماء . والله الذى يدعو إلى السلام

يحيا فى أحقاد البشر وعداوتهم وتصارعهم ٥٠٠

فيما بينهم . إنهم ليشنون حروبا ضروسا

فيدمرون الأرض ، ابتغاء تدمير أنفسهم

فكأنما ( وهذا من شأنه أن يدعونا إلى الوفاق )

قد سلم الإنسان من أعدائه الجهنمية التى

تتربص بهلاكه ليلا ونهارا ! ٥٠٥

وهكذا انفض مجلس الجحيم ، وانصرف

سادة جهنم العظام صفًا ، كل حسب منزلته

يتوسطهم زعيمهم الجبار وكأنما كان

وحده عدو السماء ! كان يزهو بمهابة

سلطان الجحيم ، وتحيطه هالة الأبهة ٥١٠

وما يحاكى به عرش الله ! والتفّت حوله

كوكبة من ملائكة ( الصاروفيم ) الذين خلقوا من نار

وبرقت راياتهم وأسلحتهم الشائكة .

ثم هبوا ليعلنوا انفضاض هذا المجلس ، فنفخوا

فى أبواقهم الملكية حتى يعلو صوت القرار العظيم الذى انتهوا إليه ٥١٥

ثم أهرع أربعة من ملائكة ( الشاروبيم ) ، ورفع كل إلى
فمه نفيرا رنانا حتى تحمل رياح الكون الأربع
صوت البشير فى كل ريح ، فإذا هو يدوى فى الهوة السحيقة
وتسمعه جنباتها الشاسعة، حتى لقد استجاب حشد الجحيم الحاشد
بصراخ يصم الآذان وهم يعلنون مؤازرتهم له ! ٥٢٠
وبعد أن اطمأنت قلوبهم واستمدوا الشجاعة من ذياك
الأمل الزائف الخادع ، انفرط عقد هذه الفيالق المصطفة
وتفرقت ، ومضى كل واحد فى سبيله ، هائمًا
على وجهه حائرًا
أنَّى قادته خطاه ، إذ أين عساه يرسو على ٥٢٥
مرفأ سلم لأفكاره المضطربة ، وكيف عساه يقضى
ساعات القلق والهم ، ريثما يعود الرئيس المعظم ؟
انتشر بعضهم على السهل ، وحلق آخرون فى الهواء
طائرين ، وذهب البعض يستبق ، كأنما هم
فى ألعاب جبل الأوليمب أو حقول (بيثيا) المترامية ٥٣٠
وانطلق بعضهم على خيولهم النارية ، وانخرط البعض فى لعبة
تفادى العقبات
بالعجلات المسرعة ، أو إصابة الدمى وجها لوجه !

أرأيت إلى ألوية الحرب وهى تلوح فى السماء المضطربة

لتنذر القرى الظالمة ، وإلى الجيوش وهى تندفع

إلى القتال بين السحب ، قبل أن تتقدم الطلائع ٥٣٥

لتنخس فرسان الهواء ، وتبقى على حرابها فى غمدها

حتى تقترب الفيالق العرمرم وتصيبها عن كثب ؟ فهكذا كانت

قعقعة السلاح

فى أطراف السماء ، يشتعل بها أديمها

بينما فار التنور التيفونى الضارى فى صدر آخرين

فشقوا الصخور والتلال ، وامتطوا صهوة الهواء ٥٤٠

فى دوامات الريح! حتى لقد ضاقت الجحيم بهذا الصخب الصاخب!

أرأيت إلى هرقل حين عاد من (إيقاليا) متوجا بأكاليل

النصر ، فلبس الثوب المسموم - واقتلع

فى سورة آلامه أشجار الصنوبر فى (ثيسيليا)

وألقى (ليكاس) من قمة جبل (إيتا) ٥٤٥

فى البحر (الأيوبى) ؟ وكان البعض الآخر أهدأ وألين

فمضوا إلى واد غير ذى صخب ، يترنمون فيه

بالألحان الملائكية ، ويتغنون على موسيقى القيثار

ببطولاتهم ، ناعين تعاسة سقطتهم حين حم

قضاء الموقعة ، وشاكين القدر الذى قضى ٥٥٠
بأن يستعبد الأحرار بالقوة أو المصادفة .
كانت أناشيدهم ناشزة المعانى متوافقة الأنغام
( ولا غرو إذ كان منشدوها من الجن ذوى الأرواح الخالدة )
فملكت أسماع الجحيم ، بل إنها لسحرت أفئدة
الجمهور الحاشد. وانخرط آخرون إذ ذاك فى حديث عذب ٥٥٥
( فوقع البلاغة فى النفس كسحر الألحان للحس )
إذ جلسوا فى عزلة على جبل بعيد
يتطارحون أفكارًا أسمى وآراء أعمق
عن العناية الإلهية ، والعلم الأزلى ، والإرادة ، والقدر -
القدر الذى لا يحول ، والإرادة الحرة ، والعلم الأزلى المطلق ٥٦٠
فلم ينتهوا إلى شىء ، بل ضربوا فى الشعاب فضلّوا وما اهتدوا
لقد تجادلوا كثيرا عن الخير والشر ،
عن السعادة والشقاء الذى يحل فى النهاية ،
عن الانفعال والخمود ، والمجد والعار ،
وكلها من نسج الحكمة الجوفاء ، والفلسفة الزائفة . ٥٦٥
ولكن لها فعل السحر وعذوبته إذْ تخدّر
الآلام والأحزان هنيهة ، وتبعث

الأمل الكاذب ، أو تهب القلب البارد سلاحا من
الصبر العاتى أصلب من الفولاذ المضاعف .
وانقسمت طائفة أخرى فرقا وفصائل هائلة ٥٧٠
انطلقت فى رحلة أخطار جسورة لاكتشاف أرجاء
ذلك العالم الموحش الكئيب، علّهم يجدون مكانا
ألطف وأحنى يقيمون فيه ، فتفرقوا
شعابا أربع فى هرولة سريعة على ضفاف
أربعة أنهار من أنهار الجحيم ، تصب ٥٧٥
فى البحيرة الملتهبة مياه الشر التى تحملها .
أولها نهر (ستيكس) المقيت - نهر الحقد القاتل ،
وثانيها (أخيرون) البائس - نهر الأحزان السوداء العميقة
وثالثها (كوسيتوس) الذى اشتق اسمه من العويل الذى يتعالى
فيسمع على صفحة هذا الجدول التعس ، ٥٨٠
ورابعها ( فليجثون ) الضارى
الذى تتلاطم أمواج النيران فيه بسعير الغضب
وبعيدًا عن هذه جميعًا يسير الهوينى صامتًا
نهر ( ليثى ) - نهر النسيان -
عبابه من ماء التيه ، من ذا الذى يشرب منه ولا

ينسى ماضيه وحاضره ٥٨٥

ينسى الأفراح والأتراح والملاذ والآلام .

وبعد هذا النهر تقع قارة متجمدة ،

برية مظلمة ، تنهال عليها عواصف لا تنقطع

من دوامات الريح ولاذع البَرَد الذى يسقط على اليابسة الصلبة

فلا ينصهر بل يعلو فى أكوام كأنه حطام آثار ٥٩٠

عفى عليها الزمن ، وليس من حوله إلا الثلج والجليد

اللذان يملآن هوة كأنها مستنقع (السربون) الذى يصل بين

(دمياط) وجبل (كاسيوس) القديم

حيث غاصت فيالق برمتها. أما الريح الصرصر

فتتقد زمهريرا حتى أن البرد القارس ليفعل فعل النار ! ٥٩٥

وإلى ذلك الموقع كان يساق من حلّت عليهم اللعنة

فى دورات مرقومة من دورات الزمن ، تدفعهم آلهة القصاص

ذوات المخالب حتى يذوقوا مرارة التحول والتقلب من ضراوة

الدرجات القصوى للحر والبرد ، بل إن التقلب ليزيد من

ضراوتها إذ ينقلبون

من قيعان اللظى المتأجج إلى الجليد فيهلك ٦٠٠

دفء كيانهم الأثيرى الرقيق ويتعذبون

دون حراك وقد تصلبوا من البرد وتجمدوا

برهات من الوقت ثم يهرع بهم كرة أخرى إلى النار !

إنهم ليعبرون نهر النسيان هذا

رائحين غادين فتشتد أتراحهم ٦٠٥

إذ يتمنون بل ويحاولون - فى عبورهم - أن يبلغوا

ماء النهر وما هم ببالغيه ! إن قطرة صغيرة لتذيب

الآلام والعذاب بمذاق النسيان العذب

فى لحظة واحدة: وها هم يقتربون من الحافة حتى شفاها !

ولكن القدر لهم بالمرصاد ، إذ تقف دونهم ٦١٠

(ميدوزا) ذات القوة (الجرجونية) التى تسهر على ذلك

الخليج ! فإذا بالمياه تفر وحدها من بين أيديهم

ولا تقربها أفواه الأحياء ، مثلما استعصت ذات يوم على

شفاه (طانطال) ! وهكذا ظلت هذه الفرق الضالة

بخطى بائسة حائرة ، تضرب فى الشعاب . ٦١٥

وقد شحب لونها وارتعدت فرائصها رعبا وزاغت أبصارها

إذ تبينت لأول مرة كآبة مصيرها ، وأدركت أنه لا سبيل

إلى الراحة أبدًا : كم من الوديان المدلهمة الظلماء

مرت بها ، وكم من أصقاع الغم الرهيبة !

فوق العديد من جبال الجليد ، وجبال النار ٦٢٠

والصخور والكهوف والبحيرات والأغوار والمستنقعات وظلال

الموت

بل عالم من الموت ، حلت عليه لعنة الله

فخلق من الشر ، بل لا يصلح إلا للشر ،

تموت فيه الحياة ويعيش الموت وتتكاثر الطبيعة

كائنات شائهة شاذة بشعة ٦٢٥

بغيضة لا توصف بل أسوأ

مما تتخيله الأساطير أو يتمثله قلب الخائف

(جورجونات) وسعالى وغيلان مفزعة .

وفى تلك الأثناء كان عدو الله وعدو الإنسان -

إبليس - قد ألهبته أفكار طموح جائحة ، ٦٣٠

فطار على جناحى السرعة إلى بوابات الجحيم

وحيدًا يتلمس طريقه . تارة

بحذاء الساحل الأيمن ، وتارة بحذاء الساحل الأيسر ،

طورا يحلق فوق المحيط ناشرا جناحيه ، وطورا يطير

عاليا صاعدا إلى سقف السرادق النارى ، ٦٣٥

أرأيت إلى الأسطول حين يلوح من بعيد فى البحر

كأنه يتدلى من السحب ، تدفعه رياح الربيع
وتتلمسها أشرعته وهو يعود من البنغال أو من جزر البهار
(تيرنات) و (تيدور) ، من حيث يأتى التجار
بعاطر المخدرات ، وإلى البحارة وهم قادمون بهذه التجارة ٦٤٠
من المحيط الهندى الشاسع إلى رأس الرجاء الصالح
جاهدين لتحويل أشرعتهم وقسرها على الاتجاه نحو القطب ؟
فهكذا بدا
إبليس وهو يطير من بعيد ! وأخيراً لاحت لعينه
أسوار الجحيم العالية التى تتصل بالسقف الرهيب
وأبوابها ذات طبقات ثلاث ، ضوعفت ثلاث مرات ، فثلاث ٦٤٥
من النحاس وثلاث من الحديد وثلاث من الصخور الصلدة
المنيعة ، تحيط بها حلقة من نار
لا ينطفئ أوارها ، وأمام الباب على الجانبين
كان يجثم كائنان فظيعان
الأول - فيما يبدو - إمرأة حتى وسطه ، امرأة جميلة ، ٦٥٠
ولكن باقى جسمها قبيح ، فهو تلافيف تكسوها القشور
متداخلة ، مديدة ، كأنه حية تسلحت
بِحُمَةٍ قاتلة . وحول وسطها التفّت

زمرة من كلاب الجحيم لا تتوقف عن النباح

بأفواه فاغرة - مثل (كيربروس) - عالية جلبتها ، رنانة ٦٥٥

طنانة مفزعة ! ومع ذلك فكانت إذا شاءت تتسلّل -

إذا اعترضت نباحها معترض - إلى رحمها

فتقيم فيه وتواصل النباح والعويل من داخله

دون أن تُرى ! كانت تزيد فى بشاعتها عن الكلاب التى

هاجمت (سيلا) وهى تستحم فى البحر الذى يفصل ٦٦٠

بين (كالابريا) وشاطئ (ترين‍اكاريا) ذى الصوت المبحوح

وتزيد فى قبحها عن جنية الليل الشمطاء إذ دعيت

سرا فأتت تركب متن الهواء

وقد أغوتها رائحة دم الأطفال لترقص

مع ساحرات (لابونيا) بينما يتألم القمر ٦٦٥

وينخسف من تعاويذها ! : أما الكائن الآخر

فكان شكله ( إن صح أن نقول ذلك ، إذ لم يكن له شكل )

لا يتميز فيه عضو أو مفصل أو طرف ، بل ولا

مادة ! حتى ليمكن أن يسمى بالظل الذى لاح ،

فهو ظل الشكل وشكل الظل ، ينتصب حالكا كالليل ٦٧٠

ضاريا كعشر من ربات القصاص ، مرعبا كالجحيم ،

وقد امتشق سهما رهيبا ووضع فوق ما يخال أنه رأسه
شيئًا يشبه التاج الملكى .
كان إبليس قد اقترب منه ، فهب ذلك
الوحش من مقعده وأهرع إليه ٦٧٥
بخطوات مفزعة ارتعدت لها جنبات الجحيم !
ولكن الشيطان الجسور رأى فيه ما يعجب منه
فعجب منه دون أن يخشاه . إذ باستثناء الله والمسيح
لم يكن إبليس يقيم وزنا لأحد أو يتحاشى أى مخلوق .
ألقى عليه نظرة ازدراء ثم خاطبه قائلاً : ٦٨٠
من أنت ومن أين أتيت أيها الشكل القذر ؟
يا من تجرؤ ، على جهامتك ورعبك ، أن تدفع
بجبهتك الشائهة لاعتراض سبيلى
إلى تلك الأبواب ؟ لقد عقدت العزم على النفاذ منها
يقينا ودون استئذان منك . ٦٨٥
تنح جانبا أو فلتتحمل مغبة حماقتك ، ولتتعلم فعلا لا قولا
ألا تنازل يا ابن الجحيم ملائكة الجنة .
فأجابه العفريت وقد أفعمه الغضب قائلاً :
هل أنت الملاك الخائن ؟ هل كنت

أول من انتهك السلام فى السماء ، وفصم عرى الإيمان فيها ، ٦٩٠
وهو ما لم يفعله أحد قبلك ؟ هل أنت من رفع سلاح الكبرياء
فجر وراءه ثلث أبناء الجنة
ليتواطأوا ضد العلى الكبير ، ومن ثم
أخرجكم الله منها جميعا ، وحكم عليكم
بضياع أيامكم الخالدة هنا فى الألم والعذاب ؟ ٦٩٥
أو تحسبن أنك ما زلت من ملائكة الجنة
وقد كتب عليك الجحيم ؟ أو تأتى لتتحدانى وتهزأ بى هنا
حيث أبسط سلطانى ملكا ؟! بل لأزيدن من غضبك فأقول
إن لى الملك والسيادة عليك ! عد إلى مقر عقابك
أيها الخائن الهارب ، أضف أجنحة إلى أجنحة سرعتك ٧٠٠
وإلا تعقبتك بسوط من العقارب فعاقبتك على
تلكؤك ، أو أطلقت عليك سهمًا واحدًا من هذا القوس
فحل بك من الرعب ما لم تعرف ، ومن الألم ما لم تذق !
هكذا تحدث البشع الرهيب ، وقد تضخم فى أثناء
حديثه ووعيده ، حتى أصبح عشرة أمثال ما كان عليه ٧٠٥
فظاعة وسوء خلقة . وعلى الجانب المقابل
كان الغضب قد ألهب إبليس فوقف

غير هياب ، والتمع مثل مُذَنَّبٍ ملتهب
يرسل ضوءه عبر نجوم (أورفيوكوس) حامل الثعابين الضخم
فى سماء القطب الشمالى ، نافضا من شعره الشائك ٧١٠
نذر الطاعون والحروب ! صوّب كل منهما سهمه القاتل
نحو رأس غريمه ، واعتزمت أيديهما الفتاكة أن تضرب
ضربة لا ثانى لها ، وتجهم كل منهما
إزاء خصمه ، كأنهما سحابتان حالكتان
محملتان بمدافع السماء ، تهرعان فى قعقعة ٧١٥
للمعمعة فوق بحر (قزوين) ، ثم تقفان وجهًا لوجه
فتحومان قليلا قبل أن تنفخ الريح فى أبواقها ، فتعلن
التحامهما المبهم فى السماء الوسطى .
ولقد بلغ من تجهم المحاربين الجبارين أن اشتدت
ظلمة الجحيم لتجهمهما ، وعجيب تكافؤهما . ٧٢٠
( لم يكن من المقدر لأى منهما أن يواجه عدوا بهذا
البأس إلا مرة واحدة فيما بعد ) . ثم التحما فى نزال عظيم
وقتال رجعت أصداءه أرجاء الجحيم ،
بينما هبت الرقطاء الساحرة التى تجثم
ثابتة على أبواب الجحيم وبيدها مفتاحها الفتاك ، ٧٢٥

وأهرعت صائحة صارخة فحالت بينهما :

صاحت « أواه يا أبى ! ماذا تعتزم يدك أن تفعل

بابنك الوحيد ! أواه يا بنى ! ما هذا الغضب الذى

تملكك حتى كدت تصوب سهمك الفتاك

إلى رأس أبيك ؟ أتعلم لأجل من ؟ ٧٣٠

لأجل ذلك الذى يجلس فوقنا ويضحك

عليك ! لقد فرض عليك ذليل الأعمال ، إذ تفعل

ما يمليه عليك غضبه ، وهو الغضب الذى يسميه عدالة

والذى سيفنيكما معا يوما ما »

وسكتت فكف وحش الجحيم عن الصراع ٧٣٥

لوقع كلماتها ! ثم وجه إليها إبليس الحديث قائلاً :

« ما أغرب ما تجأرين وأعجب ما تقولين ! إن

كلماتك قد باغتت يدى فمنعتها

أن تفصح لك بلغة الأفعال

عما اعتزمته ، ريثما أحيط بك علما فأعرف ٧٤٠

ما تكونين ، يا من تشكلت من شطرين ، ولماذا

وقد قابلتنى أول مرة فى هذا الوادى من الجحيم تنادينى

يا أبت ؟ ولماذا تزعمين أن هذا الخيال البشع هو ابنى ؟

أنا لا أعرفك ، كلا وما أبصرت قبل الآن
منظرًا أقبح وأبغض منكما ! » ٧٤٥
وهنا أجابته حارسه أبواب الجحيم قائلة :
« تراك نسيتنى إذن ؟ وهل أبدو
الآن لعينيك قبيحة بعد أن كنت ذات يوم فاتنة
فى الجنة ؟ أو تذكر عندما اجتمعتم على مرأى
من جميع ملائكة (الصاروفيم) الذين تضافروا معك ٧٥٠
لتدبير مؤامرتكم الجسورة ضد ملك السماء ،
إذ حلت بك فجأة آلام شديدة ،
باغتتك فغامت عيناك ودارتا ، سابحتين
فى الظلمة ، بينما نفثت رأسك ألسنة لهب غليظة دفاقة
فانفتحت ثغرة واسعة فى جانبها الأيسر ، وخرجت منها ٧٥٥
من تشبهك فى الشكل والوجه الوضاء
- وكان آنئذ مشرقا بضياء الجنة الجميل - إلهة شاكية
السلاح!
لقد خرجت أنا من رأسك ! واستولت الدهشة
على حشد الجنة الحاشد ، وتراجعوا فى خوف
أول الأمر ، وأسمونى «الخطيئة» ، ورأونى آية ٧٦٠

نذير ، ولكنهم حينما اعتادوا علىّ
رُقت لهم ، وفاضت مفاتنى الخلابة فأحبنى
أشد من عادانى ، لا سيما أنت، إذ كثيرًا ما
رأيت ذاتك فى ذاتى ، وصورتك فى صورتى
فتولهت بى ، ونشدت متعة أى متعة ٧٦٥
معى فى الخفاء حتى حمل الرحم منى
حملا ينمو ويكبر . ولكن الحرب نشبت إذ ذاك
ووقعت المعارك فى السماء ، وكانت الغلبة فيها
( ولا غرو ) لعدونا ذى الجبروت ، إذ دان له
النصر المبين ، وحاق بنا الخزى والهزيمة ٧٧٠
فى شتى أرجاء الخضراء ! لقد هبط الجميع منها
منقلبين من ذروة السَماء فوقعوا
فى هذا الخضم ! ومع سائر الهابطين
هبطت ! فوجدت هذا المفتاح الجبار
قد وضع فى يدى ، وكُلِّفْتُ أن أُبْقِىَ ٧٧٥
على هذه الأبواب مغلقة إلى الأبد ، فلا يستطيع أن ينفذ
منها أحد إلا إذا فتحتها له ، وجلست هنا أفكر
وحدى ، لكننى لم ألبث أن وجدت رحمى

الذى يحمل طفلك وقد كبر وتضخم

وأحسست بحركة رهيبة فيه وآلاما مفزعة ، ٧٨٠

وأخيرًا خرج هذا الطفل الكريه الذى تراه أمامك

والذى أنجبته أنت ، خرج يشق طريقه عنوة

فمزق أحشائى ، وتملكنى الخوف والألم ،

وتشوهت ، وتبدل من ثم نصفى الأسفل

وشاه ! أما هو - عدوى الذى حملته - ٧٨٥

فقد خرج وهو يلوح بسهمه الفتاك

الذى خلق ليهلك ، بينما فررت وأنا أصيح «الموت»

وارتعدت الجحيم لسماع ذلك الاسم الكريه ، وصدرت

آهاتها من كل كهف من كهوفها ، مرددة صراخى الداوى «الموت»

كنت أفر وهو يطاردنى كأنما ٧٩٠

تلهبه الشهوة أكثر من الغضب ، ولكنه كان أسرع منى

فأدركنى ! أمه التى حل بها الهم والغم !

فاغتصب أحضانا دنسة

وضاجعنى ! فأنجب ذلك الاغتصاب

هذه الوحوش الشائهة الصارخة التى ما تفتأ تعوى ٧٩٥

حولى كما ترى ! أحملها كل ساعة

وأضع حملى كل ساعة ، وقد بلغت بى الأحزان
مبلغها ، إذ إنها حين تشاء تعود إلى الرحم الذى
حملها ! تعود لتعوى وتنهش
أحشائى بل لتزدردها ، ثم تنطلق وثابة ٨٠٠
من جديد ، فتلدغنى بأثيم علمها ورعبها
حتى إننى لأنشد الراحة أو التلطف فلا أجد إليه سبيلا !
وها هو يقبع أمام عينى ليناوئنى :
الموت الجهم ! وليدى وعدوى ! إنه يحفزهم
بل إنه ليزدرد أمه التى أنجبته دون إبطاء ٨٠٥
إذا لم يجد فريسة أخرى ! لولا أنه يعرف أن
نهايته رهن بنهايتى ، وأننى لست لقمة سائغة
بل مُرَّةً عَصِيَّةً ومكمن هلاك له
متى كان لهذا الهلاك أن يحل : هكذا حكم القضاء !
أما أنت يا أبت فإننى أنذرك ! احذر ٨١٠
سهمه الفتاك ! وإياك أن تأمل أن تنجيك
مناعة هذه الأسلحة البراقة التى تحملها .
رغم أنها سبكت فى السماء ! فضربته القاتلة
لا يصمد لها إلا حكم السماء الأعلى ! »

فرغت من حديثها ، وسرعان ما تعلم الشيطان الماكر ٨١٥
درسا بليغا إذ لان جانبه وطفق يتحدث حديثا عذب النبرات :
« ابنتى العزيزة ! إنك تقولين إننى أبوك
وتطلعيننى على ابنى الجميل هذا ، برهانًا ثابتًا
على رفثى بك فى السماء والملذات التى
طابت لى آنذاك ، وغدوت أبغض ذكرها ، بعد التحول الرهيب ٨٢٠
الذى وقع بنا وما كنا نتوقعه وما كان يخطر لنا على بال !ألا
فاعلمى أننى آتيك لالأناصبك العداء بل لأحررك
من ظلمة منزل الآلام وكآبته -
أنت وإياه - بل وسائر رهط الجنة
من الملائكة الذين حملوا سلاح مطالبنا العادلة ٨٢٥
فهبطوا معنا من عل ! لقد كلفونى بأن أقوم وحدى
بهذه الرحلة الغريبة ، وها أنذا أنوب عن الجميع
معرضا نفسى للمخاطر إذ أجوب بخطى الوحشة
عبابا لا قرار له ، وأبحث فى الفراغ الهائل -
طوافا جائلا - عن مكان تقول النبوءة إنه سيخلق ٨٣٠
بل إن الأدلة قد اجتمعت على أنه
قد خلق الآن ، ضخما ومستديرا ، ليكون نعيما

متاخمًا للسماء ، وستسكنه
ذرية من المخلوقات حديثة النعمة ، ربما لتملأ
الفراغ الذى خلفناه ، رغم بعد ذلك المكان ، ٨٣٥
وحتى لا تزدحم السماء برهط من العتاة الذين
قد يثيرون قلاقل جديدة ! فإذا كان هذا ( أو ما أحيط
بكتمان أشد ) قد عُقد العزم عليه ، فسوف أعرفه سريعا
فإذا ما عرفته عدت إليكما على الفور
فاصطحبتكما إلى مكان تستطيعان فيه أنت والموت ٨٤٠
أن تعيشا مطمئنين ، وأن تطيرا فى الخفاء
دون جلبة ، فى نسائم عليلة يذكيها
العبير الفواح ، ولسوف تطعمان هنالك حتى يتخمكما
الشبع ، إذ سيقع كل شىء فريسة لكما »
وسكت . إذ لاح الرضى الغامر عليهما ، بل إن الموت ٨٤٥
قد افتر ثغره الرهيب عن بسمة مفزعة عندما سمع
عن إشباع نهمه ، وبارك امتلاءه
الذى قدرت له تلك الساعة الطيبة . ولم يكن فرح
أمه الخبيثة بأقل من فرحه ، فشرعت تحدث والدها قائلة :
مفتاح هذه الجحيم السحيقة فى يدى ! إذ قضى ٨٥٠

أمر ملك السماء ذى الجبروت

أن أحفظه ، ونهانى عن فتح

هذه الأبواب الحجرية الصلبة ، ولصد أعتى القوى

يقف الموت مستعدا لإطلاق سهمه

إذ لا يخاف أن يقهره أقوى الأحياء . ٨٥٥

ولكن ما بالى أنصاع لأمر ذلك العلىّ

الذى يبغضنى ، والذى ألقانى فى هذا الدرك الأسفل

وظلمات هذا الحب العميق

قابعة هنا جبيسة هذا العمل المقيت

والسماء منزلى الحق وقد ولدت فى السماء ! ٨٦٠

ما بالى أتلوى هنا فى سرمدى العذاب والألم

تكتنفنى المخاوف وصرخات الفزع

ممن أنجبتهم فانثنوا يلتهمون أحشائى !

إنك أبى ، فلقد صنعتنى ولقد

وهبتنى وجودى : هل لى إذن أن أطيع أحدًا ٨٦٥

غيرك أو أتبع سواك ؟ لسرعان ما تأخذ بى

إلى ذلك العالم الجديد ، عالم الضياء والنعيم ، وسط

الآلهة الذين يحيون حياة الهناء ، فأتولى الحكم إلى جوارك

وأكون يدك اليمنى ومكمن الشهوة كما هو خليق
بابنتك وحبيبتك دون انتهاء . ٨٧٠
قالت هذا ثم قبضت على المفتاح الذى كان يتدلى من جانبها
أبئس به من أداة جرت علينا صنوف العذاب !
واتجهت نحو الباب تُجَرْجِرُ أذيالها من الوحوش
ثم ما لبثت أن رفعت المشبك الحديدى الضخم عاليا
وهو ما لا يستطيع سواها ، كلا ولا قوى الجحيم العاتية ٨٧٥
أن يزحزحه من مكانه ! وأدارت المفتاح فى ثقب القفل فاشتبكت
أسنانه
بفجوات القفل المتداخلة ، فإذا بكل قضيب وكل رتاج
من الحديد الثقيل أو الصخر الأصم ينزلق بيسر
وينفرج . وفجأة انفتحت أبواب الجحيم
فكان لها ارتجاج عنيف وصرير داو ٨٨٠
ومن مفاصلها صدرت قعقعة كهزيم الرعد
القاصف ، حتى لقد اهتزت أدنى دركات القاع
فى (إيريبوس) . ولكن إغلاق الأبواب بعد فتحها
لم يكن فى طوقها ! فظلت مفتوحة على مصاريعها
حتى إنها لتسمح بمرور زمرة ناشرة أجنحتها ، رافعة راياتها ، ٨٨٥

حاملة أعلامها المرفرفة ، فى موكب
من الخيول والعجلات الحربية المصطفة دون تزاحم !
ما أوسع تلك الفتحة وأشبهها بفوهة التنور
التى تلفظ سحائب الدخان المكتظة وألسنة اللهب الحمراء !
ولاحت أمام عيونهم فجأة ٨٩٠
أسرار الخضم الأشيب ، فإذا هو
محيط حالك لا حد له ولا ساحل
بل ولا أبعاد ! فيه يضيع الطول والعرض والارتفاع
والزمان والمكان ! إذ ثم ترى الليل
والعماء الطاعنين فى السن ، وهما من أنجبا الطبيعة ، يبسطان ٨٩٥
الفوضى السرمدية ، وسط ضجيج
الحروب التى لا تنتهى ، ويناصران الخلط والاختلاط !
أما عناصر الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ،
فإن أربعة أبطال ضوار
يتصارعون هنا للسيطرة عليها ، وقد دفعوا إلى المعركة ٩٠٠
بذرات أجنتها التى التفّت حول راية
كل منهم ، وانقسمت فصائل شتى ، وتسلحت بأسلحة
خفيفة أو ثقيلة ، حادة أو صقيلة ، سريعة أو بطيئة ،

وتجمهرت بأعداد غفيرة لا تحصى مثل رمال

(برقة) أو حبات التربة الجافة فى (سيرينيكا)

إذ جُنِّدت وطارت لتشترك مع الرياح المتصارعة ، باسطة ٩٠٥

أجنحتها الخفيفة . فمن التفت حوله معظم هذه الذرات

دان له الحكم لحظة ، بينما يجلس العماء ليفصل بينهم ،

ولكن قراراته كانت تزيد من حدة المعركة

التى يحكم فيها . وكان إلى جواره الحكم الأعلى وهو ٩١٠

«المصادفة» التى تهيمن على الجميع ! فى هذه الهوة الوحشية ،

رحم الطبيعة ، وربما قبرها أيضًا ،

حيث لا بحر ولا شاطئ ولا هواء ولا نار

بل جميعها فى أسبابها الهيولية الأولى ، تمتزج

فى اختلاط فظ ، وتصطرع هكذا إلى الأبد ، ٩١٥

إلا إذا قضى البارئ المصور ذو القوة والجبروت أن يتخذ منها

مادة أولى لخلق عوالم أخرى .

فى هذه الهوة الوحشية وقف الشيطان الحذر

على شفا الجحيم ، وسرح طرفه هنيهة

متفكرا فى رحلته ، فليس هذا بالأخدود الضيق

الذى عليه أن يعبره ، وكانت أذنه تصكها أصوات قصف ٩٢٠

عالية ، وجلبة ارتطام مدوية ، أعلى ( إذا ضربنا الأقل
مثلا للأعظم ) من عواصف إلهة الحرب ( بللونا )
عندما تدير آلاتها الضارية لتدمير
عاصمة من العواصم ، بل أعلى من الضجيج الذى يصدر لو
تهاوى
هيكل هذه السماء ، وتمردت هذه العناصر ٩٢٥
فهبت وانتزعت من المحور
هذه الأرض الثابتة ! وأخيرًا نشر جناحيه العريضين
مثل أشرعة الفلك ليطير ، وعلى متن الدخان المتصاعد
ارتفع بعيدًا ساخرًا من الأرض ، وطار فراسخ عديدة
كأنه يجلس فى كرسى من السحاب ، ٩٣٠
جسورًا ، بيد أنه سرعان ما ذاب ذلك الكرسى ، فوجد قبالته
فراغا شاسعا ، ودون أن يدرى وجد أجنحته
ترفرف عبثا ووجد نفسه يتهاوى
إلى عمق عشرة آلاف قامة ، بل كان يمكن أن يتهاوى حتى هذه
الساعة
لولا المصادفة ! إذ هبت فى لحظة تعسة ٩٣٥
سحابة مضطربة صاخبة ، فدفعته دفعة قوية

بما يئز فيها من اللهب وأبخرة النطرون ، ورفعته أميالا عديدة

مسافة

تماثل المسافة التى سقطها ! ثم هدأت السَّوْرة والفورة

وانطفأت فى مستنقعات (سيرتا) ، وليست بالبحر

ولا اليابسة الصالحة ! أخذ يتخبط فيها ٩٤٠

ويخطو على هذا المزيج من اليابس والماء ، ما بين سائر

وطائر! ما كان أحراه أن يضرب مجاديفه فيها وينشر أشرعته معا!

أرأيت إلى (الغريفون) كيف انطلق فى البرية

ضاربا بجناحيه فوق التلال وأحراج الوديان

فى أعقاب (أريماسبى) الذى غافله ٩٤٥

وسرق الذهب الذى كان يسهر

على حراسته ؟ فهكذا كان الشيطان ينطلق بإصرار

فوق الصخور والأوحال ، والسهول والجبال ، والآجام والآكام ،

شاقا طريقه برأسه ويديه ، وجناحيه وقدميه ،

سابحًا غائصًا خائضًا زاحفًا طائرًا معًا ! ٩٥٠

وأخيرًا ارتفعت جلبة ضارية فى أرجاء الكون

ودوى الصخب المذهل والأصوات المختلطة التى

حملها كهف الظلام فداهمت أذنيه

بقوة صاخّة : وها هو يتجه صوبها

غير خائف عساه يلاقى عفريتا ٩٥٥

أو جنيا من أرواح الهوة السفلى

يسكن فى تلك الأصوات ، فيسأله

الطريق إلى أقرب شواطئ الظلمة

متاخمة للنور ! وفجأة لاح عرش

العماء وقد نصب سرادقه الحالك ! ٩٦٠

مديدًا على عباب الضياع ! وإلى جانبه على العرش

جلست ربة الليل فى قميصها الأسود ، أكبر الأشياء سنا

وشريكة العماء فى الحكم . وإلى جوارهما وقف

(أورقس) و (أديس) ، وحامل اللقب الرهيب

(ديموجورجون) ، ومن بعدهم الشائعة والمصادفة ٩٦٥

والاضطراب والاختلاط ، وقد تشابكت وامتزجت .

ثم الشقاق بأفواهه الألف المختلفة !

واجههم إبليس الجسور قائلاً : أيتها القوى !

يا أرواح هذه الهوة السفلى !

أيها العماء ! يا ربة الليل الهرم ! لم آت لأتجسس عليكم ، ٩٧٠

وما اعتزمت أن أكشف أسرار

ملككم أو أن أمسها بسوء ، ولكن جئت مضطرا ،
إذ إن طريقى إلى النور فى هذه
الفيافى الحالكة ، يمتد وسط مملكتكم الشاسعة .
ولما كنت وحدى ودون دليل وشبه تائه اضطررت أن أسلك ٩٧٥
أقرب سبيل إلى حيث تلتقى تخومكم الظلماء
مع تخوم السماء ، أو إلى أى بقعة أخرى
ظفر بها ملك السماء من مملكتكم
واقتطعها منذ عهد قريب ، فهذا هو مقصدى
وغاية رحلتى فى هذا الخضم . دلونى على الطريق إذن ! ٩٨٠
إنكم إن فعلتم فسوف تفوزون بحظ عظيم
إذ سأستعيد حينئذ تلك البقعة المفقودة
التى طردنا منها غصبا وقهرا ، وأردها
إلى ظلامها الأول وإلى سلطانكم ،
(وهو غاية هذه الرحلة) ، وأرفع هنالك من جديد ٩٨٥
راية ربة الليل العجوز !
لسوف تجنون الفائدة كلها ، وآخذ أنا بالثأر !
فرغ إبليس من الحديث ، فالتفت إليه العماء الهرم
وبنبرات متهدجة ووجه عابس مقطب

أجابه : إننى أعرفك أيها الغريب ! أعرف من أنت! ٩٩٠
إنك قائد من الملائكة جبار ، ولقد قمت منذ عهد قريب
بشن الحرب على ملك السماء واندحرت
ولقد رأيت أنا وسمعت ! إذ إن ذلك الحشد
لم يهرب فى صمت من خلال الخصم المرعب
بل تهاووا المرة تلو المرة ، ونالوا اللطمة إثر اللطمة ٩٩٥
مرتبكة صفوفهم مختلطة ! ثم تدفقت من أبواب السماء الملايين
من الفرق المنتصرة
لتطاردهم ! إننى أقيم على هذه التخوم
وسوف أفعل ما فى وسعى للدفاع عن
هذه البقعة الضئيلة التى خُلِّفت لنا ١٠٠٠
والتى لا تزال تتضاءل نتيجة لتقاتلنا فيما بيننا
وهو ما أضعف صولجان الليل الهرم ! إذ بعد الجحيم
يمتد قبوك شاسع الأرجاء تحتها !
ثم تأتى الأرض والسماء الدنيا ، عالم آخر جديد
معلق فوق مملكتى ، تربطه سلسلة ذهبية ١٠٠٥
بذلك الجانب من السماء الذى سقطت منه فضائلكم .
فإن كنت ستسير إلى ذلك العالم فليس أمامك الكثير !

ما أقرب الخطر إليك ، فامض وأسرع ،
وليكن الخراب والدمار والسقوط مكسبى
وسكت . ولكن إبليس لم يمكث ليجيب عليه ، ١٠١٠
بل أسعده أن يعثر لهذا البحر على ساحل
فاستعاد سرعته واسترد قوته
ووثب عاليا كأنه هرم من نار
فى وحشة ذلك الانفساح الشاسع ، وبين أهوال
العناصر المتصارعة التى أحاطت به من كل جانب ١٠١٥
شق طريقه صامدا ، يزيد ما يحيط به من ويلات
وأخطار عما أحاط بالسفينة (أرجو) وهى تمر
فى مضيق البوسفور بين الصخور المتصارعة
أو ما أحاط (بأوديسيوس) وهو على مؤخرة السفينة
حين تحاشى (خاريبديس) وأبحر مع التيار المقابل . ١٠٢٠
وهكذا رافق المشقة البالغة والصعاب فى رحلتها
ورافقته المشقة البالغة والصعاب .
ولكن سرعان ما مر بالمكان الذى هبط الإنسان فيه بعد ذلك
فما أعجبه من تحول ! كان الموت والخطيئة يجدّان
فى أثره ، إذ قضت مشيئة السماء ١٠٢٥

أن يُشق خلفه طريق عريض معبد

فوق الهوة المظلمة ، والبحر الذى يغلى ويمور

وقد احتمل راضخا ثقل جسر ذى طول عجيب

يمتد من الجحيم حتى أقصى فلك من أفلاك

هذا العالم الضعيف ، وعليه تمر الأرواح العاصية ١٠٣٠

بسهولة ويسر رائحة غادية

إما لغواية البشر الفانين أو لعقابهم ، إلا الذين يحف بهم

رضوان الله وتتنزّل عليهم ملائكته فَيُوَقُّونها

وأخيرًا يلوح سنى النور القدسى وسناؤه

وتشع جدران السماء ضياء ١٠٣٥

ينفذ إلى أعماق قلب الليل البهيم

فينبلج الصبح مشرقا ! ها هنا البداية الأولى

لأقصى تخوم الطبيعة ! وها هنا يتراجع العماء

عن بدائعها الظاهرة كأنه عدو مدحور

انكسرت حدة جلبته وخفتت ضجة عدائه ! ١٠٤٠

ولا يجد إبليس مشقة الآن ، بل يجد من اليسير عليه

أن يبحر على العباب الهادئ فى الأضواء المتهافتة

مثل سفينة تعصف بها الأنواء فتسعد

بالمرفأ ، بعد أن تمزقت أشرعتها وشباكها !

أو أن يطير فى فراغ الفضاء الذى يشبه الهواء ١٠٤٥

فيتوازن جناحاه ، ويبصر دون عجلة

من بعيد جنة السماء وقد امتدت رحيبة

محيطها شاسع ، لا تعرف إن كان لضخامته مربعا أو مستديرا

وفيه أبراج من الدر الناصع ، وقلاع زينت

بالياقوت الأزرق النابض بالحياة ، كانت ذات يوم موطنه وسكناه ١٠٥٠

وقريبًا منها كان هذا العالم يتدلى ،

معلقا بسلسلة ذهبية ، كأنه فى الحجم نجم

ضئيل الجرم يلوح بجوار القمر .

وإلى هناك ، مفعم النفس بشرور الثأر ،

ملعونا فى ساعة ملعونة ، أهرع إبليس . ١٠٥٥



# الكتاب الثالث

## الموضوع

الرب جـالس على عرشـه - يرى إبليس وهو يطيـر نحو هذا العـالم الذى خلق حـديثًا - يريه إلى الإبن الذى يـجلس على يده اليـمنى - ويتنبـأ بنجـاح إبليس فى غواية الإنسان - ويرد شتى الاتهامات المـوجهة إلى عدالته وحكمته لأنه قد خلق الإنسان حرًا وقادرًا على مقاومة الإغواء - ومع ذلك يعلن انتواءه الصفح عنه لأنه لـم يخطىء نتيجـة الشر الكامن فيـه مثلما فـعل إبليس ولكن نتيـجة إغواء إبليس له . ويلهج فم الإبـن بالحمد للرب وذلك لمـا أظهره من اعتزامه الصفح والغفران للإنسان . ولكن الرب يعلن ثانيًا أن الغفران لن يتأتى للإنسان إلا بعـد تحقيق العدالـة الإلهية - لقد أخطأ الإنسـان إزاء جلال الرب بطموحه فى الربوبية ومن ثَمَّ فقد قـضى عليه وعلى ذريته بالموت إلا إذا وجد من يستطيع أن يتحمل وزر خطيئته ويتحمل عقابه . ويتطوع الإبن بتقديم نفسه فداء للإنسـان . ويقبل الرب ذلك ويقـضى بتجسـده ، ويعلن عن رفعـه فوق جميع أسماء من فى السماء والأرض ، ويأمـر الملائكة جميعًا بالصلاة عليه ، ويطيعون ، وينشدون ترانيـمهم على أنغام القيثار فى جوقة كـاملة ، ويسبحون للأب والإبن . وأثناء ذلك يهبط إبليس على قبة جـرداء على المحيط الخارجى لهذا العـالم . وعندما يتجـول هناك يعثر أولا على مكان أطلـق عليه منذ تلك اللحظة "عالم النسيان والغـرور" - وصـف ما يطير فيه من أشخاص وأشياء-

ثم يأتى إبليس إلـى باب الجنة - وصـفه وهو يصـعـد السلم ، والأمـواه التى تتدفق فـوق السماء من حـول الجنة ، ثم سيره من هنـاك إلى فلك الشمس . وهنا يجد (أوريـل) حاكم ذلك الفلك ، ولكنه يغـير من صورته أولا فـيتـخذ شكل ملاك أدنى فى الدرجة ، ويتظاهر بأن لديه رغبـة مشبوبة فى رؤية الخلق الجديد والإنـسان الذى أنزله الرب فى ذلك الخلق ، ويسـأله عن مكان سكناه فيدله (أوريل) عليه . ومن ثم يهبط إبليس أول الأمر على تل (نيفاطيس) .

مرحى بالنور القدسى ! أول أبناء السماء !
أم هل لى أن أمثل لك بالسناء الخالد صنو الخالد
دون ملام ؟ فالرب هو النور
وهو يحيا فى نور لا يدانى
ويسكنه منذ الأزل ! إنه يسكنك ٥
أيها البهاء الوضّاء للجوهر الوضاء الذى لم يخلق
أم تودنى أن أدعوك باسم آخر ؟ يا نهر الأثير الصافى
الذى لا يُعرف له منبع ! لقد جئت إلى الوجود
قبل الشمس وقبل السموات وعندما انطلق صوت
الرب كسوت بعباءتك العالم ١٠
وهو يتنشأ من الأمواه الظلماء السحيقة

ويتشكل من العدم والهيولة اللانهائية .
إننى أعود إليك اليوم بجناح أشد جرأة
هاربا من بحيرة الجحيم بعد أن مكثت طويلاً
فى ذلك المقام البهيم ، وقد كنت فى تحليقى ١٥
فى طبقة الظلمة المحيطة والطبقة الوسطى أنشد
ألحانًا تختلف عما أبدعه قيثار (أورفيوس) ،
فتحدثت عن العماء وعن الليل السرمدى ،
وقد علمتنى ربة الشعر قاطنة السماء كيف أخاطر بالهبوط
فى الدرك المدلهم ثم بالصعود والتحليق ، ٢٠
على مشقة ذلك ونُدرته ! إننى أعودك اليوم آمنا
وأحس نبراسك – نبراس الحياة والملك . بيد أنك
لم تعد تشرق فى عينىّ هاتين وهما تدوران فى محجريهما عبثا
تنشدان شعاعك الثاقب ولا تشهدان الفجر !
لقد زارهما مرضٌ عُضال فطمس أفلاكهما ٢٥
أو قل حجبهما ''الماء الأزرق'' . ولكن ذلك لم يعُقْنى
عن التجوال مع ربات الشعر عند
الينابيع الصافية أو الخمائل الوارفة أو التلال المشرقة
التى تولهت بحب الأناشيد القدسية . لا سيما

أنت يا جبل (صهيون) والغدران المزهرة التى تجرى من تحتك ٣٠
فتغسل قدميك المقدستين وتتدفق مع ألحانها
فإننى أزورك ليلا ! وكثيرًا ما أذكر
ذلكما الشاعرين اللذين شاركانى قدرى
فأتمنى أن أشاركهما ذيوعهما
(تامريس) الكفيف و (هوميروس) الكفيف ٣٥
والنبيين القديمين (تيريسياس) و (فينيوس)
ثم تنتابنى الأفكار التى تتدافع وحدها
بأبيات الشعر المتسقة ، مثلما يسهر العندليب
ويغنى فى الظلام ، أو يحتجب عن العيون فى وارف الظل
ليصوغ ألحان الليل . وهكذا تتوالى الفصول ٤٠
على مدار العام ولا يعود إلىّ ضوءُ
النهار أو أعرف جمال اقتراب المساء أو الصباح
أو مشهد أزهار الربيع وورود الصيف
وقطعان الأغنام والماشية ووجه الإنسان القدسى
بيد أن السحاب والظلام السرمدى ٤٥
يغشيانى وقد تقطعت بى السبل فلم أعد أرى
حياة البشر الصبوحة ولا كتاب المعرفة المشرق ،

بل يواجهنى الخواءُ فى كل مكان
وقد طمست بدائع الطبيعة وانمحت
وسُدَّ منفذٌ من منافذ الحكمة ! ٥٠
فليتك يا نور السماء تزداد
إشراقا بين جوانحى وتضىء أعطاف الذهن
وتنير ملكاته وتكسبها عيونا أخرى !
ليتك تطهرها حتى ينقشع الضباب الذى غشيها فأرى
ما غاب عن بصر الفناء وأحكيه . ٥٥

والآن ! كان الأب القاهر فى عليائه
يجلس على الكرسى فى السماء الطاهرة
وقد علا عرشه كل شىء . فانثنى يبصر
ما صنعه وما صنعته مخلوقاته
وقد التفت حوله ملائكة السماء ٦٠
واحتشدت كأنها النجوم تستقى من طلعته
غبطة يعجز عن وصفها اللسان . كان على يمينه
صورة مشرقة لجلاله إذ جلس
ابنه الوحيد . وعلى الأرض رأى أولا
أبوينا الأولين . ولم يكن بعْدُ من البشر ٦٥

سواهما ، يرتعان فى جنات السعادة
ويقطفان الثمار الخالدة - ثمار الهناء والحب -
هناء لا ينقطع وحب لا مثيل له
فى عزلة النعيم . ثم ألقى ببصره إلى
الجحيم والهوة الفاصلة ، وإبليس هناك ٧٠
يطير بحذاء سور الجنة على جانب الليل منها
محلقا فى الهواء البهيم ، وقد تأهب الآن
للانقضاض - بأجنحة مرهقة وأقدام متعطشة -
على الخلاء المتاخم للكون ، وقد بدا له
أرضا صلبة مكنونة لا سماء لها ، ٧٥
ولم يكن واثقا إن كانت فى الماء أو الهواء .
وعندما رآه الرب من عرشه الرفيع
من حيث يبصر الماضى والحاضر والمستقبل ،
أفضى إلى ابنه الوحيد بحديث النبوة قائلاً :
أيها الإبن الوحيد ! أترى سورة الغضب ٨٠
التى تعصف بعدونا ؟ إذ لا تحده القيود
الموضوعة ، ولا أسوار الجحيم المرفوعة ، ولا ما كبل فيه
من السلاسل المذروعة ، لا بل ولا الهوة السحيقة

الشاسعة الممنوعة ! لقد صح عزمه

على الاستماتة فى الانتقام ، وسوف يرد كيده ٨٥

إلى نحره العاصى ! والآن قد

انفلت من كل قيوده فانطلق يحلق بجناحيه

قريبًا من السماء فى أصقاع النور

متجها صوب العالم الذى خلق منذ عهد قريب

ونزل فيه الإنسان ، حتى يبتليه ويعرف ٩٠

إن كان قادرًا على إهلاكه بالقوة أو بما هو أنكى وأمر

أى بالخديعة والغواية والمكر ! ولسوف يغويه حقا

إذ سيصغى الإنسان إلى أكاذيبه المُنَمَّقة

وسيعصى دون مشقة أمرى الأوحد

والعهد الأوحد لطاعته . ولسوف يهبط منها ٩٥

هو وذريته العاصية - ومن الملوم على ذلك ؟

وهل يلام سواه ؟ يا لناكر الجميل ! لقد آتيته

كل ما يقدر عليه ، وفى أحسن صورة وأعدلها رَكَّبته

ووهبته طاقة الثبات وكذلك حرية السقوط !

وكذلك خلقت شتى القوى الأثيرية ١٠٠

والأرواح فمنهم من ثبت ومنهم من وقع !

فبإرادته ثبت من ثبت ، وبإرادته سقط من سقط !

فإذا لم يكونوا أحرارا فكيف يبرهنون حقا على

ولائهم الصادق أو إيمانهم الراسخ أو حبهم الخالص ؟

ألن يبدو كل ذلك من عمل المجبورين المسيرين ١٠٥

لا الطائعين المختارين ؟ وأى ثناء أو ثواب يمكن أن ينالوه ؟

وأى رضى لى عن الطاعة إذا كانت

الإرادة والعقل (والعقل بعد يعنى الاختيار)

عبثا لا طائل من ورائه ؟ إنهم إن جردوا من الحرية

لاتسمت الإرادة والعقل بالسلبية ولعبدوا الحتمية ١١٠

بدلا من عبادتى . لقد خلقوا بالحق

وليس من العدل أن ينحوا باللائمة

على خالقهم أو خلقهم أو قدرهم

قائلين بأنهم مسيرون وأن الجبر يلغى

إرادتهم وبأنه يتمثل فى قراراتى المطلقة ١١٥

أو علمى الأزلى الأعلى . لقد اتخذوا بأنفسهم قرار

عصيانهم ، ولم أتخذه أنا ، وإن كنت أعلمه من قبل

فالعلم السابق لم يدفعهم إلى اقتراف جريرتهم

فهم لها مقترفون وإن لم يعرف بها أحد من قبل

وهكذا دون أدنى دافع أو ظل من الأقدار ١٢٠
ودون تأثير لعلمى السابق الذى لا يتبدل ولا يتحول
فإنهم يخطئون ، وهم أصحاب الشأن
فى إصدار أحكامهم واختيار ما يرونه فلقد
خلقتهم أحرارًا ، ولسوف يظلون أحرارًا
حتى يستعبدوا أنفسهم . فإذا لم أغير ١٢٥
طبيعتهم وألغى القرار الرفيع
الذى لا يحول ولا يزول ويقضى
بحريتهم ، فإن سقوطهم من صنع أيديهم .
أما النوع الأول فقد سقطوا بعد أن وسوسوْا لأنفسهم
وبعد أن سوّلت لهم أنفسهم الغواية ! وأما الإنسان فيهبط ١٣٠
حين يغويه
النوع الأول . وهكذا فسوف ينعم بالغفران
ويحرمه الآخرون . لسوف أبسط رحمتى وعدلى
فى السماء والأرض ، وبهما يفوق جلالى كل شىء
ولكن رحمتى سبقت عدلى ، ونورها يطغى على كل شىء فى النهاية .
وأثناء حديث الرب فاح العبير الخالد فضوّع ١٣٥
جنبات السماء وأشاع فى صدور الأرواح المباركة المصطفاة

رَوْحا من الفرح القشيب يجل عن الوصف
وأما ابن الرب الذى لا مثيل له فقد كان ذا سنى
يفوق كل سناء ، إذ تجلى فيه بهاء أبيه
فى صورة مجسدة ، وفى وجهه ١٤٠
سطعت الرحمة القدسية وبدت للعيان ؛
وفاض الحب اللانهائى ، والصفاء المطلق ،
حينما بدأ حديثه إلى أبيه قائلاً :
يا أبتى ! ما أكرم تلك الكلمات التى ختمت
بها حديث الملكوت وهى أن الإنسان سيحظى بالغفران ! ١٤٥
إنها ستجعل السماء والأرض تُسَبِّحان
بحمدك ، وترسلان أصواتا لا تحصى
من الترانيم والأناشيد القدسية فتحيط بعرشك
وترن أصداؤها فيه وتباركك إلى الأزل
إذ أنّى للإنسان أن يضيع فى النهاية ، وأنّى للإنسان ١٥٠
الذى خلقته وأفأت عليه الحب حتى عهد قريب فهو أصغر أبنائك ،
أنّى له أن يسقط ضحية الغواية حتى ولو تضافرت
معها حماقته ؟ تنزهت عن ذلك
وعن ذلك تنزهت يا أبى ! فأنت الحكم

في كل شيء خلقت ، وحكمك لا يحيد عن الصواب . ١٥٥
وأنّى للخصم أن ينال
غايته ويحبط غايتك ؟ أنّى له أن يقيم
الشر الذى اعتزمه ويمحق الخير الذى قدمته ؟
وهل ينقلب إلى أهله مختالاً فخورًا ، رغم سوء مآله ،
حين يأخذ بالثأر ويجر إلى الجحيم ١٦٠
من ورائه ذرية الإنسان جميعا
بعد إفسادها ؟ أم تراك تود أن
تمحو ما صنعت وأن تدمر
من أجله الخلق الذى خلقته لإعلاء مجدك ؟
إنك إن فعلت فسوف يتساءلون عن خيرك وعظمتك ١٦٥
وقد نال منهما الشك فلا يحيرون جوابا .

وأجابه الخالق الأعظم قائلا :

يا بنى ! إن فيك سعادتى المثلى !
إنك ابنى المقرب ! ابنى الذى يمثل وحده
كلمتى وحكمتى وقوتى الفعالة . ١٧٠
لقد أفصحت كلماتك عن أفكارى وجميعها
يتفق مع ما قضت به مشيئتى الأزلية :

فلن يضيع بنو الإنسان الضياع كله ، بل سينجو منهم من يشاء
وإن لم يكن بإرادته بل بمغفرة منى
أُنعم بها دون قيد . وسوف أعيد إليه مرة ثانية ١٧٥
قواه الخائرة ، رغم أنه أهملها فاستعبدتها
الخطيئة وأحالتها شهوات دنيئة فاحشة .
لسوف أؤازره حتى ينهض ويقف
على الأرض السوية ضد عدوه الفتاك
ولسوف أؤازره حتى يدرك مدى ضعفه ١٨٠
بعد أن يهبط وحتى يدين لى
بخلاصه ولا يدين به لأحد غيرى
ولقد اصطفيت البعض وطهرتهم برحمة منى
واصطفيتهم على العالمين . بهذا قضت مشيئتى
أما سائر الناس فسوف يسمعون بلاغى وكثيراً ما يُنذرون ١٨٥
فيذكروا خطيئتهم ويسارعوا إلى مغفرة من
ربهم بعد أن حل بهم غضبه ، ويفوزوا برضوانه
الذى يدعوهم إليه . ولسوف أنير مداركهم الظلماء وأزكيها
حتى ترق قلوبهم التى قست فهى كالحجارة ، وحتى تلين إلى ذكرى
فيقيموا الصلاة ويتوبوا إلىّ ويوفوا واجب الطاعة . ١٩٠

وأما الصلاة والتوبة والطاعة الواجبة
فإذا قدمت بنيّة خالصة وعزم صادق
فلن تتوانى أذنى عن سماعها ولن تغفل عينى عنها
ولسوف أُكِنُّ فى صدورهم هاديًا مرشدًا
هو الضمير . إنه الحكم الفصل ، فإذا استمعوا إليه ١٩٥
وأحسنوا فسوف يشهدون نورًا من بعد نور
ولسوف يثابرون للنهاية حتى يبلغوا بر النجاة .
أما من يُعرِضُ عن طول حلمى وزمان غفرانى
ولا يقيم لهما وزنا فلن يذوق هذا ولا ذاك
بل سيزداد غلظة إلى غلظته وعمى إلى عماه ٢٠٠
فيمعن فى تخبطه وتزداد وهدة مهواه .
ولن يحرم الرحمة إلا أمثال هؤلاء .
وليس هذا كل شىء . فإن الإنسان يعصى
وينكث ، وهو ينتهك ميثاقه ويقترف الجرم
ضد السيادة العليا للسماء ، ٢٠٥
إذ يطمع فى الربوبية فيضيع كل شىء .
أما التكفير عن خيانته فليس له
إلا هلاك مكرس محتوم . ولذا

فلا مناص من الموت له ولذريته أجمعين

فإمّا أن يهلك أو تهلك العدالة ، إلا إذا تقدم ٢١٠

بديل له ، يقدر بل ويرغب فى تحمل

ثمن الفدية الفادح ، وافتداء الموت بالموت .

حدثونى يا قوى السماء ! أين عسانا نجد مثل هذا الحب ؟

هل منكم من يقبل الفناء حتى يكفر عن

جرم الإنسان الفانى ؟ وهل من بارٍّ يخلص ظالما ؟ ٢١٥

وهل فى أرجاء الجنة مثل هذه المحبة الرحيمة الرفيعة ؟

طرح السؤال فانعقدت ألسنة جوقة السماء جميعا

وران الصمت على السماء . ولم يتقدم أحد

للدفاع عن الإنسان أو الشفاعة له

ولم يجرؤ أحد على تقبل ما هو أدهى : أى أن يُنزل بنفسه ٢٢٠

خسران الفناء ، وهو الفدية المرصودة .

كان الإنسان يفتقر إلى من يكفر عنه خطيئته

وكان يمكن أن يضيع إذ حَكَمَ عليه بالموت والجحيم

القضاءُ الصارم ! لولا أن قام ابن الرب

الذى يعمر الحبُّ القدسىُّ أقطارَ نفسه ٢٢٥

فعرض عزيز شفاعته مرة ثانية .

يا أبى ! سبقت كلمتك : إذ سينعم الإنسان بالغفران

ولن يعدم الغفران وسيلة يصل بها إليه ، فهو لا يضل طريقه أبدًا !

إنه أسرع رسلك المجنحة

إلى شتى المخلوقات ، وهو يأتيها جميعًا ٢٣٠

على غير انتظار ودون أن تنشده أو تتوسل فى طلبه

فما أسعد الإنسان حتى يأتيه هكذا ! فكيف يرجو الغوث

بالغفران إذا مات محملا بخطاياه وضاع ؟

وأما التكفير عن نفسه أو القرابين الصالحة

فلن تجدى فتيلا حين يركبه الدين ويبتلعه الهلاك . ٢٣٥

ها أنذا إذن أتقدم لأفديه ، وأقدم حياتى

مقابل حياته ، وليقع على أنا سخطك وغضبك

اعتبرنى الإنسان ، وسوف أتخلى من أجله

عن صدرك وعن هذا المجد فى قربك

ولسوف أنبذ كل هذا طائعًا مختارًا ثم أموت من أجل الإنسان ٢٤٠

آخر الأمر

قرير العين . وليصب علىّ الموت جام غضبه !

ولكن لن يطول مقامى فى ظل سلطانه الكئيب ولن يطول

انهزامى ، إذ إنك وهبتنى

حياة الخلود فى نفسى ، فأنا بك أحيا

رغم أننى أستسلم الآن للموت وأدين له ٢٤٥

بكل ما هو فانٍ منى . وبعد أن أسدد هذا الدين

لن تتركنى فى القبر البغيض

فريسة له ولن تجعل نفسى التى لا تشوبها شائبة

ترقد فيه مع الفساد إلى الأبد .

ولكننى سأقوم منتصرًا فأخضع ٢٥٠

من هزمنى وأسلبه ما تفاخر به من أسلاب !

وسوف يتلقى الموت آنئذ جرح الموت ، فيطأطىء الرأس

فى خزى بعد أن تجرد من حُمته القاتلة .

وسوف أطوف بهذا الفضاء الفسيح ظافرًا منتصرًا

وقد أوقعت الجحيم فى الأسر بالرغم منها وأعرض عليك ٢٥٥

قوى الظلام فى أصفادها . وسوف يسرك

هذا المشهد فتطل من السماء وتبتسم لمرآى

بعد أن رفعتنى إليك وأنا أقضى على أعدائى

وآخرهم الموت فألقى بجثته فى القبر لتتخمه .

وبعدها أصحب جميع من نالوا الخلاص على يدى ٢٦٠

إلى الجنة بعد غياب طويل ، وأعود

يا أبى لأرى وجهك بعد أن تنقشع عنه
سحائب الغضب وتزول ، ويحل مكانها وطيد السلام
والوئام ولن يعود ثم مكان للغضب
بعد ذلك بل سيشرق فى حضرتك الهناء كل الهناء . ٢٦٥

وتوقف عن الحديث ، ولكن الوداعة على محياه
كانت تنطق فى صمتها ، وترسل أنفاس الحب الخالد
إلى البشر الفانين ، حب لا يفوق بهاءه إلاّ بهاءُ
طاعة الأبناء . لقد عرض التضحية بنفسه
عن طيب خاطر وكان من ثم ينتظر أن يعرف مشيئة ٢٧٠
أبيه العظيم وساد الإعجاب والدهشة
جنبات السماء إذ تساءلوا عما عساه يعنى وأيّان يذهب
وتعجبوا . ولكن سرعان ما أتى جواب القوى القاهر :

ليس سواك فى السماء والأرض من سلام
للبشر المغضوب عليهم يا منهل ٢٧٥
رضاى الأوحد ! إنك تعلم خير العلم مبلغ حبى
لكل ما خلقت وليس الإنسان بأقلها حظًا
مع أنه أحدثها خلقًا ، وتعلم أننى من أجله جعلتك
تفارق صدرى ويدى اليمنى حتى أخلص

ذريته التى ضاعت ، ولو فقدتك حينًا من الدهر ٢٨٠
ولما كنت وحدك القادر على افتدائهم
فلتكن طبيعتك من طبيعة البشر
ولتكن رجلا بين الرجال على الأرض
ولتكن حين يحين الموعد لحمًا ودمًا من نسل عذراء
ومولودًا عجبًا ! ولتكن مكان آدم ٢٨٥
رأسا للبشر أجمعين مع أنك من بنى آدم .
فى آدم يفنى سائر البشر وفيك
يعودون إلى الحياة كأنما من بذرة ثانية .
وعلى كثرة الناجين ، فلن ينجو أحد دونك
إن جريرته تدمغ بالإثم كل أبنائه ولكن الفضل الذى ٢٩٠
تسبغه عليهم سوف يكفر عن أولئك الذين ينكرون
أعمالهم - أيا كان حظها من الشر أو الخير -
وينقلون بذورهم إلى أرضك ليحيوا فيك ،
وليستمدوا حياة جديدة منك وهكذا فلن يفتدى الإنسان
إلا إنسان يحاكم ويموت - وهذا عين العدل . ٢٩٥
فإذا مات رفعته إلىّ ، ثم أرفع معه
إخوانه الذين افتداهم بحياتهم الغالية .

وهكذا سيقضى الحب الإلهى على البغض الجهنمى الذى
يفضى إلى الموت . أما الموت فهو ثمن الغفران
بل هو الثمن الفادح لإصلاح ما دمره البغض الجهنمى ٣٠٠
بيسر بالغ ، بل وما يزال يدمره
فى صدور من يقدرون على نوال المغفرة ولا يقبلونها .
ولكنك بنزولك واتخاذك
طبيعة البشر لن تخفض أو تحط من طبيعتك
لأنك - رغم تبوئك عرش النعيم الرفيع ٣٠٥
وتساويك مع الرب ، ومساواتك فى التمتع
بثمار الربوبية - قد تركت كل شىء لتنقذ
عالمًا من الضياع الكامل . وقد أثبتت
خصالك أنك أكبر من مجرد ابن للرب بحق المولد
وقد ثبت أنك جدير به وتستحقه كل استحقاق للخير الذى تتحلى به ٣١٠
وليس لعظمتك ورفعتك . ولأن الحب
لديك يفوق المجد والبهاء
فإن هوانك سوف يسمو
بالإنسان فيك إلى هذا العرش أيضًا
وسوف تجلس هنا فى ثوبك البشرى وتحكم ٣١٥

ربًا وبشرًا ، ابنا للرب وابنًا للإنسان ،

وتتوج ملكًا على العالم ، وسأهبك السلطان كله

فتحكم إلى الأبد وتتحلى بكل

خصالك ، وتصبح رأسًا وسيدًا للجميع

إذ سأخضع لك العروش والإمارات والسلاطين والرياسات ٣٢٠

وسوف يركع لك الجميع ، سواء من يسكن

فى السماء أو فى الأرض أو تحت الأرض فى الجحيم

وعندما تطل من الجنة ببهائك ومجدك

لتلوح فى السماء الدنيا وترسل من عندك

كبار ملائكة النداء ليعلنوا انعقاد مجلس ٣٢٥

الحكم الرهيب فسوف يهرع الأحياء على الفور من شتى بقاع الكون !

وعلى الفور أيضًا سيهب الأموات الذين نودى عليهم

من جميع العصور السالفة لملاقاة الحساب

ويهرعون وقد أيقظتهم القارعة من رقدتهم !

وعندئذ سوف يجتمع حولك المصطفون حتى تحكم فى أمر ٣٣٠

العاصين من الناس والملائكة فمن حق عليه القول سقط

بما يقضيه حكمك حتى إذا حشروا إلى الجحيم فامتلأت بهم

أغلقت أبوابها إلى الأبد . وعندها

تحترق الدنيا ومن رمادها تنشأ

سماء جديدة وأرض جديدة يسكنها الأبرار ٣٣٥

وبعد معاناتهم وعذابهم الطويل

سيشهدون أيامًا من ذهب ، ثمارها أعمال من ذهب

ولسوف ينتصر الهناء والحب والحق الجميل .

وعندها أيضًا ستتخلى عن صولجان الملك

فلن تحتاج إلى صولجان ملك بعد ذلك ٣٤٠

إذ لن يبقى سوى وجه ربك . أما الآن فيا أيها الملائكة

صلوا لمن يموت حتى يحقق كل هذا

صلوا للإبن وكرّموه مثلما تكرّموننى !

وما أن توقف القاهر عن الحديث حتى ندت عن

حشد الملائكة الحاشد صيحة ٣٤٥

عالية من أعداد لا تعد ولا تحصى ! صيحة رقيقة

تحملها الأصوات المباركة التى نطقت بالفرح فهزت جنبات السماء

بألحان الهناء ، وانطلقت التسابيح العالية فملأت

أصقاع الخلود ! وفى خشوع وخضوع

ركعت قبالة العرشين ، وألقت إلى الأرض ٣٥٠

فى صلاة يزينها الوقار

بتيجانها المحلاة بزهر (الأمران) والذهب -
زهر (الأمران) الخالد ، الذى كان قد بدأ ينمو
فى الفردوس - بجوار شجرة الحياة -
وبدأ يزهر ، ولكن سرعان ما انتقل بعد خطيئة الإنسان ٣٥٥
إلى السماء حيث نبت أول الأمر ، وما زال ينمو
ويزهر عاليًا فيظلل نبع الحياة -
حيث يجرى نهر النعيم فى وسط الجنة
ويتدفق فوق زهورها بمياهه العنبرية الصافية
وهذه الزهور لا تذبل أبدًا !.بل تأخذها الأرواح المصطفاة ٣٦٠
فتعقد بها جدائلها البراقة المضفرة بالأضواء !
أما الآن فهى ملقاة فى طاقات ضخمة غير معقودة أشرقت بها
أرضية الجنة البسامة فبدت مثل بحر من الياقوت الساطع
صبغته ورود السماء بالأرجوان !
وبعد ذلك لبس كُلٌّ تاجه وحمل قيثاره الذهبى ٣٦٥
قيثار ضبطت أوتاره وتلألأ إلى جانبه
كأنه كنانة السهام ، ثم عزف الجميع مقدمة عذبة
من أنغام متوافقة ساحرة قدموا بها
أنشودة التقديس ، وأيقظوا بها مشاعر النشوة السامية .

لم يمتنع صوت من الأصوات بل إنها شاركت جميعا ٣٧٠
فى غناء هذا اللحن . وهكذا شأن التوافق فى السماء !
تغنوا أولاً بقدرتك أيها الأب القاهر
أيها الملك القيوم الخالد اللامحدود !
أيها السرمدى ! يا رب العالمين
يا نبع النور ! ذاتك لا تدركها الأبصار ٣٧٥
لإشراقها وسطوع بهائها فى ساحة العرش
حيث تستوى عليه لا يدانيك أحد . وحين تلقى بالظلال
على وهج أنوارك وتحجبها بسحابة
تحيط بك كأنها القدس الوضاء
تبدو حواشيها للرائى دكناء لفرط الإشراق من حولها ٣٨٠
ومع ذلك فإن سناها يذهب بالأبصار فى السماء حتى أن ملائكة
الصاروفيم لا تجرؤ على الاقتراب وتحجب أعينها بأجنحتها !
وبعد ذلك تغنوا بأول ما خلق الرب - بك
أيها الابن - يا ذا الصورة القدسية !
عن محياك الأغر الأبلج انقشعت السحب ٣٨٥
فأدركته الأبصار وسطع نور الأب القاهر
وإلا ما استطاع مخلوق أن يرى نوره !

لقد انطبع فيك سنى جلاله وأقام ،

وحل بك الروح الأمين ونزل !

لقد خلق بك سماء السموات وما بهن ٣٩٠

من ملائكة ، وبك ألقى فى لج الهزيمة

بالطامحين الطامعين منهم ! إنك فى ذلك اليوم

لم تتوان عن القصف العاتى فأرعدت رعد أبيك

وما توقفت عجلات عربتك الحربية المستعرة التى زلزلت

هيكل السماء الخالد وهى تطأ أعناق ٣٩٥

المحاربين وتدك فلولهم دكا

وحين عدت من الطراد هلَّلَتْ ملائكتك عاليا

وسبّحت لك وحدك ، يا من تستمد قوتك من أبيك ،

وتوقع شديد الانتقام بأعدائه

لا بالإنسان ! لقد سقط نتيجة لكيدهم ولذلك فإنك ٤٠٠

يا صاحب الرحمة والغفران لم توقع به حكما

بالغ الصرامة بل آثرت التلطف والرأفة

وما أن أدرك ابنك العزيز الأوحد

أنك لا تنتوى الحكم على الإنسان الضعيف حكما

بالغ الصرامة بل تؤثر التلطف والرأفة ٤٠٥

حتى أسرع لارضاء غضبك وإنهاء الصراع
بين الرحمة والعدالة الذى تَبَيَّنه فى وجهك
ولم يكترث لمقعد الصدق فى النعيم
حيث يتلوك فى المنزلة فعرض أن يموت فداء
لوزر الإنسان . يا له من حب لا مثيل له ! ٤١٠
حب لا يتأتى لمن دون المستوى القدسى !
مرحى بك يا ابن الرب ، يا مخلص البشر ! سيكون
اسمك الموضوع الحافل لأغنيتى
منذ الآن ، ولن يتوقف قيثارى عن مدائحك
أو ينساها ، أو يعزلها عن مدائح أبيك . ٤١٥

وهكذا كانوا فى السماء فوق مدار الأفلاك
يقضون ساعات السعادة فى الهناء والترانيم .
وآنذاك - على القبة المعتمة الصلبة
لهذا العالم المستدير ، حيث يفصل أول مداراته
الأفلاك الوضاءة الدنيا التى تحتمى الآن ٤٢٠
من العماء ومن غارات الظلمة القديمة -
حط إبليس وسار . ورأى على البعد ما يشبه الكرة
فلما اقترب منها بدت له قارة لا حدود لها

خربة مظلمة وبرية موحشة ، تجهم لها الليل

فتعرت دون نجوم ، وهبت عليها من العماء عواصف تتهددها أبدًا ٤٢٥

وتلقفها من كل مكان . فأجواؤها صرصر عاتية

إلاّ على هذا الجانب ، فرغم بعده

الشاسع عن سور الجنة ، لمح فيه بصيصًا منعكسًا

لسماء مشرقة هدأت فيها العواصف الصارخة .

وهنا سار الشيطان طليقًا فى الخلاء الشاسع . ٤٣٠

انظر إلى نسر نشأ وترعرع فى جبال (إيماوس)

التى صدت ذراها الثلجية قائد التتار الغازى !

وانظر إليه يترك موطنه الذى تندر فيه الفريسة

ويغادره طلبًا للحم الحملان أو صغار المعز

مما يرعى مع القطعان فوق التلال ! إنه يطير نحو ينابيع ٤٣٥

نهر (الجانكيز) أو نهر (الهيداسبيس) فى الهند

ولكنه يحط فى طريقه على السهول الجرداء

فى (سريقانا) حيث يُسيِّر أهل الصين

عرباتهم الخفيفة المصنوعة من البوص بقلوع تدفعها الريح !

فهكذا حط الشيطان على السهل المنبسط كصفحة البحر الذى ٤٤٠

تهب عليه الريح فأخذ يصول ويجول وحده طلبًا لفريسته !

كان وحده حقًا إذ لم يكن مخلوق آخر فى هذا المكان -
مخلوق من الأحياء أو من الجماد ! لم يكن بعد أى شىء !
ولكن حشدًا من الأشياء جاء من الأرض فيما بعد
راكبًا متن الهواء كأنه الأبخرة الطائرة ! ٤٤٥
حشد من شتى ألوان العرض الزائل والغرور
بعد أن أفعمت الخطيئة أعمال الإنسان بالغرور -
كل صنائع الغرور ، وكل من بنى على صنائع الغرور
آماله الكاذبة فى المجد أو الشهرة الباقية
أو السعادة فى الدنيا أو فى الآخرة . ٤٥٠
إن كل من ينالون ثوابهم فى الأرض ويجنون ثمار
جهود الخرافة والحماس الأعمى
ولا يبغون سوى مديح الناس ، سوف يجدون هنا
جزاءهم الحق خواءً مثل أعمالهم .
إن كل ما صنعته يد الطبيعة فلم تتم صنعه ٤٥٥
فخرج مجهضا ، أو وحشيا ، أو فظيع الخلقة
يذوب على الأرض ويسيل إلى هذا المكان ويظل
يروح ويغدو عبثا حتى يحين وقت انحلاله هنا
لا فى القمر المجاور كما تصور البعض خطأ .

والأرجح أن سكان حقوله الفضية هم ٤٦٠
القديسون الذين رُفعوا أو الأرواح الوسطى فى المنزلة
بين الملائكة والجنس البشرى .
أما هنا فمن نسل أبناء وبنات اقترنوا فساء اقترانهم !
جاء العماليق أولا من العالم القديم
يزهون بانتصاراتهم العديدة وذيوع صيتهم آنذاك . ٤٦٥
ومن بعدهم جاء بناة (بابل) على سهول
(سنار) ، ولم تفارقهم أطماح الغرور
فلو كانت لديهم المقدرة لبنوا مدنا جديدة مثل (بابل) .
وغيرهم أتى وحده . فأما من كان ينشد
الربوبية فقد ألقى بنفسه حمقًا فى سعير بركان (إتنا) ٤٧٠
وهو (امباذوقليس) ، وأما من كان يريد التمتع
بالجنة التى وصفها (أفلاطون) فقد ألقى بنفسه فى البحر ،
وهو (كليومبروتوس) - وغيرهم كثيرون ممن يطول ذكرهم
أَجِنَّةٌ وبلهاء ، ونساك وكهان ممن يرتدون المسوح
البيضاء والسوداء والرمادية وما يتزينون به من بهرج . ٤٧٥
هنا يطوف الحجاج الذين قطعوا مسافات كبيرة بحثا
عمن مات على تل (جلجثة) وهو يحيا فى السماء .

وأولئك الذين كانوا يريدون ضمان الفردوس
فارتدوا عند موتهم الملابس السوداء لطائفة (الدومينيك)
أو (الفرنسيسكان) ظانين بأنهم سوف يتخفون فيها فيدخلوا الجنة ! ٤٨٠
إنهم يمرون بالكواكب السبعة ، ثم يمرون بالفلك الثابت
ومن بعده الفلك البلورى ذى الميزان الذى يحدث التوازن
مع الاهتزاز فى المحور ، ومن بعده أول الأفلاك حركة .
وترى القديس بطرس واقفا الآن عند باب الجنة الصغير كأنه
ينتظرهم وفى يده مفاتيحه ، وتراهم لدى سفح ٤٨٥
درج الجنة يرفعون أقدامهم ثم ترى عجبًا ! .
إن ريحا عاصفة تهب قبالتهم من الساحلين معا
فتجرفهم مسافة عشرة آلاف فرسخ ثم تلوى بهم عاتية
فى الهواء الشارد ! وعندها ترى من كل
عباءة وقلنسوة ، وترى المسوح ولابسيها وقد تلطمت ٤٩٠
وتمزقت وتناثرت إربًا ! ثم ترى المسابح والبقايا المقدسة
وصكوك الغفران وتحلة الأيمان ، وصكوك العفو والمراسيم البابوية
فى أيدى الريح تتقاذفها وتلهو بها ! وتصاعد كل هذه فى دوامات الريح
فتطير فوق ظهر الكون على بعده الشاسع
إلى عالم النسيان الشاسع العريض ، والذى أصبح اسمه من ثم ٤٩٥

فردوس الحمقى . ورغم ذيوعه

بعد ذلك بوقت طويل فلم يكن به الآن أحد ولم تكن تطؤه الأقدام

وقد رأى الشيطان هذا العالم المتكور المظلم وهو يمضى فى رحلته

وكم طال به التجوال حتى لاح له أخيراً شعاع

من النور المشرق فاجتذب إليه على الفور ٥٠٠

خطواته الخبيرة بالترحال . ثم رأى على آخر مرمى الطرف

سلما يرتفع بدرج رائع

إلى أسوار السماء - بناء عال

بدت على قمته بوابة فاخرة باهرة

كأنها بوابة قصر ملكى ٥٠٥

ذات مدخل مزدان بالماس والذهب

وقد رصع الباب بجواهر براقة متلألئة

فسطع ولمع حتى فاق ما شهدته الأرض من

نماذج ، أو ما صورته ريشة الرسام البارع .

كان السلم مثل الذى حلم به يعقوب ورأى ٥١٠

الملائكة يصعدون عليه وينزلون - جماعات

مشرقة من الحراس - عندما هرب من (عيسو)

إلى (فدان أرام) فى حقل (لوز)

ورآه فى منامه ليلاً ومن فوقه السماء دون غطاء
وحينما استيقظ صاح : هذه أبواب السماء ٥١٥
كان لكل درجة معنى وسر من الأسرار ! لم تكن تثبت
دائمًا فى مكانها بل تقترب أحيانًا من الجنة
فى الخفاء . وكان يتدفق من تحته بحر ساطع
من الياقوت أو اللؤلؤ السيال . وقد ركبه
القادمون من الأرض فيما بعد وأبحروا فيه حتى وصلوا ٥٢٠
وقد حملتهم الملائكة ، أو طاروا فوق البحيرة
فى عجلات تجرها الخيول النارية .
وقد تدلى السلم الآن واقتربت درجاته إما لإغواء
الشيطان بسهولة المطلع أو لزيادة حزنه
لحرمانه من ولوج أبواب النعيم .
وقبالته انفتح من أسفل ٥٢٥
فى مكان يعلو مقعد النعيم فى الفردوس
ممر يهبط إلى الأرض ، ممر واسع ،
أوسع كثيرًا مما شهدته العصور التالية
فوق جبل (صهيون) - على رحابته واتساعه - ٥٣٠
وهو الذى يمتد فوق الأرض الموعودة المحببة إلى الرب

والذى سلكته ملائكته لتتنزَّل على القبائل السعيدة،
بمقتضى الأوامر العليا، رائحة غادية
لا تتوانى عن الحركة، وعينه التى تنتقل بدقة
بين (بانياس) حيث ينبع نهر الأردن ٥٣٥
و (بير سبع) حيث تخوم الأرض المقدسة
مع مصر وسواحل بلاد العرب .
كانت الفتحة تبدو شاسعة ، حيث أقيمت الحدود
مع عالم الظلام ، مثل الجسور التى تصد موج البحر .
ووقف إبليس هنا على أدنى درجات السلم ٥٤٠
ذى الدرجات الذهبية التى تصعد به إلى باب السماء .
وقف يتأمل ما تحته فى دهشة إذ لاح له فجأة
هذا العالم كله بصورته الكاملة ! كان يشبه كشافًا
سلك الدروب الظلماء والصحارى واجتاز أخطارها
طوال الليل ثم لاحت له أخيرًا بشائر الفجر الصبوح ٥٤٥
وقد تسنم قمة بعض التلال السامقة
فأبصرت عينه على حين غرة
مشهدًا مزدانًا لبعض البلاد الأجنبية
لم يره من قبل ، أو لمدينة ذائعة الصيت

محلاة بالأبراج اللألاءة والقمم البراقة ٥٥٠
التى تسطع عليها الشمس الآن فتكسوها بأشعتها الذهبية !
ومع أنه رأى السماء من قبل ، فقد تملكت الدهشة البالغة
ذلك الروح الشرير ، بل وتملكه من الحسد ما يفوق دهشته
لرؤية كل هذا العالم بديع الرواء .
إنه يستطلع ما حوله - وما أحراه أن يفعل - حيث يقف ٥٥٥
عاليًا فوق القبة الكبرى المحيطة
بظلام الليل المديد ، فينقل عينيه من أقصى الشرق
حيث برج الميزان إلى ذلك النجم الناعم الذى يحمل
(أندروميدا) فيجتاز بها أمواج الأطلنطى
إلى ما وراء الأفق ، ثم من القطب إلى القطب ٥٦٠
ليدرك عرض العالم ، ودون أدنى تمهل بعد ذلك
يلقى بنفسه هابطًا فى أولى مناطق العالم
منقضًا فى طيرانه ثم ينثنى فى يسر ويلتوى
خلال الهواء النقى الصقيل فيمر
بين نجوم لا يحصى عددها ، نجوم تسطع ٥٦٥
على البعد . أما على القرب فتبدو عوالم أخرى
أو قل إنها كانت تبدو عوالم أخرى أو جزرًا سعيدة

- مثل حدائق (هسبيريا) التى ذاعت شهرتها من قديم
بحقولها الخصبة وخمائلها ووديانها المزهرة !
جزر ضوعفت سعادتها ثلاث مرات ، ولكن قاطنيها السعداء ٥٧٠
لا يمكثون ليتساءلوا عنها ! ولقد فاق ضوء هذه النجوم جميعًا
نور الشمس الذهبية إذ سطعت بما يشبه بهاء الجنة
فشدت إليها بصره ، وإليها يمضى فى طريقه
عبر السماء الساكنة . هل يصعد أم يهبط ؟
أفى مدار داخلى أم مدار خارجى ؟ (لا نستطيع القطع فى هذا) ٥٧٥
أم بحذاء خط الطول الكونى حيث الوهاج العظيم -
الذى ينأى عن الكويكبات المحتشدة المألوفة التى
تبقى هى الأخرى على المسافة بينها وبين عينه الملكية
وهو يرسل ضوءه من بعيد . أما هى فإنها تؤدى
رقصة النجوم فى إيقاعات تحسب مواقيت ٥٨٠
الأيام والشهور والسنين ، ونحو مصباحه الصبوح
تتجه بشتى حركاتها دون تفاوت ، أو قل إنها موجهة
بشعاعه المغناطيسى الذى يشيع الدفء الرفيق
فى الكون ويتخلل أوصاله إلى أعماقها الدفينة
متسللا برفق - دون أن يرى - ٥٨٥

مرسلا طاقته الخفية حتى فى أعماق المحيط .

ما أحكم موقعه الوضاء وما أعجبه !

وهناك يهبط الشيطان . إنه يهبط على بقعه لم ير مثلها

الفلكى بين البقع التى تشين وجه الشمس الوضاء

وهو يتطلع إليها من منظاره الزجاجى المقرب . ٥٩٠

وقد وجد أن وهج المكان يعجز عنه الوصف

إذا قورن بأى شىء على الأرض من المعدن أو الحجر !

لم يكن متجانس الأجزاء ولكنها كانت جميعًا تشع

ضوءًا باهرًا ، كأنها حديد توهج فى النار .

فأما المعدن فيبدو بعضه من النضار وبعضه من اللجين الصافى ٥٩٥

وأما الحجر فمعظمه من الزمرد أو الزبرجد

أو الياقوت أو الياقوت الأصفر وسائر الأحجار الأثنى عشر

التى سطعت

على درع (هارون) . وكان ثم حجر آخر

تخيله الناس كثيرًا دون أن يروه فى غير هذا المكان

إنه الحجر أو قل إنه يشبه الحجر الذى عبثًا ما طلبه ٦٠٠

الفلاسفة وطويلا ما بحثوا عنه على الأرض هنا -

دون طائل رغم علومهم وقدرتهم على تقييد

الطيار (هيرميس) وفك قيود (بروتيوس) القديم واستحضاره
من البحر فى شتى أشكاله
وتقطيره فى الأمبيق حتى يعود صورته الأولى ٦٠٥
وهل نعجب إذن إذا كانت الحقول والبقاع هنا
تخرج زفراتها أكسيراً صافياً وتجرى الأنهار
بالذهب السائل إذا كانت لمسة مؤثرة واحدة
من الشمس رأس الكيمياء ، رغم بعدها الشاسع عنا ،
تختلط بمياه الأرض فتبدع ٦١٠
هنا فى الظلمة كثيراً من الأشياء الثمينة
بألوانها الرائعة وتأثيرها النادر ؟
لقد عثر الشيطان هنا على مواد لم يرها أحد من قبل ولكنه
لم ينبهر بها . لقد أحاطت عينه بالمشهد طولاً وعرضاً
إذ لا يقوم أمام البصر هنا حائل ولا يمتد ظل ٦١٥
بل يغشى ضوء الشمس كل شىء ، كأنها تسطع
فى كبد السماء عند الظهر ، فأشعتها الآن مباشرة
تنطلق إلى أعلى دائماً حيث لا تسقط
الظلال من أجسام مصمته وأما الهواء
فلا مثيل لنقائه هنا إذ وهب نور بصره حدة ٦٢٠

فاستطاع أن يرى أبعد الأشياء عنه وسرعان

ما أبصر بوضوح ملاكًا باهرًا واقفًا

كان نفس الملاك الذى رآه (يوحنا) واقفًا فى الشمس .

كان يدير ظهره إليه ، ولكن ذلك لم يخف بهاءه .

كانت أشعة الشمس الوضاءة قد صاغت تاجًا ذهبيًا . ٦٢٥

يحيط برأسه . ولم تكن خصلاته أقل

بهاء وهى ملقاة خلف التاج على كتفيه المجنحتين

وقد تموج الشعر فيها . كان يبدو مكلفًا بمهمة عظيمة

أو مستغرقًا فى تأملات عميقة .

ما أسعد الجنىّ الخبيث الآن ! لقد راوده الأمل فى ٦٣٠

أن يجد من يدله على الطريق فى رحلته الجوالة

إلى الفردوس حيث يقعد الإنسان مقعد النعيم -

ختام ترحاله وبداية ترحنا !

ولكنه يحاول أولا أن يغير من صورته الحقيقية

وإلا جرت عليه الأخطار أو أدت إلى التأخير . ٦٣٥

فإذا به يتحول إلى صبى من ملائكة الشاروبيم

ليس فى ربيع العمر ، ولكن وجهه

يضيىء ببسمة شباب السماء ، ويضفى على أطرافه

الرشاقة المناسبة ! ما أمهره فى التصنع والتخفى !

تحت تاجه الصغير كان شعره الدفاق ٦٤٠

يتماوج فى حلقات فوق خديه ، وكان يرتدى جناحين

من ريش زاهى الألوان مزركش بالذهب .

كان قد ارتدى ما يعينه على سرعة الحركة ويمسك

بعصا فضية تسبق خطواته الرزينة .

وقد أحس به وسمعه الملاك الوضاء عندما اقترب ٦٤٥

بل قبل أن يقترب إذ أدار الملاك رأسه النورانية

وقد دلته أذنه عليه فأدرك إبليس على الفور أنه

الملاك الأكبر (أوريل) أحد السبعة الذين

يقفون فى حضرة الرب ! إنهم أقرب الملائكة إلى العرش ،

فهم يقفون على استعداد لتلقى أوامره ، وهم عيونه ٦٥٠

التى تتفحص أقطار السموات جميعًا ! أما فى أصقاع الأرض ،

فيقضون له المآرب بسرعة فوق الرطب واليابس ،

فى البرّ والبحر . فاقترب منه إبليس وحدثه قائلاً :

(أوريل) ! إنك أحد الأرواح السبعة التى تقف

بمشهد عن عرش الرب العلىّ باهر الإشراق ٦٥٥

إنك أول مفسر لمشيئة الحق العظمى

وأول من يأتى بها من السموات العلى

حيث ينتظر شتى أبنائه انقضاء مهمتك

وأنت هنا بمقتضى المشيئة السامية أرجح من يحوز

مثل هذا الشرف - فأنت عينه المبصرة - ٦٦٠

إذ تختلف كثيرًا إلى هذا الخلق الجديد المستدير !

وقد دفعتنى رغبة جائحة إلى أن أرى وأطلع على

سائر بدائع الخالق الباهرة لا سيما الإنسان

مبعث سروره وموطن حبه فمن أجله

أمر بخلق هذه البدائع الباهرة جميعًا ٦٦٥

وقد أتت بى هذه الرغبة إلى هنا تاركًا جوقة الشاروبيم

أصول وحدى وأجول . قل لى يا أبهى ملائكة الصاروفيم

فى أى فلك من هذه الأفلاك المشرقة يحظى الإنسان

بمستقره ؟ أم عساه لا مستقر له ؟

يتنقل كيف يشاء بين هذه الأفلاك المشرقة جميعًا ؟ ٦٧٠

أجبنى علّنى أجده وأطلع عليه خلسة

فأعجب وأسر لمرأى

من أسبغ عليه الخالق العظيم هذه

العوالم ، ومن أغدق عليه كل هذه النعم .

حتى يكون آية من الآيات نتدبرها كما ينبغى ٦٧٥
فنسبحّ بحمد خالق الأكوان !
لقد ألقى بالحق بخصومه العاصين
فى أعمق أعماق الجحيم ، وتعويضًا عن فقدانهم
خلق هذه السلالة البشرية الجديدة السعيدة
ليعبدوه خيرًا من أولئك : ما أحكم فعاله جميعًا ! ٦٨٠

هكذا تحدث المتصنع المتنكر فلم ينكشف أمره
إذ لا يستطيع بشر أو ملاك أن يتبين
النفاق ، فهو الشر الوحيد الذى يمشى
خافيًا - إلا على الرب وحده
فى السماء والأرض - فبذا تسمح مشيئته . ٦٨٥
وكثيرًا ما ترى الحكمة يقظة والشك نائمًا
لدى بابها ، وتراها تسلس للسذاجة
قيادها ، وترى الخير لا يظن ظن السوء بشىء
إن لم يكن ظاهرًا باديًا . وهكذا انخدع الآن
(أوريل) - رغم أنه حاكم الشمس ٦٩٠
وأحدُّ الأرواح بصرًا فى السماء
ومن ثم التفت إلى الدعىّ المخادع الأثيم -

وبالخير المركب فيه أجابه قائلاً :
أيها الملاك الجميل ! إن رغبتك فى معرفة
بدائع الرب ، حتى تسبّح بحمد ٦٩٥
الخلاق العظيم ، لا تجاوز الحد
فتؤاخذ عليها ، بل إنها لأجدر بالثناء
إذا تجاوزت الحد ! ساقتك هذه الرغبة إلى هنا
وحيدًا من مقامك فى السماء
لتشهد بعينى رأسك ما يقنع البعض ٧٠٠
بسماع أخباره وحسب فى السماء !
حقا ! ما أعجب بدائعه جميعا
إن فى معرفتها متعة ، وهى جديرة
بأن تذكر جميعا فتجلب السرور دائمًا .
ولكن أنىّ للذهن المخلوق أن يحصى ٧٠٥
عددها : أو يدرك الحكمة الأزلية
فى خلقها وإخفاء أسبابها العميقة !
كنت أنظر عندما نطق بكلمته فإذا بكتلة الهيولة ،
وهى المادة التى تشكل منها هذا العالم ، قد تراصت !
وعندما سمع الاختلاط صوته توقف الصخب الوحشى ٧١٠

وخضع ، كما وُضعت الحدودُ للشاسع غير المحدود !

وعندما صدر أمره الثانى فر الظلام

وسطع النور ، وخرج النظام من الفوضى .

وأسرَعَتْ من ثَمّ إلى مواقعها المحددة

العناصرُ الثقيلة : التراب والماء والهواء والنار ٧١٥

ثم ارتفع جوهر السماء الأثيرى

إلى أعلى ، تحمله أشكال شتى

تدور فى أفلاكها وتتحول إلى نجوم

لا يحصى عددها ، كما ترى وكما تشهد حركتها !

وقد تحدد لكل منها مكان ومسار ٧٢٠

وأما باقى الأثير فهو الجدار المستدير الذى يحيط بهذا الكون .

انظر تحتك إلى تلك الكرة ! إن جانبها المواجه لنا

يعكس الضوء المشع من هنا فيضىء ويشرق !

ذلك المكان هو الأرض مقر الإنسان ، وذلك الضوء

هو نهار الإنسان ! ولولاه لكان مثل النصف الآخر للأرض ٧٢٥

يغزوه الليل ! ولكن القمر هناك بجوارها

(فهذا هو اسم الكوكب الجميل المواجه لها) إنه يعينها

فى الوقت المناسب ، ويواصل دوراته الشهرية

التى ما تنتهى حتى تبدأ من جديد فى وسط السماء .

وهو يستعير الضوء لينير طلعته المثلثة ٧٣٠

من هنا فيمتلىء ويفرغه لينير الأرض

وبسلطان نوره الشاحب يكبح جماح الليل

والبقعة التى أشير إليها هى الفردوس

حيث يقيم آدم وتلك الظلال السامقة خميلته .

لن تضل طريقك إليه ، أما أنا فطريقى يدعونى الآن . ٧٣٥

وسكت واستدار فانحنى لهه إبليس وركع

فالعرف يقضى بالركوع للأرواح الرفيعة فى السماء

حيث لا يتجاهل أحد مراتب الشرف والاحترام .

ثم ودعه إبليس وأسرع نحو تخوم الأرض من تحته

هابطًا فى فلك البروج يدفعه النجاح المأمول ! ٧٤٠

وها هو يدور فى الهواء عدة مرات فى رحلته السحيقة

ولا يتوقف حتى يحط على قمة تل (نيفاطيس) .

# الكتاب الرابع

## الموضوع

إبليس الآن على مرآى من عدن ، على مقربة من البقعة التى سيحاول فيها تنفيذ عـمله الجسور الذى اضطلع به وحده ضد الله والإنسـان ، وهنا يقع نهبا لعديد من الشكوك ، وتنتابه مشاعر عديدة - مشاعر الخوف والحسد واليأس . ولكنه فى النهـاية يوطن الـنفس على الشـر ويرحل إلى الفـردوس وهنا يصف مظهرها وموقعها ثم يثب إليها مـتخطيا حدودها فى صورة غراب الماء ، ويقبع فوق شـجرة الحيـاة أعلى شجرة فى الجنـة كيما يـشهد مـا حوله . يتلو ذلك وصف الجنة حـيث يرى إبليس آدم وحـواء لأول مـرة ويدهش إبليس لكمـال صورتهما والنعيم الذى يقيمان فيه وقد عقد العزم على إخراجهما منه .

ويسترق السمع إلى حديثهما ، فيدرك أنهما قد حرم عليهما أن يقربا شجرة المعرفة وإلا وقع بهما عـقاب الموت . ومن ثم يعتزم أن يبنى على هذا إغواءه لهما - أى أن يغويهما على العصيـان . ثم يتركهما إبليس حينا حتى يزداد علما بهما بوسيلة أخرى .

وفى هذه الأثناء يهبط (أوريل) على شعاع من أشعة الشمس ليحذر جبريل - الذى كـان يقوم على باب الفـردوس - بأن روحـا من الأرواح الشريرة قـد هرب من الهوة ومر عند الظهيرة بموقعه وقد اتخذ صورة ملاك كريم فى طريقه إلى الفردوس ، وأنه قـد كشف أمره حين تأمل حـركاته العنيفة فى تحلـيقه .

ويعد جبريل بأن يعثر عليه قبل انبـلاج الصبح . الليل الآن يقترب ، ويتحادث آدم وحواء عن الذهـاب إلى المخدع - ويلى ذلـك وصف خميلتـهمـا وصلاة المساء التى يؤديانها . وعندما يجمع جبـريل كتائبه من العسس الذين سيطوفون الفردوس ، يـنتقى اثنين من المـلائكة الأشداء للنظر فـى خميلـة آدم حتى لا يصيب الروح الشرير آدم أو حواء بالأذى أثناء سـباتهما . وهناك يجدان إبليس يوسوس فى أذن حواء بحلم الغواية فيأتيـان به رغما عنه إلى جبريل . وعندما يسائله جبريل يجـيبه بازدراء قائلاً إنه يعد العدة للمقـاومة ولكن آية من السماء تمنعه فيطير خارجًا من الفردوس .

أين لى بصوت النذير الذى سمعه صاحب
الرؤيا يُدوّى دويًا فى السماء
عندما هبط التنين ، بعد هزيمته الثانية ،
فى سورة غضبه ليثأر من البشر -
"الويل لسكان الأرض!" ليتك تقولها الآن ٥
وفى الوقت متسع لتنذر أبوينا الأولين
أن عدوهما الخفى قد أتاهما هاربا !
لقد فر بالمصادفة من فخ الهلاك ! فها هو
إبليس يهبط وقد استبدل بغضبته الجائحة الأولى

غواية تسبق الإدانة لبنى البشر ، ١٠
فإذا بالإنسان البرئ الضعيف يصبح موضع ثأره لهزيمته
فى معركته الأولى وسقوطه فى الجحيم .
ولكنه غير هانىء بإقدامه - رغم جسارته
وبعده وجرأته - وغير قادر على التباهى
وقد شرع فى تنفيذ خطته الرهيبة . إن موعد ميلادها ١٥
يقترب حثيثا وقد باتت تفور وتمور فى صدره الجياش
بيد أنها - شأن آلة الحرب الشيطانية - يرتد كيدها
إلى نحر صاحبها ! إن الفزع والشكوك تشتت
أفكاره المضطربة وفى أعماقه يستعر
جحيمه الباطن ، فلقد أتى بالجحيم فى داخله ٢٠
ومن حوله ، بل لا يستطيع أن يبتعد عن الجحيم
خطوة واحدة ، إلا بمقدار ابتعاده عن نفسه ،
مهما تغير المكان وتبدل ؛ إن الضمير يوقظ الآن اليأس
الذى كان نائما ، ويوقظ الذكرى المريرة -
ذكرى ما كان عليه ، وما أصبح ، وما لا بد أن يكون ٢٥
أسوأ ، إذ لا يعقب شر الفعال إلا شر المعاناة .
تمتد عدن الآن أمام ناظريه

فاتنة خلابة ، فطورا يلقى عليها بصره الكاسف الحزين
وطورا يرمق السماء والشمس الوهاجة
التى اعتلت الآن برج الظهيرة الأشم . ٣٠
ودارت به دورة التأملات ، فقال وقد غلبته الحسرات :
أنت أيتها المتوجة بفائق البهاء
لقد تجليت فى السماء سلطانا أوحد وإلها
لهذا العالم الجديد ! إن طلعتك تخسف شتى النجوم
فتخفى رؤوسها المتضائلة ! إننى أناديك ٣٥
بصوت لا يضمر الود ، ثم أذكر اسمك
أيتها الشمس ، لأقول لك كم أبغض أشعتك
التى تذكرنى بالمكانة التى فقدتها
وهويت منها ، وبهائى الذى كان يفوق بهاءك
حتى قضت علىّ الكبرياء والطموح المزرى ، ٤٠
بعد الحرب فى السماء ضد مليك السماء - وليس كمثله شىء !
ولماذا فعلتها ؟ لم يكن يستحق هذا الجزاء
منى بعد أن خلقنى بالصورة التى كنت عليها
امتيازا وبهاءً ، وبعد أن أفاء على خيرا
غير ممنون ، وما كانت عبادته شاقة علىّ . ٤٥

كان أقل ما ينبغى هو أن أحمده

وما أيسره من جزاء ، وأن أقدم له الشكر

وما أكثر ما يستحقه ؛ ولكن الخير من جانبه بات شرًا فى نفسى

وأنبت الحقد والضغينة . إن منزلتى الرفعية جعلتنى

أرفض الخضوع ، ظانا بأننى لو ارتقيت درجة أخرى ٥٠

سأكون أرفع الجميع ! وهكذا - فى لحظة واحدة - أسقطت

دينى الكبير له ، دين الامتنان بلا نهاية

فهو عبء ثقيل ما تفتأ تسدده وما تفتأ تدين به .

ونسيت أننى ما فتئت أتلقى فضله ،

ولم أدرك أن النفس حين تعترف بالفضل ٥٥

وتدين به يسقط عنها الدين وتسدده معا ؛ فهى فى آن واحد

مدينة به وبريئة منه : أين ذلك العبء إذن ؟

آه ! لو أن أقداره العاتية قد قضت

بأن أكون ملاكا أصغر شأنا ، إذن لرضيت

حينئذ وسعدت ، ولَمَا كان الأمل غير المحدود قد أثار ٦٠

طموحى . ولم لا ؟ لربما راود الأمل أحد الجبابرة الآخرين

من أندادى ، فوجدتنى رغم صغر شأنى

أنضم إلى صفوفه . ولكن الجبابرة الآخرين من أندادى

لم يسقطوا بل ما زالوا على ثباتهم ، فى الباطن

والظاهر ، وقد تحصنوا ضد كل إغراء وغواية .  ٦٥

أكان لك من الإرادة الحرة والقوة ما يكفل لك الثبات ؟

أجل ! ترى من تتهم إذن وأى شىء تتهم

إلا الحب الفياض الذى تغمر السماء به الجميع بالعدل ؟

اللعنة إذن على حبه ، فسواء كان حبًا أو كراهية ،

وهما لدىّ صنوان ، فقد أذاقنى الويل السرمدى !  ٧٠

لا بل اللعنة عليك يا نفسى ! إن إرادتك قد عصت إرادته

واختارت دون قسر مصيرها الذى تبكيه الآن بحق .

ما أتعسنى ! أين أولى وجهى هربًا

أيها الغضب اللانهائى واليأس الذى لا ينتهى ؟

أينما وليت فثم جحيم : إن نفسى هى الجحيم .  ٧٥

إن فى أدنى أغوار الهوة غورًا أدنى

ما يفتأ يتهدد بازدرادى فاغرًا فاه !

والجحيم التى أعانيها جنة إذا قورنت به .

ألا فلأخفض جناحى إذن : ألم يعد ثم مجال

للتوبة ؟ ألم يعد ثم مجال الغفران ؟  ٨٠

بلى ! لم يعد ثم سبيل إلا الاستسلام

ولكن الإباء يحول بينى وبينه ، وخوفى من العار
بين الأرواح الدنيا ممن أغويتهم
بوعود أخرى ومفاخر أخرى فمنعتهم
من الاستسلام ، متباهيا بأننى أستطيع إخضاع ٨٥
القهار . واهًا لى ! قليلاً ما يدركون
ما كلفنى الالتزام بذلك التفاخر الأجوف
ومدى العذاب الذى يُصدر الأنّات فى باطنى !
فإذا بى ، وهُمْ يعبدوننى هنا فوق عرش الجحيم،
وقد تبوأت التاج والصولجان فعلوت وسموت، ٩٠
أزداد هبوطًا وسقوطًا فلا أتفوق إلا
فى الشقاء ! هذا هو الهناء الذى حققه طموحى !
ولنفترض أننى استطعت التوبة واستعادة
مكانتى السابقة بالعفو والغفران منه ، لسرعان
ما توحى منزلتى الرفيعة بأفكار الرفعة وسرعان ما أتبرأ ٩٥
مما أقسمت عليه عند تظاهرى بالاستسلام ! إن الترف ليتنصل
من الأيمان التى حلفتها إبان العذاب فخرجت مغلَّظة وباطلة !
أنَّى للوفاق الحق أن ينمو إذا كانت
جراح البغضاء القاتلة قد بلغت هذه الأغوار ؟

إنها لتؤدى بى إلى انتكاسة أسوأ ١٠٠
وسقوط أشد ، فإذا بى أشترى
مهلة قصيرة غالية بآلام مضاعفة !
إن من يعاقبنى يدرك هذا ولذلك فهيهات
أن يمنحنى الصلح وهيهات أن أسأله منه !
لقد انتفى الأمل تماما ! وانظر تَرَ مكاننا - ١٠٥
بعد أن نُبذنا ونُفينا - مصدر سعادته الجديد ! ذلك
الإنسان الذى خلق وخلق من أجله هذا العالم !
وداعًا أيها الأمل اذن ! وداعًا للخوف
وداعًا للندم ! لقد ضاع منى الخير جميعًا
ألا فلتصبح أيها الشر خيرًا لى ، فبك - على الأقل - ١١٠
سأتقاسم مُلك الكون مع ملك السماء
وبفضلك ربما حكمت أكثر من نصفه .
وقريبًا سيدرك الإنسان وهذا العالم الجديد صدق ما أقول !
وأثناء حديثه كانت المشاعر تظلم وجهه وتظلله
بظلال الشحوب الثلاثة - ظلال الغضب والحسد واليأس ١١٥
فكدرت وجهه المستعار وأبانت
زيفه إذا كان ثم عيون تنظر !

فنفوس السماء لا تكدرها مثل هذه الأخلاط الدنيئة
وهى بريئة منها أبدًا . وسرعان ما أدرك هذا
فأسبغ على وجهه سمة هدوء ظاهرة أخفت كل اضطراب - ١٢٠
إنه مبتدع التحايل ، بل كان أول
من يمارس الضلال مستترًا بمظاهر القداسة
ليخفى حقده الدفين الذى يضمر الثأر
ولكنه لم يكن تدرب عليه بما يكفى لخداع
(أوريل) حين فطن إليه . لقد تابعته عينه وهو ١٢٥
يسلك سبيله ويحط على الجبل الأشورى
ورآه وهو يشوه ويتبدل بأكثر مما يقع
للأرواح الهائنة . ورمق وحشى حركاته
ورصد جنون فعاله حين ظن أنه وحده
وتصور أنه لا يُرى لأنه غير مراقب . ١٣٠
وهكذا استمر فى طريقه حتى وصل إلى حدود
عدن ومن فوقها الفردوس ذات الملاذ
تقترب ، كأنها التاج بسياجها الأخضر
أو كأنها كثيب ريفى يتوج رأسًا عارية
من الآكام العالية فى البرية . وعلى جانبيها تدلى الشعر ١٣٥

أدغالاً شعثاء ، غريبة وحشية

تحول دون وصول أحد . أما من فوقها فقد انتصبت

أشجار سامقة ظلالها شاهقة -

أشجار الأرز والصنوبر والسرو والنخل ذات الأفنان -

كأنما هى غابة من الغابات ! وأما الدرجات الصاعدة ١٤٠

ظلاً من بعد ظل فهى مسرح آجام

رائع المنظر . وفوق قممها جميعًا

قام سور الفردوس الأخضر

من حيث يستطيع والدنا الأكبر أن يحيط بأرجاء

مملكته الدنيا المجاورة لها ١٤٥

ومن فوق ذلك السور اصطفت دائرة

من أحسن الأشجار المحملة بأطيب الثمار .

كانت البراعم والثمار فى آن واحد تكتسى لونًا ذهبيًا

تمتزج به ألوان زاهية نضرة .

ما أهنأ الشمس بإلقاء أشعتها عليها ! إنها لأهنأ بها ١٥٠

منها بسحب الغروب الجميلة أو قوس قزح

عندما يلقى الله بالأمطار على الأرض ! ما أبدع ما تجلى

ذاك المشهد ! لقد خرج من الهواء النقى هواء أنقى

ليلقاه قادمًا وينفث فى قلبه
فرح الربيع ومرحه ويمحو منه ١٥٥
كل الأتراح - إلا اليأس ! والآن تهب النسائم العليلة
وترفرف بأجنحة أريجها فتنشر
عطور تلك البقعة ، وتبوح هامسة بمصدر
هذه الغنائم فواحة العبير ! أرأيت إلى الملاحين حين
يتخطون رأس الرجاء الصالح ثم يجتازون ١٦٠
موزمبيق ، إذ تهب على البحر رياح شمالية شرقية
فتحمل إليهم روائح أرض سبأ من الشواطىء العطرة
لبلاد العرب المباركة ! فإذا هم يسعدون بتأخرهم
ويبطئون من سيرهم وعلى مدى فراسخ عديدة
يسعد المحيط الهرم بذلك الشذا البهيج ويبتسم له ! ١٦٥
فهكذا كانت هذه الروائح العطرة للشيطان متعة
أتى فأفسدها ، ولو أنه كان أسعد حظا بها
من سعادة (أزموديوس) بدخان الأسماك
الذى أبعده - رغم تولهه - عن عروس
ابن (طوبيت) ومن ثم انتقم منه وأُقصى ١٧٠
من (ميديا) إلى مصر حيث غُل فى الأصفاد !

كان تسنم ذلك التل الشاق الشاهق

الغايةَ من رحلة إبليس ، بعد تلكئه وتأملاته .

لكنه لم يجد طريقًا يشقه عند تلك البقعة حيث يتشابك نبات الأرض

كأنه شجرة أشواك متصلة تتألف ١٧٥

من أعشاب ملتفة وشجيرات متداخلة تسد

السبل أمام البشر والحيوان ممن يمر عندها .

كان ثم باب واحد يطل على الشرق

فى الجهة المقابلة . وعندما رآه المجرم الأكبر

استنكف أن يدخله من حيث ينبغى له ، وفى استعلائه ١٨٠

وثب فى خفة وثبة عالية تخطت به حدود

التلال وسامق الأسوار حتى إذا كان بداخلها

هبط على قدميه . أرأيت إلى الذئب الذى يتشمَّم الفريسة

حين يدفعه الجوع إلى طلبها فى أماكن صيد جديدة

كيف يترصد الرعاة وهم يُدخلون قطعانهم عند المساء ١٨٥

فى الجظائر المسورة وسط الحقول آمنين مطمئنين

فيثب فوق السور فى خفة إلى داخل الحظيرة ،

أو إلى اللص الذى عقد العزم على سرقة أموال

ثرى بالمدينة - حيث أبوابه الثقيلة

الموصدة بالمزلاج وبالرتاج المحكم لا تخشى الدخيل - ١٩٠
كيف يتسلق إلى النافذة أو إلى السطح ثم يثب داخلا ؟
فهكذا[٦] تسلق هذا اللص - أول اللصوص وأكبرهم -
متسللا إلى حظيرة الله ،
وهكذا يفعل الأجراء الجهلة عندما يتسلقون ليدخلوا كنيسته !
ومن ثم طار وحط على شجرة الحياة
وهى الشجرة الوسطى وأعلى أشجار الفردوس . ١٩٥
وجثم مثل غراب الماء . ولكنه لم يستْعِدْ الحياة الحقة
بهذا بل قبع يدبر الموت
للأحياء ! لم يتفكر فى قوة
تلك الشجرة التى تهب الحياة بل اعتبرها مكانًا
يطل منه على ما حوله فحسب ! إنها الشجرة التى تَهِب ٢٠٠
الخلود لمن ينتفع بها حق الانتفاع ! ما أقل ما تعرف الكائنات
(ولا يعرف إلا الله) كيف تقدر حق التقدير
الخير المبسوط لها ! إنها لتفسد أفضل الأشياء
باساءة استخدامها أو باستخدامها لأحط الغايات !
واعترته الدهشة من جديد حين نظر إلى المكان من تحته ! ٢٠٥
لقد رأى ما يبعث البهجة كل البهجة فى عيون البشر ! رأى

ثروة الطبيعة جمعاء وقد احتشدت فى رقعة ضيقة ! بل قل
رأى السماء على الأرض ! كانت الجنة هى فردوس النعيم
الذى خلقه الله ، وقد غرسها فى شرق
عدن . أما عدْنُ فتمتد حدودها ٢١٠
من (حوران) فى الشرق إلى الأبراج الملكية
فى (سلوشيا) العظيمة التى بناها ملوك اليونان
أو حيث كان أبناء عدن يعيشون فى سالف الأزمان
فى (تَلَسَّار) . وفى هذه التربة الجميلة
قضى الله أن تكون جنته أجمل وأبهى ٢١٥
فمن التربة الخصبة جعل الأشجار تنمو -
أشرف الأشجار مظهرًا وعبيرًا ومذاقًا -
ووسطها جميعًا انتصبت شجرة الحياة
شاهقة بارزة تزدهى بثمار الخلد
نبتا من الذهب ! وإلى جوار الحياة ٢٢٠
كان الموت ، حيث تنمو شجرة المعرفة قريبًا منها -
المعرفة بالخير التى تُشترى بثمن غال هو المعرفة بالشر !
وتجاه الجنوب عبر عدن كان يتدفق نهر كبير
لا يحول مجراه بل يخترق التل الأشعث

ويمر من تحته خلال الثرى . إذ إن الله قد ألقى ٢٢٥
هذا الجبل فى الأرض ليكون عماد جنته ورفعه عاليًا
فوق النهر الدفاق ! ومن خلال شرايين
التربة المسامية ترفع قوة الجذب الطبيعى ماءه الذى ينبجس
نبعًا عذبًا فيجرى غدرانًا شتى
تروى الجنة . ومن ثم تجتمع هذه الغدران وتهبط ٢٣٠
فى الوادى السحيق لتلتقى بالنهر الذى يجرى تحت الثرى ،
حيث يبرز الآن خارجا من مجراه المظلم ،
ويتفرع إلى أربعة جداول كبيرة
فيجرى فى كل اتجاه ويُعَرِّج على الكثير من ذائع البقاع
والبلدان مما لا حاجة بنا إلى تفصيل القول فيه ٢٣٥
بل ينبغى أن نصف - إذا استطاع الفن أن يصف -
كيف كان نبع الياقوت الأزرق يصب فى الغدران المتماوجة
التى تتدفق فوق اللآلىء اللامعة والرمال الذهبية
وتتلوى متعرجة تحت الظلال المدلاة
فتجرى رحيقًا صافيًا إلى كل نبات وتحمل الغذاء إلى ٢٤٠
زهور الفردوس الحقيقة به ، زهور لم يصنفها الفن الحاذق

فى أحواض منمقة أو فى عقد عجيبة مؤتنقة بل أغدقتها الطبيعة
المعطاء

وفاضت بها فيضًا على التلال والوديان والسهول

حيث سطعت شمس الصباح الدافئة أولا فغمرت

الحقول المنبسطة أو حيث امتدت الظلال الثقيلة ٢٤٥

فأظلمت الخمائل عند الظهر ! هكذا كان ذلك المكان !

بقعة ريفية هنيئة ذات صور متعددة .

أدغال تبكى أشجارها الثمينة بأصماغ العطور والشفاء

وغيرها مما تبرق ثمارها ذهبا

وتتدلى خلابة كأن أساطير (هسبيريا) قد تحققت ! ٢٥٠

فإن كانت ، فهنا وحسب : إذ إنها كانت رائعة المذاق

وفيما بينها امتدت سهول الكلأ والمراعى المنبسطة ، والقطعان

التى تأكل العشب اللين وتجوس بينها ،

أو الكثبان التى تنمو فيها النخيل ، أو الزهور التى خرجت من
أحضان

بعض الوديان الريانة فنثرت بدائعها ! ٢٥٥

زهور من كل لون ، وورود دون أشواك !

وعلى الجانب الآخر مغارات وكهوف ظليلة

يبترد من يأوى إليها ! وعليها تلقى عرائش الكروم أرديتها الخضراء

وعناقيدها الأرجوانية ، وتتسلقها فى رفق

وافرة النماء بينما كانت المسايل ذات الخرير تهوى ٢٦٠

على جوانب التلال فتتفرق ، أو تأتى إلى بحيرة

تنمو على شطآنها مروج الآس والريحان ، كالتاج من حولها ،

صافية كأنها مرآة بلورية ، فتلتقى بمياه الجداول .

كانت الطيور تنشد أهازيجها بينما تهب نسائم الربيع

فواحة بعبير الحقول والأدغال ، لتضبط إيقاع ٢٦٥

الأوراق المرتعشة ! وكان (بان) ملك الغابات

يضع يديه فى أيدى الحسان الثلاث ويشتبك مع ربّات الفصول فى رقصة

ترسم خطى الربيع الدائم ! لم يكن يشبهه شىء : لا الحقول الجميلة

فى (إينا) حيث كانت (بروزربينى) تقطف الزهور

وهى نفسها زهرة أجمل ، حين انقض عليها (ديس) ذو الجهامة ٢٧٠

فاقتطفها ، فتكبدت (كيريس) عناء كبيراً

فى البحث عنها فى أرجاء العالم ! لا ولا خميلة (دافنى) البديعة

بجوار نهر (أورينتس) ونبعها الملهم –

نبع (كاستاليا) - يمكن أن يرقى إلى هذه الفردوس -

فردوس عدن ! لا بل ولا جزيرة (نايسا) ٢٧٥

التى يحيط بها نهر (ترايتون) حيث كان (حام) الهرم

الذى يسميه الأميون (أمون) أو (جوف) الليبى -

يخفى عشيقته (أمالثيا) وابنها الصغير (باخوس) ذا الوجه المتورد

عن عين زوجة أبيه (ريا) .

لا ولا حيث يحمى ملوك الحبشة أبناءهم فوق ٢٨٠

جبل (أمارا) - رغم ما يتصوره البعض من أن تلك هى

الفردوس الحقة الواقعة جنوب مدار (أثيوبيا) .

عند منابع نهر النيل ، حيث تحيط بالجبل الصخور البراقة

وارتفاعه مسيرة يوم كامل ! إنه بعيد كل البعد

عن هذه الحديقة الأشورية التى يطل عليها الشيطان الآن ! ٢٨٥

لقد رأى الفرح فلم يفرح ، رأى جميع أنواع

المخلوقات الحية الغريبة الجديدة على العين ، ورأى

اثنين يمتازان عليها بكرم الخلق وانتصاب القامة والطول .

كانا ينتصبان كالآلهة الوثنية ؛ يكسوهما شرف المنبت

ويبدوان فى جلالهما العارى رأس كل الكائنات . ٢٩٠

وبدا فضلهما جليا إذ سطعت فى طلعتهما القدسية

صورة خالقهما المجيد وأضاءت

بالحق والحكمة والقداسة الصارمة النقية !

كانت صارمة ولكن فى إطار حرية البنوة الصادقة -

المصدر الحق لسلطان البشر ! ولكنهما لم يكونا ٢٩٥

متساويين وكان الاختلاف بين الجنسين بيِّنًا

إذ خلق هو للتفكير والإقدام

وخلقت هى للرقة والرشاقة العذبة الخلابة

خلق هو لله وحده وخلقت هى لله من خلاله !

كانت جبهته العريضة المشرقة ونظرته إلى العلاء تنطقان ٣٠٠

بالسيادة المطلقة . كانت خصلاته السوداء

تلتف فى رجولة من مفرق شعره فوق الجبين

وتجتمع فلا تتعدى منكبيه العريضين .

أما هى فقد كان شعرها ينسدل مثل الخمار حتى وسطها النحيل

فى جدائل عسجدية غير مزيّنة ٣٠٥

وغير منتظمة ، ولكن أطرافها تتماوج فى عقصات طليقة

كأنها عقصات عرائش الكرم ! كان معنى الخضوع يكمن فيه

ولكنه خضوع المتحكم الرقيق ،

فهى تقدمه إليه وهو يتقبله بقبول حسن ،

تقدمه بإذعان الحياء وتواضع الكبرياء ٣١٠
وعذب التمنع ودلال الأحبة .
وما كان يخفيان آنذاك أعضاءهما الغامضة
إذ لم يكن خجل الذنب قد ولد بعد ، وهو الخجل الكاذب
من بدائع الطبيعة – أواه أيها الشرف الكاذب
يا ربيب الخطيئة ! لكم كدرت البشرية جمعاء ٣١٥
وشغلتها بالمظهر – مظهر الطهر الكاذب –
وأقصيت من حياة الإنسان أهنأ حياة له – حياة
البساطة والبراءة النقية !
كانا يسيران عاريين ، ولم يتجنبا عيون
إله أو ملاك ، إذ لم يخطر الشر ببالهما ٣٢٠
وسارا وقد تشابكت أيديهما فكانا أجمل اثنين
يلتقيان منذ ذلك الحين فى أحضان الحب .
كان آدم أوسم الرجال الذين ولدوا من بعده فكانوا
أبناءه وكانت حواء أجمل بناتها .
وعلى الأرض الخضراء ، تحت بعض الأفنان الظليلة ٣٢٥
التى تتمايل فتهمس همساتها الناعمة بجوار نبع عذب ،
جلسا يستريحان بعد عناء يوم قضياه

في العمل الهانيء بالحديقة ، زاد من
استمتاعهما بالنسائم الباردة ، وزاد من إحساسهما
بالراحة ، ومن لذة عطش الأصحاء وشهيتهم ، ٣٣٠
فأخذا يتناولان عشاءهما من الفاكهة .
فاكهة ذات رحيق ربانى تحملها الغصون الريانة
وتلقى بها إليهما بينما يسترخيان على
ربوة مكسوة بالزغب الناعم موشاة بالزهور !
كانا يأكلان لب الثمرة ثم ينتهيان إلى القشرة ٣٣٥
فيملآنها بالماء من الجدول الرقراق لرى ظمئهما !
كان حديثهما مهذبا وبسماتهما حلوة
وملاطفات الشباب ومداعباته تليق
بالجميلين اللذين ربط بينهما رباط الزواج السعيد
فى وحدتهما . ومن حولهما تتواثب فى مرح ٣٤٠
كل دواب الأرض التى استوحشت بعد ذلك ، وسكنت كل مكان
فى الغاب والبرية ، فى الأجمة والعرين .
كان الأسد يلهو فينهض على مؤخرته وفى يده
يلعب الجدى ! وكانت الدببة والنمور والأوشاق والفهود
تتواثب أمامهما ! أما الفيل ثقيل الحركة ٣٤٥

فيضحكهما باستخدام كل قوته ، وتكوين حلقة كاملة
من خرطومه الضخم اللين . وبالقرب منهما كان الثعبان الماكر
يشق طريقه وقد صنع من ذيله عقدة عويصة
ضفرها تضفيرًا ! كان يستعرض خبثه القاتل
ويمثل له فلا يلتفتان إليه ! أما سائر الحيوانات فعلى الكلأ ٣٥٠
استلقت ، وبعد امتلاء بطونها بخير المرعى اتكأت تنظر
أو كانت تجتر طعامها قبيل الرقاد . فالشمس تميل الآن
وتسرع فى فلكها المنحدر
نحو جزائر المحيط ، والنجوم فى برج الميزان الصاعد
فى السماء تشرق لتعلن قدوم المساء . ٣٥٥
كان إبليس ما زال يرقب المشهد من موقعه الأول
وبعد أن خانه لسانه ساعة عاد إلى حديثه الحزين قائلاً :
ياللجحيم ! ماذا تبصر عيناى المكلومتان ؟ من ذا الذى
يشغل مكاننا فى النعيم ؟ ما هذه المخلوقات السامية خلقًا
ذات الشكل الجديد ؟ ربما كانت وليدة الأرض ٣٦٠
وليست أرواحا ، ولكنها ليست أدنى من أرواح السماء الوضاءة
إلا قليلاً ! إن فكرى يتابعها
فى عجب وربما أحببتها ، إذ ما أبدع ما تسطع

فيها الملامح القدسية ، وما أعظم الحسن الذى
أغدقته على صورها يد البارىء ! ٣٦٥
أيها الزوجان الرقيقان ! إنكما لا تدركان كم يقترب
موعد تحولكما ! إن هذه المسرات جميعًا
سوف تتلاشى وسوف تتحولان منها إلى الأحزان !
وكلما زاد ما تنهلانه الآن من الأفراح ، زاد نصيبكما من الأتراح !
إنكما سعيدان ، ولكن سعادتكما الغامرة غير مأمونة ٣٧٠
ولن تستمر طويلا ! ومقعد الرفعة فى جنتكما
يفتقر إلى الأسوار الخليقة بالجنة ، لتمنع العدو من دخولها !
لقد دخلها الآن عدوكما - لكنه لا يناصبكما أنتما العداء
فأنا أشفق عليكما فى هذه البأساء
ولا يشفق علىّ أحد ! إننى أنشد الارتباط بكما ٣٧٥
والود المتبادل - الود الحميم الوثيق . .
ومن ثم فلابد أن أقيم معكما أو أن تقيما معى
منذ الآن . ربما لن يمتع منزلى حواسكما
مثلما تمتعها هذه الفردوس الجميلة ، ولكن
تقبلا ما صنع خالقكما : لقد وهبنى إياه ٣٨٠
وأنا أهبه لكما عن طيب خاطر ! لسوف تنفرج الجحيم

لاستضافتكما ! لسوف تفتح أوسع أبوابها
وتوفد كل ملوكها لاستقبالكما ! ولسوف تتسع رقعتها
- على العكس من هذه الرقعة المحدودة - لاستقبال ذريتكما
التى لا تحصى ! فإذا كان منزلاً غير كريم ٣٨٥
فالفضل لمن وضعنى موضع الثأر الذى أبغضه - موضع
الثأر منكما دون أن تسيئا إلىّ ، انتقامًا ممن أساء إلى .
فإذا لان جانبى لبراءتكما وطهارتكما
وقد لان الآن حقا ، فإن الصالح العام يدعونى بالعدل -
كما يضطرنى الشرف والملك الذى سيتسع بعد الانتقام ٣٩٠
وفتح هذا العالم الجديد -
إلى فعل ما كنت لأبغضه لو اختلف الحال مع أننى ملعون !

هكذا فرغ الجنى من حديثه ، وكان لابد أن يتخذ من
ذريعة كل طاغية ما يبرر به أعماله الشيطانية .
ثم طار من موقعه الشاهق على تلك الشجرة العالية ٣٩٥
ليحط وسط القطيع اللاهى اللاعب
من ذوات الأربع وقد تحول إلى واحد منها - متخذًا
صورة هذا الحيوان أو ذاك بما يحقق هدفه ،
فيقترب لرؤية فريسته متخفيًا ،

ويرصد أحوالهما ويزداد معرفة بهما ٤٠٠

إذا أفصحا عنها بالقول أو الفعل . وهكذا ظل يدور حولهما

طورًا فى صورة أسد يتبهنس وقد برقت عيناهُ نارًا

وطورًا فى صورة نمر وقعت عيناه مصادفة

فى أطراف الغابة على غزالين رقيقين يلهوان

فأخفض رأسه فورًا إلى الأرض ، رافعًا إياها بين الفينة والفينة ٤٠٥

فى طِراده المتلصص كمن ينتقى أفضل بقعة

ينقض منها مسرعًا ليضمن افتراسهما معا

وقد أطبقت كل يد على واحد منهما . وعندما بدأ آدم أول الرجال

حديثه المشبوب إلى حواء أولى النساء

استحال إبليس أذنا صاغية ليستمع إلى كلامهما الجديد الدفاق : ٤١٠

شريكتى الوحيدة وأهنأ هذه الأفراح جميعا !

إنك لأقرب إلى نفسى منها . لابد أن تكون القوة

التى خلقتنا وخلقت لنا هذا العالم الرحيب

ذات خير غير محدود ، ولابد أنه واسع العطاء

كريم بخيره غير المحدود ، ٤١٥

إذ خلقنا من تراب وأنزلنا هذا المنزل ،

فى هذا الهناء البالغ ، دون أن نستحق

أيا من هذا بل ولا نستطيع أن نفعل
شيئًا يحتاج إليه . إنه لا يطلب
منا شيئًا سوى أن ننصاع ٤٢٠
لأمر واحد جِدّ يسير ! فمن بين هذه الأشجار
التى تحفل بها الفردوس وتحمل ما لذ وطاب من ثمار
مختلف ألوانها ، حرمت علينا شجرة واحدة
هى شجرة المعرفة التى غرست بجوار شجرة الحياة !
ما أقرب ما ينمو الموت إلى جوار الحياة - أيا كان ذلك الموت ٤٢٥
ولا شك أنه شىء رهيب - وتعلمين حق العلم أن
الله قد قضى بالموت على من يقرب تلك الشجرة .
وهذه هى آية طاعتنا الوحيدة
من بين شتى آيات السلطان والحكم التى
أنعم بها علينا ، والسيادة التى كرمنا بها ٤٣٠
على سائر المخلوقات التى تنعم
بالأرض والهواء والماء . لا ينبغى أن نظن أن تحريم شىء واحد
أمر عسير ، فلدينا الحرية المطلقة
فى التمتع بكل ما عداه ، ولنا أن نختار ما نشاء -
دون حدودٍ - من ضروب المتع المنوعة من حولنا . ٤٣٥

دعينا إذن نسبح بحمده أبدًا ونشكره على
نعمائه ، بعد أن ننتهى من عملنا الممتع
فنشذب هذه النباتات التى طالت ، ونصفف هذه الأزهار ،
ولو كان عملاً شاقًا فهو يحلو لى إلى جوارك !
وأجابته حواء قائلة : أنت ! يا من خلقت له ٤٤٠
ومنه ! إن لحمى من لحمك ،
ولا غاية لى من دونك ! أنت يا مرشدى
ورأسى ! إن ما نطقت به هو العدل والحق .
فنحن مدينان له حقا بالحمد كل الحمد
وبالشكر صباح مساء - وبخاصة أنا ! لقد فزت ٤٤٥
بحظ أعظم وسعادة أكبر : لقد فزت بك
وأنت تفضلنى بكثير ، بينما لن تجد لك
زوجا مثلى أنىً طلبت !
كثيرًا ما أذكر ذلك اليوم إذ كنت نائمة
فاستيقظت أول مرة ، ووجدتنى أرقد ٤٥٠
فى ظل بعض الزهور ، فتساءلت فى عجب أين أنا
ومن أنا ومن أين وكيف أتيت إلى هذه البقعة .
وغير بعيد كان صوت خرير - خرير

مياه انبجست من كهف ما فسالت

في بحيرة رقراقة ثم سكنت فصفت ٤٥٥

كأنها مهاد السماء الرحيبة ! ومن ثم اتجهت إليها

بفكر غير الخبير واستلقيت

على الشاطىء الأخضر لأنظر فى البحيرة الصافية

الملساء وقد بدت لعينى سماء أخرى !

وحين انحنيت لأنظر ظَهَرَتْ قبالتى ٤٦٠

على صفحة الماء البراقة صورة

تنحنى لتنظر إلىّ ، فجفَلْتُ وابتَعَدْتُ ،

فجفلت الصورة وابتعدت ! ولكننى سُرِرْتُ لمرآها فعدت ،

وسُرَّت هى لمرآى فعادت فى نفس اللحظة لتبادلنى النظرات -

نظرات الود والحب ! كان يمكن ألا أُحوّل ٤٦٥

عينى عنها إلى الآن ، وأن أذوى فى غرور الوله بها ،

لولا أن حذرنى صوت ما قائلاً : إن ما ترينه -

إن ما تشهدينه هناك أيتها المخلوقة الجميلة هو ذاتك

فهى تظهر معك وتختفى معك ! ولكن اتبعينى

فسآتى بك إلى حيث لا يعكس ظل ٤٧٠

صورتك ولا أحضانك الناعمة ! إنه رجل

أنت صورته ! وسوف تستمتعين به

فيكون لك لا ينفصل عنك ! وسوف تحملين منه وتلدين

أعدادًا كثيرة ممن يشبهونك ومن ثم ستُسَمَّيْن

أم الجنس البشرى . هل كان بطوقى ألا ٤٧٥

أتبع ذلك الصوت فورًا فيهدينى دون أن أرى صاحبه ؟

وسرت وراءه حتى رأيتك - كنت جميلاً حقًا وطويلاً

تحت شجرة الدُّلب - ولكننى رأيتك أقل جمالاً -

أقل نعومة رغم الفتنة ، وأقل ليونة رغم البشاشة ،

من تلك الصورة الملساء المنعكسة فى الماء فأدرت ظهرى إليك ٤٨٠

ولكنك تبعتنى وأنت تصيح بصوت عال : "عودى حواء الجميلة !

ممن تهربين ؟ أتهربين من رجل أنت

لحمه وعظامه ؟ لقد قدمت فى سبيل خلقك -

بل اقتطعت من جانبى بجوار القلب -

حياة نابضة لأحظى بك إلى جانبى ! فأنت ٤٨٥

منذ الآن سكَنى وأُنْسى الذى لا ينفصل عنى .

أريدك يا شطر نفسى وأطلبك حقا لى

يا نصفى الآخر !" وعندها مددت يدك الرقيقة

فأمسكت يدى ، فأسلمت لك . ومنذ ذلك الحين رأيت

كيف يقل الجمال منزلة عن استواء الرجولة ٤٩٠
وحكمتها - فهى وحدها حقا جميلة ."

وانتهت والدتنا الأولى من حديثها ، كانت نظراتها تنم
عن شغف بزوجها لا ملام عليه ،
وعن وداعة التسليم إليه ، حين مالت فى نصف عناق
على والدنا الأول ، والتقى نصف صدرها الممتلىء ٤٩٥
العارى بصدره تحت ستار الذهب السيال
من خصلاتها الطليقة المنسدلة . وتبسم هو سعيدًا
بجمالها ومفاتن استسلامها -
افتر ثغره وفاض قلبه بحب أعظم مثلما يبتسم (جوبيتر)
إلى (جونو) حين يبث الحياة فى السحب التى ٥٠٠
تنثر زهور الربيع ، وطبع على شفاه الأم
قبلات طاهرة . بينما استدار الشيطان
حسدا ونطقت عيناه بغيرة خبيثة
وهو يرمقهما شزرا ، فطفق يقول لنفسه :

لكم أبغض ما أرى ولكم يعذبنى هذا المشهد ! إنهما ٥٠٥
ينعمان بفردوس أحضانهما هنا
فيزيدان من هناء عدن ، ولسوف يتمتعان بما شاء الله لهما

من نعيم فوق النعيم ، بينما أُلقى بى أنا فى الجحيم
حيث لا فرح ولا حب ، بل الرغبة الشرسة فحسب
وما هى بأهون صنوف العذاب ٥١٠
فهى لا ترتوى أبدا بآلام ويلاتنا العطشى !
ولكن ينبغى ألا أنسى ما ظفرت به من علم باحت به
أفواههما . يبدو أن مُلكهما لا يحيط بكل شىء ،
إذ تقف ثَمَّ شجرة قاتلة تسمى شجرة المعرفة
حرم عليهما أن يقرباها : أمعرفة محرمة ؟ ٥١٥
هذا مثار ريبة ولا منطق فيه . لماذا يغبطهما خالقهما
أن يقرباها ؟ أيمكن أن يكون العلم خطيئة ؟
أيمكن أن يكون موتًا ؟ وهل يقبلان أن يستمر
جهلهما ؟ وهل هذه حال نعيمهما .
وآية طاعتهما وإيمانهما ؟ ٥٢٠
يا له من أساس رائع يُبنى عليه
هلاكهما ! ومن ثم فسوف أثير أذهانهما
بالمزيد من الرغبة فى المعرفة ، ورفض
الأوامر التى يمليها الحسد ، والتى ابتدعت بغية
الإبقاء على منزلتهما الخفيضة ، إذ إنهما بالعلم يرتفعان ٥٢٥

إلى مصاف الأرباب . فإذا ما طمحا فى ذلك

أكلا من الشجرة فماتا ! أو ليس الموت أرجح عاقبة ؟

ولكن ينبغى علىّ أوّلاً أن أجوس خلال هذه الجنة فأفحصها

فحصًا دقيقًا ولا أترك ركنًا دون أن أنظر فيه ! لقد كانت

مصادفةً حقا ولكن ربما حملتنى المصادفةُ إلى حيث ألتقى ٥٣٠

ببعض أرواح السماء الطوافة ، راقدًا بجوار نبع ما

أو فى ظل الأشجار الظليل ، فأستقى منه

المزيد من المعرفة - فلتعيشا ما أتيح لكما من حياة

أيها الزوجان السعيدان ، ولتتمتعا - ريثما أعود -

بالمسرات القصيرة ، فلسوف تتبعها أحزان طويلة ! ٥٣٥

قال هذا واستدار بخطى الكبر والخيلاء

ولكن بحذر الماكر ! وبدأ تجواله

فى الأدغال والبرية ، وفوق التلال والوديان .

وفى أقصى أطراف الأفق الغربى ، حيث تلتقى السماء

بالأرض والمحيط ، كانت الشمس الغاربة آنئذ قد بدأت ٥٤٠

تهبط فى تؤدة - وقد صوبت أشعتها مباشرة

على البوابة الشرقية للفردوس -

أشعة الغروب الحانية ! كانت البوابة صخرة

من المرمر ترتفع سامقة حتى السحب

بحيث تبدو من مسافات شاسعة ، وكان مطلعها ملتويا ٥٤٥

يبدأ من الأرض وينتهى بمدخل واحد فى أعلاه .

أما من حولها فصخور وعرة ، من المحال تسلقها

إذ يبرز بعضها فوق بعض حتى القمة .

وبين هذه الأعمدة الصخرية جلس جبريل

زعيم الملائكة الحراس - فى انتظار الليل ، ٥٥٠

وحوله دارت الألعاب البطولية بين

شباب السماء العزل من السلاح ، ولكن أسلحة السماء

من الدروع والخوذ والرماح كانت

معلقة عاليا بالقرب منهم وقد برقت بالماس والنضار .

وهنا أتى (أوريل) منزلقا عبر المساء ٥٥٥

على شعاع من أشعة الشمس ، كأنه شهاب ثاقب يشق

السماء فى ليلة من ليالى الخريف حين تغشى الأبخرة

الهواء ، لينذر الملاح ويرشده

من أى جهات إبرته الدوارة ستهب

الريح الرعناء . ومن ثم بدأ حديثه العاجل قائلاً : ٥٦٠

جبريل ! كان من نصيبك - عندما ألقينا أقلامنا - أن تتولى

رعاية هذا المكان الهانىء ، وأن تسهر على حراسته
حتى لا يقربه شر أو يلجه شرير .
واليوم فى أوج الهاجرة أتى إلى مقرى
جنىّ يلهبه التعطش - فيما يبدو - لمعرفة ٥٦٥
المزيد عن خلائق القهار ، وبخاصة عن الإنسان
آخر ما صوره البارىء ، ولقد تابعت خط سيره
المسرع اللاهث ، ورصدت حركاته فى الهواء .
ولكن - عندما وصل إلى الجبل الواقع شمال عدن
حيث حط أول مرة - سرعان ما لاحظت أن طلعته ٥٧٠
غريبة عن السماء إذ أظلمتها المشاعر الحطيطة
وظلت عينى ترقبه حتى اختفى تحت شجرة
فلم أعد أراه . أخشى أن يكون أحدُ أفراد العصبة العاصية
قد هرب من منفاه فى الهوة ليثير
قلائل جديدة . ولابد إذن أن تجده . ٥٧٥
وأجابه المحارب المجنح قائلاً :
(أوريل) ! لا عجب إذا كان بصرك الحاد
قد أحاط بالقاصى والدانى رغم وجودك فى منتصف
قرص الشمس الوهاج ! ولكن هذه البوابة لا يمر منها -

وسط الحرس الساهر - إلا القادمون ٥٨٠
من السماء والذين نعرفهم حق المعرفة . ومنذ انتصاف النهار
لم يأتنا مخلوق منها . أما إذا كان جنىٌّ من نوع آخر
تراوده أفكار الشر قد وثب فتخطى هذه الحدود الأرضية
عامدًا فمن العسير - كما تعرف - أن تحول .
الحواجز المادية دون دخول الكيان الروحى ٥٨٥
فإذا كان فى نطاق هذا المكان لم يخرج منه
فلسوف أعرف من حدثتنى عنه - أيا كانت الصورة
التى يتخفى بها - قبل انبلاج صبح الغد .

هكذا كان وعده . ومن ثم اتجه (أوريل) إلى مقر حراسته
عائدًا على الشعاع الوهاج . كان طرف الشعاع قد ارتفع ٥٩٠
فحمله وانحدر به إلى الشمس التى كانت قد هبطت
أسفل جزر (الأزور) . ربما كان ذلك الجرم الساطع
قد دار بسرعة خارقة فوصل إلى حيث هو
فى يوم واحد ، وربما كانت الأرض - وحركتها أبطأ -
قد دارت دورة أقصر نحو الشرق فخلفته هناك ٥٩٥
ليزين بالأرجوان والذهب المنعكس
السحب التى تحيط بعرشه الغربى . وأيًا كان الأمر

فإن المساء قد حل ، وأخذ الغسق الأدكن
يكسو جميع الأشياء بأرديته القاتمة .
وفى صحبة الصمت انسل الحيوان والطير - ٦٠٠
هذا إلى مخدعه فوق الكلأ وهذا إلى وكره ،
انسلوا جميعا ما عدا البلبل الساهر
فهو يغنى طول الليل أهازيج الحب التى
يستمتع بها الصمت ! وتوهجت قبة السماء
بالياقوت الأزرق النابض بالحياة ! كان كوكب الزُّهَرَة يقود ٦٠٥
زمرة النجوم ويبزها إشراقا وسطوعا - حتى ظهر القمر
صاعداً فى جلال تكلله السحب ، ورفع أخيراً
لثامه - كأنه ملكة مُتَوّجَة - عن نوره الذى لا يبارى
فألقى على الظلام وشاحه الفضى
وهنا التفت آدم إلى حواء وقال : زوجتى الجميلة ! هذه ساعة ٦١٠
الليل ، وقد أوت جميع الأشياء الآن إلى الراحة والسكون
مما يدعونا إلى الراحة مثلها ! لقد قضى الله أن يكون
العمل والراحة مثل النهار والليل للإنسان
متعاقبين ، وها هو ندى النوم
يتساقط الآن بأثقال النعاس الناعمة فيثقل ٦١٥

أجفاننا . إن المخلوقات الأخرى قد قضت النهار كله
فى التجوال الكسول بلا عمل ، وحاجتها إلى الراحة أقل
أما الإنسان فقد قدر له نصيب من العمل الجسدى أو الذهنى
كل يوم ، فهذا هو الذى يفصح عن كرامته
والعناية التى توليها السماء لكل فعاله ، ٦٢٠
على حين تمرح الحيوانات الأخرى عاطلة
ولا يحسب الله لفعالها حسابًا
ولذلك فقبل أن ينبلج صبح الغد النضير ، فيلقى فى الشرق
أول خيط من خيوط الضياء ، علينا أن ننهض
لنقوم بعملنا الممتع ، فنصلح ٦٢٥
تلك الخمائل المُلْتفة من الزهور ، وتلك الممرات الخضراء
التى نمشى فيها عند الظهر ، إذ طالت فروعها فأمعنت فى الطول
ساخرة من ضآلة رعايتنا فهى تتطلب
المزيد من الأيدى لتشذيب نمائها الوافر الطليق
وتلك البراعم أيضًا ، وقطع الصمغ المتساقط ٦٣٠
فهى مبعثرة وغليظة تؤذى العين
ولابد من إزالتها حتى يستوى الطريق لنا
أما الآن فقد شاءت الطبيعة وأراد الليل لنا الراحة .

والتفتت إليه حواء وقد زانها الجمال الكامل وقالت :

منبع وجودى وصاحب شأنى ! أيا كان ما تطلب ٦٣٥

فسوف أطيعه دون جدال ، فبهذا يقضى الله

والله قانونك وأنت قانونى . وكفى بهذا

للمرأة معرفةً هانئةً وثناءً كبيرًا .

إننى حين أحادثك أنسى الزمن

أنسى آناء اليوم واختلافها فكلها سار ممتع ٦٤٠

ما أطيب أنفاس الصباح وما أطيب إشراقه

على أنغام الطيور الباكرة ، وما أمتع الشمس

عندما تسطع على هذه الأرض الخلابة وتنشر

أشعتها المشرقة على الأعشاب والأشجار ، وعلى الفواكه والأزهار

التى يتلألأ الندى فوقها ! وكذا أريج الأرض الخصبة ٦٤٥

بعد الأمطار الهادئة ! ما أطيب اقتراب

المساء الممتع الرطيب ، والليل الساكن

ببلبله الرزين وبدره الفاتن

وحاشيته من النجوم - تلك الجواهر فى قبة السماء !

ولكن - لا أنفاس الصباح عندما يصعد ٦٥٠

على أنغام الطيور الباكرة ، ولا الشمس التى تشرق

على هذه الأرض الخلابة ، ولا الأعشاب ولا الثمار والأزهار
التى يتلألأ فوقها الندى ، ولا الأريج الفواح بعد المطر ،
ولا المساء الممتع الرطيب ، ولا الليل الساكن
ببلبله الرزين ولا السير فى ضوء القمر ٦٥٥
أو فى ضوء النجوم المتلألئة - يطيب لى بدونك
ولكن لماذا تسطع هذه الأجرام طول الليل ، ولمن خلق
هذا المشهد البديع ، إذا كان النوم قد أوصد كل العيون ؟

وأجابها جدنا الأول قائلاً :

يا ابنة الله والإنسان ! يا حواء الكاملة ! ٦٦٠
إن عليها أن تكمل دورتها حول الأرض
فى مساء الغد ، فهى ترحل من بلد إلى بلد
بانتظام وتمر بأمم لم تولد بعد ،
فتلقى بأضوائها المقدورة عليها ، فهى تغرب وتشرق
كيلا تعود الظلمة الكاملة ليلاً فتستعيد ٦٦٥
ملكها القديم ، وتطفىء نور الحياة
• فى الطبيعة والأشياء جميعًا . إن هذه النيران الخافتة
لا تضيئها فحسب بل تشع عليها قبسًا من حرارتها الطيبة
التى تتفاوت حدة وشدة ، فتدفئها وتذكيها

وتلطفها وتغذيها ! بل إن النجوم تبث أيضًا ٦٧٠
دفئها فى شتى ألوان نبات
الأرض فتجعلها أقدر على النمو
والاكتمال حين تسطع عليها أشعة الشمس الوهاجة .
هذه إذن - رغم أننا لا نراها فى جنح الليل -
لا تسطع عبثا ! ولا تظنى أنه لو تلاشى الإنسان فسوف ٦٧٥
تفتقر السماء إلى الناظرين أو يفتقر الله إلى الحامدين !
إن الملايين من الكائنات الروحية تذرع الأرض
خفية ، فى صحونا وسباتنا،
وكل يتأمل بدائعه فلاينى يسبح بحمده
نهارًا وليلاً . كم من مرة تصاعدت الأصوات من أعماق ٦٨٠
التلال ذات الأصداء ، أو من الأدغال فتناهت إلى أسماعنا
أصوات سماوية تغشى هواء الليل البهيم
إما منفردة أو يتجاوب بعضها مع البعض
وهى تتغنى بعظمة الخالق . كثيرًا ما تنشد فى جماعات
أثناء حراستها الساهرة أو أثناء طوافها بالليل ٦٨٥
على أنغام آلات السماء
وقد اشتركت فى العزف المتوافق المحكم ، فكانت أغانيها

تفصل بين نوبات الليل وترقى بأفكارنا إلى السماء !

وهكذا سارا يتحادثان وحيدين وقد تشابكت أيديهما

نحو خميلة النعيم . كان ذلك هو المكان الذى ٦٩٠

اختاره لهما المليك الذى أنبت الجنة وسخّر

جميع الأشياء ويسّرها . كان سقفها

سترا سميكا منسوجا من أغصان

الغار والآس وغيرهما من الأشجار العالية

بأوراقها الثابتة ذات الأريج . وعلى كل جانب كانت ٦٩٥

أشجار السنط وغيرها من الشجيرات الكثة العطرة

تشتبك لتدعم الجدران الخضراء . كانت كل زهرة

- من السوسن بألوانه والورود والياسمين -

ترفع رأسها عاليا بين الأغصان ، وقد تفتحت وانتظمت فى وشى بديع

مُنَمّمٍ كالفسيفساء . كانت الأرضية مطعّمةً بزهور البنفسج . ٧٠٠

والزعفران والياسنت ! زهور كثيفة

تطرزها بألوان أكثر من ألوان أثمن الألواح

المطعمة بالأحجار الكريمة . لم تكن المخلوقات الأخرى

- من الحيوان والطيور والديدان - تجرؤ على الدخول هنا

فهى جميعًا تخشى الإنسان وتهابه ! أما الخميلة الظليلة ٧٠٥

الأكثر قداسة وعزلة - ولو أن هذا من نسج الخيال -

فما بات فيها أبدا (بان) أو (سيلفانوس) ، وما سكنتها الحوريات

أو غشيها (فاونوس) ! فى هذا المخدع الخفى

نَثَرت الزهورَ والأكاليلَ والأعشابَ العطرةَ

يدُ الزوجة حواء - لتزين فراش عرسها أول مرة ! ٧١٠

كانت جماعات منشدى السماء تغنى أغنية الزفاف

يوم أتى ملاك الزواج إلى والدنا

بحواء مزدانة بجمالها العارى ، بل أكثر زينة

وأشد فتنة من (باندورا) ! كانت الآلهة

قد أغدقت عليها كل عطاياها ، وما أشبهها بحواء ٧١٥

فى العاقبة التى انتهت إليها ! لقد جاء بها (هيرميس) إلى

الابن الأرعن الذى أنجبه (يافث) فخلبت لب

البشر بجمالها الفتان ، وحقق هو الثأر

ممن سرق النار الأصيلة من (جوف) !

وعندما وصلا إلى بيتهما الظليل وقفا ٧٢٠

ثم التفتا ، وتحت قبة السماء الطليقة شرعا فى صلاة

لله الذى خلق السماوات والأرض والهواء والجنة

التى كانا يشهدانها ، والقمر ذا الوجه الوضاء

والقطب ذا النجوم - قائلين : لقد خلقت الليل
أيها الخلاق الجبار ، وخلقت النهار ، ٧٢٥
ولقد نهضنا فيه بالعمل المقدر لنا
فأنجزناه هانئين بتعاوننا
وبالحب فيما بيننا ، تاج النعيم الذى
قدرته لنا ! وخلقت هذا المكان الممتع كبيرًا شاسعًا -
بل أكبر مما نحتاج إليه . إن وفرة رزقك تطلب ٧٣٠
من يشاركنا إياه والثمر لا يقطف فيسقط على الأرض .
ولكنك وعدتنا أن ننجب ذرية
نعمر بها الأرض ، ذرية صالحة تسبّح معنا
بخيرك غير المحدود ، حين نصحو
وحين نرجو نعمة النوم - ونحن نرجوها الآن ! ٧٣٥

وبعد أن قالاها معا ، مكتفيين بهذه الصلاة الطاهرة
- وهى الأحب إلى الله - عن الطقوس الأخرى
دلفا إلى أعمق أركان الخميلة
بأيد متشابكة . لم يكن عليهما أن يخلعا
ملابس التخفى المتعبة التى نرتديها اليوم ٧٤٠
فاستلقيا على الفور جنبا إلى جنب ، ولم يَحُلْ آدم (فى تصورى)

عن زوجته الفاتنة ، كما لم تمتنع حواء عن
شعائر الحب الغامضة بين الأزواج .
فليتشدق المنافقون بما شاء لهم من صارم القول
عن النقاء وقداسة الأمكنة والبراءة ٧٤٥
وليتهموا بالدنس ما فصّل الله فيه القول فهو
طاهر أمر به البعض وشرعه حرًا للجميع .
إن خالقنا يأمر بالتكاثر ، وهل يأمر بالكف
إلا من يبغي هلاكنا - عدو الله وعدو الإنسان ؟
مرحى بالحب بين الأزواج ، أيها القانون الغامض والمصدر الحق ٧٥٠
لذرية الإنسان وحق الملكية الفرد
فى الفردوس وشتى ما فيها مشاع !
الفضل لك فى إقصاء شهوة الزنا عن الإنسان
وإطلاقها بين صنوف الحيوان ! بل لقد أقمت لأول مرة
على أساس العقل والإخلاص والعدل والطهر ٧٥٥
تلك المشاعر والعلائق المحببة التى تربط
الآباء والأبناء والأخوة
هيهات أن أزعم أنك خطيئة أو أن أصمك بالعار
أو بأنك غير جدير بأقدس الأماكن ،

أو بأنك لست المنبع الدائم لمسرات البيت ، ٧٦٠
أو أنكر أن فراشك بعيد عن الدنس وطاهر كل الطهر
كما فعل القديسون والبطارقة - فى الماضى والحاضر ! .
هنا يطلق ملاك الحب سهامه الذهبية ، وهنا يوقد
مصباحه الدائم ، ويرفرف بأجنحته الأرجوانية .
إنه ليسود هنا ويمرح ، لا فى البسمات المبتاعة ٧٦٥
من العاهرات ، العاطلة من الحب والفرح والمودة
ذات الثمار العابرة العارضة ! ولا فى غراميات أهل البلاط
والرقصات المشتركة ، والحفلات التنكرية الماجنة أو حفلات
الليل الراقصة
أو الأغانى التى ينشدها المحب المحروم
للجميلة المتعالية ، ويا حبذا لو تعالى فهجرها ! ٧٧٠
أما آدم وحواء فقد رقدا متعانقين وناما على أنغام البلابل
وعلى أطرافهما العارية كان السقف الموشى بالزهور
ينثر الورود التى ينبت الصباح غيرها . فلتنعما بالنوم
أيها الزوجان المباركان ، ليتكما لا تطلبان هناء أكبر
فتبلغان ذروة الهناء ، وليتكما تعلمان حكمة الاكتفاء بما تعلمان ! ٧٧٥
كان الليل قد رسم بظله المخروطىّ خطا يمتد

إلى منتصف قبة السماء الشاسعة تحت فلك القمر

وانطلقت ملائكة الشاروبيم من بوابتها العاجية

فى الساعة المعتادة فوقفت شاكية السلاح

لتبدأ نوبة الحراسة وقد اصطفت صفوف الحرب ٧٨٠

عندما قال جبريل لمن يليه فى السلطان :

"(عُزِّيئيل) ! قُد نصف هذه الأجناد وطف بها عبر الجنوب

فى حراسة لا تغفل ! وأما النصف الآخر فسأطوف به المنطقة الشمالية

بحيث تلتقى دائرتنا فى الغرب !" ومن ثم انطلقت الكتائب كأنها الشرر -

دار نصفها فى اتجاه محمل الدرع والآخر فى اتجاه محمل الرمح ! ٧٨٥

ثم دعا جبريل اثنين من الأرواح القوية الماكرة فى فرقته

وكانا يقفان بالقرب منه ، فبين لهما عملهما قائلاً :

يا (إيثوريل) ويا (صِفُون) ! طيرا على جناح السرعة

ففتشا هذه الجنة تفتيشا ، لا تهملا ركنا منها

وبخاصة الركن الذى يسكنه ذانك المخلوقان الجميلان ٧٩٠

وربما قد أويا الآن إلى النوم لا يتوجسان أذى .

لقد جاءنى هذا المساء من عند مهبط الشمس

من يخبرنى أنه قد رأى جنّيًا من أهل الجحيم

يتجه صوبنا (وهل كان ذلك ليدور بخلد أحد ؟) هاربًا

من قضبان جهنم ، ليقضى مأرب سوء لا شك ! ٧٩٥

فحيثما وجدتماه فاقبضا عليه وائتيانى به .

قال هذا ثم انطلق يقود صفوفه الوضاءة التى

بهرت بصر القمر ! أما هذان فقد اتجها مباشرة إلى الخميلة

يجدّان فى أثره ! وهناك وجداه

قابعا مثل ضفدع قريبًا من أذن حواء . ٨٠٠

كان يستخدم فنونه الشيطانية للنفاذ إلى

ملكات خيالها حتى إذا ما سيطر عليها استطاع أن يصوغ

ما يريده لها من تصورات وخيالات وأحلام !

أو إذا بث فيها سمومه استطاع أن يصبغ

أبخرة النفس التى تتصاعد من دمها النقى ٨٠٥

مثل الأنفاس اللطيفة من الأنهار الصافية ، ومن ثم تثير

على الأقل أفكارًا شائهة ، أفكار سخط واستياء

وآمال غرور حمقاء ، وأمانى باطلة وشهوات جائحة

تضخمها الأوهام الكبرى فتنجب الكبرياء !

كان إبليس يُضْمر هذا حين مد (إيثوريل) رمحه ٨١٠

فمسه مسا رفيقا ! كان زيفه عاجزًا عن احتمال

لمسة رمح السماء ، فعاد على الفور

ورغما عنه إلى صورته الأولى ! هب وانتفض

إذ فوجىء فانفضح ! أرأيت إلى الشرارة حين

تسقط على كومة من البارود بعد ٨١٥

إعداده لملء البراميل فى مخازن الذخيرة

استعدادًا لحرب محتملة الوقوع ، وإلى الحبات السوداء كيف

تلتهب فجأة وتنفجر فتشعل الهواء من حولها ؟

فهكذا هب الشيطان فزعا فى صورته الحقيقية .

وتراجع الملاكان الجميلان فى شبه دهشة ٨٢٠

إذ فاجأتهما رؤية الملك البشع

ولكن الخوف لم يساورهما فتقدما منه على الفور قائلين :

''أى الأرواح العاصية المحكوم عليها بالجحيم

أنت ؟ ولماذا هربت من سجنك وحولت صورتك

فقبعت تتربص تربص الأعداء ٨٢٥

ساهرا هنا عند رأس هذين النائمين ؟''

''ألا تعرفانى ؟'' - قالها إبليس وقد أفعمه الازدراء -

''ألا تعرفان من أنا ؟ كنتما تعرفان ذات يوم أننى لست من أندادكما

إذ كنت أتربع حيث لا تجرؤان على التحليق !

إن جهلكما بى يقطع بأنكما مجهولان بل بأنكما ٨٣٠

أدنى أفراد رهطكما ! أما إذا كنتما تعرفانى
فلماذا تسألانى ؟ ولقد بدأتما عبثا
هذه البعثة ، ومثلما بدأت ستنتهى – عبثًا !
ورد (صِفون) ازدراءه بازدراء قائلاً :
لا تظنن أيها الجنّى العاصى أن صورتك لم تتغير ٨٣٥
أو أن بهاءك لم ينتقص بحيث نعرفك
مثلما كنت تقف فى السماء صالحًا طاهرًا !
إن بهاءك القديم قد ولى بعد أن تحولت عن الخير
ورحل عنك فأصبحت الآن صورة
لخطيئتك ومقر مقامك المدلهم الدنس . ٨٤٠
هيا بنا إذن فلسوف يحاسبك ولا شك
من أرسلنا ، فهو مكلف بحماية
هذا المكان من الدخلاء وحماية هذين من الأذى .
وصمت ملاك الشاروبيم . كان تقريعه الصارم
القاسى يفيض بجمال الشباب فيضفى عليه رونقًا ٨٤٥
غلابًا ! وشعر الشيطان بالخجل
وأحس مهابة الخير ، ورأى
الفضيلة مصورة بجمالها الفائق ! رآها فبكى

ضياعه ، وآلمه خاصة أن لاحظ الملاكان

أن بريق إهابه قد خبا ، ومع ذلك فقد بدا ٨٥٠

غير هياب . فقال : إذا تحتم النزال

فالأصلب لا يبارز إلاّ الأصلب ، وإذن ألاقى المُرْسِلَ لا الرسول

أو ألاقيهم جميعًا ! فإما أن أحظى بالمزيد من المجد

أو أفقد أقل القليل . وأجابه (صِفون) الجسور قائلاً : إن خوفك

سيعفينا من العناء فأقلنا شأنا يستطيع ٨٥٥

وحده أن يهزمك ، فلقد خبثت فضعفت !

لم يجب الشيطان . كان يميز من الغضب

ولكنه مضى معهما فى صلف كأنه جواد شامخ ملجم

يعض على شكيمته الحديدية . أما المقاومة والهرب

فقد رآهما عبثا ، إذ إن الرعب الذى أُلقى من عل ٨٦٠

فى قلبه قد أخار عزمه وإلا ما فزع وما جزع . واقترب الجميع

من نقطة اللقاء فى الغرب بين صفوف الحرس التى دارت نصف دائرة

ثم انضم بعضها إلى بعض فرقة موحدة وقفت

تنتظر أوامرها الجديدة . واتجه رئيسها

جبريل إليها من الجبهة وناداها عاليا : ٨٦٥

أيها الأصدقاء ! إننى أسمع وقع أقدام تخف إلينا

معجلة ، وأستطيع الآن أن ألمح طيف
(إيثوريل) و (صِفون) وسط الظلمة
ومعهما شخص ثالث ذو هيئة ملكية
ذوى بهاؤها وانطفأ . ولكن مشيته ٨٧٠
وحركته العنيفة توحيان بأنه أمير الجحيم
والأرجح ألا يرحل دون نزال !
اثبتوا فى أماكنكم فقد أَرْبدَ التحدى طلعته !
ولم يكد ينتهى حتى وصل الملاكان
فأوجزا له خبر من أتيا به وأين عثرا عليه ٨٧٥
وما كان يفعله وكيف ، وفى أى صورة كان يقبع !
وحدجه جبريل بنظرات صارمة قائلاً :
لماذا تخطيت يا إبليس الحدود التى فرضتها عليك
خطاياك فأقلقت عمل
غيرك ممن لا يقبلون الخطيئة ٨٨٠
ولا يحذون حذوك ؟ إن لديهم السلطة ولهم الحق
فى محاسبتك على تجاسرك بالدخول إلى هذا المكان !
يبدو أنك تريد إقلاق منام النائمين
ومن أسكنهما الله هنا فى هذا النعيم ؟

وأجابه إبليس وقد علا جبينه الازدراء قائلاً : ٨٨٥
جبريل ! لقد ذاعت حكمتك فى السماء
بل إننى رأيت فيك الحكمة ! ولكن السؤال الذى طرحته الآن
يثير شكوكى ! هل من الأحياء من يهوى الألم ؟
ومن ذا الذى لا يهرب من الجحيم إذا واتته الفرصة
ولو كان محكومًا عليه بها ؟ إنك لتفعل ذلك أنت نفسك ٨٩٠
فتنطلق جسورًا إلى أى بقعة
تنجيك من العذاب الأليم ، حيث الأمل فى استبدال
اليسر بالعسر ، وتعويض
الشقاء بالهناء ، وهذا ما أطلبه فى هذا المكان !
لن ترى هذا سببًا ، فأنت لا تعرف إلا الخير ٨٩٥
ولم تجرب الشر أبدًا ، وهل تعترض على
إرادة الخالق الذى سجننا ؟ ألم يكن يستطيع إحكام القضبان
والأبواب الحديدية لو كان يريد لنا البقاء
فى ذلك القعر المظلم ؟ كفى بذلك إجابة على سؤالك
أما باقى القول فقد صَدَقَاه : لقد عثرا علىّ حيث يقولان ٩٠٠
ولكن هذا لا يعنى إحداث الأذى أو الضرر .

قال هذا فى ازدراء وسكت. وتلفت الملاك المحارب

فألقى عليه نظرة أنفة شبه باسمة وأجاب :

لقد فقدت السماء من يميز لنا الحكمة من الحمق

منذ أن سقط إبليس وانقلب لحمقه ! ٩٠٥

والآن يعيده الحمق إلينا هاربًا من سجنه

وقد ثارت شكوكه فى حكمة

من يسألونه كيف يتجاسر بالقدوم إلى هنا

دون وجه حق ، تاركًا السجن الذى أقصى إليه فى الجحيم .

بل يقول إن الحكمة كل الحكمة أن ينجو من العذاب ٩١٠

كيفما استطاع ويفلت من العقاب .

فلتحكم بما شئت أيها الوقح حتى يحل بك غضب الله

الذى استحققته بهروبك ، فيضاعف عقاب هربك

سبعة أضعاف ، ويعيد بالسياط حكمتك إلى الجحيم !

إنك لم تتعلم فيها خيرًا من هذا ، وهو أن الألم مهما زاد ٩١٥

فهيهات أن يوازى غضب السرمدى إذا أُغضب !

ولكن لماذا أتيت وحدك ؟ لماذا لم تنطلق

فى أثرك الجحيم بأسرها ؟ هل آلامهم

أقل إيلامًا من ألمك فلا تقتضى منهم هربا ؟ أم لعلك

أقل منهم جلدًا وأقل صبرًا على الألم ؟ أيها القائد الشجاع ٩٢٠

يا أول من هرب من الألم ! لو كنت أفصحت

لرهطك الذى هجرته عن سبب هروبك الذى ذكرته

ما كنت أتيت إلى هنا وحيدًا طريدًا !

وتجهم وجه الشيطان وأجاب فى صرامة :

لست أقل جلدًا ولا أجفل من الألم أبدًا ٩٢٥

أيها الملاك الجائر ! تعرف حق المعرفة أننى احتملت

أشد ضرباتك عندما استعنت فى المعمعة

بالرعد العاصف القاصف الذى هب على عجل

لمساندة رمحك ، ولولاه ما أفزع الرمح ولا أرعب !

إن الكلام الذى تلقيه على عواهنه ٩٣٠

ينبىء عن جهلك بواجب القائد المخلص

الذى خاض معارك ضارية لقى فيها الهزيمة !

إن عليه ألا يخاطر فيلقى بالجميع

فى لجج الأخطار التى لم يركبها هو !

ومن ثم فقد أخذت على عاتقى وحدى ٩٣٥

أن أعبر تلك الهوة الموحشة طائرًا لأستطلع

هذا العالم الذى خلق حديثًا ، والذى تحدثت

عنه الشائعات فى الجحيم ! جئت آملا أن أجد

مقاما أفضل ، وأن تجد قواتى المنبوذة

مستقرا لها - إما على الأرض أو فى الهواء ! ٩٤٠

ولو أن مرماى يقتضى التصدى ثانية

لما تقف أنت وفصائلك الجميلة دونه :

إن عملها يسير وهو عبادة ربها

فى السموات العلى ، والتغنى بتسابيح الحمد لعرشه

والرقص رقصات الخشوع بدلاً من الحرب . ٩٤٥

وسرعان ما رد الملاك المحارب قائلاً :

إن القول الذى يتبعه الإنكار - الادعاء أولاً

بحكمة تفادى الألم ، ثم التظاهر بمحاولة الاستطلاع -

لا يفصح عن قائد بل عن كذاب أشر !

بل إنك أضفت إليهما "الإخلاص" يا إبليس ! يا لها من كلمة - ٩٥٠

كلمة "الإخلاص" المقدسة التى دنستها !

الإخلاص لمن ؟ لأتباعك من العصاة ؟

جيش الشياطين ؟ يا لك من جسد يستحق هذا الرأس !

أكان انضباطكم وإخلاصكم

وطاعتكم الحربية يقتضى التحلل من ٩٥٥

ولائكم للقوى الأعظم الذى لا جدال عليه ؟

وأنت أيها المرائى الماكر ! تريد أن تبدو الآن

نصيرًا للحرية ؟ ألم تكن أسبق الجميع

تزلفًا وخشوعًا وخضوعًا فى عبادة

ملك السماء المهيب ؟ ألم تكن تفعل ذلك أملاً ٩٦٠

فى أن تعزله لتقعد مقعد الحكم ؟

أصغ إلى نصحى هذا : ارحل من هنا

وعد إلى حيث كنت . فإذا ظهرت بعد هذه الساعة

داخل حدود هذه المنطقة المقدسة

فسوف أجرجرك مغلولا فى الأصفاد إلى هوة الجحيم ٩٦٥

وأوثقك فلا تستطيع فكاكا ، فلا تسخر بعدها

من يسر أبواب الجحيم وخفة قضبانها !

كان هذا ما توعد به ، ولكن إبليس لم يحفل

بالوعيد ، بل استشاط غضبًا وأجاب :

لا تتحدث عن الأصفاد إلا بعد أن تأسرنى ٩٧٠

يا ملاك الحدود المتغطرس ولكن تهيأ قبل ذلك

لاحتمال أثقال أشد

من يدى الغالبة - مع أن ملك السماء

يركب أجنحتك ، ومع أنك وأقرانك

اعتدتم أثقالَ نَيْره وجر عرباته الظافرة ٩٧٥
التى تذرع طريق السماء المعبد بالنجوم .

وأثناء حديثه كان فيلق الملائكة الوضاءة
قد اكتسى حمرة النار ، وانتظمت صفوفه على شكل هلال
التف حول إبليس وأطبق عليه من كل جانب ،
وقد قبضت الأيدى على الرماح ! كانت أعدادهم كثيفة ٩٨٠
مثل حقل حنطة استوى على سوقه ، وتمايلت رؤوس
سنابله الكثة مع الريح أينما هبت ،
بينما وقف الفلاح القلق يتأملها وهو يخشى
أن تخرج له حزم المحصول المأمول عند الدرس
تِبْنًا لا بُرًا ! وأمامهم كان إبليس قد ثارت ثورته ٩٨٥
فاستجمع كل جبروته وتضخم فبدا من الرواسى
التى لا تتزحزح - مثل جبل (تنريف) أو جبل (أطلس) !
كان يبلغ السماء طولاً ، وعلى ناصيته
يقبع الرعب مزهوًا ، وكان يحمل فى قبضته شيئًا
بدا كالرمح والدرع معًا ! كان يمكن أن تقع الآن ٩٩٠
فعال رهيبة ، فتندثر الفردوس
فى تلك الفتنة ، بل وربما قبة النجوم

فى السماء الدنيا ، وجميع العناصر

أو تختل وتنخلع على الأقل

من عنف ذلك النزال ، لولا أن شاء ٩٩٥

السرمدى أن يحول دون هذا الالتحام المفزع

فرفع ميزانه الذهبى فى السماء ، وهو الذى ما زلنا نراه

بين برج العذراء وبرج العقرب

حيث يزن أولاً كل الخلائق !

كانت الأرض المستديرة المتأرجحة هى الكفة الأولى ، وكان الهواء هو ١٠٠٠

الكفة الثانية ! هذا هو الميزان الذى يزن الآن كل الأحداث

والمعارك والبلدان ! وَوُضع فى الكفتين ثقلان

هذا عاقبة الانفضاض وهذا عاقبة الالتحام !

وسرعان ما ارتفعت الكفة الأخيرة واصطدمت بعمود الميزان !

وحينما رأى جبريل ذلك خاطب الشيطان قائلاً : ١٠٠٥

إبليس ! أعرف قوتك مثلما تعرف قوتى

فقد وهبناها وليست منا ! ما أحمق

التباهى بقوة الأيدى طالما لن تفعل يدك ،

أو تفعل يدى أكثر مما تسمح به السماء ! لقد تضاعفت قوتى الآن

حتى أننى لأطؤك وطء الطين ! وإذا شئت البرهان فانظر ١٠١٠

واقرأ قدرك فى تلك الآية البينة فى السماء !

لقد خفت موازينك وتجلى ضعفك واندحارك

. إذا قاومت ! ونظر الشيطان فتبين

أن كفته قد خفت فارتفعت وقضى الأمر ! ومن ثم ولّى

وهو يتمتم وولّت معه ظلال الليل .

# الكتاب الخامس

## الموضوع

يقترب الصباح - حواء تقص على آدم حلمها المزعج - يستاء منه ولكنه يطمئنها - يخرجان للبدء فى عمل اليوم - صلاة الصبح عند باب الخميلة . يريد الله ألا يكون للانسان أعذار فيرسل روفائيل لإنذاره بعدم العصيان ، وتذكيره بأنه حر الإرادة ، وبأن ثمة عدواً لـه قد اقترب . ويخبره من يكون ، ولماذا كان له هذا العدو ، وشتى ما ينتفع آدم بمعرفته . ويهبط روفائيل إلى الفردوس - وصف مظهره - يعلم آدم بقدومه ويراه من بعيد جالساً على باب خميلته ، فيخرج لمقابلته ويأتى به إلى منزله ويقدم له أشهى ثمار فى الفردوس قطفتها له حواء - حديثهما على المائدة . يؤدى روفائيل رسالته ، ويذكر آدم بحاله وحال عدوه ، ويقص عليه - استجابة لطلبه - حقيقة هذا العدو وكيف أصبح كذلك ، بادئاً منذ تمرده الأول فى السماء وملابساته ، وكيف قاد كتائبه من ورائه حتى أصقاع الشمال ، حيث حفزهم على التمرد معه ، وكيف يقتنع الجميع فيما عدا (عبديئيل) وهو من ملائكة الصاروفيم - إذ إنه يختلف معه ويعارضه ويناهضه ، ثم يولى عنه .

الآن يخطو الصباح خطاه الوردية فى الأفق الشرقى
مقبلا وقد نثر على الأرض حبات اللؤلؤ البراقة
فاستيقظ آدم كعادته كل يوم . كان ينام نوماً
رقيقاً كالهوا ، يأتى به هضم الطعام النقى
وأبخرته اللطيفة الخفيفة ، التى يكفى لتبديدها حفيف ٥
الأوراق وزفيف أبخرة الجداول ، مروحة (أورورا) ،
وأغانى الصباح الرخيمة التى تنشدها
الطيور على كل غصن وفنن . ومن ثم اشتدت
دهشته حين رأى حواء غارقة فى سباتها
وقد تهدلت خصلاتها واختلطت ، وتورد خداها ١٠
كأنما شاب رقادها ما عكره . كان يستلقى على جانبه
فنهض قليلاً متكئاً على مرفقه وتعلقت نظراته الوالهة
بحبيبته ، وتملى جمالها
الذى كان فى يقظتها ومنامها
يشع مفاتن لا مثيل لها . ثم مستها يده برفق ١٥
وقال لها بصوت هامس
مثل همسات النسيم إلى الأزهار : قومى
يا أجمل الأشياء ! يا زوجتى وضالتى المنشودة !

يا أخر ما أنعمت به السماء عليّ وفرحى المتجدد على مر الزمان !

قومى فقد أشرق الصبح ، والحقول النضرة ٢٠

تدعونا ! هيا ندرك البكور ! هيا لنرى كيف أزهرت

النباتات التى نرعاها ، وبساتين البرتقال العبقة ،

وأصماغ شجر المر ، وأعواد البلسم القائمة ، هيا لنرى

كيف تضع الطبيعة ألوانها ، والنحل وهو

يحط على البراعم ليرتشف الرحيق الحلو . ٢٥

واستيقظت حواء على هذه الهمسات ، ولكنها ألقت نظرة فزع على آدم واحتضنته وقال :

يا من تجد أفكارى سكنها فيه وحده

منك جمالى وبك اكتمالى ! ما أسعدنى برؤية

وجهك وعودة الصباح - فلقد قضيت البارحة ٣٠

ليلة ما شهدت مثلها من قبل ، إذ رأيت فى المنام

(إن كان مناما) ما لم اعتده فى الأحلام ! لم أرك

ولم أر ما عملناه بالأمس ، ولا ما انتويناه فى الغد ،

بل رأيت من المعاصى والأكدار ما لم يخطر ببالى

ولا عرفته قبل تلك الليلة الليلاء ! خلت أن ثمة من يقف ٣٥

قريبا من أذنى ويدعونى لاتباعه بصوت

ذى نبرات رقيقة ظننته صوتك ! قال لى :

انفضى عنك سباتك يا حواء فهذا وقت المتعة ! هذا وقت

الإبتراد والسكون ! إلا حيث يستسلم الصمت

للبلبل غريد الليل ، فهو يصحو الآن ٤٠

لينشد أعذب ألحان غرامه ! الآن يبسط

البدر المنير سلطانه ، ويرسل سناه الساطع ،

ويلقى ظلاله التى تبرز وجوه الأشياء ! فإذا لم يبصرها أحد

ذهب كل ذلك سدى ! لقد صحت السماء وشخصت بعيونها ،

ومن عساها ترى سواك يَا مُنْيَةَ الطبيعة ؟ ٤٥

يا من تسعد بمرآك كل الأشياء ! يا من تسلبين لبها

وتبهرينها بجمالك فلا تحيل بصرها عنك !

وصحوت مثلما أصحو على ندائك ولكنك لم تكن بجوارى

فانطلقت أبحث عنك

خلت أننى أسير وحدى فى طرق ٥٠

انتهت بى فجأة إلى شجرة

المعرفة المحرمة ! بدت لعينى جميلة

وبدت لخيالى أجمل مما هى عليه بالنهار !

وبينا أنا أنظر فى عجب ، لمحت كائنا يقف بجوارها -

كائناً مجنحاً يشبه فى صورته الكائنات التى كثيراً ٥٥
ما رأيناها من السماء . كانت خصلاته الندية تقطر
عطراً ، وكان يتطلع مثلى إلى تلك الشجرة
وخاطبها قائلاً : أيتها الشجرة الجميلة المثقلة بالثمر !
ألن يتعطف أحد فيخفف عنك أثقالك ويتذوق حلاوتك ؟
ألن يفعل ذلك إنس ولا جان ؟ أتُزدرى المعرفةُ إلى هذا الحد ؟ ٦٠
ترى أى حسد وأى تحريم يمنعنى من تذوقها ؟
فليمنع ما شاء له ! لن يصدنى أحد بعد الآن
عن الخير المبسوط لى ! وإلا فلماذا قامت الشجرة هنا ؟
قالها ولم يتمهل إذ مد يداً جريئة
فقطف الثمرة وتذوقها بينما حل بى الرعب البارد اللاذع لسماع ٦٥
تلك الكلمات الجسورة وما أكدها من عمل جسور .
أما هو فقد بلغ به السرور مبلغه فقال : أيتها الثمرة القدسية !
حلوة فى ذاتك وأحلى بعد أن قطفت !
لقد حُرِّمت هنا - فيما يبدو - لأنك فاكهة
الأرباب وحدهم وقادرة على رفع البشر إلى مصافهم ٧٠
ولم لا يصبح البشر أرباباً إذا كان الخير
يزداد بازدياد من يتلقاه

ولا يضار صاحبه بل يزداد شرفاً ،

تفضلى يا حواء ! أيتها المخلوقة الهانئة ! أيتها الملاك الجميل !

شاركينى الثمرة ، فأنت وإن كنت الآن هانئة ٧٥

فستصبحين أهنأ وأسعد ! ولا أجدر منك بها !

تذوقى هذه الثمرة حتى تصبحى بين الأرباب

ربةً أنت نفسك ، لا تَحُدُّك الأرض

بل أحيانا تُصَعِّدين فى الهواء مثلنا ، وأحياناً

تصعدين فى السماء ، لامتيازك وسموك ، فترين ٨٠

نوع الحياة التى يعيشها الأرباب هناك ، وتعيشين مثلهم .

قال هذا واقترب ، وقدم إلىّ -

بل كاد أن يضع فى فمى - بعض تلك الثمرة

التى اقتطفها . وفاحت رائحتها الطيبة الممتعة

فأثارت شهيتى حتى خلت أننى ٨٥

لابد أن أذوقها . وعلى الفور طرت إلى السحاب

فى صحبته وأبصرت من تحتى

الأرض الرحيبة المنبسطة والمشهد العريض

المُنَوّع ! وتعجبت من تحليقى وارتقائى

هذا الارتفاع السامق ، وفجأة ٩٠

اختفى الدليل من جانبى وخلت أننى هبطت
فغلبنى النعاس ، ولكن ما أسعدنى إذ صحوت
فعرفت أنه كان حلما وحسب - وهكذا فرغت حواء من
رواية منامها ، فأجابها صوت آدم جادا متئدا :
يا صورة ذاتى المثلى ، ونصفى الأقرب إلى قلبى ! ٩٥
إن ما كدر أفكارك الليلة البارحة فى منامك
يكدرنى نفسى الكدر ! ولا أظننى أميل إلى
ذلك الحلم الغريب ، وأخشى أن يكون وليد الشر .
ولكن من أين يأتى الشر ؟ لا يمكن أن يجد فيك مقاما
وقد خلقت طاهرة نقية . اعلمى أن فى النفس ١٠٠
ملكات دنيا كثيرة تتخذ
العقل رئيساً ومن بينها الخيال
الذى يليه فى المنزلة . والخيال يتناول الأشياء الظاهرة
التى تقدمها لنا حواسنا الخمس اليقظة
فيصوغ منها تصورات وأشكالا أثيرية ١٠٥
يربط بينها العقل أو يفصل ، فإذا نحن
نقبل هذا أو نرفضه ونثبت ذاك أو ننكره ! وهذا ما نسميه
المعرفة أو الرأى . ثم يتراجع ليرقد

فى غرفته الخاصة عندما تخلد الطبيعة إلى الراحة .

وكثيرا ما يستيقظ فى غيبته خيال كاذب ١١٠

ليحاكيه ، ولكنه يفسد العلائق بين الصور

إذا كثيراً ما يُخرج أضغاث أشكال نراها غالبا فى أحلامنا -

أقوال وأفعال متنافرة من أصداء الأمس البعيد أو القريب .

وإخال أن ثمة ملامح شبه بين

حلمك هذا وبين ما قلناه فى حديثنا مساء الأمس ١١٥

مع زيادات غريبة فيه . ولكن لا تحزنى !

قد يخطر الشر على قلب ملاك أو إنسان

ويمضى وهو له كاره منكر ، ثم لا يخلف وراءه

شائبة ولا يشين صاحبه . وهكذا فإننى آمل أن يكون

الحلم الذى كان مقيتا إلى نفسك فى المنام ١٢٠

مقيتا إلى نفسك فى اليقظة فلا تفعلى منه شيئا .

لا تهنى ولا تحزنى إذن ، ولينقشع الغمام وليشرق وجهك ،

وليسطع بنوره ، فهوى أبهى من

أولى بسمات الصبح الجميل للكون !

هيا ننهض بأعمال هذا اليوم الجديد ١٢٥

بين البساتين والينابيع والأزاهير

التى شرعت تميط اللثام عن أعبق عبير لها

اختزنته من الليل فى صدرها فأبقته لك مكنونا !

وهكذا شرح صدر عروسه الجميلة فانشرح صدرها

ولكنها ذرفت عبرة رقيقة صامتة ١٣٠

من كل عين جففتها بشعرها !

وتأهبت قطرتان ثمينتان أخريان ، وقفت كل منهما

فى نافذتها البلورية ، ولكن آدم جففهما قبل أن تسقطا

بقبلاته ! كانتا آيتين كريمتين على الندم الرقيق

ورهبة التقوى ، فقد خشيت حواء أن تكون قد أذنبت ! ١٣٥

وهكذا صفا الجو فأسرعا إلى الحقول

خارجين من خميلتهما ، من تحت سقفها ظليل الأغصان ،

ولكنهما توقفا عند بابها حين شاهدا

انبلاج الصبح ، والشمس التى لم تكد تشرق

تَحوّم بعجلاتها على حافة المحيط ١٤٠

وترسل أشعتها الندية المتوازية إلى الأرض

فتكشف عن مشهد عريض مديد - عن شرق

الفردوس ووديان عدن الهنيئة !

ركع آدم وحواء فى خشوع لله ، ومن ثم شرعا

فى صلاتهما التى يؤديانها كل صباح - كما ينبغى - ١٤٥
بشعائرها المنوعة . كانا يحافظان على هذه الشعائر
وقد عمرت قلوبهما المشاعر القدسية الفياضة وهما يحمدان
خالقهما بترانيم جليلة يتغنيان بها أو يلقيانها
دون إعداد ! ما أعظم البلاغة الحاضرة التى
تدفقت من شفاههما ، نثراً أو شعراً منغوماً ١٥٠
يغتنى بألحانه عن العود والقيثار
ويكتفى بحلاوته وطلاوته . وهكذا شرعا يقولان :
هذه بديع صنائعك يارب الخير !
أيها العلى القدير ! لقد خلقت هيكل هذا الكون
جميلاً بديعاً فما أقدرك وأبدعك ! ١٥٥
يا من يجل عن الوصف ! يا من تستوى على عرش السموات
لا تدركك الأبصار ! إننا لا نشهد منك إلا
هذه الصنائع الدنيا ، ولكنها تفصح عن
خيرك الذى يُعجز الأفهام وسمو قدرتك !
حدثونا يا خير العارفين ، يا أبناء النور ، ١٦٠
أيها الملائكة ! فأنتم تبصرونه وتنشدون الأغانى معاً
والأناشيد المتوافقة فى نهار دائم لا يغشاه الليل .

إنكم تحيطون بعرشه مهللين مكبرين فى السماء

وتشارككم على الأرض شتى المخلوقات التى تسبّح له

فهو الأول والآخر وهو ما بينها وهو الأبد ! ١٦٥

يا أجمل نجم فى السماء وآخر حاشية الليل الراحلة

ليت أنك لا تنتمى إلى الفجر - ذلك

الوعد الحق بطلوع النهار - يا من تتوج الصبح البسام

بهالتك الوضاءة ! سبّح بحمد الله فى فلكك

أثناء طلوع النهار ، ساعة البكور الرقيقة . ١٧٠

وأنت أيتها الشمس ، عين هذا الكون العظيم وروحه !

سبّحى للأعظم الأعلى وتغنى بحمده

فى فلكك السرمدى ، حين ترتقين السماء

وحين تسطعين فى سمت الهاجرة وحين تميلين للغروب .

وأنت أيها القمر ! أحيانا تلتقى بشمس الشرق ، وأحياناً تَسْبَحُ ١٧٥

مع النجوم الثابتة فى فلك يَسْبح !

أيتها الكواكب الخمسة السيارة ، يا من تؤدين

رقصات سحرية ذات ألحان ! رددى ترانيم

الحمد له فهو الذى أخرج النور من الظلمات .

أيها الهواء ! أيتها العناصر الأربعة ! يا أول من وُلد ١٨٠

فخرج من رحم الطبيعة ! يا من تدورين فى
حلقة أزلية متعددة الأشكال وتختلطين
فتغذين جميع الأشياء ! فلتصوغى من صورك المتغيرة
مدائح ماتفتأ تتجدد لخالقنا العظيم !
وأنت يا سحائب الضباب - يا أنفاس الزفير المتصاعدة ١٨٥
من التلال والبحيرات التى تغشاها الأبخرة - دكناء أو شهباء -
حتى تزخرف الشمس بالذهب حواشيك الناعمة الزغباء !
ارتفعى تكريما لرب هذا الكون العظيم
فزينى بالمزن سماءه الصافية
أو ارْوِ الأرض العطشى بهاطل الأمطار ! ١٩٠
قدمى فى صعودك وهبوطك آيات الثناء !
سبحى بحمده أيتها الرياح التى تهب من أقطار الكون الأربعة
جهرا أو دون الجهر ! وأنت يا أشجار الصنوبر ! إحْنِ رؤوسك
مع شتى ألوان النبات ، وهزى بجذوعك رهبة وخشية !
أيتها الينابيع ! أيتها الجداول التى ينساب خريرها ١٩٥
ألحانا هامسه ! أنشدى أغاريد حمده !
ولتجتمع أصواتك أيتها الأرواح الحية ، أيتها الطيور
التى ترقى بأغانيها إلى أبواب السماء !

احملى على أجنحتك وفى نغماتك آيات الثناء عليه !

أنت يا من تسبح فى الماء ، وأنت يا من يمشى على ٢٠٠

الأرض ! أنت يا من يخطو شامخا وأنت يا من يزحف على بطنه !

اشهدوا أننى وإن صَمَتُّ فقد علمت أغنياتى صباح مساء

للتلال والوديان ، والينابيع وناضر الظلال !

أنطقتها بأغنياتى ولقنتها تسابيح الحمد لله !

اللهم يا مالك الأكوان ، فلتفض نعماؤك دوماً ٢٠٥

فلا ترزقنا إلا الخير ! وإذا كان الليل

قد لملم فى ثناياه بعض الشر أو أخفاه

فبدِّدْه مثلما يبدِّدُ النورُ الآن دياجير الظلام !

هكذا فرغا من صلاتهما الطاهرة ، فعاد إلى قلوبهما

الاطمئنان الراسخ والصفو القديم ! ٢١٠

وعلى الفور نهضا لأداء عمل الصباح فى المزارع

بين الأنداء الرقيقة والزهور ، حيثما اصطفت

أشجار الفاكهة فاكتثت أغصانها واشتبكت ، ثم طالت فأمعنت

فى الطول وثقلت ترفا ! كانت ترجو أن تمتد الأيدى لتحد

من عناقها العقيم ! أو أنهما أهرعا ليعينا أفنان الكرمة ٢١٥

على الاقتران بشجر الدردار ! أعاناها فاقترنت به وطوقته

بأذرعها الناضجة ، حاملة معها مهرها –
عناقيدها التى سيتبناها ليزين بها
أوراقه العقيمة . وبينما انكبا على العمل رآهما
ملك السماء الأعلى فأشفق عليهما واستدعى ٢٢٠
روفائيل ، ملك الإيلاف والألفة ، الذى تعطف فقبل
أن يرحل مع (طوبيا) وضمن له
الزواج من المرأة التى تزوجت سبع مرات

قال له إنك تسمع يا روفائيل ما يجرى على الأرض
لقد فر إبليس من الجحيم عبر هوة الظلمات ٢٢٥
وظهر فى الفردوس ! وتعلم كيف كدّر صفو
آدم وحواء ليلة البارحة ! وتعلم كيف يدبر
لإسقاط البشرية جمعاء من خلالهما !
إذن فاذهب إليهما واقض معهما نصف نهار
حدث آدم حديث الصديق للصديق ، فى خميلة أو فى ظل الأشجار ٢٣٠
حيثما وجدته يحتمى من وقدة الهاجرة
أو يستريح من عمل يومه إما بتناول الغذاء
أو بالاسترخاء ! وأَدِرْ دَفَّة الحديث
حتى تطلعه على هناء حاله –

هناء سلطانه إذ تركت إرادته حرة ! ٢٣٥
لقد ترك لإرادته الحرة حقاً ، ولكنها على حريتها
تتحول وتتقلب ! ومن ثم أَنْذره أن يحذر
أن يحيد عن الجادة من فرط الثقة ! وأَطْلعه أيضاً
على الخطر المتربص به ، على مصدره ، وعلى عدوه
الذى أُخرج – لفعاله – أخيراً من جنة السماء ، فشرع يدبر المكائد ٢٤٠
لإخراج الآخرين من جنات نعيمهم مثله –
ليس بالقوة ، فقهرها جِدٌّ يسير ،
ولكن بالخداع والأباطيل ! أطلعه على هذا
حتى لا يقع فى الخطأ بإرادته فيتذرع بأنه
قد فوجىء إذ لم يحذّره محذّر ولم يأته نذير ! ٢٤٥
هكذا تحدث الأب السرمدى فأوفى
العدل حقه . ولم يلبث الملاك المجنح
– بعد أن تلقى هذا التكليف – أن هب من بين
آلاف ملائكة السماء الوضاءة ، حيث كان يقف
محتجباً وراء أجنحته الرائعة ، وانطلق فى خفة ٢٥٠
طائراً وسط السماء ! أما فرق الملائكة المنشدين
فقد مال بعضهم يمنة ومال بعضهم يسرة ليفسحوا له الطريق !

وهكذا قطع طريق المجرة مسرعاً حتى أشرف على باب الجنة .

وانفتح الباب من تلقاء نفسه على مصراعيه -

مصراعين من الذهب ! هكذا كانت قدرة الباب ٢٥٥

كما وضعه المهندس الأعظم بقوته الربانية

لم تعق إبصاره سحابة من السحب

أو نجم من النجوم بل رأى الأرض صغيرة على البعد

مثل الأفلاك الوضاءة الأخرى ! رأى

الأرض وجنة الله تكللها أشجار الأرز ٢٦٠

فوق التلال . مثلما يتطلع منظار

(جاليليو) ليلاً فيرصد دون يقين

ما يتخيله من أراض وأصقاع على سطح القمر

أو مثلما يلمح ربان سفينة فى أرخبيل (كيكلاديس)

جزيرة (ديلوس) أو (ساموس) عندما تلوح لأول مرة فيتخيلها ٢٦٥

سحابة عابرة ! كان يهبط فى طيرانه إليها

مسرعاً ، مارقاً فى السماء الأثيرية الشاسعة

مبحراً بين العوالم العديدة ! تارة تهدأ خفقات جناحه

على متن الرياح القطبية ، وتارة يسرع خفقها

وهى تذرو الهواء الجميل ، حتى غدا يحلق حيث ٢٧٠

تحوم العقبان ، فبدا للطيور

عنقاء تبهر أبصارها . كانت الطائر الوحيد

الذى أراد أن يحفظ رفاته فى معبد الشمس

الوضاء فطار قاصداً طيبة فى أرض مصر .

وحط فوراً على الصخرة الشرقية عند باب الفردوس ٢٧٥

واستعاد صورته الأولى - صورة

ملاك مُجَنَّح من الصاروفيم . كانت أجنحته الستة تحجب

جسده النورانى . كان الجناحان اللذان يغطيان

منكبيه العريضين ينسدلان على صدره

بزخرفهما الملكى ! وكان جناحا الوسط ٢٨٠

يحيطان بخصره كأنهما نطاق مرصع بالنجوم ، ويلتفّان

حول حِقْويْه وفخذيه ، يحليهما زغب ذهبى

صبغت ألوانه فى السماء . أما الجناحان الأخيران فكانا

يكسوان قدميه من الكعبين بدرع من الريش

بلون السماء لا ينصل ! وقف مثل (عطارد) ٢٨٥

يرف ريشه فيضوع شذا السماء فى

المنطقة الشاسعة من حوله . وعلى الفور عرفته جميع فرق

الملائكة القائمة بالحراسة ، فنهضت تحية لمكانته

وتكريماً للمهمة السامية التى كلف بها

فقد حدست أنه لابد مكلف بمهمة سامية ! ٢٩٠

ومر بخيامها البراقة حتى أتى

إلى حقل النعيم ، فعبر بساتين المر

والأزهار العطرة وأشجار القاسيا وزيوت الطيب والبلسم -

برية من المحاسن ! كانت الطبيعة ها هنا

فى شرخ شبابها ، تلهو وتلعب كما يحلو لها ، ٢٩٥

فتنبت ما يصوره خيالها البكر ، وتتدفق بدائعها

الطليقة فتفوق بدائع فن الصنعة - نعيم غامر !

ورآه آدم مقبلا عبر الغابة العبقة

وهو جالس لدى باب

خميلته الرطيبة ! كانت الشمس فى كبد السماء ٣٠٠

ترسل أشعتها الحارة مباشرة لتدفىء

رحم الأرض العميق - حرارة أشد مما يحتاجه آدم !

كانت حواء داخل الخميلة ، وكانت تعد للغداء فى هذه الساعة

- كما ينبغى - ثماراً لذيذة ، مذاقها يمتع

الشهية الصادقة ولكنه لا يطفىء الظمأ إلى ٣٠٥

جرعات الرحيق أثناء الطعام من فرات الأنهار

والكرم والأعناب ! فناداها آدم قائلا :

تعالى يا حواء ! أسرعى ! أمتعى بصرك فانظرى

شرقاً بين هذه الأشجار ! أترين صاحب الصورة الوضاءة

الذى يخطو مقبلاً نحونا ؟ لكأنما هو صباح جديد ٣١٠

يشرق فى الظهيرة ! ربما كان يحمل وصية كبرى من السماء

إلينا ، وربما تعطف فقبل أن

نستضيفه اليوم . هيا اذهبى فانظرى

ما فى خزائنك ! أعدى أطيبه وزينيه وأغدقى

من الخيرات ما تقتضيه الحفاوة ويقتضيه تشريف ٣١٥

ضيفنا الغريب من السماء ! إننا نستطيع أن نقدم

إلى كرمائنا ما قدموه لنا ، وأن نسخو فى العطاء

من سخىّ العطايا ، فالطبيعة تضاعف

من خيرات خصبها ، وإذا خَفَّفْنا أحمالها

ازداد ثمرها وتكاثر ، والحكمة إذن ألا نقتصد . ٣٢٠

وأجابته حواء قائلة : آدم يا ابن الطين الذى سواه الله

وأوحى إليه ! يكفينا القليل ! فالمخزون

على أغصانه فى كل حين ناضج وقطوفه دانية !

عدا ما ينبغى تخزينه قليلا حتى يتماسك

ويطيب للغذاء بعد زوال الماء الزائد . ٣٢٥
ولكننى سأسرع فأقطف أحسن الثمار من كل غصن وشجيرة
ومن كل نبات بل ومن البطيخ والشمام ذى الرحيق
قِرىً لضيفنا الملاك ، فإذا
رأى ذلك سلم بأن الله قد أفاء خيراته
على الأرض مثلما أفاءها على السماء ٣٣٠

قالت هذا فبدت على محياها سمات العجلة
واستدارت مسرعة . كانت أسباب الحفاوة تشغل بالها :
ينبغى انتقاء أشهى الأطايب وألذها طعماً
وتقديمها بنظام يمنع اختلاط مذاق
بمذاق ، فإن لم يُحكم ترابطها فقدت رونقها ٣٣٥
ومن ثم ينبغى بناء مذاق على مذاق فى تتابع أقرب إلى نهج الطبيعة !
شغلتها هذه الأفكار فقطفت الثمار من الأغصان الغضة التى تحمل
كل ما أخرجته الأرض - الأم التى تحمل فى رحمها كل شىء - قطفت
ما أخرجته الهند فى الشرق وفى الغرب وما بينهما
من سواحل البحر الأسود وسواحل شمال افريقية ٣٤٠
أو جزيرة (الكينوس) - فاكهة من كل نوع تتفاوت قشرتها
خشونة ونعومة ، فبعضها وَبَرِىٌّ وبعضها صُلب

قطفتها جميعاً - آية تكريم كبرى - ثم وضعتها على المائدة
بيد مغداق وللسقاء أتت بالكرم
وعصرته فأخرجت شراباً طهوراً ، ثم أعدت رحيقاً حلواً ٣٤٥
من ألوان التوت المختلفة ، كما سحقت اللوز الحلو فاستخرجت
ألباناً طيبة مزجتها مزجاً . وكان لديها أيضا
الأكواب الطاهرة اللائقة . وعلى الأرض نثرت
الورود وعاطر الزهور من أشجار لم يقربها البخور !
وأثناء ذلك كان جدنا الأول يستعد لاستقبال ٣٥٠
ضيفه النورانى ، فتقدم إليه لا تتبعه حاشية
ولا تصحبه إلا مناقب كماله .
كانت مهابته تنبع من ذاته ، بل كانت
هيبته تزيد عما توحى به الأبهة السقيمة التى تحيط
بالأمراء الذين تتبعهم حاشية طويلة مترفة ٣٥٥
من الفرسان ، يتقدمهم خدم مرصعون بالذهب ،
فتخلب أبصار الناظرين ويفغرون أفواههم دهشاً !
وعندما اقترب آدم منه تقدم إليه - لم يكن يرهبه
ولكنه أبدى خشوعا وتوقيرا واحتراما
لذى الكيان الأسمى وانحنى قائلاً : ٣٦٠

يا قاطن السماء ! - إذ لا إخال مكاناً
سوى السماء تحيا فيه مثل هذه الصورة الوضاءة -
ما دمت قد هبطت من العروش العلوية
وتعطفت فتركت منازل النعيم هنيهة
وشرفت هذه البقاع ، فليتك تتعطف أيضا وتزورنا ٣٦٥
نحن الاثنين فقط فى تلك الخميلة الظليلة
وقد وهبنا الله هذه الأرض الفسيحة من حولها !
فلتسترح معنا فيها ولتتذوق أطايب ثمر الجنة
ولتلبث هنا حتى تمضى وقدة الهاجرة
حين تميل الشمس فى مدارها وتخف حراراتها ! ٣٧٠
وأجابه الملاك الكريم فى صوت ودود قائلاً :
آدم ! هذا ما أتيت من أجله ! لقد خُلقْتَ على هذه الصورة
وأوتيت هذا المكان سكناً ومنزلاً
حتى تدعو ضيوفك إليه ولو كانوا من ملائكة السماء
فلتمض بى إذن إلى خميلتك ٣٧٥
وارفة الظلال . فأمامى هذه الساعات الوسطى حتى يشرق المساء
ولى أن أفعل بها ما أشاء ! وهكذا انطلقا إلى المنزل وسط الغابة
فابتسم لهما مثل بستان (بومونا) ! كان

مزدانًا بالزهيرات وأريج العطور ، ولكن حواء

لم تكن مزدانة بشىء ! كانت بذاتها أبهى من ٣٨٠

أجمل الحوريات ، أو ما ذكرته الأسطورة عن أجمل الربات

الثلاث اللائى تنافسن عاريات فوق جبل (أيدا)

وتأهبت حواء لتكريم ضيفها القادم من السماء

لم تكن بحاجة إلى خمار ، فالفضيلة حصنها ، ولم يطف بفؤادها

ما يصبغ بالخجل خدها ! فألقى الملاك عليها السلام ٣٨٥

وهى التحية القدسية التى ألقيت

بعد زمن طويل على حواء الثانية - مريم البتول - فباركتها !

السلام عليك يا أم البشر ! يا من ستملأين

الدنيا من رحمك الخصب بأبناء يزيد عددهم

عن هذه الفاكهة المنوعة التى حملتها أشجار الله ٣٩٠

فملأت بها هذه المائدة ! كانت المنضدة ربوة

من السندس الأخضر ، وحولها مقاعد معشبة

وعلى جوانبها الأربعة الكبيرة

أغصان الخريف وأوراقه - رغم أن الربيع والخريف هنا

تشتبك أيديهما فى رقصة واحدة ! وشرعوا فى الحديث برهة ٣٩٥

إذ لا خوف أن يبرد الطعام ! وبدأ الحديث

جدنا قائلا : أيها الغريب القادم من السماء ! تفضل فذق
هذه الخيرات التى ينزلها علينا من يطعمنا ويسقينا
ومحكم خيراته لا تعد ولا تحصى ! لقد قضى
أن تهبنا إياها الأرض طعاماً ومتعة ٤٠٠
فربما ليست بالغذاء الشهى
لذوى الكيان الروحى ! بيد أننى أعرف
أن رب السموات الواحد يهبها للجميع

ورد عليه الملاك قائلا : لما كانت عطايا الله للإنسان
(ولنسبح بحمده بكرة وأصيلاً) ذات قبس روحى ٤٠٥
فسوف تجدها أصفى الأرواح
طعاماً سائغاً ! فالطعام يحتاجه أصفى
كيان ذهنى مثلما يحتاجه
كيانك العقلى : وكلاهما لديه
وفى باطنه كل الملكات الدنيا - تلك ٤١٠
الحواس التى يسمع بها المخلوق ويبصر ، ويشم بها ويلمس ويتذوق
فإذا تذوق مضغ فهضم فتمثل
فأحال المادة روحاً !
اعلمْ أنه ما من مخلوق إلا محتاج

إلى الغذاء والطعام . وهكذا شأن العناصر : ٤١٥

الأغلظ يغذى الأرهف ، فالأرض تغذى البحر

والأرض والبحر يغذيان الهواء ، والهواء يغذى تلك النيران

الأثيرية وأولها وأدناها إلينا القمر !

ومن ثم تبدو فى وجهه المستدير تلك البقع ، فهى ما لم يصفو بعد من

الأبخرة فيتحول إلى المادة التى خلق منها ٤٢٠

بل إن القمر ليصعِّدُ الغذاء زفيراً

من أرضه الرطبة إلى الأفلاك الأعلى

والشمس التى تبعث بنورها إلى جميع الأشياء

تتلقى منها جميعاً غذاء يعوضها عنه

فى صورة أبخرة مصعدة . وعندما يحل المساء ٤٢٥

تطعم من المحيط . ومع أن لدينا فى السماء أشجار

الحياة التى تحمل ثمار الجنة ، وعرائش الكروم

التى تخرج الرحيق ، ومع أننا ننفض عن الأغصان كل صباح

قطرات الندى المعسول ، ونرى الأرض

مكسوة بحبات اللؤلؤ المنثور ، فإن الله قد أفاء هنا ٤٣٠

خيرات مختلفة ومتعاً جديدة

ترقى إلى ما فى السماء ! ولذلك فلا تَظُنَّنَّ

أننى سأتعفف عن تذوق ما قدمت لى ! وهكذا جلسا ،
ثم شرعا فى تناول لذيذ الطعام . لم يكن الملاك يأكل فى الظاهر
فحسب ، ولم يكتنفه ضباب الوهم ، وهو التأويل المألوف ٤٣٥
لدى اللاهوتيين ، ولكنه كان مدفوعاً بلذع
الجوع الحقيقى ، وحرارة هضم الطعام
وتمثيله ، وأما الفضل فما أيسر
أن يخرج من الأرواح . ولا عجب هنا ، فإن نار
الفحم ذى السناج تعين الكيميائى التجريبىّ ٤٤٠
أو هو يقول إنها تعينه - على تحويل
أدنى المعادن وأحطها إلى ذهب خالص ،
كالذى يخرج من بطون المناجم ! وأثناء ذلك كانت حواء قائمة
تقدم الطعام عارية على المائدة ، وتملأ لهما كؤوسهما
بالشراب اللذيذ حتى حافتها . يا للبراءة ٤٤٥
الخليقة بالفردوس ! فإن صحت الرواية
فإن منظر حواء آنذاك كان حريا بأن يجعل الملائكة
تعشق بنات البشر ، ولكن ما جاش بتلك الصدور
لم يكن حب الاشتهاء ، ولا كان للغيرة
معنى هنا ، وهى جحيم العاشق المحروم ! ٤٥٠

وهكذا فبعد أن شبعا طعاماً وشرباً
دون أن يثقلا على الطبيعة ، خطر لآدم فجأة
ألا يدع هذه الفرصة السانحة تمر -
فرصة هذا الحوار العظيم - دون أن يسأل
عما وراء هذا العالم ، وعن كيان ٤٥٥
من يقطنون السماء ، وقد رأى أن امتيازهم
يفوق امتيازه كثيراً ، وأن صورهم الوضاءة
نور قدسى ، وأن قدراتهم السامية
تفوق قدرة البشر . ومن ثم بدأ حديثه فى حذر
إلى ملاك السماء قائلاً : ٤٦٠
يا من تسكن مع الله ! إننى أعلم حق العلم
مبلغ كرمك فى إسباغ هذا الشرف على الإنسان
إذ تعطفت فدخلت منزله المتواضع
وتذوقت هذه الفاكهة الأرضية !
إنها ليست طعام الملائكة ولكنك قبلتها ٤٦٥
وطعمت منها بشهية لا تقل فيما يبدو عن شهيتك
فى ولائم السماء الكبرى : ولكن أيان هذه من تلك !؟
وأجابة المجنح العظيم قائلا :

اسمع يا آدم ! القهار واحد ! منه

منشأ كل الأشياء وإليه مرجعها ٤٧٠

ما لم تنحرف عن الخير . فلقد أعطى كل شىء خلقه ،

وفى أحسن صورة ركَّبه . فالمنشأ هيولة أولى واحدة

وُهبت صوراً منوعة ، ودرجات متفاوته من

المادة مثلما وهب الأحياء درجات متفاوته من الحياة

وتزداد هذه رهافة وروحانية ونقاء ٤٧٥

باقتراب منزلتها منه أو ميلها إليه

وقد خصص لكل منها مجال عمل لا يتعداه

حتى يطمح الجسد فى عمله إلى الروح ، فى حدود

تتناسب مع كل نوع . وهكذا ترى أن الجذر

يُنبت الساق الخضراء الأرهف كياناً ، ومن الساق تخرج الأوراق ٤٨٠

الأقرب إلى الهواء ، وأخيراً تخرج الزهرة الكاملة مشرقة

فتبعث أنفاس الشذا العاطر . وأما الزهور والثمار

– طعام الانسان – فهى ترتقى درج سلم الطبيعة وتتسامى

لتصبح عصائر الحياة وأبخرتها وأنفاس

الذهن . فهذه هى التى تهب الحياة والإحساس ، ٤٨٥

وتهب الخيال والإدارك ، ومنها تتلقى النفس

مقومات العقل ، فالعقل كيانها
سواء كان منطقياً أم حدسياً - فأما المنطقى
فينتمى غالباً لكم ، وأما الحدسى فغالباً لنا ،
وهما يختلفان فى الدرجة فحسب ، ولكنهما من نفس النوع . ٤٩٠
لا تعجب إذن حين أتقبل ما يراه الله
حسناً لكم ، فهو يتحول لدىّ ولديكم
إلى نفس المادة التى خلقنا منها . وربما أتى على الانسان حين من الدهر
استطاع فيه مشاركة الملائكة طعامها ، فلم يجده
غير سائغ أو أرهف أو أخف مما ينبغى ٤٩٥
ومن هذه الأطعمة المادية ربما استطاعت
أجسادكم أن تتحول آخر الأمر إلى أرواح خالصة
تصفو بمرور الزمن بحيث تستطيعان الصعود مجنحين
كالأثير مثلنا ، وإذا شئتما اتخذتما هذه الفردوس
نُزلا أو غيرها من فراديس السماء ٥٠٠
طالما أبديتما الطاعة وظللتما
على حبكما الكامل الراسخ الثابت
لمن أنجبكما . أما الآن فتمتعا
ما شاء لكم بالسعادة التى يسعها هذا النعيم

ولا يسع المزيد منها ٥٠٥

وأجابه والد الجنس البشرى قائلا :

أيها الروح الكريم ! يا ضيف الجنس البشرى !

ما أحسن ما ترشدنا إلى الطريق الذى سيهدى

علمنا ، وما أحسن ما بينت لنا سلم الطبيعة الذى يمتد

من مركز الدائرة إلى محيطها ، والذى نرجو أن نرقاه ٥١٠

بتأملنا للمخلوقات حتى نصعد

درجة فدرجة إلى الله . ولكن قل لى :

ماذا تعنى بذلك التحذير الذى أردفته حين قلت : إذا أبديتما

الطاعة ؟ أيمكن ألا نبدى الطاعة

أو نهجر حُبَّنا لله ٥١٥

وهو الذى خلقنا من تراب ثم أنزلنا هنا

فأترع كياننا بأقصى النعيم الذى

ينشده البشر أو يقدرون عليه ؟

ورد عليه الملاك قائلا : يا ابن السماء والأرض !

أصخ السمع ! إنك تدين بهنائك إلى الله ٥٢٠

ولكن مواصلة الهناء رهينة بك !

إنها رهينة بطاعتك فاثبت عليها !

هذا هو تحذيرى إليك فانتصح به !
لقد وهبك الله الكمال ولم يهبك الثبات
لقد خلقك صالحاً ، ولكنه ترك لك القدرة على مواصلة
الصلاح ! لقد قضى أن تكون إرادتك ٥٢٥
حرة بطبيعتها ، لا يسيطر عليها قدر
لا فكاك منه ، ولا يحكمها حتم صارم .
إنه يطلب منا أن نعبده مختارين
لا مجبرين ، فعبادة المجبر ٥٣٠
لا تقبل بل محال أن تقبل ! إذ كيف
تبتلى القلوب إذا حرمت الحرية ؟ وكيف يُعرف إن كان العابد
يريد العبادة أم لا ؟ إنه إن كان مجبراً فلن يريد
إلا ما يفرضه القدر عليه ولن يقدر على اختيار سواه !
أما أنا وسائر الملائكة الذين يقفون ٥٣٥
على مرأى من الله متوجين ، فإننا نتمتع بنعيمنا
مثلما تتمتعان بنعيمكما ، طالما واصلنا طاعتنا .
هذا هو ضماننا الوحيد ، إننا أحرار فى عبادته
لأننا أحرار فى حبه - أى لأننا نتمتع بإرادتنا فى
أن نحبه أولا نحبه . وثباتنا وسقوطنا رهن بذلك . ٥٤٠

بل لقد سقط البعض - سقطوا فى العصيان -
ومن ثم هووا من السماء إلى درك الجحيم الأسفل !
فيا للسقوط من ذروة النعمة إلى وهدة النقمة !

فقال له جدنا الأكبر : لقد أصغيت إلى كلماتك
فأحسنت الاصغاء . ولقد شنفت آذانى ٥٤٥
أيها المعلم القدسى ، وأمتعتنى متعة تفوق فرحتى
بأغانى ملائكة الشاروبيم ليلا حين ترسل من التلال المجاورة
موسيقاها الأثيرية . لم أكن أجهل أننى
خلقت حراً فى الإرادة والعمل . وطالما اعتقدت
أننا لن ننسى أبداً حب ٥٥٠
خالقنا أو طاعته ، إذ لم ينهنا إلا عن أمر واحد -
وهذا هو العدل عين العدل بل ما أكده فكرى الثابت
ومازال يؤكده . ولكن ما ذكرته عما
وقع فى السماء يثير فى نفسى الريبة
ويزيد من رغبتى فى الإصغاء - إذا وافقت - ٥٥٥
إلى القصة الكاملة ولابد أنها غريبة
وجديرة برهبة الإصغاء فى صمت .
مازال النهار أمامنا مديداً ، فالشمس لم تكد

تكمل نصف رحلتها ، ولم تكد تبدأ

النصف الآخر فى قبة السماء الشاسعة . ٥٦٠

وهكذا فرغ آدم من سؤاله . وبعد

برهة صمت قصيرة أجابه روفائيل إلى طلبه قائلاً :

ما أسمى ما تطلب يا خير الرجال !

إنها لتثير الأسى ويشق سردها ! إذ كيف أُقَرِّبُ إلى

حواس البشر ما لا تدركه أبصارهم من معارك ضارية ٥٦٥

بين الأرواح ؟ كيف أروى دون إبداء الشفقة قصة

سقوط الكثيرين ممن كانوا يُشعّون بهاءً

وكمالاً أثناء ثباتهم على العهد ؟ وأخيراً كيف أروى

أسرار عالم آخر قد

لا يحل إفشاؤها ؟ ولكن الفائدة التى ستجنيها ٥٧٠

تبرر تقديمها ، وما لا تدركه

حواس البشر سأرسمه رسماً

مستعيراً للصور الروحية صوراً جسدية

تعبر عنها أحسن تعبير ، وهل الأرض

إلا ظل السماء ، وهل كل ما هنا وهناك إلاّ ٥٧٥

متماثل بأكثر مما يظنه أهل الأرض !؟

كان ذلك قبل وجود هذا العالم ، والعماء الجائح
يبسط سلطانه حيث تجرى أفلاك هذه السموات ، وحيث
تستقر الأرض الآن
متزنة على مركزها ! فى ذلك اليوم
(والزمن فى سرمديته لا يصف إلا ٥٨٠
الحركة ، ويقيس الأشياء الفانية فحسب
بحدود الحاضر والماضى والمستقبل) - فى ذلك اليوم
الذى تأتى به الدورة الكبرى للأفلاك مرة كل عام ، أمر المليك
باستدعاء حشد السماء من الملائكة ، فجاءوا
بأعداد لا تحصى ومثلوا أمام عرش القهار ٥٨٥
على الفور ، قادمين من شتى أطراف السماء
واصطفوا فى طبقاتهم النورانية يقودهم زعماؤهم ،
ورفعوا عالياً عشرة آلاف بيرق
وراية وعلم بين المقدمة والمؤخرة
فرفرفت فى الهواء ، لتميز ٥٩٠
مكانة كل منهم أو طبقته أو درجته
كان بعضهما يحمل فى نسيجه اللامع نقوشاً براقة
وتذكارات قدسية لمآثر الحماس والحب

التى سجلت فأبرزت . وهكذا وقفوا فى أفلاكهم
ذات المحيط الشاسع ، وانتظموا ٥٩٥
فلكاً داخل فلك ، ثم أتى صوت الأب السرمدى
- وقد جلس الابن فى أحضان نعيمه -
من وسط السماء كأنما يصدر من قمة جبل التهبت
فاحتجبت لفرط نورها . قال :
أيها الملائكة يا أبناء النور ! اسمعوا ٦٠٠
يا ذوى العروش ! أيها السلاطين ، يا ذوى الإمارات والفضائل
والرياسات !
اصغوا إلى قرارى الذى ينفذ فلا نقض له !
لقد أنجبت اليوم من أعلن أنه
ابنى الأوحد ! وعلى هذا التل المقدس
مسحت عليه ! إنه من ترونه الآن ٦٠٥
إلى يمينى ! إننى أعينه رئيساً عليكم
ولقد أقسمت بذاتى أن تنحنى له
شتى الرؤوس فى السماء وأن تعترف به سيداً عليها
احتكموا إذن لحكم خلافته العظيمة وانصاعوا له
متَّحدين مثل نفس واحدة لا تتجزأ ٦١٠

بل تهنأ إلى الأبد . إن من يعصيه

فإنه يعصينى ، ويفصم عرى الوحدة ، وسوف ينبذ فى نفس اليوم

من حظيرة الله ويبتعد عن رؤياه المباركة

ويسقط فى الظلمة التامة فيبتلعه الخضم فهو مثواه

الذى قضيت به - دون خلاص وبلا نهاية ! ٦١٥

كانت هذه كلمات الجبار نطق بها

فبدا السرور على الجميع ! أجل بدا السرور ولكنه لم يعم الجميع !

ومن ثم قضوا ذلك اليوم مثل سائر أعيادهم

ينشدون ويرقصون حول التل المقدس

رقص عبادة خاشعة ، يحاكى حركة السماء الدنيا بنجومها ٦٢٠

الثابتة وكواكبها ومساراتها المتداخلة

أيما محاكاة ! كانت حلقاته معقدة

بعضها غير ذى مركز ، وبعضها متقاطع ، ولكنها

وإن بدت غير منتظمة ، أَشَدُّ انتظاماً من كل شىء !

كانت حركاتهم تبعث موسيقى متوافقة قدسية ٦٢٥

تنساب ألحانها الساحرة حتى لقد أصغت إليها أذن الله

فى سرور . واقترب الآن المساء

(فلدينا أيضاً مساء وصباح

وإن كانا يتعاقبان للمتعة لا للضرورة)

وعلى الفور تحول الجميع من الرقص إلى الطعام اللذيذ ٦٣٠

فأقبلوا عليه باشتهاء ! كانوا يقفون فى دوائر

حين مدت الموائد فامتلأت فجأة

بطعام الملائكة ، وسال ياقوت الشراب فتألق

ببريق اللؤلؤ والماس والذهب الإبريز

عصير الكرم الشهى من نبت السماء ! ٦٣٥

واستلقوا على الزهور متوجين بزهيرات ناضرة

فأكلوا وشربوا ورَقّ تواصلهم

وهم يعبون شراب الخلد والفرح ، آمنين

من التخمة ، فالشبع يمنع

الإفراط ، أمام الملك الأكرم الذى أغدق عليهم ٦٤٠

نعماءه بكف معطاء ، وشاركهم فرحهم

وعندما هبط الليل العاطر مُزْناً

من جبل الله الأعلى - من حيث ينبعث النور والظل -

تغير وجه السماء الصبوح فاكتسى

غسقًا جميلاً (إذ لا يكتسى الليل هناك ٦٤٥

نقاباً أحلك) وهبطت القطرات الوردية التى تحمل

النعاس إلى كل العيون إلا عين الله التى لا تغفل
وانتشر الملائكة فى أرجاء السهل ، فى حقول أرحب
من سطح هذه الأرض الكروية لو بسط مهادها بسطاً !
(فهكذا شأن حقول الله المترامية) وتفرق حشدهم من ثم ٦٥٠
فى فرق وصفوف فضربوا خيامهم
على شطآن الأنهار الحية بين أشجار الحياة -
خيام لا تعد ولا تحصى ! وأقاموا فى لمح البصر
حجرات سماوية خلدوا فيها للنوم
بينما تهب عليهم النسمات الرطيبة - إلا من سهروا ٦٥٥
حول عرش المليك ينشدون له ألحان التسبيح
متناوبين طول الليل . ولكن إبليس لم يسهر لهذا !
لقد أسميناه إبليس الآن لأن اسمه القديم
لم يعد يسمع فى السماء ! كان من أعظم كبار الملائكة
إن لم يكن أعظمهم طُراً ! كان عظيم السلطان ٦٦٠
عظيم الحظوة والامتياز ، ولكنه أمسى يضمر
الحسد لابن الله ، إذ كَرَّمه
أبوه العظيم وشَرَّفه وأعلن أنه
المسيح - أى الملك الذى مُسح عليه . لم يستطيع إبليس أن يحتمل

هذا المشهد صَلَفاً منه وتيهاً ، بل ظن أنه قد أُضير ! ٦٦٥
وتولد فى نفسه من ثم الازدراء والحقد العميق .
وعندما انتصف الليل وحلت ساعة الغسق ،
حبيبة النوم والسكون ، عقد عزمه
على الرحيل مع فرقه ، والتخلى عن
عباده العرش الأسمى وعن طاعته ٦٧٠
فى أنفة وازدراء . وهكذا أيقظ من يليه فى المنزلة
وشرح يحدثه سراً قائلاً :
أتنام أيها الرفيق المقرب ؟ أى نوم ذاك الذى يغلق
أجفانك ؟ ألا تذكر القرار الذى صدر
بالأمس ونطقت به شفاه ٦٧٥
جبار السماء ؟ لقد اعتدت أن تفصح لى عن أفكارك
واعتدت أن أفصح لك عن أفكارى
لقد توحدنا فى اليقظة ، فكيف يفرق بيننا الآن
سباتك ؟ إنك تشهد الشرائع الجديدة التى فرضت علينا .
وكل شريعة جديدة يفرضها الحاكم تثير رأياً جديداً ٦٨٠
لدينا نحن المحكومين ! إنها تتطلب مشاورات جديدة للنظر
فى عواقبها المجهولة . ولكننى لا آمن البوح

بأكثر من هذا هنا . هيا ! قم فاجمع

رؤساء الألوف الذين تتزعمهم

وأخبرهم أن الأمر قد صدر لنا بالانطلاق من هنا ٦٨٥

- قبل أن يلملم الليل الأدكن ظلال سحائبه -

أنا وكل من يرفع رايته فى ظل قيادتى ،

إلى مقرنا ، وبالعودة على جناح السرعة إلى

مرابع ملكنا فى الشمال ، فنعد

حفلاً مهيباً نستقبل فيه مليكنا ٦٩٠

وهو المسيح العظيم ونتلقى أوامره الجديدة

فهو يعتزم أن يمر مسرعاً بين طبقات الملائكة جميعًا

مرور الظافر ليشرع الشرائع !

وانتهى الملاك الأكبر من كاذب حديثه

فبث الضلال فى صدر صاحبه ٦٩٥

غير المرتاب ، ومن ثم جمع بعض

خلفائه الذين ينوبون فى الرئاسة عنه

وخاطب الباقين كلا على انفراد فأخبرهم الخبر

ألا وهو أن القائد سيمر قبل انقضاء الليل

بل الآن ، قبل أن يرفع الليل الأدكن أثقاله من السماء - ٧٠٠

حاملاً أرفع رايات الرفعة

وأخبرهم بالسبب فى ذلك ، ولكنه دس فى ثنايا حديثه

كلمات غامضة تثير الريبة ، إما لاختبار ولائهم

أو للتأثير فيه . بيد أنهم جميعاً أطاعوا

الصوت الأعظم والإشارة المعهودة من ٧٠٥

من زعيمهم الأكبر ، إذ كان اسمه جد عظيم

ودرجته جد رفيعة فى السماء .

لقد اجتذبهم وجهه المشرق مثل نجم الصباح

الذى يقود زمرة النجوم ، واستطاع بأكاذيبه

أن يجر وراءه ثلث حشد السماء . ٧١٠

وأثناء ذلك كانت العين السرمدية التى يدرك بصرها

أدق الخلجات والأفكار تطل من الجبل المقدس

ومن خلال المصابيح الذهبية التى تتوهج

كل ليلة أمامه . لقد رأى دون أن يستعين بضوئها

ازدياد التمرد ورأى المتمردين وانتشار ٧١٥

العصيان بين أبناء الصباح ، والجماهير

التى تضافرت لمناوءة قراره الأسمى ،

فالتفت إلى ابنه الأوحد وقال مبتسماً :

ولدى ! يا من أرى فيه بهائى

مشرقاً كل الاشراق ! يا وريث جبروتى ! ٧٢٠

لقد اقترب موعد البرهان على أننى

على كل شيء قدير ! لابد أن نثبت قوة السلاح التى

نعتزم أن نحمى بها ملكنا الأزلى

وألوهيتنا الأزلية ! إن ثمة عدواً

قد تمرد فاعتزم إقامة عرشه ٧٢٥

فى مناطق الشمال الشاسعة بحيث يكون صنواً لعرشنا ،

ولم يكتف بذلك بل إنه يفكر فى منازلتنا

ليختبر قوة سلطاننا أو حقنا فيه ..

فلنخبر الملائكة ، ولنلق فى هذه المعمعة الخطرة

مسرعين بمن تبقى منهم ، حتى ينهضوا جميعاً ٧٣٠

بالدفاع عن العرش ، وإلا ضاع فى غفلة

هذا المكان الأسمى ، هذا الجبل والملاذ الرفيع !

وأجابه الابن وقد علت محياه السكينة وسطع

فيه البرق القدسى نوراً كريماً يجل عن الوصف ،

فقال : أيها الأب الجبار ! إنك لتسخر ٧٣٥

من أعدائك بالحق ، وإنك لآمن

ضاحك من باطل مكائدهم وفعالهم !
إننى لأزهو سناء إذ يبغضوننى ، ولسوف أزهو مجداً
حين يشهدون قدرة المُلْك التى
أسبغت علىّ لقمع كبريائهم ، وحين يعرفون من نتيجة ٧٤٠
الموقعة إذا ما كنت قادرا على إخضاع
من تمردوا عليك أم أنا أسوأ من فى السماء !

وصمت الابن . بينما كان إبليس وقواته
قد طاروا بعيدا على أجنحة السرعة حشداً
لا يعد ولا يحصى مثل نجوم الليل ٧٤٥
أو نجوم الصباح أو قطرات الندى التى تحيلها الشمس
لؤلؤا على كل ورقة وعلى كل زهرة !
ومروا بأصقاع شاسعة - مر أولئك الجبابرة الصناديد
من ملائكة الصاروفيم والقادة وذوى العروش
فى طبقات ثلاث بأصقاع تتضاءل أمامها ٧٤٥
أرجاء مملكتك يا آدم ! وإن قورنت بها كانت
كهذه الجنة إن قورنت بمهاد الأرض
والبحر إذا تخلى عن شكله الكروى
فانبسط سطحاً مديداً ! وبعد أن خلفوها وراءهم

حطوا الرحال على حدود منطقة الشمال ٧٥٥
فاستوى إبليس على عرشه الملكى
عالياً فوق التل الذى يسطع نوره إلى الآفاق ! كأنما هو
جبل من فوق جبل ، حوله الأهرام والبروج
التى اقتطعت من محاجر الماس ، وصخور من الإبريز !
ذاك قصر (لوسيفر) العظيم (إذا أسمينا ٧٦٠
ذلك البناء اسما مأخوذا من لغة البشر
حتى يفهموه) ولكن إبليس لم يلبث أن طمح
بعد قليل فى المساواة مع الله
ومحاكاة الجبل المقدس الذى نُصِّبَ عليه
المسيح أمام أعين السماء ، ٧٦٥
فأسماه جبل الجمعة
لأنه جمع عليه كل أتباعه
متظاهرا بأنه قد أُمِر باستشارتهم
حول الاستقبال الأعظم لمليكهم
حين يأتى إليهم هناك . وهكذا ، بحذق الافتراء ٧٧٠
وفنون الزيف النكراء ، ملك عليهم أسماعهم إذ قال :

يا ذوى العروش ! أيها السلاطين ! يا ذوى الإمارات والفضائل

والرياسات !

هذا إذا كانت هذه الأسماء العظيمة ستظل قائمة ولن تصبح

مجرد ألقاب خاوية ! أجل ! لقد صدر الأمر

بأن يستوى غيركم ويستأثر لنفسه ٧٧٥

بالسلطان كله ! لقد طمس أنوارنا جميعا إذ اتخذ اسم

الملك المسيح ! لقد تعجلنا على هذا النحو

فطرنا فى منتصف الليل وأهرعنا لنجتمع هنا

لنتشاور وحسب فى الطريقة المثلى لتكريمه

أو ما يُبتدع من سبل التشريف الجديدة التى تليق ٧٨٠

باستقباله ! إنه سيأتى ليتلقى منا

ما لم نؤده بَعْدُ من ركوع وخضوع ، وذليل سجود وخشوع !

لقد كنا نستكثر ذلك على الإله الواحد ، فكيف نتحمله مضاعفاً

أى للواحد ولمن يعلن الآن أنه صورة منه ؟

ولكن ربما استطعنا بتشاورنا وتناصحنا أن نحزم أمرنا ٧٨٥

فنجد السبيل إلى الفكاك من هذا النِّير ؟

هل تسلمون رقابكم له ؟ أم تفضلون أن تنحنى له

قاماتكم بيسر ؟ لن تفعلوا ذلك إذا صدقت

معرفتى بكم ، أو إذا كنتم تعرفون أنكم

من أهل السماء وأبنائها ، لم يستعبدكم من قبل ٧٩٠
أحد ، فإن لم تكونوا متساوين فى الدرجة فأنتم أحرار
وسواسية فى الحرية ! إن الطبقات والدرجات
لا تجور على الحرية بل تثبتها وتؤكدها
من ذا الذى يستطيع أن يزعم لنفسه بالمنطق أو بالحق
المُلْك على من هم بالحق أنداد له ؟ ٧٩٥
وإذا كانوا يقلون عنه فى السلطان أو البهاء
فهم فى الحرية سواء . من ذا الذى يستطيع أن يفرض
علينا الشرائع والقرارات ، ونحن دون شرائع
لا نخطىء أبدا ؟ أَهْوِنْ به إذن من دافع للسيادة
وطلب العبادة ! إنه لينتهك ٨٠٠
ألقابنا الملكية التى تؤكد أننا
قد كتب لنا أن نحكم لا أن نخدم !

إلى هنا كان الخطاب الجسور ينطلق دون قيود
فيملك الأسماع ، حين هب من بين ملائكة الصاروفيم
ملاك اسمه (عبديئيل) ، لم يكن أحد أشد منه إخلاصا فى عبادة ٨٠٥
الله وطاعة أوامره القدسية ،
هب واقفاً وانطلق فى وقدة حمية ملتهبة

يصب دافق غضبه معترضا على إبليس فقال :
يالحديث الإفك والكفر والكبرياء !
كلمات ما توقعت سماعها الآذان فى السماء ! ٨١٠
وبخاصة منك أيها الجحود
الذى علت منزلته على أقرانه عُلُواً كبيراً !
كيف كفرت فاتهمت فأدنت
القرار العادل الذى أعلنه الله فأكده بالقسم ؟
لقد أسبغ الله بالحق على ابنه الوحيد ٨١٥
صولجان الملك ومن ثم ينبغى على كل من فى السماء
أن ينحنوا له فيشرفوه التشريف الخليق به
ويعترفوا به بالحق ملكا عليهم ! تقول إنه ليس من العدل
بل من الظلم الصريح أن تشرع الشرائع الملزمة للأحرار
وأن يكون لأحدهم الملك على من يساوونه فى المنزلة ٨٢٠
وفوق الجميع واحد سلطانه أزلى لا يُورّث ؟
أَفَتُشَرِّعُ أنت الشرائع لله يا إبليس ؟ أتجادله
فى حدود الحرية وهو الذى خلقك
بما أنت عليه وَصوّر ملائكة السماء
وفق مشيئته فوضع حدود كيانهم ؟ ٨٢٥

لقد علمتنا الخبرة مدى خيره الممدود
وعرفنا مما نهنأ به من خيرٍ وكرامةٍ
مدى عنايته الإلهية ، وعرفنا أنه لا يعتزم
الحط من شأننا بل زيادة رفعتنا
ونعيمنا في ظل رئيس واحد أقرب إلى ٨٣٠
التوحّد معنا . ولكن فلنفترض أنه من الظلم كما تقول
أن يحكم ملك على من يساوونه في المنزلة !
هل تعتبر نفسك رغم عظمتك وبهائك - بل هل تعتبر
أن جميع خصال الملائكة لو جمعت في واحد - يمكن أن
تتساوى مع ابنه الذى أنجبه ؟ لقد خلق ٨٣٥
الأب الجبار منه جميع الأشياء فهو كلمته ،
بل خلقك أنت منه وجميع ملائكة السماء
التى خلقها - بدرجات بهاء متفاوتة -
فكللها بالمجد ، ثم أضاف أسماء الطبقات ، فمنها
العروش والسلاطين والإمارات والفضائل والرياسات ٨٤٠
- وهى قوى الأساس ! ولكن ملكه لم يخسف ضياءها
بل زادها إشراقا ! إنه حين ترأسنا
أصبح واحداً منا ومن ثم تَدَنَّى فأمست

شرائعه شرائعنا وكل شرف يناله

يعود إلينا ! كُفَّ إذن عن سَوْرَةِ الكفر ٨٤٥

ولا تُغْوِ هؤلاء ! والأحرى بك أن تَعْجَلَ بإرضاء

الأب الغضبان ، والابن الغضبان

وفى الوقت متسع لطلب الصفح والغفران !

وانتهى حديث الملاك الجياش ، ولكن حماسه

لم يلق من يؤيده ، إذ رأوه حماساً فى غير وقته ٨٥٠

أو غريباً طائشاً . وهكذا تهلل وجه

المارق المرتد ، وعلا محياه المزيد من الصلف وقال :

أتقول إننا صُوِّرنا إذن ؟ وأن أيد أخرى

هى التى صَوَّرتنا إذ فوض الأب

ابنه فى القيام بالعمل ؟ فكرة غريبة وجديدة ! ٨٥٥

ليتنا نعرف من أين أتيت بهذا المذهب ، إذ من ذا الذى شهد

هذا الخلق حين كان ؟ أتذكر أنت

خلقك ؟ أتذكر متى وهبك الخالق كيانك ؟

لا نعرف زمناً لم نكن فيه ما نحن الآن !

لا نعرف أحدا سبقنا ، فلقد أنجبنا أنفسنا ، وأنشأنا ذواتنا ٨٦٠

بقوة الحياة الكامنة فينا ، حين دارت دورة المصير

فى فلكها فاكتملت وآن موعد مولدنا
من هذه السماء ، وطننا نحن أبناء الأثير !
إن قوتنا فى ذواتنا ، ويدنا اليمنى
سترشدنا إلى أرفع فعال حين نختبر بالقوة ٨٦٥
من هو مساوٍ لنا ! ولسوف ترى إن كنا
نعتزم مخاطبته تضرعاً وخيفة ، وإن كنا
سنحيط بعرش الجبار
للتوسل إليه أم لحصاره ! فلتحمل هذا الخبر
بل طر بهذه الأنباء إلى الملك المسيح ٨٧٠
وأسرع قبل أن يعترض الشر سبيلك !

قالها فدوّى التصفيق كأنه هدير مياه المحيط
يُرجع مبحوحاً صدى صوته ويموج به
الحشد الحاشد . ولكن ذلك لم يعق
ملاك الصاروفيم المقدام الأحمس من الرد عليه ! فرغم وحدته ٨٧٥
ومحاصرة الأعداء له جاء رده الجسور قائلا :
يا من ابتعدت عن الله ! أيها الجنى الملعون
يا من نبذ الخير كله ! أرى سقوطك
محتوماً أنت ورفاقك التعساء الذين شاركوك

فتنة الخيانة فأصابتهم عدوى ٨٨٠
جريمتك ونالهم مثل عقابك !
لا تشغل بالك بعد الآن بالخلاص من نير
مسيح الله ! إذ لن تَمَسَّكَ بعد الآن شريعة غفرانه
أو تشملك برحمتها بل إن قرارات أخرى
قد صدرت ضدك ولا رادّ لها ! ٨٨٥
أما الصولجان الذهبى الذى رفضته فقد تحول
الآن إلى قضيب حديدى يضرب فيحطم
عصيانك ! لنعم ما أوصيتنى به
ولكننى لا أهرع تحقيقاً لوصية أو خوفا من تهديد
بل أترك هذه الخيام الخبيثة الهالكة خشية غضبةٍ ٨٩٠
وشيكةٍ قد تنفجر لهباً مفاجئاً
لا يفرق بين الطيب والخبيث ! ولن يلبث أن ينقض
رعده على أم رأسك وتزدردك نيرانه ،
وستعرف نادباً من الذى خلقك
حين تعرف من يستطيع أن يحيلك عدما ! ٨٩٥
وصمت (عبديئيل) ملاك الصاروفيم الذى أثبت إيمانه
بل كان المؤمن الوحيد بين الكفار !

كان الأمين الوحيد بين ما لا يحصى من الخونة .

لم يتزعزع ولم يخف ولم يُغْوَ

بل حافظ على إخلاصه وحبه وحماسه ! ٩٠٠

لم تجرفه أعدادهم الهائلة ولم يحتذ المثل الذى ضربوه

فيحيد عن الحق أو ينزل عن رأيه الثابت

رغم وحدته ! وهكذا تقدم فى وسطهم ،

شاقاً طريقه الطويل وسط الازدراء والعداء ! ولكنه احتمل ذلك

وتعالى عليه دون أن يخشى أذى يصيبه ٩٠٥

ثم أدار ظهره فى ازدراء مماثل

لقلاع الكبرياء التى كتب عليها الهلاك العاجل .

# الكتاب السادس

## الموضوع

يواصل روفائيل روايته فيحكى كيف أرسل ميكائيل وجبريل لمنازلة إبليس وملائكته . وصف المعركة الأولى . يتراجع إبليس وقواته تحت ستار الليل ثم يعقد مجلسًا ويخترع آلات حرب شيطانية تستخدم فى اليوم الثانى ضد ميكائيل وجبريل وملائكتهما وتوقع بعض الفوضى فى صفوفهما . ولكنهما فى النهاية يقتلعون بعض الجبال فيكتسحون قوات إبليس وآلاته . بيد أن المعركة لم تنته بعد . وفى اليوم الثالث يرسل الله ابنه المسيح - وقد خصه بمجد النصر - ينزل المسيح إلى الميدان مفوضًا قوة أبيه فيأمر فرقه أن تقف ساكنة على الجانبين بينما يندفع راعدًا بعجلاته الحربية وسط الأعداء الذين عجزوا على المقاومة فيطاردهم حتى جدار السماء . وينفتح الجدار فيلقى بهم وقد شملهم الرعب والاضطراب فى الهوة السحيقة التى أعدت لعقابهم ، بينما يعود المسيح ظافرًا إلى أبيه .

ظل الملاك المقدام يسير طول الليل غير مُقْتَفًى

فى سهول السماء الشاسعة حتى بزغ الفجر الذى

أيقظته دورة الساعات ، فمد يده الوردية

ليفتح أبواب الضياء !

فى جبل الله كهفٌ يجاور عرشه ٥

يغشاه النور ثم يغشاه الظلام فى دورة دائمة ،

فهما يتناوبان عليه ويتعاقبان فى السماء

تعاقبًا جميلاً مثل تعاقب الليل والنهار !

وحين ينبعث الضوء من باب ، يدخل الظلام من الباب الآخر

فى أعقابه حتى تحين الساعة التى يلقى فيها ١٠

لثامه على السماء - ولو أن الظلام هناك

أشبه بالشفق هنا ! أما الآن فالصباح يتقدم

فى السموات العُلَى مُوشًّى بعسجد

من السماء ومن أمامه يتلاشى الليل الذى

انتهكت أستاره أشعة الشرق ! ولاحت أرجاء السهل ١٥

الذى احتشدت فيه الفيالق الوضاءة المصطفة للحرب ،

والعجلات الحربية والأسلحة البراقة والخيول النارية

التى تشع وهجًا من فوق وهج ! كانت أول ما أبصر

فأدرك أنها الحرب ، بل هى الحرب التى يعدون لها ، ووجد
أنهم يحيطون بما كان يظنه أنباء جاء ٢٠
يحملها إليهم ! وسره ذلك فانخرط
فى صفوف أنصاره من الأجناد الذين استقبلوه
بالترحاب والتهليل المدوّى ، فرحين بأن واحدًا
قد نجا من بين الألوف التى سقطت ، وأن واحدًا
قد عاد دون خسران ! ثم مضوا به إلى التل المقدس ٢٥
وهم يحيونه ويهتفون له ، ثم قدموه
بين يدى الكرسى الأسمى . ومن ثم انبعث صوت
من وسط سحابة ذهبية يقول فى نبرات لطيفة :
يا عبد الله ! لنعم ما فعلت ! أنعم بجهادك
الجهاد الأحسن إذ صمدت وحدك ٣٠
ضد حشود المارقين فانتصرت لقضية
الحق ! لقد كانت كلمتك أقوى من سيوفهم !
بل لقد تحملت حين شهدت للحق
مرارة اللوم من الجميع ، وهى أثقل وأوجع
من إيذاء الجسد . وما كان همك إلا ٣٥
أن تنال رضى الله ، رغم العالمين

الذين رموك بالضلال ! ما أيسر الغلبة لك الآن
حين تعود إليهم يؤازرك هذا الحشد من الخلصاء !
إنك لتعود إلى أعدائك فى أمجاد
تفوق ما رحلت فيه من ازدراء ! ولسوف تخضعهم ٤٠
بالقوة ، لأنهم لا يقبلون العقل شريعة
ولا الضمير ! لا بل ولا أن يكون المُلْك عليهم
للمسيح ، وهو الذى يحكم لأنه حرى بالحكم وحقيق به !
هيا يا ميكائيل ! يا أمير جيوش السماء !
وأنت يا من تليه براعة وتمكنا من فنون الحرب ٤٥
يا جبريل ! قودا إلى حرمة الوغى أبنائى الذين
لا يقهرون ! قودا ملائكتى المدججين بالسلاح -
ألوفا وملايين مصطفين للقتال
إنهم يمثلون فى عددهم ذلك الجمع من الكفرة
المتمردين ! انقضوا عليهم بالنيران وأسلحة الفتك ٥٠
واستبسلوا فطاردوهم إلى تخوم السماء
وأخرجوهم من كنف الله ونعيمه
وألقوا بهم فى مقر عقابهم ، فى بحيرة
الجحيم التى استعدت ففغرت فاها

من نيران العماء لتلقفهم ساقطين ! ٥٥

بهذا نطق الملك ، فشرعت السحب

تظلم أرجاء التل ، والدخان يتكور

فى طاقات دكناء ، وألسنة اللهب تتلوى ، آيات

على صحوة الغضب ! وما كان أقل رهبة منها دوى ذلك

البوق الأثيرى الذى نُفخ فيه من عل ! ٦٠

وإذ صدر ذلك الأمر ، هبت قوى المقاتلين

المدافعين عن السماء فترابطت فصائلهم الأربع

فى وحدة قاهرة ، وتقدمت

كتائبهم الوضاءة فى صمت على أنغام

متوافقة تعزفها آلات تبعث أنفاس ٦٥

الحماس والبطولة ، وتحث على خطير الفعال ،

ويقودها زعماؤهم النورانيون خارجين فى سبيل

الله والمسيح . وظلوا يتقدمون

فى ثبات لا تنفصم عراه ، فما أفلح تل يعترض سبيلهم

أو واد يضيق أمامهم ، لا بل ولا استطاعت الغابات والأنهار أن تفرق ٧٠

صفوفهم المحكمة . كانت خطاهم تعلو على الأرض

فى سيرهم ، وكان الهواء المطيع يحتمل

خفيف خطوهم ، مثلما احتمل شتى أنواع

الطير التى انتظمت صفوفها فى الفضاء

وجاءت طائرة فوق عدن ، حين دعيت إليك لتتلقى ٧٥

منك أسماءها ، فكم من أصقاع

السماء عبرت ، وكم من إقليم شاسع يبلغ

عشرة أمثال هذه الأرض طولاً ! وأخيراً

لاحت على البعد فى الأفق الشمالى

بقعة من نار تمتد من أقصاه إلى أقصاه ٨٠

وعلى محياها الحرب ! وعندما اقتربوا منها بدت

شائكة بأعداد لا تحصى من القناْ المرفوعة

والحراب الصلبة والخوذ المحتشدة والدروع المنوعة

التى صورت عليها شعارات التفاخر والتباهى - كانت

قوات إبليس المتضافرة تهرع إليهم ٨٥

وتسرع فى سورة غضبها ! كانوا يظنون أنهم

يستطيعون بالحرب أو المفاجأة ذلك اليوم

أن يستولوا على جبل الله ، وأن يُنَصِّبُوا على عرشه

من يحسده على منزلته ، ذلك المتباهى

الطامح ، ولكن ثبت ضلالهم وبطلان ظنونهم ٩٠

فى وسط الطريق ، وكم بدا من الغريب لنا
فى البداية أن يتقاتل الملائكة
ويلتقوا فى نزال طاحن ضروس ، بعد أن كانوا يتلاقون
كثيرًا فى أعياد الفرح والحب
يدًا واحدة وأبناء لوالد واحد عظيم ٩٥
فيسبحون بحمد الأب الأزلى ! ولكن صيحة
المعركة بدأت تدوى ، وصوت الانقضاض الذى
يؤذن بدنو الاشتباك سرعان ما بدد أفكار السلم !
وعاليًا فى الوسط ، رفيعًا مثل الأرباب
جلس المارق فى عربته الحربية المتوهجة توهج الشمس ١٠٠
صنمًا لجلالة قدسية ، تحيط به
ملائكة الشاروبيم البراقة والدروع الذهبية
ثم نزل من عرشه الفخم ، فالآن
لا تفصل بين الجانبين سوى رقعةٍ ضيقةٍ
وفاصلةٍ رهيبةٍ ! كانوا يواجهون بعضهم بعضًا ١٠٥
واقفين فى نسق يبعث الرعب
وصفوف لا حد لطولها ! وأمام المقدمة الغائمة
عند خط المواجهة المتعرج قبل موقع الالتحام

كان إبليس يتقدم بخطى عملاقة مزهوة

ويعلو بهامته علي الجميع مدججا بالصلب والنضار ! ١١٠

ولم يطق (عبديئيل) أن يرى ذلك من حيث كان يقف

بين أعتى العتاة الذى عقدوا العزم على أرفع الفعال

فجاش فى قلبه المقدام حديث كشف مكنونه قائلاً

يا للسماء ! أما يزال شبيهًا بالأعلى إلى هذا الحد

بعد أن ولّى إيمانه وإخلاصه ؟ ١١٥

لماذا لا تخور قواه ويذهب جبروته

بذهاب فضائله ؟ ولعل ضعفه يزداد

بازدياد جرأته رغم مظهره الذى لا يقهر !

إننى أتوكل على الله القهار وأستعين به

فى اختبار مدى قوته ، بعد أن ثبت لى خطل رأيه ١٢٠

وضلال قلبه ، فالعدل يقضى

أن من يهزم خصمه فى ساحة الحق

ينبغى أن يهزمه فى ساحة القتال ، فيخرج من النزاعين

منتصرًا ! وعلى حطة النزال وشره

حين يضطر العقل إلى ملاقاة القوة فإن ١٢٥

أرفع درجات العقل هى هزيمة منطق القوة !

وفرغ من تأملاته فترك أقرانه المدججين

وخطا إلى الأمام فواجه فى منتصف الطريق

عدوه الجسور . وزاده اعتراضه

غضبًا وحنقًا فتحداه فى ثقة قائلاً : ١٣٠

ترى هل تصدى لك أحد أيها المتكبر ؟ كنت تأمل أن تبلغ

ذروة ما تطمح فيه دون نزال

فتثب على عرش الله وقد تركه الحرس

وفر أجناده فى ذعر من جبروتك

أو من لسانك اللاذع ! ما أضلك إذ غفلت عن عبث ١٣٥

التطاول بالسلاح على القهار

الذى يستطيع أن يحيل أتفه الأشياء

إلى جيوش جرارة لا نهاية لها ليسحق

حمقك ! بل يستطيع أن يمد يدًا واحدة

تدرك أقصى الأقاصى فيضربك ضربة واحدة ١٤٠

يقضى بها عليك دون معين ويسحق

كتائبك فى جنح الظلام . ولكن انظر فلسوف ترى

أن الجميع لم يتبعوك ، فمنهم من استمسك بالإيمان

وتقوى الله ، على أنك آنذاك

لم تكن تراهم ، وكنت تظن أننى وحدى ١٤٥
قد خالفت الجميع فضللت فى عالمك !
انظر تدرك معدن أنصارى ، ولتدرك بعد فوات الوقت
كيف تصيب القلة أحيانًا وتضل الألوف !

ونظر العدو الأكبر شزرا إليه وحدجه باحتقار
قائلاً : الويل لك فى ساعة انتقامى المنشودة ! ١٥٠
فلسوف أطلبك أولاً أيها الآبق العائد !
أيها الملاك المنشق الذى عاد ليلقى
جزاءً وفاقًا فى أول اختبار
لهذه اليد اليمنى ! لقد أغضبها لسانك
الذى أوعز إليه بالمناوءة فاجترأ على تحدى ١٥٥
ثلث الأرباب الذين التقوا فى مجلسهم
ليؤكدوا ربوبيتهم والذين يحسون أن
الطاقة القدسية فى باطنهم تنكر
وجود من هو على كل شىء قدير . لقد سبقت
رفاقك طمعًا فى الظفر منى ١٦٠
بنصر يكلل هامتك ! لا بأس ! فربما كانت عاقبتك نذيراً
بالهلاك لسائر رهطك ! ولكننى سأتمهل حتى أجيب على قولك

(خشية أن تزهو إذ لم أفعل) وحتى أحيطك بالأمر علما :

كنت أظن أولاً أن الحرية والسماء

مبسوطتان لأرواح السماء دون تفاوت . ولكننى الآن ١٦٥

أدرك أن أكثرهم كسالى يفضلون العبادة

فهم أرواح خادمة دربت على فنون الولائم والأغانى !

إنك حين أعطيت السلاح لأمثال هؤلاء من منشدى السماء

فقد جعلت العبيد يقارعون الأحرار

كما سيثبت لك اليوم من مقارنة أداء الفريقين ! ١٧٠

وأجابه (عبديئيل) فى اقتضاب وصرامة قائلاً :

لقد ضَلَلْتَ أيها المارق ! بل لا حَدَّ

لضلالك وبعدك عن صراط الحق المستقيم !

لقد ظَلَمْتَ إذ وَصَمْتَ

بالعبودية من يعبدون من قضى الله ١٧٥

أو قضت الطبيعة أن يعبد ! فقضاء الله وقضاء الطبيعة واحد

حين يكون الحاكم خير الحاكمين ، وحين يمتاز

على من يحكمهم . أما العبودية فهى

عبادة الأحمق أو عبادة من تمرد

على من هم أفضل منه ، كعبادة أتباعك إياك الآن ١٨٠

وما أنت نفسك بحُرٍّ ، بل أنت عبد ذاتك

ومع ذلك تجرؤ فتهاجمنا فى وقاحة لأننا نعبد الله !

فلتكن سيدا فى الجحيم - مملكتك - ولأكن عبدًا

فى السماء يباركنى الله أبدا وأطيع

أوامره القدسية ، فهى أخلق ما يطاع ! ١٨٥

لا تتطلع فى الجحيم إلى الممالك بل إلى السلاسل والأغلال ! أما الآن

فتلق هذه الضربة منى - أنا الآبق العائد كما تقول !

خذها تحية لناصيتك الكافرة !

قالها ثم رفع يده النبيلة عاليًا

وما كادت ترتفع حتى هوت منقضة كالصاعقة ١٩٠

على ناصية إبليس الصلفة حتى ما أدركها البصر

وما أدركتها سرعة الفكر اللماح ، بل وما استطاع درعه

أن يحول دون انقضاضها ! وتراجع عشر خطوات هائلة

ناكصًا على عقبيه ، وفى الخطوة العاشرة هوى على ركبته

متكئًا على رمحه الضخم ، فكأنما هبت فى باطن الأرض ١٩٥

الريح أو اندفعت المياه فى سيل العرم

فزحزحت جبلاً من قاعدته

فغاص فى الأرض بأشجار الصنوبر من فوق رأسه ! واستولت الدهشة

على الملائكة المتمردين ، ولكن غضبتهم كانت أكبر ، اذ شاهدوا
وقعة أعتى جبابرتهم ، بينما أفعم الفرح صناديدنا فصاحوا صيحة ٢٠٠
تبشر بالنصر وتفصح عن الرغبة الجائحة
فى القتال . وعندها أمر ميكائيل بأن ينفخ
فى بوق الملاك الأكبر ، فدوى صوته فى أقطار السماء الشاسعة
وصدرت من جيوش المؤمنين
التسابيح للأعلى ! وبعد وقوف وتحديق ذاهل ٢٠٥
تحركت فرق الأعداء فأحدثت دويًا بشعًا إذ اشتبكت
مع الخصم شائكة السلاح ! وهب الغضب العاصف
والضجيج الذى لم يُسمع مثله فى السماء
فاصطكت السيوف بالدروع فى قعقعة
مخيفة وجلبة نشزة ودارت العجلات المسعورة ٢١٠
بعرباتها النحاسية فأطلقت سعارها ! كان صخب
القتال رهيبًا ، بينما انطلق الأزيز المفزع من فوقهم
حين طارت السهام النارية فى وابل من اللهب
فأقامت سرادقا من النار فوق الجانبين .
وهكذا اندفع تحت هذه القبة النارية ٢١٥
قلبا الجيشين فى هجمة كاسحة

وغضبة لا ينطفىء أوارها . ورجّعت أرجاء السماء
أصداء القتال ، ولو كانت الأرض قد خُلقَت أنئذ
لزلزلت الأرض حتى مركزها ! ولا غرو ! فعندما تلاقى
ملايين الملائكة فى شراسة واشتبك ٢٢٠
الجانبان ، كان يستطيع أدناهم أن يقبض على
عناصرها الأربعة فيتسلح بالقوة الكامنة
فى أصقاع الأرض جميعًا ! هل كان ثم ما يزيد قوة
عن هذين الجيشين بأعدادهما التى لا تحصى ؟ لقد أثارا
اضطرابا رهيبًا فى اصطراعهما حتى كادا أن يزعزعا ٢٢٥
دون أن يدمرا موطن هنائهما الأول
لولا أن الملك الأزلى القادر على كل شىء قد قضى
من عرش عزته الرفيع فى السماء بحصر
قواهما والحد من جبروتهما . وعلى كثرة أعدادهما -
إذ بدت كل فصيلة من الفصائل ٢٣٠
حشدًا كبيرًا - كانت كل يد تحمل السلاح
كالفصيلة فى قوتها ! كان لهم قادة ولكن
كل مقاتل كان يبدو قائدًا ، بل كأنما هو قائد أعلى ، فهو خبير
يعرف متى يكر ومتى يثبت ومتى يُدير رحى

المعركة ، بل يعرف متى يفتح الصفوف ومتى يغلقها – ٢٣٥
صفوف الحرب الجهمة ! لم يدر بخلده أن يفر
أو يتراجع أو يفعل ما لا يليق مما
يفصح عن الخوف . كان كل منهم يعتمد على نفسه
ففى ذراعه وحده تكمن قوة
النصر . كم من الفعال ذات الذكر الخالد ٢٤٠
قد وقعت ولا انتهاء لها ! فقد اتسع نطاق
تلك الحرب وتعددت صورها ، فأحيانًا تدور على الأرض الصلبه
حيث اقتتلوا راجلين ، وأحيانًا فى الجو حيث حلقوا طائرين
فأذاقوا الهواء مر العذاب ، بل إنك لتخال الهواء كله
سعيرًا مصطرعًا ! وتعادلت كفتا المعركة ٢٤٥
ردحا طويلا من الزمن ، حتى هب إبليس الذى أظهر ذلك اليوم
قوة رائعة ، ولم ينازل فيه
ندًا له ، فاخترق صفوف الهجمة الضارية التى
شنها ملائكة الصاروفيم فأربكها ، وأخيرًا
رأى أيَّان يهوى سيف ميكائيل فيجندل ٢٥٠
كتائب برمتها ! كان حسامه مزدوج المقبض عظيم القوى
وكان يرفعه عاليًا ثم يهوى بحده القاطع الرهيب

ليطيح بالقاصى والدانى . وأهرع ابليس لصد هذا الهلاك
فدفع بدرعه الصخرى الضخم الذى
ضوعفت طبقاته الصلدة عشر مرات - درعه العريض ٢٥٥
ذى المحيط الشاسع . وعند اقترابه
كف الملاك الأكبر الجبار عن القتال
إذ أسعده الأمل فى إنهاء
الحرب الدائرة بين أهل السماء ، وكسر شوكة العدو الأكبر
أو أخذه أسيرًا مغلولاً فى الأصفاد . فتجهم فى عداء ٢٦٠
واستعر وجهه غضبا وشرع يخاطبه قائلاً :

يا من أبدعت الشر ! لقد كان مجهولاً حتى تمردت
ولم يكن له اسم فى السماء ثم استشرى كما ترى
فى هذا الاقتتال البغيض ! وإذا كان يبغضه الجميع
فهو بالعدل أثقل وطأة عليك ٢٦٥
وعلى أتباعك . أنّى انتهكت
السلام المبارك فى السماء ، واستحدثت فى الطبيعة
الشقاء ، فهو لم يخلق حتى أجرمت
فتمردت ! كيف أشربت
الآلاف ضغينتك فتحولوا بعد استقامتهم ٢٧٠

وإيمانهم إلى الختر والغدر ! لكن لا تظنن أنك
سوف تكدر السكينة القدسية ، إذ ستلفظك السماء
من شتى تخومها . إن السماء مقام النعيم وهى
لا تصبر على التناحر والحرب .
اخرج منها إذن وليخرج الشر معك ٢٧٥
فهو وليدك ! هيا إلى مثوى الشر ، إلى الجحيم ،
أنت وأتباعك الخبثاء ، فاصطرعوا هناك
قبل أن ينقض سيف انتقامى هذا فيقضى عليك
أو يرسل الله انتقامه المجنح بغتة
فيلقى بك من حالق ويزيد من آلام عذابك ! ٢٨٠
وفرغ أمير الملائكة من حديثه فأجابه
الشيطان قائلاً : بل لا تَظُنَّنَّ أنك تستطيع إخافتى بخواء
الوعيد وهباء التهديد بعد أن عجزت عن ذلك
بالفعل والعمل . لقد عجزت عن إجبار أدنانا
على الفرار ، وإذا وقعوا فإنهم ينهضون ٢٨٥
ولا ينهزمون . أترى من الأيسر عليك أن تتفاوض معى
وتأمل أن يفلح تجبرك ووعيدك
فى إخراجى من هنا ؟ لا تخطىء فتظن هذه نهاية

الصراع الذى تسميه شراً ، فإنما نحن نخط

صراع المجد ، ونعتزم أن ننتصر ٢٩٠

أو نحيل هذه السماء نفسها إلى الجحيم الذى

تتخيل وجوده ، فنقيم أحرارا هنا

ولو لم يَدِنْ لنا المُلْك ! أما الآن فاستجمع أقصى قوتك

وانشد مؤازرة من يسمى بالجبار

فأنا لا أولّى الأدبار بل أسعى إليك فى كل مكان ! ٢٩٥

وفرغا من التطارح فاستعدا لقتال

يشق وصفه . إذ من يستطيع ولو أوتى لسان الملائكة

أن يقص خبر هذه الأحداث ، وكيف يجد لها

المثيل مما يحدث على الأرض ونعرفه ؟ إن هذا ليرقى

بمخيلة الإنسان إلى ذرا ٣٠٠

طاقة الأرباب ! كانا يشبهان الأرباب

واقفين أو سائرين ، فى القامة والحركة والسلاح ،

خليقين بأن يفصلا فى مآل مملكة السماء العظمى !

وطفق سيفاهما الناريان يتراقصان ويدوران فى الهواء

دورات رهيبة ، وأما درعاهما فكل منهما شمس عريضة ٣٠٥

وهما يتوهجان ويتقابلان ، بينما كان الترقب يقف

في وجل ! وتراجع حشد الملائكة مسرعين عن كل جانب

حيث كانوا يشتبكون في أشد قتال

فخلفوا ساحة شاسعة ، إذ لم يأمنوا وقوفهم في مهب الريح

من هذا الاصطراع ! كان يشبه - إن ضربنا ٣١٠

الأقلَّ مثلاً للأعظم - انفصام عرى التوافق في الطبيعة

ونشوب الحرب بين كوكبات الأفلاك ! بل لكأنما

اندفع كوكبان من مواقع نذر السوء

والتعارض الضاري في سمت السماء

فتقاتلا واصطكت أجسامهما فَتَفَتَّتَتْ ! ٣١٥

ورفع كل منهما ذراعا لا يكاد يدانيه ذراع في قوته

وصوبه ليضرب ضربةً واحدةً توشك أن تهوى

فتقضي في الأمر - ضربة لا حاجة لتكرارها

بل لا يمكن تكرارها الآن ! لم يكن ثم ما يفرق في الظاهر بينهما

لا في الجبروت ولا في التوقّي الخاطف ، ولكن حسام ٣٢٠

ميكائيل كان من أسلحة الله

وقد أوتيه بعد أن صُقل وثُقف

فما يمتنع على حَدِّه صلبٌ أو حاد ! والتقى الحسام

بسيف إبليس ، وصكه بقوة

وهو يهوى منقضًا فشق نصله شقين ! وما توقف ٣٢٥
بل دار دورة مسرعة وأوغل فيه فشطر
جانبه الأيمن كُلَّه ! وأحس إبليس لأول مرة بالألم ،
وأخذ يتلوى ويلتفّ ، إلى الأمام وإلى الخلف ، إذ ما أشد ألم
السيف البتار وهو يجرحه الجرح النافذ
ويجوس فى جسده ! ولكن مادته الأثيرية التأمت ٣٣٠
ولم تلبث أن التحمت ، ومن الجرح
تدفق سيل من رحيق فياض
وردى - وهو ما تدمى به ملائكة السماء -
فلطخ دروعه جميعًا بعد أن كانت تبرق وهاجة !
وعلى الفور أهرعت لإنقاذه من كل جانب ٣٣٥
حشود الملائكة الأقوياء الذين تصدوا
للدفاع عنه ، بينما حمله آخرون على دروعهم
وعادوا به إلى عربته وكانت تقف بعيدًا بمعزلٍ
عن صفوف المحاربين ، فوضعوه فيها ، فأخذ
يصر بأسنانه من بالغ الألم والحقد والعار ٣٤٠
إذ تبين أنه ليس فريدًا ، ورأى أن كبرياءه
قد امتهنت بهذا العقاب الذى زلزل

ثقته فى أن يماثل الله فى قوته

وسرعان ما برىء الجرح . إذ إن الملائكة التى تحيا حياة

تنبض فى كافة أعضائها ولا تقتصر مثل الإنسان الضعيف ٣٤٥

على الأمعاء أو القلب أو الرأس أو الكبد أو الكليتين

لا تموت إلا إذا فنيت الفناء التام

ولا تصيب الجروح القاتلة كيانها السائل

إلا كما تصيب الجروحُ الهواءَ السيال !

فكيانها الحى كله قلب ، وكله رأس ، وكله عين، وكله أذن، ٣٥٠

وكله ذهن، وكله حس ، وهى تُغَيِّر كما تشاء

من أطرافها وتكتسب من اللون والشكل والحجم

ما تحب ، فى كيان كثيف أو مخلخل !

وفى تلك الأثناء وقعت فعال أخرى تستحق

الذكر ، إذ قاتل جبريل بجبروته ٣٥٥

واخترقت بيارقه الضاربة الكتائب المتراصة حيث حشدها

الملك الأشرس (ملكوم) وحيث تحداه للنزال

بل وهدده بأن يجره مربوطًا إلى عجلات عربته ،

لا بل ولم يتورع عن المساس بقدسية واحد السماء الأحد

ولم يكف عنه لسان زندقته ! ولكنه سرعان ٣٦٠

ما انشطر شطرين حتى الوسط ، وانكسرت أسلحته
وحلّت به آلام عجيبة ففر وهو يجأر ويخور ! وعلى الجناحين
كان كل من (أوريل) و (روفائيل) قد قهر عدوه المتباهى
على ضخامته ورغم احتمائه بدرع من صخر الماس !
لقد قهرا (أدْرَمَّلَك) و (أصمداى) وهما من ذوى ٣٦٥
العروش الأقوياء الذين رفضوا مكانة أدنى من الأرباب
ولكن الفرار علّمهما التواضع
بعد أن شوهتهما الجراح المفزعة النافذة من الدروع والزرود !
ولم ينس (عبديئيل) مهاجمة
رهط العصاة ، فسدد ضرباته مضاعفة إلى ٣٧٠
(آريئيل) و (أريوك) ، وقمع شراسة
(راميل) وحرّقه فانقلب شر منقلب !
وليتنى أقص خبر الآلاف الآخرين فأخلّد
أسماءهم هنا على الأرض ، ولكن أولئك الصفوة من
الملائكة قانعون بذيوعها فى السماء ٣٧٥
ولا ينشدون ثناء البشر . أما الصنف الآخر
فمع عجيب جبروتهم وألوان قتالهم ،
ومع أنهم لا يقلون حماسًا وذيوعًا ، فقد قُضى

بإقصائهم من السماء ومن الذاكرة القدسية -
فليأووا إذن دون أسماء إلى بهمة النسيان ! ٣٨٠
فالقوة إذا انحرفت عن الحق والعدل
لم تعد جديرة بالثناء ، ولا تستحق إلا القدح
والعار ! إنها تطمح إلى المجد
بباطل الأمجاد وتنشد طيب الذكر بخبيث الفعال !
فليكن صمت الأزل مصيرهم إذن ! ٣٨٥

وبعد إخماد أعتاهم ، تحول مسار الموقعة
فسالت الدماء من كثرة الهجمات ، ولاحت الهزيمة الشائهة
والفوضى النكراء ، واكتست الأرض
بالدروع المحطمة ، وفى كومة واحدة
أهيلت العربات المقلوبة ، وقوادها ٣٩٠
والجياد النارية التى ترغى وتزبد ! أما من وقفوا فقد تراجعوا
وسط حشود إبليس الواهية وقد هَدَّهُم الإعياء
وأعجزهم الدفاع ! أما حين يفاجئهم الخوف الشاحب -
فلأول مرة يفاجئهم الخوف ويحسون الألم -
فهم يفرون فراراً شائنًا ! هذا سوء المصير الذى أتى به ٣٩٥
إثم العصيان فما كانوا حتى تلك الساعة

يعرفون الخوف ولا الفرار ولا الألم !
شتان بينهم وبين عصمة الأطهار الذين
كانوا يتقدمون جميعا فى كتيبة مكعبة ثابتى الخطى ،
لا يمسهم سلاح ولا يُخترق لهم درع ! ٤٠٠
تلك هى المزايا الكبرى التى امتازوا بها - لطهرهم -
على أعدائهم : إذ إنهم لم يأثموا
ولم يعصوا ! وهكذا ثبتوا فى القتال
لا يكل لهم كلال ، ولا يستشعرون ألم
الجراح ، حتى ولو زُحزحوا من مكانهم عَنوة ! ٤٠٥

أما الآن فقد بدأ الليل مسيرته فبسط على السماء
ظلمته ، وفرض على المحاربين هدنة رغيبة
وصمتًا على جلبة الحرب البغيضة !
وتحت سدول سُحبه انسحب الجانبان -
الظافر منهما والمدحور . وعلى صعيد المعركة ٤١٠
كان ميكائيل وملائكته المنتصرون
قد ضربوا أطنابهم ، وأقاموا العسس حراسا حولهم ،
لهبًا متماوجًا من ملائكة الشاروبيم ! أما فى الجانب الآخر
فقد اختفى إبليس مع أتباعه من العصاة

الذين انتقلوا إلى أقاصى الظلمة ، ولم يلبث هو ليستريح ٤١٥
بل دعا كبراءه إلى مجلس ليلى
ثم قام وسطهم غير هياب وطفق يقول :

أيها الصحاب المقربون ! لقد ابتليتم ساعة الخطر
وعرفتم أن أسلحتكم لا غالب لها
ورأيتم أنكم خليقون لا بالحرية فحسب - ٤٢٠
إذ ما أهونها من مطلب ، بل بما نطمح إليه طموحًا أشد
ألا وهو الشرف والسيادة والمجد وذيوع الصيت !
لقد صمدنا يومًا واحدًا فى حرب سجال
(وإذا كنا قد صمدنا يوما فلم لا نصمد أيام الأبد ؟)
إن من أرسلهم رب السماء من أقوى الأقوياء ٤٢٥
من حول العرش لينازلونا ، ومن رأى
أنهم يكفون لإخضاعنا لإرادته ،
قد أثبتوا خطله ! وإذن فيبدو أنه لن يكون معصومًا
فى المستقبل ، ولنا أن نظنه كذلك وكنا حتى الآن
نظنه بكل شىء عليمًا . والحق أن سلاحنا كان أضعف ٤٣٠
فأُضرنا وتحملنا الآلام
التى لم نعرفها من قبل ، ولكننا ما عرفناها حتى ازدريناها

فنحن نعرف الآن أن كياننا السماوى

يستعصى على الجروح القاتلة

ولا يفنى ! - وحتى لو أصيب إصابة نافذة ٤٣٥

فسرعان ما تلتئم الجراحات وتبرئها قوتنا الأصيلة !

اعلموا إذن أن هذا الضُّر التافه يسير

العلاج : فإذا أعتدنا لهم عتادًا أشدَّ

وسلاحًا أمضى فربما استطعنا فى لقائنا المقبل

أن نعلى شأننا ونكسر أعداءنا ٤٤٠

فنتساوى فيما تفوقوا علينا فيه

إذ نحن فى طبيعتنا سواء . أما إذا كان ثم سبب خبىء

لتفوقهم فسوف نستطيع إذا حافظنا على

صحة أذهاننا وسلامة إدراكنا

أن نكشف عنه بالبحث والتشاور اللازمين . ٤٤٥

قال هذا وجلس . وقام من بعده فى المجلس

(نِسْروخ) وكان المقدم على جميع ذوى الأمارات .

وقف وقفة من فر من قتال شرس

فهو مكدودٌ مُوجَع ، وأسلحته المصدوعة محطمة مهشمة !

وبوجه تعلوه غبرة ، شرع يجيبه قائلاً : ٤٥٠

يا مخلصنا من السادة الجدد ! وقائد سعينا

للتمتع بحقنا فى حياة الربوبية الحرة ! إن هذا القتال عسير حتى

على الأرباب ، وما هم بأكفاء له ! فنحن

نقارع أسلحة لسنا أكفاء لها ، ونحس الألم

ونحن ننازل من لا يحسون الألم ولا يعرفون المعاناة ! ٤٥٥

فالعاقبة هى شر الهلاك لا محالة ! ما جدوى

الشجاعة أو القوة - ونحن لا نُضَارَعُ فيهما - إذا أخمدها الألم

الذى يخضع كل شىء وتتخاذل معه أيدى

أقوى الأقوياء . إننا نستطيع الآن أن نستمتع

بالحياة وألا نتذمر ٤٦٠

بل نحيا حياة الرضى وهى أهدأ ألوان الحياة !

ولكن الألم هو ذروة الشقاء ، وأسوأ

ضروب الشر ، فإذا تخطى حدوده ،

انقطع حبل الصبر ! إن كان ثم مِن يستطيع أن يبتدع

ما هو أشد قوة للهجوم ٤٦٥

على أعدائنا الذين لم يَمْسَسْهم جرح حتي الآن ، أو للتسلح

به دفاعًا عن أنفسنا ، فهو يستحق فى رأيى

كل ما ندين به لمن يأتينا بالخلاص

وأجابه إبليس فى رباطة جأش قائلاً :

إننى آتيكم بشىء مخترع ، وهو ما تعتقد محقًا ٤٧٠

أنه بالغ الأهمية لنجاحنا .

إن من يبصر منا السطح البراق

لهذا الكيان الأثيرى الذى نقف عليه -

قارة السماء الرحيبة التى تزينها

النباتات والثمار وأزاهير الفردوس والجواهر والنضار - ٤٧٥

سوف تقف عينه على ظاهر

هذه الأشياء فحسب ، ولن يدرك مكامن منبتها

فى أعماق الثرى ، من مواد أولية مبهمة ،

من زبد الأبخرة والنار ! إنها إذا مستها

أشعة السماء فأحكمت مزاجها ، نبتت فروعها ٤٨٠

باهرة الحسن وتفتحت للضياء من حولها

لسوف إذن نستخرج هذه فى صورها الأولى البهماء

من أعماق الأرض وقد كمنت فيها نار الجحيم

ولسوف نضعها فى أنابيب مجوفة طويلة ومستديرة

لها مدك غليظ ، فإذا مستها النار من فتحة أخرى ٤٨٥

اشتعلت غضبًا وتضخمت فأرسلت

على أعدائنا من بعيد ، فى جلبة كأنها الرعد ،
آلات دمار تمزقهم إرْبًا إرْبًا
وتطيح بكل ما يعترض سبيلها
حتى ليخال لهم فَرَقًا أننا انتزعنا ٤٩٠
من الراعد سهمه الأوحد الذى نخشاه !
ولن يطول عملنا فى صناعتها ، فقبل أن يبزغ الفجر
سيكون فى يدنا ما نبغيه . أما الآن فأفيقوا
واطرحوا مخاوفكم ! فإنه إذا اجتمعت القوة والرأى
لم يعد ثَمَّ صعب ، ولم يعد لليأس مكان ! ٤٩٥
وانتهى من حديثه فأبهجت كلماته نفوسهم الذاوية
وأضاءتها ، وأحيت آمالهم الخابية وأنعشتها
وحظى الاختراع بإعجاب الجميع ، وتعجب كل منهم
لأنه لم يكن المخترع ، فهو يبدو بالغ اليسر
بعد أن وجد ، وإن كان معظمهم قبل اختراعه ليظنه ٥٠٠
من المحال ! ولربما برز من أبناء جنسك (يا آدم)
فى قابل الأيام - إذا عمت الشحناء والبغضاء -
من يبغى إحداث الضرر ، أو من يستلهم
المكائد الشيطانية فيخترع

آلة مشابهة فيبتل بها بنى البشر ٥٠٥
لخطاياهم حين يصبح ديدنهم الحرب والاقتتال !
وعلى الفور انطلقوا من المجلس إلى العمل .
لم ينخرط أحد فى جدل ، بل كانت الأيدى التى لا تحصى
على استعداد ، وفى لحظة قلبت
التربة السماوية وكشفت باطنها ، فرأوا تحتها ٥١٠
عناصر الطبيعة فى صورها الأولى -
وجدوا زبد الكبريت وزبد النطرون
فمزجوهما ، وبفن الصنعة الدقيق ،
وبالحرارة والتجفيف ، أخرجوا منهما
مسحوقًا فاحم السواد ، نقلوه إلى المخازن . ٥١٥
ثم حفروا فاستخرجوا عروق المعادن والأحجار
الخبيثة (ولهذه الأرض أحشاء مشابهة)
ومنها صبوا أجزاء المدافع وكرات هى
قذائف الهلاك ! وأعد فريق منهم أعواد الثقاب
التى تسرع بالاشتعال عند اللمس ٥٢٠
وهكذا قبل انبلاج الفجر ، كانوا قد انتهوا تحت ستار الليل الساهر

من عملهم سراً وتهيأوا وانتظموا

متوخين الحذر والصمت ، فلم يفطن إليهم أحد .

وعندما لاح نور الصبح الجميل فى السماء

هب الملائكة المنتصرون من رقادهم ، ودعا إلى السلاح ٥٢٥

نفير الصبح ، فحملوا السّلاح

واتشحوا به كأنما تدرعوا بالذهب ! وسرعان ما التأم شمل

حشدٍ وضاء ، بينما أطل آخرون

من تلال المشرق ، وانتشر الكشافة خفاف السلاح فى كل أفق

وكل بقعة لاستطلاع مكمن العدو البعيد ، ٥٣٠

ليروا إن كان مرابطًا أم لاذ بالفرار – وليروا إن كان يعتزم القتال

زحفًا أم ثباتًا . وسرعان ما وجدوه

يزحف عن كثب ناشرًا بيارقه ، فى كتيبة

بطيئة الخطو وثيقة العرى . وعندها نشر شراع سرعته

(زوفيل) – أسرعُ ملائكة الشاروبيم جناحًا – ٥٣٥

وعاد طائرًا يصيح عاليًا وسط الهواء قائلاً :

إلى السلاح أيها المحاربون ! إلى السلاح للقتال فالعدو قريب !

كنا نظنه قد فر ولكنه سيعفينا من طول الطراد اليوم !

لا تظنوه يفر ، إنى أراه يقترب مثل سحابة كثيفة

وفى وجهه قسمات ٥٤٠

العزم الجاد وصلابة الثقة فليوثق كل منكم

زرده الصلب حول جسده ، وليحكم

وضع خوذته ، وليقبض بشدة على درعه المستدير

سواء كان يحمله عاليًا أو موازيًا لجسده ، فما سينهمر اليوم

- إذا صح ظنى - ليس رذاذًا يسيرًا ٥٤٥

بل شآبيب قعقاعة من السهام الشائكة بالنار !

وهكذا حذرهم وهم الخبراء وسرعان

ما انتظموا دون أدنى عائق ،

وفى عجلة ودون اضطراب تأهبوا للحرب

ثم شرعوا فى التقدم وقد اتخذوا تشكيلات القتال ، وعندها لاح ٥٥٠

العدو غير بعيد يزحف بخطى ثقيلة

ويقترب ضخمًا هائل الجرم . كان يجر

مدافعه الشيطانية فى صورة مكعب أجوف تحيط به

من كل جانب فيالق رجراجة تُظَلِّلُه

حتي تخفى الحيلة . ووقف الخصمان يتطلعان إلى بعضهما البعض ٥٥٥

حينا ثم ظهر إبليس على رأس الجيش

فجأة ، ورن صوته الآمر عاليًا يقول :

يا جنود الطليعة : افترقوا يميناً وشمالاً حتي تنفتح الجبهة
وحتى يرى كل من يبغضنا أننا ننشد
السلم والاستقرار ، وأننا بقلب مفتوح – ٥٦٠
مستعدون لاستقبالهم ، إذا راقت لهم
مبادرتنا ولم يعرضوا عنا معادين !
ولكننى أشك فى ذلك فاشهدى يا سماء !
أيتها السماء اشهدى علينا ونحن نؤدى بعد قليل
دورنا دون عائق ! وأنتم يا من تقفون مكتملى العدة ٥٦٥
قوموا بواجبكم ، وأسرعوا بأداء
ما نعتزم ، وليكن عالى الصوت حتى يسمعه الجميع !
ولم يكد ينتهى من سخريته وكلماته الغامضة
حتى انشطرت الجبهة شطرين ، إلى اليمين وإلى الشمال ،
وتراجع أجنادها إلى الجناحين ٥٧٠
فتجلى لعيوننا مشهد جديد غريب :
أعمدة مصطفة فى طبقات ثلاث وقائمة
على عجلات (فقد بدت أشبه شىء بالأعمدة
أو بالكتل المجوفة من جذوع البلوط أو الشوح
التى قطعت فروعها بعد أن اجتثت فى الغابات أو الجبال) ٥٧٥

كانت مصنوعة من النحاس الأصفر والحديد والحجر ، وقد حوّلت
أفواهها عنّا -
فُوَّهاتها الواسعة البشعة - كأنما
تنذر بصلح أجوف ، وخلف كل منها
وقف ملاك من الصاروفيم ، ممسكًا فى يده عودًا
يلوّح به وفى طرفه اللهب . ووقفنا نترقب ٥٨٠
رابطى الجأش رغم حيرة أفكارنا .
ولكن ذلك لم يطل إذ امتدت الأعواد جميعًا فجأة
إلى الأمام واقتربت من فتحة ضيقة
فمستها مسًا رفيقًا . وعلى الفور بدت السماء كلها لهبًا
سرعان ما طمسه الدخان ٥٨٥
الذى تجشأته تلك الآلات مِن حلوقها العميقة والزئير
الذى بقر بطن الهواء بجلبته الفاحشة
ومزق أحشاءه ! كانت تخرج من أفواهها أبشع
تخمة شيطانية : صواعق متصلة وبَرد ،
بل كرات حديدية تنهمل على الحشد الظافر ٥٩٠
وتَصكُّه صكًا شديدًا
فإن أصابت أحدًا لم يستطع الثبات على قدميه

وإلا ظل صامدًا كالصخر ! وهكذا تهاووا

آلافا مؤلفة ، واختلط على الأرض ملاكٌ بملاكٍ أكبر

وأسرع بسقوطهم ثقل أسلحتهم ، فلو كانوا عُزَّل ٥٩٥

لتفادوا الطلقات بيسر ، فهم أرواح قادرون

على التقلص السريع أو الابتعاد ! أما الآن

فقد بُعْثِروا شَرَّ مبعثر ، وهُزموا رغم أنوفهم ،

وما أغنى عنهم توسيع صفوفهم المحتشدة !

ماذا عليهم أن يفعلوا ؟ إنهم إن عاودوا الهجوم فَرُدُّوا ٦٠٠

مرة ثانية ، وانكسروا انكسارًا شائنًا

كرة أخرى ، فلسوف يزداد احتقارهم

ويصبحون أضحوكة لعدوهم ! إذ بدا لعيونهم

صف آخر من ملائكة الصاروفيم واقفين

فى وضع الاستعداد لإطلاق طلقةٍ ثانيةٍ ٦٠٥

من الرعد ! ما أشد ما كرهوا أن يعاودوا للكرة

فيردوا على أعقابهم ! ورأى إبليس ما هم فيه من بلاء

فخاطب رفاقه فى سخرية قائلاً :

أيها الأصدقاء ! لماذا لا ينقض علينا هؤلاء المنتصرون المتكبرون ؟

كانوا ينقضون فى شراسة منذ برهة ، وعندما ٦١٠

رحبنا بهم ترحيبًا حسنًا ، بوجه صبوح وقلب مفتوح ،

(وما عسانا نفعل أكثر من ذلك ؟) وعرضنا عليهم شروط

الصلح ، تبدلت آراؤهم على الفور

وطاروا ثم عادوا يتواثبون أغرب تواثب

كأنما يتراقصون ولكنها رقصة ٦١٥

بالغوا فى حركاتها فبدت طليقة رعناء - ربما

من فرحتهم بالسلام الذى عرضناه عليهم ، ولكننى أظن أنهم

لو سمعوا مقترحاتنا مرة ثانية

فسوف تضطرهم إلى الإسراع بالصلح .

وأجابه (بليّعال) فى رنات مزاح مماثلة : ٦٢٠

أيها القائد ! إن الشروط التى أرسلناها كانت من الأثقال ،

جوهرها صلب ، وقد شحنت بالقوة فبلغت غايتها ،

فأثارت انتباه الجميع كما رأينا

وأوقعت الكثيرين فى تخبط : أما من تلقاها صوابًا

فقد أدركها من ناصية رأسه إلى أخمص قدمه ، ٦٢٥

وأما من لم يدركها - فإنها (وهذه مزية أخرى !)

قد بينت لنا متى يمشى أعداؤنا منقلبين !

وهكذا وقفوا يستهزئون فيما بينهم فى مرح وحبور

وقد طمحت أفكارهم فلم يعاودهم

أى شك فى النصر وظنوا أن مجاراة الجبروت الأزلى ٦٣٠

بمخترعاتهم أمرٌ

بالغُ اليسر ، بل سخروا من رعده

وضحكوا من أجناده وقد وقفوا

هنيهة فى كد وعناد . ولكنهم لم يقفوا طويلاً

إذ حفزهم الغضب آخر الأمر فوجدوا الأسلحة ٦٣٥

القادرة على التصدى لذلك البلاء الجهنمى

وعلى الفور (وانظر أى امتياز وأى طاقة

بثها الله فى ملائكته الجبابرة)

طرحوا أسلحتهم ، وانطلقوا إلى التلال

(وقد أخذت الأرض هذا التنوع من السماء - ٦٤٠

فبثت مباهجها فى التلال والوديان !)

وفى خفة اللمح البارق عدوا وطاروا

فزحزحوها عن قواعدها شدًا ودفعًا وجذبًا

واقتلعوا الجبال الرواسى بما حملت من

صخور وأمواه وغابات قابضين على نواصيها الشعثاء ٦٤٥

وحملوها عاليًا فى أيديهم . واستولت الدهشة على العصاة

وثق فى قولى - بل استولى الرعب على حشدهم

عندما رأوا هذا المشهد الرهيب يقترب منهم

مشهد قيعان الجبال التى قلبت رأسًا على عقب

حتى إذا ألقيت على آلاتهم الملعونة بطبقاتها الثلاث ٦٥٠

رأوها تكتسح وتطمس ، ورأوا ثقتهم الكبيرة

تدفن معها فى الأعماق تحت ثقل الجبال !

ثم رأوا أنفسهم يُهاجَمون بعد ذلك ، فعلى رؤوسهم

ألقيت رؤوس الجبال الصلدة التى أقبلت فى الهواء

فألقت ظلها وأناخت بثقلها على كتائب مسلحة برمتها ! ٦٥٥

وقد زادت دروعهم من ضُرِّهم إذ تكسرت عليهم فأصابت

كيانهم الحبيس فيها ، مما آلمهم ألماً

لا تخف وطأته ، وما أكثر أنّات الألم المكتومة

التى حاولت النفاذ طويلاً من تحت الأثقال ، حتى استطاعوا الإفلات

من ذلك السجن - مع أنهم ملائكة من النور النقى - ٦٦٠

كانوا أنقياء أولاً - ولكن الإثم أغلظ كيانهم وكدره !

وأهرع سائرهم محاكين فامتشقوا أسلحة مماثلة

واقتلعوا التلال المجاورة !

وتلاقت التلال بالتلال فى الهواء

وهى تُقذف إلى الأمام والوراء بقوة رهيبة ٦٦٥
حتى لقد دار القتال على الأرض فى ظلها الكئيب !
كان الضجيج جهنميًا وإذا قورنت الحرب بهذا الصخب الصاخب
بدت لعبة مهذبة ! فالاختلاط المفزع يتكدس
فوق الاختلاط ويعلو ، والسماء تكاد
أن تنفطر ويكاد الدمار أن يغشى كل شىء ! ٦٧٠
لولا أن الأب الجبار الذى يجلس
آمنًا على كرسى العرش فى السماء
سأل عن مجرى الأمور ، وكان يعرف مقدمًا
بوقوع هذه الجلبه ، بل أذن بوقوعها بعد تدبر
حتى يحقق هدفه العظيم ٦٧٥
وهو أن يشرّف ابنه المسيح بالثأر
من أعدائه ، وأن يعلن
إضفاء السلطة كاملةً عليه . ومن ثم خاطب ابنه
وشريك عرشه قائلاً :
يا بهاء جلالى ! ابنى المحبوب ، ٦٨٠
أيها الابن ! يا من تشاهد فى وجهه المحجوب
منزلتى الإلهية ،

وفى يده ما أقضى به فيفعل !
أيها القدير الثانى ! لقد انقضى يومان -
يومان مما نعد فى السماء ٦٨٥
منذ انطلق ميكائيل وقواته لترويض
أولئك العصاة . وقد كان القتال مريرًا
كما عساه أن يكون عندما يلتقى مثل هذين الخصمين المسلحين
إذ إننى تركتهما يتقاتلان ، كما تعرف ،
ولقد صورتهما متساوينْ فى الخلقة ٦٩٠
إلا ما أفسدته الخطيئة ، ولو أنه فساد
غير ظاهر ، فلقد أنظرتهم إلى يوم معلوم .
ومن ثم فلابد أن يظلوا فى اقتتال دائم
لا ينتهى ولا يجدون له حلاً
لقد فعلت الحرب بمن أعيتهم كل ما تستطيع : ٦٩٥
فأطلقت العنان لفوضى الغضب الجائح
إذ امتشق الجانبان السلاح والجبال معًا فأثاروا
الاضطراب فى السماء وتهددوا الكون بالخطر
لقد انقضى يومان ، والثالث لك
لقد قضيت به لك ، وبهذا المدى ٧٠٠

أذنت ، حتى يكون لك مجد
إنهاء هذه الحرب الكبرى ، فإنه لا يستطيع سواك
أن ينهيها . لقد بَثَثْتُ فيك أشرف الفضائل
وأسبغت عليك أشرف النعم حتى يعرف الجميع
فى السماء وفى الجحيم قوتك التى لا مثيل لها ، ٧٠٥
وحتى يستبين عندما تقضى على هذه القلقلة الفاسقة
أنك أجدر وارث لكل شىء -
والأجدر بأن يكون الوريثَ والمَلِكَ الذى مسحت عليه
مسح القداسة - فهذا حقك الحقيق بك
انطلق الآن إذن يا أقوى الأقوياء - بقوة أبيك فيك - ٧١٠
فاعتل عربتى ، وقُدْ العجلات المسرعة
التى تزلزل أسس السماء ، وائت بعدتى جميعًا -
بقوسى ورعدى ، وتمنطق بأسلحتى الجبارة
وشد السيف حول وسطك الأعتى
وطارد أبناء الظلام فأخرجهم ٧١٥
من تخوم السماء جميعًا وألق بهم فى الخضم المحيط .
واجعلهم يعرفون - وما أحراهم - كيف يزدرون
الله والمسيح - الملك الذى مُسح عليه

قال ذلك ثم أرسل أشعته مباشرة على ابنه

وأشرق عليه كل الإشراق ، حتي تلقى ضياء أبيه الساطع كله ٧٢٠

وأنار وجهه بنور يجل عن الوصف .

ثم أجاب الرب الابن أباه قائلاً :

يا أبى ! يا أرفع عرش فى السماء !

أنت الأول والأعلى والأقدس والأعظم ، دائمًا تنشد

تمجيد ابنك ، ودائمًا أنشد تمجيدك ٧٢٥

وهو أعدل ما يكون . أما أنا فأحسب أن مجدى

ورفعتى بل وسعادتى الغامرة

هو أن تكون راضيًا عنى كل الرضا ، فتعلن أن مشيئتك

قد نفذت ، فإن إنفاذها نعيمى الأنعم .

إننى أتقلد ما وهبتنى من صولجان وقوة ٧٣٠

ولسوف أعيدهما إليك فى سعادة أكبر ، ولن يبقى فى النهاية

إلا وجهك ، وسأحيا فيك

إلى الأبد ، ويحيا فىّ كلُّ من تحبهم .

أما من تمقتهم فأمقتهم ، وأستطيع أن أتسلح

بأهوالك مثلما أتحلى بألطافك ٧٣٥

فأنا صورتك فى كل شىء ، ولن يطول بى الوقت

حتى أتسلح بجبروتك فأخلص السماء من هؤلاء العصاة

وألقى بهم فى مثوى السوء الذى أعد لهم ،

فى أصفاد الظلام ، مع الدودة التى لا تموت ،

إذ تمردوا على طاعتك وأنت الحقيق بها ٧٤٠

بل إن طاعتك هى الهناء كل الهناء

وعندئذ سيقوم قِدّيسوك وحدهم ، وقد فُصل بينهم

وبين الخبثاء ، فيطوفون بجبلك المقدس

ويسبحون لك أصدق التسابيح ، وينشدونك

أرفع أناشيد الحمد والثناء ، وأنا على رأسهم . ٧٤٥

قال هذا وانحنى على صولجانه ثم نهض

من مجلسه على يمين المجد والجلال

بينما بدأ ثالث صباح مقدس فى الإشراق

فانبلج ضوء الفجر فى السماء وانطلقت بصوت العاصفة الدوامة

عربة الإله الأب ، ٧٥٠

تشع ألسنة لهب غليظة ، عجلاتها متداخلة لا يجرها أحد

فهى فى ذاتها نابضة بالروح ، يصاحبها

أربعة فى صورة الشاروبيم ، لكل منهم أربعة وجوه

عجيبة ، وأجسامهم وأجنحتهم

لها عيون كأنها النجوم ، وأما العجلاتْ فلها عيون ٧٥٥
من زَبَرْجَد وفيما بينها تجرى النيران مسرعة !
وفوق رؤوسهم قبة سماء بلورية
فيها عرش من الياقوت الأزرق المرصع بالعنبر
الصافى وألوان قوس المطر !
وأما هو فكان يرتدى درعًا سماويًا مدججًا ٧٦٠
بصخر الأوريم البراق - درعًا صاغه الله - حين
صعد إلى العربة ، وجلس على يمينه "النصر"
بأجنحته العقابية ، وإلى جواره تدلى قوسه
وكنانته ذات السهام الراعدة الثلاثة
ومن حوله دار زفيره الضارى وتكور - ٧٦٥
دخانٌ ولهيبٌ متقد ، وشررٌ مستطير !
كان يرافقه عشرة آلاف ملاك
وهو يمضى قُدمًا مشرقًا على البعد .
كما شوهدت عشرون ألف عربة (وقد سمعت ذلك الرقم بنفسى)
من عربات الله ، النصف يمنة والنصف يسرة ! ٧٧٠
ثم ارتقى أجنحة الشاروبيم فركب
السماء البلورية واعتلى عرش الياقوت الأزرق .

ومع أنه استبان للقاصى والدانى فإن أتباعه
كانوا أول من رآه وفاجأهم فرح لم يتوقعوه
حين التمع البيرق العظيم للمسيح ٧٧٥
الذى حملته الملائكة عاليًا – فهو ابنه فى السماء –
ومن ثم عاد ميكائيل إليه بجيشه ليقوده ،
موزعًا أجناده على الجناحين ،
ففى ظل رئيسهم تجسد الكل فى واحد .
وقد مهدت القوة الإلهية الطريق من أمامه ٧٨٠
فبأمره عاد كل تل من التلال المقتلعة
إلى مكانه حين أصغت لصوته
فأطاعت ، وعاد للسماء وجهها المعتاد
وابتسمت التلال والوديان بزهيرات غضة .
ورأى أعداؤه التعساء هذا ولكن قست قلوبهم ٧٨٥
فجمعوا قواتهم لقتال عاص
أحمق ، إذ أنجب اليأس فيهم أملاً !
أنىّ لأرواح السماء بمثل هذا الفسوق ؟
وهل تجدى الآيات فى إقناع المستكبرين
أو تلين المعجزات قلوب القساة ؟ ٧٩٠

لقد زاد غلظته ما كان حريا بإصلاحه
فلقد حزن لمرأى مجده ، وأثار المشهد
حسده فطمح أن يعلو علوه ،
فاتخذ عدة الحرب ثانيا فى ضراوة ظانًا أنه بالقوة أو بالحيلة
سوف يفلح آخر الأمر وينتصر ٧٩٥
على الله والمسيح ، أو أن يقع
فى هوة الهلاك التام فى النهاية . وهكذا
تأهب للمعركة النهائية مستنكفًا أن يهرب
أو يتراجع تراجع الجبناء . وهنا اتجه ابن الله العظيم
إلى كافة أجناده على الجانبين فخاطبهم قائلاً : ٨٠٠

قفوا ساكنين فى صفوفكم البراقة أيها الأطهار ! قفوا هنا
أيها الملائكة المدججون ، واستريحوا اليوم من القتال ،
لقد صدقتم النية فى حربكم ، ولقد تقبلها الله ،
ولقد أبديتم بسالة فى سبيله - سبيل الحق -
ولقد كِلْتم لهم من الضربات قدر ما تلقيتم ٨٠٥
فلم تهزموا ! ولكن عقاب هذا الرهط اللعين
قد وُكّلت به أيد أخرى
فالإنتقام من شأنه هو ، أو من شأن من يكلفه به وحده .

ولقد قضى ألا يكون للأعداد نصيب فى عمل اليوم
ولا للحشود - حسبكم أن تقفوا وتشهدوا ٨١٠
كيف أَصُبُّ حنق الله على هؤلاء الكفار
فهم لا يزدرونكم بل يزدروننى أنا -
مع حسدهم لى ! ومبعث غيظهم
أن الأب فى السموات العلى
وله الملك والقوة والمجد ٨١٥
قد قضت إرادته بتشريفى
وتكليفى بالقضاء عليهم -
وتحقيق رغبتهم فى منازلتى فى
ميدان القتال ليروا من منا الأقوى : جمعهم وحشدهم
أم أنا وحدى ؟ ذلك بأنهم يتخذون من القوة ٨٢٠
معياراً لكل شىء ، ولا يطمحون فى امتياز سواها
ولا يكترثون إذا امتاز عليهم أحد فى غيرها
لا بل ولن أقبل سوى هذا النزال معهم !

وفرغ الابن من حديثه وقد اكتسى بالرعب والرهبة
وجهه فهو لا يُرى لقسوته وهوله ٨٢٥
ثم انقض على أعدائه فى سورة غضبه .

وعلى الفور نشر الأربعة أجنحتهم المُرصَّعة بالنجوم
فالتصقت وألقت ظلها المفزع ، ودارت عجلات
عربته الضارية ، فكان لها هدير كهدير
سيل عرم أو جحفل عرمرم ٨٣٠
وزحف كرًا على أعدائه الفسقة
مُدْ لهمًا كالليل ! وتحت عجلاته الملتهبة
زُلْزِلَتْ جنبات السماء الثابتة قاطبة
فيما عدا عرش الله . وسرعان
ما حل بينهم . كانت يده اليمنى ٨٣٥
تقبض على عشرة آلاف سهم راعدٍ أرسلها عليهم
قبله فقذفت فى نفوسهم
الطاعون ، فذهلوا وفقدوا الطاقة على المقاومة
وذهبت شجاعتهم ، وألقوا أسلحتهم العاطلة !
ووطأت عربته الدروع والخوذ ، والرؤوس ذات الخوذ - ٨٤٠
رؤوس أصحاب العروش وجبابرة الصاروفيم المنكفئين
على وجوههم يودون لو أن الجبال
تلقى عليهم فتحميهم من سخطه !
كما انهمرت كالعاصفة على الجانبين

سهامه ، من أيدى الأربعة - وكان لكل منهم وجوه أربعة ٨٤٥
محلاة بالعيون - ومن العجلات الحية
وهى محلاة أيضًا بكثير من العيون ،
تحكمها جميعًا روح واحدة ، وتوهجت كل عين
ومضت برقًا وأرسلت شواظ نارها الفتاكة
بين الملعونين ، فأذهبت ريحهم ٨٥٠
وجردتهم من مألوف قوتهم ، فهم
منهكون خائرون منكوبون خاسرون !
ولم يكن قد أرسل عليهم نصف قوته ، بل إنه أوقف
سهمه الراعد أثناء انطلاقه إليهم - ذلك أنه لا يريد
أن يهلكهم ، بل أن يخرجهم جميعًا من السماء . ٨٥٥
ثم أنهض أولئك المنقلبين وجمعهم مثل قطيع
من الأمعز أو رعيل من الماشية الفزعة
فساقهم أمامه ذاهلين صعقين ، ولاحقهم
بألوان الرعب والنقمة إلى تخوم السماء
وجدارها البلورى . وانفتح شق فى الجدار ٨٦٠
دار جانباه إلى الداخل فتجلت طاقة واسعة تطل
على خضم الخواء ! ودفعهم المشهد البشع

بأهواله إلى التراجع ، ولكن ما هو أنكى وأمر كانٍ

يدفعهم من الخلف ! فألقوا بأنفسهم من حالق ،

منقلبين من حافة السماء والغضب السرمدى ٨٦٥

لهيب يئز فى أعقابهم حتى حطوا فى حفرة مالها من قرار .

وسمعت الجحيمُ الصخبَ الذى لا يُحتمل ، ورأت الجحيم

سماء تسقط من السماء فكادت تفر

فى هلع . ولكن القضاء الصارم كان قد أرسى عميق

أساسها البهيم ، وثبتها ثباتًا لا يتزعزع ٨٧٠

وظلوا يتهاوون أيامًا تسعة ، بينما ارتفع زئير العماء الذى ارتبك

واضطرب وتضاعفت بلبلته عشرة أضعاف وهم يمرون

من خلال فوضاه الموحشة ، فإن هذا الحشد الهائل من المدحورين

قد أثقلوه بالهلاك : ولكن الجحيم - آخر الأمر -

فغرت فاها فازدردتهم جميعا ، ثم أقفلته عليهم ! ٨٧٥

تلك الجحيم مأواهم الحق المحملة بنيران

لا ينطفىء أوارها - دار الألم والعذاب !

وفرحت السماء إذ تخففت من أثقالها ، وسرعان ما أصلحت

الشق الذى انفتح فى جدارها ، فدار جانباه إلى مكانهما الأول .

وبعد أن ظفر بالنصر وحده ونبذ أعداءه ٨٨٠

أدار المسيح عربة انتصاره وعاد بها

حتى يلاقيه جميع قديسيه الذين كانوا يقفون فى صمت ،

وهم يشهدون بعيونهم فعاله الجبارة ،

فتقدموا الآن منه صائحين فى فرح ، وأثناء سيرهم

تظللهم أغصان النخيل ، كانت كل طبقة ٨٨٥

تنشد أهازيج النصر ، وتتغنى بالملك المنتصر

الابن والوارث والرب الذى وهبت له السيادة

فهو أجدر الحاكمين . وركب المحتفى به

ظافرًا ثبج السماء فدخل ساحات

أبيه القهار ومعبده حيث يجلس على العرش ٨٩٠

عاليًا : وتلقاه بالمجد وأجلسه

حيث يجلس الآن - على اليد اليمنى للنعيم .

وهكذا شبهت ما فى السماء بما فى الأرض

كما طلبت منى ، وحتى تلزم الحذر إذا أحطت

بما حدث فى الماضى ، كشفت لك ٨٩٥

عما كان يمكن أن يظل خافيًا عن الجنس البشرى :

عن الشقاق الذى وقع والقتال فى السماء

بين قوات الملائكة ، والدرك الأسفل الذى هوى فيه

من زاد طموحهم عن الحد - فتمردوا -

مع إبليس - ذاك الذى يغبطك اليوم مكانتك ٩٠٠

ويدبر مكائده الآن لإغوائك

حتى تخرج عن الطاعة ، وحتى تُحرم الهناء

مثلما حُرم وتشاركه

عقابه وشقاءه الأبدى !

لن يزيد سلوانه وانتقامه على ذلك : ٩٠٥

فنقمة منه وحقدًا على الأعلى

يريدك أن تكون رفيقًا له فى بلائه .

ولكن لا تصغ إلى غوايته ، وحذّر من هى

أضعف منك . وانتفع بما سمعته

عن التنكيل بالعاصى وجزاء ٩١٠

العصيان : كان يمكن أن يثبتوا

ولكنهم سقطوا - اذكر ذلك واخش الإثم .

## الكتاب السابع

### الموضوع

روفائيل يجـيب آدم إلى طلبه فيقـص عليه كيف خُلق هذا العالم وأسـباب خلقه الأول ، قائلاً إن الله قد أعرب عن رغـبته ، بعد طرد إبليس وزمرته من الشياطين من الجنة ، فى خلق عالم جديد ومخلوقات أخرى تسكنه ، ويرسل كلمة منه مكلّلة بالمجـد ، تحفُّ بها الملائكة ، لإنجاز مهمـة الخلق فى ستة أيام ، ويحتفل الملائكة ، بأناشيدهم ، بإنجاز ذلك العمل ، ثم تصعد الكلمة من جديد إلى السماء .

اهْبطِى من السَّماءِ يا "يورانيا" ! إن كانَ ذاكَ الاسمُ حقًا
اسمَكِ الذى تُدعَيْنَ به ! فصوتُك المُقَدَّسُ
قد حَدَانى فانطلقتُ طائرًا إلى ذُرا "الأوليمب"
واجْتَزْتُ آفاقَ الجوادِ الطائرِ !
إننى أدعو المعانىَ لا حروفَ الاسم ٥
فلستِ مِنْ ربّاتِ تِلْكُمُ الفُنونِ التّسعِ ، ولَسْتِ تقطنين

قمة "الأوليمب" ذى الأمجادِ من قديمٍ ، بَلْ قَدْ وُلدتِ فى السماء

مِنْ قبلِ أنْ تُلْقَى الرواسى أو تُشَقَّ الأنْهرُ الدَّفَّاقة ،

وصَحِبْتِ فى صِباكِ الحكمةَ المُخَلَّدةْ

فالحكمةُ كانت أُختَكْ ، معها لَهَوْتِ لدى عَزيزٍ مُقْتَدِرْ 10

إذْ سَرَّهُ الذى أنْشدتِ من أهازيج السماء!

إنى اتَّبعتُكِ فانطَلقتُ أشُقُّ أَجْوازَ الفَضَاءِ

مُجازِفًا نَحْو السّماواتِ العُلى

ضَيْفًا من الأرْضِينَ أنفاسى مِنَ المَلكوتِ

قد خَفَّفْتِ وَطْأتها عَلَىَّ ! وكذاك قَدْ أرْشَدْتِنى 15

عند الهبُوطِ بمأْمَنٍ فى مَوْطِنِى

كىْ لا أَظَلَّ طَائرًا على جوادى دُونَ لجامٍ أو أَقَعْ

( مثل الذى لاقاه "بيلروفون" رغم الموقعِ الأَقَلّ )

فربما إذا زَلَلْتُ تُهْتُ فى أرضِ الضياعِ

حائرًا وقد تَقَطَّعَتْ بِىَ الأسبابُ وانْتَفَى الأملْ ! 20

أنْشُودَتى ما زالَ نِصفُها بلا نَغَمْ ، لكنَّها أدْنى نطاقًا

إذ لن تُجاوزَ المرئىَّ من نهارنا الأرضىّ !

إنى وقفتُ الآنَ فوقَ الأرضِ ناجيًا من نشوةِ القُطْبِ العَصِىّ

مُستَظِلاً بالمزَيدِ من الأمَان

وتفيضُ من شفتيَّ أصواتُ البشرِّ
ما مَسَّها سوءٌ وما بُحَّتْ وما صَمَتَتْ ٢٥
مع أننى قد جِئْتُ فى أيامِ شَرٍّ مستطيرْ ،
أيامُ شرٌّ قد نزلتُ بها والسنةٌ شرُور
فظلامُ عَيْنِى والحُتُوفُ تحيقُ بى فى عُزْلتى
لكننى لستُ وحيدًا ، ما دمتِ زائرتى التى
تأتى مع الأحلام فى الليل البهيمْ ، أو إن خَضَّب الصباحُ
أفقَ الشرق أرجوانًا ! أمسكى بزمام أغنيتى دوامًا ٣٠
يا "يورانيا" ! ولتأتِنى بالسامعين الصالحين وإن غَدَوْا فئةً قليلة
أبعدى عنى نشازَ الصخبِ والوحشية ،
أنغامَ باخوسٍ إلهِ الخمرِ والندماء ،
تلكَ السلالةُ من سكارى الضجّةِ الهوجاء
تلك التى سَفَكَتْ حياة الشاعرِ المرموقِ فى "تيراقيا"
من أَطْرَبَ الغاباتِ والأحجارَ فى "رودوبيا" . ٣٥
لكنَّ تلك الضجةَ الوحشيةَ التى علَتْ
طَمَسَتْ رنينَ القيثارِ وصوتَ البشرية
والرّبة عاجزةٌ عن إنقاذِ فتاها !
لا تَخْذُلى مَنْ مَدَّ كفًا للضراعة والدعاء ،

فأنتِ من قَبَسِ السماءِ وتلك حُلْمٌ من خوَاء !

خبِّريني أيتها الربة ! ماذا وقع بعد أن حذّر "روفائيل" ٤٠

(ذلك الملاكُ الأكبرُ البشوشُ) آدمَ من العصيان ، ضاربًا له

المثلَ الرهيب مما وقع في السماء لأولئك العصاة

خَشْيَةَ أن يُلاقي آدمُ أو تُلاقي ذُرّيتُه في الفردوس المصير نفسه ٤٥

بعد أن أُمِر بألاّ يَقْرَبَ الشجرةَ المحرّمة

بَغْيًا وعدوانًا أو استخفافًا بذلك الأمر الأوحد

فما أَيْسرَ الانصياعَ للأمرِ وهناك ما يُختار

من كل مذاق آخر قادرٍ على إرضاء الشهيّة ،

على شطحاتها ! كان آدم مع زوجته حواء ٥٠

قد أصاخا السمعَ للقصة ، وأَفْعَمَتْ نفوسَهما

الدهشةُ ، والتأملُ العميقُ عند الاستماعِ

لهذه الأمورِ في الملأِ الأعلى ، أمورٌ يستعصى على إدراكهما

تصورُّها ، كالبغضاءِ في السماءِ

والقتالِ على مَقْرُبَةٍ من سَلاَمِ اللهِ في النعيم ٥٥

وذياك الخلط المختلط ! ولكن سرعان ما انهزم الشر

وارتد إلى نحور الأشرار مثل النهر المرتد إلى منابعه ،

فمن المحال امتزاجه بالخير . وهكذا سرعان ما قهر آدمُ

الشكوكَ التى كانت نشبت فى قلبه ، وغدا الآن ٦٠
مدفوعًا ، دون أن يُذْنب ، بالرغبة فى معرفة
ما قد يشغل باله عن قريب ، ألا وهو كيف نشأ
هذا العالم المرئى بأرضه وسمائه أولَ مرة ،
ومتى خُلق ، ومِمَّ خُلق ، ولأىّ سببٍ من الأسباب ،
وماذا حدث داخلَ جناتِ عدن أو خارجَها ٦٥
قبل عهده بالذاكرة ، مثل شخصٍ ما كاد يطفئ غُلَّتَهُ
حتى عاد يتطلّعُ إلى النهر الجارى
إذ ألْهَبَتْ تمتماتُه السائلةُ عطَشَه من جديد ،
وهكذا انطلق يتحدث فيُلقى سؤالَه على ضيفِه القادم من السماء :
ما أعظمَ ما كَشَفْتَ النقابَ عنه فأفعمَ آذانَنا بالدهشة ! ٧٠
وما أشدَّ اختلافَه عن هذا العالم ،
يا أيها الشارحُ الربّانى ، المرسَل من السماء برحمةٍ من الله
نذيراً لنا قبل فوات الأوان ، مما كان من شأنه
أن يتسببَ فى ضَيَاعِنا وهلاكِنا
لو جهلناه ، ومما يعجز عِلْمُ الإنسان عن إدراكه ، ٧٥
ونحن لِذلك نَدينُ لرب الخير اللامحدود
بشكرٍ سرمدىّ ، ونتلقّى أوامره

برغبةٍ صادقةٍ فى الانصياع

لإرادته العليا ، فتلك غاية

وجودنا ، ولكنك ما دمت قد تعهدتَ ٨٠

وتلطفتَ بإرشادنا ، فأَطْلَعْتَنَا

على ما يتجاوزُ الفكرَ الأرضىَّ ، وإن كان من المهم

أن نحيطَ به ، حسبما رأى رب الحكمة العليا .

فأرجو أن تتكرم بأن تهبط الآن درجة أخرى فتقصَّ علينا

ما قد يفيدنا ، إن أحطْنا به ، فائدةً لا تقل عن ذلك ٨٥

ألا وهو كيف نَشأَتْ أولاً هذه السماءُ التى نراها

سامقةً قصيَّةً ، مُزيَّنةً بمصابيحَ تجرى فى أفلاكها

ولا حصرَ لها ، وهذا الهواءُ الذى يغشى أو يملأُ

الفضاءَ كُلَّه ، هذا الهواءُ الذى يُحيطُ بنا ويتخللُ كلَّ شىءٍ

ويحتضنُ هذه الأرضَ المُزْهِرَةَ ويَلُفُّها ، وما السببُ ٩٠

الذى حدا بالخالق فى كُرْسِيِّه المُقَدّسِ ، •

القيوّم السرمدىّ ، إلى البناء والتشييد

فى لُجّةِ العَمَاءِ ، وما الزمنُ الذى استغرقه العملُ من البداية

للنهاية ، إذا لم يكن قد حُرِّمَ عليك أن تكشف

لنا ما نسألُ عنه ، لا لنسبرَ الأغوارَ والأسرارَ ٩٥

فى هذا المُلْكِ الأَزَلىِّ ، بل لِنَزيدَ من تعظيمِ
أعمالِه وتمجيدِها ، إذا زادتْ معرفتُنا بها ،
ولمّا يقطعْ الكوكَبُ الدُّرى الذى يُضيءُ لنا النهارَ
شوطًا طويلاً من رحلته الشاهقة مُعَلَّقًا فى جَوِّ السماء
ما يُمْسِكُه إلا صَوْتُك ، فهو يسمعُ صَوْتَكَ الجبّارَ ١٠٠
وسوف يتباطَؤُ ويمكثُ حتى يسمعَك وأنت تحكى
قصةَ تكوينهِ ونشأةِ الطبيعة ومولدِها
من رَحِمِ المحيطِ الخفىِّ البهيم
أما إذا أُهْرِع نجمُ المساء مع القمر
وأسرعا للاستماع إليك فسوف يأتى الليل معه ١٠٥
بالصمت ، وسوف يُنْصِتُ النومُ إليك فيصيبُه الأَرَقْ ،
وإلا طَلَبْنَا منه أن يَغْرُبَ حتى تنتهىَ أنشودتُك
وبختامها تنصرفُ من هنا قَبْلَ مَطْلَعِ الفجر .
وهكذا اختتم آدم مَطْلَبَهُ من ضيفه النَّابِهِ
فشرع الملاك الربّانى يجيبه بنبرات لطيفة قائلاً : ١١٠
أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا آدمُ ! وعلى الحَذَرِ الذى أَبْدَيْتَهُ ،
سوف أجيبُكَ ، وإن كان الحديثُ عن أعمالِ الجبّار شاقًا عسيراً
فأَيَّةُ كلماتٍ وأَيَّةُ ألسنةٍ لملائكةِ الصاروفيم تقوى عليه

وأى قلبٍ من قلوب البشر يقوى على إدراكه ؟

أما ما تقوى على الإحاطة به ، وهو أقدرُ ما يُعِينُك 115

على تمجيد الخالق وتعظيمه ، وما يَزِيدُ

من سعادتك أيضًا ، فلن يُحرمَ منه

مَسْمَعُكَ ، فذاك هو التكليفُ الذى جاءنى من علٍ

وتلقيتُه ، ألا وهو أنْ أُشْبِعَ رغبتَكَ

إلى المعرفةِ فى حدودٍ مرسومةٍ ، فلا تَقْفُ ما بَعْدَهَا 120

ولا تَسَلْ عنه ، ولا تَدَعْ المنطقَ البشرىَّ يغريكَ بمعرفة

ما لم يُنَزَّلْ ، فالمَلَكُ الذى لا تدركه الأبصارُ ،

والذى أحاطَ بكل شىء عِلْمًا وَحْدَه ، يطمسُ ذلك فى ظُلُماتِ اللّيْل ،

وليس لأحدٍ أن يَطَّلع عليه فى الأرض ولا فى السماء ،

تاركًا لنا كِفَايَتَنَا من سوى ذلك ، مما نستطيع أن نَنْشُدَه ونعرفَه . 125

ولكنّ المعرفةَ مثلُ الطعامِ ، وهى تحتاجُ أيضًا إلى

الاعتدالِ فى الطلبِ لا إلى الشهيّةِ النّهمةِ ، أى أن يُحيطَ

الإنسانُ بما يستطيعُ الذهنُ أن يستوعبَه دون إفراطٍ

وإلا أُصيبَ بالتُّخَمة ، وسرعان ما يُحِيلُ

الحكمةَ إلى حماقةٍ ، مثلما يتحولُ الغذاءُ إلى ريحٍ . 130

اعِلَمْ إذن ما حدثَ بعد خروج "لِوسيفر" من الجنة

( وهذا هو اسمه القديم ، إذ كان يُشعُّ ذات يومٍ ضياءَه وَسْطَ حَشْدِ
الملائكةِ ، فيفوقُ نورَ نَجْمِ الصّباحِ بين النجوم )
وبعد أن سقط مع كتائبه التى جَلَّلَتْها ألسنةُ اللهيب خلالَ المحيط
فى مكانه ، وبعد أن عاد المسيحُ العظيم ١٣٥
منتصراً مع الملائكة الأبرار ، نظر العلىُّ القدير ،
العَدْلُ السرمدىُّ ، من عرشه فشاهد
حَشْدَهُمْ ، ومن ثم خاطبَ المسيحَ قائلاً :
لقد اندحر عَدُوُّنا الحسودُ على الأقل ، وكان يظن
أن الجميعَ مثلُه من العُصاةِ ، وأنه قادرٌ بمعونتهم ١٤٠
على انتزاعِ هذا الجبروتِ الرفيع المنيع ، وعرش
الربِّ الأعلى ، فينتزعَ مُلْكَنَا ،
بل كان يأملُ ذلك فأوقعَ فى الخيانةِ
الكثيرين حتى أصبحَ مكانُهم القديم هنا يُنْكِرُهم .
ولو أننى أرى أن الغالبيةَ العُظْمى قد استَمْسَكَتْ ١٤٥
بمكانتها ، وأنّ الجنةَ ما زالت عامرة ، تَزْخَرُ
بأعدادٍ تكفى للحفاظ على أصقاعها ،
على اتساعها ، وللتردّد على هذا المعبد الرفيع
للتسبيح كما ينبغى بآيات الحمدِ وأداءِ الشعائرِ فى خشوع .

ولئلاّ يسمو به إحساسُه بالضَّررِ ١٥٠
الذى أَحْدَثَهُ ، بأنْ أخلى الجنة من سُكّانها
فى توهُّمِهِ السقيمِ الذى يصوّرُ له الإضرارَ بى ، فسوفَ أُصْلِحُ
الضّرر ، لو كان الضَّرر أن يَخْسرَ الكائنُ
ذاتَه بذاته ، وسوف أَخْلُقُ فى لحظةٍ واحدةٍ
عالمًا آخَرَ ، ومن إنسانٍ واحد ذُرّيّةً ١٥٥
من البشر لا تُحصى ، فتقيمُ هناك ،
لا هنا ، ثم تَرْقَى فى درجاتِ الرّفعة بالعمل الصالح
فتفتحَ لنفسها آخِرَ الأمرِ الطريقَ
الصاعدَ إلى هنا ، بعد النجاحِ فى امتحانِ الطاعةِ الطويل ،
فتتحولُ الأرضُ إلى سماء ، والسماءُ إلى أرض ، ١٦٠
مملكةٌ واحدة ، فرحٌ ووحدةٌ بلا نهاية .
والآن انتشروا يا قُوى السماء يا ملائكتى ،
وأنتَ يا كَلِمتى ، أيُّها المَسيح ! بكلمةٍ منّى
هى أنتَ سوفَ أُنجزُ العملَ قائلاً كُنْ فيكون !
وها هو الرُّوحُ والجَبَرُوتُ من عندى يُظِلُّ كُلَّ شَىْءٍ ١٦٥
وها أنذا أُرْسِلُه مع كَلِمَتى ! انطَلِقْ فوراً ! مُرْ مَاءَ المُحيطِ
داخلَ الحدودِ المرسومةِ أن يُصْبِحَ الأرضَ والسمَّاء ،

وأن يَظَلَّ ماءُ المحيط بلا حدود ، فأنا الذى أحيطُ بكل شىءٍ وأغشى
الأزَلَ ، حتى ما يَعْرِف أىُّ مكانٍ معنى الخَوَاء ،
ولو أننى ، أنا غير المحدود ، أحتجبُ ١٧٠
ولا أَفْرِضُ الخير من نفسى على أحد ، بل أقضى بحريّة الخير
فِعْلاً أو تقاعسًا ، وما أَشَاؤُهُ هو القَدَرُ .
هكذا تكلَّمَ ذو الجبروت ، وما تكلّم به
أنفَذَتْهُ كَلِمَتُهُ على الفَوْرِ ، والمسيحُ كلمةٌ منه ، ١٧٥
فأفعالُ الله فَوْرِيَّة ، أَسْرَعُ مَضَاءً
من الزَّمَنِ أو الحركة ، ولكنّ آذانَ البشر
لا تستطيع أن تتلقّاها دون الحديث والرواية ،
وما الحديثُ السائر إلا ما يُلائم الفكر الأرضى .
وطَرِبُ الملأُ الأعلى طَرَبَ الفَرْحَةِ والنّصر العظيم ١٨٠
عندما سَمِعُوا أنّ هذه مشيئةُ ذى الجبروت التى أعلنها ،
فَسَبَّحوا باسم الأعلى وأَنْشَدُوا ، داعين بالخير
للبشرية المُقْبلة ، وبالسّلم لَهُمْ فى مغانيهم .
فسبحانَ من غَضِبَ فجاءَ انتقامُه جَزَاءً وِفاقًا
ولَفَظَ من غَضِبَ عليهم من الفَسَقَةِ فاختَفَوْا
وغَادَرُوا ديارَ العُدُولِ ؛ فسبحانَه

سُبْحانَه والحمدُ له ، إذ قَضَتْ حكْمَتُه
أن يخلُقَ الخيرَ من الشر ، وأنْ يأتَى بدلاً
من الأرواحِ الخبيثةِ بِجنْسٍ أرقى ليشغلَ
المكانَ الذى أُخرِجوا منه ، وهكذا ينشرُ ١٩٠
خيرَه إلى عَوَالِمَ وعُصُورٍ لا نِهايةَ لها .
وبهذا أنْشَدَتْ طبقاتُ الملائكة ، وفى أثناء ذلك
ظَهَرَ الحَرْفُ المَنُوطُ به تحقيقُ الإنجازِ العظيم
محفوفًا بالقُدْرةِ على كُلّ شىءٍ ، مُكَلَّلاً بالسَّنى والسّناء
وبالجلالِ الإلهى ، وبالحكمةِ ، وبالحب ١٩٥
الغامرِ ، وسَطَعَتْ فى الحَرْفِ أسماءُ الله الحُسْنى جميعًا .
وفى رِكابِه تَدَفَّقَتْ أعدادٌ لا تُحصى من الملائكة
من الشاروبيم والصاروفيم ، ومن ذوى القُوَى وذوى العروش
ومن ذوى الفضائل ، ومن الأرواح المُجَنَّحةِ ، والعَرَبَات المجنحة ،
من خزائنِ اللهِ ، حيثُ انْتَظَمْت منذ الأزلِ ٢٠٠
آلافٌ مؤلّفة فى مَأْزِمٍ بين جَبَلَيْن من النُّحَاس ، واقفةً
فى انتظار يومٍ مشهودٍ ، قريبةً ومدجَّجة ،
فهى حاشيةُ السماء ، وتَقَدَّمَتْ الآن
تلقائيًا ، إذ كانت الروحُ الحَيَّةُ فيها

يقظةً تنتظرُ إشارةَ مولاها ، وفَتَحتْ السماءُ ٢٠٥
أبوابَها الصامدةَ على مصاريعها ، فَصَدَرَتْ أنغامُها متوافقةً
وهى تدورُ على المحاورِ الذهبيةِ ، ليخرجَ منها
مَلِكُ الجلالِ بمالَهُ من قوة الكَلِمةِ
والروحِ ، مقبلاً ليخلقَ عوالمَ جديدة .
على أرض السماء وقفوا ، ومن الشاطئ ٢١٠
أبصروا الهُوَّةَ السحيقةَ التى لا قَرَارَ لها
كالبحر مائجةً هائجة ، مظلمةً موحشةً جامحة ،
تثيرها من الأعماق رياحٌ جائحة
وأمواجٌ ثائرةٌ فائرة ، كالجبالِ تناطحُ
ذروة السماء وتمزج قُطْبَ الأرض بمركزها . ٢١٥
الصمتَ أيتها الأمواجُ الهائجةُ ، ويا أيها البحرُ اسْكُنْ !
ذاك ما قالته الكلمةُ الخالقة ، وأضافت : أَقْلِعْن عن نشازكن !
ولم تَلْبَثْ الكلمةُ حتى انْطَلَقَتْ على أجنحةِ ملائكة الشاروبيم
طائرةً تركبُ متنَ الجلالِ الإلهىِّ العظيم
فَقَطَعتْ مسافةً هائلةً وَسْطَ العَمَاء والعالمِ الذى لم يولدْ بَعْد ، ٢٢٠
ولقد سَمِعَ العماءُ صوتَ ذلك الحَرْف ، واتّبعته حاشيتُه جمعاءَ
تسيرُ فى رِكابِه فى موكبٍ مُشْرِقٍ وَضَّاءٍ لتشهدَ

الخَلْقَ ومعجزاتِ جبروتِه ، ثم تَوَقَّفَتْ
العجلاتُ الناريّةُ وهَدَأَتْ ، ثم أمسكَ فى يده
بأجهزةِ قياسِ الاتجاه الذهبية التى جِىءَ بها ٢٢٥
من خِزَانَةِ الله الخالدة ، لرسْمِ حُدود
هذا الكون ، وجميعِ المخلوقات .
وجعل من إحدى قدميه مركزًا ، ودار بالأخرى فى دائرة
داخل الأعماق السحيقة الشاسعة الظلماء
وقال إلى هنا تمتدُّ ، وهذه حُدُودُك ٢٣٠
وليكنْ هذا محيطَ دائرتِك المرسومَ أيها العالم .
وهكذا خَلَقَ اللهُ السماءَ ، وهكذا خلقَ الأرض ،
من مادّة لا شكلَ لها وخَوَاءٍ ، والظُّلْمةُ العميقةُ
تغشى الهُوَّةَ السحيقة ، ولكنْ على وَجْهِ الماء الساجى
نشر رُوحُ الله جَنَاحَيْه وبَسَطَهُما بَسْطًا ٢٣٥
ونَفَثَ قُوّةَ الحياة ، وطاقةَ دِفْءِ الحياة ،
فى شتَّى ذَرَّاتِ الكُتْلةِ السائلةِ ، ولكنّه طَهَّرَ أعماقها
من الشوائب السوداء والحُثالةِ الباردةِ الخبيثةِ
المُعاديةِ للحياةِ ، ثُمّ أَرْسى وأَسَّس ، ثم جَمَعَ فكَوَّر ،
وقَرَنَ الأشياء إلى أشباهها ، ووضع الباقى فى أماكنَ متباعدةٍ ٢٤٠

متفرقة ، وفيما بينها جميعًا أنشأ الهواء .

وغدت الأرض مُعَلَّقةً متوازنة حول مركزها .

وقال الله فَلْيكُنْ النّورُ فكانَ النّورُ على الفَوْر

نوراً أثيريا صافيًا ، أولُ الأشياءِ ، والجوهرُ النَّقِىُّ

النابعُ من المحيط ، والمنطلقُ من موطنِه فى الشرقِ ٢٤٥

بادئًا رحلتَه عبرَ دَيْجُورِ الهواء

مستديرًا فى سحابةٍ وضّاءة ، إذْ لم تكنْ الشمسُ

قد وُجدتْ بَعْدُ ، حتى أقام فى صومعةٍ ضبابيهِ

ولَبِثَ فيها زمنًا ، ورأى اللهُ أن النُّورُ حَسَنٌ

وفصلَ النُّورَ عن الظلام فى نِصْفَىْ الكرةِ الأرضية ٢٥٠

فانفصلا ، وأسمى النور نهارًا والظلام ليلاً

وهكذا أصبح اليومُ الأول يتكون من مساءٍ وصباحٍ

ولم يَعْدِمْ ذلك الحَدَثُ مَنْ احتفلَ به ، أو من يُنْشِدُهُ الألحان

من جماعاتِ المنشدين فى السماء ، عندما سطع نور الشرق

ورأوه يتدفق أولَ مرةٍ من سُجُفِ الظلام ٢٥٥

يومَ ميلادِ السماء والأرض ، فأفْعَمُوا بالفَرْحَةِ والصياحِ

وملأوا خَوَاءَ الفَلَكِ الكَوْنِىِّ المديد ،

ومَسَّتْ أناملُهم أوتارَ القيثارَ الذهبى ، وبالتسابيح حمدوا

الله وامتدحوا ما خَلَقَ ، منشدين للخالق أهازيجهم

عندما أَمْسَى أولُ مساءٍ وعندما أَصْبَحَ أولُ صباحٍ . ٢٦٠

ثم قال الله فَلْتَكُنْ السماءُ وَسْط الأَمْوَاهَ ،

ولتَفْصِلْ هذه المياهَ عن تلك المياهِ ، وجعل اللهُ

السماءَ كيانًا مديدًا من الهواء السائل النقى

الشفّاف ، من عنصر صافٍ ، وانتشر ٢٦٥

فى دائرة حتى وصل إلى أَقْصَى أطرافِ محيط

هذا الكون العظيم ، فَأصلٌ ثابتٌ وطيد

يعزل المياهَ السُّفْلى عن المياه العليا

ويفصل بينها ، فعلى مثالِ ما بنى الأرضَ بنى العالم

وشَيَّده على وَجْهِ الأمواهِ الدائريةِ الساجيةِ ، فى محيطٍ شاسعٍ ٢٧٠

كالبِلَّور الصافى ، ثم أَقْصَى النَّشَازَ الصاخِبَ

للعَمَاءِ ونَفَاهُ ، حتى لا تتجاورَ النقائضُ فتشتبك

فى ضراوةٍ قد تُزَعْزِعُ نظامَ الهيكلِ كله .

وأطلق على الجوّ اسمَ السَّماءِ الدُّنيا ، وهكذا ، مساءً

وصباحًا ، غنى المنشدون أغنيةَ الترحيبِ بإشراقِ اليومِ الثانى . ٢٧٥

تشكّلتْ الأرضُ ، ولكنه كان فى رَحِمِ

الأمواه جنينٌ لم تكتمل صورتُه بعد ،

ولم يظهرْ بعد ، فعلى وَجْه البسيطة كُلِّها كانت مياهُ
المحيطِ تجرى بلا انقطاع ، ولم تكن عاطلةً ، بل كانت تحملُ دِفْءَ
عنصرِ إخصابٍ يُلينُ سطحَ الكُرةِ كُلَّه ، ٢٨٠
وعندما تخمّر جَعَلَ الأُمَّ الرؤومَ تحمل ،
بعد أن رَوَّاها فأشبعها ماءُ التكاثرِ ، عندما قال اللهُ
فتجتمعى الآن أيتها الأمواهُ الجاريةُ تحت قُبّةِ السماء
فى مكانٍ واحد ، ولتظهرْ اليابسةُ الآن !
وعلى الفور ظهرت الرواسى الضّخام ٢٨٥
وبَرزَتْ ، ورفَعتْ ظُهُورَها العريضَة العارية
حتى اخترقت السحب وارتقت ذراها عَنَانَ السماء .
ومثلما ارتفعت هاماتُ الجبالِ الثِّقالِ ، انخفضت
هُوَّةٌ كالجُبّ ذى القاعِ العميقِ العريضِ ،
حَوْضٌ واسعٌ للأمواه التى اندفعت فيه ٢٩٠
مُسْرِعةً فرحةً لشدةِ انحدار جوانبه ، وقد تجمعت
كأنها القطرات التى تتكوّر على التراب فى اليابسة ،
وارتفع بعضها فى جدار بِلَّوْرِىّ أو صخرة سامقة
من سرعة الاندفاع ، وسُرَّت القيادة العظمى بهذا الانطلاق
على متن الأنهر المسرعة ، ومثلما تنطلق الجيوش حين يدعوها ٢٩٥

النفير ( ولقد سَمِعْتَ من قبلُ عن الجيوش )
فَتَلْتَفُّ حول حاملِ اللواء ، انْطَلَقَتْ حشودُ المياه
موجةٌ تعلو فوقَ موجةٍ ، أينما وضَحَ السبيلُ ،
فإن كان المَهْبِطُ شاهقًا انقضّت كسيلٍ عارمٍ ، وإن كان السهل منبسطًا
هَدَأَتْ ولاَنَتْ ، ولم يَعُقْها عائقٌ من صخورٍ أو تلال ٣٠٠
بل شقت طريقها ، إما تحت الأرض ، وإما دائرةً فى دورات
تتلّوى حول العوائقِ مثل الثُّعبانِ ، فَتَحْفُرَ
فى الطّينِ اللَّزِجِ قنواتٍ حتى تَصِلَ إلى البَحْر .
وهَدأَتْ حركتُها قبل أن يأمرَ اللهُ الأرضَ أن تَجِفَّ
إلا بين هَاتِيكَ الضفافِ حيث تتدفقُ الأنهارُ الآن ٣٠٥
وتجرى ، وهى تُجَرْجِرُ فى كل آنٍ أذيالَ ثَوْبِ الماء .
وأطلق الله اسم اليابسةِ على الأرض الجافة ، وأما المستودعُ الهائل
من الأمواهِ المتجمعة فأسماها البحار
ورأى ذلك حسنًا فقال : فَلْتُخْرِجْ الأرضُ
الكلأَ الأخضر ، والعشبَ الذى يُنْبِتُ الحَبَّ ، ٣١٠
وأشجارَ الفاكهة التى تُثْمر كل منها فاكهة من لَوْنها ؛
وبذورُها فى ذاتها فى الأرض .
ولم يكدْ يقولُ ذلك حتى كانت الأرضُ الجرداءُ ، وكانت

صحراءَ جرداءَ ، قبيحةً لا يَزِينُها شيءٌ ، حتى تلكَ اللحظة ،
قد أنبتت الكلأ الرقيق ، فكَسَتْ نصالُه الزاهيةُ ٣١٥
وجهَ الأرضِ فى كل مكانٍ باللونِ الأخضرِ البهيج ،
وتَلَتْهُ أعشابٌ ذات أوراقٍ من شتى الأشكال ، إذ أَزْهَرَتْ فجأةً
وتَفَتَّحَتْ ، مختلفةٌ ألوانُها ، فأشاعتْ السرورَ
وطيبَ الشذا والأريجَ فى صَدْرِها ، ولم تَكَدْ تتفتّحُ
حتى ازْدَهَتْ عرائشُ الكروم بالعناقيد المتراصَّة ، وزَحَفَ على الأرض ٣٢٠
اليَقْطينُ المنْتفِشُ ، وانْتَصَبَتْ سنابلُ القَمح على أعوادها
شائكةَ السلاحِ فى حقولها ، والخُزامى بسوقِها القِصار ،
والشجيراتُ ذاتُ الشَّعْر الجَعْد الكَثّ ، وأخيراً
هَبَّتْ أشجار الدَّوْحِ متمايلةً كالراقصاتِ ، ونَشَرَتْ
غصونَها المثقلةَ بالثّمارِ الجَمَّةِ ، أو فَتَّحتْ أكمامَ ٣٢٥
براعِمِها ، فكُلِّلتْ بالغاباتِ السامقةِ هاماتُ التلال
وبالكلأِ الوديانُ وكلُّ عينٍ من عيون الماء
وبالضفافِ الطويلةِ الأنهارُ . وكانت الأرض الآن
تبدو مثل الجنَّة ، مقرًا يليقُ بسُكْنَى الملائكة
فالنُّزْهة فيه مُمْتعةٌ ، وما أَجْمَلَ الابترادَ ٣٣٠
فى ظِلاَلِها المُقَدَّسة : وإذا كان اللهُ لم يُنْزِلْ المطرَ بَعْدُ

على الأرض ، ولم يكنْ فيها من البَشَر من يَفْلَحُ التُّربة
فإنّ رذاذَ الأنْداءِ كان يَتصَاعَدُ من الأرض
ويَرْوى التُّرْبَةَ كلَّها ، ويَرْوِى كُلَّ
نباتٍ فى الحقل ، وكان اللهُ قد خَلَقَهُ ٣٣٥
قبل أن يكون فى الأرض ، وكُلَّ عُشْبٍ قبلَ أن ينمو
على ساقه الخضراء ، ورأى الله ذلك حسنًا ،
وهكذا شَهِدَ المساءُ والصباحُ اليومَ الثالث .

وتكلم الجبارُ مرةً أخرى فقال : فلتكنّ هناك مصابيحُ
عاليةٌ فى صفحةِ السماء الدُّنيا حتى تَفْصِلَ بين ٣٤٠
النهار والليل ، ولتكنْ آياتٍ يُهْتدىَ بها لمعرفةِ
الفصول والأيام والسنين الدوّارة
ولتكنْ المصابيحُ المنيرةُ حسبما قَضَيْتُ
لها أن تكونَ فى السماء الدنيا ،
فترسل ضوءَها إلى الأرض ؛ ونَفَذَتْ مشيئتُه . ٣٤٥
وخلق اللهُ سِراجَيْن مُنيرين عظيمين ، وسرُّ العظمة نَفعُهما
للبشر ، أما السّراجُ الوهّاجُ الأكبرُ فهو مَلِكُ النهار
وأما الأصغرُ فَلَهُ اللّيلُ ، بالتناوب . وخَلَقَ النجوم
ووَضَعَها فى السماء الدنيا

حتى تنيرَ الأرضَ ، وتكونَ ملوكًا على النهارِ ٣٥٠
فى تعاقبِ مواقِعها وملوكًا على الليل
إذ تفصلُ النورَ عن الظلامِ . ورأى اللهُ
وهو يستعرضُ عَمَلَه العظيمَ أن ذلك حسنٌ .
فبدأ بالشمس من بين الأجرام السماوية
فصوّرها فى صورة كُرَةٍ جبارةٍ ، وكانت مظلمة أولاً ، ٣٥٥
وإن كانت مادتها صافية نقية ، ثم صوّر القمر
فى صورة كُرويّة ، والنجومَ بشتى أحجامها ،
وبَذَرَ النجومَ فى السماء بذرًا كأنها البُذُورُ فى الحقل
وأخذ معظم طاقاتِ نورها
فنقلها من صوامعها الضبابية ، وأنزلها ٣٦٠
فى إهاب الشمس ، إذ جعله ذا مَسَامٍّ قادرًا على تلقىّ
الضوءِ السائلِ وارتشافه ، وصُلْبًا قادرًا على حفظ
ما اجتمع فيه من الأشِعّةِ ، فَغَدَا صَرْحَ الضوءِ الأعظم .
وإلى هذا الصَّرْحِ تأتى النجومُ الأخرى ؛ كأنه النَّبعُ الذى
تستقى منه الضوءَ فى آنِيَتها الذهبية ٣٦٥
ومن ضوء الشمس يستمدُّ كوكبُ الصباحِ ما يزينُ به قَرْنَيْه ؛
وهكذا فالإمداد بالضوءِ أو انعكاسُه يزيدُ من

نور النجوم الأصيل ، ولكنها بعيدة عن بصر الإنسان

بعدًا شاسعًا يجعلنا نراها ضئيلة الجرم .

شوهد السِّراجُ الوهّاجُ أولَ مرةٍ فى مَطْلَعِهِ الشرقى ٣٧٠

ملكًا على النهار ، والأفق من حوله تغمره

الأشعة الساطعة ، وبدأ يجرى مرحًا

فى فَلَكِهِ المرسوم على الطريق العُلْوِىِّ فى السماء ، وأما

الفجر الأَشْهَبُ وكوكبُة الثُريّا فكانا قد سبقاهُ راقصيْن

مرسليْن البشائرَ اللطيفةَ ، وأما القمرُ الأقلُ سطوعًا ٣٧٥

فكان يغرب فى الأفق الغربى ، على الطرف الآخر ،

كان مرآة السراج الوهاج ، وطلعةُ البدرِ تستعيرُ ضوءَها

منه ، فى غير حاجة إلى أى ضوء آخر سواه

وهو فى هذا المَنْزِلِ ، ويظلُّ بعيدًا عنه بالمسافَةِ نَفْسِها

حتى يأتىَ اللّيْل ، ويأتى دورُه ليسطعَ فى الشرق ٣٨٠

بعد أن يدورَ حولَ مِحور السماء العظيم ، ويبدأ عهد مُلْكه

مشاركًا فيه ألفَ مصباحٍ صغيرٍ

وألفَ ألفِ نجمٍ ، تبدو آنذاك

وقد رَصَّعَتْ نصف الكرة الذى زُيِّنَ أوّلَ مرّة

بتلك الأضواء المتلألئة التى غَرُبَتْ ثم أشرقت ٣٨٥

فكانت فرحةُ المساءِ وفرحةُ الصباحِ تتويجًا لليوم الرابع .

وقال الله : فَلْتَتَوَلَّدْ من الأمواه

زواحفُ ذاتُ بيضٍ كثير وذاتُ أرواحٍ حيّةٍ

ولتَطِرْ الطيورُ فوق الأرض بأجنحةٍ تَدِفُّ

منشورةً فى جَوِّ السماءِ الطليقِ ٣٩٠

وخَلَقَ اللهُ الحيتان الضخمة ، وكُلَّ

روح حية ، وكل من يمشى على بطنه ، وهى التى أكثرت

المياه من توليدها من كل جنس ،

وكل طائر يطير ، من جنسه ،

ورأى الله ذلك حسنًا فباركها وقال ٣٩٥

تكاثروا وتناسلوا ، واملأوا المياه فى البحار

وفى البحيرات وفى الأنهار الجارية ،

ولتتكاثر الطيور على الأرض .

وعلى الفور أصبحت المحيطاتُ والبحارُ ، وكل غديرٍ وخليجٍ ،

حافلةً بأعدادٍ لا تُحصى من الكائناتِ الصغيرةِ ، وأسرابِ ٤٠٠

الأسماكِ التى كانت بزعانفها وقُشُورها اللامعةِ البراقةِ

تنزلقُ سَارِبَةً فى لُجَجِ المياهِ الخضراء ، فى زُرافات كثيرًا ما

تتكدَّسُ كأنها السَّدُّ فى ثَبَجِ البَحْر ، بعضُها وَحْدَهُ وبعضُها مع زَوْجِه ،

تأكلُ الأعشاب البحرية فى مراعيها ، أو تجوبُ خمائل

المَرْجَان فَتَضِلُّ فيها ، أو تلهو فتميلُ فجأةً ٤٠٥

فَتُظْهِرُ للشمس أَرْدِيَتَها المتماوجةَ المُرَقَّشَةَ بالذهب

أو تنتظرُ ، على غير عجل ، فى صَدَفَاتها ذوات اللؤلؤ

أن يأتيها الغذاء من الماء ، أو تكمنُ تحت الصخور

فى دُرُوع مُلْتَحِمةٍ ترقبًا للغذاء . وفى المياه الهادئة ترى الفَقَمةَ

وترى الدَرْفيلَ المُخطَّط أثناءَ اللعب ، وهى لضخامة جُرْمها ٤١٠

تتمايلُ دون رشاقة ، ولكنها حين تنطلق ترى جسامتها

وقد عكّرت ماء المحيط ، وذاك تِنِّينُ الماء

أضخم المخلوقات الحية ، ممددًا فى البحر

ممتدًا مثل البرزخ ، نائمًا أو سابحًا ،

ويبدو كأنه أرض تتحرك ، فمن خياشيمه ٤١٥

يَنْشَقُ الماء نَشْقًا ، ومن جذعه يَنْفُثُ بحرا .

وفى أثناء ذلك ترى الكهوفَ الدافئة ، والأَهْوَارَ والشُّطآن

وقد فَقَسَ فيها بيضُ الطيورِ التى تُضَارِعُ الأسماكَ فى كثرتها ، فالبيضُ سرعان

ما ينكسِرُ بطبيعته ويَتَفَتَّتُ فتخرج منه

الصغار عارية ، ولكنها سرعان ما ينمو ريشها ٤٢٠

فتنعمُ بالقوادِمِ والخَوَافِى ، فتحلّقُ عاليةً فى الهواء

وتصيحُ صيحاتِ الازدراء للأرضِ ، التى تلوحُ لها الآن
من تحتِ سحاباتِ الأجنحةِ ، وهناك العِقْبانُ واللَّقَالقُ
التى تبنى أوكارَها فوقَ الصخورِ الشّاهقَةِ وقِمَمِ الأَرْزِ السّامقَةِ
فبعضُها يحوّم منفرداً فوق المنطقة ، وبعضها أكثر حكمة ٤٢٥
إذ يشق طريقه فى سِرْبٍ على شكل سَهْمٍ
عارفًا بفصول السنة ، فينطلق فى
قافلةٍ فى الهواء ، فيُصَعِّدُ فى الجو عاليًا فوق البحار
فى طيرانه ، أو فوق اليابسةِ بأجنحةٍ متعاضدة
تُيَسِّرُ سبيل الرحلة ؛ وذلك ما يفعله الكُرْكِىُّ العاقل فى توجيه ٤٣٠
رحلته السنوية ، محمولاً على متن الرياح ، والهواء
يتماوج أثناء مروره ، تُحَرِّكُهُ أعداءٌ لا حَصْرَ لها من الريش .
وأما الطيور الصغرى فهى تنتقل من فَنَنٍ إلى فنن ، بأغانيها
التى تُسَرِّى بها عن الغابات ، وتنشرُ أَجْنحَتَها المخضّبة
حتى المساء ، ولو أن البُلْبُلَ الرَّزِينَ ٤٣٥
لا يتوقفُ عن الشَّدْوِ بل يستمرُّ طولَ اللَّيْلِ فى صَوْغِ ألحانه الرقيقة
وترى طيوراً أُخرى فى لُجَيْن البُحَيْرات والأنهار تَغْسِلُ
الزَّغَبَ فى صُدورها ، فطائرُ التَّمِّ ، برقبته الطويلةِ المقوَّسة
الشامخة بيْن جناحَيْه اللَّذيْن يكسوانِه مثلَ وشاحٍ فخارٍ أبيضَ يُجَدِّفُ

فيتهادى بقدمين كالمجاديف ، لكنه كثيراً ما يغادر ٤٤٠

الماء ، ويصعد بريشه القوىّ فيحلقُ عاليًا

فى كَبِدِ السماء ، ونرى طيوراً غيرها تسير على الأرض

بخطى ثابتة ، مثل الديك ذى العُرْفِ الذى يصيحُ فى

ساعاتِ الهَدأةِ ، ومثل الطاووسِ الذى يختالُ بالريش الزاهى الذى

يَزِينُه ، مُلَوّنًا بألوانِ الزُّهور وألوان ٤٤٥

قوسِ قُزَحٍ والعيونِ اللألاءةِ كالنجوم . وهكذا امتلأَتْ الأمواه

بالأسماكِ ، وامتلأ الهواء بالطيور ، فهبط

المساء وأشرق الصبح فى اليوم الخامس .

أما اليوم السادس ، وهو آخر أيام الخلق ، فبدأ

بألحان قيثار الليل وصلواته ، عندما قال اللهُ ٤٥٠

فَلْتُخْرِجْ الأرضُ الأرواحَ الحيَّةَ من جِنْسِها

من الماشية والزواحفِ وحيوانِ الأرضِ ،

من شتى الأجناس ، فأطاعَتْ الأرضُ وعلى الفور

فَتَحَتْ رَحِمَها الخِصْبَ فَتَكَدَّسَتْ فى ذلك المولد

أعدادٌ لا تحصى من المخلوقات الحية ، تامَّةَ الصورة ، ٤٥٥

كاملةَ الأطرافِ ، مكتملةَ النُّمو ، ومن الأرضِ نَهَضَتْ

الحيواناتُ المتوحشةُ كأنما تنهضُ من مَرَابِضِها ومكَامِنِها

فى الغاباتِ البَرِّية أو الأدغالِ أو الأحراشِ الشائكةِ أو العَرَائِنِ .
ونَهَضَ كل زَوْجَيْن معًا وَسْطَ الأشجار ، وسار الجميع ،
فاتجهت الماشية إلى الحقول والمراعى الخضراء ، ٤٦٠
وكانت الوحوش تسير فى انفراد وعزلة ، والماشية فى قطعانَ
ترعى معًا ، بل وَظَهَرَتْ أول ما ظَهَرَتْ فى قطعانَ عريضةٍ
وانْشَقَّتْ بعضُ قِطَعِ الطِّينِ التى ينمو عليها الكلأُ ، فظهر النصف الأمامى
للأسد بلونه الأدْكن ، وأخذ يَخْمِشُ الأرض بقدميه ليُخَلِّصَ
رجليه من الطّين ، ثم انْطَلَقَ كالأسير من قيوده ، ٤٦٥
وصَالَ وجالَ وهو يهزُّ لِبْدَةَ رأسِهِ البُنِّيَةَ اللّونِ . وتلاه البَبْر
والفَهْد والنَّمرُ وقوارضُ الأرضِ التى خَرَجَتْ
ونَهَضَتْ ، فأهال خروجُها الترابَ الذى نَفَضَتْهُ واجتمع
فى كثبانَ ، وخرجَ الظَّبْىُ العَدَّاءُ من تحتِ الأرض
وهو يحفُرها بفروعِ قَرْنَىْ رأسه ، ولا يكادُ يُضارعُ شىءٌ هيكلَ ٤٧٠
الفيلِ فى ضخامَتِهِ ، وهو يُولَدُ من الأرضِ ويرفعُ
هامَتَهُ الهائلة ؛ وبعدَه خَرَجَتْ القُطعانُ ذاتُ الفِرَاءِ والثُّغاء ،
مثل النباتات ، ثم كان مَنْ تَرَدَّدَ بين الماءِ واليابسة ،
فرسُ النَّهْرِ والتِّمساحُ ذو القُشُورِ الصَّلْدَةِ .
وخرج معًا كل ما يَزْحَفُ على سطح الأرض من ٤٧٥

حشراتٍ أو ديدان ، فالأولى تَدفُّ بأغشيةٍ رفرافة
كأنها الأجنحة ، وقد تَنَاسَقَتْ فيها أدقُّ الأعضاءِ وأصغرُها
فى شتّى ما اكْتَسَتْهُ من أَرْدِيَةٍ مُوَشَّاةٍ بِبُقَعِ الصَّيفِ الزَّاهيَة
ومُرَقَّشةٍ بألوانِ الذَّهَبِ والأُرْجُوان واللازوردى والأخضر .
والأخرى تنتظم فى صف طويل وهى تسير ٤٨٠
تاركة على الأرض آثارًا غائرةً واضحة ، ولم تكن كلها
من أصغر المخلوقات فى الطبيعة ، بل كان من الحيات أنواع
عجيبة الطول والاكتناز ، تلتوى
تلافيفها الثعبانية ، وازدادت أجنحة . وبدأت الزحف
النملة الحريصة المُدَبِّرةُ ، فهى تَدَّخِرُ ٤٨٥
للمستقبل ، فى جُرْمها الضئيلِ قلبٌ كبيرٌ ،
وربما ستكون نموذجَ المساواة المنصفة
فيما بعد ، فالتحقت بقبائل شَعْبها
من العَوَامّ ، وظهر بعدها حَشْدٌ من
إناث النَّحْل ، فهى التى تُطْعِم أزواجَها من الدَّبْرِ
ما لَذَّ وطابَ ، وتبنى الخلايا الشمعية ٤٩٠
العامرةَ بمخزونِ الشّهد : أما باقى المخلوقاتِ فلا يُحصى عددها
وأنت تعرف طبائعها ، وأَطْلَقْتَ عليها أَسْمَاءَهَا

ولا داعىَ من ثَمّ لتكْرارِها عليكَ ، ولَسْتَ تجهلُ

الحيَّة ، أشدَّ حيوانِ الحقْلِ مكرًا ودهاءً ، ٤٩٥

أحيانًا ما تكونُ بالغةَ الضخامةِ ، برّاقةَ العينين ،

ولها لبدةٌ من الشعرِ الكثيفِ المخيفِ ، وإن كانتْ

غيرَ مؤذيةٍ لك ، بل مطيعةٌ تلبىّ دعوتك .

وأشْرَقَتْ السماءُ الآنَ بكلِّ آياتِ بهائها ، وبَدأَتْ

حركةُ أفلاكِها على نحو ما رَسَمَتْهُ يدُ المُحرّك الأولِ العظيمِ ٥٠٠

وحددّ مجراه أوّلَ الأمْرِ ، وكانت الأرضُ فى رِدائها الحافلِ

الذى بلغ الكمالَ والجمالَ ، تبتسمُ ، ففى الهواءِ وفى الماءِ وفوق الثرى

تطيرُ الطيور وتسبح الأسماك وتمشى الحيوانات

بأعدادها الكبيرة ، ومع ذلك فلم يكنْ اليومُ السادس قد انقضى

وكان العملُ الأعظم لا يزال ينتظر الإنجاز ، غايةُ ٥٠٥

كُلِّ ما أُنجزَ حتى الآن ، ألا وهو مخلوقٌ لا يسيرُ منحنيًا

وليس وَحْشيًّا مثلَ المخلوقاتِ الأُخرى ، ولكنه وُهِبَ

قداسةَ العقْلِ ، قادرٌ على انتصابِ القامةِ

والهامةِ ، قائمٌ على قدميه ، رزينُ الجَبْهَةِ والطّبعِ ،

حاكمٌ على الجميع ، يعرفُ ذاتَه ، ومن ثَمّ ٥١٠

فَلَهُ من سُمُوّ الفؤاد ما يُتيح له التخاطبَ مع السماء

ولكنه يُقرُّ بالفضلِ ويمتنُّ له فيعترفُ بمصدرِ الخير
الذى يَهبطُ عليه ، فقلْبُه وصَوْتُه وعيناه
مُوَجَّهَةٌ فى خشوعٍ لتقديسِ الله
وعبادةِ الله ، الربِّ الأعلى ، الذى جعله رأْسَ ٥١٥
جميعِ أعمالِه ، وهكذا قال القَادرُ على كل شىء ،
الإلهُ السَّرْمدىُّ ( فهو موجودٌ فى كل مكان
وحاضرٌ أبدًا ) إلى كلمته بصوت مسموع :
فَلْنَصنَعْ الآنَ الإنسانَ على صُوَرتنَا ، الإنسان
على مِثَالِنا ، ولْتَجْعَلْ البشرَ أسيادًا ٥٢٠
للأسماك والطيور فى البحر والهواء
وللحيوان فى الحقول ، وللأرض كلها
وكل زاحفٍ يزحفُ فوقَ الترابِ . وما إن قال كُنْ
حتى كُنْتَ يا آدم ! لقد صَوَّرَكَ أيُّها الإنسانُ *
يا ترابَ الأرضِ ، ونَفَثَ فى فَتْحتَىْ أنفك ٥٢٥
أنفاسَ الحياة ؛ فَعَلَى صُوَرَتِه هو
خلَقَكَ ، فى صُورَةِ الإله
الصريحةِ فأصبحتَ نَفْسًا حَيَّة .
خَلَقَكَ ذَكَرًا ، ولكنه خلَقَ زَوْجَكَ

أُنثى لإنجابِ الذُّرِّية ؛ ثم بَارَكَ البَشَرَ وقَالَ  ٥٣٠

تناسلوا تكاثروا ، واعْمُروا الأرضَ كُلَّها

وسَخِّروها لَكُمْ ، ولتكنْ لكمْ السيادةُ فى أرجائها

على أسماكِ البحر ، وطيورِ الهواء

وعلى كل كائنٍ حيٍّ يدبُّ فوقَ الثَّرى .

وأينما كان خَلَقُكَ ، إذ لا نستطيعُ معرفةَ المكانِ  ٥٣٥

أو تمييزَ اسْمِهِ حتى الآن ، فلقد نَقَلَكَ منه كما نَعْرِف

وجاءَ بكَ إلى هذه الخَمِيلَةِ المُلْتَفَّةِ البهيجة ،

هذه الحديقةُ التى غُرِسَتْ فيها أشجارُ الله ،

الممتعةُ للنَّظَرِ وللمذاق

وأباحَ لك أن تَغْتَذِىَ على جميعِ فواكهها البَهِيَّة  ٥٤٠

فهى لك كلها ، فجميعُ أنواعِ ما تُثْمِرُهُ الأرضُ على امتدادِها هنا

ولا حدودَ لِتَنَوّعه ، ولكنّه حرَّم عليكَ الشجرة

التى إن ذُقْتَ ثمرَها اكْتَسَبْتَ المعرفةَ بالخير والشر

فهى مُحرَّمةٌ ، واليومُ الذى تأكُلها فيه تموتُ فيه .

فالموتُ هو العقابُ الذى قَضَى به ، فاحْذَرْها ،  ٥٤٥

وتَحكَّمْ فى شَهيّتك خيرَ التحكّم ، حتى لا تُفَاجَأَ

بالخطيئةِ تَدْهَمُكَ ، وهى ورفيقُها الأسودُ - الموتُ !

وانتهى هنا ، وألقى على كُلِّ ما صَنَعَهُ

نظرةً ، وما أَحْسَنَ ما بدا كُلُّ شيء وأكملَهُ .

وهكذا كَرَّ المساءُ والصباحُ فانطوى اليومُ السادسُ ٥٥٠

ولكنه لم يكْتَمِلْ حتّى كَفَّ الخالقُ عن ذَيَّاكَ العَمَلِ

وتَوَقَّفَ دونَ كَلاَلٍ ثم ارتفعَ عائدًا

صاعدًا إلى عرشه السامى فى سماء السماوات

ليبصرَ منه هذا العالم المخلوقَ الجديدَ الذى

أضافَه إلى مُلْكِهِ ، ويرى كيفَ يبدو ٥٥٥

على البُعدِ من عَرْشه ، ومَدَى جَمَالِه وحُسْنِه

واتفاقِه مع الصورةِ المثلى التى أرَادَها له . صَعَدَ راكبًا

مَتْبُوعًا بِهُتَافِ الإطراءِ والثناءِ ، والأصواتُ

المتناغمةُ لعَشْرَةِ آلافِ قيثارةٍ تُصْدِرُ

ألحانَها المتوافقةَ الملائكيةَ ، وكانَت الأرضُ والهواءُ ٥٦٠

يُرْجِعَانِ الصّدى ، ( وأنتَ تذكرُها لأنّك سَمِعْتَها )

وكذلك رنّ الصدى فى السماوات وجميعِ البروجِ

ووقفت الكواكب فى مواقعها تصغى

وموكب النصر اللألاء يصعد مزهوًا فرحًا .

وكان من بين ما أنشدته : انفتحى أيتها الأبواب السرمدية ٥٦٥

وافتحى أيتها السماوات أبوابك الحية ، ورحّبى بدخول
خالقكِ العظيم عائدًا من عمله
الرائع ، عمل ستة أيام ، خلق عالم جديد .
انفتحى الآن ، وانفتحى كثيرًا منذ اليوم ، إذ سيتنازل اللهُ
بزياراتٍ كثيرة لمساكنِ البشرِ العُدُول ٥٧٠
مسرورًا ، وسوف تكثرُ المناجاةُ
حين يرسلُ رُسُلَهُ المجنحّة فَتَتَنَزَّلُ عليهم
فى مهامٍّ خاصةٍ تحملُ الرضوانَ والمغفرةَ . هكذا أَنْشَدَتْ
الحاشيةُ الوضّاءةُ أثناءَ الصُّعودِ ، ثم دَخَلَ اللهُ السماءَ
التى فتحت أبوابها النارية على مصاريعها ، والتى تؤدى ٥٧٥
إلى بيتِ اللهِ الأزَلِىّ مباشرةً ، فى طريقٍ
عريضٍ وبالغ الرحابةِ ، تُرَابُهُ مِنْ ذَهَبٍ
وأَرْصِفَتُهُ من النجُّومِ ، مثل النجوم التى تظهر لك
وتراها فى المجرَّةِ الكُبْرى ، مَجَرَّةِ دَرْبِ التَّبَّانة ،
التى تراها كل ليلة مثل نطاق دائرى ٥٨٠
مرصعة بالنجوم . وبدأ اليومُ السابعُ على الأرض
بحلولِ المساءِ فى عدن ، إذ غَرُبَتْ الشمس
وشاعتْ فى الأُفُقِ ألوانُ الشَّفَقِ من الشَّرْقِ

تُبشّرُ بحلولِ اللّيلِ ، وعند الجَبَلِ القُدْسِيّ

فى مَقْعَدِ الرِّفْعَةِ عند ذِرْوَةِ السماء ، عَرْشِ المُلْك ٥٨٥

للهِ سُبْحانه ، الثابت أبدًا ، صامدًا ووطيدًا ،

وَصَلَتْ كلمةُ اللهِ واستَقَرَّتْ

إلى جَانبِ الجبّار ، الذى كان معها

دونَ أن يراه أحدٌ ، حتى وهو هنا على العرش ، فهذه مَزِيّةُ

القائمِ فى كُلِّ مكانٍ ، وقد نَفَّذَ ما قَضَى به من عَمَلٍ ، ٥٩٠

فهو رَبٌّ كل شىء وغايةُ كل شىء ، وبَعْدَ العَمَلِ

استراحَ ، وبَارَكَ اليَوْمَ السابِعَ وجعله مُقَدَّسًا

لأنه استراحَ فى ذلك اليوم من كُلِّ عَمَلٍ

وإن كانت قداسته لا تعنى الصَّمْت ، فكان للقيثار

عمله فلم يَستَرِحْ ، وكذلك المزمارُ الرّزينُ ، ٥٩٥

وآلةُ السِّمْفُونيَا العَذْبَةُ ، وجميع ألوانِ الأُرْغُنِ ذى الوقفاتِ الجميلة ،

وجميعُ أصواتِ الآلاتِ الوترية ، سواءٌ ما صُنِعَتْ أوتارُه من المِعىَ

أو الأسلاك الذهبية ، ذوات المقابض المقسمة ، إذ صَدَرَتْ عنها ألحانٌ رقيقةٌ

اختَلَطَتْ بأصواتِ المجموعاتِ المتوافقةِ أو الواحدةِ ، وكانت سحائبُ البَخُورِ

تتصاعَدُ دُخَانًا من المَبَاخِرِ المُذَهَّبَةِ فَتُخْفِى الجَبَلَ . ٦٠٠

وغنى الجميع عن الخَلْقِ وما أُنجِزَ فى سِتَّةِ أيامٍ

ما أعظم أعْمَالكَ ، يا يَهْوَهْ ، وقوتك اللامتناهية ،
أىُّ فكرٍ يستطيعُ أن يقيسَها وأىُّ لسانٍ يستطيع
أن يَحكى عنك ، لأنْتَ أعظمُ فى عَوْدَتك الآن من عَوْدَتِك
من قَهْرِ عماليقِ الملائكة ، ففى ذلك اليوم ٦٠٥
عَظَّمَتْكَ رُعُودُك ، ولكنَّ خَلْقَ العَالَمِ
أعظمُ من تَدْميرِ بعضِ ما خَلَقْتَ .
من ذا الذى يستطيع أن يَمْسَسْكَ بضرٍّ أيها الملك الجبار
أو يحدّ من ملكك ؟ ما أَيْسَرَ ما قَهرْتَ كَيْد المُكَابِرين
من الأرواحِ المُرْتَدّةِ وأَبْطَلْتَ دعاواهم الغَرُور ٦١٠
ونَقَضتَها نَقْضًا ، إذ فَسَقُوا فَظَنُّوا أنّهم قَادِرُون
على أن يَنَالُوا مِنْك ، وأنْ يَنْتَزِعُوا منك
الحُشُودَ التى تَعْبُدُكَ . فكلُّ من يحاولُ
التقليلَ من شأنك يفشلُ فى مسعاه وينتهى
بإظهار المزيد من جبروتك ، إذ تنتفع بِشَرِّه ٦١٥
ومن الشَّرّ تخلقُ المزيدَ من الخَيْر .
ولنَشْهَدْ هذا العالمَ الذى صُنِع لِتَوِّه ، إنه لسَمَاءٌ
خارجَ السَّمَاء ولا يبعدُ عن أبوابها كثيرًا ، أُقِيمَ أَمَامَنَا
فى بحر البلّور الصافى الشفاف ، أو بحر الزجاج ،

شاسعَ الأرجاءِ لا يكادُ ينتهى ، وفيه نُجومٌ ٦٢٠
كثيرةٌ ، وربما يكون كُلُّ نَجْمٍ عالمًا
مُقَدّرًا له أن يَعْمُرَ بالسّكان ، ولكنك تعرف
مواقيتها ، وبينها مقرُّ البشر ،
الأرضُ التى يلتفُّ حولَها المحيطُ السُّفْلىُّ الأعظمُ ،
مسكنهُم الجميل ، لقد ضُوعفَتْ سعادتُكم ثلاثًا أيها البشر ٦٢٥
ويا أبناءَ البشر ، إذ ارتقيتم بفضلِ اللهِ الذى
خلقكم فى صورته ، لتسكنُوا فيها
وتعبدُوه ، وكافأكم بأن سَخَّرَ لكمْ جميع
ما خَلَق فى البر والبحر والجو ، وأتاح لكم
أن تُنْجِبُوا ذُرِّيَّةً من العابدين ٦٣٠
الصالحين العُدولِ ، ضُوعفَتْ سعادتُهم ثلاثًا إن عَرَفُوا
ما أُنْعِمَ بِهِ عليهم فثابروا وَرَعًا واستقامَةً .
كان ذلك ما أنشدوه فَتَردَّدَتْ فى السماء
التسابيحُ بحمد الله ، وهكذا كان حفلُ يومِ الراحة .
أمّا وقد أَجَبْتُ مَطْلَبَكَ ، فيما تَرَى ، حين سألْتَنى ٦٣٥
كيف بدأ هذا العالَمُ وتَشكَّلَ وجهُ الأشياء
وماذا وَقَعَ قَبْلَ عَهْدِكَ بالذّاكِرَةِ ،

ومنذ البدايةِ ، حتى تُطْلِعَ الخَلَفَ عَلَيْهِ
فَيَعْرِفُوه مِنْكَ ، فأرجو إن كُنْتَ تريد أن تَعْرِفَ
أَيَّ شيءٍ آخر ، لا يتجاوَزُ إدراكَ البَشَر ، أن تُفْصِحَ عنه . ٦٤٠

## نهاية الكتاب السابع

# الكتاب الثامن

## الموضوع

يستفسر آدم عن حركة الأفلاك فى السماء فيتلقى إجابة غير مؤكدة ، ويشار عليه بأن يطلب معـرفة ما هو أجدر بالمعـرفة ، ويوافق آدم ، وفى حدبه على استبقـاء روفائيل يقص عليه ما يذكره منذ أن خُلق ، ووضـعه فى الفردوس ، وكلامه مع الله عن العزلة والصحبة الصالحة ، وأول لقاء له مع حواء وزواجه منها ، وحديثه بعد ذلك مع الملاك الذى يكرر تحذيره ثم يرحل .

انتهى الملاكُ من حديثه وصوتُه ما فتئ يرنُّ فى أُذن آدم ،
صوتٌ بلغ من قُوّة سِحْرِه أن ظَنّ آدمُ ، بُرهةً يسيرةً ،
أنه ما زال يتحدث ، وظل ثابتًا فى مكانه حتى يصغى إليه .
وكأنما أفاقَ لتوّه ردّ بامتنانٍ قائلاً :
أى شكرٍ لدىَّ يكْفى ، وأى جزاءٍ عندى يوازى ٥
صنيعك فأقدمه لك يا أيها المؤرخ الإلهى
الذى أطفأ كثيرًا من غُلّتى

وتعطّشى للمعرفة ، والذى تعطَّفَ
وتنازلَ تنازُلَ الخلاَّنِ بأنْ يحدّثنى
عن أشياءَ لم أكنْ لأعرفَها إلا منه ، وقد سمعتُ الآن ١٠
ما أدهشنى وسُرِرْتُ به ، وكما يقضى الواجب ،
أُعْرِبُ عن التعظيم الذى لا يَحِقُّ إلا للخالقِ الأعلى .
ومع ذلك فلا يزال لدىَّ شىءٌ مِن الشك
ولن يَنْقَشِعَ إلا بشرحِكَ وإيضاحِكْ
فعندما أتطلّعُ إلى إطار هذا الكونِ البديعِ ، هذا العالمِ ١٥
الذى يتكونُ من السماءِ والأرضِ ، وأشرعُ فى حسابِ
أحجامِها ، فأرى أن الأرضَ نقطةٌ أو حبةٌ
أو ذَرَّةٌ ، إذا قُورِنَتْ بالسماء
وما فيها من نجومٍ كثيرة ، يبدو أنها تدور
فى مساحات تستعصى على الإدراك ( فذلك ٢٠
ما تدل عليه المسافات فيما بيننا وسرعة عودتها
إلى مواقعها كل يوم ) لا لسبب إلا لترسلَ ضَوْءَهَا
حولَ هذه الأرض المُصْمَتَةِ ، هذه النقطة الصغيرة ،
نهارًا أو ليلاً ، وفى كل هذا الإطار الشاسع
لا نفعَ لها سوى ذلك ، فإننى بميزانِ العقلِ كثيرًا ما أدهش ٢٥
كيف أن الطبيعةَ الحكيمةَ الشحيحةَ على نفسها يمكن أن ترتكبَ

هذه التناقضاتِ الصارخةَ ، فتخلقَ بأيدٍ بَسَطَتْها كل البَسْط
أجرامًا كثيرةً أشرفَ وأسمى ،
وأعظمَ وأشدَّ تنوعًا ، لهذه الغاية وحدها ،
حسبما يظهرُ لى ، وأن تَفْرِضَ عليها أنْ تدورَ فى أفلاكِها
دوراتٍ دائبةً لا تهدأُ ، ويومًا بعد يومٍ ٣٠
تتكرّرُ ، والأرضُ ساكنةٌ كسولٌ ،
وكان ينبغى لها أن تتحركَ بسبب صِغَرِ نطاقها ،
إذ سُخِّرَ لها ما هو أشرفُ وأسمى منها ، فتحققَ
غايتَها دونَ أدنى حركةٍ ، وتتلقى ٣٥
المكافأةَ مما تعودُ به تلك الرحلاتُ المُسَخَّرةُ لها ،
دِفئًا وضَوْءًا ، وهى رحلاتٌ تجرى بسرعةٍ لا تقدرُ عليها المادّة
بل لا أجدُ أرقامًا تستطيعُ وصفَ تلك السرعةِ الخارقة .

وصَمَتَ جَدُّنا ، وكان يبدو - من قسماتِ وجهه - أنه
بدأ يخوضُ غِمارَ تأملاتٍ وأفكارٍ عميقةٍ ، ولمَحَتْ حواءُ ٤٠
ذلك من حيثُ كانت تجلسُ خَافِيَةً عن الأنظار
فَنَهَضَتْ بتواضعٍ يَحُفُّهُ الجلالُ من مجلسها
وبرشاقةٍ جذابةٍ تجعلُ من رآها يتمنّى أن تبقى
وذَهَبَتْ لتنظرَ فواكهَهَا وأزْهارَهَا

وتطمئنَّ على نُمُوّها وتَفَتُّحِ البراعِمِ والأكمامِ ٤٥
التى ترعاها ، فَهَبَّتْ تلك حين رأَتْ حواءَ مقبلةً
وسَعِدَتْ بزيارتِها الرقيقةِ وتَرَعْرَعَتْ بسرورٍ أكبر .
ولكنها غادرتْ المجلسَ لا لأنّها لم تَجِدْ فى ذلك الحديثِ
متعةً ، أو لأنّ أُذُنَها لا تستطيعُ استيعابَ
الفكرِ الرفيعِ ، ولكنّها كانت تُفضّلُ ألاّ تَجْنِىَ هذه المتعةَ إلاّ ٥٠
من حديثِ آدمَ إليها ، وهى تستمعُ إليه وَحْدَها .
كانت تُفضّل أنْ يكونَ زوجُها المتحدثَ
أمامَ الملاك ، واختارتْ أن تسأَلَهُ
هى عمّا دارَ فيما بعد ، إذ كانتْ تدركُ أنه سوفَ يمزِجُ
الأحاديثَ اللطيفةَ المتداخلةَ ويَحْسِمُ الخلافاتِ الفِكْرِيَّةَ ٥٥
بالمُدَاعباتِ الزَّوْجِيةِ الرّقيقةِ ، إذ لمْ يكنْ مصدرُ سعادتِها
بِشَفَتَيْهِ يقتصرُ على ما تنطقُ بهما من كلماتٍ . أنّى لنا أن نَجِدَ الآنَ
مثلَ هذين الزوجين اللّذَيْن يربطُ الحب بينهما والاحترامُ المتبادل ؟
وهكذا مَضَتْ تخطو خطواتٍ ملائكية ،
ولم تَعْدَمْ حاشيةً تحفُّ بها ، فكأنما كانت ملكةً ٦٠
تسيرُ فى موكبٍ من آياتِ الجاذبيةِ الخلاّبةِ
ومن حولِها انطلقَتْ السّهامُ التى تجعلُ

كُلَّ عينٍ ترغبُ وتتمنّى أن تراها دائمًا .

وعندها بدأ روفائيل يتصدى لشكُوكِ آدمَ بلهجةِ

الودادِ وأسلوبِ سَلِسٍ يسيرٍ ، فأجاب قائلاً : ٦٥

لا ألومُك على السؤالِ أو البحث ، فالسماء

تشبه كتابَ اللهِ المفتوحَ بين يديك

تقرأُ فيه عن أعمالِه الرائعةِ ، وتكتسبُ العِلْمَ

بالفُصُولِ أو الساعاتِ أو الأيامِ أو الشهورِ أو السنواتِ .

ولكنّ الإحاطةَ بذلك ، سواء أكانت السماءُ تتحركُ أم الأرضُ ، ٧٠

أمرٌ غيرُ مهم ، إذا استقامَ تفكيرُكُ ، فسائرُ الحقائق

قد أخفاها المهندسُ الأعظمُ عن البشرِ والملائكةِ ،

وله حكمتُه فى إخفائها وعَدَمِ إفشاءِ

أسرارِه للّذينَ قد يتعرضون لها بالتَّمْحيصِ والأَحْكام ، وواجِبُهُمْ

أن يَدْهَشُوا ويَعْجَبُوا لها ، وأمّا إذا أَصَرُّوا على محاولة ٧٥

الحَدْسِ فسوف يَجِدونَ أنّه تَرَكَ نسيجَ السماواتِ

مثارًا لخلافاتهم ، ربما ليضحكَ فيما بعد

من شَطَحَاتِ آرائهم الطريفةِ

حين يُقْدِمُونَ على دراسةِ السماء

وحسابِ حركةِ النجومِ ، وأسلوبِ إخضاعهم

الهيكلِ الجبارِ لنظرياتهم ، بانينَ هادمينَ مُلَفِّقين ،
لتفسيرِ الظواهرِ ، محاولين إخضاعَ الشكلِ الكُرَوِى
برسمِ الدوائرِ المنتظمةِ والمنبعجةِ فوقَهُ ،
دائرةٌ وإهْليلَجٌ ، فلكٌ فى فَلَكٍ ،
فهذا ما أحدسُه بالفعلِ من أسلوبِ منطقِكَ ، ٨٥
إذْ كُتِبَ عليك توجيهُ ذُرِّيتك ، ما دُمْتَ تفترضُ
أن الأجسامَ الوضاءةَ والكُبْرى لا ينبغى تسخيرها
للأقلّ ضوءًا ، وأن السماءَ ينبغى ألا تقومَ بهذه الرحلاتِ
والأرضُ ساكنةٌ قاعدةٌ تتلقّى وحدَها الثَّمرَ
والفائدةَ : اعْلَمْ أولاً أن ضخامةَ الجِرْمِ ٩٠
أو شدةَ الضوءِ لا تعنى الامتيازَ ، وأن الأرضَ
وإن كانت ، إذا قورِنَتْ بالسماء ، بالغةَ الضآلة
ولا تشعُّ أىَّ ضوءٍ ، قد تَضُمُّ بين جنباتِها من الخَيْرِ المؤكد
ما يفوقُ الشمسَ كثيرًا ، تلكَ التى تسطعُ وهى عَقيمٌ ،
وفضلُها لا يعودُ عليها بشىء ٩٥
بل على الأرضِ المثمرةِ ، فهى أولُ من يتلقّى
أشعتَّها التى تحقّقُ فى الأرضِ قُوَّتَها وهى عاطلةٌ خارجَها .
ولكنَّ هذه المصابيحَ المُنيرةَ ليستْ مُسَخَّرة للأرضِ

بلْ لَكَ أَنْتَ يا من تسكنُ الأرضَ

وأما دَوْرَةُ السماواتِ الشاسعةِ فَلْتَنْطِقْ ١٠٠

ببهاءِ الصانعِ الرفيعِ ، الذى بَنَاها

بهذا الاتساع فامتدَّتْ سُبُلُها هذا الامتدادَ البعيدَ

حتى يعرفَ الإنسانُ أنه لا يسكنُ وَحْدَهُ

فى صَرْحٍ أضخمَ من أن يملأَهُ بنفسه

إذ لا يسكنُ إلا فى قسمٍ صغيرٍ منه ، والباقى ١٠٥

كُتِبَتْ عليه مهامٌ لا يعرفُها خيرًا من ربِّه .

وأما سرعةُ هذه الأفلاكِ فعليكَ أن تُرجِعَهَا ،

وهى التى يستعصى حسابُها ، إلى قُدْرَةِ القديرِ على كُلِّ شىء

الذى استطاعَ أن يُضْفى على الأجسامِ المادّيةِ

سرعةً تكاد تكونُ رُوحيّة . ولعلك تظنُّنى غيرَ بطئ ١١٠

إذ انْطَلَقْتُ فى رحلتى فى الصباحِ من السماءِ

حيثُ عرشُ الله ، فوصلتُ قبل الظُّهرِ

إلى عَدن ، وهى مسافةٌ لا يمكن التعبيرُ عنها

بالأرقامِ المعروفة . ولكنى أَحْتَجُّ بذلك ،

مُعْتَرِفًا بالحَرَكَةِ فى السماوات ، لأُبَيِّنَ ١١٥

خَطَأً ما دَفَعَكَ إلى الشَّكّ والريبة ،

وإن كنتُ لا أؤكّدُه ، ولو بَدَا لَكَ ذلك
يا من اتّخَذْتَ الأرضَ هنا مَقَرًا ومُقَامًا .
لقد شاءَ الله أن يخفىَ أسرارَه عن إدراكِ البَشَرِ
فجعلَ السماءَ بعيدةً كُلَّ البُعْدِ عن الأرضِ ، فإذا وَضَعَ البصرُ الأرضىُّ ١٢٠
افتراضاته ، فقد يَضِلُّ ولا يهتدى إلى ما سما فَأَوْغَلَ فى سُمُوِّه ،
دون اكتسابِ فائدةٍ ما . وماذا لو كانتْ الشمس
فى مركزِ الكون ، وكانت النجومُ الأخرى ،
بفضلِ قُوَّةِ جاذبيةِ الشمس ، وبسببٍ ما
يدفعها فى ذاتها ، تَرْقُصُ حولَ الشمس رقصاتٍ دائريةً متباينةً ؟ ١٢٥
وكانت أفلاكُها السّيارة ترتفعُ حينًا وتنخفضُ حينًا ثم تختفى
وتتقدمُ أو تتأخرُ أو تقفُ فى مكانها ثابتةً
وهو ما تراهُ فى سِتّةِ كواكبَ ، وماذا إذا كان سابعُها
وهو كوكبُ الأرضِ ، على كُلِّ ما يبديه من الثَّباتِ
يتحركُ دونَ أنْ نشعرَ ثلاثَةَ أنواعٍ مختلفةٍ من الحركات ؟ ١٣٠
فإذا لم تَقُلْ بذلك ، كانَ عليك أن تَنْسِبَ إلى عِدَّةِ كواكب
حركاتٍ متعارضةً فى أفلاكٍ يتقاطعُ بعضُها مع البعض ،
أو تُعْفِيَ الشمسَ من عَمَلِها ، وسُرْعَةَ الدوران
المفترضِ بانحرافٍ حَوْلَ الأرضِ لَيْلاً ونَهَارًا ،

وإلاّ لَمَا سَطَعَتْ فَطَمَسَتْ النجومَ جميعًا ، فهى العَجَلَةُ التى ١٣٥
تُحْدِثُ الليلَ والنهارَ ؛ وهو ما لا يحتاجُ إلى تصديقِكَ
إذا كانت الأرضُ تجتهدُ بذاتها لتُحْضِرَ النهارَ
فى دَوَرَانِها نَحْوَ الشرق ، وتدورُ مبتعدةً بجانبها الآخر
عن أشعةِ الشمسِ حتى تُلاَقِيَ اللَّيلَ ، ويظلّ جانبُها الأول
يغمرُهُ ضوءُ الشمس . وماذا إذا كان هذا الضوءُ ١٤٠
الذى ترسله الأرضُ عبر صَفْحةِ الجَوِّ العريضةِ الشفّافةِ
إلى أرضِ القَمَرِ ينيرُه كالنجمِ
نهارًا ، مثلما تُضيءُ النجومُ ليلاً
هذه الأرضَ ؟ هل ثَمّ تماثلٌ إذن ؟ إن كانت هناكَ أرضٌ
وحقولٌ آهلةٌ بالسكان ، فأنتَ ترى البُقَعَ على وَجْه القَمَرِ ١٤٥
مثل السُّحبِ ، والسُّحبُ قد تُمْطِرُ ، والمَطَرُ قد يُثْمِرُ
الفواكهَ فى أَرْضِهِ اللّيِّنةِ ، حتى يَأْكُلَهَا البعضُ
مِمَّنْ وُضِعُوا هناك ، وربّما تَشْهَدُ ثَمَّ شموسًا أخرى
مع توابعها من الأقمارِ ، وربما تَشْهَدُها
وهى تُرسلُ إناثَ الأشعَّةِ وذُكُورَهَا ، ١٥٠
وهما الجنسان العظيمان اللذان يعمران الكون ،
ربما مما يَختَزِنُه كُلُّ فَلَكٍ فى بَعْضِ الأَحيَاء .

أما افتراضُ وُجُودِ مثلِ هذه المساحاتِ الشاسعةِ فى الطبيعةِ
التى لا يَمْلِكُها الأَحْياءُ ، مهجورةً وموحشةً ، لا عَمَلَ لها
إلا أن تَسْطَعَ ، دون أن تُساهِمَ إلاّ ١٥٥
بلمحةِ ضَوْءٍ مِنْ كُلِّ فَلَكٍ مُرْسَلَةً من تلك المسافةِ القَصِيَّةِ
إلى من تَحتَها فى هذه المعمورةِ التى تُرجِعُ
الضوءَ إليها وتَرُدُّه ، فهو مَثَارُ جَدَلٍ وخِلاَفٍ .
لكنه سواءٌ كان هذا هو الحال فى الواقع أم لا ،
سواءٌ كانت الشمسُ هى المُهَيْمِنَة فى السماء ١٦٠
وهى التى تشرقُ على الأرضِ ، أم أن الأرضَ هى التى تشرقُ على الشمس
وسواءٌ كانت الشمسُ هى التى تبدأُ السيرَ فى دَرْبِ النُّورِ من الشَّرْق
أو كانت الأرضُ هى التى تَسِيرُ فى دَرْبها الصامتِ من الغَرْب
بخطواتٍ وئيدةٍ لا تؤذى أحدًا كأنما ينامُ دورانها
حولَ مِحْورِها الهادئ ، وهى تسيرُ بانتظام ١٦٥
وتحمِلُكَ معها بِخِفَّةٍ مع الهواء الناعم ،
فلا تُقْلِقْ فِكْرَكَ بما خَفِىَ من هذه الأمور
واتركْها لله فى عُلاه ، واعْبُدْهُ واخْشَاهُ .
وأمّا المَخْلوقَاتُ الأُخرى فَدَعْهَا له يفعلْ بها ما يشاءُ
حيثُما وَضَعَهَا ويقضى ما يقضى بشأنِها ، ولتَسْعَدْ أنتَ ١٧٠

بما يُسْبِغُه عليك من نِعَمٍ ، بهذه الفردوس

وبزوجتك حواءَ الجميلةِ ، فالسماءُ شاهقةُ البعدِ عنك ،

وأعلى من أن تُحيط بما يجرى فيها ، كُنْ حكيمًا فتَوَاضَعْ ،

ولا تفكرّ إلاّ فيما يُهِمُّكَ ويَخُصُّ وجودَك ،

لا تحلمْ بعوالمَ أخرى ، أو بأيةِ مخلوقاتٍ ١٧٥

تعيشُ فيها ، أو بحالاتِها أو أوضاعِها أو درجاتِها

قانعًا بما أُميطَ اللّثامُ عنه لكَ حتى الآنَ

لا عن الأرضِ فحسبُ بلْ عن أعلى السماواتِ كذلك .

وزال عن آدمَ الشكُّ فأجابَه قائلاً : ١٨٠

أَحَطْتَنى فَأَشْبَعْتَنى ، يا رُوحَ الفِكْرِ الخالصِ

المُستَقَى من السَّماء ، يا أيها المَلَكُ الكريمُ ،

وعَلَّمْتَنى أنْ أَحْيا مُحَرّرًا من أَحَابيلِ الفِكْرِ المتشابكةِ ،

سالكًا أيسرَ السبلِ ، لا مَعَ الأفكارِ التى تبعثُ الحَيْرَةَ

وتُعكّرُ صفوَ الحياةِ وحَلاَوَتَها ، وهى التى

أَمَرَنَا اللهُ أنْ نُبْعِدَ عنها جميعَ مَوَاطِنِ الهَمِّ والقَلَقِ ١٨٥

حتى لا تُزْعِجَنَا ، وإلاّ وجدنا أَنْفُسَنَا

نسعى إليها بأنفسنا بأفكارٍ ضَالَّةٍ وآراءَ خاويةٍ .

ولكن العَقْلَ أو الخيالَ من طَبْعِه أن ينطلقَ

دون لجامٍ فيضربَ فى الشعابِ بلا غايةٍ ،
حتى يُنْذَرَ ، أو يتعلمَ من خبرته ، أن يدركَ أن الحكمةَ 190
هى الجهلُ عمومًا بالأشياءِ البعيدةِ
عما يَنْفَعُه ، أو الغامضةِ أو التى تستعصى على الذهنِ ، وهى العلمُ
بما هو بين أيدينا فى حياتنا اليوميّة ،
بل إن ذلك أوجُ الحكمة ، وما عداه أوهامٌ
أو خَوَاء أو انشغالٌ أحمقٌ بما لا يُهمّ ، 195
ويَحْرِمُنا المعرفةَ بأهمِّ ما يُهمُّنا من أشياءَ
لا مِراسَ لنا بِهَا ولا استعدادَ ولا إحاطةَ .
لِنَهْبطْ إذنْ من ذَلكَ المَرْقَى الرفيعِ
عِدّةَ درجاتٍ ، ولنتحدثْ عن الأشياءِ القريبةِ
النافعةِ ، وربَّما أَلْمَحْنا هنا أو ذَكَرْنا 200
شيئًا ليس من غير المستساغِ السؤالُ عنه
إذا أَذِنْتَ لى ، وتكرَّمْتَ كَدأبكَ معى وتَعَطَّفْت .
لقد سَمِعتُكَ تَقُصُّ عَلَىَّ ما وَقَعَ
قبل عهدى بالذاكرةِ ، فَلْتَسْمَعْنى الآنَ أقصُّ عليك
قِصَّتى ، وربما لم تكنْ سَمِعْتَهَا ، 205
والنهارُ لا يزال فى ريعانِه ، ولسوفَ ترى

ما أبتدعُ من أساليبَ بارعةٍ لاستبقائكَ حتى آخرِه ،

داعيًا إياك للإنصاتِ لى أثناءَ القَصّ ،

وهى سفاهةٌ لولا أننى آملُ أن تَرُدَّ علىّ ،

لكأنّنى فى السماءِ وأنا أجلسُ مَعَكَ هنا ، ٢١٠

ومذاقُ كلامِكَ فى أُذُنى أحْلى

من أَشْهى البَلَحِ السّائغِ حين أُكابدُ العَطَشَ

والجوعَ معًا ، بعد عودتى من العمل ، فى ساعةِ

الطعامِ الطيِّب ، فالبَلَحُ يُشبعُ وسرعانَ ما يُتْخِمُ

مهما يكُنْ طيبُ مذاقِه ، أما كلماتُك فقد أُشْرِبَتْ العذوبةَ الإلهية ٢١٥

فَشَرِبَتْها ، فحلاوتُها لا تتسببُ فى التُّخَمة .

وأجابه روفائيل بلهجة تستقى من السماءِ التواضعَ قائلاً :

بَلْ ولا تفتقرُ شفتاك إلى العذوبةِ يا سَيّدَ الرجالِ

ولا يَفتقرُ لسانُك إلى البلاغةِ ، إذ أفَاضَ اللهُ عليك

بسخاءٍ نِعَمَهُ وأغدقَها عليك أنتَ أيضًا ٢٢٠

ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً ، يا صورتَه الجميلة ،

فسواءٌ تكلمتَ أم سكَتَّ ، كان البهاءُ وكانت العذوبةُ

تَحُفُّ بك وتتشكّلُ فى كُلِّ كلمةٍ وفى كُلِّ حركةٍ .

ونحنُ فى السماء لا نتصورُ أنك فى الأرْضِ أدنَى منزلةً

منّا ، فنحنُ إخوانٌ فى عِبَادَةِ الله ، ونتساءلُ ٢٢٥
مسرورين عَمّا يفعلُهُ الله بالإنسان ،
إذ نرى أنّ اللهَ قد كَرَّمَكَ ، وأفاءَ
على الإنسان حبًّا يضارعُ حُبَّهُ لنا ، وإذنْ فَلْتَتَحَدَّثْ ،
إذ تصادفَ أننى كنتُ فى ذلك اليَوْمِ غَائبًا
أقومُ برحلةٍ غَريبةٍ عَجيبةٍ مُوحِشَةٍ ، ٢٣٠
فى أقاصى المجاهلِ عند أبوابِ الجَحيمِ
فى تشكيلٍ حَرْبِيٍّ رُبَاعىّ ( بذا صَدَرَ الأمرُ إلينا )
لنتأكد أن أحدًا لم يُرْسِلْ جاسوسًا هناك
أو عدوًا من الأعداءِ ، أثناءَ انهماكِ الله فى عمله ،
خَشْيَةَ أنْ يَدْفَعَهُ الغَيْظُ من جَسَارَةِ مثلِ ذلك التَّدخُّلِ ٢٣٥
إلى العَصْفِ به فيمزجُ الفَنَاءَ بالخَلْق ،
ولا يَعْنى هذا أن أحدًا يقدرُ على محاولةِ ذلك دونَ إِذْنٍ منه
ولكنه يُرْسِلُنا فى مَهَامّه العُليا من بابِ
المَرَاسِمِ الملكيّةِ ، فهو مالكُ المُلْك ، وحتى نعتادَ
الطاعةَ على الفَوْر . وَجَدْنَاهَا موصدةً ، مُحْكمةَ الإغلاقِ ، ٢٤٠
تلك الأبوابُ البَشِعَةُ الرهيبةُ ، متينةُ المزلاجِ والرِّتَاجِ ،
ولكننا سَمِعْنا داخلَها قَبْلَ اقترابِنا بوقتٍ طويلٍ

ضجيجًا يختلفُ عن أصواتِ الرَّقْصِ والغناءِ
بل سوطُ عَذَابٍ يَنصَبُّ ، وعويلٌ يتعالى ، ودَمْدَمَةُ غَضَبٍ جائحٍ .
وسُرِرْنا بالعودةِ إلى شطآنِ النورِ ٢٤٥
قبلَ مساءِ اليومِ السابعِ ، يوم العُطْلَةِ ، وهكذا انتهينا .
ولكنْ إلى قِصَّتِكَ الآنْ ، فأنا لَكَ مُصْغٍ
وسعادتى بكلماتك لا تَقِلُّ عن سعادتك بكلماتى .
وانتهى الملاكُ الربانىّ من الحديث وبدأ سَيِّدُنا يتكلمُ قائلاً :
ما أشق أن يَقُصَّ الإنسانُ كيف بدأت حياةُ البشر ٢٥٠
وما أعْسَرَهُ ، إذ من ذا الذى يعرفُ بِدَايَةَ ذاته ؟
ولكنّ رغبتى فى أنْ أُطيلَ حديثى معك ثم أبْسُطُه
تحفزُنى على الكلام . كنت كمن أفاقَ لتوّه من أعمقِ نُعاسٍ
إذ وَجَدْتُنى رَاقدًا على الأعشابِ المُزْهِرَةِ اللَّيِّنةِ
يَتَصبَّبُ منى عَرَقٌ لطيفٌ سرعانَ ما جَفَّفَتْه أشعةُ الشمسِ ٢٥٥
الساطعةِ وتَغَذَّتْ على الأبخرةِ المُتصاعدةِ .
وقَلَّبْتُ عَيْنَىَّ الداهشتين فَوْرَ صَحْوى فى السماء
وتأملتُ برهةً صفحةَ الجوِّ المديدة ، ثم نَهَضْتُ
قائمًا بحركةٍ غريزيةٍ سريعةٍ ، إذ وَجَدْتُنى
أحاولُ الاندفاعَ جاهدًا إلى أَعْلَى فأنتصبُ ٢٦٠

واقفًا على قَدَمَيَّ ، ونظرتُ حولى فشاهدتُ

التلالَ ، والوديانَ ، والغاباتِ الظليلةَ ، والسهولَ المُشْرِقَةَ بنورِ الشمس ،

والجداولَ الدفاقةَ السيالةَ ذاتِ الخريرِ ، ومن حولِها

المخلوقاتُ التى تَحْيا وتتحركُ وتَمْشى أو تَطيرُ ،

والطيورُ على الأفنانِ تُغَنّى ، وجميعُ الأشياء تَبْتَسمُ ، ٢٦٥

فَفَاضَ قَلْبى بالأريجِ والفرَحِ .

ثم شرَعْت أتأملُ نَفْسى ، وأتَقَصَّى أطرافى واحدًا بعد الآخر

ثم مشيتُ حينًا ، وعَدَوْتُ حينًا ،

بمفاصلَ طَيِّعَةٍ مَرِنَةٍ ، تَدْفَعُنى قُوّةٌ حَيَوِيّة .

أمّا منْ أنا ، وأين كنتُ ، ومنْ أينَ جئتُ ، ٢٧٠

فلم أكنْ أدرى ، وحاولتُ النطقَ فتكلمتُ على الفور

وأطاعنى لسانى ووجدتُ أننى عُلِّمْتُ الأسماءَ كُلَّها

وكلُّ شيءٍ رأيتُهُ سَمَّيْتُه . وخاطبتُ الشمس قائلاً أيها السِّراجُ الوَهَّاجُ

وأنْتِ أيتُها الأرضُ المشرقةُ بالنورِ ، النَّضِرةُ البهيجةُ ،

وأنتِ أيتُها التلالُ والوديانُ ، وأنتِ يا أنهارُ يا غاباتُ يا سهولُ ، ٢٧٥

وأنتِ يا أيتها المخلوقاتُ الجميلةُ التى تحيا وتتحركُ ، خبِّرينى

خبِّرينى إن كنت شهدت كيف وُجِدْتُ هكذا وكيف جِئْتُ هنا ؟

لم أُوجِدْ نَفْسى ، وإذَنْ أَوْجَدَنى صانعٌ عظيمٌ

ليس كمثله شىءٌ فى الخيرِ والقوةِ
خبِّرينى كيف أعرفُه وكيف أعبُدُه ٢٨٠
ومنْ لَدُنْهُ كلُّ ما أَحيَا به وأتحركُ
وأشْعُرُ أنَّ سعادتى أكبرُ مما أعرفُ عنها .
وَجَعْلتُ أنادى برهةً وأضربُ على غير هُدىً ، لا أعرفُ أَيَّانَ أمضى
من حيثُ نَشَقْتُ الهواءَ أَوَّلَ مرةٍ ، ورأيتُ أول مرة
ذلك الضوء البهيجَ ، وعندما لم يُجبْ أحدٌ ندائى ، ٢٨٥
قصدتُ ربوةً خضراءَ فى الظِّل تَحْفِلُ بالزهور
فجلستُ أفكرُ ، وهناك جاءَنى النومُ الرقيق
أَوَّلَ مرة ، فَضَغَطَنى ضَغْطَةً لَطيفَةً وتَغَشَّى
حواسِّىَ بالنُّعاسِ ، ولم أقلقْ ، وإن كنتُ ظَنَنْتُ
أننى كنتُ سأرجعُ آنئذٍ إلى حالتى السابقة ٢٩٠
فلا أُحِسُّ شيئًا ثم ما يَلْبَثُ كِيانى أن يَنْحَلَّ ويذوبَ .
وعندها وجدتُ فجأة حُلْمًا واقفًا عند رأسى
وكان طيفُه فى داخلى يدفعُ خيالى دفعًا رقيقًا
إلى الاعتقاد بأننى ما زالَ لى كِيانٌ وأننى ما زلتُ
أحيا ، وخِلْتُ أن أحدهم جاءنى فى صورةٍ إلهية ٢٩٥
وقال لى : بَيْتُك يَفْتَقِدُك يا آدم ! انهض

يا أَوَّلَ البَشَرِ ! يا من كُتِبَ له أن يكونَ أولَ أبٍ لأعدادٍ لا تُحصى
من البشر ! لقد ناديتنى فأتيتُ لأُرْشِدَكَ
إلى جَنّةِ النعيم ، مقرك الذى أُعِدَّ لك .
قالها وأمسك بيدى فأنهضنى ومَرَّ بى ٣٠٠
فوق الحقولِ والمياهِ ، كأنما كنتُ أنزلقُ فى الهواءِ
انزلاقًا ناعمًا دون خطواتٍ ، وأخيرًا جاء بى فصعدنا
جَبَلاً تنمو عليه الغاباتُ ، وكانت قمتُه العاليةُ سَهْلاً مُنْبَسِطًا ،
دائرةٌ شاسعةٌ ، يحيطُها حَائِطٌ ، وبها أطيبُ الأشجار
قد غُرِستْ ، وممراتٌ ، وخمائلُ ، حتى أن ما سَبَقَ أن رأيتُه ٣٠٥
فى الأرضِ تلاشى جمالُه أو كادَ . وكانَتْ كُلُّ شجرةٍ
مُحَمَّلةً بأجملِ الثِّمارِ التى تَتَدَلّى فتُغْرِى العَيْنَ
إغراءً ، فَأَثَارَتْ فى نفسى اشتهاءً مُبَاغتًا
بِقَطْفِها وأكْلِها ، وعِنْدها صَحَوْتُ فإذا
كلُّ شىءٍ ماثلٌ فى الحقيقةِ أَمَامَ عينى ، كما صَوَّرَهُ الحُلْم ٣١٠
تصويرًا حيًا ، وكنتُ أوشكُ أن أستأنِفَ هنا
جَوْلَاتى لولا أن ظَهَرَ الذى أرشدنى
إلى هذا المكانِ الرفيعِ ، من بَيْنِ الشجراتِ ، وبدا
حضرةً إِلَهيةً . وفى فَرْحَةٍ امْتَزَجَتْ بالرَّهْبَةِ

سجدتُ على قدميه أُصَلِّى له خاشعًا ٣١٥

خاضعًا . وأنهضنى قائلاً بنبراتٍ رقيقةٍ : إنّى أنَا ،

أنا الذى دَعَوتَهُ فاستجابَ ، رَبُّ كُلِّ ما ترى

من فَوْقِكَ أو من حولِكَ أو من تَحْتِك .

إنى أَمْنَحُك هذه الفردوس ، فاعْتَبِرْها مِلْكًا لك ،

لتفلَحَها وترعاها ، وتأكلَ من ثمارها ، ٣٢٠

من كلِّ شجرةٍ تنمو فى الجَنَّةِ

كُلْ ما تشاءُ بقلبٍ مسرورٍ ، ولا تَخْشَ هنا نَقْصًا ،

إلا الشجرةَ التى تَعُودُ على الآكل منها

بِمَعْرِفَةِ الخير والشر ، فلقد جَعَلْتُها رَهْنًا

لِعَهْدِ طَاعَتِك وإِخْلاصِكْ ، إنّها ٣٢٥

فى الجنّةِ بجوارِ شجرةِ الحياةِ

فتذكَّرْ تحذيرى لَكَ وتَجَنَّبْ مَذَاقَها

وتَجَنَّبْ عاقِبتَهُ المُرَّةَ ، واعْلَمْ

أنك يومَ تأكلُ منها وتعصى أمرىَ الأوحدَ

وتعصينى فسوفَ تمَوُتُ حتمًا ، ٣٣٠

ويُكتبُ عليكَ الفناءُ من ذلك اليوم ، وشتاتُ هذه السعادة

وفقدانُها ، وسوف تطردُ من هنا إلى عالمِ

الآلامِ والأحزانِ . وكانتْ نبراتُه صارمةً وهو ينطق بذلك

التحريمِ الجازمِ ، وما زالتْ تلك النبراتُ يترددُ صداها

المخيفُ فى أُذُنى ، وإنْ كنتُ قد اخترتُ ٣٣٥

ألاّ أُعَرّضَ نفسى له ، ولكنْ سرعانَ ما عادَ الصفاءُ

إلى مُحَيّاهُ ، واستأنفَ حديثَه العذْبَ قائلاً :

عَطِيَّتى لا تقتصرُ على ما فى هذه الحدودِ الجميلةِ ، بل تشملُ الأرضَ كُلَّها

إذْ أَمْنَحُكَ إيّاها أنتَ وذُرِّيَتَك ، فكُونوا أَسْياداً عليها

وامتلكوها ، وجميعَ الأشياءِ التى تعيشُ فيها ٣٤٠

أو تعيشُ فى البحر أو الجَوِّ من حيوانٍ وسمكٍ وطيرٍ .

وآية ذلك أنى سأعرِضُ عليكَ كُلَّ طَيْرٍ وحيوانٍ

بشتى أنواعها ، سوف أَعْرِضُها عليك حتى تتلقى

منكَ أسماءَها وتُعْلِنَ لك وَلاَءَها

وخُضُوعَها الخاشع ، وافْهَمْ أن ذلك يَصْدُقُ ٣٤٥

على الأسماكِ فى منازِلها المائيّة

ولنْ أدعوَها للمثولِ هنا لأنها لا تستطيعُ تغييرَ

بيئتها فتتنفسُ الهواءَ الخفيفَ .

وما إنْ انتهى من حديثِه حتى رأيتُ أنواعَ الطَّيرِ والحيوان

مقبلةً ، من كل زوجين اثنين ، فالحيوانُ يُقْعِى ويَقْبَعُ ٣٥٠

تَزَلّفًا ومَلَقًا ، وكلُّ طيْرٍ راكعٌ على جناحه ،
وسَمَّيتُ كُلاًّ منها وهى تَمرُّ أمامى وفَهِمْتُ
طبيعتَهَا ، إذ وهبنى الله المعرفةَ بها فَوَجَدْتُنى
أفهمُها فجأة ، ولكننى لم أَعثُر بينها جميعًا
ولم أجد ما ظَنَنْتُ أننى ما زلتُ أَطْلُبُه ، ٣٥٥
وهكذا تجاسرتُ على الحديثِ إلى الرُّؤيا السماوية قائلاً :
بأى اسمٍ أدعوكَ يا مَنْ تعلو على الجميع
وتعلو على الإنسانِ ، وعلى كل ما يعلو على الإنسان ،
وتفوقُ طاقتى على التسميةِ ، قل لى كيف ٣٦٠
أعبدك ، يا صاحبَ هذا الكونِ وصانِعَهُ ،
وكُلٍّ هذه النِّعَمِ التى وَهَبْتَها للبشر ، وَوَفَّرْتَ لرفاهِيَته كُلَّ شىءٍ ،
بسخاءٍ ، وبِيَدَيْنِ مَبْسوطَتَيْنِ أَنْفَقْتَ
فَهَيَّأْتَ له جميعَ الأشياءِ ، وإنْ كنتُ أنا
لا أرى من يُشَارِكُنى إياها . فما فى العزلةِ
من سعادةٍ ، ومن ذا الذى يستطيعُ التمتعَ وَحْدَهُ ، ٣٦٥
ولو تمتعَ بكل شىء ، فأىُّ رِضىً يأتيه ؟
هكذا قُلْتُ متجاسراً ، وإذا بِرَبِّ الرؤيا المنيرةِ
يجيبُ ، كأنما ابتسمَ فزادَهَا نوراً على نور ، قائلاً :

ما الذى تدعوه عزلة ؟ أليست لك الأرضُ

بشتى الكائناتِ الحية ، والهواءُ الحافلُ ٣٧٠

الزاخرُ ، وكل هذه جميعًا طوعُ أمركَ بأن

تأتىَ وتلعبَ بين يَدَيْك ، وألا تعرفُ

لغتَها وأساليبَ حياتِها ، إنها تستطيعُ الإدراكَ أيضًا

ولديها طاقةٌ لا يستهانُ بها على الاستنباط ، فانشدْ

التسريةَ عن نَفْسِكَ معها وافرضْ أحكامَكَ عليها فَمَملكَتُكَ شاسعة . ٣٧٥

هكذا تحدّثَ ربُّ العالمين ، فكأنما كان

يأمرنى بذلك ، ولكنّنى تَضَرَّعْتُ إليه أن يسمحَ لى بالكلام ،

ومن ثَمَّ أجبتُ فى ذِلّةٍ وتواضعٍ جَمٍّ قائلاً :

أرجو ألاّ تُغْضِبَكَ كلماتى ، يا مَلِكَ السّماء

يا صانعى ، وتَقَبَّلْ كلامى بِقَبُولٍ حَسَنٍ . ٣٨٠

ألم تَجْعَلْنى هنا خليفةً لك

وتجعلْ كُلَّ هذه المخلوقاتِ فى منزلةٍ أدنى كثيرًا منى ؟

كيف يكونُ التلاقى والخُلطة إذا تفاوتتْ المنازلُ

وكيف يكون التواؤمُ أو التناغُمُ أو المتعةُ الصادقةُ ؟

لابد لذلك من التماثلِ والحفاظِ على التناسبِ الواجبِ ٣٨٥

فى الأَخْذ والعطاء ، أما إذا تفاوتَ الطرفانُ

فكان أَحَدُهما كالوتَرِ المشدودِ والآخرُ كالوترِ المرتخى أبدًا

فمن المُحالِ التلاؤمُ بينَهما ، وسرعانَ ما يُصبح

كلٌّ منهما مُملاً ومَلُولاً معًا ، وأنا أتحدّثُ عن الرفقة

التى أطلُبها ، القادرةُ على توفيرِ ٣٩٠

المتعةِ العقليةِ والمشاركةِ فيها ، ولا يستطيعُ الحيوانُ الأعجمُ

أن يكون رفيقًا للإنسانِ فى ذلكَ ، فالحيواناتُ تستمتعُ

برفقةِ بعضِها البعض ، كالأسَدِ واللَّبُؤَة .

فلقد خَلَقْتَهُما أزْواجًا يناسبُ كُلٌّ منهما صاحِبَه

ولا يستطيعُ مثل هذا النجاحَ فى الرفقةِ الطيرُ مع الحيوانِ ، ٣٩٥

أو السمكُ مع الدجاجُ ، أو الثَّوْرُ مع القرد ،

وأبعدُ ما يكون عن النجاحِ الإنسانُ مع الحيوان ، بل أبعدُ البعيد .

وأجابَ العَلِىُّ القديرُ دون أن يَغْضَبَ قائلاً :

تلك سعادةٌ ما أدقَّها وأرقَّها وأنْدرَهَا ، فيما أرى ،

تلكَ التى تطْلُبها لِنَفْسكَ فى اختيارِ من ٤٠٠

يرافِقُكَ يا آدمُ ، وأرى أنك عازفٌ عن تذوقِ

السّرور ، على ما أنتَ فيه من السرورِ ، ما دُمْتَ وَحْدَكَ .

ماذا تقول عنى إذنْ ، وهذه حالى ،

هل أبدو لعَيْنكَ وقد ملكتُ ما يكفى

من السعادة أم لا ؟ أنا الوحيدُ ٤٠٥
منذ الأزلِ ، إذ لا أَعْرِفُ أحدًا
يلينى فى المَنْزِلَةِ أو يُشْبِهُنى ، وما أبعد أن يكونَ لى كُفُوًا أَحَدٌ .
من ترانى أخاطبُ إذنْ أو أخالطُ
إلا المخلوقاتِ التى صَنَعْتُها ، وهى
أدنى منّى وأشد انخفاضًا وتدنّيًا غير محدود ٤١٠
من انخفاضِ المخلوقاتِ الأخرى عنك .
وتَوَقَّفَ فأَجَبْتُ بتواضعٍ قائلاً : إن بلوغَ
ذُرا فَعَالِكَ السَّرمديَّةِ أو أعماقِها
تَقْصُرُ عنه كلُّ أفكارِ البشر ، يا سَيِّدَ الأكوانِ ؛
فأنْتَ فى ذاتِكَ كاملٌ ، ولا يوجدُ فيك ٤١٥
أى نقصٍ ؛ والإنسانُ ليس كذلك ،
وباستثناءِ الدرجةِ ، ترى ذلك سَبَبَ رغبتِهِ
فى أن يتوسّلَ بالحديثِ مع من يماثِلُه ليساعِدَهُ
فى استكمالِ نقائصِهِ أو تسريتِه . ولا حاجَةَ لك
بالإنجابِ لأنّك أزليٌّ أبديٌّ لا نهائيٌّ ؛ ٤٢٠
وأنت مُطْلَقٌ فيك الأعدادُ كُلُّها مع أنك واحدٌ أَحَدٌ ؛
ولكنّ الإنسانَ يستعينُ بالعَدَدِ الذى يُبَيّن له

نَقْصَهُ إن كانَ مُفْردًا ، ويجعلُه ينجبُ
مثيلاً يُشْبِهُهُ من جنسه ، فتتكَاثرُ صُوَرُهُ ،
لأن وَحْدَتَه نقصٌ ، وهى تتطلبُ ٤٢٥
حبًّا مُوازيًا مُصاحبًا ، ووُدًّا غاليًا وَثيقًا .
وأنتَ فى أسرارِكَ ، على وَحْدتكَ
تفضّلُ ألاَّ يُصاحِبَكَ غيرُ ذاتك ، ولا تسعى
للخُلطةِ والرّفقةِ ، وأنتَ بهذا جدُّ مسرورٍ ،
وتستطيعُ أن ترفعَ أىَّ مخلوقٍ خَلَقْتَ إلى أىِّ درجةٍ تشاؤُها ٤٣٠
من درجاتِ الرِّفعةِ فَيَتَوَّحدَ المخلوقُ معك أو يذوبَ فيك تواصلاً
أما أنا فلا أستطيعُ بالتواصلِ والتخاطب أن أرفعَ الدوابَّ المنحنيةَ القامَةِ
إلى مستوى الإنسانِ المنتصبِ ، ولا أن أجدَ فيها مصدرَ مُتْعةٍ .
وانتهيتُ هكذا من حديثى الجسورِ ، وانتفعْتُ بالحريّة
التى أَذِنَ لى بها ، ولقيتُ منه القَبُولَ الذى أتى ٤٣٥
بهذه الإجابة من الصوت الإلهى الكريم إذ قال :
لقد سَرّنى الاختبارُ الذى أَجْرَيْتُهُ لك حتى الآن يا آدمُ
إذ وجدتُ أن معرفتَكَ لا تقتصرُ على أنواعِ الحيوانِ
وهى التى أَصَبْتَ فى معرفةِ أسمائها ، بل تشملُ ذاتَك أيضًا
بعد أن عَبَّرْتَ عن الرُّوح الحرة فى داخلِك تعبيرًا جميلاً ٤٤٠

فهى صورتى ، وهى التى لم أَمْنَحْها إلى الحيوان ،
وهكذا فإن رفقتَهُ غيرُ ملائمةٍ لك ،
وهو سببٌ وجيهٌ جعلك ، بمحضِ حريتك ، تنفرُ منه
وما زال يتسبَّبُ فى نفورِك ، وكنتُ ، من قبلِ أنْ تتكلمَ ،
أعلمُ أنّ بقاءَ الرجلِ وَحْدَهُ ليس حسنًا ، ٤٤٥
ولم أكن أقصدُ أن أجعلَ لك رفيقًا من المخلوقاتِ التى رَأَيْتَهَا
وما اعتزمتُ ذلك ، بل أتيتُ بها لاختبارك فحسب ،
ولأرى قدرتَك على الحُكْم على ما يَصْلُحُ لك ويُلائمُك ،
وأمّا ما سوفَ آتى به الآن فسوف يُرضيك ، وكُنْ واثقًا من ذلك ،
فهى نَظِيرِكُ ، ومُعينُك المناسبُ ، وذاتُك الأخرى ٤٥٠
ورغبتُك التى حَدَّدَها اشتهاءُ قلبِك تمامًا .

وانتهى من حديثه أو أقل إننى لم أعُدْ أسمعُ صَوْتَه ، إذ كان
كِيانىَ الأرضىُّ قد غَلَبَهُ كيانُه السماوى ، بعد أن
ظل طويلاً يعانى وطأةَ الجلالِ ، ويكابدُ ليرتفعَ إلى الذُّرا
فى ذلكَ الحديثِ السماوىِّ الرفيعِ ، ٤٥٥
مثلما يكابدُ كُلَّ ما يتجاوزَ الحواس .
كنتُ مبهوراً مسلوبَ القوى فوقعتُ منهارًا أنشدُ العلاج
فى النوم ، الذى غَشِيَنَى فى اللحظةِ نَفْسِها ، والذى اسْتَدْعَتْه

الطبيعةُ كأنما لتعيننَى ، وأغمضتُ عَيْنَىَّ .

لقد أَغْمَضَ عَيْنَىَّ ، ولكنّه لم يُغْلِقْ نافذةَ الوَهْم ، ٤٦٠

كانت 'الواهمةُ' الضوءَ الباطن ، وعلى نُورِهِ

ظننتُ أننى أرى ، كأننى أغيبُ غيبوبةَ انتشاء ،

وإن كنتُ نائمًا ، حيثُ رقدتُ ، ظننتُ أننى أرى الطيفَ الذى

كان يُشِعُّ بهاءً وجلالاً ، والذى كنت أقفُ بين يديه فى يقظتى ،

وقد انحنى على جسدى ، وشَقَّ جانبى الأيسر ، وأَخَذَ ٤٦٥

منه ضِلْعًا ، دافئًا برُوحِ الحياةِ من القلبِ ،

ودمُ الحياةِ يجرى فيه نابضًا ، وكان الجُرْحُ واسعًا

ولكنه امتلأ فجأةً باللحمِ والْتَأَمَ ،

وتناولَ الضِّلعَ بيديه فصاغَهُ وشكَّلَهُ ،

وفى يديه الصَّائغَتَيْن تَشَكَّل مخلوقٌ ونَمَا ، كانت ٤٧٠

تُشْبِهُ الرجلَ ، ولكنَّها من جنسٍ مختلفٍ ، بالغةُ الحُسْنِ والجمالِ ،

حتى إنّ كُلَّ ما كان قد بدا جميلاً فى الكون ، أصبح يبدو

دونَها ، أو قُلْ إنها جَمَعَتْ كُلَّ محاسنِ ما قبلَها واشْتَمَلَتْ عليها

وَتَبدَّتْ فى قَسَمَاتِها ، ومنذُ تلكَ اللحظةِ بَثَّتْ

العُذُوبةَ فى قَلْبى ، عذوبةً لم أشعر بها من قبل ، ٤٧٥

ونَفَثَتْ فى جميعِ الأشياء ، من صورتِها وأنفاسِها ،

روحَ الحُبِّ وسُرورَ الغرامِ وبَهْجَتَه .
واخْتَفَتْ وخَلَّفَتْنى حائرًا ، وصَحَوْتُ
لأعْثُرَ عليها أو لأبْكى إلى الأبَدِ
فُقْدَانَها وأُقْلِعَ عن كُلِّ متعةٍ أخرى سواها . ٤٨٠
وعندما فَقَدْتُ الأمَلَ ، إذا هى أمامى ، غيرَ بعيدٍ ،
على الصورةِ التى بَدَتْ بها فى المنام ، مُزَيَّنَةً
بكُلِّ ما تستطيعُ السماءُ والأرضُ أن تُضْفيه عليها
لتجعَلَها جذّابةً ، وأَقْبَلَتْ نحوى
يَهْدِيها صانِعُها السَّماوىُّ ، وإن كان خَفِيًا ٤٨٥
وتَسْتَرْشِدُ بصوتِه ، ولمْ تكنْ تجهلُ
قَدَاسَةَ الزَّواجِ وشعائرَ عَقْدِ القِرَان :
بَدَتْ الرشاقةُ فى كُلِّ خُطْوةٍ تخطوها ، والسماءُ فى عَيْنِها ،
وفى كُلِّ حركةٍ وإيماءةٍ رزانةٌ وحُبٌّ .
ولم أستَطِعْ أن أقاومَ الإعرابَ عاليًا عن فَيْضِ فَرْحَتى ، قائلاً : ٤٩٠
لقد عَوَّضْتَنى بهذا خَيْرَ تعويضٍ ، إذ صَدَقَ
وَعْدُكَ ، أيها الخالقُ ذو الخيرِ والنِّعَمِ السابِغَةِ ،
واهبُ كُلِّ العطايا الجميلةِ ، وأجْمَلُها هذه العطيةُ
من عطاياك جميعًا ، التى لم تَضِنَّ بها . فالآن أرى

عَظْمَ عِظامى ، ولَحْمَ لَحمْى ، ونَفْسى ماثلةً ٤٩٥
أمامَ عينى ، واسمُها المَرأَةُ ، ومن الرَّجُلِ
استُخْلصتْ ، ولهذا السببِ عليه أن يتخلّى
عن الأبِ والأمِّ ، ويستمسكَ بزَوْجَتِه ؛
ويصبحان من ثَمّ جسدًا واحدًا ، وقلبًا واحدًا ، ورُوحًا واحدة .
سَمِعَتْنى أقولُ ذلك ، ومع أنها عطيةٌ إلهيةٌ ٥٠٠
إلا أن البراءةَ وخَفَرَ العُذْريّة وأَدَبَها ،
وما تتحلى به من فضيلةٍ وما تعرفُه عن عُلُوّ قَدْرِها ،
كان يحتّم أن أَخْطُبَ وُدَّها ، وأن أسعى لها سَعْيَها
حتى أَنالَها ، ولم تكن بَرْزَةً يسيرةَ المنالِ بل مُتَمَنِّعةً خَجلة
مما زادَ من شَوْقى إليها ، أو إذا أَجْمَلْتُ القولَ قُلْتُ ٥٠٥
إن الطبيعةَ نَفْسَها جَعَلَتْها ، على طُهْرِها من أى فِكْرٍ آثِمٍ ،
تشعرُ بما شَعُرْتُ به حتى إنّها عندما رأَتْنى استدارتْ
فَمَضَيْتُ خَلْفَها ، وكانت تعرفُ معنى تكريم الزواج
فَأَبْدَتْ رضاها بطاعة يَزِينُها الجلالُ ، وقَبُولَها
تَوَسُّلى ومَنْطِقى . وذهبتُ إلى خميلةِ الزّفافِ ٥١٠
معها وقد عَلَتْها حُمْرَةُ الخَجَلِ كأنها شَفَقُ الصباحِ ، وإذا بالسماء
ذاتِ البروجِ ونجومِ السَّعْدِ تلقى على تلك الساعةِ

أصفى بَرَكَاتِها وأنْقَاهَا ، والأرضُ
تُظْهِرُ آياتِ الفَرَحِ والتَّهَانى ، وكُلُّ تَلٍّ من التّلال ،
وكانت الطيورُ فى فَرَحٍ ، والرياحُ المنعشةُ والنسائمُ العليلةُ ٥١٥
تَهْمِسُ بالفَرَحِ إلى الغَابَاتِ ، ناشرةً أَجْنِحَتَها
هَابَّةً ناهِضَةً ، ناثرةً ألوانَ الشذا من الشُّجيرات العَطِرَة ،
متواثبةً لاهيةً ، حتى بدأ البلبلُ ، غِرِّيدُ غَرَامِ اللّيلِ ،
يُنْشِدُ لحنَ الزّفافِ ، ويَحُثُّ نَجْمَ المساءِ أنْ يُسْرِعَ فَيَبْزُغَ
على قِمّةِ التّلِّ الذى يَعتَليهِ حتى يُشْعِلَ مصباحَ العُرْسِ . ٥٢٠
وهكذا انتهيتُ من إيضاحِ أحْوالى ، وبَلَغْتُ فى
قِصتّى ذِرْوَةَ النَّعيمِ الأرضىِّ
الذى أهنأُ به الآن ، ولابد أن أعتَرِفَ بأننى أَجِدُ
فى جميعِ الأشياءِ الأخرى متعةً حقيقيةً ، ولكنّها ،
سواءً انتفعتُ بها أم لا ، لا تُغَيِّرُ فى الذّهنِ شيئًا ، ٥٢٥
ولا تثيرُ أىَّ رغبةٍ جامحةٍ ، وأَقْصِدُ بها اللطائفَ التى تُدْرِكُها
الحَوَاسُّ مثلَ التَّذَوّقِ والإبْصارِ والشَّمّ ، لِلأَعْشَابِ والفَوَاكِهِ والأزْهَارِ
ومثلَ النُّزْهاتِ وألحانِ الأطْيارِ ، ولكنَّنى بدأتُ هنا
أنْتشى نَشْوةً تختلفُ اختلافًا شاسعًا ، إذ عَرَفْتُ
فى نشوتى حاسةَّ اللَّمْسِ ، وهنا أَحْسَسْتُ الغرامَ المشبوبَ أولَ مرة ، ٥٣٠

جَيَشَانٌ فى النفسِ شديدٌ غريبٌ ، فإذا كنتُ فى جميعِ المَسَرّاتِ الأخرى

مَالِكًا زمامَ نَفْسى رابطَ الجَأْشِ ، أصبحتُ هنا ضعيفًا

أمامَ سِحْرِ نَظْرةِ الحُبِّ الجَبَّارة .

فإمّا أن الطبيعةَ ضَعُفَتْ فى داخلى فَتَركَتْ جانبًا

غير مَنيعٍ ، عاجزًا عن الصّمودِ أمامَه ، ٥٣٥

وإمّا أنها اقْتَطَعَتْ من جانبى قسمًا كبيرًا ، وربما كان

أكبر مما فيه الكفاية ، وكانت النتيجةُ ، على الأقل ، هى أن أَضْفَتْ عليها

أكثر مما ينبغى من الزّينة ، فكان الظّاهرُ مُحْكَمًا

بالغَ الدِّقّة ، والباطنُ أَقَلَّ إحكامًا ودقَّة .

وأنا أفهمُ كُلَّ الفَهْم الغَايَةَ الأُولى ٥٤٠

للطَّبيعةِ فى جَعْلِها أدنى درجةً فى العَقْل

والمَلَكَاتِ الباطنةِ ، على امتيازها وتَفَوّقِها على الجميع ،

كما كانتْ فى مظهرِها أيضًا أَقَلَّ شبَهًا

بصورة الذى صَنَعَنا نحن الاثنين ، وأَقَلَّ تعبيرًا عن

طابَعِ السيادةِ الذى مَنحَنَا إيَّاه ٥٤٥

على المخلوقاتِ الأخرى ، ولكننى عندما أقاربُ

جمالَها ، تبدو لعَيْنِى فى أوجِ الكمالِ ،

وذاتُها فى غايةِ الاكتمالِ ، فأسعى إلى مَعْرِفَةِ

ما تذهبُ إليه ، فكلُّ ما تريدُ فعلَه أو قولَهُ

يبدو وقد تَحلّى بأكبرِ قَدْرٍ من الحِكْمةِ والفَضيلَةِ والتكتمُّ، فهو الأَحْسَنُ. ٥٥٠

وكلُّ معرفةٍ عُلْيا فى حُضُورِهَا تسقُطُ

انحطاطًا ، والحكمةُ فى الحديثِ معها

يَنْفَرِطُ عِقْدُها ويَشْحُبُ مُحيّاها وتبدو كالحُمْق ،

وتُظِلُّها شيمةُ السُّلْطةِ والعَقْل

كشيمةٍ غُرِسَتْ عَمْدًا أوّلاً ، فهى أصيلةٌ ولم تُضْفَ عليها لاحقًا ٥٥٥

عَرَضًا ، وتَكْتَمِلُ الصورةُ حين ترى

كَرَمَ النَّفْسِ والشَّرَفِ وهما يُقيمانِ مَقَرَّهما

ويَبْنيانه أروعَ بُنْيانٍ فيها ، ويخلُقان جَوًّا من الرَّهْبةِ

حولَها ، كأنه مَلَكٌ حارسٌ مُكَلَّفٌ بها .

وردّ عليه المَلَكُ مُقطِّبَ الجبين قائلاً : ٥٦٠

لا تَتَّهِمْ الطبيعةَ بشىءٍ ، فلقد أدَّتْ مُهِمَّتَها ،

وما عليك إلاّ أن تَنْهَضَ بِمُهمتك ، ولا تَفْقِدْ الثقةَ

فى الحكمةِ الإلهيةِ ، فلنْ تتخلى عنك إذا

دامَ استمساكُكَ بها ، وأنتَ فى مَسيسِ الحاجَةِ إلى قُرْبِها الآنَ ،

فلا تُضْفِ أكثرَ مما ينبغى على الأشْياء التى ٥٦٥

يَقِلُّ امتيازُها عما تراه ، على نحو ما تدركُ أنت نَفْسُك ،

فما الذى تُعْجَبُ به ، وما الذى يَهبُك كُلَّ هذا الانتشاء ؟

ظاهرُها ؟ إنها جميلةٌ بلا شك ، وجديرةٌ جدارةً تامّةً

بإعزازِك إياها وتكريمِكَ وحُبِّك

لا بأن تُخْضِعَكَ لها ، ضَعْ نفسَك فى الميزانِ معها ٥٧٠

وانظرْ قيمةَ كلّ كِفَّةٍ ، فكثيرًا ما يجدُ المرءُ أكبرَ فائدةٍ

فى تحديد قيمةِ ذاته ، استنادًا إلى العَدْلِ والحَقِّ

دونَ شَطَطٍ ، وكُلَّما زَادَتْ براعَتُك فى هذا التَحْديدِ والمَعْرفة

ازداد إقرارُها بأنك أنت رَأْسُها ،

وإسلاسُها للحقائق قِيادَ مَظْهرِها الجميل ٥٧٥

الذى خُلق بالغَ البهاءِ حتى يزيدَ من سُرورك

وبالغَ المهابَةِ حتى تلتزمَ الشرفَ فى حُبِّك

لزوجتك التى تُدركُ متى تَنْحَسرُ حكمتُك إلى أدنى درجاتِها .

أما إذا كانت حاسةُ اللمسِ التى يتوسلُ بها الإنسان

فى التكاثر تبدو لعينك مصدرًا للمتعة ٥٨٠

يفوقُ كُلَّ الحواس ، فتذكرْ أن متعةَ هذه الحاسةِ قد وُهِبَتْ

للأبقارِ ولكل حيوانٍ ، ولم يكنْ الخالقُ

ليُشيعَهَا ويُفْشِيها بينها ، لو كان فى حَصَادِ

مُتْعَتِها أىُّ شىءٍ جديرٍ بأن يُخْضِعَ

روحَ الإنسانِ أو يُحَرِّكَ فى نفسهِ العاطفَةَ ٥٨٥
وكُلُّ ما تجدُه رفيعًا ساميًا فى صُحْبَتِها من
جاذبيّةٍ وشمائلَ إنسانيةٍ وعقليةٍ ، فلك أن تُحبَّه على الدوام
فأنت تصيبُ حين تحبُّ ، وتخطئُ حين تَجْرِفُكَ العاطفةُ المشبوبةُ ،
إذ لا تنطوى تلك على حُبٍّ حقيقى ، فالحبُّ
يُهَذِّبُ الأفكارَ ، ويزيدُ من رَحَابَةِ الفؤادِ ، ويتّخذُ مَقَرَّه ٥٩٠
فى العقل ، وهو صائبُ الأحكامِ ، بل هو السُّلّم
الذى يتيحُ لك إذا ارتَقَيْتَهُ أن تَصِلَ إلى الحُبِّ الإلهى
لا أن تَهْوِى فَتَغْرقَ فى الملاذِّ الجسديةِ ، ولهذا السببِ
لم يُعْثَرْ لك على زوجٍ من بين ضروبِ الحيوان .
وأجابه آدمُ وقد مَسَّهُ شىءٌ من الخَجَلِ قائلاً : ٥٩٥
لا ظاهرُها الذى صُوِّرَ بهذا الجمالِ ، ولا أىُّ صِفَةٍ
من صفاتِ التكاثر التى تشتركُ فيها جميعُ المخلوقاتِ
( وإن كانت أسمى كثيرًا فى فِراشِ الزوجية
حتى إننى أوليها احترامًا عظيمًا لا أدرى كُنْهَهُ )
لا هذا ولا ذاك يُمْتِعُنى متعةً تفوقُ ما ألقاهُ فى كريمِ فِعَالِها ٦٠٠
وفى ألْفِ آيةٍ من آياتِ التأدُّبِ والتهذيب التى تتدفّقُ كُلَّ يومٍ
فى جميعِ ألفاظِها وأعمالِها ، ممتزجةً بالحبِّ

والطاعةِ العَذْبةِ ، إذ تُفْصِحُ عن صِدْقِ
وَحْدَةِ الذّهنِ فينا ، والرُّوحِ الواحدةِ فى جَسَدَيْنا ،
إنه تناغُمٌ يُرى فى التوافُقِ بين الزَّوْجَيْن ٦٠٥
أَحْلَى من وَقْعِ الأَلْحانِ المتوافِقَةِ فى الآذان .
ولكنّ هذه جميعًا لا تُخْضِعُنى لها ، إننى أكْشِفُ لَكَ
عما أُحِسُّه فى أعماقى ، ولا يعنى بالضرورة أنه يَقْهَرُنى
أنا الذى تُوَاجِهُنى الحواسُّ بشتى الأشياءِ ،
بصورٍ وأشكالٍ شَتَّى ، ولكننى أتمتعُ بالحريةِ ٦١٠
فى أن أَرْضَى عما أشاءُ منها ، وأن أنالَ ما أرضاه .
لا تَلُمْنى إذن على الحُبّ ، فالحُبُّ كما تقولُ
يُؤَدِّى إلى السماء ، فهو السبيلُ وهو الهادى ،
فاصْبِرْ على دَعْوَاىَ إذنْ ، إن كان مَطلبى مشروعًا !
أَفَلاَ تعرفُ الحبَّ أرواحُ السماءِ ، وكيفَ تُفْصِحُ عن حُبّها ٦١٥
وتعبِّرُ عنه ، أبالنظراتِ فقط ، أم تُراها تتمازَجُ فيما
تُشعُّ من أنوارٍ ، هل باللَّمْس المُتَخيَّل أم باللَّمْس الفِعْلىّ ؟
وتطلع إليه المَلَكُ ببسمةٍ تَوَهَّجَتْ وَهجًا
سماويًا وَرْديًا أَحْمَرَ ، لَوْنَ الحُبِّ الصادقِ ،
وأجابه قائلاً : يكفيك أن تعرفَ أننا ٦٢٠

سُعَدَاء ، ولا سعادةَ دونَ الحُبّ ،

وكلُّ ما تستمتعُ أنت به جسديًا من نَقَاءٍ وطُهْرٍ

( ولقد خُلِقْتَ نَقِيًا طَاهِرًا ) نَستمتعُ به نحنُ

إلى أقصى حَدٍّ ، دونَ أن نصادفَ العوائقَ الجسديةَ

من أغشيةٍ أو مفاصلَ أو أطرافٍ هى قُضْبَانُ السِّجْنِ البشرىّ ، ٦٢٥

وإذا تعانَقَتْ الأرواحُ فعناقُها أيسرُ من عِنَاقِ الهَوَاءِ مع الهَوَاءِ

إذ تمتزجُ امتزاجًا كاملاً ، فى اتحادِ النَّقاءِ مع النَّقاءِ

الذى يشتاقُ إليه ، ولا نحتاجُ إلى قَهْرِ عوائقِ التَّواصُلِ

التى يلقاها امتزاجُ جَسَدٍ بجسدٍ أو نَفْسٍ بِنَفْسٍ .

ولكننى يجبُ أن أُقْلِعَ الآنَ ، فالشمسُ الغاربةُ ٦٣٠

وراء رأْسِ الأرضِ الخضراءِ والجزائرِ الزَّهْراءِ

تغوصُ فى الأُفُقِ الغَرْبىّ ، وهى الإشارةُ المُؤْذِنَةُ برحيلى .

فَلْتَنْعَمْ بالقُوّةِ والحياةِ الهانئةِ والحُبِّ ، لكنْ اذكر أولاً

من يكونُ حُبُّه فى طاعَته ، ولا تَعْصِ

أَمْرَهُ العظيمَ ، وحاذِرْ أنْ تجرفَكَ العاطفةُ المشبوبةُ ٦٣٥

فيفعلَ حُكْمُك أىَّ شىءٍ تنبو عنه إرادتكُ الحُرَّة

ولا ترضاهُ ، فمصيرُك ومصيرُ جميعِ أبنائك

من خيرٍ أو شَرّ قد وُضِعَ فى يَدِكَ ، فَخُذْ حِذْرَكَ .

لسوفَ يَسُرُّنى أن أَرَاكَ صَابِرًا مُصَابِرًا

وكُلٌّ من بُوركَ فيهم ، فَكُنْ صامدًا والثباتُ أو السقوطُ ٦٤٠

فى يَدِكَ ، ويكْمُنُ فى حُرِّيَّةِ اختيارِكَ وَحْدَكْ .

الباطِنُ كامِلٌ فلا تَطْلُبْ استكمالاً له من الظَّاهِرِ

وعليكَ أن تَصُدَّ كل إغْراءٍ باقْترافِ الذُّنوبِ .

قال ذلك ونَهَضَ ، فقامَ آدمُ معه

وسارَ خَلْفَهُ وهو يباركُه قائلاً : ما دامَ عَلَيْك أن ترحلَ ٦٤٥

فاذهبْ يا ضَيْفَ السماء ، أَيُّها الرسولُ الأثيرى

الذى أرسله من أعبدُ خيرَ سلطانِه وملكوتِه .

لقد كنتَ كريمًا فَتَلَطَّفْتَ معى

وتنازَلْتَ ، ولسوفَ أَحْمِلُ بآياتِ الإعزازِ والشَّرَفِ إلى الأبد

ذِكْرَاكَ البهيجةَ ، وليَسْتَمِرّ عطاؤُك للبَشَر ٦٥٠

خَيْرًا ووُدًّا دائمًا ، وأَكْثِرْ من زياراتك .

وهكذا افترقا ، فانْطَلَقَ المَلَكُ إلى السماء صاعدًا

من الظِّل الظليل ، واتجه آدمُ إلى خميلتِه .

## نهاية الكتاب الثامن



# الكتاب التاسع

## الموضوع

بعد أن ينتهى إبليس من دورته حول الأرض ، يعود بخبثٍ إلى الفردوس ليلاً ، وقد تنكر بمكره فى صورة ضباب ، ويتقمص جسد الثعبان النائم . ويذهب فى الصباح آدم وحواء إلى العمل ، وتقترح حواء تقسيم العمل بين عدة أماكن ، يعمل فيها كل منهما على انفراد ، ولكن آدم لا يوافق ، مشيرًا إلى ما فى ذلك من أخطار ، قائلاً إنه يخشى أن يحاول العدو الذى سبق تحذيرهما منه مباغتتها على انفراد ، وكرهت حواء أن يُظَنَّ بها الافتقار إلى الحيطة اللازمة أو قوة الشكيمة ، فقالت إنها تفضل انفصالها فى العمل عنه ، وإن كانت تريد فى الواقع أن تختبر مدى قوتها ، ويوافق آدم آخر الأمر ، فيأتيها إبليس وحدها ، ويلى ذلك وصف المدخل الخبيث الذى يدخله ، فهو يتطلع إليها أولاً ويحدّق ، ثم ينطق ويتحدّث ، مادحًا حواء مدحًا يجعلها تتجاوز الخلائق جمعاء ، ويتملقها ملقًا شديدًا ، وتعجب حواء حين تسمع الثعبان يتكلم ، فتسأله كيف نجح فى الحديث مثل البشر ، وكيف اكتسب القدرة على الفهم ، وكيف لم يكتسب هذا وذاك قبل تلك اللحظة ، وأجابها الثعبان قائلاً إنه نجح بفضل مذاق ثمرة شجرة معينة فى الجنة ، فاكتسب الكلام والعقل ، ولم يكن يملك أيا منهما قبل ذلك ، وتطلب حواء منه أن يصحبها إلى تلك الشجرة ، فتجد أنها شجرة المعرفة المحرمة ، وتزداد جسارة الثعبان ، فيتوسل بشتى الأحابيل والحجج حتى يقنعها آخر الأمر بالأكل منها ،

ويسرها المذاق فتفكر هنيهة وتتردد فيما إذا كان ينبغى أن تخبر آدم بذلك أم لا، وأخيراً تأتيه ببعض ثمار تلك الشجرة ، وتقص عليه كيف اقتنعت بأن تأكل منها ، ويقع آدم فى دهشة وحيرة فى البداية ، ولكنه يدرك أن حواء سوف تضيع من يده ، فيقرر بدافع قوة الحب الجانحة أن يفنى معها ، ويأكل من الثمرة كأنما ليهون من الخطأ ، ويلى ذلك وصف تأثير ذلك فيهما ، إذ طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة بعد أن بدت لهما سوءاتهما ، ومن ثم يبدأ الشقاق بينهما، وكل منهما يرمى تبعة ما حدث على الآخر .

لن نتحدثَ بعد الآن عن اللهِ أو الملَكَ الذى حَلَّ ضَيْفًا
على الإنسانِ ، حيثُ اعتادَ فى أُلْفَةِ الصديقِ لصديقِه
أن يتنازلَ بمُجَالَستِه ويُشَارِكَهُ
الطعامَ فى الخلاءِ ، ويَسْمَحَ له فى أثْناءِ ذلك
بما يُباحُ له من حديثٍ دونَ حرجٍ ، إذ لا مناصَ لى الآنَ من تغييرِ ٥
تلك النَّبرَاتِ إلى لُحونِ المأساةِ ، من شَكٍّ مُريبٍ ذَميمٍ
وفَصْمِ عُرى الوُدِّ وخِيَانَتِه من جانبِ الإنسان ، وتمردِّه
وشَقِّهِ عَصَا الطَّاعَةِ ، وأمّا من جَانبِ السَّماءِ التى
أشاحَتْ الآن عنه ، فابتعادٌ وتَقَزُّزٌ
وغضبٌ وتقريعٌ مُنْصِفٌ وإصْدَارُ حكمٍ ١٠

أتى إلى هذه الدُّنيا بدُنْيا من الأحزانِ
والخَطيئةِ ، وبالموتِ الذى يَتْبَعُها كَظِلِّها ، وبالشقاءِ
المُنْذرُ بِقُدُومِ المَوْت . إنها لمُهِمَّةٌ ثقيلةُ الوَطْأة على القَلْبِ
ولكنّ الموضوع ذو طابَعٍ بُطُولىّ لا يَقِلُّ بل يزيدُ عن سَوْرَةِ غَضَبِ
أخيلاس الصارمِ على عَدُوِّه وهو يُطارِدُه فيفرُّ ١٥
ثلاثَ مراتٍ شريدًا حَولَ أسوارِ طُرْوادَةَ ، أو جَيَشَانُ
"تورنوس" وهو يَنْشُدُ "لافينيا" التى حُرِمَ منها ،
أو حنَقَ "نبتون" أو "جونو" ، الذى طَالَ
ابتلاءُ اليونانِ به وابنِ "ڤيثيريا" فأمْعَنَ فى الطُّول !
لو أننى استطعتُ أن أَجِدَ الأسلوبَ الملائمَ ٢٠
من ربَّة الشِّعرِ التى ترعانى فى السماء ، والتى تتعطفُ
بزيارتى كُلَّ ليلةٍ دونَ توسُّلٍ وابتهالٍ ،
وتُملى علىَّ الأبياتَ هاجعًا أو تُلْهِمُنى
فأكتبُ النَّظْمَ يسيرًا دونَ تَكَلُّفٍ أو تدبيرٍ ،
منذُ أن وَقَعْتُ فى البداية على هذا الموضوعِ للقَصيدِ البُطُولى ٢٥
فَرَاقَ لى بعد تردّدٍ طويلٍ فى الاختيار ، حتى تَأَخَّرَ شُروعى فيه ،
وإن كنتُ بطبيعتَى لا أَعْمَدُ جاهدًا للكتابةِ عن
الحروب ، حيث كانت تُعتبرُ حتى الآنَ الموضوعَ
البطولىّ الوحيد ، وحيث المهارةُ الرئيسيةُ للشاعرِ تشريحُ

جِراحِ فُرسانِ الأساطيرِ وإيرادُ تفاصيلِ الدّمارِ المُملَّةِ ٣٠
فى المعارك الخيالية ، وأما الجَلَدُ الذى يَزينُ
الصَّبرَ الجميلَ والاستشهادَ البطوليَّ
فلمْ يكُنْ يُتَغَنّى به ؛ كما أَنْفِرُ من وصفِ المسابقاتِ والمبارياتِ
أو مُنَازَلةِ الفرسانِ بأسْلحَتِهمْ ودُروعِهِمْ البرَّاقَةِ
ذاتِ الشاراتِ العجيبةِ ، وبالخَيْلِ المُطَهَّمَةِ والجِيَادِ ٣٥
المكْسُوَّةِ ، والمُزَيَّنَةِ بالزيناتِ الباهرةِ ، فرسانُ أُبَّهَةٍ
فى النزالِ والصَّولاتِ والجَوَلاتِ التى تتلوها الولائمُ الحافلةُ
التى تُولَمُ لهم فى قاعاتٍ يشرفُ عليها قهرمانٌ وخدمٌ ،
وأصولُ المآدبِ ومهاراتُ القائمينَ عليها ، فهى مبتذلةٌ
وليست جديرةً بأنْ تُضْفِى صِفَةَ البُطُولَةِ أو اسمَها ٤٠
على شخصٍ ما أو قصيدةٍ ، فلستُ بها
خبيرًا ولا عليها حريصًا ، وقد بَقِىَ لى موضوعٌ أسمى
ويكفى فى ذاته للسموِّ بذلك الاسم ، إلا إذا كنتُ
قد جئتُ بعد فواتِ الزمنِ الصالحِ ، أو قَعُدَتْ بى بُرُودَةُ
الأجواءِ ، أو الشيخوخةُ ، عما اعتَزَمْتُه من تَحْليقٍ ، فَقَصَّتْ جَنَاحى ٤٥
وما كانَ أقربَ ذلكَ إلى الوقوعِ لولا أن زمامَ الأَمْرِ
ليسَ فى يَدى بل فى يَدِها ، وهى تأتى بالقَريضِ كُلَّ ليلةٍ إلى أُذُنى .

غَرُبَتْ الشمسُ ، وأفَلَ من بَعْدِهَا كوكبُ
الزُّهَرَة ، المكلَّفُ بأن يَأْتِيَ
بالشَّفَقِ إلى الأَرْضِ ، وهو الفاصلُ القصيرُ ٥٠
بين اللّيلِ والنّهارِ ، فاكتسى الأفقُ من أقصاهُ إلى أقصاهُ ،
في نِصْفِ الكُرَةِ الأرضيّةِ الذي يغشاهُ الليل ، لثامَ الظُّلْمة .
وعندها هبَّ إبليس ، وكان قد فرّ منذ فترةٍ من عدن ،
خائفًا من تهديداتِ جبريل ، فزادَ من إحكامِ
تدبيرِ مَكْرِهِ وخُبْثِ تَحَايُلِه ، وقد عَقَدَ العَزْمَ ٥٥
على إهلاكِ الإنسانِ ، ولم يُلْقِ بالاً إلى ما يَحْدُثُ
له مما هو أشدُّ وأنكى ، بل تجاسرَ عائدًا .
كان فرارُه ليلاً ، وفي منتصف اللَّيلِ عادَ
من دَوْرَتِهِ حولَ الأرضِ ، حَذِرًا من طُلوعِ النّهار
إذ إنَّ المَلَكَ "أوربيل" ، الوَصِيَّ على الشَّمْسِ ، لَمَحَهُ في ٦٠
أثْنَاءِ دُخُولِه ، وحَذَّرَ ملائكةَ الشاروبيم
القائمةَ بالحراسةِ فَتَرَقَّبَتْه ، وكان قد طُرِدَ مُفْعَمَ القَلْبِ بالهَمِّ منها ،
فَظَلَّ يطيرُ على امتدادِ سبعِ ليالٍ مُتَّصِلَةٍ راكبًا مَتْنَ
الظلامِ ، ودار ثلاثَ دوراتٍ حول خَطِّ الاستواءِ
وعَبَرَ رَكْبَ اللَّيلِ أربعَ مراتٍ ٦٥

من القُطبِ إلى القُطبِ ، ماراً بأقطارِ الأرضِ الأربَعَةِ .

وفى الليلةِ الثَّامنَةِ عادَ ، وعلى السَّاحِلِ البَعيدِ

عن المَدْخَلِ وعن رقابَةِ الشاروبيم حَلَّ وهو يسترقُ

الخطى إذ وجد مدخلاً لا يلتفتُ إليه أحدٌ . كان ثَمّ مكانٌ -

واختفى الآن بعد أنَ بدَّلَتْ الخطيئةُ الأحوالَ ، لا صُروفُ الدهرِ - ٧٠

حيثُ تتدفَّقُ مياهُ دِجْلَةَ ، فى آخرِ الفردوس ،

فى مجرىً تحت الثَّرى ، ثم يَنْدَفِعُ بعضُها

ويَنْبَجِسُ عينًا دفاقةً بجوارِ شجرة الحياةِ .

وهنا هبطَ إبليسُ مع ماءِ النَّهْرِ وخَرَجَ معه

يلتفُّ بالرَّذَاذِ والضَّبَابِ المُتَصَاعدِ ، ثم جعلَ يبحثُ ٧٥

عن مكانٍ يختبئُ فيه . كان قد بحثَ فى البَرِّ والبحرِ ، طُولاً

من عَدْنٍ حتى البحر الأَسْودِ وبَحْرِ

"آزوف" ، صاعداً حتى نهر "أوب" فى "سيبريا"

وهابطًا حتى القارّة القطبيةِ الجنوبيةِ القصيّةِ ، وعَرْضًا

نحو الغَرْبِ من نهر اللّيطانى فى الشام حتى المحيطِ ذى القُضْبان ٨٠

عند بَرْزَخِ بَنَمَا ، ومنه إلى الأرض التى يتدفَّقُ فيها

نهر السِّنْد و"الجَانْجا" ، وهكذا طَوَّفَ بالأرض

باحثًا منقبًا مُدققًا مُفَتّشًا مُتَعَمّقًا

فى طبعِ كُلِّ مخلوقٍ ، لينتقىَ من بينها
أَشَدَّ ما يناسبُ تنفيذَ أحابيلِه ، فوَجَدَ 85
الثعبانَ ، أمكرَ حيوانٍ فى البَرِّ
واختارَه بعد تردّدٍ طويلٍ ، دارتْ فيه الحُجَجُ سِجَالاً
وتَنَاجَزَتْ الأفكارُ ، ثم قَرَّ رَأْيُهُ أخيرًا أن يَجْعَلَهُ
الوسيلةَ المناسبةَ ، أنسبَ أداةٍ للحيلةِ والخداعِ ، فإذا
دَخَلَ فيه فَتَقَمَّصَهُ ، أَخْفَى فيه غِوَايَتَهُ وإيحاءاتِهِ الخبيثةَ 90
عن أحدِّ الأبصارِ وأَفْوَاهَا ، إذْ مهما يكنْ الخداعُ الصادرُ
عن الثعبانِ الماكرِ ، فلن يستريبَ فيه أحدٌ ، بل سيظُنُّ الجميعُ
أنه راجعٌ إلى ذكائهِ الأصيلِ ومكرِهِ الفِطْرِىّ ،
أما إذا لُوحِظَ ذلكَ الخداعُ فى الحيواناتِ الأُخْرى
فربما أثارَ الريبةَ فى وُجودِ قُوَّةٍ شَيْطَانِيَّةٍ 95
عاملةٍ فى باطنِهِ ، تتجاوزُ مَدَارِكَ الحَيَوانِ .
قَرَّ رأيُه على ذلك ، ولكنه شَعَرَ بحزنِ الفُقْدَانِ فى داخلِهِ
يتفجرُ فى شكَاةٍ مُلْتَهِبَةٍ جائحَةٍ ، فَسَالَتْ الألفاظُ من فَمِهِ ، قائلاً :
أيتها الأرضُ ! كم تُشْبِهِينَ السَّمَاءِ ، إنْ لم تفوقيها ،
إذا زادَ انحيازنا للعَدْلِ ، فَأَنْتِ أَجْدَرُ بسُكْنى الملائكةِ ، إذْ بُنِيتِ 100
من وَحْيِ فِكْرَةٍ جديدةٍ طَرَأَتْ ، فأُصلِحَ بك ما بَاتَ قَدِيمًا !

وهَلْ كانَ اللهُ ليبنَى ما يَقِلُّ منزلةً عن أفْضَلِ ما بَنَى وشَيَّدَ ؟

أيتُها السماءُ على الأرْضِ ، تدورُ حولَكِ أفلاكُ السماءِ الأُخْرى

التى تَسْطَعُ وهى تحملُ مَصَابِيحَها الوَضَّاءَةَ التى تقومُ بعملِهَا ،

نوراً على نُورٍ ، من أجْلِك أيتها الأرضُ وَحْدَكِ ، فيما يبدو ، ١٠٥

فتركِّزُ فيكِ جميعَ أشعتِّها الثَّمينةِ

ذاتِ الوَهَجِ القُدْسِىّ ، ومثلما يَشْغَلُ اللهُ فى السماءِ

مَرْكزَهَا ويمتدُّ فى سائرِ الوُجُودِ كُلِّه ، تَقَعِينَ أنتِ

فى المركزِ وتَتَلَقَّيْنَ نورَ جميعِ هذه الأفلاكِ ، وفيكِ

لا فى ذواتها ، تظهرُ كُلُّ طاقاتها المعروفةِ ١١٠

المثمرةِ فى الأعشابِ والنباتِ وميلادِ الأسمى

من المخلوقاتِ التى تنبضُ بالحياةِ ، درجاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ

من نُمُوٍّ وحِسٍّ وعَقْلٍ تجتمعُ كُلُّها فى الإنسان .

ما كانَ أمتعَ لى من أن أَمْشِىَ فى مَنَاكبِكِ

لو كنتُ أجدُ السُّرورَ فى أىِّ شىءٍ ، فى ذلك التَّعَاقُبِ العَذْبِ ١١٥

بين التِّلالِ والْوِدْيَانِ والأنهارِ والغاباتِ والسهولِ ،

بينَ البَرِّ والبَحْرِ ، والشُّطآن التى تُكَلِّلُ الأدغالُ هامَتَها ،

والصخورُ والعرائنُ والكهوفُ ، ولكننى لا أجدُ فى أىٍّ منها

مُقَامًا ولا مَلْجأً ، وكُلَّمَا ازدادَ ما أرَى من

مباهجَ من حولى ، ازدادَ إحساسى وتَعَمَّقَ ١٢٠

بالعذابِ فى باطنى ، كأنما ينبعُ من الحِصَارِ المقيتِ

للمتناقضاتِ ، فكلُّ خيرٍ يُمْسى لى

سُمًّا ناقعًا ، وإذ انْقَلَبْتُ إلى السماء فسوءُ المُنْقَلَبِ .

لكننى لا أطلبُ الإقامةَ هنا ولا فى السماء

إلا إذا قَضَى حكَمُ السماءِ الأَعْلى بذلك . ١٢٥

وانْقَطَعَ الأملُ فى تَخْفِيفِ حِدَّةِ شقَائِى

بما أسعى إليه ، إلا أنْ أجعلَ الآخرين يَقَعُونَ فى مِثْلِ

ما أنا فيه ، ولو كان ذلك أدهى وأمرَّ لى .

ففى التدميرِ وَحْدَهُ أجدُ الرَّاحةَ والتنفيسَ

عن أفكارِى العاتيةِ ، فإذا دَمَّرْتُهُ ١٣٠

أو مضيتُ به معى إلى ما يجلبُ الضَّيَاعَ الكاملَ له ،

وهو من خُلق كلُّ هذا من أجلِهِ ، فسرعانَ ما يَحُلُّ الدمارُ بكل هذا

من بعده ، فهو مرتبطٌ به فى السَّراء والضَّراء ، فليكونا

فى الضرّاء إذنْ ، حتى يتسعَ نطاقُ الدَّمارِ وينطلق ،

وسوف أحظى وحدى بالمجدِ من بين ١٣٥

شياطين جهنّمَ ، حين أنجحُ ، فى يومٍ واحدٍ ، فى تدميرِ

ما صاغه الجبارُ وصَنَعَهُ على مدى ستٍّ ليالٍ وأيامٍ

دون توقّفٍ ، ومن يدرى كم من الزمن استَغْرَقَهُ
فى التدبيرِ من قبلُ ، ولو أننى أُرَجِّحُ أنه
لم يبدأْ إلا حينَ قمتُ فى ليلةٍ واحدةٍ فَحَرَّرْتُ ١٤٠
من نَيْرِ الرِّقِّ المُهينِ ما يقربُ من نصفِ
من يحملونَ اسمَ المَلَكِ ، فأَنْقَصْتُ عددَ الحشُودِ
التى تعبدُه ، وهكذا فإنه ، انتقامًا لنفسه ،
واستكمالاً للأعدادِ التى نَقَصَتْ ،
سواءٌ كان قد استَنْفَدَ الطاقةَ القديمةَ فلم تَغْدُ قادرةً ١٤٥
على خَلْقِ المزيدِ من الملائكةِ ، هذا إذا كانوا
ممن خَلَقَهُمْ ، أو إمعانًا فى النِّكايةِ بنا ،
قَرَّ عزمُهُ على أن يُحِلَّ مَحَلَّنا
مخلوقًا صَوَّرَهُ من التّراب ، وأن يُضْفِى عليه ،
بعد أن رَفَعَهُ عن ذلك الأَصْلِ المُنْحَطِّ ، ١٥٠
مهامّ سماويّة ، وهى من مهامّنا ، وما قضى به
أَنْفَذَهُ ، فَصَنَعَ الإنسانَ ، ومن أَجْلِهِ بَنَى
هذا العالمَ الرائعَ ، ومَقَرُّهُ الأرضُ
وأعلن أنه السيد ، كما إنه ، ويا للمهانة !
سَخَّرَ لخدمتهِ ملائكةً من رُتْبَةِ 'الأَجْنِحَةِ' ١٥٥

وحُرَّاسًا من النُّورِ يراقبُون ويرْعَوْنَ
ذلك الأرضىَّ الذى أُوكلُوا به ، وأنا أخافُ تَنَبُّهَ هؤلاء لى
وأخشاهم ، وسوف أروغُ منهم إذ آتى مُلْتَفًا بالضَّبابِ
الذى تَنْشُرُه أَبْخِرَةُ منتصفِ الليلِ وأَتَسَلَّلُ خفيةً ، باحثًا
فى كل دَغَلٍ وأَجَمَةٍ ، عساى أنْ أَجِدَ ١٦٠
الثعبانَ نائمًا ، حتى أَتَسلَّلَ فأدخلَ طَيَّاته المُلْتَفَّةَ
فأختبئَ وأحققَ به خبيثَ مَقْصِدِى .
يا للانحطاط المزرى ! أنا الذى كنتُ من قبلُ أناجزُ
الأربابَ حتى أشغلَ أرفعَ مقعدٍ بينهم ، أَضْغَطُ الآن كِيانى
فى جسمِ حيوانٍ ، وأختلطُ بِطِينِ الحيوانِ اللزجِ ! ١٦٥
وهل يتجسدُ هذا الجوهرُ ويتمثَّلُ بالحيوان
بعد أن كان يطمحُ فى تَسَنُّم ذِرْوَة الأُلوهية ؟
ولكنْ أىُّ هوةٍ تلك التى يستنكفُ الطموحُ والثأرُ من
الهبوط إليها ؟ لابُدَّ للطَّامحِ أن يَهْبِطَ فى مَهْوىً
يوازى ارتفاعَ التَّحْليقِ ، وأن يُعَرِّضَ نفسَه أولاً أو أخيرًا ١٧٠
إلى أَحَطِّ الأشياءِ وأحقرِها . والثأرُ ، على حَلاَوةِ مذاقِه أولاً
سريعًا ما يرتدُّ إلى نَفْسِه كالعَلْقَمِ ،
فَلْيَكُنْ ، لن أبالى ، ولقد أحسنتُ تحديدَ المَرْمى ، فلأُطْلِقْ السَّهْمَ الآن

( ما دمت أقْصُرُ عن ارتقاءِ ذُرًا أعلى ) على الذى يلى القهار فى
إثارةِ حسدى ، على ذلكَ المخلوقِ الجديدِ الذى يحظى بحبِّ ١٧٥
السماءِ ، فهو الإنسانُ ابنُ الصلصالِ ، وليدُ الحقْدِ ،
الذى رفَعَهُ خالقُه فوقَنا حقدًا علينا ونكايةً فينا
وهو من التراب ، لا أفْضَلَ إذن من مقابلة الحقْدِ بالحقد .
قال ذلك وانطلق يجوسُ خلال كُلِّ أَجَمَةٍ بلّلها القَطْر أو جَفَّتْ
مثل ضبابٍ أسودَ يزحفُ قريبًا من سطحِ الأرضِ ، فواصلَ ١٨٠
بحثَه فى منتصفِ اللّيْلِ ، حيثُما ظنّ أنه سيجدُ الثعبانَ قريبًا
وسرعانَ ما وَجَدَهُ مستغرقًا فى نومٍ عميقٍ
وقد تكوَّرَ فى متاهةٍ من تلافيفِ جسمهِ الكثيرةِ
واضعًا رأسَهُ وَسطها ، ولديه عُدّتُه الزاخرةُ من أحابيلِ المكْر ،
لمْ يكنْ كُتِبَ عليه بَعْدُ أن يَظَلَّ فى الظِّلِّ متحفزًا أو فى مكْمَنِه مُتَرَبِّصًا ١٨٥
أو أن يُؤْذى أحدًا ، بل كان ينامُ على بساطِ الكَلأ المُعْشِبِ
لا يخافُ ولا يخيفُ ، ودخل الشيطانُ من فمِهِ
إلى باطنِه فَنَفَذَ إلى حواسّ الحيوانِ فيه ،
فى قلبِه كانت أمْ فى رأسِهِ ، وسرعانَ ما تملَّكَهُ فألْهَمَهُ القُدْرَةَ
على سلوكِ مَسْلَكِ الأذكياء ، دون أن يُقْلِقهُ من نومِهِ ١٩٠
بل ظَلَّ مختفيًا فى انتظارِ طلوعِ الصبحِ .

وعندما بدأ الضوءُ القُدْسىُّ يُشْرِقُ
فى عدن على الأزهارِ النَدِيَّةِ ، مُرْسِلةً أنفاسَ
شَذَا الصباحِ ، وعندما بدأ كل ما يتنفسُ
يبعثُ من معبدِ الأرضِ العظيمِ تسابيحَ الحمدِ الصامتةِ ١٩٥
إلى الخالقِ ، ويملأُ أَنْفَهُ
بطيبِ الأريجِ ، أتى الزَّوجان من البَشَرِ
وشرعا يشاركانِ فى الصّلاةِ بصوتٍ مسموعٍ مع سائرِ المنشدينَ
من المخلوقاتِ غيرِ الناطقةِ ، فلما قُضِيَتْ الصلاةُ ، بدآ يَنْهَلاَنِ من
جَمَالِ الرَّبيعِ ، أَعْظَمِ الفصولِ فى عَذْبِ الروائحِ ولطيفِ النسائمِ ، ٢٠٠
ثم أَخَذَا يتشاورانِ فى أفضلِ السُّبُلِ لقضاءِ عَمَلِ اليومِ
فى الزّراعةِ والغَرْسِ ، إذ إن عَمَلَهُمَا زادَ كثيرًا
عما تستطيعُه أيدى اثنين ، فالعملُ بالحديقةِ واسعُ النطاقِ .
وبدأتْ حواءُ الحديثَ إلى زوجها أولاً فقالت :
قد نعمل يا آدم طولَ الوقتِ فى تشذيبِ ٢٠٥
هذه الحديقةِ ، ورعاية النباتاتِ والأعشابِ والأزهارِ ،
وهو عملُنا الممتعُ الذى كُلِّفْنا به ، ولكننا - ريثما نُرْزَقُ بأيدٍ أخرى
تساعدُنا - نراهُ يكبرُ بفضلِ جهودنا ،
وقيودُنا تزيدُه انطلاقًا ، فما نفعلُه نهارًا

من تهذيبِ ما ازدادَ نُموُّه فاشْتَطَّ ، أو تَشْذيبِه أو مُسانَدَتِه أو رَبْطِهِ ٢١٠
نراهُ بعد ليلةٍ أو ليلتين وقد جَنَحَ فى نُموِّهِ جُنُوحًا يسخرُ من جُهُودِنا ،
عائدًا إلى حَالَتِه البَرِّيَّة ، وأريد منك المشورةَ إذنْ ،
أو الإصغاءَ إلى ما أَتَتْ به أفكارى الأولى إلى ذهنى :
فَلْنَقْسِمْ العَمَلَ فيما بيننا ، فامْضِ أنت إلى حيثُ تشاءُ
مهما يكنْ ، أو حيثُ تُمْليكَ الضرورةُ القُصوى ، سواءٌ لربطِ ٢١٥
سيقانِ النباتاتِ الزّاحفةِ فى هذه الخميلة ، أو لتوجيهِ
فروعِ اللبلابِ وُجْهَةَ التسلّقِ المنشودةِ ، وأمّا أنا
فسوفَ أجدُ فى ذلك الحَوْضِ المُزْهِرِ بالوُرورِدِ المتشابكةِ
مع الرَّيْحانِ ، ما يحتاجُ إلى الإصلاحِ والتقويمِ حتى الظُّهرِ .
فنحن إذا اخترنا أن نعملَ ونحن قريبان من بعضِنا البعض ٢٢٠
طولَ النهارِ ، فلا عجبَ إذا تداخَلَتْ فى هذا القُربِ
النظراتُ والبسماتُ ، أو إذا تَدَخَّلَ شىءٌ جديدٌ
فأثارَ موضوعًا جديدًا للكلامِ ، مما يُقَاطِعُ
عملَ يومِنا فلا يثْمِرُ شيئًا يُذْكَرُ ، وإن كنا بدأناه
باكرين ، فتقبلُ ساعةُ العَشَاءِ دون أن نستحقَّها . ٢٢٥

وأجابها آدمُ بنبراتٍ رقيقةٍ قائلاً :

أيتها الأُمُّ الوحيدة ورفيقتى الفريدة ، يا من لا

نظيرَ لها وأُحِبُّها فوقَ جميعِ المخلوقاتِ الحيّة ،
لقد أَصَبْتِ فيما اقترحْتِه ، وأَحْسَنْتِ التفكيرَ وتدبيرَ
أفضلِ أسلوبٍ لأداءِ العَمَلِ الذى ٢٣٠
كَلَّفَنَا اللهُ به هنا ، ولن يفوتَنى أن
أُثْنى عليه ، فمن المُحالِ أن نعثرَ على ما هو أجملُ
فى المرأةِ من حُسْنِ التدبيرِ المَنْزِلىّ
وحثّ زوجها على صالحِ الأعمالِ
ولكن ربَّنَا لم يفرضْ العملَ بجَهَامَةٍ وصَرَامَةٍ ٢٣٥
بحيثُ يحرمُنا ، إذا احتَجْنا ، من
التسريةِ والإذكاءِ ، سواءٌ بالطعامِ أو الحديثِ أثناءَ العَمَلِ ،
فهو غِذَاءُ العقلِ ، أو بذلك التخاطُبِ العذْبِ
باللَّفَتاتِ والبَسَماتِ ، فالبسماتُ تنبعُ من العقلِ ،
وهو ما حُرِمَ الحيوانُ منه ، وهى غِذاءُ الحُبِّ ، ٢٤٠
وليس الحُبُّ بالغايةِ الدُّنْيا لحياةِ الإنسان .
فلقد خَلَقَنا اللهُ لا لمَلاَلِ العمل وكلالِهِ ، بل لمُتْعتِهِ
وسرُورِهِ ، ورَبَطَ السرورَ بالعقلِ .
لا تَرْتابى فى قُدرة أيدينا معًا على العملِ فى هذهِ الممراتِ والخمائلِ
حتى لا ترجعَ إلى صورتِها البريّة، وبسهولةٍ ويُسْرٍ ، مهما ٢٤٥

بلغَ من مشينا فى جنباتها ، حتى تأتى قريبًا أيادى الشبابِ
فتساعِدنَا ، أما إذا رأيتِ أن كثرةَ الحديثِ قد
تُتْخمُ شهيتّكِ ، فلا بأسَ أن أغيبَ عنكِ فترةً وجيزةً
فالعزلةُ أحيانًا أفضلُ صُحْبةٍ ،
والابتعادُ قليلاَ يُذْكى عذوبةَ العَوْدَةِ ٢٥٠
ولكنّ شكًا آخرَ يُخَامِرُنى ، إذ أخشى أن يُصيبَكِ
مكروهٌ إذا انفصَلْتِ عنى ، فأنتِ تعرفين
ما حُذِّرْنا منه ، وأىّ عدوٍ خبيثٍ
يحسُدنا حَسَدًا على سعادتنا ، ويدفعُه
اليأسُ إلى السعيِ لإلحاقِ الأذى والعارِ بنا ٢٥٥
إن تسلّلَ إلينا خِلْسَةً ، ولا شك أنه قريبٌ منا
يراقبُنا ، طامحًا طامعًا فى تحقيق
مُبْتَغَاه وتحيّن الفرصةِ المواتيةِ له بانفصالنا ،
فَلَنْ يستطيعَ الإيقاعَ بنا ونحنُ معًا ، إذ نُقدّمُ لبعضِنا
البعضِ العونَ على وَجْهِ السرعةِ إذا دَعَتْ الحاجةُ ، ٢٦٠
سواءٌ كان مقصدُه الأولُ هو الإطاحةَ
بولائنا لله ، أو زعزعةَ رابطةِ
الحبّ بين الزوجين ، وهو النعيمُ الذى ننعمُ به ، وربما

كان يثيرُ حسدَه أكثرَ من سائرِ نِعَمِنَا ،

فسواءٌ كان الأمرُ كذلك، أو كان أدْهى وأنْكى، فلا تَتَخَلَّ عن الجانبِ المخلصِ ٢٦٥

الذى وَهَبَك وُجُودَك ، ولا يزال يُظلِّلُك بِظلِّه ويحميك .

فالزوجة ، أنَّى أحَسَّتْ أن الخَطَرَ أو العارَ يتربّصُ بها

تجدُ غايةَ الأمنِ وصوابَ المَسْلَك في الوقوفِ مع زوجها

الذى يحرُسُها أو يشاركُها مكابدةَ أقْصى البَلاَء .

وأجابتْهُ حواءُ ، بنبراتٍ تشى بجَلاَلِ الطُّهْر والنَّقاءِ ، ٢٧٠

نبراتِ عاشقةٍ تُلاقى بعضَ القَسْوَة والجَفَاء

وتنطقُ بعذوبةِ الصرامةِ ورباطةِ الجأشِ قائلةً :

يا ابن السماءِ والأرضِ ، وسيِّدَ الأرضِ كُلِّها ،

لقد سمعتُ عن مثلِ هذا العَدُوِّ الذى يعادينا ويسعى

لإهلاكنا ، فلقد أخْبَرْتَنى أنت به ، وعلمتُ به ٢٧٥

عَرَضًا من المَلاَك الذى غادرنا

أثناءَ وُقُوفى فى رُكْنٍ ظليلٍ خَلْفَ مَجْلسكما

وكنتُ رَجَعْتُ لتَوِّى آنذاك بعد أن أغْمَضَتْ زهورُ المساءِ عيونَها

ولكننى لم أتوقّعْ منك الشَّكَّ فى صَلاَبَتى وثَبَاتِ ولائى

لله أو لَكَ ، لا لِسَبَبٍ إلا أنّ لنا ٢٨٠

عدواً سيحاولُ الإغواءَ وابتلاءَ ذلك الثباتَ .

لا تَخْشَ منه العُنْفَ ، فكيانُنا الذى خُلِقْنا عليه
لا يَخْضَعُ للموتِ ولا للأَلَمِ ،
ويستطيعُ أن يمتنعَ على أَيّهما أو يَصُدَّه .
إذنْ فأنت تخشى المكرَ من جانبِه ، وهو ما يدلُّ ٢٨٥
على أنك تخشى أيضًا أن يهتزَّ إخلاصى الراسخُ وحبّى الثابتُ
أو أن تَعْصِفَ بأيّهما غِوَايَتُه ومكرُه ،
كيفَ وَجَدَتْ هذه الظُّنونُ سبيلَها إلى صدرِكَ
يا آدمُ ؟ كيف أَسَأْتَ الظنَّ بمن تُحبّها كُلَّ هذا الحب ؟
وأجابها آدمُ بكلماتٍ شافيةٍ قائلاً : ٢٩٠
يا ابنةَ الله والإنسانِ ، يا حواءُ الخالدةُ ،
فهكذا أنت ، بريئةٌ من الذنوبِ والمثالبِ ،
ولكننى أحاولُ اقناعَك ألاّ تغيبى عن ناظِرى
لا لنقصِ ثقتى فيك ، بل إن دافعى هو تَجَنُّبُ
وقوعِ الغوايةِ ذاتِها ، وهى التى يعتزمها عدونا .
إن من يُغوى أحدًا ، ولو فَشِلَ ، يُلقى عليه على الأقل
ظِلَّ عارٍ قبيحٍ ، واتهامٍ باطلٍ هو افتراضُ
ضَعْفِ الإخلاصِ ، وعَدَمِ المَنْعةِ والتَّحصُّنِ
من الغِوَايةِ ، ولسوف تقاومين بنفسك ، باحتقارٍ

وغضبٍ ، الذنبَ الذى تُغْوَيْنَ بارتكابه ، ٣٠٠

مهما يكن من فَشَلِ المحاولة ، وإذنْ فلا تُسيئى تقديرَ الحالَةِ ،

لأننى أسعى جاهدًا حتى أُجنِّبَكِ التَّعَرُّضَ لوقوع هذا العدوان

وأنت وَحْدَكِ ، إذْ لن يجرؤَ العدوُّ ،

على جَسَارَتِه ، أن يرتكِبَه ضِدَّنا معًا ،

وإذا تجاسرَ فسوفَ يُوَجِّهُ الهجومَ إلىَّ أولاً . ٣٠٥

ولا تستصغرى شأنَ حيلته وخداعَ أحابيلِه

فلابُدّ أن يكونَ ماكرًا إذ استطاع أن يُغوى

الملائكة ، ولم يجدْ فى مَعُونَةِ الآخرين ما يزيدُ عن حاجَتِه .

إننى أتلقى من بوارقِ ناظريْكِ

زيادةً فى كُلِّ فضيلةٍ ، وأزيدُ أمامَ عينيك ٣١٠

حكمةً وحَذَرًا وقُوّةً ، لو كانتْ بى حاجةٌ

إلى القُوَّةِ الظاهرةِ ، وأما العارُ ، وأنت تنظرين ،

العارُ من أن أُهزَمَ عَنْوَةً أو مكرًا ،

فيرفعُ من هِمّتى إلى أقصى حَدٍّ ، ونَتَّحِدُ حين ترتفع الهمة .

فلماذا لا تشعرين الشعورَ نَفْسَه فى باطنك ٣١٥

فى حضورى ، وتختارين امتحانَ نفسك

معى ، وأنا أفضلُ شاهدٍ على نجاحِ قوتك المُمْتَحَنة .

وانتهى من الحديث آدمُ الحريصُ على أَهْلِهِ ، فى حَدَبِهِ
وحُبِّه لزوجته ، ولكنّ حواءَ التى
ظنّت أن صِدْقَ إخْلاصِها لم يَلْقَ ما هو جديرٌ به
استأنَفَتْ الحديثَ فأجابتْهُ بنبراتٍ عذبةٍ قائلةً : ٣٢٠
إذا كان هذا حالَنَا، أى أن نُقيمَ
فى دائرةٍ ضيّقةٍ ، يحاصِرُنا عدوٌّ
بقوةِ مكرِهِ أو ساعِدِهِ ، ولم يكنْ لدى كُلٍّ منّا ،
وَحْدَهُ ، القدرةُ ذاتُها على الدفاعِ أنَّى يلْقى العدوَّ ، ٣٢٥
فكيفَ نكونُ سعداءَ ونحنُ دائمًا فى خوفٍ من الأذى ؟
ولكنّ الأذى ليس مقدمةً للخطيئةِ ، ولو أنَّ عدوَّنا
بغوايَتِهِ يسىءُ إلينا بسوءِ تقديرِهِ
لِكَمَالِ خُلُقِنا ، وسوءُ تقديرِهِ
لا يلوّثُ بالعارِ جِبَاهَنَا ، بل يَرْتَدُّ ٣٣٠
سوءًا إلى ذاته ، وإذن فلماذا نتحاشاه أو نخافُه ؟
بل نحن نَظْفَرُ بشرفٍ مُضاعَفٍ حين
يَثْبُتُ كذبُ افتراضِهِ ، فنجدُ الراحةَ والطُّمَأْنينةَ
بهذِهِ النتيجة ، ورِضى السماء عنا ، فهى الشاهدُ علينا .
وماذا تكونُ خصالُ الإخلاص والحبِ والفضيلةِ دونَ اختبارٍ ٣٣٥

وَحْدَها ، وكيف تقومُ دونَ عَوْنٍ ؟

علينا إذنْ ألاّ نرتابَ فى سعادةِ حالنا

التى تركها الخالقُ الحكيمُ ناقصةً تفتقرُ

إلى الأمنِ ، منفردِيْن كنّا أو مجتمعِيْن ،

ما أوهنَ سعادتَنَا إن كان الأمْرُ كذلك ٣٤٠

ولو كانت عدن مفتوحةً مباحةً ما غَدَتْ مقرَّ هناء .

وأجابها آدم بنبراتِ انفعالٍ قائلاً :

الواقعُ يا امرأةُ أنّ جميعَ الأشياءِ فى أحسنِ صورةٍ

حسبما شاءتْ إرادةُ الله وما قضى لها ، ويدُهُ الخالقَةُ

لم تتركْ شيئًا ناقصًا أو يفتقرُ إلى الكمالِ ٣٤٥

فى كُلِّ ما خَلَقَهُ ، وخصوصًا فى الإنسانِ ،

أو فى أىِّ شىءٍ من شأنه ضمانُ سعادةِ حالِه ،

آمنًا من تَدَخُّلِ القُوى الخارجية ؛ ففى نفسه

يكمُنُ الخَطَرُ ، وإن كان يقعُ فى نِطَاقِ طاقتِه

ولن يصيبَهُ الأذى رَغْمَ أَنْفِه . ٣٥٠

ولكنّ اللهَ تركَ إرادتَنَا حُرّةً ، فكلُّ ما ينصاعُ

للعقلِ يتمتعُ بالحريَّةِ ، وقد جَعَلَ العقلَ على صوابٍ

وإن طَلَبَ منه الانتباهَ والحَذَرَ واليَقَظَةَ الدائمةَ ،

حتى لا يُفاجأ بجمالٍ يكتسى مَظْهَر الخيرِ

فيخطئَ فيما يُمْليه على الفرد ، ويُضلِّلَ الإرادةَ ٣٥٥

فتفعلَ ما حَرَّمهُ الله تحريمًا صريحًا .

لا تأمُرُ الريبةُ إذنْ ، بل يأمُرُ الحبُّ الرقيقُ

بأنْ أُكْثِرَ من تَنْبيهكِ وأن تُصْغى إلى ما أقولُ :

إننا نَقفُ صامِدَيْن ، ولكننا قد ننحرفُ

فليسَ من المُحالِ أن يُقَابِلَ العقلُ ٣٦٠

شيئًا ذا بَهْرَجٍ زائفٍ أغراه العَدُوُّ بِخِدْمَتِه ،

فيقعَ فى خُدْعةٍ دون أن يدرى ،

بعد أن غَفَلَ عن الانتباه الصارم الذى أُمِر به وأُنْذر .

لا تَسْعَىْ إلى امتحانِ الغِوَايةِ إذَنْ ، بل ابتَعِدِى عنها

فهو أفضلُ ، والأرجَحُ أن يكونَ ذلك بعَدَمِ ٣٦٥

انفصالِكِ عنى ، وأما الابتلاءُ فيأتى دون أن نَطْلُبَهُ .

إذا كنتِ تبغينَ اختبارَ إخلاصِكِ فاختبرى

طاعَتَكِ أولاً ، وأما الآخرُ فمن ذا الذى يستطيعُ أن يعرفَ

دون أن يراكِ تُمْتَحَنين ، ومن سَيَشْهَدُ به ؟

فإذا ظَنَنْتِ أنّ الابتلاءَ الذى لا نسعى إليه قد يُبَاغِتُنَا ٣٧٠

ونحنُ أكثر أَمْنًا وغَفْلَةً مما يقتضيه تحذيرُنا ، وهو ما يبدو من حالِكِ

فاذهبى ، فمكوثُكِ رغم إرادتِك يزيدُ ابتعادَكِ عنى

اذهبى ببراءتِك الفِطْرِيّةِ الأصليةِ ، وارتكِنِى

إلى ما لديكِ من الفضيلة، واستجْمِعِى كُلَّ ما تملكين ،

فلقد نَهَضَ الله بكل عَمَلٍ أَوْجَبَهُ على نَفْسِه تُجاهَكِ، فانهضى أنتِ بواجبِكِ. ٣٧٥

وفَرَغَ والدُ الجِنْس البشرى من حديثِه ، ولكنّ حواءَ

أَصَرَّتْ على أن تكونَ لها الكلمةُ الأخيرةُ فأجابتْ بنبراتِ خضوعٍ قائلة :

إذنْ بعد أنْ أَذِنْتَ لى ، واعيةً بما حُذِّرْتُ منه ،

أساسًا بما اشتَمَلَتْ عليه كلماتُك المنطقيةُ الأخيرةُ فحسب

وتناولتْهُ أَلاَ وهو أن الابتلاءَ إذا جاءَ ونحنُ أقلُّ ما نكونُ طَلَبًا له ٣٨٠

فَرُبَّما وَجَدَنَا أَقَلَّ استعدادًا إلى حَدٍّ بعيدٍ

وهكذا ازدادَتْ رغبتى فى الذهاب ، ولا أُرجِّحُ أن أَلْقى

عدُوًّا بمثلِ هذه الكبرياءِ يسعى إلى أَضْعَفِ الطرفَيْن أولاً

فإن قَصَدَ إلى ذلك ، فسوف يُجَلِّلُه القَهْرُ بعارٍ أكبرَ .

قالتْ حواء ذلك وأَخْرَجَتْ يَدَها من يَدِ زَوْجها ٣٨٥

برِفْقٍ ورِقَّةٍ ، وانْطَلَقَتْ بِخِفَّةٍ مثلَ حُورِيَّةِ الغَابِ

أو حُورِيّاتِ الجبالِ والأدغالِ ، أو وَصِيفات "ديانا"

فى طريقِها إلى الخمائلِ ، ولكنّها كانت تفوقُ "ديانا" نفسَها

فى رشاقةِ الخُطْوةِ ومِشْيَةِ الملائكةِ ،

وإن لمْ تكنْ تَحمِلُ القوسَ والكِنَانَةَ مثلها ٣٩٠
بل بعضَ الأدواتِ الزِّراعيةِ الساذَجَة
التى شكَّلتْها قبلَ استعمالِ النارِ ، أو التى أَحْضَرَتْها الملائكة .
كانت أَشْبَهَ بربّةِ المراعى "باليس" ، أو بحوريةِ الفاكهةِ "بومونا"
وهذه الأدواتُ تَزينُها ، عندما فَرَّتْ 'بومونا' من
"فيرتومنوس" ، أو أَشْبَهَ بربّةِ المحراثِ "كيريس" فى شبابِها ٣٩٥
وهى ما تزال عذراءَ ، أو "بروسربينا" قبل أن يُغْويها "جوف" .
وتَابَعَتْهَا عينُ آدمَ طويلاً بنظراتٍ ملتهبةٍ
مُسْتَمْتِعَةٍ ، وإن كان أكثَرَ رغبةً فى بقائِها .
وكرّر آدمُ عِدّةَ مراتٍ أَمْرَهُ إليها بألاّ تتأخّرَ فى العودةِ
وكرّرَتْ هى تَعَهُّدَها له عدّةَ مراتٍ ٤٠٠
بالعودةِ ظُهْرًا وَسْطَ الخميلةِ
وأن يكونَ كلُّ شىءٍ جاهزًا على أفضلِ وجهٍ لاستدعاءِ
طعامِ الغَدَاءِ ، أو قَيْلُولَةِ العَصْرِ .
كم أنتِ واهمةٌ يا حواءُ المسكينةُ وكم ستُخْلِفِينَ وَعْدَ
العودةِ المفترضة ! وما أَتْعَسَكِ بالحادثة وما أَدَّتْ إليه ! ٤٠٥
فلنْ تَجِدِى أبدًا مُنْذُ تلكَ الساعةِ فى الفردوس
لا وَجْبَةً هنيئةً ولا نَوْمًا عميقًا ،

إذ كانَ الكَمينُ المختفى بين رَوْعَةِ الزُّهورِ والظِّلالِ
مُتربصًا ، يوشكُ أن ينقضَّ بحِقْدِه الجَهَنَّمىِّ
لَقْطعِ الطريقِ عليكِ ، أو لإرجاعِكِ ٤١٠
مَسْلُوبَةَ البَرَاءَةِ والإخلاصِ والنعيمِ .
وها هو الشيطانُ يسعى الآنَ ، ومنذ أن تَنَفَّسَ الصُّبْحُ ، مكتسيًا
مَظْهَرَ الثعبانِ المُعْتَاد ، مُقْبلاً
فى بَحْثِه الدائبِ ، إلى البُقْعَةِ التى يُرَجِّحُ أن يَعْثُرَ فيها
على اثنين من البَشَرِ لا نَظيرَ لهما ، وإن كان فيهما ٤١٥
الجنسُ البشرىُّ كُلُّه ، فريستُه المنشودَةُ .
بحثَ فى العَرَائشِ والحُقولِ وحيثما لاَحَتْ له أوراقُ
خميلٍ أو روضٍ أريضٍ على الأفنانِ البهيجةِ ،
من كل ما يُمْتِعُ فى رعايتِهِ ويَسُرُّ فى غَرْسِهِ وتَعَهُّدِهِ ،
عند الينابيعِ أو الغُدْرانِ الظليلة ، ٤٢٠
كان يطلبُهُما معًا ، وإن كان يطمعُ أن يُصادفَ
حواءَ وحدَها ، كان يطمعُ فى ذلك دون أملٍ
فى أنْ يجدَ ما يندرُ أن يَقَعَ ، فإذا بما لا يطمعُ فيه
وقد تحققَ وتجاوزَ الأَمَلَ ، إذ لَمَحَ حواءَ وحدَها
تَلُفُّها سحابةٌ من الشَّذا ، حيثَ وَقَفَتْ ٤٢٥

جَلِيَّةً خَفِيَّة معًا ، والورودُ المُحْتَشِدةُ حولَها

تتوهجُ إشراقًا ، وهى ما بين واقفةٍ ومنحيةٍ لتساندَ

كُلَّ زهرةٍ نَحُلَ عودُها ونَحُفَ ، ورأسُها الراقصةُ -

قُرْنفُلِيّةً كانت أو أُرْجُوانيّةً أو لاَزَوَرْدِيّةً أو مُرَقَّشَةً بالذَّهَبِ -

قد مَالَتْ وتَدَلَّتْ دون دِعامةٍ ، فَدَعَمتْها حواءُ دَعْمًا ٤٣٠

رَفيقًا برباطٍ من الرَّيْحان ، دون أن تَنْتَبِهَ أَثْنَاءَ ذلك

إلى نفسها ، وهى أجملُ الزهورِ التى تحتاجُ إلى دِعَامَة ،

وقد ابتعدتْ كل البُعْدِ عن خَيْرٍ من يَدْعَمُها، واقتربتْ كُلَّ القُرْبِ من العَاصِفَة !

وزاد اقترابُه منها ، مُخْتَرِقًا كثيرًا من الممراتِ الظَّلِيلة

التى يحجبُها الدَّوْحُ الباسِقُ من شجرِ الأَرْزِ أو الصُّنوبرِ أو النَّخيلِ ، ٤٣٥

وهو يتموّجُ بجسمه زاحفًا بجسارةٍ ، أحيانًا فى خَفَاءٍ ، وأحيانًا ما يُرى

وَسْطَ صُنُوفِ الشُّجيراتِ والزَّهَراتِ الكثيفةِ

التى نَسَجَتْها يدُ حواءَ حاشيةً موشّاةً لكل رَبْوة .

كانت البقعةُ أشهى من الحدائقِ الخياليةِ الشهيرةِ ٤٤٠

أو رياضِ "أدونيس" ، حيث يُبْعثُ كُلَّ عامٍ ، أو "ألكينوس" الأشهر

الذى استضافَ "أوليس" ، ابن "لايرتيس" الهَرِم ،

أو البُقْعَةِ غيرِ الأسطوريةِ التى كان الملكُ الحكيمُ

يطارحُ عَرُوسَهُ المِصْرِيّة الجميلةَ غَرَامَهُ فيها .

وأُعجِبَ بالمكانِ إعجابًا شديدًا ، وبمنْ فيه إعجابًا أشَدّ ،

أرأيتَ إلى رَجُلٍ مكَثَ دَهْرًا حبيسَ مدينةٍ مكتظّةٍ بالسّكانِ ٤٤٥

تُعكِّرُ المنازلُ المتزاحمةُ فيها والمجارى صَفْوَ الهَوَاءِ ،

فانْطَلَق فى صباحِ يومٍ من أيامِ الصَّيْفِ لينْشَقَ النسيمَ

بين القُرى والمزَارِعِ البَدِيعَةِ

المتاخمةِ لها ، فَوَجَد فى كُلِّ ما يلقاهُ بهجةً ،

من رائحة الحبوبِ إلى رائحةِ الكَلأ الذى اجتُثَّ ونُشِرَ ليجفّ ، ٤٥٠

أو الأبقارِ أو الألبانِ ، وكُلِّ مشهدٍ ريفىّ وكل صوتٍ ريفىّ ،

فإذا تصادفَ مرورُ عذراءَ جميلةٍ ، لطيفةِ الخُطى كالحوريّةِ ،

كم يَسُرُّهُ المنظرُ ويُسعِدُه ، ويزيدُ من سروره مُرورُها ،

فهكذا كانت حواءُ تجلبُ أكبرَ السّرورِ ، إذ جَمَعَتْ فى منظرِها كُلَّ البَهْجة .

وهكذا تَمتّع الثعبانُ بِمَرْأى ٤٥٥

هذه البُقْعةِ الزَّهْرِيَّةِ ، وهى ركنُ حواءَ الهادئُ

فى ذلك البكورِ وتلك العُزْلةِ ، وكانت صورتُها السماويةُ

ملائكيّةً ، وإن فاقَتْ الملائكةَ فى رَهَافَتِها ، تتحلّى بالأُنُوثَةِ

فى رشاقةِ براءتِها وفى كل لَمْسةٍ وكُلِّ

حركةٍ ، وفى أقلِّ فعلٍ تفعلُه ، وكان كُلُّ ذلك يُرْهِبُ ٤٦٠

خُبْثَهُ الدَّفين ، إذ يَسْتَرِقُ الخُطى اللَّطِيفةَ فَيَسْلُبَ

ضراوتَه من المقصدِ الضّارى الذى أتَتْ به ،
وفى تلكَ اللحظةِ وقفَ الشريرُ ذاهلاً
عن شَرِّهِ مُنْفَصِلاً عنه ، وظَلَّ بُرْهَةً
عاطلَ الذِّهنِ عارفًا للخَيْر ، أعزَلَ من سلاحِ العَدَاوَةِ ٤٦٥
والمكرِ والمَقْتِ والحَسَدِ والثَّأرِ ،
ولكنّ نارَ الجحيمِ الموقدةَ دائمًا فى باطِنِه
حتىّ وهو فى قَلْبِ الجنّةِ سرعانَ ما قَضَتْ على سُروره
وبَدَأَتْ تزيدُ من تعذيبه ، كُلَّما تأملَ
المسراتِ التى لَمْ يُكتبْ له أن يَنَالَها ، وهكذا فسرعانَ ٤٧٠
ما يستعيدُ البغضاءَ الضاريةَ التى تثيرُ جميعَ أفكارِ
الأذى ، معربًا عن فَرْحَتِه بالعثورِ على ضَالّتِه ، قائلاً :
أيتها الأفكار ! إلى أين مَضَيْتِ بى ، وما أعْذَبَ
إرغامَكِ إيّاى على الانْتشاءِ حتّى أنْسى
الدافعَ الذى أتى بنا إلى هذا المكان! ألاَ إنها الكراهيةُ، لا الحبُ ولا الأملُ ٤٧٥
فى استبدالِ الفردوسِ بالجحيمِ ، أو الأملُ فى أنْ أتذوقَ
المسراتِ هنا بل لأدمّرَ جميعَ المسراتِ
إلا المسرةَ القائمةَ فى التدميرِ ، وما سوى ذلك من السرور
قد ضاعَ من يدى . من واجبى إذنْ ألاّ أسمحَ بضياعِ

الفُرصةِ التى تَبْتَسِم لى ، إذ أرى ٤٨٠
المرأةَ وَحْدَها ، متاحةً لجميعِ محاولاتى ،
وزوجُها ليس قريبًا ، إذ يمتدُّ مرمى طَرْفى إلى أقاصى المكانِ ،
فذهنُه الأرفعُ هو ما أعملُ جاهدًا على تَجنُّبِه ،
وقُوّتُه ، واستعلاءُ روحِه ، وأطرافُه التى
بُنِيَتْ بِناءَ الأبطالِ ، وإن كانَ خُلِقَ من صَلْصَالٍ ، ٤٨٥
فهو عدوٌّ لا يُستهانُ به ، حصينٌ من الجروح ،
ولستُ كذلك ، إذ حَطَّتْ الجحيمُ كثيرًا من كِيانى ، وأَوْهَنَنى الألمُ
وأضعَفَنى كثيرًا عما كنتُه فى السماء .
أما هى فجميلةٌ ، ذاتُ حُسْنٍ ربّانى ، جديرٍ بعشقِ الملائكة ،
لا تبعثُ الرَّهْبَةَ ، على ما فى الحبِّ والجمالِ من رَهْبَةٍ ، ٤٩٠
إلا إن جَالَدَتْهما كراهيةٌ أقوى ،
وبغضاءُ أشدُّ ، تصطنعُ مظهرَ حُبٍّ زائفٍ ،
وهذا سبيلُ هلاكِها الذى أسلُكُه الآن .

هكذا تكلمَ عدوُّ البشرِ ، كَامِنًا فى جسدِ
الثعبانِ ، نزيلَ شرٍّ ، واتجهَ نحوَ حَوَّاءَ ٤٩٥
سائرًا فى طريقِه ، لا مُتَموّجًا مُتَعرّجًا
مُنْبَطِحًا على الثَّرى ، كَشأْنِه منذُ تلكَ الآوِنَةِ ، ولكنْ على مُؤَخّرَتِه

وهو قاعدةٌ مستديرةٌ للَفَائفَ حَلَزُونِيَّةٍ صَاعِدَةٍ ، يَرْتَفِعُ
بعضُها فوقَ بعضٍ ، فى مَتَاهةٍ تَعْلُو طَيَّاتُها حتى رأسِه
ذاتِ العُرْفِ المُنْتَصِبِ ، وعيناهُ حمراوانِ تتلألآن ، ٥٠٠
وكانت رقبتُه تبرقُ بلونٍ ذهبىٍّ مخضوضرٍ ، قائمةً
وَسْطَ التلافيفِ الدائريّةِ التى تَتَدَفَّقُ فَوْقَ الكَلأِ
وتتماوجُ هنا وهناك ، فكانَ منظرُه يَبْعَثُ السرور ،
جميلاً ، بل لم تُشَاهِدْ عينٌ بعدَه من جِنْسِ الثعابين
أجملَ منه ، لا تلك التى غيّرتْ صورتَها فى "إلّيريا" ٥٠٥
ولا تحوّلَ "هيرميونى" و"كادموس" ، ولا ربٌّ الشفاءِ
فى "أبيدوروس" ، ولا الثعبانَ الذى تحوّلَ إليه
"جوبيتر آمون" ، أو "جوبيتر الكابيتولينى" ،
الأولُ حتى يضاجعَ "أوليمبيا" ، والثانى ليضاجعَ من حَمَلَتْ
"سكيبيو" عظيمَ الرومان . ومال الشيطانُ فى سَيْرِه ٥١٠
أولاً مِثْلَ من يسعى للوصولِ وهو يخافُ أن
يقطعَ طريقَه أحدٌ ، وهكذا اتّخَذَ طريقًا جانبيًا مُتَعرّجًا .
أرأيتَ إلى السفينةِ التى يُسيِّرها ملاحٌ ماهرٌ حتى
تقتربَ من مَصَبّ النهرِ أو لسانٍ فى البحرِ ، حيث تُغَيِّر الريحُ
اتجاهَها كثيرًا ، فيغيّر من طريق السفينةِ كُلَّ مرةٍ ويصلحُ أشرعَتَها ، ٥١٥

فكذلك جعَل يُغيِّر من وُجهةِ سَيْرِه ، وكُلَّما تَلَوَّى فى طريقِه
خرَجَتْ من ثَنَايَاهُ حلقاتٌ كطاقاتِ الزُّهور الطَّليقةِ أمامَ عَيْنَىْ حواءَ
حتى يَفْتِنَها ، وكانتْ تعملُ حين سَمِعَتْ صوتَ
خَشْخَشَةِ الأوراقِ ، ولكنّها لم تَأْبَهْ ، إذ كانت قد اعتادَت
مثلَ ذلك اللّهوِ واللّعبِ أمامَها فى الحقولِ ٥٢٠
من كُلِّ حيوانٍ ، وكانتْ الحيواناتُ أكثَرَ طاعةً لأوامرِها
من طاعةِ الوحوشِ لأوامرِ الساحرةِ "كيركى" بالتّنكّر والتّخفّى .
وزادتْ جُرْأتُه الآنَ فَوَقَف أمامَها دونَ دَعْوَة !
ولكنه كان كَمَنْ يُحَدِّقُ فيها لِشَدَّةِ إعجابِه ، فكثيرًا ما يَحْنى
رأسَهُ ذاتَ العُرْفِ ، ورقبتَه الرشيقةَ ذاتَ الألوانِ المُنَوَّعةِ ٥٢٥
مُتَزَلِّفًا مُدَاهِنًا ويَلْعَقُ الأرضَ التى تخطو عليها .
وَنجح أخيرًا أداؤُه الصامتَ اللّطيفُ فى اجتذابِ
عينِ حواءَ لتنظرَ مَلاَعِبَه ، وسَرَّهُ
أنْ التفتَتْ إليه فبدأ يتكلمُ بلسانِ الثعبانِ كأنّما هو ٥٣٠
آلةٌ موسيقيةٌ ، أو بدفقاتِ هواءٍ من أصواتِ الحَلْقِ ،
وهكذا شَرَعَ فى غِوايته الخادعَةِ قائلاً :
لا تَعْجَبى أيتها السيدةُ ذاتُ السيادةِ ! إذا كُنْتِ
تستطعين العَجَبَ وأنت العجبُ الأوحدُ ، وأرجو ألا تَمتَشِقَ

طَلْعَتُك ، وهى جَنَّةُ اللُّطفِ والرِّقّة ، سلاحَ الازدِراء
مستاءةً من اقترابى منك على هذا النحوِ ، والتحديقِ ٥٣٥
دونَ ارتواءٍ ، وَحْدى دونَ رفيقٍ ، ودونَ أَنْ أَخْشى
رَهْبَةَ مُحَيَّاك الفتَّاك الذى ازدادَ رَهَبًا حين توارى .
يا أجملَ من تُشْبِهُ صَانِعَهَا الجميل ،
إن كُلَّ الكائناتِ الحيّةِ تُطيلُ النّظرَ إليك ، وجميعُ الأشياءِ ملكُ يمينِك ،
إذْ وُهِبَتْ لَكِ ، وهى تعبدُ جمالَكِ السماوىَّ ٥٤٠
وتتطلعُ إليه مَسْلُوبَةَ العقلِ ، فأنتِ أفضلُ ما يتجلّى فيه
كلُّ ما يحظى بإعجابِ الكونِ كُلِّه ، ولكنك هنا
فى هذا الرُّكنِ البَرِّىِّ المغلَقِ ، وَسْطَ هذه الوحوشِ
ذاتِ النظراتِ الفَظَّة وهى أَجْهَلُ من أَنْ تُدْرِكَ
نِصْفَ ما تَتَحَلَّيْن به من جَمالٍ ، وباستثناءِ رَجُلٍ واحدٍ ٥٤٥
من الذى يشاهدك ؟ (وما قيمة الواحد ؟) بل لابد أن يُشاهِدَكِ الجميع
ربةً بين الأربابِ ، وأن تَعْبُدَكِ الملائكةُ وتُصلِّى لَكِ
بأعدادٍ لا تُحصى ، فتصبحَ حاشيتَكِ اليَوْمِيّة .
وانتهى المُغْوى من مُدَاهَنَتِه ، فَأَحْكَمَ نَغَمَ مُقَدِّمَته ،
وتَسَلَّلَتْ كلماتُه إلى قَلْبِ حواءَ ، ٥٥٠
ولو أنها دُهِشَتْ كثيراً من الصَّوْتِ الذى سَمِعَتْه ، وبعد بُرْهَةٍ ،

ولما تَزَلْ دَهشَةً ، أجابَتْهُ قائلةً :
ما مَعْنى هذا ؟ مَنْطِقُ البَشَرِ على
لسانِ حيوانٍ ، وتعبيرٌ عن معانٍ إنسانية ؟
أما الأولُ – على الأقل – فكنتُ أظنُّ أن اللهَ قد حَرَمَ ٥٥٥
الحيوانَ إيّاه ، وأنّ الله يومَ خَلَقَ الحيوانَ
خَلَقَهُ أخرسَ عاجزًا عن إصدارِ أىّ صوتٍ يُفهمُ ،
وأما الآخَرُ فلا أستطيع القَطْعَ فيه ، إذ كثيرًا ما يتبدّى
فى نظراته وأفعاله قدرٌ كبيرٌ من العقلِ .
وأنا أعرف أيها الثعبانُ أنّكَ أمكرُ حيوانٍ فى البرّ ٥٦٠
لكننى لم أكنْ أعرفُ أنك وُهِبْتَ صوتَ الإنسانِ .
أَعِدْ هذه المعجزةَ إذَنْ وقُلْ لى
كيف أُبدِلْتَ الخَرَسَ بالمَنْطِقِ ، وكيف
فَضَّلْتَ الصداقةَ معى على جميع السَّوَائِمِ
من جِنْسِ الحيوانِ التى تُبْصِرُها كُلَّ يوم ؟ ٥٦٥
تَكَلَّمْ ، فهذه من العَجَائِبِ التى لابُدَّ أنْ تُولَى الاهتمامُ .

وأجابَها المُغْوى المخادعُ قائلاً :

يا مَلِكةَ هذا العالمِ الجميلِ ، يا حَوَّاءُ المشرقةُ الوضَّاءةُ ،
ما أَيْسَرَ علىَّ أن أَقُصَّ عليك كُلَّ
ما تأمُرِينَ به ، ومن حَقِّكِ عَلىَّ الطاعةُ ، ٥٧٠

فلقد كنتُ أوَّلَ الأمرِ مثلَ سائرِ السوائم التى ترعى
العُشْبِ الذى تَطَؤُهُ الأقدامُ ، حطيطَ الفِكْرِ وضيعَ النَّفْسِ
وكذا كان طعامى ، بل لمْ أكنْ قادرًا على تمييزِ شىءٍ سوى الغذاءِ
والجِنْسِ ، أو على إدْراكِ أىِّ الأفكارِ العُلْيا ،
حتى تصادَفَ ذاتَ يومٍ وأنا أتجولُ بينَ الحقولِ ٥٧٥
أنْ رأيتُ شجرةً طيبةً ، تلوحُ نائيةً قصيَّةً ،
وهى تحملُ فاكهةً ذاتَ ألوانٍ جميلةٍ ممتزجةٍ ،
حمراءَ وذهبية ، فاقتربتُ منها حتى أتطلعَ إليها
فإذا برائحةٍ عطرةٍ تهبُّ كالنسيمِ من الغُصُونِ
تَسُرُّ الشَّهيَّةَ ، فأمْتَعَتْ حَوَاسِّىَ مُتْعَةً ٥٨٠
تفوقُ رائحةَ زَهْرَ الشَّمَرِ الفوّاحِ ، أو حَلَمَاتِ أثداءِ
النَّعْجَةِ أو العَنْزَةِ وهى تَقْطُرُ لَبَنًا فى المساءِ
فلا يَرْضَعُهُ الحَمَلُ أو الجَدْىُ ، إذ يُفَضّلان اللَّهوَ واللّعبَ .
وأرَدْتُ أن أُشْبِعَ الرَّغْبَةَ الحادَّةَ التى اعْتَرَتْنى
لتذوّقِ تلكَ التُّفَّاحاتِ الجميلةَ ، وصَمَّمْتُ ٥٨٥
ألاّ أتَأَخَّرَ ، وكانَ الجوعُ والعَطَشُ معًا قد اجْتَمعَا
بِقُوَّةِ إقْناعِهِما ، وأذْكَتْهُمَا رَائحَةُ
تلك الفاكهةِ الجذَّابةِ ، فدفعانى دَفْعًا شَديدًا إليها .

وسرعانَ ما لَفَفْتُ جسمى حولَ جذعِ الشجرةِ المكسوِّ بالطحالبِ
إذ إنّ أغصانَ الشجرةِ عاليةٌ عن الأرضِ ، وتقتضى ٥٩٠
منك أو منْ آدَمَ أن تَمُدَّا أَيْديكُمَا إلى أقصى ارتفاعٍ ، وحولَ الشجرةِ
كانَتْ جميعُ الحيواناتِ التى شاهَدَتْنى تكابِدُ رغبةً مماثلة
فوَقَفَتْ وقد بَرَّحَ بها الشوقُ والحَسَدُ ، ولكنّها لم تَسْتَطِعْ بلوغَ الثّمار .
وعندما وَصَلْتُ إلى مُنْتَصَفِ الشّجرةِ ، حيثُ تَدَلَّتْ الثّمارُ الكثيرةُ
دانيةٌ قُطُوفُها مُغْرِيةٌ ، تدعونى للالتهامِ والامتلاءِ ٥٩٥
فلم أَدَّخِرْ وُسْعًا فى ذلك ، إذ لم أَشْهَدْ حتى تِلْكَ السَّاعَةِ
مثلَ تلكَ المُتْعَةِ فى الطَّعامِ أو فى الشَّرابِ .
وشَبِعْتُ أخيرًا ، ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى شَعُرْتُ
بتغيّرٍ غريبٍ فى داخلى، وبِقَدْرِ ما
من العَقْلِ فى طاقاتى الباطنةِ ، واستَطَعتُ الكلامَ ٦٠٠
بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ ، وإن كنتُ لا أزالُ على هذه الصُّورة .
ومنذ تلك اللحظةِ وأفكارى موجهةٌ إلى التأمّلاتِ العُلْيا والعميقةِ
وبدأتُ بما أَحْسَسْتُه من رحابةِ ذهنٍ
أبحثُ فى كُلِّ ما تُبْصِرُهُ العينُ فى السَّماءِ
أو الأرضِ وما بَيْنَهما ، وكُلِّ ما يجمعُ بين الجمالِ والخَيْرِ ، ٦٠٥
ولكنّ كُلَّ ما يجمعُ بين الجَمَالِ والخَيْرِ يَجْتَمِعُ فى قَسَماتِك

الرّبانيّة ، وأشهدُه يسطعُ فى نُورِ حُسْنِك
السماوى الذى يُوَحّدُ الجميعَ ، فلا يوجدُ جمالٌ
كفؤًا لَكِ أو قريبًا من مَنْزِلَتِك ، وهو الذى أَجْبَرَنى
أنْ آتىَ على هذا النَّحْوِ ، وإن كنتُ أُلْحَفْتُ فى السؤالِ ، ٦١٠
كىْ أتطلَّعَ إليكِ وأعبدَكِ يا من أُعْلِنُ بحقٍّ أنها
سيدةُ المخلوقاتِ ، وسيدةُ الكونِ كُلِّه .

وفَرَغَ الثعبانُ الخبيثُ من حديثِه الذى غَذَتْهُ رُوحٌ دافقةٌ ،
فأجابتْهُ حواءُ ، وقد زادتْ دَهْشَتُه وزادَ تَخَلِّيها عن الحيطَةِ ، قائلةً :

أيها الثعبانُ ! إن مبالغَتَكَ فى المديحِ تُثيرُ الشَّكَّ ٦١٥
فى قُوّةِ تلكَ الفاكهةِ ، وأنتَ أولُ من يَثْبُتُ مفعولُها فيه .
ولكنْ قلْ لى أينَ تلكَ الشجرةُ وما مدى بُعْدِها عنّا ؟
فما أكثرَ أشجارِ الله التى تَتَرَعْرَعُ
فى الفردوس ، وما أَشَدَّ تنوعِها ، وإن كنّا نجهلُها ،
وفى هذه الوَفْرَةِ الوَافِرَةِ يكمُنُ اختيارُنا ، ٦٢٠
ويظلُّ قِسمٌ كبيرٌ شاسعٌ من الفاكهةِ دونَ أنْ يمسَّهُ أَحَدٌ ،
تتدلّى دائمًا دون أن يُصيبَها الفسادُ ، حتى يأتىَ البَشَرُ
فيقطِفُونَ منها ما قُدِّرَ لهم أن يَقْطِفُوه ، ويزدادُ عدد الأيدى
التى تساعد الطبيعةَ فى أن تضعَ حَمْلَها وتَتَخَفَّفَ من أثْقالها .

وأجابَها الثعبانُ بسَعَةِ حيلَته ، وفى فَرحِهِ وسعادَتِهِ ، قائلاً : ٦٢٥
أيتُها الملكة ! الطريقُ مُعَبَّدٌ وليس طويلاً ،
فالشجرةُ خلفَ صَفٍّ من أشجارِ الرَّيحانِ ، على سَهْلٍ مُنْبَسِطٍ ،
بجوارِ عَيْن ، بَعْدَ خَميلةٍ صغيرةٍ
من نباتاتِ المُرِّ والكافورِ الشافى ، فإذا رَضيتِ أن
أَدُلَّكِ عليها فسرعانَ ما أصحبُكِ إلى مكانِها . ٦٣٠
ثُمَّ قالتْ حواءُ خُذْنى إليها ، فانْطَلَقَ يتكوّرُ أمامَها مُسْرِعًا
فى حلَقَاتٍ متداخِلَةٍ ، حتّى بَدَا التعقيد مستقيمًا
مُهْرَعًا إلى الشَّر . وكانَ الأملُ يرفَعُ رأسَهُ والفَرْحُ يُضْفى
الضياءَ على عُرْفِهِ . أرأيتَ إلى اللّهَبِ التّائِهِ الذى
ينشأُ من أبْخِرَةِ الدُّهونِ التى تتكثَّفُ فى اللّيْل ٦٣٥
وفى أجْواءِ الزَّمْهرير المحيطةِ بها ،
ثم تشتعلُ من وَقْدِ الحركةِ ألسنةٌ من نارٍ
كثيراً ما تَصْحَبُها فيما يُقال بعضُ العفاريتِ الشّريرةِ
التى تُحَوِّمُ فَتُحْرِقُها وتُرْسِلُ أضواءَ خادعةً
تُضِلُّ خُطى السّارى ليلاً فيحارُ ويتوهُ ٦٤٠
وسْطَ المستنقعاتِ والأوحالِ ، وكثيراً ما يَسْقُطُ فى بُحَيْرةٍ أو بِرْكةٍ
تبتلعُه فيضيعُ ولا من مُغيثٍ يُنْجيهِ ؟

فهكذا بَرَقَتْ أضواءُ الثعبانِ الرهيبِ ، وفى أُحبولَتِهِ
أَخَذَ حوّاء ، أُمَّنا التى صَدَّقَتْهُ ، إلى شَجرَةِ
التحريمِ ، التى تَفَرَّعَتْ منها جميعُ أحزانِنا ٦٤٥
وعندما شاهَدَتْها التَفَتَتْ إلى دَليلِها وقالت :
أيها الثعبانُ ! ليتَنَا لم نأتِ إلى هنا ، فالرحلةُ
لَنْ تُثْمرَ شيئًا ، على كَثْرَةِ الثّمارِ ووَفْرَتِها هنا .
ومصداقُ قُوّتها هو حالُك أنتَ الذى
يَدْعو للعَجَبِ فعلاً ، إن كانت الثمرةُ هى السببَ فى ما حَدَثَ لك . ٦٥٠
إذْ إنّ هذه الشجرةَ محرمٌ علينا أن نذوقَها أو نَلْمَسَها
فبهذا أَمَرَ اللهُ ، وخَلَّف لنا هذا التَّحريمَ
ابنةً وحيدةً لصوتِه ، أما سائرُ الأمورِ ، فنحنُ الذين
نضعُ شرائعَها لأَنْفُسِنا ، وعَقْلُنا شريعَتُنا .
وأجابها المُغْوى ببراعَةِ حيلَتِهِ قائلاً : ٦٥٥
حقًا ؟ هل أَمَرَكُما اللهُ ألاّ تَقْرَبَا ثِمَار
جَميعِ أشجارِ هذه الجنّةِ
وأنتما من أُعْلِنَتْ سيادتُهما على كُلِّ ما فى الأرضِ والهواء ؟
ورَدَّتْ عليه حواءُ ، ولما تُخْطِئْ بعدُ ، قائلةً :
لنا أن نَأْكلَ من فاكهةِ كُلِّ شجرةٍ فى الجنّة ٦٦٠

وأما فاكهةُ هذه الشجرةِ الجميلةِ فى وسْط
الجنَّة ، فلقد قال الله "حُرّمَ عليكما أن تأكلا
منها ، أو أن تَلْمَسَاها ، وإلا هَلَكْتُما"

ولم تكد تقول ذلك ، على إيجازِه ، حتى ازدادتْ جسارةُ
المُغْوِى ، وشرعَ يتظاهرُ بالحماسِ والحُبِّ ٦٦٥
للإنسانِ ، وبالاستياءِ مما أصابَهُ من ظُلْم ،
ويلعبُ دَوْرًا جديدًا ، كأنّما تدفَعُهُ عاطفةٌ مشبوبَةٌ ،
فهو يتلوَّى بتلافيفِهِ فى قَلَقٍ ، ثُمّ ينهضُ فى شكلٍ جذّاب
وينتصبُ كأنّه يوشكُ أن يتناولَ أمرًا خطيرًا .
أرأيتَ إلى بَعْضِ مَشَاهِيرِ الخطباءِ القُدَماءِ ٦٧٠
فى أثينا أو فى روما ، حيثُ ذاعتْ البلاغةُ
وازدهرتْ ، وإن صَمَتَتْ منذ تلك الآونة ، حين يتصدّى لقضيةٍ كبرى
فيقفُ رابطَ الجأشِ ، وكُلُّ عضوٍ فى جَسَدِهِ ،
وكُلُّ حركةٍ وكُلُّ إيماءةٍ تظفرُ قبلَ لسانِهِ باهتمامِ الجمهور
ويبدأُ أحيانًا بصُلْبِ الموضوعِ ، كأنّما لا يطيقُ أنْ يتأخرَ ٦٧٥
ولا يسمحُ بمقدماتٍ تُعَطِّله لشِدَّةِ حماسِهِ للحقِّ ،
فهكذا كانَ المُغوى يقفُ ويتحركُ مرفوعَ الهَامَةِ ،
وبدأ يتكلمُ وقد غَمَرَتْهُ العاطفةُ المشبوبةُ قائلاً :

أيتها الشّجرةُ المقدّسَةُ الحكيمةُ واهبةُ الحكمة !

يا أُمَّ العِلْم ! الآنَ أُحِسُّ طاقتَكِ ٦٨٠

داخلى جَلِيَّةً واضحةً ، لا طاقةَ إدراكِ

الأشياءِ فى أسبابها فحسْب ، بل أيضًا اكتشافُ وسائل

أرفعِ القُوى ، مهما بَلَغَتْ حكمتُها فى نظرنا .

يا مليكةَ الكَوْنِ يا حَوّاءُ ! لا تُصَدّقى

تلك التهديداتِ الصارمةِ بالهلاكِ ، فلن تَمُوتا ٦٨٥

وكيف تَمُوتان ؟ بالفاكهةِ ؟ إنها تَهِبُكُما الحياة

للمعرفة ! على يَدَىْ صاحبِ التهديد ؟ انْظُرى إلىَّ

أنا الذى لَمَسْتُ وذُقْتُ ، ولا أزالُ أحيا بل

اكتَسَبْتُ حياةً أَشَدَّ اكتمالاً مما كان القَدَرُ

يَرْمى إليهِ ويَقْصِدُ ، بالانطلاقِ إلى ذِرْوَةٍ أعلى مما كُتِبَ عَلَىَّ . ٦٩٠

وهل يُغْلَقُ فى وَجْهِ الإنسانِ ما كان مفتوحًا

للحيوان ؟ أم تُرى يُلهِبُ اللهُ غَضَبَهُ

بسببِ هذه الزَّلَّةِ الطَّفيفَةِ ولا يَمتَدِحُ

قُوَّتكما التى لا تهابُ شيئًا ، وقد لَقِيتُما التهديدَ

بعقوبةِ الموتِ ، أيًّا كان ذلك الموتُ ، ٦٩٥

فلم يَصُدَّها عن بُلُوغِ ما قَدْ يُوَصِّلُها

إلى حياةٍ أهنأ ، ومعرفةِ الخير والشر .

فإذا كانت المعرفةُ معرفةً بالخيرِ ، فكيف يكون التحريمُ مُنْصِفًا ؟ وإذا كانت

معرفةً بالشّر ، إن كان الشَّرُّ حقيقيًا ، فلماذا لا يُعرفُ حتى يَسْهُلَ تجنُّبه ؟

وإذنْ فلو أَضَرَّ بكما الله فلنْ يكونَ مُنْصِفًا ، ٧٠٠

ولوْ لمْ يكنْ عادلاً لما كان الله ، وإذنْ فلا خَشْيَةَ منهُ ولا طَاعَةَ له ،

بل إن خَوْفكُما نَفْسَهُ من الموتِ يَقْهَرُ الموتَ ويُقْصيهِ

وإذنْ فلماذا حُرِّمَ هذا ؟ القَصْدُ الأوحدُ هو الرَّهْبة

ودَوَامُ حِطَّةِ مكَانَتكما وجَهْلكُما

وعبادتكما له ، فهو يَعْرفُ أنه يومَ ٧٠٥

تأكلانِ من الشجرةِ ستُدْركانِ أنّ أعينكما ، وأنتما تَتَوهَّمان أنها مُبْصِرَةٌ

على ما يَغْشَاهَا الآنَ من ظُلْمةٍ ، قد بَلَغَتْ الكمالَ فى

التفتّح ووضوحِ الرؤيةِ ، وسوفَ تصبحان كالملائكةِ

تعرفان الخيرَ والشرَ مثلما تعرفُهما الملائكةُ .

إن ارتقاءكما إلى مصافِّ الملائكةِ يُمْليه منطقُ التَّناسُبِ وحَسْب ٧١٠

مثلما ارتقيتُ أنا إلى مصافِّ البشر ، ذأنا فى باطنى من البشر ،

وما دمتُ ارتقيتُ إلى البَشَريّة وأنا حيوان ، فسترتقيان إلى الملائكة وأنتما بَشَرٌ.

وهكذا فربما كُتِبَ عليكما الموتُ بِخَلْعِ أثوابِ

البَشَرِ ، وارتداءِ أثوابِ الملائكةِ ، وهو مَوْتٌ جديرٌ بالتّمنى والطُّموح ، ٧١٥

وإن كان يتهددكما ، ما دامَ لنْ يأتىَ بأسوأَ من تلكَ العاقبةِ .

ومن هُمُ الملائكةُ الذين يُحْرِمُ الإنسانُ من الارتقاءِ إلى مَصَافِّهم

ومشاركتهم الغذاءَ من الطعامِ الربَّانىّ ؟

خُلِقَ الملائكةُ أولاً ، ويَسْتَغِلّون هذه المَزِيَّةَ

لإقناعِنا بأنّ كُلَّ شىءٍ مبعثُه منهم ، ٧٢٠

ولكننى أَطْعَنُ فى صِحَّةِ ذلك ، فأنا أرى هذه الأرضَ الجميلةَ

التى تُدْفِئُها الشمسُ ، وتُخْرِجُ من كُلِّ الثمراتِ ،

والملائكةُ لا شىءَ ، فلو أنهم مبعثُ كُلِّ شىء ، فمن الذى حَبَسَ

المعرفةَ بالخيرِ والشّر فى تلك الشجرةِ وقَصَرَها عليها

حتى إن كُلَّ من يأكل منها ، مهما يكن ، يَبْلُغُ على الفورِ ٧٢٥

الحكمةَ دونَ أن يَسمَحُوا له بها ؟ وما وَجْه

الجُرْم فى أن يُحاولَ الإنسانُ أن يبلغَ المعرفةَ من هذا السبيل ؟

كيفَ يتأتّى لبلوغِكُما المعرفةَ أن يَضُرَّهُ ؟ أو لهذهِ الشجرةِ

أن تخبركما بشىءٍ ضدّ إرادته ما دام الكُلُّ فى يَدِهِ ؟

أم عساهُ يكونُ الحسد ، وهل يمكن للحسدِ أن يسكنَ ٧٣٠

فى الصدورِ السماوية ؟ إن هذه الأسباب وغيرها كثير

تُبَرِّرُ حاجَتَك إلى هذه الفاكهةِ الجميلةِ .

أيتها المَلَك الإنسانى ! مُدِّى يَدَك إذنْ وتَذَوَّقى دونَ حَرَج .

وانتهى من حديثه فإذا بكلماتِه الغاصّة بالمكرِ والخديعةِ

وقد دَخَلَتْ بيُسْرٍ وسهولةٍ أكثرَ مما ينبغى قَلْبَ حوّاء . ٧٣٥

كانت تركّز بصرَها على الفاكهة تتملاّها ، وكان منظرُ الثمارِ

وحدَه كافيًا للإغراءِ ، وفى أُذُنها كان صوتُ

كلماتِه ما زال يرنُّ بنبراتٍ دافعةٍ ، يغشاها

العقلُ فيما بدا لها ويغشاها الصدق .

وفى تلك الأثناءِ اقتربَتْ ساعةُ الظُّهر ، وأيْقَظَتْ ٧٤٠

شَهيّةً تَوّاقَةً ، أثارتْها رائحةٌ

رائعةُ اللّذة لتلك الفاكهة ، فامْتَزَجَتْ الشهيةُ بالرغبة ،

وقد غَدَتْ حواءُ ميالةً إلى لَمْسها أو تَذَوّقها ،

داعيةً عينَها المشتاقةَ إليها ، ولكنها تَمهَّلَتْ أوَّلاً

وتَوَقّفَتْ بُرهةً ، وجَعَلَتْ تُفكّر قائلةً فى نَفْسها : ٧٤٥

لا شك فى عَظَمةِ طاقاتِك يا أفضلَ الفواكهِ ،

وإنْ حُرِم الإنسانُ إياكِ ، وما أَجْدَرَكِ بالإعجابِ ،

يا من كان مذاقُها ، الذى حُظِر علينا طويلاً ، قادرًا - منذ أول محاولة -

على أن يَهبَ النُّطقَ للأَبْكَمِ ، وعَلَّمَ

لسانًا لمْ يُخْلَقْ للْكَلاَمِ أنْ يَلْهَجَ بالثَّناءِ عَلَيْك ، ٧٥٠

بلْ يُثْنى عليكِ أيضًا من يُحَرِّم علينا مَذَاقَكِ
ولا يُخْفيكِ عنّا ، ويُسَمّيكِ شجرةَ
المعرفة ، المعرفة بالخير والشر جميعًا .
إنه يُحَرّمُ علينا المذاقَ ، ولكنّ تحريمَهُ
يزيدُ من إعلاءِ شأنك ، ويَشِي بالخيرِ 755
الذى تستطيعين تقديمَهُ ، ونحتاجُ نحنُ إليه .
فالخيرُ إن جَهِلْنَاهُ لنْ نستطيعَ يَقِينًا أنْ نناله
وإذا نِلْنَاهُ ونحنُ نَجْهَلُهُ ، فكأنّما لم نَنَلْه على الإطْلاقِ .
ولنقل بوضوحٍ : هل يحرّم علينا إلا أن نعرفَ ،
ويحرّم علينا الخيرَ ويحرّم علينا الحكمةَ ؟ 760
هذه المحظوراتُ غيرُ مُلْزِمَةٍ ، لكنه إن كان الموتُ
سوف يقيِّدنا بقيودِ الحياةِ الأُخْرى ، فما فائدةُ
حُرِّيّتنا الباطنةِ إذنْ ؟ فى اليوم الذى نأكلُ فيه
من هذه الثمرةِ الجميلةِ ، يُصْبحُ مصيرنا الموت ، حَتْمًا .
كيفَ يموتُ الثعبانُ ؟ لقد أكَلَ منها ولاَ يزال يحيا بل 765
ويعرفُ ويتكلّمُ ويتحلّى بالعقلِ وقُدْرَةِ الإدراكِ
وكانَ غيرَ عاقلٍ قبلَها . أَمِنْ أَجْلِنَا فحسْب
اخْتُرِعَ المَوْت ؟ أَمْ هَلْ نُحْرمُ نحن

هذا الغذاءَ الفكرىّ ويظلُّ مقصورًا على الحيوان ؟

يبدو أنه للحيوان فقط ، ولكنّ ذلك الحيوانَ الوحيدَ الذى ٧٧٠

ذاقَ الثمرةَ أولاً لا يُضْمرُ الحَسَدَ بل يأتى فَرِحًا حَاملاً

الخير الذى أُوتيهِ ، وهو من لا يُشَكُّ فى صِدْق أَنْبائِه ،

صديقٌ للبشر ، أبعدُ ما يكون عن المُخَاتَلَة أو المكر .

ماذا أخافُ إذنْ ، أو ما الذى أعرفُه حتى أخافَ

فى ظِلِّ جَهْلى بالخير والشر ، ٧٧٥

وباللهِ أو الموتِ ، وبالشَّرْعِ أو العُقوبة ؟

ها هنا أَيْنَعَتْ ثمرةٌ فيها ترياقُ كل داء ، هذه الفاكهةُ الربَّانيةُ ،

جميلةٌ فى العين ، داعيةٌ للمذاق ،

وذاتُ قدرةٍ على إضفاءِ الحكمةِ ، فما الذى يمنَعُنى إذنْ

أنْ أَبْلُغَهَا فأُطْعِمَ الجَسَد والذِّهْنَ معًا ؟ ٧٨٠

قالت ذلك ومَدَّتْ يَدَهَا فى سَاعَةِ شَرّ

حتى بَلَغَتْ الفاكهةَ ، فَقَطَفَتْ وأَكَلَتْ .

وشَعُرَتْ الأرضُ بالجُرْحِ ، وأَصْدَرَتْ الطبيعةُ من مَقَرِّها

أَنَّاتٍ سَرَتْ فى جَيمعِ بَدَائعها ، فَبَدَتْ عليها دلائلُ الحُزْن ،

بأنّ كُلَّ شىءٍ ضَاعَ . وتَسَلَّلَ إلى الدَّغَلِ عائدًا ٧٨٥

ذلك الثعبانُ المُذْنِبُ ، وما كانَ أيسرَ ذلك ، إذ كانتْ حواءُ

أَنَئِذٍ مستغرقةً فى تَذَوُّقِ الفاكهةِ ، لا تَأْبَهُ لشىءٍ
سواها ، فَلَمْ تَجِدْ مُتْعَةً تناظِرُها من قَبْلُ ، فيما بدا ،
فى أىٍّ فاكهةٍ تَذَوَّقَتْها ، حقيقةً كان
أمْ وهمًا ، بسببِ شِدَّةِ طُمُوحِها وأَمَلِها 790
فى المعرفةِ ، لاَ ولاَ غَابَ عن فِكْرِها أن تَغْدُوَ رَبَّةً .
واندَفَعَتْ تَلْتَهِمُ الفاكهةَ بشراهَةٍ وتَزْدَرِدُها ازدرادًا
وهى لا تدرى أنه طعامُ الموت ، وعندما أَحَسَّتْ بالشِّبعِ أخيرًا
وبخفّةٍ مثلِ نشوةِ النبيذِ ، وبفَرَحٍ ومَرَحٍ وسُرُور ،
بدأَتْ تُحادِثُ نفسها فى سَعَادَةٍ قائلةً : 795

يا سيدةَ الأشجارِ وأعلاها ثَمَنًا وفَضِيلَةً
فى الفردوس ! يا ذات الطاقَةِ المباركة التى تَهْدى
إلى الحكمة ! كُنْتِ حتى الآنَ تُعانين التَّجاهُلَ وسوءَ السُّمعةِ
وكانت ثمَارُكِ الجميلةُ مُهْمَلَةً تتدلّى ، كأنما لم تكنْ ثَمّ غايةٌ
من خَلْقِها ، ولكننى سوفَ أَرْعَاكِ فى البُكُورِ 800
ولن أَضِنَّ عليكِ بالترانيم كُلَّ صباحٍ ، وبالثناءِ الواجبِ
سوف أَحْنُو عليكِ ، وأُخَفِّفُ أَثْقَالَكِ المُثْمِرة
التى تنوءُ بِحَمْلِها الغصونُ الحافلَةُ وتُقَدِّمُها للجميعِ دُونَ قُيودٍ !
حتى إذا طَعِمْتُ منك غَدَوْتُ ناضجةً

في المعرفةِ مثل الأرباب الذين يعرفون كُلَّ شىء ، ٨٠٥
وإن كان الآخرون يَحْسُدُونَ ما لا يستطيعون أن يَمْنَحُوه
فلوْ كانتْ العَطِيَّةُ عَطِيَّتَهم ما كانت لتَنْمو
هكذا هُنَا . إننى أَدِينُ بالتجربةِ لَكِ
يا أفضلَ الهُدَاةِ ، ولَوْلاَ اتباعى إياكِ لَظَلَلْتُ
فى جَهْلى ، يا من تَفْتَحين طريقَ الحكمة ٨١٠
وتُتيحين طريقَ التواصلِ معها ، وهى تتوارى وتَحْتَجِبُ ،
وربما كنتُ أنا أيضًا متواريةً محتجبةً ، فَرَبُّ السماءِ رفيعٌ فى علاه ،
بل أعلى وأبعدَ من أن يرى من تِلْكَ المسافةِ بوضوحٍ
كُلَّ شىءٍ على الأرضِ ، وربَّما كانتْ لديهِ مشاغلُ أُخْرى ،
وربما تكونُ قد صرَفَتْهُ عن الرِّقابَةِ المُستَمِرّة ، ٨١٥
ذلك العظيمُ الذى حَرَّمَ الشجرةَ علينا ، الآمنُ فى علاه وجميعُ عُيونِه
من حَوْلِه . ولكنْ فى أى صورةٍ ينبغى أن أَظْهَرَ
لآدَمَ ؟ هل أُطْلِعهُ على
التَغَيُّرِ الذى وَقَعَ لى ، وأُقَدِّمُ له بعضًا من الثّمارِ ليشاركنى
السعادةَ الكاملةَ ، أم الأفضلُ أن أمتنعَ عن ذلك ٨٢٠
وأحتفظَ لنفسى بالتفوّقِ فى المعرفة ، سِلاحًا فى يدى
لايشاركُنى فيهِ أحد ؟ فمن شأنِ ذلك تعويضُ النَّقْصِ

فى جِنْسِ الأُنْثى ، فيزيدُ ما اكْتَسِبُ به حُبَّهُ ،
ويَجْعَلُنى أكثرَ مساواةً معه ، وربُّما أيضًا ،
وذاك شىءٌ غيرُ مكروهٍ ، أن أكونَ أحيانًا ٨٢٥
أَسْمَى منه ، فالأَدْنى فى المكانَةِ لا يتمتعُ بالحريّة !
قد يكونُ ذلك مُسْتَحبًا ، ولكنْ قد يكونُ الله قد رآنى
فيكونُ الموتُ عِقابى ! عندها سوفَ أَفْنى
ويتزوجُ آدمُ من حَوَّاءَ أُخرى
ويعيشُ معها فى هَنَاءٍ بعد فَنَائى – ٨٣٠
يا لَهُ من تَصَوّرٍ كالهلاكِ نَفْسِه ! لقد قَرّ رأيى إذنْ
على أن يكونَ آدمُ شريكًا لى فى السَّراء والضرَّاء ،
فإنّ حُبِّىَ المشبوبَ له يجعلُنى قادرةً على تحمّل شتّى ضروبِ الموتِ
معه ، ولا معنى لحياةٍ لا أعيشُها معه .
قالتْ ذلكَ وهى تخطو مُوَلِّيةً ظَهْرَهَا للشَّجَرَة ٨٣٥
بعد أنْ ركَعَتْ رُكُوعَ التبجيلِ لها ، كأنما تُبَجِّلُ القُوّةَ
التى تكْمُنُ فيها ، والتى بَثَّ وجودُها
فى النَّباتِ عُصَارةَ العِلْمِ والمعرفةِ ، المُستَقَاة
من الرَّحيقِ الأَقْدَسِ شرَابِ الأرباب . وكان آدمُ فى تلكَ الأثناءِ
ينتظرُ فى لَهْفَةِ الشّوقِ عَوْدَتَها ، وقد نَسَجَ ٨٤٠

من أبهى الزُّهورِ طَاقَةً ليَزِينَ بها
خُصُلاتِ شَعْرِها ، ويُكَلِّلَ بها جُهُودَها فى البُسْتَان ،
كما اعتادَ الزارعون بعد الحصاد تتويجَ مَلِكَةِ الحَصَادِ .
وكان يُبَشِّر أفكارَه بفَرحٍ غامرٍ ، وينتظرُ المزيدَ من
السَّلْوى عند عَوْدَتها ، وقد طَالَ تَأَخُّرُها فَأَمْعَنَ فى الطول ، ٨٤٥
ولكنّ قَلْبَه كان كثيراً ما يُنْبِئُهُ بوقوعٍ مكروهٍ
ويثيرُ مخَاوِفَهُ ، وأَصْبَحَ فُؤادُهُ فَارِغًا إنْ كادَ ليتهَاوَى ،
فانْطلقَ ليُلاَقِيهَا ، سائرًا فى الطّريقِ الذى سَلَكَتْهُ
ذلك الصباحَ عندما افترقا أولَ مَرَّةٍ ، ولابد أن يَمرَّ فيه على شجرة
المعرفة ، وهناك قَابَلَها ، وقد بَدأَتْ ٨٥٠
وما كادت ، رِحْلَةَ العَوْدَةِ من الشّجرةِ ، وفى يَدِها
غُصْنٌ مُثْقَلٌ بأَجْمَلِ الفاكهةِ التى تَبْتَسِم بِزَغَبَ النُّضْرة
وقد قُطِفَتْ لتَوّها ، فَبَثَّتْ عَبِيرَ الفاكهةِ الربّانية .
وأَسْرَعَتْ الخُطى نَحْوَهُ ، وعلى وَجْهِها اعتذارُها الذى
جاء مقدمةً ، وذريعةً تُلَقِّنُهَا ما تقول . ٨٥٥
وهكذا تَوَجَّهَتْ إليه بكلماتٍ رقيقةٍ تنساب طليقةً قائلةً :
ألم تَدْهَشْ يا آدمُ لتأخّرى ؟
لقد أَوْحَشْتَنى ، وأَحْسَسْتُ أنّ البعدَ طالَ وأنا محرومةٌ

من وُجودكَ ، وهو عذابُ حُبٍّ لمْ أشعرْ به حتى الآن
بل ولن أقبلَ تكرارَه ، فلنْ أعودَ أبدًا ٨٦٠
لأتحملَ - عن عمدٍ - ما سَعَيْتُ إليه طائشةً قبلَ أن أُجَرِّبَهُ
من آلامِ غيابِك عن بَصَرى . ولكنّ السَّبَبَ
كان غريبًا وسوف يُدْهِشُك ويَسُرُّكَ أن تَسْمَعَهَ
فليستْ هذه الشجرةُ ، على نحو ما قيلَ لنا ، شجرةَ
أخطارٍ لمن يذوقُ ثَمَرَها ، بل لا تَفْتَحُ الطريقَ ٨٦٥
أمامَ شرٍّ مجهولٍ ، ولكنّ لها تأثيرًا ربّانيًا وقدرةً
على فَتْح العيونِ ، وتجعلُ من يذُوقُونَها من الأربابِ ،
ولقد ثَبَتَتْ صِحّةَ ذلك لمن خَبَرها ، إذ إنّ الثعبانَ الحكيمَ ،
إما لأنه لم يُحْظَرْ عليه ما حُظِرَ علينا ، أو لأنه عَصَى الأمْرَ ،
قد أكلَ من الفاكهة ، فاختَلَفَتْ حالُه ، ٨٧٠
لكنه لم يَمُتْ ، وهو المصيرُ الذى هُدِّدْنا بُوقُوعه، بل اكتسبَ منذ تلكَ اللحظةِ
صوتَ البَشرِ وحَوَاسَّ البَشَرِ وطَاقَةَ
الاستنباطِ العَقْلىّ المُدْهِشة ، وتحدّثَ معى
فَغَلَبَنى مَنْطِقُهُ وقُدْرَتُهُ على الإقناعِ ، حتى إننى
ذُقْتُ الثَّمرةَ وخَبَرْتُها أيضًا ، فَوَجدْتُ أيضًا من ٨٧٥
آثارِها ما يَتَّفقُ وما حَدَثَ له ، إذ زادَ تَفَتُّح عَيْنَيَّ

وكانتا من قبلُ غائمتيْن ، واتَّسَعَتْ أقطارُ روحى ، وزادت رحابةُ قلبى ،

وسموتُ إلى مصافٍّ الربوبية ، وهو ما سَعَيْتُ إليه

من أَجْلِكَ فى المقامِ الأوّل ، ولا أُقيم له وزنًا دونَ وُجُودِكَ .

فالنعيمُ الذى تُشاركُ فيه نعيمٌ حقًا لى ، ٨٨٠

وإذا لم تشاركْنى أصبحَ مُملاً مُرْهقًا ، وسرعانَ ما يغدو بغيضًا .

ذُقْ الثمرةَ أنتَ إذنْ أيضًا ، فإذا المساواةُ فى الأقدارِ

تربِطُنا كالمساواةِ فى الفَرْحَةِ والمساواة فى الحُبِّ

وإلا كان امتناعُك سببًا فى اختلافِ دَرَجَاتِنا

وانْفِصالنا ، وعندها سأتخلّى بعدَ فواتِ الأوانِ عن ٨٨٥

الربوبية من أَجْلِكَ ، ولن يَسْمَحَ القَدَرُ بذلك .

وهكذا قَصَّتْ حواءُ قِصتَّها وقد علا مُحيّاها المَرَحُ ،

ولو أن حُمْرَةَ خَجَلٍ وارتباكٍ كانت تتوهَّجُ فى خَدِّها .

وعلى الجانبِ الآخرِ كان آدمُ يقفُ دَهِشًا لسماعِ نَبَأ

الزَّلَّة المُهْلِكَة التى ارتكبَتْها حواءُ ، ٨٩٠

كانَ ذاهلاً حائرًا والرُّعْبُ البارِدُ

يجرى فى عُرُوقِه ، وقد ارْتَخَتْ مفاصِلُه جميعًا .

وتَرَاخَتْ يَدُهُ ، فَتَركَتْ طاقةَ الزُّهورِ التى قَطَفَها لحوَّاءَ

فَسَقَطتْ ، ووَقَعتْ جميعُ الوُرودِ الذَّابِلَةِ ،

كان يقف فى صَمَمٍ يعلو الشحوبُ وَجْهَهُ ، وبعد فترةٍ طالتْ ٨٩٥

بدأ يكْسِرُ طَوْقَ صَمْتِهِ الباطن قائلاً لِنَفْسه أولاً :

يا أجملَ المخلوقاتِ وآخرِها ، وأفضلَ

ما صنعَ اللهُ جميعًا ، مخلوقةٌ يتفوقُ فيها

كلُّ ما يمكن أن يتشكلَ فيدركُه البصرُ أو الفِكْرُ ،

مُقَدّسًا كان أم إلهيًا ، أمْ خَيْرًا خالصًا ، أمْ وَدُودًا أمْ عَذْبًا ! ٩٠٠

كيفَ ضِعْتِ إذنْ ، كيف جاءك الضَّياعُ على غِرَّةٍ

فَشَاهَ الوَجْهُ وانْتُهِكَ الكيانُ وأصبحَ مقضيًا عليكِ بالهَلاَكِ ؟

بل كيفَ استَسْلَمْتِ فَعَصيتِ اللهَ فيما

حَرَّم تحريمًا صارمًا ، وكيف تُنْتَهَكُ

الفاكهةُ المقدّسةُ المحرَّمة ! لابد أن خِدَاعًا لَعِينًا ٩٠٥

لِلْعَدُوِّ أوقَعَكِ فى حَبَائله ، وإن كنتُ لا أزالُ أَجْهَلُه ،

بل ودَمَّرنى أنا معك ، فَلَقَدْ قرَّ رأيى

وتأكّدَ مختارًا أن أَمُوتَ معك ،

إذ كيف أعيشُ دون وُجُودِك معى ، كيف أتخلّى عن

حديثك العذبِ والحبِّ الذى ارتبطُ به أغلى ارتباط ٩١٠

وأعود للعيشِ شريدًا فى هذه الغابات المُوحشة ؟

ولو خَلَقَ اللهُ حواءَ أخرى ، وكنتُ أنا

أَمْلكُ أن أَفْقدَ ضلعًا آخرَ من ضلوعى ، فإنّ فقدانَك
لنْ يبارحَ فؤادى أبدًا ، كلاّ وكلاّ فأنا أشعرُ
برابطةِ الطبيعة التى تَشُدُّنى إليك ، فَلَحْمُك من لحمى ٩١٥
وعظامُك من عِظَامى ، ولنْ يكتبَ لِحَالِك
أن ينفصلَ أبدًا عن حالى ، فى النَّعيمِ أو فى الشَّقاءِ !

قال ذلك فى نفسه ، فكأنما ابتعدَ عن أحزانِ مخاوفِه
وعادَ إليه الاطمئنانُ ، وكأنما جَالَدَ الأفكارَ المضطربةَ المتلاطمةَ
فاستَسْلَمَ لما بدا أمرًا لا علاج له ، وتَحوَّلَ إلى حواءَ ٩٢٠
فخاطبَها بكلماتٍ تَنِمُّ عن هدوءِ النَّفْسِ قائلاً :

يالَجَسَارَةِ الفِعْلِ الذى اقْتَرَفْتِه يا حواءُ المغامرةُ ،
وجَسَامَةَ الخَطَرِ الذى جَلَبْتِه ، بعد أن اجْتَرأْتِ ،
ولو مِنْ قَبيلِ الاشتهاءِ فحسْب ، على النظرِ إلى
تلك الفاكهةِ المقدسةِ ، وقداستُها فى التحريمِ ، ٩٢٥
وما أعظمَ ذنبِ تَذَوّقِها ، ولَمْسُهَا مُحَرّمٌ علينا .
ولكنْ من ذا الذى يستطيعُ أن يَسْتَرْجِعَ الماضى فيُلْغى وقوعَ ما وَقَعَ ؟
لا الله القادرُ على كل شىء ، ولا القدرُ ، ومع ذلك
فربما لم يُحْكَمْ عليكِ بالموتِ ، وربما أصبحَ الجُرْم
أَقَلَّ بشاعةً ونُكْرًا بعد أن سَبَقَ تَذَوُّقُ الفاكهةِ ، ٩٣٠

أى بعدَ أن دنَّسها الثعبانُ أولاً ، فكان البادئَ
بنزْعِ الخُصُوصيّةِ والقداسةِ عنها قبل تَذَوُّقنا إيّاها ،
ولم يَثْبُتْ إلى الآن أنها أَهْلَكَتْه ، فهو ما زال حيًا ،
وهو حىٌّ ، كما تقولين ، بل واكتسبَ حياةً بشريةً
سَمَتْ به إلى درجةٍ أرقى من درجاتِ الوجودِ ، وفى ذلك دافعٌ قوىٌّ ٩٣٥
لنا على أن نَذُوقَها ، إذ من المحتملِ أن
نَعْلو فى دَرَجِ الرُّقىِّ عُلُوًّا يتناسب مع عُلُوِّه ، ولا يمكن أن يكونَ ذلك
إلاّ بالصعود إلى مصاف الأرباب ، أو الملائكةِ أنصافِ الأربابِ .
بل ولا أظن أنّ الله ، ذلكَ الخالقَ الحكيمَ
سوف يُقْدِمُ فعْلاً على إهلاكِنا ، وإن كانَ يُهدِّدُنا به ، ٩٤٠
نحنُ أولَ مخلوقاته ، إذ كَرَّمَنَا أرفعَ تكريمٍ
وأَنْزَلَنا منزلةً فوق كُلِّ ما صَنَعَ ، فإذا سقطنا
وقد سُخّرتْ لنا الكائناتُ ، فسوف تسقطُ مَعَنَا حَتْمًا
ما دامتْ تابعةً لنا ، وهو ما يَعْنى أنّ الله سوف يُدَمّر ما خَلَقَ
ويُحْبِطُه ، فيبْنى ويَهْدِمُ ، ويُفَتِّتُ ما عَمِلهُ ويُشَتِّتُهُ ، ٩٤٥
وهو مُسْتَبْعَدٌ من اللهِ سُبْحَانَهُ ، وهو وإنْ كان ذا قُدْرَةٍ
على أنْ يَبْدأَ الخَلْقَ ثم يُعيدُهُ ، فسوف يَكْرَهُ
أن يَحْكُمَ بفنائنا ، كَيْلاَ يَشْعُرَ الخَصْمُ

أنه انتصرَ قائلاً "ما أَضْعَفَ حالَك يا من يُفَضّله اللهُ

على الجميع ! ومن ذا الذى يطولُ رِضَى اللهِ عنْهُ ؟ فلقد بَدَأَ بى ٩٥٠

فَدَمَّرنى ثم دَمَّر الإنسانَ بَعْدِى ، ومن عساه يُدَمِّرُ بَعْدَنَا ؟"

إن ذلك مُسْتَبْعَدٌ مكروهٌ ولا يُتَوَقَّعُ حتى من الأعداء

وعلى أى حالٍ فلقد رَبَطْتُ أقدارى بأقدارِكِ ،

مصممًا على أنْ أَلْقى المصيرَ نفسَه ، فإذا كان الموتُ

سوف يرافِقُكِ ، فالموتُ لى مثلُ الحياة ! ٩٥٥

ما أقوى ما أشعرُ به فى قلبى

من روابطِ الطبيعةِ التى تَشُدُّنى إلى ما أَمْلِكُ ،

ما أَمْلِكُهُ فيكِ ، إذ إنّ كيانَك ينتمى إلىَّ ،

وحالُنا من المحالِ أن يَنْفَصِمَ ، فنحن كِيانٌ واحدٌ ،

وجسدٌ واحدٌ ، فإذا فقدتُك فكأنما أفقدُ ذاتى . ٩٦٠

وفرغ آدمُ من حديثه فأجابَتْهُ حواءُ قائلةً :

يا لهُ من اختبارٍ باهرٍ للحبِّ الذى فاقَ الحدودَ ،

يا له من برهانٍ ساطعٍ ومثالٍ رفيعٍ رائعٍ !

إنه يدعونى لمضاهاتِه ولكن هَيْهَاتَ ! فأنا لا أتمتع

بالكمال الذى يَزِينُكَ ، وأَنَّى لى أن أَبْلُغَهُ ٩٦٥

يا آدمُ ! إنّنى أتباهى بأننى خرجتُ من جَنْبِكَ العزيز

ويسرُّنى أن أسمَعك تتحدثُ عن وَحْدَتِنا
قلبٌ واحدٌ وروحٌ واحدةٌ فى كِلَيْنا ، وقد أتى الدليلُ القاطعُ
فى يومِنَا هذا ، بإعلانِ تصميمك بألاّ تسمحَ
للموتِ أو لما هُوَ أَشَدُّ من الموتِ هَوْلاً ورُعْبًا 970
بأن يَفْصِلَ بيننا ، بعد أن ارتبطنا برباطِ الحبّ العزيز ،
بل أن تشاركنى الذنبَ الواحدَ ، والجريمةَ الواحدةَ ،
إن كانت ثَمّ جريمةٌ فى تَذَوّقِ هذه الفاكهةِ الجميلةِ
ونحنُ ندينُ لها بالفَضْلِ ، فلا يأتى الفاضِلُ إلا بالفَضْلِ ،
بالفضلِ فى أن أتاحت - بطريقٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشرٍ - 975
هذا الاختبارَ الناجحَ لحُبّك لى ، ولَوْلاَهُ
لما تَجلّى مطلقًا بهذه الصورةِ الساطعةِ .
ولو كنتُ أتصورُ أن الموتَ الذى يتهدّدنا سيكونُ عاقبةَ
فِعْلَتى ، لتحملتُ وحدى
أسوأَ ما تأتى به ، ولما حاولتُ اقناعَكَ ، فأنا أُفَضّلُ الموتَ 980
مهجورةً على تَوْرِيطِكَ فى جُرْمٍ
يُقَوّضُ طُمأنينَتَكَ ، خصوصًا بعد أن تأكّدَ لى
بوضوحٍ وجلاءٍ منذ هُنَيْهةٍ حُبُّك الصادقُ
المخلصُ الذى لا يُجارى ولا يُبارى ، غيرَ أننى أشعرُ

أن العاقبةَ تختلفُ اختلافًا بيّنًا ، فليست الموتَ بل الحياةُ التى ٩٨٥
اتَّسَعَتْ آفاقُها بتفتّح الأَعْيُنِ ، وعَمَرَتْ بآمالٍ جديدةٍ وأفراحٍ قشيبةٍ
ومذاقٍ ربَّانىٍّ بلغَ من جمالِه أنّ كُلَّ ما ذُقْتُ من حلاوةٍ قَبْلَهُ
ومَسَّتْهُ حواسّى ، يبدو الآنَ باردًا غَليظًا إن قُورِنَ بِهِ .
استَنِدْ إلى خِبْرَتِى يا آدمُ وكُلْ منها ما تَشَاءُ رَغَدَا
ولِيَذْهَبْ خوفُك من الموتِ أَدْرَاجَ الرِّياحِ ! ٩٩٠
قالت حواءُ ذلكَ وهى تحتضِنُه ، وغَلَبَها الفَرَحُ
فَتَرَقْرَقَتْ فى عينيها العَبرَاتُ ، إذ تَأَثَّرتْ كثيراً بِقُوّةِ حُبِّهِ
الذى سَمَا به ذلك السُّموّ ، فَجَعَلَهُ يختارُ التَّعرّضَ
لغضبِ الله عليه من أجلها ، أو المَوْت .
وكانت المكافأةُ ( ومثلُ ذلك الإستسلامِ الخانعِ ٩٩٥
أجدرَ ما يكونُ بتلكَ المكافأة ) أنْ قَطَفَتْ من الغُصْنِ
بعضَ تلك الفاكهةِ المُغْرِيَةِ وقَدَّمَتْها إليه
بِيَدِ السَّخاء ، ولم يَتَوَرّعْ آدمُ عن أَكْلِها
وإن كان يعرفُ مَغَبَّةَ ذلك ، فلم يكنْ مخدوعًا
بل غَفَلَ فَلاَنَ فَغَلَبَهُ سحرُ الأنثى . ١٠٠٠
وارتَعَدَتْ الأرضُ فى أَحْشَائِها ، إذ عَاوَدَتْها
الآلاَمُ ، ونَدَّتْ عن الطبيعةِ أَنَّةُ أَلَمٍ ثانية ،

واكْفَهَرَّ وجهُ السماءِ بالغُيومِ ، وهزيمِ الرَّعدِ ، وبعضِ القطراتِ الحزينةِ
باكيةً على اكتمالِ الخطيئةِ المُهْلكةِ ،
الخطيئةُ الأولى ، وآدمُ لا يتردّدُ فى التهامِ
ما يُشْبِعُ نَهَمَهُ ، وحواءُ لا تتوقفُ عن تَرْديدِ
ما قالَتْه من قبلُ عن خَوْفِها من الزَّلَلِ ، وزيادةِ التَّسْرِيةِ عنه ١٠٠٥
بصُحْبتِها المُحبَّة ، حتى أنهما أصبحا يشعُران
مثل السُّكارى بخمرٍ جديدةٍ عليهما معًا
فهما يسبحانِ فى مَوْجِ المَرَحِ ، ويتوهمان أنهما يحسّان أنّ
الرُّبوبيَّةَ فى باطنهما تَنْسِجُ لهما أجنحةً يطيران بها ١٠١٠
فَيُطِلاّنِ على الأرْضِ من عَلٍ ، ولكنّ تلك الفاكهةَ الخائنةَ
كانت تبدى تأثيرَها الكاذبَ أوَّلَ الأمرِ فحسْب ،
إذْ إنّها أَلْهَبَتْ الرغبةَ الجَسديةَ ، فإذا بآدمَ وقد بَدَأَ
يرمقُ حوّاءَ بعيونِ اشتهاءٍ مُتَبَذِّلَةٍ وترمقُه هى
بتبذُّلٍ مماثلٍ ، وهما يحترقان شَهْوَةً ، ١٠١٥
حتى شَرَعَ آدمُ فى دَفْعِ حواءَ إلى المُلاعَبَةِ والمُلاطَفَةِ قائلاً :
الآن أرى يا حَوَّاءُ أنك تَتَّسِمينَ بدقّة الذَّوْق ،
والتأنُّق ، ونصيبُك من الحكمةِ ليسَ ضئيلاً
ما دُمْنا نحدّدُ لكلِّ مذاقٍ مَعْنىً
ونَصِفُ حاسَّةَ الذَّوْقِ بالحكمةِ ، وهذا الإطراءُ ١٠٢٠

أُسْديه إليك بعد أَحْسَنْتِ تزويدَنا اليومَ بما طابَ من الطُّعوم .

كم من المتعةِ ضاعَ منّا بامتناعِنا

عن هذه الفاكهةِ الممتعةِ ، ولم نعرفْ حتى الآنَ

لَذَّةَ المذاقِ الحقيقيةَ ، فإنْ كان مثلُ هذه المتعةِ يَزِينُ

الأشياءَ المحرّمةَ علينا ، فَلَنَا أن نَتَمَنّى 1025

أن يُفْرَضَ علينا الحرمانُ من عَشْرِ أشجارٍ لا من شجرةٍ واحدةٍ .

لكنْ تَعَالَىْ ! لقد جَدَّدْنا نشاطَنا الآنَ ، فَهَيّا نَلْعَبْ !

وهو اللائقُ بعد أنْ تناولْنَا ذلكَ الطَّعامَ الّلذيذ

إذ لم يَحْدُثْ مطلقًا من قبلُ ، منذ اليومِ الذى

رأيتُكِ فيه أَوَّلَ مَرّةٍ وتزوجتُك ، مُحَلاَّةً 1030

بجميعِ آياتِ الكمالِ ، أنْ أَلْهَبَ جمالُك أحاسيسى بهذه الشِّدّة

والوَقْدَةِ حتى أَسْتَمْتِعَ بكِ ، وقد ازْدَدْتِ جمالاً الآنَ

عن أىّ وقتٍ مضى ، مما أَنْعَمَتْ به علينا تلك الشجرةُ الفاضلة .

قال آدمُ ذلك ولم يَدَّخِرِ نظرةً أو حركةً

تَشى بِقصْدِ الغَرَامِ ، وكانت حواءُ تفهمُها حَقَّ الفهم 1035

وعينُها تُطْلِقُ سهامًا من لهبٍ تُلْهِبُ مَرْمَاها .

وأمسك بيدها ، واتّجها إلى ربوةٍ ظليلةٍ ،

خميلةٌ سقفُها الأخضرُ من العرائشِ الكَثّةِ المُلْتَفّةِ ،

وسارا معًا وهى راضيةٌ إلى فراشٍ من الزُّهور ،

من الرَّيْحانِ والبَنفَسْجِ والنَّرْجسِ والفُلّ ، ١٠٤٠

أكثرُ فُرُشِ الأرضِ نُضْرةً وطَرَاوَة ،

وهناك شربَا عَللا بعد نَهَلٍ مِنْ نَبْعِ الحُبِّ

وعَبَّا عَبًّا من لطائفِ الغرامِ ، ختَامَ المشاركةِ فى الجُرْم

وعزاءَ خَطيئَتِهما ، حتى هَبَطَتْ أنداءُ النُّعاسِ عليهما

فاستسْلما لِسُلْطَانه مُرْهَقَيْن مِنْ لَعِبِ الهوى . ١٠٤٥

وما إن نَفَدَتْ قوةُ تلكَ الفاكهةِ المُضِلَّة

بعد أن بَعَثَتْ أَبْخِرةَ النَّشْوةِ واللَّذَّةِ الحِسِّية

التى تَصَّاعَدُ وتَتَرَاقَصُ حول الرُّوحِ ، وتُضِلُّ القُوى الباطنةَ

وتَحْرِفُها عن مسارها ، وبعد أنْ غَادَرَهُما النعاسُ الفَظُّ الذى

يتولَّدُ من دُخَانٍ مُنَافٍ للطبْعِ والطبيعةِ ، ويَغَصُّ بأحلامِ ذنوبٍ ١٠٥٠

تنوءُ النفسُ بِحَمْلِها ، نهضا من الرُّقادِ

كأنما ينهضان من قَلَقٍ ، ونظر كُلٌّ إلى صاحِبِه ،

وسرعان ما عَجِبا لِشِدَّةِ تفتُّحِ العَيْن ، وشدة ما يَغْشى العَقْلَ

من ظُلْمةٍ ، فإذا بالبراءة التى كانت كالنِّقابِ الذى

يحميهما من مَعْرِفَةِ الشَّرّ وقد ذَهَبَتْ ، ١٠٥٥

وكذلك الثِّقَةُ المُحقّةُ ، والصلاحُ الأصيلُ

والشرفُ ، كُلُّها ولَّتْ من حولهما ، فأدركَ آدم عُرْيه
وأحَسّ بخَجَلِ المُذْنبِ فطفِقَ يَسْتُر ما بدا من سَوْءَته
ولكنّ رداءَه كان يُظهر أكثرَ مما يُخْفى ! ومثلما نَهَضَ شمشونُ الجبّار
ذو القُوّةِ الهِرَقْليّة ، سليلُ 'دان' ، من أحضانِ العاهرة ١٠٦٠
"دليلة" ابنةِ فلسطين ، واستيقظَ
وقد فقد قُوَّتَه ، نهض كلاهما مُعْدَمَيْن وقد تجرّدا
من كُلِّ طَاقَةٍ لديهما ، فجلسَا صامِتَيْن ، وعلى الوجهِ آثارُ
الحَيْرَةِ والبَلْبَلَةِ ، فطالَ بهما الجلوسُ ، كأنما أُصيبا بالبُكْم ،
وبعد رَدَحٍ طويلٍ تكلّمَ آدمُ ، وإنْ لمْ يكنْ أَقَلَ من حوّاءَ خَجَلاً ، ١٠٦٥
وأَجْبرَ نفسَه على لَفْظِ هذه الكلماتِ قائلاً :
أنتِ يا حواءُ ! لقد استَمَعْتِ فى ساعةِ شَرٍّ
إلى ذلكَ الثعبانِ الكاذبِ ، ومن يدرى من عَلَّمَهُ
محاكاةَ صوتِ الإنسانِ زَيْفًا وزُورًا ، فلقد صَدَقَ إسْقَاطُه لنا
وأَخْلَفَ ما وَعَدَ من ارتقائنا ، فها هى أَعْيُنُنا ، ١٠٧٠
نَجدُها وقد تَفَتَّحَتْ حقًا ، ونجدُ أننا أصبحنا نعرفُ
الخيرَ والشرَ جميعًا ، الخيرَ الذى ضاعَ والشَّرَ الذى جاء
فما أسوأَ ثَمَرَ المعرفةِ إنْ كانت هذه هى المعرفة ،
التى تُجَرِّدُنا هكذا فَنَعْرَى من الشَّرَفِ

ومن البَرَاءَة ، ومن الإخلاصِ ، ومن الطُّهْر ، ١٠٧٥
وهى الحُلىُّ التى اعْتَدْنا التَّزيُّنَ بها فَتَلَوَّثَتْ وعَلَتْها البُقَعُ
وفى وُجُوهِنا تبدو جَلِيَّةً واضحةً دلائلُ
الاشتهاءِ الدَّنِئ ، حصادُ شَرٍّ وفيرٍ ،
بل الخجل نفسه وهو آخرُ الشرور ، وإذَنْ فوقوعُ الأوّل
لا شكَّ فيه ! كيف تواتينى القدرةُ بعد الآن على التطلّع إلى وجه ١٠٨٠
الله أو وجوه الملائكة ، وكنتُ كثيرًا ما أراها بفرحةٍ
ونَشْوَةٍ طاغية ؟ إن تلكَ الصُّوَرَ السماويةَ
سوف تستعصى الآن لِشِدَّةِ سَنَاهَا على بَصَرِى الأرْضِىّ
إذ لنْ أحتملَ بوارقَ نورِها . ليتَنى أَحْيَا هنا
فى عُزْلَةِ حياةَ بَدَاوَةٍ ، فى بَعْضِ سُهولِ الغَابِ ١٠٨٥
الظَّلْماءِ ، حيث تعلو هاماتُ الدَّوحِ اللَّفَّاءُ التى لا يَنْفُذُ منها
شعاعُ نَجْمٍ أو ضياءُ شَمْس ، ناشِرةً ظلالَ أَوْراقها الشّاسعةَ حتى
تُمْسى غَاسِقَةً كالمساء ! دَثِّرينى يا أشجارَ الصُّنُوبر
ويا أَشْجارَ الأَرْزِ ، واجْعَلى من أَغْصَانِك التى لا تُحْصى
غِطَاءً يَحْجُبُنى حتى لا أَتطلّع إلى تلك الصُّورِ السماوية أَبَدًا ! ١٠٩٠
أما الآن فهيا يا حواء نَبْتكرْ ، فى هذه المحنةِ الشَّدِيدة ،
أفضلَ ما نستطيعُ به فى هذه الآونة إخفاءَ

عَوَرَاتِنا عن بعضنا البعض ، وهى سوءاتُنا
التى يَخْدِشُ كشفُها الحَيَاءَ ، بل إنّها أَقْبَحُ ما يُعَرَّى .
فَلْنَقْصِدْ بعضَ الأشجارِ ذاتِ الأوراقِ العريضةِ الناعمةِ فنخيطَ بعضَها إلى بعضٍ ١٠٩٥
ونَلُفُّها حولَ الخصرْ ، فتغطّى الوَسَطَ من كُلِّ جانبٍ ،
حتى لا يأتىَ ذلكَ الوافدُ الجديدُ ، وهو الخَجَلُ ،
فيتّخذَ منها مكانًا ، ومن ثَمّ نُلامُ على الدَّنَس .
كانَ ذاك ما أشارَ به آدمُ ، فقاما معًا ودَخَلاَ
إلى أكثفِ الغاباتِ شَجَرًا ، وسرعانَ ما اختارا ١١٠٠
شجرة التينِ ، لكنّها لم تكنْ الشجرةَ الشهيرةَ بفاكهتها
بل كانت من النوعِ الذى يعرفُه الهنودُ إلى اليَوْمِ
فى "مالابار" أو "ديكان" ، فهى تَفْتَحُ ذراعَيْها
وتتفرّعُ طولاً وعرضًا حتى تَهْبِطَ إلى الأرضِ
الأفنانُ الملتويةُ فتضربُ جذورُها فيها فإذا بالبَنَاتِ يَنْشَأْنَ ١١٠٥
ويَتَرعْرَعْنَ حولَ الشجرةِ الأمّ ، ويمتدُّ الظِّلُّ بينَ الجُذُوعِ القائمةِ
والسقفُ كالقُبّةِ العاليةِ من فَوْقِها ، والممراتُ المتناظرةُ فيما بينها .
وكثيرًا ما يأوِى الرّاعى الهندى إليها هَرَبًا من الحَرّ
فيبترد فى الظِّلِّ ، ويُوَجِّهُ قُطْعَانَهُ التى تَرْعى الكَلأَ
إلى الفَجَوَاتِ المُتَاحَةِ وَسْطَ الظّلالِ الكثيفةِ ، وهكذا جَمَعَا بعضَ ١١١٠

هذه الأوراقِ التى كانت عريضةً مثل دُرُوعِ الأمازونات ،
وبما لديْهِما من مَهارَةٍ تمكّنَا من خِيَاطَةِ بَعْضِها إلى بَعْض ،
بما يكفى لتغطيةِ الوَسَطِ ، وما أَوْهَاهُ من غطاء إن كان القَصْدُ منه إخفاءَ
ما ارتكباه من جَرِيرَةٍ وما يَخْشَيَانِه من عارٍ ، وما أَشَدَّ اختلافَهُ
عن جَلاَلِ عُرْيِهِما الأوّلِ . ومثلُ هذا ، منذ عَهْدٍ قريبٍ ، ١١١٥
وَجَدَهُ "كولومبوس" لدى سُكّانِ أمريكا الذين يُغَطُّون الوَسَطَ
بحزامٍ من الرِّيشِ وباقى الجسمِ عارٍ ، ويعيشون حياةَ بَدَاوَةٍ
بين الأشجارِ فى الجُزُرِ وعلى الشواطئ التى تكسوها الغابات .
وبعد أن تَدَرَّعا بهذه الأوراقِ وظَنّا أنهما قد سَتَرَا بها
جانبًا من عَارِهِمَا ، وإن كانا لا يَنْعَمَانِ بالرّاحة والطمأنينة ، ١١٢٠
جلسا للبكاءِ ، ولم يقتصرْ البكاءُ على الدموعِ التى
تُمْطِرُها العيونُ ، بل صاحبتْهُ رياحٌ عاتيةٌ أَقْسى وأَشَدُّ فى باطِنِ النَّفس ،
بدأتْ تهبُّ ، ومشاعرُ جائحةٌ من غضبٍ ومَقْتٍ
وشَكٌّ وريبةٍ وشِقَاقٍ ، فاهتَزَّتْ لها وتَصَدَّعَتْ
جَنَبَاتُ الضَّميرِ ، تلكَ الساحةُ التى كان الهدوءُ يسودُها ذاتَ يوم ١١٢٥
ويَعْمُرُها السِّلْمُ ، فأصبَحَتْ قَلِقَةً مُبَلْبَلَةً
فلا يَتَوَلّى الإدراكُ الحُكْمَ الآن ، وليس للإرادةِ
صوتٌ مسموعٌ ، بل أصبحَ هذا وذاك يخضعان

للشَّهيَّةِ الحسيِّةِ التى كانت ، من مكْمَنِها الأسْفَلِ ،

تَغْتَصِبُ ما ليس لها ، وتعلنُ تسلّطها على العقلِ ذى السيادةِ ١١٣٠

وتفوّقَها عليه . وهكذا ، ومن هذا الصَّدْرِ المضطربِ ،

خرَجَتْ كلماتُ آدمَ الذى اختلفَ مظهرُهُ وتغيّرتْ نَغَمَاتُه ،

فعاد للحديث إلى حواء بدفقاتٍ متقطعةٍ قائلاً :

ليتكِ سمعتِ كلامى ومكثتِ معى

حسبما نَاشَدْتُكِ ، عندما تَملّكتكِ تلك الرغبةُ الغريبةُ ١١٣٥

فى التجوالِ وحدَكِ فى هذا الصباحِ المَنْحوسِ ،

ولا أعرفُ من أين جَاءَتْكِ ، وكُنّا نستطيعُ آنذاك أن نَظَلَّ

سعداءَ دائمًا ، لان أن يَنْقَلِبَ حالُنا إلى ما نَحْنُ فيه ، إذْ سُلِبْنَا

كلَّ خيرٍ لدينا ، وصِرْنا إلى العارِ والعُرْى والشَّقَاءِ .

فَلْنُقْلِعْ منذ الآن عن طَلَبِ عِلَلٍ لا لُزومَ لها لإِثْبَاتِ ١١٤٠

ما نَدينُ به من إخلاص ، ومن يَسْعَ جادًا

لمثلِ ذلك البرهانِ ، فليتأكدْ أنّ الإخفاقَ قد بَدَأَ !

وسرعانَ ما أجابَتْهُ حواءُ ، وقد ساءَهَا لَوْمُهُ لها ، قائلةً :

ما هذه الكلماتُ التى تَفَوَّهتْ بها شفتاك يا آدمُ القاسى

فَنَسبْتَ ما حدثَ إلى غيابى عنك أو إلى رغبتى ١١٤٥

فى التجوالِ ، على نحو ما تُسَمِّيها ، ومن يدرى

فَلَعَلَّ الشَّرَّ أن يتصادفَ فيقعَ وأنتَ إلى جوارى
أو ربّما أصَابَكَ أنتَ نَفْسَك ، ولو كُنْتَ هناك ،
أو كنتَ هنا وجرى ما جرى ، فما كنتَ لتستطيعَ إدراكَ
المخاتلةِ فى الثعبانِ ، وهو يتكلمُ بما تكلَّمَ به ، ١١٥٠
ولم أكنْ أعرفُ أساسًا للعداوةِ بينى وبينَهُ
فلماذا يُضْمِرُ إيقاعَ الضُّرِّ بى أو السَّعْىَ لإيذائى ؟
وهلْ كان علىَّ ألاّ أفارقَ صُحْبَتَكَ أبدًا ؟
وهل يزيدُ نَفْعى آنَذاكَ عن نفعِ ضِلْعٍ خامدٍ فى جَنْبِكَ !؟
ولكننى الآن زَوْجَتُك ، فلماذا وأَنْتَ رأسى ١١٥٥
لم تَأْمُرْنى أمرًا مُطْلَقًا بِعَدَمِ الذهابِ
ما دمتُ سأتعرضُ لمثلِ ذلكَ الخطَرِ الذى ذَكَرْتَهُ ؟
ما أيسرَ ما تَقَاعَسْتَ عن التَّشَدّدِ فى مَنْعى
بل إنّكَ سَمَحْتَ لى بالذهابِ ووَافَقْتَ عليه وتَرَكْتَنى راضيًا ،
ولو كُنْتَ صارمًا وأَظْهَرْتَ الثباتَ فى رَفْضِكَ ١١٦٠
لما أَذْنَبْتُ أنا ، ولما أَذْنَبْتَ أنت معى .

وردّ عليها آدمُ وقد غَضِبَ لأوّلِ مرةٍ قائلاً :
أهذا هو الحبُّ ، أهذا جزاءُ ما أُكِنُّهُ
أنا لَكِ يا حواءُ الجاحدةُ ، وما تَجَلّى ثابتًا

لا يَتحوَّلُ فى وَقْفَتى مَعَكِ وقد ضَلَلْتِ الطريقَ ؟ لست أنا إذن 1165

من كان فى يده أن يَعيشَ ويَهْنَأَ بالنعيمِ الخالدِ

ثم اختارَ طائعًا ألا يَفْعَلَ بل أن يموتَ مَعَكِ

وهى أَلْقَى اللّومَ الآنَ مُتّهمًا بأننى سببُ

خطيئتكِ ؟ هل لأننى لمْ أُظهِرْ الصرامةَ الكافيةَ ،

فيما يبدو ، لمنْعكِ من الذَّهابِ ؟ وهل كان فى طَوْقِى المزيدُ ؟ 1170

لقد حَذَّرْتُكِ ، وأَنْذَرْتُكِ ، وتَنَبَّأْتُ

بالخَطَرِ ، وذكرتُ العَدُوَّ الكامنَ

المُتَربِّصَ ، وبعد هذا لا يوجدُ سوى الإِرْغَامِ

وإرغامُ من يتمتعُ بإرادتِه الحُرَّةِ لا مكانَ له هنا .

ولكنّ جَسَارَتكِ دَفَعتْكِ دَفْعًا ، والثِّقَةُ المُفْرِطَةُ 1175

إما فى عدم مُصَادَفةِ أى خَطَرٍ ، وإما أنّكِ كنتِ تَنْشُدينَ

الفرصةَ لاختبارٍ يثبتُ شِدَّةَ بأسِكِ ، وربّما

أكونُ أنا قد ضَلَلْتُ الطريقَ أيضًا حين أَسْرَفْتُ فى إعجابى

بما بدا لى أنه الكمالُ كُلُّه فيكِ ، حتى ظَنَنْتُ

أن الشَّرّ ، مهما يكنْ ، لا يجرؤُ على أن يَقْرَبَكِ ، وأنا نادمٌ 1180

على هذا الضَّلاَلِ الآنَ ، الذى أَصْبَحَ جَريمتى

وأنت التى تتهميننى بها . هذا محتومٌ علَى

كل من تدفعُه ثِقَتُهُ المفرطةُ فى رِفْعَةِ المرأةِ

إلى السماحِ لإرادَتِها وَحْدَهَا بالنَّفَاذِ ، فهى لا تُطيقُ القُيودَ

فإذا تُرِكَتْ وشأْنَها وحَلَّ ما يَحُلُّ من الشَّر ، 1185

كان هو أولَ من تتّهمه بالتّسبّب فيه لِتَسَامُحِهِ الذى يَشِى بالضّعْف .

وهكذا قَضَيَا فى التَّراشُقِ بالتُّهَمِ

ساعاتٍ عقيمةً ، دون أن يلومَ أَحَدٌ منهما نفسَه

فذهبَ نزاعُهُما عبثًا ، دون أن تلوحَ له غايةٌ أو نهاية .

# الكتاب العاشر

## الموضوع

يعلم الملائكة الحارسون بخطيئة الإنسان ، فيغادرون الفردوس عائدين إلى السماء صُعُدا ، طالبين أن تقبل حجتهم بأنهم لم يهملوا الرقابة ، وتُقبلُ حجتهم ، ويعلن الله أنه لم يكن فى طوقهم أن يمنعوا دخول إبليس . ويرسل كلمته للحكم على الخاطئَيْن ، فتتنزل الكلمة وتصدر الحكم المطلوب ثم تأخذها الشفقة عليهما فتكسوهما بالثياب ، وتعود صاعدة . وكانت الخطيئة والموت لا يزالان جالسيْن حتى تلك اللحظة عند أبواب الجحيم ، فشعرا بفرحة عجيبة لنجاح إبليس فى هذا العالم الجديد وللخطيئة التى اقترفها الإنسان فيه ، ويعلنان اعتزامهما ألاّ يظلاّ رهن محبس الجحيم ، بل أن يتّبعا والدهما إبليس إلى مكان الإنسان ، وتيسيرًا لسبل الانتقال من الجحيم إلى هذا العالم ذهابًا وعودة ، ينتهيان من تعبيد طريق عام عريض ، أو جسر يمتد فوق العماء ، على النهج الذى شقه إبليس أول الأمر ، وأثناء استعدادهما للهبوط إلى الأرض ؛ يقابلانه فيجدانه مزهواً بنجاحه فى طريق عودته إلى الجحيم ؛ ويتبادل الجميع التهنئة . ويصل إبليس إلى « بانديمونيام » - قصر الشياطين - حيث يلتقى الجميع فيقص عليهم متباهيًا نبأ نجاحه ضد الإنسان ، ولكنه لا يسمع التصفيق بل يسمع تحيةً من الفحيح العام صادرة من الجمهور ، ويدرك أن الجميع قد تحولوا معه فجأة إلى حشد من الأفاعى ، وهو حكم القضاء الذى صدر عليه فى الفردوس ، ويخيل إليهم أنهم يَرَوْن الشجرة المحرمة تبرز أمامهم ،

فيدفـعهم الشَّرَهُ إلى اقتطاف الثـمر ، ولكنهم لا يمضغون إلا التـراب والرماد . ويلى ذلك وصف لأفعال الخطيئة والموت ، ويتنبأ الله بالانتصار النهائى لكلمته عليهما ، وتجديد حياة جـميع الأشياء ، ولكنه يكتفى فى تلك اللحظة بأن يأمر مـلائكته بإجـراء عدة تعـديلات فى السـماوات والعناصـر . ويزداد إدراك آدم لسقـوطه فيندب حـاله ويبكى مآله ، رافضًا عـزاء حواء له ، ولكنهـا تثابر فى التسرية عنه حتـى يهدأ آخر الأمر ، وفى محاولة لتفـادى اللعنة التى قد تصيب ذريتهمـا تقترح على آدم حلولاً تتسم بالعنف ، وهو مـا يرفضه آدم ، إذ يلمح بوارق رجاء مؤكدة ويُذكّرها بالوعد الذى تلقيـاه أخيرًا ، وهو أن ذريتهما سوف تنتقم من الثعبان ، ويحثهـا على محاولة السعى معه إلى الصلح مع الإله الذى عصياه وأغضباه ، بالتوبة والضراعة .

وفى هذه الأثناء انتشر نبأ الفعلة النكراء الخسيسة
التى ارتكبها إبليس فى الفردوس ، وكيف
تَمثَّل بالثعبان فَضَلَّل حواء
وكيف ضَلَّلَتْ هى زوجَها فتذوقا الثمرة المهلكة
وذاع النبأ فى السماء ، فماذا عساه أن يفلت من عين ٥
الله البصير الخبير ، أو أن يخدع فؤاده
وهو السميع العليم ، فشاء وهو الحكيم العادل فى كل شىء

ألا يمنع إبليس من محاولة إغواء عقل الإنسان
الذى توافرت له القوة التامة وتَدَرَّعَ بالإرادة الحرة
وتهيأ له من أسباب الكمال ما يكفى لاكتشاف ١٠
أحابيل العدو ودحرها أو من يتظاهر بالصداقة مهما يكن .
فلقد كانا يعرفان دائمًا ، وكان عليهما أن يذكرا
الأمر السامى الذى ينهاهما عن تذوق تلك الثمرة
مهما يكن مصدر الغواية ، ولكنهما لم يطيعاه
فاكتسبا العقاب جزاءً وفاقًا ١٥
وتضاعفت خطيئتهما فحق السقوط عليهما .
وانطلقت الملائكة الحارسة من الفردوس مسرعة
تُصَعِّدُ فى السماء ، صامتة حزينة
على الإنسان ، إذ علمت آنذاك بما صار إليه ،
ودهشت أشد الدهش لتسلل الشيطان الماكر ٢٠
بالدخول خِفْية . وما إن جاءت الأنباء المنكرة
من الأرض إلى أبواب السماء حتى استاء
كل من سمعها ، ولم يدخر الحزن الجهم
آنذاك وجوه الملأ الأعلى ، وإن اختلط
بالشفقة فلم ينتهك ما هم فيه من نعيم . ٢٥

وتزاحمت حول الذين وصلوا لتوهم حشود
الكائنات الأثيرية التى تريد أن تسمع وتعرف
كيف حدث ما حدث ، وأسرع الحراس إلى العرش الأسمى
ماثلين للمساءلة ، مقدمين من الذرائع
ما يثبت عدم إهمالهم مهمة الرقابة القصوى ٣٠
فحظيت بالقبول دون عَنَتٍ ، وهنا تكلم الرب الأعلى ،
الصمد السرمدى ، من سحابته الخفية
ودوّى صوته وسط الرعد قائلاً :

أيتها الملائكة التى اجتمعت هنا ، ويا أصحاب القوى
الذين أخفقوا فى مهمتهم فعادوا للسماء ! لا تبتئسوا ٣٥
ولا يعكرنّ صفوكم ما جاء من الأرض من أنباء
فلم تكونوا لتحولوا دون ما حدث مهما أخلصتم فى الحرص
أو لتتنبأوا بوقوعه مؤخراً
عندما قام المغوى أولاً بعبور الهوة بين الفردوس والجحيم .
فلقد أخبرتكم آنذاك بأنه سوف ينتصر وينجح ٤٠
فى مسعى السوء الذى أراده ، وأن الإنسان سوف يُغوى ،
ويُصدّق أنه فوق الجميع ، بل ويصدق الأكاذيب
المفتراة على خالقه ، ولم يصدر منى قرار

يقضى بحتمية سقوطه ،

أو يمس ولو بمثقال خردلة نزوع ٤٥

إرادته الحرة ، إذ تُرِكَتْ للميزان حركتُه الذاتيةُ

بكفتيه المتعادلتين ، ولكن السقوط قد وقع ،

ولم يبق الآن سوى إصدار الحكم بالموت

عليه لارتكابه الخطيئة ، وهو الموت الذى أعلنت عنه ذلك اليوم ،

والذى يفترض الإنسان أنه حكمٌ باطلٌ لاغٍ ٥٠

لأنه لم يُنَفَّذ فيه حتى الآن ، حسبما صَوَّرَهُ له خوفه ،

بضربةٍ مباشرةٍ مهما تكن ، ولكنه لن يلبث أن يعرف

أن الإمهال لا يعنى إسقاط الدَّيْن ، بل سيكون ذلك قبل نهاية اليوم .

ولن يكون عائد العدالة ازدراء النعمة !

ولكن تُرى من أُرْسِلُ للحكم عليهما ؟ من سواك ٥٥

يا كلمتى الحاكمة ، فلقد فوّضت إليك

الحكم كله ، سواء فى السماء أو فى الأرض أو فى الجحيم .

وما أَيْسَرَ أن ترى أننى أعتزم

أن أقرن الرحمة بالعدل ، فأرسلك

صديقًا للإنسان ، ووسيطًا له ، فأنت من قصدت أن يكون ٦٠

الفِديَةَ والمفتدى معًا ، وطواعية منك ،

فكلمة الله التى ستصبح بشرًا تحكم الآن على سقطة البشر .

هكذا تكلم الله ثم بسط بهاءه الوضاء

وسناء المجد نحو يده اليمنى ، فأضفى على كلمته

القوة الإلهية المتقدة الصافية ، فاكتملت للكلمة ٦٥

نُورانيّةُ الضياء القدسى الباهرة

واضحةً جليّةً ، وردّت الكلمة بنبرات عذبة قائلة :

أيها الإله الأزلى ، لَكَ أن تحكم ،

ولى فى السماء والأرض أن أنفذ مشيئتك

العليا ، حتى ترى فىّ وأنا كلمتك المحبوبة ٧٠

كل ما يسرك إلى الأبد . سأمضى للحكم

فى الأرض على هذين الخاطئين ، ولكنك تعلم أنه

مهما يكن القاضى ، فسوف يحلُّ بى أسوأ ما يحلُّ ،

عندما يحين الموعد المحدد ، فهذا ما تعهدت به

بين يديك ، ولا أرجع عنه بل أَنَالُهُ ٧٥

بالحق ، أى أن أخفف من غلواء مصيرهما ،

فأتحمله بدلاً منهما ، ومع ذلك فسوف أخفف شدة

العدل بالرحمة ، حتى يتضح أننى

وفيت بهما الوفاء كله ، وظفرت برضاك .

ولن يحتاج القضاء إلى حضور أحد أو وجود حاشية ٨٠

فلن يشهد الحكم إلا المحكوم عليهما ،

وهما هذان ، وأما الثالث الذى أَحْسَنَ بغيابه فهو مُدَانٌ ،

وفراره دليل إدانته ، بعد أن انتهك كل قانون ،

وأما الثعبان فهو غير مدان ولا مذنب .

وبانتهاء خطب كلمة الله ، قام من عرشه الوضاء ٨٥

الذى يشع سناء فوق سناء ، وقام الملائكة من أصحاب العروش

والقوى والإمرة والسيادة من أعضاده

فاصطحبوه إلى باب السماء ، ومنه

تَبَدَّتْ آفاقُ عدن وجميع أصقاعها .

وهبط مباشرةً وفورًا ، فسرعة الملائكة ٩٠

لا يحسبها الزمن ، وإن كانت مُجَنَّحةً بأسرع دقائق الزمن .

كانت الشمس آنذاك قد بدأت تهبط الأفق الغربى

مبتعدة عن خط الزوال ، وصَحَتْ النسمات اللطيفة المكلّفة

فى تلك الساعة بالهبوب على الأرض والإتيان

ببرد المساء الفاتر ، عندما جاء - وقد برد غضبه - ٩٥

ذلك القاضى الرحيم والشفيع الكريم معًا

ليصدر حكمه على الإنسان ، وسرى صوت الله فسمعاه

وهما يسيران فى الجنة ، فالنسائم الرقيقة

تحمله إلى آذانهما ، والنهار يميل للغروب ، وعندما سمعاه

حاولا الاختفاء عن حضرته بين ١٠٠

الأشجار اللّفاء ، وهما الزوجان معًا ، ولكن الله

اقترب منهما وصاح بآدم فى صوت جهورى قائلاً :

أين أنت يا آدم يا من اعْتَدْتَ أن تَهُبَّ فَرَحًا للقائى

وقد رأيتنى قادمًا من بعيد ؟ إننى أفتقدك هنا

وقد غاب عنك السرور ، ونَشَدْتَ التسرية فى العُزْلة ، ١٠٥

بعد أن كنت تقوم بالواجب الواضح دون أن يُطلب منك :

أتُرانى جئتُ خِفْيةً ، أم ترى تغيّر شىء ما

فتغيبت ، أم تُرى مَنَعَتْكَ المصادفة ؟ أَقْدِمْ إذن !

وتقدم آدم ، ومعه حواء ، أشد منه خشية ، وإن كانت قد سبقته

إلى العصيان ، وقد اربدّتْ ملامح وجهيهما ، وتجهما واضطربا ، ١١٠

ولم تكن نظراتهما تشى بالحب ، لا لله

ولا لبعضهما البعض ، بل بالإحساس بالذنب واضحًا جليًا ،

وبالعار والقلق المضنى واليأس

والغضب والعناد والكراهية والمكر .

وبعد أن تردد آدم طويلاً وتخاذل ، أجاب باقتضاب قائلاً : ١١٥

سمعتُك فى الجنة ، وأخافَنى صوتُك ،

لما أنا فيه من عُرْى فاختبأت . وردَّ عليه

القاضى الكريم دون ملاحاة قائلاً :

كثيرًا ما سَمِعْتَ صوتى ، فلم تُبْدِ الخوف

بل الابتهاج دائمًا ، فكيف أصْبِحُ الآن ١٢٠

مبعث رعب شديد لك ؟ وأما أنك عريان فمن

تُراه أخبرك بذلك ؟ تُراك أكلت من الشجرة

التى أمرتك باجتناب الأكل منها ؟

وأجابه آدم وقد أُحيط به ألما قائلاً :

يا للسماء ! يا لمأزم السوء الذى أقف فيه اليوم ١٢٥

أمام حكَمِ قضيتى ، فإمّا أن أُحَمِّلَ

نفسى تبعة الجرم كاملة أو ألقى الجُرم على

نفسى الأخرى وشريكة حياتى !

وتقصيرُها ، ما دامت على إخلاصها لى ،

من واجبى إخفاؤه لا تعريضها للتقريع ١٣٠

بشكواى منها ، ولكن الضرورة المحضة

تجبرنى على ذلك ، فأنا فى مأزق كالكارثة مُضْطَرٌ لذلك ،

كيلا يقع على رأسى ثقل الخطيئة والعقاب

وهو ثقل لا يحتمل ، فأحتمله كله
وحدى ، وحتى لو التزمت الصمت فلم أفصح ، فلسوف ١٣٥
تكشفُ يا ربى بِيُسْرٍ عما أخفيه .
هذه هى المرأة التى خَلَقْتَها لتساعدنى
ووَهَبْتَنِى إياها هديةً يزينها الكمال ، ولقد بلغ من صلاحها ،
وتواؤمها معى ، وقبولى إياها ، وشمائلها الربانية ، أن غدوت
لا أستريب فيما تقدمه يداها أو أرى فيه سوءًا ، ١٤٠
وكذا كل ما تفعله ، مهما يكن فى ذاته ،
إذ كان إقدامها عليه مبررًا له فى نظرى !
إنها هى التى قدمت لى ثمر الشجرة ، ولقد أكلت منه .

وردت الحضرة الإلهية على آدم بالكلمات التالية :

هل كانت رَبَّكَ حتى أَطَعْتَها وجَعَلْتَ صوتَها ١٤٥
يسبق صوته ؟ أم تُراها خُلِقَتْ مرشدةً لك
متفوقة عليك أو حتى مساوية لك حتى أَسْلَمْتَ لها
زمام رجولتك وأعطيتَها المكانة التى
وضعك الله فيها فوقها ، وهى التى خُلقت منك
ومن أجلك ، وأنت الذى يزيد كماله كثيرًا ١٥٠
عن كمالها فى جلال المُلك الحق ؟ لقد زانها الجمال

حقًا وزانتها الفتنة الجديرة بالظفر

بحبك لا بخضوعك ، أما ما وهبها الله من شمائلَ فهى

جميلةٌ ما دامت فى موقع المحكوم ،

قبيحةٌ فى موقع الحاكم ، فهذا هو موقعك والدور المنوط ١٥٥

بشخصك لو كنت عَرَفْتَ نفسك حق المعرفة .

وانتهى من كلامه فالتفت إلى حواء قائلاً باقتضاب :

قولى أيتها المرأة ، ما ذاك الذى فعلتيه ؟

وردت عليه حواء ، وقد كاد يغلبها العار ،

إذ ما أسرع ما اعْتَرَفَتْ ، دون أن تواتيها أمام القاضى ١٦٠

جرأة أو إسهاب ، بل اعتراها الخجل وهى تجيبه قائلة :

لقد خَدَعَتْنى الحيّةُ ولقد أَكَلْت .

وعندما سمع الإله الرب ذلك ، لم يتباطأ

بل أصدر الحكم فورًا على المتهم

وهو الثعبان ، ولو أنه حيوان عاجز عن إحالة ١٦٥

الذنب إلى الذى جعله وسيلة لفعل

الشر ، ونجس إلى آخر

الدهر ، حُقّت عليه اللعنة آنئذ

وفساد الطبع ، ولم يكن المزيد من العلم

من نصيب الإنسان (إذ اقتصر علمه على ذلك ولم يزد عنه) ١٧٠

ولم يغيّر من جريرته ، ولكن الله فى آخر الزمان قد

حكم بما حكم به من مصير على إبليس ، أول الخاطئين ،

وإن كانت ألفاظ الحكم غامضة ، إذ رأى ذلك أفضل ما ينبغى آنذاك

وهكذا جعل لعنته تقع على الثعبان قائلاً :

لأنك فعلت هذا ، حُقّت عليكَ اللعنةُ ١٧٥

فوق جميع البهائم ، وفوق كل وحوش البرية ،

ولسوف تسير زحفًا على بطنك

وتأكل التراب فى جميع أيام حياتك

ولسوف أوقع العداوة بينك وبين المرأة

والعداوة بين ذريتك وذريتها ، ١٨٠

وسوف تسحق ذريتُها رأسك ، وتسحق أنت عَقِبَ الإنسان .

وانتهى حديث النبوءة ، وهى التى تحققت

عندما جاء يسوع ابن مريم ، حواء الثانية ،

فشاهد إبليس وهو يتهاوى مثل البرق ساقطًا من السماء ،

وهو أمير الهواء ، ثم رُفع من القبر ١٨٥

فجرد الرياسات والسلاطين من قوتهم وظفر بهم

وعرضهم علنًا ، ثم صعد وضّاءً
فسبى السَّبىَ فى ثَبَج الهواء ،
وهو موطن إبليس نفسه الذى طال اغتصابه إياه ،
ولسوف يطؤه فيسحقه تحت أقدامنا فى آخر الزمان . ١٩٠
وهكذا تحول من تنبأ بذلك السحق المهلك
إلى المرأة وأصدر حكمه عليها قائلاً :
لسوف أضاعف أحزانك أضعافًا مضاعفة
بالحمل ، ولسوف تضعين أطفالك
بمشقة بالغة ، وتستكين لإرادة زوجك ١٩٥
إرادتُك وتخضع ، ولسوف يسود عليك .
ثم التفت إلى آدم أخيرًا وأصدر حكمه عليه قائلاً :
لأنك أصغيت إلى صوت زوجتك
وأكلت من الشجرة التى أصدرتُ إليك
الأمر بشأنها قائلاً إننى حَرَّمْتُ الأكل منها عليك ، ٢٠٠
فلقد أصبحت الأرض ملعونة بسببك ، وسوف تكابد المشقة
فى الأكل منها طيلة أيام حياتها كلها ،
ولسوف تُنْبتُ لك أيضًا الشوك والحَسَك
دون أن تسألها ذلك ، ولسوف تأكُل عشب الحقل ،

ولسوف يندى وجهك بالعرق لتأكل الخبز ٢٠٥
حتى تعود إلى الأرض ، فإنك
قد خرجت من الأرض ، فاعلم حقيقة مولدك ،
إذ إنك من تراب ، وإلى التراب تعود .

وفرغ من أُرسل قاضيا ومُخَلّصًا معًا من حكمه على الإنسان ،
فأبعد خطر الموت الآنىّ الذى أعلن عنه ذلك اليوم ٢١٠
بعدًا بعيدًا ، ثم أخذته الشفقة بهما وهما واقفان
أمامه فى عُرْيٍ يتعرضان للهواء الذى كان عليه الآن
أن يكابد التغيير ، فلم يجد بأسًا فى أن يبدأ
على الفور فى اتخاذ هيئة العبد
مثلما حدث عندما غسل أقدام عباده ، وهكذا قام الآن ٢١٥
بدور الوالد فى أسرته ، فستر
عُرْيهما بجلود الحيوان أو الوحوش التى قتلها
أو بجلد الثعبان الذى أبدله بجلد يافع .
لم يجد بأسًا فى إضفاء أردية على أعدائه
بل لم يكتف بأن كسا ظاهرهما بجلود ٢٢٠
الوحوش ، بل ستر عريهما الباطن ، وهو الأشد
إيذاءً للعين ، برداء الصلاح الذى

كان لباسًا جميلاً فى نظر الله .

وعادت كلمة الله صاعدة مسرعة إليه ،

وعادت إلى موقع النعيم فى فؤاده ٢٢٥

بالبهاء القديم والمجد العميم ، وقد رأَتْ أنها أَرْضَتْ

الجميع ، ثم قَصَّتْ عليه ، وهو بكل شىء عليم ، ما جرى مع الإنسان

وقد امتزجت بالقصة شفاعة حسنة .

وفى أثناء ذلك ، ومن قبل أن يصدر الحكم على الخاطئيْن فى الأرض ،

جلست الخطيئة والموت داخل أبواب الجحيم ٢٣٠

فى الجهة المقابلة داخل أبوابها التى كانت الآن

مفتوحة على مصراعيها ، تتجشأ نيرانًا مستعرة تمتد ألسنتها

إلى أقاصى أصقاع العماء ، منذ أن مَرّ منها الشيطان

وفَتَحَتْها له الخطيئة ، وهى التى بدأت حديثها إلى الموت قائلة :

يا ولدى ! لماذا نجلس هنا وكل منا يحدق فى صاحبه ٢٣٥

عاطليْن ، وإبليس الذى أنجبنا يهنأ وينعم

بعوالم أخرى ، ويعمل على توفير مقر أسعد

لنا ، نحن ولديه العزيزين ؟ من المحتوم

أن النجاح قد حالفه ؛ فلو صادف ما يسوء

لعاد من مدة ، تلاحقه غضبة ٢٤٠

المنتقمين منه ، إذ لا يوجد مكان مثل هذا
يناسب عقابه ، أو يناسب انتقامهم .
وإخال أننى أشعر بقوة جديدة تجيش فى باطنى
وبأجنحة تنمو لى ، وبأننى مُنحت السيادة على أصقاع شاسعة
وراء هذا البحر العميق ، مهما يكن ما يدفعنى ، ٢٤٥
سواء كانت قوة الإنجذاب أو كانت قوة فطرية مماثلة
ذات طاقة على التوحّد ، من أبعد المسافات ،
مع الأشياء المماثلة ، والارتباط بها برباطِ وُدٍّ خفىٍّ ،
وبتواصل لا تُسبر أسرارُه . إنك ظِلّى الذى
لا ينفصل عنى ولابد أن تمضى معى ، ٢٥٠
فلا تستطيع قوة ما أن تفصل بين الموت والخطيئة .
ولئلا تؤدى صعوبة الرجوع إلى
تأخير عودته ، وذاك أمر محتمل ، مرورًا فوق هذه الهوة
التى لا تستطيع قدم أن تجتازها أو تسلكها ، فلنحاول
القيام بعمل فيه مغامرة ، ولو أنه ، نظرًا لقوتك وقوتى ، ٢٥٥
لا يخلو من متعة ، وهو أن نبنى جسرًا
فوق هذه الساحة التى تمتد من الجحيم إلى ذلك العالم الجديد
الذى يبسط إبليس سلطانه عليه الآن ، وليكن أثرًا يشهد

على الامتياز الرفيع أمام حشد الجحيم أجمعين ،

فسوف يُيسّر مرورهم إلى ذلك العالم ، إما للتنقل فيما بينهما ٢٦٠

أو للاستيطان فيه ، حسبما تقضى أقدارهم به .

بل ولن أضل الطريق إذ أشعر أننى مدفوعة بقوة شديدة

بما بدأت أحسه من انجذاب وميل غريزى .

وسرعان ما أجابها الظل الناحل قائلاً :

اذهبى إلى حيث يشاء القدر ، وحيثما تقود النزعة العارمة ٢٦٥

خطاك ، ولن أتخلف عنك أو أضل

الطريق ، وأنت الحادى لى ، إذ إننى أشم رائحة

مذبحة ، وفرائس لا حصر لها ، وأتذوق

طعم الموت فى جميع الأشياء التى تحيا هناك :

بل ولن أتقاعس عن العمل الذى تنهضين به ٢٧٠

أو أتخلف ، وإنما سأقدم لك المعونة الكافية .

قال ذلك وهو يتشمم مبتهجًا رائحة

التغيير الذى يأتى بالفناء إلى الأرض . أرَأيْتَ إلى سرب

من الطيور الجارحة حين يقطع فى الجو فراسخ كثيرة نائية

توقعًا ليوم المعركة ، مقبلاً إلى ميدان ٢٧٥

ضربت فيه الجيوش معسكراتها ، طائرًا تجتذبه

رائحة الجثث الحية التى قُدِّر لها
أن تموت فى اليوم التالى فى الصراع الدموى ،
فهكذا كان ذو الشكل الجهم يتشمم ما حوله ، وقد رفع
أنفه بفتحتين متسعتين فى الهواء العكر ٢٨٠
مدركًا رائحة فريسته من مسافة بعيدة .
ثم انطلق كلاهما خارجيْن من أبواب الجحيم إلى المَهْمَه
الشاسع لفوضى العماء الرطب المدلهم ،
طائريْن فى اتجاهين متعارضين وحلّقا بقوة (فقوتهما عظيمة)
وحَوَّمَا على وجه الماء ، وما صادفاه من أشياء ٢٨٥
صلبة أو لزجة ، مما ترى البحر الهائج
يتقاذفه هنا وهناك ، تعاونا معًا على دفعه
من الجانبين فى دفقات نحو فم الجحيم .
فكأنما هب تياران متعارضان من الريح القطبية
على المحيط القطبى الشمالى ، فتعاونا معًا على رفع ٢٩٠
جبال الجليد التى تعوق مجرى الممر المائى المتخيَّل
وراء نهر « بتسورا » فى سيبيريا شرقًا إلى
ساحل « قيطان » ذى الثراء . وأما التراب الذى تجمع
فقد ضربه الموت بحربته الصخرية الباردة الجافة

كأنما يضربه بالرمح ذى السنان الثلاثى ، وثبّته فثبت ٢٩٥
ثبات جزيرة « ديلوس » التى كانت طافية يومًا ما ، وأما سائر الأشياء
فقد نظر إليها نظرة تخدير « جورجونية » فركزت ولم تتحرك ،
وشُدّ بعضُها إلى بعض بمزيج من قار لزج ، فالتصقت الحصى والحصباء
فى هيكل عريض عرض باب الجحيم ، يلتقى قاعه بقاعها العميق ،
وركَزَاه فركز ، وبدا الرَّصَافُ الهائل المبنىُّ عاليًا ٣٠٠
فوق البحر ، برُغائه وزَبَده ، جسرًا مقوسًا مرتفعًا
ذا طول خارق يتصل بالسور الذى
لا يتزعزع لهذا العالم الذى أصبح بلا حصانة
مفتوحًا أمام الموت ، ويمتد منه كذلك ممر عريض
مُعَبَّدٌ مُيَسَّرٌ خالٍ من العثرات هابطًا إلى الجحيم . ٣٠٥
وهكذا فإذا ضربنا الأقل للأعظم مثلاً ، ألمحنا إلى ملك الفُرْس
« أَرْتَخْشَشا » الذى أراد قمع حرية بلاد اليونان
فأتى من قصره « ممْنونيا » الشاهق فى « سُوسَهْ »
إلى ساحل البحر وبنى فوق مضيق « الدردنيل »
جسرًا يعبره ، ويربط أوروبا بآسيا ، ٣١٠
وألهب ظهور الأمواج الغاضبة بسياط كثيرة .
وهكذا أصبح الجسر الذى بناه بفنون عجيبة

فى تشييد الجسور هيكلا من الصخور المعلقة

فوق الهوة التى تجتاحها العواصف ، مقتفيًا خطى

إبليس ، فوصل إلى نفس البقعة التى كان ٣١٥

قد حطّ فيها من طيرانه أول مرة ، وهبط سالمًا

بعد أن خرج من باطن العماء إلى الخلاء العارى

لهذا العالم الكُروىّ ، وأرسيا عواميد من الصخر

وربطاه بالسلاسل التى ثبّتاها تثبيتًا

لا يحول أبدًا ، وهكذا التقت فى حيّز محدودٍ ٣٢٠

تخوم السماء الدنيا واتصلت بتخوم

هذا العالم ، وإلى اليسار كانت الجحيم

بارزة على مبعدة ، فبدت ثلاثة طرق منفصلة

للناظرين ، يصل كل منها إلى واحد من هذه الأماكن الثلاثة .

وبعد أن تبيّن لهما طريقهما إلى الأرض ٣٢٥

الذى يمر أولاً بجانب الفردوس ، إذا بهما يشاهدان

إبليس متخذًا صورة مَلَكٍ وضاء

بين برج القوس وبرج العقرب ، محافظًا فى مسيره

على زاوية السمت ، والشمس تشرق فى برج الحمل .

كان متنكرًا ، ولكنّ طفليه العزيزين هذين ٣٣٠

سرعان ما عرفا والدهما حتى وهو متنكر .
كان قد تسلل خِفْيةً ، بعد أن أغوى حواء ،
إلى داخل الغابة المتاخمة ، ثم غيّر من صورته
حتى يرقب عاقبة ما حدث ، فشهد خُدْعَتَه التى أوقعت
حواء ، ولو دون وعى منها ، وتكرار ذلك ٣٣٥
مع زوجها ، وشهد إحساسهما بالخجل ومحاولة
التستر بأردية لا غَناء فيها ، ولكنه عندما رأى نزول
كلمة الله للحكم عليهما أصابه الرعب
فلاذ بالفرار ، لا أملاً فى الهرب ، ولكن لتلافى لقاء
تلك الحضرة ، فهو مذنب ويخشى ما تستطيع غضبتها ٣٤٠
أن تنزله به فجأة ، وبعد أن جازها ، عاد
ليلاً ، وأخذ يصغى حيث كان الزوجان التعسان
يجلسان ويتبادلان أحاديث الحزن ، وشتى الشكاوى ،
ومنها أدرك المصير الذى ينتظره ، وفهم أنه
لن يَحُلَّ به على الفور بل فى المستقبل . وحمل فرحته ٣٤٥
وما علمه من أنباء عائدًا إلى الجحيم
وعندما وصل إلى حافة العماء ، بالقرب من قاعدة
هذا الجسر الجديد العجيب ، أسعده الحظ

بأن قابل من قدما لمقابلته ، وهما ولداه العزيزان .

وغمرت اللقاء فرحة كبرى ، وعندما شهد ٣٥٠

ذلك الجسر الهائل زادت فرحته

ووقف وقفة طويلة يتأمله فى إعجاب ، حتى بدأت الخطيئة ،

ابنته الجميلة الساحرة ، فى كسر طوق الصمت قائلة :

يا أبى ! هذه أعمالك الرائعة ،

وجوائز نصرك ، وأنت ترقبها كأنها ليست لك ، ٣٥٥

بل أنت صاحبها ومهندسها الأول ،

إذ إننى ما كدت أحدس فى قلبى –

قلبى الذى تدفعه قوةُ تَوَافُقٍ خَفِيّة

على السير دومًا فى ركاب قلبك والارتباط به برابطة عذبة –

أنك قد أفلحت على الأرض ، وهو ما تشهده عيناك ٣٦٠

الآن أيضًا ، حتى أحسست فورًا –

على ما يفصلنى عنك من عوالم –

أننى لابد أن أقفو خطاك مع ولدك هذا ،

فلقد بلغ من علاقة العلة والمعلول المصيرية بين ثلاثتنا

أن غدت الجحيم عاجزة عن حبسنا بعد اليوم فى تخومها ٣٦٥

وغدت هذه الهوة الظلماء التى يتعذر اجتيازها

عاجزة عن منعنا من مواصلة اقتفاء خطاك الباهرة الذائعة .
لقد حَقَّقْتَ لنا الحرية ، وكنا رهن المحبس
داخل أبواب الجحيم حتى اليوم ، ومن ثم مكَّنْتَنَا
من اكتساب هذه القوة الشديدة ، ومن تشييد ٣٧٠
هذا الجسر الخارق فوق الهوة الحالكة .
وهكذا أصبح هذا العالم كله مِلْكًا لك ، وفازت قوتك
بما لم تَبْنِه يداك ، وكَسَبَتْ حكمتُك لنا ،
كسبًا مُؤَزَّرًا ، ما ضاع منا فى الحرب ، فاكتمل الثأر
من هزيمتنا فى السماء ؛ ولسوف تحكم هنا مِلكًا مُتَوَّجًا ، ٣٧٥
ولم تكن كذلك هناك ، ولْيَبْسُطْ الظافرُ سلطانَه هناك ،
بحقٍّ نتيجة المعركة ، تاركًا هذا العالم الجديد
مبتعدًا عنه ، إذ أبعده الحكم الذى أصدره ،
وليتقاسمْ منذ الآن معك السلطة المَلَكية
على جميع الأشياء التى تفصل بينها الحدود السماوية ، ٣٨٠
وتفصل مملكته المربعة عن عالمك الدائرى ،
وإلا فليقدمْ على التجربة ليعرف أنك غدوت أشد خطرًا على عرشه .

وأجابها أمير الظلام جذلاً قائلاً :

ابنتى الجميلة ، وأنت يا ولدى وحفيدى معًا ،

لقد قَدَّمْتُما الآن برهانًا ساطعًا على انحداركما من نسل ٣٨٥
إبليس ( وأنا أزهو باسمى الذى يعنى
الخصومة مع ملك السماء الذى هو على كل شىء قدير )
وبرهنتما على جدارتكما بالانتساب إلىّ وكل قاطنى
مملكة الجحيم ، إذ قابلتما نصرى قرب باب الجنة
بقوس نصر جديد هو هذا الجسر ، ٣٩٠
وقابلتما عملى بهذا العمل المجيد فأنشأتما مملكة واحدة
من الجحيم وهذا العالم ، مملكة واحدة ، قارة واحدة ،
يسهل المرور منها وإليها . ومن ثم فعليكما الآن ، أثناء
هبوطى بيسر خلال الظلام على الطريق الذى هيأتماه
إلى قوات حلفائى حتى أحيطهم علمًا ٣٩٥
بهذه النجاحات وأحتفل معهم بها ،
أن تسلكا معًا هذا الطريق ، من بين هذه الأفلاك المتعددة
التى تنتمى كلها إليكما ، حتى تصلا إلى الفردوس فى آخره ،
وبالإقامة فيه والحُكْم ناعمين ، وأن تبسطا على الأرض
سلطانكما وتمارساه ، وفى الهواء أيضًا ، ٤٠٠
وخصوصًا على الإنسان ، الذى أُعْلِنَتْ سيادته على الجميع ،
وأن تتأكدا من استعباده أولاً وأن تُهلكاه آخر الأمر .

إننى أرسلكما بديلين عنى ، وبذلك أنشئ من ينوب عنى
ومن فَوَّضْتُ إليه سلطتى الكاملة ، ومن يتمتع بقوة لا تضارع
صادرةٍ منى ، وهكذا فإن طاقتكما المشتركة أصبحت الآن ٤٠٥
العماد الذى ترتكن إليه سيطرتى على هذا العالم الجديد
الذى أصبح عُرضة للموت من خلال الخطيئة بفضل جهودى .
فإذا انتصرت قوتكما المشتركة باتت الجحيم
لا تخشى أى ضرر ، فاذهبا واعتصما بالقوة .
وفرغ من حديثه آمرًا إياهما بالانصراف ، فأسرعا ٤١٠
يشقان طريقهما خلال بروج السماء الزاخرة ،
ناشريْن سمومهما التى أصابت النجوم فغار ضوؤها للناظرين ،
وأما الكواكب فطمسها عُدْوان كواكب أخرى عليها ، فكان الخسوف الحقيقى
الذى تعرضت له ، وانحدر إبليس فى الطريق المقابل هابطًا
على الجسر إلى باب الجحيم ، وعلى الجانبين ٤١٥
صاح العماء محتجًا على بناء الجسر الذى شقه نصفين ،
وانقضَّ بأمواج زاخرة عارمة على العُمُد التى قام عليها ،
لكن العمد لم تأبه بغضبته ، ومر إبليس من الباب
الذى كان مفتوحًا على مصراعيه ولا أحد يحرسه ،
فوجد كل ما حوله مهجورًا موحشًا ، إذ إن اللّذيْن ٤٢٠
كُلِّفا بالجلوس هناك كانا قد تركا المهمة

وانطلقا إلى العالم العلوى ، وكان الباقون جميعًا

قد انسحبوا إلى الداخل ، حول أسوار

قصر « بانديمونيام » ، المقر الذى يزهو به

« لوسيفر » ، وكان قد أطلق عليه هذا الاسم تشبيها له ٤٢٥

بالنجم الساطع الذى يُقرن به .

كانت الفيالق قائمة بالحراسة هناك ، وأما الكبراء

فقد عقدوا اجتماعًا وهم يتساءلون بقلق عما عساه

قد عاق امبراطورهم فى بعثته ، فذلك

ما أمر به عند رحيله ، فأطاعوا الأمر . ٤٣٠

أرأيت إلى التتار عندما يتراجعون أمام جيش روسيا المعادى

عند مدينة « أستراكان » ، فوق السهول التى تكسوها الثلوج ،

وينهزمون ، أو إلى ملك الفرس عندما يتقهقر أمام قرنىْ

الهلال التركى ، تاركًا الخراب فى جميع الأصقاع خلف

مملكة أرمينيا الكبرى ، أثناء انسحابه ٤٣٥

إلى مدينة « تبريز » أو « قزوين » ، فهكذا كان هؤلاء الذين

طردوا من الجنة أخيرًا ، إذ تركوا أقاصى الجحيم خاوية ،

وقطعوا فراسخ عديدة فى الظلام لتولى الحراسة اليقظة

حول عاصمتهم ، وكانوا يتوقعون الآن

في أى ساعة رجوع رئيسهم المغامر الأكبر من استكشافه ٤٤٠
للعوالم الأجنبية ، وأما هو فقد مر وسطهم دون أن يلحظوه ،
إذ اتخذ صورة مقاتل من عامة الملائكة ،
بل من أدنى الدرجات ، ودخل من باب
تلك القاعة التى تشبه قاعة « پلوتو »، وفى الخفاء
صعد فجلس على عرشه العالى ، الذى كان يمتد تحت ظُلَّةٍ ٤٤٥
من نسيج باذخ الثراء يبرق عند طرفه الأقصى
بما هو فيه من سنى المُلك وسنائه ، وظل هنيهة
جالسًا ينظر ما حوله دون أن يراه أحد ،
ثم نهض فكأنما برزت رأسه الوضاءة من سحابة
وتجلى فى صورة نجم يتلألأ ، أو أشد تلألؤًا ، مكتسيًا ٤٥٠
ما سُمح له به بعد السقوط من بهاءٍ
أو من بقية بهاء ، أو من لمعان زائف ، ودهش الجميع
بذلك الضياء الباهر المفاجئ وتحولت أنظار حشد الجحيم
ووجوههم إليه ، فشاهدوا ما كانوا يتمنون ،
ألا وهو عودة رئيسهم الجبار ، فارتفع دَوِىُّ تصفيقهم ، ٤٥٥
واندفع نحوه كبار المستشارين من أقرانه مسرعين ،
ناهضين من مجالسهم فى الديوان المعتم ، وبفرحة تعدل فرحته ،

تقدموا منه مهنئين ، فأشار بيده

فساد الصمت ، وخاطبهم فشد انتباههم قائلاً :

يا أصحاب العروش والسيادة والإمرة والرفعة والقوة ، ٤٦٠

يا من تملكون هذه الألقاب لا بموجب الحق وحده ،

فبها أناديكم وأعلن لكم الآن أننى رجعت

بنجاح يتجاوز ما كنا نأمله ، حتى أقود مسيرتكم

الظافرة إلى خارج هذه الوهدة الجهنمية

البشعة اللعينة ، منزل الآلام ، ٤٦٥

والجب الذى رمانا فيه المستبد ، إذ لكم أن تمتلكوا غيره الآن ،

وأن تصبحوا أسياداً على عالم رحيب لا يقل عن وطننا السماوى

إلا قليلاً فى منزلته ، ولقد خضت مغامرة شاقة ،

وتعرضت لأخطار كبرى حتى ظفرت به ، وقد يطول بى الحديث

إن قصصت عليكم ما فعلته ، وما عاينته ، ومدى آلام ٤٧٠

إبحارى فى اللُّجج الهيوليّة الشاسعة التى لا حدود لها

لبحر الاختلاط الرهيب ، والتى بنى فوقها الآن

الموتُ والخطيئةُ جسرًا وطريقًا عريضًا عَبَّداه

ليزيد من سرعة انطلاقكم المجيد ، وإن كان علىّ أنا

أن أكدح كدحًا للإبحار وحدى فى الخضم الغريب ، مرغمًا على ركوب ٤٧٥

الهوة العسيرة العصيّة ، غارقًا فى رحم
الليل القديم والعماء الموحش ، وهما اللذان كانا
يخافان على أسرارهما ، فأبديا معارضة ضارية
لرحلتى الغريبة ، بالصياح والجلبة والصراخ ،
محتجّيْن بما قضت به عُلْيا الأقدار ؛ ومن ثم كيف عثرتُ على ٤٨٠
العالم الذى خلق حديثًا ، وهو الذى ترددت الشائعات فى السماء
بقرب خلقه منذ زمن طويل ، وهو نسيج رائع
من الكمال المطلق ، وُضع فيه الإنسان
داخل فردوس ، وأدى نفينا إلى
إسعاده ، ولقد تمكنت بالخداع من إغوائه حتى عصى ٤٨٥
خالقه ، وسوف تزيد دهشتكم عندما تعلمون
أن وسيلتى لم تكن سوى تفاحة ، وعندها غضب الله عليه ،
بل ويجدر بكم أن تضحكوا حين تعلمون أنه أباح
وقوع الإنسان الحبيب إلى قلبه ، بل وهذا العالم كله ،
فريسة للخطيئة والموت ، ومن ثم أباحه لنا ٤٩٠
دون مخاطرة منا أو جهد أو فزع ،
حتى ننطلق فى أرجائه ، ونقيم فيه ، ونسيطر على الإنسان ،
ونسيطر على كل ما ينبغى له السيطرة عليه .

والحق أنه أصدر حكمه علىّ أنا أيضًا ، أو قل إنه

لم يصدر حكمه علىّ بل على الثعبان الأعجم الذى اتّخذْتُ صورته ٤٩٥

حتى أخدع الإنسان ، وأما الحكم الصادر علىّ

فهو العداوة التى سوف يقيمها

بينى وبين الإنسان ، فلسوف أسحق عقبه ،

ولسوف تسحق ذريته رأسى إذا انتبَهَتْ فلم تنخدع بمكرى !

ومن ذا الذى لا يشترى عالـماً بضربةٍ ٥٠٠

أو بما هو أشد وجعًا وإيلامًا ؟ ها أنذا انتهيت من رواية

ما فعلته ، ولم يبق أمامكم أيها الأرباب

إلا أن تنهضوا فتدخلوا الآن النعيم الكامل .

قال ذلك ووقف برهة وهو يتوقع أن يعلو

هتاف الجميع وتصفيقهم المدوّى ٥٠٥

فيملأ أذنه ، ولكن النقيض حدث ، إذ بلغ مسمعه

من كل جانب ، ومن ألسنة لا تعد ولا تحصى ،

فحيحٌ رهيبٌ بشع ، وهو الصوت الذى يشى

باحتقار الجمهور له ، ودُهش وتعجب ، ولكن لم يلبث

أن ازداد دهشة وعجبًا مما بدأ يصيبه هو نفسه ، ٥١٠

إذ تقلص وجهه فتحسّسه فإذا هو نحيل هزيل ،

والتصقت ذراعاه بأضلاعه ، والتَفَّتْ رجلاه
حول بعضهما البعض ، حتى وجد نفسه يتعثر ويسقط
وقد أصبح ثعبانًا شائهًا يسعى على بطنه ،
وحاول المقاومة عبثًا ، إذ إن قوةً أعظمَ ٥١٥
كانت تسيطر عليه وتعاقبه بإكسابه الصورة التى اتخذها فى خطيئته
وفقًا للحكم الصادر عليه ، وحاول أن يتكلم
ولكن الفحيح كان يَرُدُّ على الفحيح من لسان مشقوق
إلى لسان مشقوق ، فلقد تحول الجميع الآن
دون استثناء إلى ثعابين ، لأنهم شاركوا جميعًا ٥٢٠
فى جرمه الجسور ، وكان صوت الفحيح البشع
يدوّى فى أرجاء القاعة التى اكتظت الآن بحشود كثيفة
من الوحوش المركبة من شتى الرؤوس والذيول ،
من العقرب إلى الصِّلّ ، والأفعى الشنعاء ذات الرأسين فى الطرفين ،
والقَرْناء ، وحَنَش الماء السام ، وثعبان البحر الرهيب ، ٥٢٥
وحيّة العطش القاتل (ولم تجتمع مثل هذه الحشود منذ أن
سقطت قطرات دم « ميدوزا » الجرجونة فبللت التربة أو منذ نشأة جزيرة
الثعابين « أوفيوزا ») ولكنه كان لا يزال الأضخم بينها
إذ تحول إلى تنين عظيم ، أكبر من التنين الذى

أَنْبَتَتْهُ الشمس فى وادى الأَصَلاَت من الطين ، ٥٣٠
أَصَلَةٌ عظيمة ، وبدا أنه لا يزال يحتفظ بسلطانه
على سائر أقرانه ، وبدأ الجميع
يقتفون خطاه منطلقين إلى الخلاء فى الميدان الفسيح
حيث كان من تبقى ممن شاركوا فى التمرد والثورة
فهبطوا من الجنة واقفين صفوفًا للحراسة أو للاستعراض ٥٣٥
فرفعوا رؤوسهم وهم يتوقعون أن يشاهدوا
رئيسهم المجيد وهو يخرج من القاعة ظافرًا منصورًا
فإذا بهم يشهدون مشهدًا آخر ، ألا وهو حشد
من الثعابين القبيحة ، فحلّ فى نفوسهم الرعب
والتعاطف المقيت ، فإلى جانب ما رأوا ، ٥٤٠
شعروا بأنهم بدأوا يتغيرون كذلك ، فلقد تدلّت أذرعتهم
وسقطت منها الحراب والدروع ، وسقطوا هم أنفسهم بالسرعة نفسها ،
وتجددت أصوات الفحيح المفزع ، إذ اكتسبوا الشكل المفزع نفسه
كأنما انتقل إليهم بالعدوى ، فتساووا معه فى العقاب
مثلما تساووا فى الجرم . وهكذا فإن ما قصدوا إليه من تصفيق ٥٤٥
تحول إلى فحيح متفجرّ ، وتحول زهو الانتصار إلى عار
يرمون به أنفسهم من أفواههم . وبرزت أشجار

خميلة متاخمة لهم ، نَبَتَتْ مع التحول الذى أصابهم

بمشيئة حكَمِ السماء الأعلى ، وتغليظًا

لعقابهم ، محمّلة بالثمار الجميلة ، مثل الثمار ٥٥٠

التى أَيْنَعَتْ فى الفردوس وكانت الطُّعم الذى أُوقِعَتْ به حواء

فى حبائل المُغوى ، واجتذبهم ذلك المشهد الغريب

وثَبّتَتْ نظرات عيونهم الحريصة عليه ، إذ تخيلوا

أن عديدًا من الأشجار المحرمة ، لا واحدة ،

قد ارتفعت هاماتها لتزيدهم حزنًا أو عارًا ، ٥٥٥

ولكن حلوقهم كانت تكتوى بالعطش الحارق والجوع الضارى

فلم يستطيعوا منع أنفسهم منها ، ولو أنها أُرْسِلَتْ لخداعهم ،

وانطلقوا نحوها وتكدسوا أكوامًا فوق أكوام ، وتسلقوا

الأشجار التى ازدحمت بهم زحامًا يزيد عن كثافة شَعْرِ

الخصلات الجعدة فى رأس « ميجيرا » ، وبشراهة أخذوا يقطفون ٥٦٠

الثمار ذات الشكل الجميل ، وكانت تشبه ثمار الأشجار

القريبة من البحر الميت حيث أضرمت النيران فى « سدوم » .

وكان مذاقها أشد من ملمسها مخاتلةً وأكثر

خداعًا ، فإذا بهم وهم يتصورون أنهم يشبعون

شهيتهم بما لذّ وطاب ، لا يأكلون الثمار ٥٦٥

بل يمضغون ترابًا مُرًّا ، امتعض الذوق منه ومَجَّه ،
فلفظته الأفواه فى بصقات مسموعة ، وأعادوا الكَرَّة مرارًا ،
ثم كبحوا دافع الجوع والعطش ، وتكرر تقزّزهم مرارًا ،
وتَلَوَّتْ الفكوك ألمًا من سوء الطعم وبغضه الشديد
حين امتلأت بالسناج والرماد ، وتكرر وقوعهم ٥٧٠
ضحية الوهم نفسه ، لا كما حدث للإنسان
الذى سقط سقطة واحدة حين انتصروا عليه . وهكذا ابْتُلُوا
ونَحِلوا نحولاً من الجوع والفحيح الطويل المتصل
حتى فقدوا صورتهم ، وقد يُسمح لهم باستعادة صورتهم فيعيدون الكرّة ،
إذ يُؤْمَرُون فى كل عام ، فيما يقال ، بالتعرض ٥٧٥
لذلك الإذلال السنوى فى أيام معدودة معينة ،
لكسر شوكة كبريائهم وفرحتهم بإغواء الإنسان .
ولكن بعض الأساطير المأثورة التى نشروها
بين الوثنيين الذين وقعوا فريسة لهم
تحكى كيف تَوَلَّى الثعبان ، الذى أسموه ٥٨٠
« أوفيون » ، زمام الحكم ، بمشاركة « يورينومى » وهى التى ربما
تكون حواء ذات الجَوْر الواسع النطاق ، فوق
جبل « الأوليمپ» السامق أول الأمر ، ثم طردهما « ساتورنوس »

و« أوپس » ، حتى قبل أن يولد «چوف» فوق جبل « دكتايوس » .

وفي أثناء ذلك كان الزائران الجهنميان قد وصلا إلى الفردوس ٥٨٥

بسرعة فائقة ، وكانت الخطيئة قد زارتها من قبل ، من حيث القوة

ومن حيث الفعل مرة واحدة ، ولكنها تدخل الآن بجسدها

لتقيم فيها وتعتادها ، وكان الموت من خلفها

يقفو أثرها خطوة خطوة ، وإن لم يركب بعد

متن جواده الشاحب ، فخاطبته الخطيئة قائلة : ٥٩٠

يا ابن إبليس الثانى ! أيها الموت الذى يقهر الجميع !

ما رأيك الآن فى مملكتنا ، على ما بذلناه فى اكتسابها

من جَهْد جاهد ، أليس حالنا أفضل

من الجلوس للحراسة دَوْمًا عند عتبة الجحيم المظلمة

دون أسماء ، ودون أن نخيف أحدًا ، وقد كِدْتَ تهلِكُ جوعًا ؟ ٥٩٥

وسرعان ما أجاب، الوحش الذى ولدته الخطيئة قائلاً :

أنا الذى أذوى من الجوع السرمدى ،

وتتساوى فى عينى الجحيم والفردوس والسماء ،

وإن كان مقامى هناك أفضل لكثرة ما ألاقى من وديان ،

وهى ، على وفرتها هنا ، لا يكاد يكون فيها ، على ما يبدو ، ٦٠٠

ما يكفى لملء هذه المعدة ، وهذا الجسد الكبير ذى الجلد الفضفاض .

وأجابت الأم التى واقعها إبليس أبوها قائلة :

عليك إذن بهذه الأعشاب والثمار والأزهار

فاجعلها قوتك أولاً ، واجعل غذاءك بعدها من كل حيوان وسمك وطير ،

وليست بأطعمة ساذجة ، ومن كل شىء - مهما يكن - ٦٠٥

يحصده منجل الزمن ، فازْدَرِدْهُ ازدرادًا لا يُبقى على شىء ،

حتى يتسنى لى أن أَسْكُنَ الإنسان فى ذريته

فأُلوّثَ أفكاره ونظراته وكلماته وأفعاله جميعًا

وأُعِدُّه لك فيمسى آخر فرائسك وألَذَّها طعمًا .

وفرغت من حديثها فانطلق كلاهما فى طريقين منفصلين ٦١٠

إما للدمار أو للتسبب فى فناء

جميع الأنواع واستعدادًا لحلول الدمار

عاجلاً أو آجلاً ، وكان القدير يبصر ذلك

من عرشه المتعالى بين الملائكة

فوجّه حديثه إلى أصحاب تلك المراتب الوضاءة قائلاً : ٦١٥

انظروا مبلغ حماس هذين الكلبين من كلاب الجحيم وهما ينطلقان

لتخريب ذلك العالم وتدميره ، وهو العالم الذى

خلقته بالغ الجمال والخير ، وربما

أبقيته دومًا على تلك الحال ، لولا أن حماقة الإنسان

سمحت بدخول ربات الانتقام المدمرة ، التى تنسب ٦٢٠
الحماقة إلىّ ، شأنها فى ذلك شأن أمير الجحيم
وأتباعه ، لأننى أسمح لهم أن يدخلوا بيسر
وأن يمتلكوا بسهولة ذلك المكان
ذا السمات السماوية ، ولأننى فيما يبدو أغض الطرف عن ذلك
إرضاءً لأعدائى الذين يظهرون الازدراء ٦٢٥
ويضحكون كأنما ينتشون بنوبة ما من نوبات
الانفعال ظانين أننى قد تنازلت عن كل شىء ،
واستسلمت ، دون تدبير وإحكام ، لفساد حكمهم ،
وهم لا يدركون أننى استدعيتهم ودفعتهم إلى ذلك المكان
وهم كلاب جحيمى لِيَلْعَقُوا الحُثالة والأوساخ ٦٣٠
التى جَلَبَتْها خطيئةُ الإنسان فَلَوَّثَتْ بها وَوَصَمَتْ
ما كان طاهرًا نقيًا ، حتى إذا امتلأوا فأُتخموا حتى كادوا ينفجرون
بالنُّفايات التى يَسْتَشِفُّونها ويلتهمونها ، جاءت ضربة المقلاع
من الذراع الظافرة لكلمتى الرَّضِيَّة ، ضربة واحدة تطيح
بالخطيئة والموت معًا وبالقبر المفتوح ٦٣٥
الإطاحة الأخيرة عبر العماء فتسد فم الجحيم
إلى الأبد ، وتختم على فكيه النهمين .

وعندها تتجدد السماء والأرض وتتطهران طهراً
قدسيًا لا يقبل التلوث بشائبة من الشوائب :
وريثما يكون ذلك فإن اللعنة الصادرة عليهما تظل قائمة . ٦٤٠
وانتهى من حديثه فإذا بالملأ الأعلى يُنشدون عاليًا
أناشيد التسبيح فى هدير كأنه هدير البحار
وسط الجماهير الكثيرة التى أنشدت : ما أعدل أحكامك ،
وأوامرُك حقٌ على جميع ما خَلَقْتَ ، من ذا الذى
يستطيع أن ينتقص من قدرك ؟ ثم سبَّحوا بعد ذلك لكلمة الله ٦٤٥
التى قُدّر لها أن تعيد الإنسان إلى النعيم ، وأن ترفع
السماء والأرض الجديدتين إلى زمن الهناء ،
أو تنزل بهما من السماء إلى الأرض . وانتهوا من الإنشاد
وكان الخالق يستدعى وينادى بالأسماء
ملائكته الجبارة ويكلّف كلا منهم بمهمة محددة ٦٥٠
كأفضل ما يناسب الأحوال الراهنة . أما الشمس
فقد قَدَّرَ أَوّلاً لها أن تتحرك وأن تسطع
فتحدث فى الأرض من البرد والحر
ما لا يكاد يحتمل ، وأن يَستدعىَ من الشَّمالِ
الشتاءَ الهرمَ ، وأن يأتى من الجنوب ٦٥٥

بحرارة الصيف فى أَوْجِه . وحدد الملائكةُ للقمر الشاحب
مهمته المنوطة به ، وللكواكب الخمسة الأخرى
حركاتها والوجوه التى تظهر بها عند ميل مداراتها
بزوايا حادة أو قائمة أو منفرجة وعند تضادها
وفعالية تأثيرها الضار ، ومتى يرتبط بعضها بالبعض ٦٦٠
ارتباط السوء ، وعُلِّمَتْ النجوم الثابتة
متى تمطر آثارها الخبيثة ،
وأى منها - سواء ما يُشرق مع الشمس أو ما يغرب معها -
يُستدلّ منه على هبوب الأعاصير ، وحُدِّدتْ للرياح
أركانُها ، ومواقيتُ هبوبها لتخلط العناصر وتمزج ٦٦٥
البحر والهواء واليابسة ، وللرعد متى ينطلق مزمجرا
بالرعب فى القبة الهوائية المدلهمّة .
ويقول البعض إنه طلب من ملائكته أن يُميلوا
محور قطبى الأرض أكثر من عشرين درجة
عن مدار الشمس ، فبذلوا جهدهم فى دفعها ٦٧٠
حتى مال محورها ، ويقول البعض إن الشمس
قد أُمرت أن تنحرف فى سيرها عن طريق خط الاستواء
بهذه الدرجات نفسها ، نحو برج الثور حيث الشقيقات السبع ، بنات

« أطلس » فى الثريا ، وحيث التوأمان « الإسبرطيان » فى الجوزاء
حتى مدار السرطان ، وأن تهبط مسرعة مارّة ٦٧٥
ببرج الأسد وبرج العذراء وبرج الميزان
وجنوبًا حتى مدار الجدى ، حتى تحقق تغيير
الفصول فى كل إقليم ، ولولا ذلك لكان الربيع
الدائم قد استمر تَبَسُّمه على الأرض بزهوره الزاهية
وتساوى النهار والليل طولاً ، إلا لمن يعيشون ٦٨٠
وراء الدائرتين القطبيتين ، فلديهم النهار
ساطعًا دون ليل ، والشمس المنخفضة انخفاضًا
يكافئ بُعدها ، تبدو لناظريهم كأنما
تدور دائمًا حول الأفق ، فلا يُعرف
شرق أو غرب ، ولامتنع سقوط الثلج ٦٨٥
فى « استوتيلاند » الباردة ، وفى الجنوب حتى الأصقاع
التى تحت منطقة « ماجلان » . وعندما ذاق الإنسان تلك الثمرة
اشمأزت الشمس وتقززت تقززها من مائدة « ثايستيس » ، فانحرفت
عن مسارها المرسوم ، وإلاّ فكيف تأتى للعالم
المعمور ، قبل أن يقع فى الخطيئة ، أن يتمتع بقدرة أكبر على ٦٩٠
تجنب البرد القارس والحرارة الحارقة ؟

وأدت هذه التغييرات فى السماء ، على بطئها ، إلى إحداث
تغيير مماثل فى البر والبحر ، وتأثير النجوم
والأبخرة والضباب والنفثات الحارة الحاملة
للفساد والطاعون ، وهكذا انطلقت الرياح الآن من شمالىّ ٦٩٥
« نُورَمْبيجا » فى كندا ، وشاطئ « ساموديا » فى سيبيريا ،
فحطمت محبسها النحاسى ، وتسلحت بالجليد
والثلج والبَرَد والعواصف والأعاصير المفاجئة ،
من الشمال والشرق والغرب عالية مدمدمة ،
وجعلت ريحُ الشمال الغربية تمزق الغابات وتقلب البحار قلبا ! ٧٠٠
كما كانت الرياح المعاكسة لها من الجنوب تقلبها أيضًا
مثل الهَبوب والسَّموم السوداء بسحابها الراعد
من « سيراليون » ، وفى مواجهتها هبت الريح ضارية
مسرعة من الشام ، والرياح الغاربة مثل
ريح الجنوب الشرقى ، والريح الغربية ، وصخب اصطدام هذه بتلك ، ٧٠٥
والجنوبية الشرقية بالجنوبية الغربية ، وهكذا بدأت
الغضبة العارمة من أشياء لا حياة فيها ، ولكن الشقاق ، أول
مولود للخطيئة ، بدأ يتسرّب الآن إلى الكائنات غير العاقلة ،
إذ دفع به الموت فى صورة البغضاء الضارية فيما بينها ،

فشرعت الحيوانات يقاتل بعضها بعضًا ، والطيور ٧١٠
والأسماك ، وتركت العشب الذى ينبغى أن تقتات به ،
وأخذ بعضها يلتهم البعض الآخر ، ولم تعد تخامرها الرهبة
من الإنسان ، بل باتت تفرّ منه أو ترمقه بوجوه جهمة
وتحدق فيه أثناء مرورها ، وكانت تلك ظواهر
للأشجان المتزايدة ، وكان آدم قد شهد ٧١٥
بعضها من قبل ، على اختفائه فى أعتم الظلال ،
نهبًا للحزن ، وإن كان يكابد فى أعماقه ما هو أسوأ ،
تتلاعب به أمواج بحر هائج من الآلام ،
ومن ثم أراد تخفيف أثقاله بالبث والشكوى الحزينة قائلاً :
يا شقيًا كان سعيدًا ! هل هذه نهاية ٧٢٠
ذلك العالم الجديد المجيد ، ونهايتى ، وأنا من كنت منذ هينهة
مجد ذلك المجيد ، وأصبحت الآن
ملعونًا بعد أن كنت مباركًا ؟ دعنى أحتجب عن وجه الله ،
وهو من كانت رؤيته تمثل لى آنذاك أَوْجَ
السعادة ! قد أتحمل ذلك لو كانت هذه نهاية ٧٢٥
الشقاء ، فهو جزاء وفاق لى ، وعلىّ أن أتحمل
كل ما أستحقه ، ولكن الأمر لن يتوقف عندى ،

فكل ما آكله أو أشربه ، وكل من سأنجبه ،
يعنى تكاثر اللعنة . يا صوتًا سمعته وأنا فرح
مبتهج ذات يوم يهتف بى أَنْجبْ وتكاثرْ ! ٧٣٠
إننى أسمع الآن الموت ! إذ ما عساه أن يتكاثر
وما عساى أن أنجب إلا اللعنات على رأسى ؟
ومن ذا الذى يخلفنى فى العصور المقبلة ويدرك
الشر الذى جلبته له إلا ويصب اللعنة على
رأسى قائلاً « لقد أساء صنعًا سلفنا العاصى ٧٣٥
ولذلك فلنا أن نشكر آدم ! » وهو الشكر
الذى يفصح عن الكراهية ، وهكذا فإلى جانب
لعناتى التى لن تفارقنى ، فإن كل ما يخرج منى سوف
يرتدُّ إلىّ فتنقض اللعنات انقضاضًا ضاريا علىّ ،
علىّ أنا ، مركزها الطبيعى ، وإن خفّ وقعها فى المركز ٧٤٠
وثقل حيثما تكون . يا للحظات الهناء التى مرت سراعًا
فى الفردوس ! لقد اشتريتك بثمن باهظ . . بالأحزان المقيمة !
هل طلبت منك يا صانعى أن تأخذَ صلصالى
فتصوغَنى إنسانًا ، وهل رجوتُك أن تُخرجَنى
من الظلمات فتُعْلِىَ قَدْرى أو تَضَعَنى هنا ٧٤٥

فى هذه الجنة ذات الملاذّ ؟ ولما كانت إرادتى
لم توافق على وجودى ، فمن الحق
والعدل أن تُرجِعَنى إلى ترابى الأول
فأنا راغب فى الاستسلام ، وفى إعادة
كل ما تَلَقّيْتُه ، بسبب عجزى عن تلبية ٧٥٠
شروطك البالغة القسوة ، والتى كانت ترمى إلى أن أنال
من الخير ما لم أَسْعَ إليه ، ولقد نالنى لقاء فقدانه
ما يكفى من العقاب ، لكن لماذا أَضَفْتَ
إليها مكابدة أحزان سرمدية ؟ من المحال تفسير
عدالتك فيما يبدو ، وإن كانت قد جاءت حقا بعد فوات الوقت ٧٥٥
ولذلك أطعنُ فيها ، وكان لى أن أرفض
تلك الشروط مهما تكن عند عرضها أول الأمر .
ولكنك يا آدم قبلتَها ، فهل تستمتع بالخير
ثم تهاجم الشروط ؟ ومع أن الله
قد صنعك دون استئذانك ، فلنفرض أن ابنك ٧٦٠
عصاك فقرّعته على عصيانه فرد عليك قائلاً
« لماذا أنجبتنى ؟ إننى لم أَسْعَ لذلك »
فهل تقبل ردًا على احتقاره لك

ذلك العُذْر الذى ينمُّ عن الكِبْر ؟ ومع ذلك فإنك ٧٦٥

لم تنجبْه باختيارك بل بالحتمية الطبيعية .

لقد صنعك الله باختياره مِلْكًا له ، ومن حقه

أن تعبده ، وثوابُك كان من فضله ورحمته ،

ومن ثم فإن عقابك يكون بالعدل وَفْقَ مشيئته .

فليكن يا ربى ذلك ، وعلىّ أن أعترف بأن الحُكْم عليه منصف ،

وبأننى تراب ، وأننى سأعود إلى التراب ، ٧٧٠

فمرحبا بتلك الساعة مهما يكن موعدها ! فلماذا تتأخر

يده عن تنفيذ الحكم الذى

حدده فى هذا اليوم ؟ لماذا يتجاوز عمرى الموعد المضروب له ،

والموت يسخر منى ويضحك ، وتطول حياتى

فتمسى ألمًا دون موت ؟ لكم يُسعدنى أن ألْقى ٧٧٥

الفناء الذى حُكم به علىّ ، فأتحولَ إلى ترابٍ

لا يحس ولا يدرك ، وكم يسعدنى أن أرقد

كأنما أغفو فى حجر أمى ! هنالك أستريح

وأنام آمنًا ، ويتوقف صوته الرهيب

عن الهدير فى أذنىّ ، دون خوف مما هو أوخم ٧٨٠

لى ولذريتى ، يقض مضجعى ويعذبنى

بقسوة التوقع . ومع ذلك فإن أحد الشكوك

لا يزال يطاردنى ، خشية ألا يصيب الموت كيانى كله

وأن تكون نفثةُ الحياة النقية ، وهى روح الإنسان

التى نفخها الله فيه ، باقيةً من المحال أن تفنى ٧٨٥

مع هذه المضغة من صلصال الجسد ، وحين أُوارى فى القبر

أو فى أى مكان رهيب آخر ، فمن يدرى

فلعلّنى أموت موتًا حيًّا ؟ يا لها من فكرة

بشعة إن صَدَقَتْ ! ولكن لماذا الشك ؟ إن نفثة

الحياة وحدها هى التى أخطأت ، وهل يموت إلا ما كانت له حياة ٧٩٠

وارتكب خطيئة ما ؟ والجسد فى ذاته لا يحقق أيا من هذين الشرطين

وإذن فإن كيانى كله سوف يموت ، ولأبعد عنىّ شبح

هذا الشك ، فعلم الإنسان يعجز عن إدراك ما هو أبعد .

ومع أن رب الجميع وكلٍّ شىءٍ لانهائىٌّ

فهل غضبه كذلك أيضًا ؟ فليكن ، ليس الإنسان كذلك ٧٩٥

بل محكوم عليه بالفناء . فكيف ينزل الله

غضبًا لانهائيا بالإنسان الذى لابد أن يفنيه الموت ؟

هل يستطيع أن يخلق موتًا لا يموت ؟ إن ذلك يعنى الوقوع

فى تناقض غريب ، وهو ما يعتبره الله نفسه

من المحال ، فهو دليل على ٨٠٠
الضعف لا القوة . أم تراه سوف يطيل أمد
المحدد الفانى ، غضبًا ، فيجعله أبديًا
فى الإنسان الذى يتلقى العقاب ، إرضاءً لصرامته
التى لا ترضى أبدًا ، وذلك من شأنه توسيع نطاق
عقوبته حتى يتجاوز التراب وقانون الطبيعة ٨٠٥
الذى يقضى بأن يجرى عمل جميع الأسباب
وَفْقًا لطبيعة المادة التى تؤثر فيها هذه الأسباب
لا وَفْقًا لطبيعة هذه الأسباب نفسها . ولكن فلنقل
إن الموت لن يجئ ضربةً واحدة ، كما كنت أفترض ،
فيسلب الحس والإدراك ، بل فى صورة شقاء لا ينتهى ٨١٠
من هذا اليوم إلى الأبد ، وهو ما أشعر أنه بدأ
فى باطنى وفى ظاهرى ، وسوف يظل
سرمديًا ! واهًا لى ، والخوف
يعود إلىّ راعدًا منذرًا بانقلاب رهيب
على رأسى العزلاء ، فأنا والموت ٨١٥
أصبحنا خالدين ، وكلانا جسد واحد ،
بل ولست فى ذاتى فردًا واحدًا ، ففى شخصى يتحمل

الخَلْفُ كلهم اللعنة ، فما أَحْسَنَهُ من تراث
سأخلفه ولا شك لكم يا أبنائى ! ليتنى كنت قادرًا
على إهلاكه كله بنفسى ، فلا أترك لكم شيئًا ! ٨٢٠
فإذا حُرمتم من الميراث فكم من البركات سوف أنال منكم
وأنا الذى أمثّل لعنتكم الآن ! عجبًا ! لماذا يكتب على البشر كلهم
أن يدانوا بجريرة رجل واحد دون ذنب
إذا كانوا أبرياء ؟ ولكن من عساى أن أنجب
إلا الفاسدين الذين انحطت عقولهم وإرادتهم ٨٢٥
لا فى ما يفعلون فقط ، بل أيضًا فى إرادتهم فعل ما فعلته
نفسه ؟ كيف يستطيعون إذن تبرئة أنفسهم
فى نظر الله ؟ إننى أجدنى بعد كل هذه الحجج المتصارعة
مرغمًا على تبرئته ، وجميع مراوغاتى لا طائل تحتها
وجميع أدلتى المنطقية ، وإن سلكت دروبًا ملتوية ، تؤدى بى دائمًا ٨٣٠
إلى إدانة نفسى ، أى إلى ذاتى أولاً وأخيرًا ،
وإلى ذاتى وحدها ، فهى المصدر والمنبع
للفساد كله ، ويقع الذنب كله علىّ بالحق ،
فليت غضبة الله تقتصر علىّ ! أمنية جوفاء ! هل تستطيع أن تَحْمِلَ
ذلك العبء الذى هو أثقل من الأرض وزنًا ، ٨٣٥

بل أثقل كثيرًا من الكون كله ، حتى وهو مُقَسَّمٌ بينى
وبين تلك المرأة الطالحة ؟ وهكذا فإن ما ترغب فيه
وما تخشاه يتساويان فى تدمير كل أمل
فى النجاة ، وينتهيان إلى أنك شقى
لا مثيل لشقائه فى الماضى والمستقبل ، ٨٤٠
ولا شبيه لك إلا إبليس فى الجرم والعقوبة .
يا أيها الضمير ! فى أى هوة عميقة من المخاوف
وضروب الذعر أَلْقَيْتَ بى ، حيث لا أجد منها
مخرجًا ، بل أغوص فيها من غور إلى غور أعمق !
وانتهى آدم من بكائه على حاله وحده بصوت مرتفع ٨٤٥
فى الليل الساجى الذى تغيّر الآن منذ سقوط الإنسان ،
فبعد أن كان مبعث صحة وذا برد رقيق لطيف ، أمسى الهواء الأسود
يصحبه ، وألوان الرطوبة والظلمة المدلهمة الرهيبة ،
وكان يمثل لضميره المذنب
جميع الأشياء فى صور من الرعب المضاعف . كان على الأرض ٨٥٠
ممددًا حيث استلقى ، على الأرض الباردة ، ومثلما أَكْثَرَ
من صبّ اللعنات على خَلْقه ، أَكْثَرَ من اتهام الموت
بالتأخر فى الوصول ، منذ الإعلان به

يوم ارتكاب جريرته . وقال لماذا لا يأتى الموت ،

فيضربنى ضربة واحدة أتلقاها بترحيب ضوعف ثلاثًا ٨٥٥

ليضع نهاية لى ؟ ألن تفى الحقيقة بوعدها ؟

ألن تسرع العدالة الإلهية بإمضاء عدلها ؟

ولكن الموت لا يأتى عند طلبه ، والعدالة الإلهية

لا تغيّر من مسيرها البطئ بالصلوات والدعوات .

أيتها الغابات ، أيتها الينابيع والتلال والوديان والخمائل ٨٦٠

كنت أعلّم ظلالك أن تجيبنى بأصداء أخرى منذ عهد قريب

وأن ترد علىّ بأناشيد تختلف اختلافًا شاسعًا !

وعندما شاهدته حواء الحزينة وهو فى ذلك العذاب ،

وقد غلبها الاكتئاب حيث جلست ، نهضت فاقتربت منه

وحاولت تخفيف آلامه الضارية بكلمات عذبة ٨٦٥

ولكنه حدجها بنظرة صارمة وصدّها قائلاً :

اغربى عن ناظرى أيتها الحية ، فهو أفضل اسم

يناسبك بعد ارتباطك بها ، فأنت زائفة مثلها

وكريهة مثلها ، ولا ينقصك شىء منها ، إلا أن يصبح شكلك

مثل شكلها ، وأن تتخذى من الألوان الثعبانية ما يفصح ٨٧٠

مثلها عن المكر الباطن ، لتحذير جميع المخلوقات منك

منذ الآن ، حتى لا تقع فى حبائل صورتك السماوية ، الواجهة
التى تخفى زيفك الجهنمى ! ولولاك
لاستمرت سعادتى ! لولا أنك رفضت - بكبريائك
وضلال غرورك - تحذيرى لك فى أقل الأوقات أمنًا ٨٧٥
وأمانًا ، وازدريت بإصرار
ألاّ يوثق بك ، واشتقت إلى أن تشاهدك العيون ،
ولو كانت عينى الشيطان نفسه ، الذى جاء بالتيه والخيلاء
حتى يحقق مأربه ، لكنك عندما قابلت الثعبان
خُدِعْتِ وغُرّرَ بك ، فأغواك هو ، وأغويتنى أنت ، ٨٨٠
إذ أوليتُ ثقتى من خُلِقَتْ من ضلع فى جانبى ، وتصورتها حكيمة
مخلصة ، ناضجة ، حصينة تمتنع على أى اعتداء ،
ولم أدرك أن ذلك كله كان مظهرًا فحسب
لا صفات راسخة ، وأنه لم يكن سوى ضلع
ملتوٍ بطبيعته ، مُنْحَنٍ منحرف ، وهو ما يتجلّى الآن ، ٨٨٥
وقد انتُزِع من الجانب الأيسر الخبيث منى ،
ويَحْسُنُ التخلص منه ، فهو زائد عن الحاجة
وزائد عن عدد أضلاعى الصحيحة . ترى لماذا أقدم الله -
ذلك الخالق الحكيم الذى عَمَرَ السماء العليا

بأرواح من الذكور - على أن يخلق آخر الأمر ٨٩٠
هذه البدعة على الأرض ، هذه العورة الجميلة
من عورات الطبيعة ، ولم يملأ العالم فورًا
برجال كالملائكة ليس فيهم إناث
أو يجد أى سبيل آخر لتوالد
الجنس البشرى ؟ لو فعل لما وقع هذا الشر ٨٩٥
ولما وقعت شرور أخرى مقبلة ، وما لا حصر له
من القلاقل على الأرض بسبب فخاخ الأنثى
والارتباط الضيق بهذا الجنس . فإما أن الرجل
لا يفلح أبدًا فى العثور على زوجة مناسبة ، فيتزوج
من يأتى بها إليه الحظ السيئ أو الخطأ ، ٩٠٠
وإما أنه لا يوفق فى الفوز بمن يتمناها ، إلا فيما ندر ،
بسبب عنادها ، ثم يراها وقد فاز بها
من هو أدنى منه كثيرًا ، وإما أنها تحبه فيحجبها
والداها عنه ، وإما أنه لا يصادف أنسب اختيار له
إلا بعد فوات الوقت ، وقد ارتبطت بغيره وتزوجت ٩٠٥
خصمًا لدودًا ، فيكون ذلك مبعث كراهية أو عار ،
وسببًا فى وقوع كارثة لا حدود لها

فى الأرواح البشرية ، وبلاءً يذهب بالسكينة العائلية .

ولم يَزِدْ آدم ، بل أشاح بوجهه عنها ، ولكن حواء

لم يُثْنِها ذلك ولم تَنْثَنِ ، ودموعها تنساب دون توقف ، 910

وخصلاتها اختلطت وانتثرت ، فألقت بنفسها على قدميه

فى استكانة واحتضنتهما ، وهى تَنْشُدُ

إرضاءه ، ثم شرعت تبثه شكواها قائلة :

لا تتخلَّ عنى هكذا يا آدم ، ولتشهد السماء على

مدى الحب المخلص والإجلال الذى أحمله فى قلبى 915

لك ، ولقد أخطأتُ عن غير قصد ،

بعد أن خُدعْتُ خداعًا مؤسفًا ، إننى أتضرع إليك

راجيةً محتضنةً ركبتيك ألاّ تُثْكِلَنِى

يا من أحيا به ، فنظراتك الرقيقة ومعونتك

ومشورتك فى هذه الشّدة القصوى 920

هى قوتى الوحيدة وعمادى الأوحد ، فإذا هجرتنى

فأين عساى أذهب ، وأين أحيا ؟

وما دمنا لا نزال فى قيد الحياة ، فَلْيَسُدْ السلم بيننا

إلا من سويعة إذا اقتضى الأمر ، ولنتكاتف

وقد جمعت بيننا الضرّاء ، ونوجّه عداوتنا الواحدة 925

إلى من جعله الحُكْم الصريح عدواً لنا

ألا وهو الثعبان القاسى . لا تُوَجِّهْ إذن إلىّ

بُغْضَكَ بسبب هذا الشقاء الذى وقع ،

لا توجهه إلىّ بعد أن حلّ بى الضياع ، وأصبحت

أكثر شقاءً منك ، ولقد أخطأ كلانا ، ولكنك ٩٣٠

أخطأتَ فى حق الله فقط ، وأنا أخطأتُ فى حق الله وحقك ،

وسوف أعود إلى ساحة الحُكْم ،

حيث أتضرع إلى السماء وألح باكية راجية أن تُرفعَ

العقوبةُ كلها من على رأسك وتُحوّلَ

إلىّ أنا ، إذ تسببتُ وحدى فى كل ما حَلَّ بك من أحزان ، ٩٣٥

أنا ، وأنا وحدى ، من ينصبّ عليه بالحق غضبه .

وأنهت حديثها باكية ، معربة عن بَلِيّتِها باستكانة ،

لا تبرح حتى يعود الوئام بعد الإقرار بالخطأ

والندم عليه ، فأثارت فى نفس آدم

تعاطفًا وشفقة ، إذ سرعان ما لان قلبه ٩٤٠

لها ، وهى التى كانت منذ قليل حياته وبهجته الوحيدة

وغدت تقعى عند قدميه خاضعة حزينة ،

مخلوقة بالغة الحُسْنِ ترجو الصلح معه ،

بعد أن أغضبته بتجاهل مشورته ومعونته ،
فكان كمن جُرِّد من سلاحه ، إذ انفثأ غضبه وزال ، ٩٤٥
وسرعان ما أعانها على النهوض بكلمات هادئة قائلاً :
كيف تَغْفُلين ، بجرفك الحرص البالغ ، فى الماضى
والحاضر ، على ولوج ما تجهلين ، إذ ترغبين أن تقع
العقوبة كلها عليك أنت ، ولكن ، واأسفاه !
ليتك تقدرين على احتمال عقوبتك أنت أولاً ، فلسوف تَتَهَاوَيْنَ ٩٥٠
تحت أثقال غضبته الكاملة ، ولا تُحسّين الآن إلا أهونَها ،
بل إنك لا تتحملين وطأة استيائى . وإذا كانت الصلوات
قادرة على تغيير الأوامر العليا فسوف أُهرع إلى ذلك المكان
فأسبقك إليه ، وأتضرع بصوت أعلى
أن يقع على رأسى الذنب كله ، ٩٥٥
وأن يُغفر عن ضعفك وجنسك الواهن ،
فأتحمل الوزر وأقبل انتقاله إلىّ .
لكن انهضى ، ولنقلع عن مُحاجّتنا ، أو اتهام
بعضنا البعض ، إذ نواجه تُهَمًا كافية فى مكان آخر ، ولنحاول
بجهود الحب أن ننظر فى تخفيف ٩٦٠
عبء كل منا فيما نتقاسمه من أحزان ،

ما دام الموت المعلن فى هذا اليوم ، إذا صدقت نظرتى ،
لن يكون مفاجئًا ، بل شَرٌّ بطئُ الخطى
وموت فى يوم طويل ، لزيادة العذاب لنا
ولذريتنا (وما أتعسك من ذرية !) بحق الإنجاب . ٩٦٥

واستعادت حواء شجاعتها فأجابته قائلة :

أعرف يا آدم - بتجربتى الحزينة -
خِفّة كلماتى فى موازينك ،
فلقد ثبت خَطَلُها ،وعاقبتُها العادلة
أثبتت وقوع ما نأسى له ونأسف ، ومع ذلك ٩٧٠
فبعد أن أَعَدْتَنى ، على ما بى من شر ، إلى موقع
قبول جديد من جانبك ، وأملاً منى فى استعادة
حبك ، وهو مصدر الرضى الأوحد لقلبى ،
حية أو ميتة ، فإننى لن أخفى عنك
أية أفكار تشرق فى صدرى المضطرب ٩٧٥
وترمى إلى التخفيف مما نحن فيه من شدائد ،
أو من وقع النهاية ، على مرارتها وأتراحها ، وإن كانت محتملة
نظرًا لما نحن فيه من شرور ، وتقدم خيارًا أيسر .
فإذا كان القلقُ على ذُرّيتنا أَشَدَّ ما يعذّبنا ،

إذ لابد أن يولدوا حاملين حزنًا ما ، وأن يَزْدَرِدَهُم ٩٨٠

الموت آخر الأمر ، وإنه لمن الشقاء

أن يتسبب المرء فى شقاء الآخرين ،

وهم من انجبناهم نحن ، ومن أصلابنا انحدروا

إلى هذا العالم الملعون نسلاً يعروه الحزن ، مدركين أنهم ،

بعد حياة من التعاسة ، لابد أن يُمسوا أخيرًا ٩٨٥

طعامًا لهذا الوحش الكريه ، فإن فى طوقك

أن تمنع الحمل قبل وقوعه ، وتحول دون وجود

نسل غير مبارك ، بعدم إنجابه أصلاً .

لا أطفال لديك الآن ، فلتبق بلا أطفال ،

حتى نخدع الموت بقمع شَرَهِهِ ، ونُرغمه ٩٩٠

أن يكتفى بنا نحن الاثنين فى إشباع نَهَمِ معدته .

أما إذا رأيت مشقة وعُسرًا فى امتناع الزوجين ،

بعد الأحاديث والنظرات وتطارح الحب ،

عن حقوق الحب المشروعة وعناق الأزواج الرقيق ،

وفى أن تذوى الأشواق ألـمًا دون أمل ٩٩٥

أمام محبوب ماثل يذوى كذلك ألمًا

بأشواق مماثلة ، وفى هذا ما فيه من شقاء

وعذاب لا يقلان عن أى شيء نخشاه ،
فدعنا نحرر أنفسنا وذريتنا معًا
مما نخشى علينا وعليهم منه ، ولنعجّل بالنهاية ، 1000
ولنطلب الموت ، فإذا لم نعثر عليه ، قمنا
بأيدينا بالعمل المنوط به ، بأنفسنا لأنفسنا .
لماذا يطول وقوفنا نرتجف تحت وطأة المخاوف ،
التى لا تستبين لنا نهايةٌ إلا الموت ، وفى طوقنا -
مختارين أقصر الطرق الكثيرة للموت - 1005
أن ندمر الدمار بالدمار .

وتوقفت هنا ، أو قل إن اليأس المشبوب
قطع باقى حديثها ، وقد شُغلت أفكارها بالموت
انشغالاً صبَغَ خدَّيها بالشحوب ،
ولكن آدم لم يقتنع بأى شيء فى تلك المشورة 1010
إذ كان ذهنه أشد يقظةً ، عامرًا بآمال أرحب ،
فجهد ونشط فكره وأجاب حواء قائلاً :
يا حواء ! إن احتقارك للحياة واللذة ، فيما يبدو ،
يبرهن على أن بداخلك شيئًا أرفع وأسمى
وأشد امتيازًا مما يحتقره عقلك . 1015

ولكن الانتحار الذى تسعيْن إليه يَدْحَضُ
الامتياز الفكرى فى ذاتك ، ويوحى ضمنًا
لا بالاحتقار من جانبك ، بل بالأسى والندم
على فقدان الحياة واللّذّة اللّذيْن زاد حبهما عن الحد .
وأما إذا اشتهيت الموت نهايةً قصوى ١٠٢٠
للشقاء ، وتصورت بذلك أنك تتحاشين
العقوبة الصادرة ، فثقى بأن الله قد زود
غضبة انتقامه بالأسلحة التى أحكم اختيارها
حتى لا يفلح تفاديها بهذا الأسلوب ، وأخاف أكثر من ذلك
ألا يؤدى اختطافنا للموت هكذا إلى الإعفاء من الألم ١٠٢٥
الذى حُكم علينا بمكابدته ، بل إن مثل هذه الأفعال التى تنم
عن مكابرة ، سوف تدفع ربنا الأعلى إلى
أن يجعل الموت يحيا فينا ، وإذن دعينا نبحث عن
حَلٍّ يحقق المزيد من السلامة لنا ، وأظن
أننى ألمحه الآن ، حين أتذكر وأنتبه إلى ١٠٣٠
أحد بنود الحكم الصادر علينا ، وهو أن ذريتك سوف تسحق
رأس الثعبان ، وهو تعويض طفيف إلا إذا كان
المقصود به ، وهو ما أحدس ، عدونا الأكبر

إبليس ، الذى تمثل بالثعبان حتى يدبّر

ويوقعنا فى هذه الخُدعة ، وسحقُ رأسهِ ١٠٣٥

انتقامٌ حقيقى ، ونحن نضيّع هذه الفرصة علينا

إذا قررنا الانتحار أو عدم إنجاب الأطفال ،

وهو ما تقترحينه ، وهكذا سوف يتمكن عدونا

من الإفلات من عقابه المقدّر له ، ونكون نحن

قد ضاعفنا العقاب على رأسينا بدلاً منه . ١٠٤٠

فلنكفّ إذن عن الحديث عن إزهاق

أرواحنا وتَعَمُّد العُقْم

فذلك يقطع علينا حبل الأمل ، وينحصر مذاقه فى

البغضاء والكبرياء ، والتعجّل والازدراء ،

والتمرد على الله وعلى نَيْره العادل ١٠٤٥

الذى وضعه فى أعناقنا . اذكرى كيف أبدى اللطف

والكرم فى استماعه إلينا والحكم علينا

دون غضب أو سباب ، وكنا نتوقع

الفناء فوراً، وهو ما ظَنَنَّا

أنه المقصود بالموت ذلك اليوم ، وإذا به ١٠٥٠

يقتصر على التنبؤ لك بمكابدة آلام الحمل

وهى سرعان ما تُنسى بعد الوضع ، وتُكَافَأُ بالفرح ،
بثمرة رحمك . وأما لعنتى فهى أن أنحنى
منكبًا على الأرض ، إذ لابد أن أجهد حتى أكسب
خبزى ، وما الضرر فى ذلك ؟ البطالة مصير أسوأ ! ١٠٥٥
عملى سوف يقيم أَوَدى ! وحتى لا يؤدى البَرْدُ
أو الحر إلى إيذائنا ، تدخلت عنايته فى الوقت المناسب
لحمايتنا منهما دون أن نطلب ذلك ، وبيديه
ألبسنا ملابس لا نستحقها ، مُبْدِيًا الشفقة أثناء الحكم .
فإلى أى مدىً أبعدَ يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ١٠٦٠
فيفتحُ أذنيه لنا ويميلُ قلبه للرأفة بنا
فيعلّمنا المزيد عن وسائل اتقاء ما تأتى
به فصول العام القاسية من مطر وجليد وبَرَدٍ وثلوج
وهو ما بدأت السماء الآن ، بوجهها المتقلب ،
تبديه لنا فى هذا الجبل ، والرياح ١٠٦٥
تهب عاتيةً مطيرةً صرصرًا ، فَتُشَتِّتُ الخصلاتِ الرشيقةَ
لهذه الشجرات الجميلة الظليلة ، وهو ما يقتضى منا أن نَنْشُدَ
دثَارًا أفضل ودفئًا أقدر على صون
أطرافنا التى أصابها الخَدَر قبل أن يأفل نجم النهار

تاركًا الليل للزمهرير ، فنرى كيف نجمعُ ونركزُ أشعته ١٠٧٠
بعدسة محدّبة على بعض المواد الجافة فتشتعل ،
أو نقدح الزند باصطكاك جسمين واحتكاكهما
فَيَنْطَقُّ فى الهواء الشرار ، كما رأينا السحب منذ قليل
تصطرع أو تدفعها الريح الجائحة فتصطدم
وتوقد البرق فى خطوط مائلة ، فيُنزل ألسنة نيرانه المتقاطعة ١٠٧٥
فيشعل اللحاء الصمغى فى أشجار السرو أو الصنوبر
ويرسل حرارة لطيفة من بعيد ،
وقد نستعيض بهذا اللهيب عن حرارة الشمس ، ونستعمل تلك النار
وسواها مما يصلح للتغلب على آثار
الشرور الناجمة من سوء أفعالنا أو الشفاء منها ، ١٠٨٠
ولسوف يعلّمنا إياها حين ندعوه ، ونسأله إياها كرمًا منه ،
متضرعين إليه ، ومن ثم لن نخشى
أن نقضى هذه الحياة فى بحبوحة ، معتمدين عليه
وعلى ما يزودنا به من وسائل الراحة الكثيرة ، حتى ننتهى
إلى التراب ، راحتنا الأخيرة ، وموطننا الأصيل . ١٠٨٥
وخيرُ ما نفعل الآن هو أن نعود إلى المكان
الذى أصدر علينا الحكم فيه فنسجد

أمامه فى إجلال وتعظيم، ونعترف هناك
فى تواضع بأخطائنا ، ونتوسل طالبين المغفرة ، ودموعنا
تروى الثرى ، وآهاتنا فى الهواء صاعدةً ١٠٩٠
تتزاحم ، مُرْسَلَةً من قلبين نادمين ، آيةً
على الحزن الصادق ومَذَلَّةِ المَسْكَنَة .
لا شك أنه سوف يلين ويتحول
عن سخطه ، وهل رأينا فى نظراته الصارمة ،
حتى حين بدا فى أقصى حالات الغضب والقسوة ، ١٠٩٥
إلا الحب والكرم والرحمة ساطعة جلية ؟

وفرغ والدنا التائب من حديثه ، ولم تكن حواء
تشعر بندم أقل ، وعلى الفور عادا
إلى المكان الذى أصدر الحكم عليهما فيه فسجدا
أمامه فى إجلال وتعظيم ، واعترف كلاهما ١١٠٠
فى تواضع بأخطائهما ، وتوسلا طالبين المغفرة ، بدموع
تروى الثرى ، مرسلة من قلبين نادمين ، آية
على الحزن الصادق ومذلة المسكنة .

**نهاية الكتاب العاشر**

# الكتاب الحادى عشر

## الموضوع

يقدم المسيح إلى الله صلوات أبوينا الأوّلين فى أثناء توبتهما ويتشفع لهما ، ويتقبلهما الله ولكنه يعلن أنه لا مناص من خروجهما من الفردوس ، ويرسل ميكائيل مع عصبة من ملائكة الشاروبيم لنزع ملكية الفردوس منهما ، لكنْ ليكشف لآدم أولاً عن الأحداث المقبلة ؛ وصفُ نزول ميكائيل ؛ آدم يُطلع حواء على بعض النُّذر ، ويلمح ميكائيل مقبلاً فيخرج لملاقاته ، ويعلن لها المَلَكُ عن إخراجهما من الفردوس ؛ تندب حواء حالهما ، ويحاول آدم الاستعطاف ثم يستسلم ، يمضى به المَلَكُ صاعداً إلى تل مرتفع ويعرض أمامه رؤيا لما سوف يحدث حتى الطوفان .

وهكذا ظلاّ ساجدَيْن سجود المسكنة والتوبة
فى صلاتهما ، إذ نزلت الرحمة من مقعد الرحمة العلوى ،
وهى الرحمة التى تسبق كل شىء ، فنزعت

من قلبيهما أى تحجر ، وجعلتهما يكتسيان لحمًا جديدًا
تجدّد ونما ، حتى تصاعدت الآن أنّاتٌ ٥
لا يُنطق بها ، تأخذ من روح الصلاة
إلهامها ، وتطير مجنّحة إلى السماء بأسرع مما تصعد
أعلى الخطب صوتًا ، لكنهما لم يكونا فى هيئة
صاحب الظُّلامة الوضيع ، بل ولم تكن دعواتهما
أقل وزنًا من دعوات زوجين من القدماء ١٠
تحدثت عنهما أساطير الأولين ، وهما أقرب إلينا منهما زمنا ،
وهما « ديوكاليون » وزوجته « پيرا » اللّذيْن رفعا الدعاء
بإعادة الجنس البشرى إلى الوجود بعد الغرق ، واقفيْن
فى ضراعة وورع فى معبد « تيميس » . وصعدت صلواتهما
إلى السماء دون أن تضل الطريق بسبب الرياح الحسود ١٥
أو التى تهب شاردة أو معترضة ، ودخلت الدعوات
بلا أبعاد مادية من الأبواب السماوية ، ثم اكتست
بالبَخُور ، وشاع دُخانه فى المذبح الذهبى ،
بالقرب من شفيعهما العظيم ، حتى ظهرت
أمام عرش الله ، وهنا قام المسيح فرحًا ٢٠
بتقديمها ، وبدأ شفاعته قائلاً لله :

انظر أولى الثمار التى خرجت على الأرض
من فضلك الذى غرسته فى الإنسان ، هذه الأنّات
والصلوات ، التى اختلطت فى المبخرة الذهبية
بالبَخور ، ها أنذا كاهنك آتيك بها ، ٢٥
ثمار أطيب رائحةً ، وقد نبتت من بذورك التى
بذرتها مع الندم فى قلبه ، من الثمار التى
زَرَعَتْها يداه فأخْرَجَتْها جميع الأشجار
فى الفردوس ، أو كانت لتخرجها ، قبل أن يسقط من مقعد
البراءة . والآن افتح أذنيك إذن ٣٠
للضراعة ، واستمع إلى أنّاته وإن لم تتكلم ،
إذ لا حذق لديه فى اختيار كلمات الدعاء ، فلأكن أنا
الشارح له والمفسر ، ولأكن أنا شفيعه
وكفارة خطاياه ، واضْمُمْ إلىّ جميع أعماله ،
الحسن منها والسّئ ، ضمًا وثيقًا كتطعيم الفرع بالغصن ، وامتيازى ٣٥
سيرفع الحسنات إلى مصاف الكمال ، وموتى سوف يدفع ثمن السيئات .
تَقَبَّلْنى وتقبّل فى شخصى من هذين
روح السلام تجاه البشرية ، واسمح له أن يعيش
بين يديك فى صُلْح ، فأيامه - على الأقل -

معدودة ، رغم الأحزان ، حتى يأتى الموت وهو الحكم الصادر عليه ٤٠
(وأنا أناشدك اللُّطف فيه لا الرجوع عنه)
فيسلمه إلى حياة أفضل ، حيث يقيم معى
جميع من ذاقوا الخلاص على يَدَىَّ ، فى فرح ونعيم ،
فيتوحّدون معى مثلما أتوحّد أنا وأنت .

ورد الله فى صفَاء ، ودون سحائب فى محياه قائلاً : ٤٥
أُوتيتَ سُؤْلَكَ كُلَّه من أجل الإنسان ، يا كلمتى المقبولة ،
فكل ما طلبتَه كنتُ قد قضيتُ به ،
لكنه لن يستطيع الإقامة فى الفردوس بعد الآن
إذ يحول القانون الذى سَنَنْتُهُ للطبيعة دون ذلك
فالعناصر الخالدة النقية التى لا تعرف ٥٠
الشوائب ، ولا سوء الاختلاط والتنافر ،
تلفظه الآن بعد أن اكتسب ما يشينه ، وتتطهر منه
تطهرها من العكَر ، فهو غليظ يتنفس هواء غليظًا
ويأكل طعام الفناء ، وهو خير ما يجعله رهنًا
للانحلال الذى تسببت الخطيئة فيه ، فكانت أول ٥٥
ما عكّر جميع الأشياء وأتت إلى الصالحين
بالفساد . وكنت وهبت له أولاً هديتين جميلتين

عندما خَلَقْتُه وأنْعَمتُ بهما عليه ، وهما السعادة
والخلود ، فأضاع الأولى بغبائه الساذج ،
ولم تؤد الأخرى إلاّ إلى سرمد أحزان ، ٦٠
حتى أتيتُ بالموت ، فأصبح الموتُ
علاجه الأخير ، والحياة الأخرى التى
يتأهل لها بمكابدة شاقة ؛ وبعد أن يهذبه
الإيمانِ والأعمال التى تُصَدِّقُ الإيمان ، يحيا حياة ثانية
فيُبعث من مرقده يوم نشور الأبرار ٦٥
مسلمًا نفسه للسماء والأرض الجديدتين .
ولكن فلأَدْعُ الآن إلى اجتماع يحضره جميع المباركين
من أقطار السماء الرحيبة ، فلن أخفى عنهم
أحكامى وما أفعله بالإنسان ،
مثلما شاهدوا ما فعلته من قبل بالملائكة الخاطئين ، ٧٠
وهو ما زاد إيمانهم تثبيتًا ، على ثباته الأصيل .

وانتهى من كلامه فأشار المسيح إشارة عليا
إلى المساعد الوضاء القائم بالحراسة ، فنفخ فى
بوقه ، وربما كان قد دوّى صوته فوق جبل حوريب
يوم أن نزل الله لموسى ، وربما سيُنفخ فيه هو نفسه ٧٥

للقيامة فى يوم الحساب . وترددت أصداء بوق المَلَك
فملأت جميع الأصقاع ، فنهض أبناء النور من خمائل النعيم
بظلالها التى لا تذوى أبدا ، ومن الينابيع أو العيون ،
ومن ضفاف نهر الحياة ، حيثما كانوا يجلسون
تربطهم روابط أخوّة من الفرح ، واستجابوا ٨٠
مسرعين ، مُلبيّن أمر استدعائهم السامى
واتخذوا مقاعدهم حتى بدأ القدير من عرشه الأعلى
فى النطق بإرادته ذات السيادة الملكية قائلاً :

يا ملائكتى ! لقد أصبح الإنسان يعرف مثلما
نعرف الخير والشر ، منذ أن تذوق ٨٥
تلك الثمرة المحرمة ، ولكن فلندعْه يفخر
بمعرفته بالخير الذى ضاع وبالشر الذى أتاه ،
وكان بيده أن يزداد سعادة لو اكتفى بمعرفة
الخير وحده ، ولم يعرف الشر إطلاقًا .
وهو يحزن الآن ويندم ويصلى تائبًا . ٩٠
وأعلم أن نوازع الخير التى غرستُها فيه سوف تبقى فى
قلبه ، وأعلم مدى تقلبه وغروره إن
تُرك لشأنه . وهكذا فقد قررت – حتى لا تمتد يده

التى ازدادت جسارة إلى شجرة الحياة أيضًا فيأكل منها
ويعيش إلى الأبد ، أو أن يحلم على الأقل ٩٥
بأن يعيش إلى الأبد ، قررت أن أطرده
وأن أخرجه من الجنة حتى يفلح
الأرض التى أُخذ منها ، فهى تُرْبةٌ أنسبُ له .
يا ميكائيل ، إننى أكلفك بالمهمة التالية :
خذ معك من بين ملائكة الشاروبيم ١٠٠
من تختاره من المقاتلين المتقدين حماسًا ، حتى لا يهب الشيطان ،
سواء لأمر يتعلق بالإنسان ، أو للاستيلاء على
ممتلكات بلا صاحب ، فيثير متاعب جديدة .
أسرع وأَخْرِجْ من فردوس الله
الزوجين الخاطئين ، دون أن تأخذك بهما شفقة ، واطرد ١٠٥
من الأرض المقدسة من عصيا الله ، وأَعْلِنْ
لهما ولذريتهما الحُكْمَ بالنفى منها
نفيًا دائمًا . وحتى لا يخور عزمهما
عند سماع العقوبة المحزنة التى لابد من تنفيذها بصرامة
(إذ إننى أراهما وقد لان قلباهما يذرفان العبرات ١١٠
نَادِبيْن ما فرط منهما) عليك أن تحجب كل ما تحمله من رعب .

فإذا أطاعا أمرك صابريْن
فأخرجهما غير آسف ولا نادم ، واكشف
لآدم عما سيأتى فى الأيام المقبلة
كما سأشرح لك ، ولتمزج بحديثك 115
عهدى ، وهو الذى أجدّده فى ولد العذراء ،
أخرجهما إذن فى سلام ، على ما فى الخروج من أسى .
وأقم على الجانب الشرقى من الجنة ،
حيث يمتد المدخل صاعدًا بيسر من عدن ،
حُرّاسًا من ملائكة الشاروبيم ، وسيفًا ذا لهيب يبرق 120
ويُلَوَّحُ به فى كل اتجاه ، ليرد عن بعد كل من يريد الاقتراب ،
وليحرس كل الدروب المؤدية إلى شجرة الحياة ،
حتى لا تحل فى الفردوس أيَّةُ
أرواح شريرة ، وحتى لا تقع كل أشجارى فريسة لها ،
تسرق منها الثمار لتخدع الإنسان مرة ثانية . 125

وانتهى من حديثه فتأهب الملاك الأكبر ذو السلطان
للنزول مسرعًا ، تصحبه فرقة وضاءة
من الحراس من ملائكة الشاروبيم ، ولكل منهم أربعة أوجه ،
كأنه الإله « يانوس » مضاعفًا ، وكان هيكله

حافلاً بالعيون المتناثرة التى يزيد عددها عن ١٣٠
عيون « أرجوس » ، ويقظتها لا يغلبها النعاس ،
ولو بسحر مزمار « أركاديا » ، القصبة الرعوية
التى ينفخ فيها « هيرميس » ، أو عصاه المخدّرة . وفى أثناء ذلك
صَحَتْ فَحيَّتْ العالم من جديد بالنور القدسى
ربةُ الفجر « ليوكوثيا » ، ونثرت الأنداء النضرة فعطّرت ١٣٥
الأرض ، وكان آدم والأم الأولى حواء
قد انتهيا من صلواتهما ، ووجدا فى أنفسهما
قوة جديدة أَضْفَتْها السماء عليهما ، وأملاً قشيبًا ينبع
من باطن اليأس ، وفرحًا ما ، وإن خالطه الخوف .
وعاد آدم إلى الحديث إلى حواء بكلمات لاقت الترحيب قائلاً : ١٤٠
يا حوّاء ! ما أيسر أن يُقر الإيمان بأن كل
ما نتمتع به من خير ينزل علينا من السماء ،
لكنه قد يبدو من الصعب الاعتقاد بأن يصعد إلى السماء
شىء من قِبلنا فيكون من قوته أن يشغل بال
الله ذى البركات العليا ، أو أن يستميل مشيئته ؛ ١٤٥
وقد يبدو الإيمان بذلك صعبًا ، ولكن الصلاة قادرة عليه ،
بل قد تقدر عليه أنّةٌ قصيرة واحدة من أنفاس الإنسان

تصعد حتى تبلغ عرش الله نفسه . فمنذ أن سعيت

إلى التوسل بالصلاة لإرضاء الإله الغاضب ،

فركعت وأَذْلَلْتُ قلبى كاملاً بين يديه ، 150

وأنا أتصور أننى أراه وقد لان جانبه ، يقبل إرضائى له ،

ويفتح أذنه لكلماتى ، وازداد فى نفسى الاقتناع

بأنه يميل إلى تقبل ما يسمع منى ، فعادت الطمأنينة

إلى مقرها فى صدرى ، وعاد إلى ذاكرتى

ما وعد به قائلاً إن ذريتك سوف تسحق عدونا ، 155

ولم أكن انتبهتُ إلى ذلك وأنا فى غمرة حزنى ، ولكنه الآن

يؤكد لى أن مرارة طعم الموت

قد مضت عنا ، وأننا سوف نحيا . ومن ثم فالسلام عليك

يا حواء ، اسمك الذى يناسبك ، فأنت أم البشر جميعًا ،

حواء أم الأحياء كلهم ، فمن خِلالِك 160

سوف يحيا الإنسان ، وتحيا كل الأشياء من أجل الإنسان .

وأجابته حواء بتواضع ونبرات جِدٍّ قائلة :

ما أبعدنى عن الجدارة بهذا اللقب ،

أنا التى أخطأت ، وبعد أن خلقنى الله لك

ساعدًا وعضدًا ، أصبحت الفخ الذى أُوقِعْتَ فيه ؛ اللومُ إذن 165

هو الجدير بى ، والشكُّ وكل قَدْحٍ أستحقه .

ولكن القاضى الذى أصدر حكمه علىّ كان ذا غفران لا حد له ،

إذ كرّمنى ، وأنا أول من أتى بالموت للجميع ،

بأن جعلنى مصدر الحياة ، وأنزلنى المنزلة التالية لك فى حبه

وأنعم علىّ متفضلاً بهذا اللقب السامى ١٧٠

وأنا الذى استحق اسمًا أبعد ما يكون عنه . ولكن الحقل

يدعونا إلى العمل الآن وبذل العرق المفروض علينا

ولو أننا بِتْنا الليل سهادًا ، إذ انظرْ تَرَ الصباح

لا يشغله شىء من تعبنا ، وقد بدأ

مسيرته الوردية مبتسمًا ، فلننطلق إذن ، ١٧٥

ولن أفارق صحبتك منذ الآن أبدًا ،

مهما يكن مكان عمل يومنا ، وإن كنا قد أُمرنا الآن ببذل

الجهد والعمل حتى يذوى النهار ، وما دمنا نسكن هنا

فما الذى عساه أن يجلب التعب فى هذه المسارات الممتعة ؟

فلنَعِشْ هنا ولو فى منزلة السقوط ، راضيِيْن . ١٨٠

هكذا تكلمت وهكذا تَمَنَّتْ حواء التى ازدادت تواضعًا ، ولكن القدر

لم يشاركها الرأى ، وأبدت الطبيعة أولاً آياتها التى تجلت

فى الطير والحيوان والهواء ، فَخُسِفَتْ الشمسُ وأَظْلَمَ الجُّو فجأة

بعد حمرة الشروق المقتضبة ، وبالقرب منها شاهدت

العُقاب ، طائر « جوبيتر » ، ينقض من تحويمه السامق ١٨٥

ويطارد طائرين ريشهما بهيج الألوان ،

وهبط من التل الحيوان الذى له المُلْكُ فى الغابة ،

وقد أصبح صائدًا لأول مرة ، فطارد زوجًا من الحيوانات اللطيفة ،

أرق وأجمل حيوان الغاب ، ظبيًا وظبية .

وكان الجميع ينطلق مباشرة نحو الباب الشرقى . ١٩٠

ولاحظ آدم ذلك ، وشاهد بعينه الطِّراد

وتابعه ، فأثاره ذلك بعض الشىء فخاطب حواء قائلاً :

يا حواء ! إن تبديلا ما ينتظرنا عن قريب ،

وهو ما يبديه الله بهذه الآيات الصامتة فى الطبيعة

إما نُذُرًا تفصح عن مقصده ، أو تحذيرًا لنا ، ١٩٥

إذ ربما كنا واثقين أكثر مما ينبغى من خلاصنا

من العقوبة ، ما دمنا قد نجونا من الموت أيامًا ،

أما إلى متى ، وأى حياة نحياها حتى يحين الحين ،

فمن يدرى ، بل الأنكى هو أننا من تراب

وإلى التراب لابد أن نعود وأن نفنى . ٢٠٠

وإلا فلماذا نشاهد بأعيننا هذه المزاوجة

فى الطّراد فى الهواء وفوق الأرض

فى اتجاه واحد وفى الساعة نفسها ؟ لماذا حَلَّتْ فى الشرق

الظلمة قبل أن يقطع النهار نصف رحلته ، ولماذا نرى نور الشرق

أشد سطوعًا وتلألؤًا فى تلك السحابة الغربية التى تُلقى ٢٠٥

على السماء الزرقاء ضوءًا براقًا أبيض ،

وتهبط ببطء ، وهى تحمل شيئًا سماويًا .

ولم يخطئ آدم ، إذ كانت الفرق السماوية آنذاك

قد هبطت من سماء بلون حجر اليشب ، وحطّت الآن

فى الفردوس ، وتوقفت فوق أحد التلال ٢١٠

فكان منظرها رائعًا ، لولا أن الشك

والخوف البشرى فى ذلك اليوم أغشيا عين آدم .

كان يزيد فى روعته عن منظر الملائكة الذين قابلوا

يعقوب فى « مَحَنَايمْ » ، حيث رأى

الميدان وقد ضرب حرسه الوضّاء خيامهم فيه . ٢١٥

بل وعن المشهد الذى تجلىّ فوق الجبل الملتهب

فى « دوثان » ، الذى غطاه معسكر النار الذى برز

لملاقاة ملك سوريا حين أراد أن يفاجئ

رجلاً واحدًا فجاء مثل قاتل مغتال وفرض الحرب

دون أن تُعلن الحرب . وأمّا الأمير رفيع الرتبة ٢٢٠
فقد كان يقف فى موقع الحرس الوضاء ، تاركًا قواته
تستولى على الجنّة ، ومن ثم تقدم وحده
للعثور على مخبأ آدم ، ومضى فى طريقه
دون أن تغفل عين آدم عنه ، وهنا خاطب آدم حواء
فى أثناء اقتراب الزائر العظيم منهما قائلاً : ٢٢٥

حواء ! توقعى الآن أنباء عظيمة ، ولربما
كانت الفيصلَ العاجلَ فى أمرنا ، وربما فرضت علينا
قوانين جديدة نلتزم بها ، إذ إننى ألمح
فى تلك السحابة المنيرة التى تحجب التل
أحد أفراد الملأ الأعلى ، وتدل مشيته على أنه ٢٣٠
ليس من الطبقات الدنيا بل من الأكابر العظماء
أو من أصحاب العروش فى السماء ، ما دام مثل هذا الجلال
يكسوه وهو قادم ، ولكنه ليس رهيبًا
فأخافه ، ولا هو لطيف المعشر بشوش
مثل روفائيل ، فأطمئن إليه واثقًا ، ٢٣٥
بل هو رزين رفيع ، ولا أريد أن أغضبه
ولابد أن ألاقيه بالتبجيل ، وعليك أنتِ أن تحتجبى .

وصمت آدم ، وسرعان ما اقترب الملاك الأكبر

لا فى صورته السماوية ، بل فى صورة إنسان

يرتدى ملابس زيارة إنسان ، وفوق ذراعيه الوضيئتين ٢٤٠

سُترة حربية أرجوانية فضفاضة

أبهج من أرجوان « مليبوا » أو زركشة ديباج

مدينة صُور ، وهى التى كان الملوك والأبطال القدماء يلبسونها

فى زمن الهدنة ، وقد نسج السوسن لُحمتها بألوان قُزح ،

وكانت خوذته ذات النجوم البراقة مرفوعة ، فكشفت عن رجل ٢٤٥

فى عنفوان الرجولة وقد تخطى الشباب ، وفى جنبه

السيف يتدلّى كأنما يتدلّى فى دائرة البروج اللألاءة فى السماء ،

وذاك أشد ما يخشاه إبليس ، وفى يده الرمح .

وانحنى آدم لتحيته ، ولكن المَلَك ظل فى وقفته الملكية

فلم يبادله الانحناء بل أعلن عن مرمى زيارته قائلاً : ٢٥٠

آدم ! إن أمر السماء السامى لا يحتاج إلى مقدمات :

بل يكفى أن أقول إن صلواتك مسموعة ، وإن الموت

الذى حُكم به آنذاك عندما ارتكبت الخطأ ،

قد تأجل تنفيذه أيامًا كثيرة

وُهِبَتْ لك عطفًا وكرمًا ، حتى تتوب فيها ٢٥٥

وتعمل الكثير من الأعمال الصالحة التى تستر بها خطيئة واحدة ،
وعندها ربما يرضى ربك عنك حقًا
فيخلصك الخلاص كله من مطالبة الموت النّهم بك ،
أما الإقامة بعد الآن فى هذا الفردوس فهو
لا يسمح بها ، ولقد أتيت لطردك ٢٦٠
وإخراجك من الجنة حتى تَفْلَحَ
الأرض التى أُخذْتَ منها ، فهى تربة أنسب لك .

ولم يزد على ذلك ، إذ إن آدم عند سماع الأنباء
أصاب الهلع فؤاده فتجمد واقفًا فى قبضة الأسى البارد
الذى شل كل حواسه ، وأما حواء التى كانت من مخبئها ٢٦٥
قد سمعت كل شىء ، فقد رفعت صوتها تندب مآلها
وسرعان ما كشفت عن مكان اختبائها قائلة :

يا للضربة غير المتوقعة ، والأسوأ من الموت !
ألا بد لى إذن من مغادرة الفردوس ؟ ألا بد أن أغادرك
يا تربة موطنى وأترك هذه الممرات والظلال الهنيئة ٢٧٠
التى تصلح لسكنى الملائكة ؟ بل وحيث كنت آمل أن أقضى
المهلة التى مُنِحْناها ، فى هدوء ولو كان الحزن يغشاه ،
قبل أن يحين يوم الهلاك لكلينا ؟ أيتها الأزهار

التى لن تنبت أبدًا فى جوّ آخر ،

أول ما أزور فى البكور ، وآخر ما أزور ٢٧٥

فى المساء ، يا من ربَّيْتُها بيَدٍ حنون

منذ تفتّح البرعم الأول ، وسمّيتُك بأسمائك ،

من الذى سوف يرعاك الآن ويهديك للشمس ، أو يحدد مراتب

عشائرك ، ويرويك من نبع الجنة ؟

وأخيرًا أنت يا خميلة زفافى التى زيَّنْتُها ٢٨٠

بكل ما راق منظره وطاب أريجه ، كيف

أفارقك وأنّى تُرانى أضرب فى شعاب

عالم أدنى ، إن قورن بهذا بدا مظلمًا

موحشًا ، وكيف نتنفس فى هواء مختلف

أقل نقاءً ، بعد أن اعتدنا الثمار الخالدة ؟ ٢٨٥

وهنا قاطعها الملاك الرقيق قائلاً :

لا تندبى مآلك يا حواء ، بل احتملى صابرة

ضياع ما ضاع منك بالحق ، ولا يَتَعَلَّقَنَّ قلبك

ذلك التعلقَ المفرط الواله بما ليس لَكِ ؛

فلن تذهبى وحيدة بل سيذهب معك ٢٩٠

زوجك ، وأنت مُلزمة باتباع خطاه ،

وحيثما يسكن قولى إنها تربة موطنك .

وكان آدم آنذاك قد أفاق من ذهوله البارد المفاجئ

وتماثل ، ولَمَّ شتات روحه واستعاد رباطة جأشه

فخاطب ميكائيل بكلمات زانها التواضع قائلاً : ٢٩٥

أيها السماوى ! سواء كنت من أصحاب العروش ، أو كنت

أعلاهم جميعًا ، فمن له صورتك قد يبدو

أميرًا فوق الأمراء ، ولقد تلطّفت فى إخبارنا

برسالتك ، وهى التى لو رُوِيَتْ بأسلوب آخر لجَرَحَتْنا

فجاءت بنهايتنا فى أثناء روايتها ، وهل أتت أنباؤك إلا ٣٠٠

بالحزن والكآبة واليأس ، فى حدود

ما يستطيع ضعفنا أن يتحمله ، أنباء

الرحيل من هذا المكان الهنئ ، مأوانا الجميل

الخبئ ، والعزاء الوحيد الذى لا يزال

مألوفًا لعيوننا ، فسائر الأماكن الأخرى ٣٠٥

موحشة فى نظرنا تنبو بالإنسان ،

فهى تجهلنا ونجهلها معًا ، ولو كان لى - بالصلاة

الدائمة - أن أطمع فى تغيير مشيئة القدير

الذى أحاط بكل شىء علمًا ، لداومت الصلاة

حتى أرهقه بدعواتى الدائبة الجاهدة ، ٣١٠

ولكن قوة الدعاء بتعديل ذلك الحُكْم المطلق الذى أصدره

لا تزيد جدواها عن أنفاس فى مهب الريح

لا تلبث أن تعود خانقةً إلى وجه من زفرها ،

ومن ثم فأنا أستسلم لأمره المعظم .

وأما أشد ما يعذبنى فهو أن الرحيل من هنا ٣١٥

سوف يحجبنى عن وجهه ، فيحرمنى

محياه المبارك ، إذ إن لى أن أتردد فى هذا المكان ،

للعبادة ، على كل بقعة أنعم فيها علينا

بالحضرة الربانية ، فأقص ذلك على أبنائى ، قائلاً

إنه ظهر على هذا الجبل ، وتحت هذه الشجرة ٣٢٠

تجلّى للعيون ، وبين أشجار الصنوبر تلك

سمعت صوته ، وتحادثت معه عند هذا النبع .

ولسوف أقيم هياكل كثيرة لتقديم الحمد والشكر له

من الكلأ والأعشاب ، وأجمع فى كومة كل حجر

يتلألأ من الجدول ، تذكارًا ٣٢٥

أو أثرًا باقيًا على مر العصور ، وأقدم عليه

القرابين من الأصماغ ذات الرائحة العطرة والثمار والأزهار ،

أما فى عالم الدنيا فأين عساى أن أنشد
ظهوره النورانى أو أن أقتفى خطى أقدامه ؟
وإن كنت قد فررت منه فى غضب ، فلقد استدعانى ٣٣٠
إلى حياة أطول وذرية موعودة ، وأصبحت الآن
أسعد برؤية أقل ما ينبئ عنه ولو كانت أقصى أطراف أردان
جلاله ، وأعبد خطو أقدامه على بعدها الشاسع .

ونظر إليه ميكائيل نظرة عطف قائلاً :

آدم ! تعلم أن السماء ملك يمينه والأرض جميعًا . ٣٣٥
لا هذه الصخرة فحسب ، فإن وجوده الشامل يملأ
البر والبحر والجو ، وكل نوع من الأحياء
ينشأ ويجرى فيه دفء الحياة بفضل قوته ،
ولقد أعطاك هذه الأرض كلها لتحوزها وتحكمها
وليست بالعطية الهيّنة ، فلا تظنَّنَّ إذن ٣٤٠
أن حضرته مقصورة على هذه الحدود الضيقة
للفردوس أو عدن ، وربما كانت ستصبح
مقرَّكَ الرئيسى ، الذى تخرج منه وتنتشر
جميع الأجيال ، وربما كانت ستعود إلى هنا
من جميع أطراف الأرض للاحتفال بك ٣٤٥

وتبجيلك أنت ، والدها العظيم ،

ولكنك فقدت هذه الرفعة ، وأُنْزِلْتَ

للإقامة فى الأرض التى سوّاها مع أبنائك ،

لكن لا يخامرنّك شك فى أن الله موجود فى الوديان والسهول

مثلما هو موجودِ هنا ، ولسوف تحس حضرته هناك ٣٥٠

مثلما تحسها هنا ، وسوف تجد الكثير من آيات حضرته

تقفوك دائمًا أينما تكن ، وتحيط بك دائمًا

بالخير والحب الإلهى ، وسترى وجه الله

ناطقًا فى كل شىء ، وترى الأثر الربانى لخطوه .

وهكذا فلتعلم أننى - إتمامًا لإيمانك وتثبيتًا لفؤادك ٣٥٥

قبل أن ترحل من هنا - قد أُرْسِلْتُ

لأطلعك على ما سوف يحدث فى قابل الأيام

لك ولذريّتك ، فَتَوَقَّعْ أن تسمع عن

الخير والشر معًا ، وعن الرحمة الإلهية وهى تنازل

نزوع البشر للخطيئة ، حتى تتعلم من ذلك ٣٦٠

الصبر الحقيقى ، وتلطيف الفرحِ بالخوف

وورع الحزن ، واعتياد تحمل هذا وذاك

بالاعتدال فى كل شىء مهما تكن الحالة ،

يُسرًا أم عسرًا ، وهكذا تحيا حياتك

فى أقصى سلامة ، وأقصى استعداد لتحمُّل آلام ٣٦٥

طريق الهلاك عندما يحين الموعد . اصْعَدْ إذن معى

هذا التلِ ، ولتَدَعْ حواء (بعد أن خَدَّرْتُ عينيها)

نائمة هنا عند السفح أثناء انفتاح بصيرتك على المستقبل

مثلما غفوت ذات يوم أثناء خَلْقها وتصويرها .

وأجابه آدم بامتنان قائلاً : ٣٧٠

اصْعَدْ وسأَتَّبِعُكَ أيها المرشد المأمون فى الطريق الذى

تَدُلّنى عليه ، ولسوف أُسْلِمُ زمامى ليد السماء

مهما يكن تأديبها لى ، وأعرض للشر

صدرى الضعيف ، وقد تسلّحتُ وتدرّعتُ حتى أنتصر

بالمكابدة ، وحتى أكتسب الراحة بالجهد ظافرًا ، ٣٧٥

إن كان لى أن أحقق ذلك . وهكذا صعد الإثنان

فى رؤى الله ، وكان ذلك التل

أعلى تلال الفردوس ، وبدا من قمته

نصف الكرة الأرضية واضحًا كأوضح ما يكون ،

يمتد شاسعًا إلى أبعد مرمى الطرف . ٣٨٠

ولم يكن يُرى ما هوِ أعلى أو أرحب للناظر حول التل

وهو الذى اصطحب المُغوى ، لأسباب أخرى ، إليه
آدمنا الثانى فى البرّية
ليريه جميع ممالك الأرض ومجدها
إذ تستطيع عينُه من ثَمَّ أن تلمح كل ما هو قائم وأنّى يقوم ٣٨٥
من المدن التى ذاع صيتها فى الزمن الغابر أو الحاضر ، مقر
أقوى الامبراطوريات ، من الأسوار التى ستُبنى حول مدينة
« كمبالوك » ، مقر سلطان « قيطان » ،
و« سمرقند » على ضفاف نهر « جيحون » وعرش « تيمورلنك »
إلى « بكين » وملوك الصين ، ومنها ٣٩٠
إلى أجرا و« لاهور » حيث المغولىّ الأكبر
حتى شبه جزيرة « الملايو » الذهبية ، أو حيث
كسرى على إيوانه فى « اكتابان » وبعدها
فى « إصفهان » ، أو حيث قيصر الروسيا
فى موسكو ، أو السلطان فى بيزنطه ، ٣٩٥
الذى ولد فى « تركستان » ، بل ولم يفت عينه أن تلمح
امبراطورية « النجاشى » حتى أقصى موانيها بُعدًا ، وهو
« أركيكو » والملوك الأقل ركوبًا للبحر فى
« مومباسّا » و « كيلوا » و « مالندى »

و« صوفالا » التى يُظن أنها « أوفير » ، حتى مملكة ٤٠٠

« الكونغو » ومن جنوبها « أنجولا »

أو من ثَمّ ، من نهر « النيجر » حتى جبال أطلس ،

وهى ممالك الملك المنصور ، وفاس ، وسوسة ،

والمغرب ، والجزائر ، وتلمسان ،

ومنها إلى أوروبا ، حيث كتب لروما أن تحكم ٤٠٥

العالم ، وربما رأى بروحه أيضًا

بلاد « المكسيك » الغنية ومقر امبراطورية « مونتيزوما »

و« كوسكو » فى « بيرو » ، المقر الأغنى لامبراطورية

« أتاهوالبا » ، ورأى كذلك المملكة التى لم تكن قد نُهبت بعد ،

وهى « غيانا » ، ومدينتها العظيمة « جريون » ، التى يسميها ٤١٠

أبناؤها « إلدورادو » ، ولكن ميكائيل أزال عن عينى

آدم الغشاوة حتى يشاهد مشاهد أشرف وأنبل ،

وهى الغشاوة التى نجمت عن أكل الثمرة الخادعة

بدلاً مما وُعد به من صفاء البصر ، ثم طهّر بنبات السعد ونبات الخُفْت

العصب البصرى ، إذ كُتب له أن يرى مشاهد كثيرة ، ٤١٥

ومن نبع الحياة وضع ثلاث قطرات فى عينيه .

وتغلغلت قوة هذه العناصر تغلغلاً بلغ من عمقه

أن وصل إلى أقصى مقرٍّ باطنٍ للبصيرة

حتى اضْطُرَّ آدم إلى إغلاق عينيه ،

وسقط وقد غَشِيَ الذهولُ كلَّ حواسه ، ٤٢٠

ولكن المَلَك الرقيق مدّ يده إليه

وسرعان ما رفعه وخاطبه ليستعيد انتباهه قائلاً :

آدم ! افتح عينيك الآن ، وانظر أولاً إلى

ما خلفته جريمتك الأولى من آثار

فى بعض الذين سوف ينحدرون من صُلبك ولم يمسوا مطلقًا ٤٢٥

تلك الشجرة المحرمة ، ولا تآمروا مع الثعبان ،

ولا أخطأوا خطيئتك ، لكنهم يستقون من تلك الخطيئة

فسادًا أدى إلى ارتكابهم فعالاً أشد عُنفًا .

وفتح عينيه ، فشاهد حقلاً ،

بعضه انتهى حرثه وإعداده للزراعة ، وفيه حُزَمٌ من محصول ٤٣٠

حصده الحاصد لتوه ، وبعضه الآخر من مراعى الأغنام وحظائرها ،

وفى وسط الحقل كان مذبحٌ ينتصب ، علامةَ طريقٍ

ريفية ، من الكلأ والعشب ، وسرعان ما أتى إليه

حاصدٌ يتصبب عرقًا من فلاحة الأرض ، حاملاً

بواكير الثمار والسنابل الخضراء والحزمة الصفراء ، ٤٣٥

دون انتقاء ، وحسبما وَجَدَ حاضراً ، ثم جاء راعٍ

أشدُّ تواضعًا وطيبة ، يحمل أوائل حُمْلان قطيعه ،

أحسنَها وأفضلَها ، وبعد ذبح الأضاحى ، وضع

الأحشاء ودُهْنها ، بعد تعطيرها بالبَخور ،

على الخشبة المشقوقة ، وأدى الشعائر الواجبة كلها . ٤٤٠

وسرعان ما هبطت نار من السماء ، بشير تقبل القربان ،

فمالت إليه كلمح البرق والتهمته فتصاعدت الأبخرة اللطيفة ،

ولم تلتهم القربان الآخر ، لأن صاحبه لم يكن مخلصًا

فجاش الغضب فى جوفه وانقض على الآخر أثناء حديثهما

بضربة حجر فى بطنه ٤٤٥

أودت بحياته فسقط وقد شحب شحوب الموت

وخرجت روحه مع أنّاته والدم المتدفق السيال .

وارتاع آدم لهذا المنظر وجَزِعَ قلبُه

جَزَعًا شديدًا فأسرع يهتف بالمَلَكَ قائلاً :

أيها المُعلّم ! لقد أصاب شَرٌّ عظيمٌ ٤٥٠

ذلك الرجل الطيب الذى أحسن تقديم قرابينه

فهل هذا جزاء الورع والعبادة الصادقة ؟

وأجاب ميكائيل ، وقد تأثر أيضًا بما رأى ، قائلاً :

هذان شقيقان يا آدم وسوف ينحدران

من صُلبك ، فالظالم قتل البار ، ٤٥٥

إذ حسد أخاه لأن قربانه وجد

من السماء القبول ، ولكن الجريمة الدموية

سوف يُثأر لها ، وإيمان الآخر المقبول

لن يضيع جزاؤه ، رغم أنك تراه هنا ميتًا

يتقلب فى التراب والدم المتخثر . ورد آدم قائلاً : ٤٦٠

وا أسفا على الفعلة وعلى أسبابها !

ولكن تُرى هل شاهدت الموت الآن ؟ أهذا هو السبيل

الذى لابد أن أسلكه عائدًا إلى التراب موطنى ؟ يا له من مشهد

رعب ، شنيع وقبيح للنظر ،

مستنكر للفكر ، وما أفظعه للإحساس ! ٤٦٥

فقال له ميكائيل : لقد شهدت الموت

فى أولى صُوَرِه التى تصيب الإنسان ، ولكنّ للموت صوراً

كثيرة ، وكثيرة هى السبل التى تؤدى

إلى كهفه العبوس ، وجميعها رهيب ، ولكن المدخل

أشد إرهابًا للحسّ من باطن الكهف . ٤٧٠

فالبعض ، كما رأيت ، سوف يموتون بضربة عنف ،

حَرْقًا أو غَرَقًا أو جُوعًا ، ولكن عددًا أكبر سيموت شَرَهًا
من التهام اللحوم والمشروبات التى ستأتى فى الأرض
بأمراض فتاكة ، وستشهد منها حشدًا بشعًا ،
ولسوف يظهر أمامك حتى تعرف ٤٧٥
مدى الشقاء الذى سيجلبه طمع حواء
إلى الإنسان . وعلى الفور رأى مكانًا
يظهر أمام عينيه ، فيه حزن وضجيج وظلام
وكان فيما يبدو مستشفى ، وكانت ترقد فيه
أعداد من شتى المرضى ، تعانى من شتى الأسقام ، ٤٨٠
من التقلصات الرهيبة ، إلى عذاب المِشَدّ الأليم ، إلى لذعات
علّة القلب المبرّحة ، وجميع أنواع الحمّى ،
والتشنجات ، وحالات الصَّرَع ، وتمزق الأغشية المخاطية الضارى ،
وحصوات الكُلْية والأمعاء وقروحها ، وآلام المغص ،
وهياج الخَبَلِ الشيطانى ، ولوثة الاكتئاب الواجم ، ٤٨٥
ونوبات الجنون المتقطعة ، وذبول الأعضاء المهلك ،
والنحول الشديد ، والطاعون الفتاك على نطاق واسع ،
ومرض الاستسقاء ، والربو ، والالتهابات التى تضنى المفاصل .
كان تقلبهم على أجنابهم رهيبًا ، وأناتهم عميقة ، واليأس

يرعىٰ المرضى ، بأقصى همّة ، منتقلاً من فراش إلى فراش . ٤٩٠

وكان الموت من فوقهم مزهواً بنصره وبيده السهم

يَهُزُّه ، ولكنه يتأخر فى إطلاقه ، على الرغم من طلبه مرارًا

بالدعوات ، فهو خير ما يأتيهم وآخر آمالهم .

أى قلب قُدَّ من صخر يستطيع أن يشهد هذا المشهد الشائه طويلاً

وينظره فلا تفيض عيناه ؟ لم يستطع آدم ، بل بكى ٤٩٥

وإن لم تكن ولدته امرأة ، فالشفقة قد قمعت فيه التجلّد ،

أفضل خصال الرجال ، وأسلمته إلى الدموع

برهة ، حتى جاءته أفكار أصلب فألجمت تفريطه

فعاد للشكوى وما كاد يسترد القدرة على الكلام قائلاً :

يا أيها الإنسان الشقى ، إلى أى مهوى ٥٠٠

انحدرت ، وأى بؤس ينتظرك !

خير لك أن تنتهى هنا فلا تولد ، ولماذا وُهِبَتْ لنا الحياة

حتى تُنْتَزَعَ منا على هذا النحو ؟ والأحرى أن نسأل لماذا

فُرِضَتْ علينا هكذا ؟ ومن ذا الذى ، إذا عرفنا

ما نتلقى ، لا يُحْجِمُ عن قبول ٥٠٥

الحياة حين تعرض عليه ، أو يسرع بطلب نبذها

سعيدًا بأن يُسمح له بالانصراف فى سلام ؟ هل يجوز الحطُّ من

صورة الله فى الإنسان ، وهو من خلقه أولاً
فى أحسن تقويم مرفوع الهامة ، وإن شابه النقص بعدها ،
حتى تتعرض لمهانة هذه المعاناة القبيحة ٥١٠
وتتحمل آلامًا لا قبل للإنسان بها ؟ لماذا لا يكون الإنسان ،
الذى لا يزال يحتفظ بالشبه الإلهى
من بعض جوانبه ، بريئًا من هذه الملامح الشائهة
ومعفىً منها ، من أجل صورة خالقه ؟
وأجابه ميكائيل قائلاً : إذن فصورة خالق البشر ٥١٥
قد تخلت عنهم عندما خفضوا بأنفسهم مراتبهم
ليعبدوا شهوة لا ضابط لها ولا رابط ، وأصبحت
صورة الذى يعبدونه وسيلة للرذيلة الحيوانية
التى تؤدى أساسًا إلى خطيئة حواء .
وهكذا كان عقابهم شنيعًا ، وهو ٥٢٠
لا يسوه شبههم بالله ، بل يُشَوِّهُ ملامحهم هم ،
وإن شُوِّهَ الشَّبَهُ ، فبأنفسهم شَوَّهُوه ،
فى غمار انحرافهم عن قواعد الصحة الطبيعية الطاهرة وتحويلها
إلى مرض مقيت ، فهم يستحقون ذلك لأنهم
لم يُبَجِّلوا صورة الله فى أنفسهم . ٥٢٥

ورد آدم قائلاً : أُقرُّ بأن هذا عدل وأسلّم به .
ولكن ألا توجد بعدُ سبل أخرى ، إلى جانب
هذه المسالك والدروب الأليمة ، تفضى
إلى الموت ، وإلى الامتزاج بالتراب المماثل لطبيعتنا ؟
فقال ميكائيل : بل سترى السبل الأخرى إن راعيت بدقة ٥٣٠
قاعدة عدم الإفراط ، فتعلمت الاعتدال
فيما تأكل وفيما تشرب ، طلبًا
للغذاء اللازم لا متعة الشَّرَه ،
حتى تدور سنوات كثيرة وتتكدَّس فوق رأسك .
وهكذا تظل حيا حتى تسقط مثل الثمرة الناضجة ٥٣٥
فى حِجْر أمك ، أو تُقْتَطَفَ بسهولة ويسر ،
ولا تنتزع بمشقة وعسر ، وقد استويت للموت .
هذا هو الهَرَم ، ولكنه يعنى أيضًا أنك لابد أن تجاوز
شبابك وقوتك وجمالك ، وهى التى ستحول
إلى ذبول ذاوٍ ووَهْنٍ وشَمَطٍ ، وتصبح حواسك ٥٤٠
ثَلِمَةً ، ولا مناص من هجر مذاق مسراتك كلها ،
والاكتفاء بما لديك ، وبدلاً من جو الشباب
العامر بالأمل والمرح ، ستسود دماءَكَ

نزعةُ اكتئابٍ محبطة ، باردة وجافة ،

ترين على نفسك وتُثقِلُها ثم تمتص آخر الأمر ٥٤٥

رحيق الحياة. ورد عليه سَلَفُنا قائلاً :

لن أهربَ من الموت بعد الآن ، ولن أطيل

الحياة كثيرًا ، بل سأنظر كيف أستطيع التخلص

بأعدل الوسائل وأيسرها من هذا العبء الثقيل

وهو الذى لابدّ لى من حمله حتى اليوم المحدد ٥٥٠

لتسليمى إياه ، منتظرًا بصبر موعد

انحلال بدنى . وأجابه ميكائيل قائلاً :

لا تحبَّ حياتك ولا تكرهها ، بل اقْضِ ما تحياه من زمن

على خير وجه ، واترك للسماء تحديد طوله أو قصره .

والآن خذ أهبتك لرؤية مشهد آخر . ٥٥٥

ونظر آدم فرأى سهلاً رحيبًا ، ضُربت فيه

خيامٌ ذات ألوان شتى ، وبجانب بعضها قطعان

من الأبقار ترعى ، ومن داخل البعض الآخر ارتفعت أصوات

آلات موسيقية بألحان عذبةٍ مُرِنّةٍ من

القيثار والأرغن ، سمعها آدم وشاهد الذى يعزف ٥٦٠

على الأوتار والمفاتيح ، وكانت لمساته تطير خِفّةً

بقوة فطرية عبر جميع النغمات المتناسبة انخفاضًا وارتفاعًا
سارية تطارد رَجْعَ الأصوات المتعارضة الرنانة .
وفى جانب آخر وقف رجل أمام كور الحدّاد
يعمل بجد ، إذ كانت كتلتان عظيمتان من الحديد والنحاس ٥٦٥
قد انصهرتا (وربما كان وجدهما حيث شبت النار عَرَضًا
فأحرقت الغابات على الجبل أو فى الوادى ،
فسالتا فى عروق الأرض وانسابتا ساختتين
حتى مدخل أحد الكهوف ، وربما جرفهما أحد الأنهار
من تحت الأرض) فصبّ الخام المعدنى السائل ٥٧٠
فى القوالب المناسبة التى كان قد أعدها ، ومنها شكّل
أولاً أدواته ، وبعدها كل ما يمكن صنعه
بالصهر أو الحفر فى المعادن . وبعد هذين ،
ولكن على السفح القريب ، جاء نوع مختلف من الناس
من التلال العالية المجاورة ، حيث مقر إقامتهم ، ٥٧٥
فنزلوا إلى السهل ، وكان مظهرهم يدل على أنهم
رجالٌ أبرار ، وكانت جهودهم جميعًا موجهةً
لعبادة الله عبادة صادقة ، وتدبّر أعماله
غير الخبيئة ، وغير العلل القصيّة التى من شأنها الحفاظ على
الحرية والسلام للبشر ، وهناك على السهل ٥٨٠

وقبل أن يسيروا طويلاً ، إذا بزمرة تخرج من الخيام ،
زمرة من الفتيات الجميلات ، حافلات بكل بهيج
من الجواهر والملابس اللاهية ، ويغنّين على أنغام القيثار
أغانى حب رقيقة ، ثم أقبلن راقصات .
وعلى الرغم من وقار الرجال فقد تطلّعوا إليهن ، وسمحوا لعيونهم ٥٨٥
أن تتجول دون لجام ، وسرعان ما وقعوا فى شباك الهوى
فأحب كل منهم واحدة واختار من أحبها
ثم أخذ الجميع يتطارحون الغرام حتى ظهر كوكب المساء
بشير الحب ، ومن ثم اتقد الجميع حماسًا
فأضاءوا مشعل الزفاف ، وطلبوا استدعاء رب الزواج ٥٩٠
« هايمن » ، فكانت أول مرة يُستدعى فيها إلى طقوس الزفاف ،
وترددت أصداء الاحتفال والموسيقى فى جميع الخيام
وشاهد آدم جمال ما يجرى ، وهناء التلاقى
بين المحبين ، والشباب الذى لم يضع بعد ، والأغانى وطاقات الأزهار ،
وسمع الموسيقى المتناغمة الساحرة ، فتعلق بها قلب ٥٩٥
آدم ، وسرعان ما أقر بفرحته ،
وهى النزعة التى أملتها الطبيعة ، والتى عبر عنها قائلاً :
يا من فتحتَ عينىّ حقًا وصدقًا ، أيها الملاك الكبير المبارك !

هذه الرؤيا تبدو لى أحسن كثيرًا ، وتبشر بأمل أكبر

فى أيام سلام وطمأنينة ، من الرؤيتين السابقتين ٦٠٠

اللتين كانتا تتناولان الكراهية والموت ، أو آلامًا أشد وطأة ،

أما هنا فيبدو أن الطبيعة قد حققت كل غاياتها .

ورد عليه ميكائيل قائلاً : لا تحكم بالفضل لشىء

بمقياس المتعة ، وإن كان يبدو متسقًا مع الطبيعة ،

إذ خُلق ، مثلما خُلِقْتَ ، لتحقيق غاية أسمى ٦٠٥

وأقدس وأطهر ، ألا وهى الانصياع للرب .

إن تلك الخيام التى رأيتها بالغة البهجة ، كانت خيام

شرور وآثام ، وسوف يقيم فيها نسلُ

الذى قتل أخاه ، وهم الذين يبدون عاكفين

على الفنون التى تصقل الحياة وتهذبها ، مخترعين لا مثيل لهم ، ٦١٠

لا يذكرون فى الواقع خالقهم ، رغم أن روحه هى التى

علمتهم ، لكنهم لم يعترفوا بأى نعمة من نعمه .

ومع ذلك فسوف ينجبون ذرية جميلة ،

إذ إن تلك الزمرة من النساء الجميلات التى رأيتها ، والتى بدت

من الملائكة ، بالغة المرح والرقة والابتهاج ، ٦١٥

تفتقر فى الواقع إلى أى خير يتمثل فيه

شرف المرأة فى المنزل وأول ما تمتدح به،

إذ نشأْنَ فَتَرَعْرَعْنَ ودَرَجْنَ على مذاقٍ أوحد

هو مذاق الرغبة الشهوانية ، والغناء والرقص ،

وارتداء الملابس الجميلة ، والحديث المنمق ، ونظرات الفتنة . ٦٢٠

وسوف يهفو إليهن فريق من العقلاء أَهَّلَتْهُمْ حياتهم

الدينية لإطلاق كُنْيَةِ أبناء الله عليهم ،

وسوف يسلمون لهنّ فضيلتهم كلها وصيتهم كله تسليمًا

مخزيًا ، واقعين فى حبائل وبسمات

تلك الملحدات الجميلات ، فهم يسبحون الآن فى بحر المرح ٦٢٥

(وسرعان ما يسبحون فى التيه) ويضحكون ، ولقاء ذلك

سرعان ما يذرف العالم عالمًا من العبرات .

ورد عليه آدم بعد أن حُرِم فرحته المقتضبة قائلاً :

يا للأسى والعار ! كيف يتحول الذين ينشدون الصلاح

ويبدأون بداية طيبة فينحرفون لاعتساف ٦٣٠

طرق ملتوية ، أو يُغشى عليهم فى منتصف الطريق !

لكننى ما زلت أرى أن جوهر أحزان الإنسان

لم يتغير ، وأنه يبدأ من المرأة .

وقال المَلَكُ : بل إنه يبدأ فى التراخى الأنثوى للرجل ،

فالواجب يقضى بأن يشغل مكانه كما ينبغى ٦٣٥
بالحكمة وبالمواهب الفائقة التى تلّقاها .
لكن تأهب الآن لمشاهدة مشهد آخر .
ونظر آدم فرأى أرضًا رحيبة تنبسط
أمامه ، فيها بلدان ومنشآت ريفية فيما بينها ،
ومدن يعمرها البشر ذات أبواب وأبراج عالية ، ٦٤٠
ومواجهة عسكرية ، ووجوه ذات شراسة تهدد بالحرب ،
وعماليق عظامهم صلدة جبارة ، ذوو بأس وجسارة .
البعض يمتشق سلاحه ، والبعض يكبح جماح جواد يرغى ويزبد ،
يتأهبون للقتال فرادى أو فى صفوف مرصوصة ،
الفرسان منهم والمشاة ، ولم يقفوا عاطلين بعد أن كتّبوا الكتائب ، ٦٤٥
بل انطلقت زمرة مختارة منهم لتصرف عن المرعى
قطيعًا من الماشية ، من الثيران والأبقار الجميلة التى نزحت
من مرعىً حافلٍ بالكلأ ، أو من الأغنام ذات الصوف الكث ،
من النعاج وحملانها الثاغية فوق السهل ،
لتظفر بها غنيمة ، ولم ينزع الرعاة إلى الفرار طلبًا للنجاة ٦٥٠
بل صاحوا يستغيثون ، فجاءت النجدة ووقعت معركة دامية
انضم إليها فرسان الكتائب فى منازلة ضارية . وهكذا

فحيث كانت الأبقار ترعى منذ قليل تناثرت أشلاؤها
وأصبح الحقل الدامى ، على ما به من جثث وأسلحة ،
مهجوراً ؛ واتجه آخرون إلى مدينة قوية ٦٥٥
فحاصروها وضربوا خيام معسكرهم ، وبالمجانيق والسلالم والألغام
هاجموها ، ودافع آخرون من فوق الأسوار
بالسهام والرماح ، وبالأحجار ، ونيران الكبريت ،
فوقع القتلى من الجانبين ، ووقعت فعال عظيمة .
وفى جانب آخر قام المنادون من ذوى الصولجان بالدعوة ٦٦٠
إلى عقد مجلس عند أبواب المدينة ، وسرعان
ما هبَّ رجالٌ وخط الشيب رؤوسهم وزانهم الوقار ، من بين المقاتلين ،
فاجتمعوا ، وأُلقيت الخطب ، ولكنْ ما لبث أن
وقع الشقاق والخصام ، حتى نهض أخيراً
رجلٌ فى منتصف العمر ، ذو مكانة بارزة ٦٦٥
ومسلك حكيم ، فتحدث كثيراً عن الصواب والخطأ ،
عن العدالة ، وعن الدين والحق والسلام ،
والحُكْم المُنزّل من علٍ ، فقام الشيوخ والشباب
يهتفون ضدّه وكادوا ينالونه بأيدى العنف
لولا أن نزلت سحابة من السماء فاختطفته ٦٧٠

دون أن يراه أحد من بين الحشد ، وهكذا استمر العنف
واستمر القهر وقانون السيف سائدًا
فى شتى أرجاء السهل ، حتى لم يجد أحدٌ ملجأً يلجأ إليه .
وتدفقت عبرات آدم غزيرة ، فالتفت إلى مرشده
ينعى ما رأى بحزن شديد قائلاً : ترى مَنْ هؤلاء ، ٦٧٥
من أعوان الموت ، لا البشر ، الذين يقذفون بالموت
البشر بأسلوب لا إنسانى ، فتتكاثر فى أيديهم ،
وتتضاعف عشرة آلاف ضعف ، خطيئة الرجل الذى قتل
أخاه ، إذ من سقط ضحية هذه المذبحة
إلا إخوان لهم ، بشر ضحايا بشر ؟ ٦٨٠
ولكن من كان ذلك الرجل البَرّ ، وهو الذى لولا أن السماء
أنقذته ، كاد يضيع فى صلاحه وتقواه ؟
ورد عليه ميكائيل قائلاً : هؤلاء ثمار
تلك الزيجات غير الموفقة التى شاهدتها ،
حيث اقترن بالطالحات صالحون لو خُيّروا ٦٨٥
لكرهوا الارتباط بهن ، ولكنهم أصيبوا بفساد الرأى
فأنجبوا سلالة فاسدة فى البدن والعقل .
هكذا كان شأن هؤلاء العماليق ، الرجال الذين ذاع صيتهم

إذ لن يُعْجَبَ الناس فى تلك الأيام إلا بالقوة وحدها
فيسمونها الشجاعة وينعتونها بالبطولة ، ٦٩٠
ويعتبرون الغلبة فى المعارك ، وإخضاع
الأمم ، والعودة إلى الوطن بالغنائم بعد ارتكاب ما لا حَدَّ له
من القتل ، أعلى درجات الرفعة
والمجد للإنسان ، وسوف يفوز من يحرزون مجد
الانتصار بصفة الفاتحين العظماء ومظهرهم ، فيُعتبرون ٦٩٥
رُعاة الجنس البشرى ، أربابًا وأبناء أرباب ،
والأحق أن يوصفوا بأنهم مدمرون ، بل وطاعون البشرية .
وهكذا سوف تكتسب الشهرة ، وذيوع الصيت فى الأرض ،
وأما أجدر الأشياء بالشهرة فسوف يُطْبِقُ عليه الصمت فيخفيه .
ولكن السابع من نسلك ، الذى شاهدته الآن ، ٧٠٠
والصالح الوحيد فى عالم فاسد ،
والذى كان من ثم مكروهًا ، ومحاصراً
بالأعداء لاجترائه على أن يعدل وحده ،
وأن ينطق بالحقيقة التى لا يحبها أحد ، وهى أن الله سوف يأتى
ليحكم بينهم ، مع ملائكته ، فقد رفعه الرب الأعلى إليه ٧٠٥
مُلْتفًا بسحابة عطرة ذات خيول مجنحة ،

وتلقاه ، كما رأيت ، ليسير مع الله
ويرتقى مراقى الخلاص وأصقاع النعيم ،
معفىً من الموت . وحتّى أطلعك على الثواب الذى
ينتظر الصالحين ، والعقاب الذى ينتظر سواهم ، ٧١٠
أطلب منك توجيه عينيك لمشاهدة ما سوف يأتى فوراً .

ونظر آدم فوجد أن وجه الأشياء قد تبدّل وانقلب ،
إذ كَفَّ حُنْجور الحرب النحاسىّ عن الزئير
وتحوّل كل شىء الآن إلى المرح واللعب ،
وإلى الشهوة والشغب ، والطعام ، والرقص ٧١٥
والزواج أو الدعارة ، حيثما اتفق ،
اغتصابًا أو زنًا ، حيثما مَرَّ الحُسْنُ الفائق
فأغرى وأغوى ، ومن كؤوس الطِّلى إلى الشجار فيما بينهم ،
حتى أتى أخيرًا سيد مُبَجّل فَمَرَّ بهم ،
وأعلن سخطه الشديد على ما يفعلون ، ٧٢٠
ونصحهم بنبذ طرائقهم ، وكثيرًا ما كان
يختلف إلى مجتمعاتهم ، أينما عقدوها ،
احتفالاً بالنصر أو بالأعياد ، وكان يعظهم ويطلب منهم
الرجوع عما هم فيه والتوبة ، مبينًا لهم أنهم أرواح

حبيسة أجساد أصبح الحكم عليها وشيك الوقوع ، ٧٢٥
ولكن كل ذلك ذهب عبثًا ، وعندما أدرك ذلك كفّ عن
محاورتهم ، وأخذ خيامه فضربها فى مكان قصىّ ،
ثم جعل يقطع ألواح خشب طويلة من أشجار الجبل ،
وشرع يصنع الفُلْك ، وهى سفينة ضخمة الجُرم ،
ويقيس بالذراع طولها وعرضها وارتفاعها ، ٧٣٠
ثم دَهَنها كلها بالقار ، وجعل فى جانبها بابًا
مبتكرًا ، وملأها بمقادير كبيرة من الزاد والمؤن ،
للإنسان والحيوان معًا ، وإذا بالعجيب الغريب المدهش !
فمن كل حيوان وطير وحشرة صغيرة أتت الجماعات
سبعًا سبعًا ومن كل زوجين اثنين فدخلت الفُلك بالترتيب الذى عُلِّمَتْهُ ، ٧٣٥
وأخيرًا دخل السيد مع أبنائه الثلاثة
وزوجاتهم الأربع ، وأغلق الله الباب إغلاقًا محكمًا .
ولم تلبث الريح الجنوبية أن هَبّتْ ، ودفعت جميع السحب أمامها
فحلّقت بأجنحتها السوداء فى شتى الأرجاء
تحت قبة السماء ، وأَرْسَلَتْ الجبالُ المَدَدَ إليها من ٧٤٠
الأبخرة والضباب المعتم الرطب ،
فارتفع بسرعة ، حتى اكتظت السماء فبدت

مثل سقف مظلم ، وانهمر المطر انهمارًا
جائحًا ، وظل يهطل حتى غطّى الأرض
فاخْتَفَتْ عن الناظرين ، وسبحت السفينة الطافية ٧٤٥
تحملها المياه ، وكانت تجرى آمنة بمُقدَّمها المدبب
راكبة متن الأمواج متمايلة معها ، وأما سائر المساكن
فقد اكتسحها الطوفان ، وأغرقها بكل بهائها وفخامتها ،
وأودى بها فى أعماق الماء ، فالبحر يغشى البحر ،
بحر بلا ساحل ، وحَلَّتْ فى القصور التى ٧٥٠
كانت الشهوات سائدة فيها وحوشٌ بحرية تلد صغارها
وتنغرس فى الطين ، وأما البشر الذين كانت أعدادهم وافرة
فلم يبق منهم إلا من ركب ذلك الفُلْكَ الصغير الأوحد السابح !
ما كان أشد حزنك يا آدم وأنت تشهد
نهاية ذريتك جميعًا ، نهاية فاجعة ، ٧٥٥
وقد خلت الأرض من سكانها ، إذ أغرقك طوفان آخر ،
طوفان من الدموع والأحزان ،
وهبط بك مثل أبنائك ، حتى تلطَّف فانتشلك
ذلك الملاك ، فوقفت على قدميك أخيرًا ،
ولوكسير القلب ، كشأن الأب الذى يبكى فقدان ٧٦٠

أبنائه ، وهو يشهد هلاكهم جميعًا معًا .

فشكوْتَ بثّك وإن كنت لا تكاد تخاطب المَلَك قائلاً :

يا للرؤى التى ساءنى التنبؤ بها ! ليتنى

عشت جاهلاً بالمستقبل ، فَتَحَّملْتُ

نصيبى من الشر وحدى ، إذ يأتى كل يوم منه بما ٧٦٥

يكفى ، وأما هذه الرؤى التى عُرضت علىّ ، وهى

عبءُ عصور كثيرة ، فقد أُلقيت على كاهلى

مرة واحدة ، حين اكتسبت بعلمى السابق ميلادًا

مُجهضًا ، إذ تعذبنى الأحداث قبل أن تقع

وقد علمت أنها لابد أن تتحقق . ألا فليحجم الجميع ٧٧٠

منذ الآن عن السعى لاكتساب معرفة سابقة بما سيحدث

له أو لأبنائه ، فقد يتأكد أنه شر ،

ثم لا تستطيع معرفته السابقة أن تمنعه ،

كما سيشعر أن الشر المقبل لا تقل وطأة

الخوف منه عن وطأة تحمله واقعًا ، ٧٧٥

فهى وطأة ثقيلة فى الحالين . ولكن هذا الهم قد انقضى

وليس يجدى الآن تحذير الإنسان ، فالقلة القليلة التى نجت

من المجاعة والعذاب سوف تهلك آخر الأمر

تائهةً وهى تضرب فى شعاب تلك الصحراء المائية . كم كنت آمل

حين توقف العنف وانتهت الحرب فى الأرض ، ٧٨٠

أن يسير كل شىء على ما يرام ، وأن يُكَلِّلَ السلام

هامة الجنس البشرى بأيام سعادة ممدودة .

ولكن ما أشدَّ ما خُدِعْتُ ، إذ أرى الآن

السلم وهو يأتى بفساد لا يقل عن خراب الحرب .

فكيف يكون هذا ؟ أفصح أيها المرشد السماوى ، ٧٨٥

خبرنى إذا ما كان الجنس البشرى سوف ينتهى هنا .

وأجابه ميكائيل قائلاً : إن الذين رأيتهم أخيرًا

يزهون بالنصر وبالثراء المترف ، هم الذين

رأيتهم أولاً ينهضون بأعمال تنم عن شجاعة بارزة

وإنجازات عظيمة ، لكنها تخلو من الفضيلة الحقة ، فإنهم ٧٩٠

بعد أن أراقوا دماء كثيرة وأحدثوا خرابًا كثيرًا

فى إخضاع الأمم ففازوا

بذيوع الصيت فى العالم ، والألقاب الرفيعة ، والغنائم الثمينة ،

سوف يحوّلون مسارهم نحو اللذائذ ولين العيش والكسل

والتُّخَمَة والشهوة ، فإذا بالسَّفَه والكِبْرِ ٧٩٥

يُخرجان من جوف الصداقة أعمالاً عدوانية فى زمن السلم .

كما أن المهزومين الذين أوقعتهم الحرب فى الرِّقّ
سوف يفقدون مع حريتهم المفقودة كل فضيلة
وتقوى الله ، بعد أن تظاهروا بالوَرَع فحسب
فلم يظاهرهم الله ولم يؤازرهم فى القتال الحامى الوطيس ٨٠٠
ضد الغزاة ، وهكذا ، عندما تبرد حميتهم ،
فسوف يزاولون أساليب العيش الآمن ،
المادىّ أو المنحلّ ، على ما سوف يسمح أسيادهم
لهم بالاستمتاع به ، إذ سوف تحمل الأرض من النِّعم
ما يكفى ويزيد ، وما يتيح تجاوز الاعتدال . ٨٠٥
وهكذا سيتحول الجميع إلى الفسوق والانحطاط ،
وينسون العدالة والاعتدال والحق والإيمان .
إلا رجلاً واحدًا، ابن النور الأوحد
فى عصر مظلم ، مثال يحتذى به ،
فى التصدّى للغواية والعادة ، فى عالم ٨١٠
خاطئ ، لا يهاب اللوم والاحتقار
أو العنف ، ولسوف يتصدى لسبلهم الآثمة
ويحذرهم من مغبتها ، ويرسم لهم
السبل القويمة ، فيريهم كيف تعود عليهم بسلامة أكبر ،

وكيف يَعْمُرُ جنباتها السلم ، معلنًا أن الغضب سوف يحيق ٨١٥
بتماديهم فى الإثم ، فلا يعود إلا
بسخرية منهم ، ولكن الله يرى
الرجل البار الوحيد بين الأحياء ، وبأمر الله
سوف يصنع الفُلْك الرائع ، كما شهدت ،
لينقذ نفسه وأهل بيته من بين أبناء ٨٢٠
عالم حُكِمَ عليه بالدمار الشامل .
وما يكاد يستقر هو ومن معه من البشر والحيوان
المختارين للنجاة فى الفلك المشحون
وما يكادون يلوذون بها ، حتى تنفتح أبواب
السماء جميعًا بماء منهمر على الأرض ، وتهطل ٨٢٥
الأمطار نهارًا وليلاً ، وتنفجر الأرض عيونًا ،
فتعلو أمواج المحيط وتطغى طغيانًا
يفوق كل الحدود ، وترتفع مياه الفيضان
فتغرق أعلى الجبال ، وعندها ترى هذا الجبل
فى الفردوس وقد زحزحته قوة الأمواجِ ٨٣٠
من مكانه ، فيدفعه الطوفان بقرنيه
ويسلبه نباته الأخضر جميعًا ، وتنجرف الأشجار

فى هذا النهر العظيم إلى الخليج المنفتح ،

وهناك تنشأ جزيرة وتضرب جذورها فى الأرض ، مِلْحَةً عارية ،

فتصبح مقرًا لكلاب البحر والحيتان ، ولصخب طيور النورس وصياحها ، ٨٣٥

حتى تعلم أن الله لا ينسب للمكان

أية قداسة إذا خلا من أى شىء يأتى به

البشر الذين يعتادونه أو يقيمون فيه .

والآن انظر تر ما سوف يحدث بعد ذلك .

ونظر فشاهد هيكل السفينة طافيًا فوق الماء ٧٤٠

الذى كان قد هبط ، إذ فَرَّقَتْ السحب

تسوقها ريح شمالية صرصر ، هَبَّتْ فجففت

وجه الطوفان الذى تغضّن كأنما ذَوَى وذَبُل ،

وحَدَّقَتْ الشمس الصافية فى مرآتها المائية الرحيبة

حارّة قائظة ، وشربت من الأمواج الجديدة علَلاً بعد نَهَل ، ٧٤٥

كأنما كانت عطشى ، فانحسر تدفقها وانكمش ،

وتحولّت البحيرة الثابتة إلى جَزْرٍ يغور ويسترق

خُطاه برفق نحو البحر الذى كان قد أغلق

أبوابه ، مثلما أغلقت السماء نوافذها .

وتوقفت الفُلْكُ عن الطفو ، وبدا أنها ترتكز على الأرض ٨٥٠

ثابتة فوق قمة أحد الجبال العالية .

وبدأت قمم الجبال تظهر كأنها صخور ناتئة

واندفعت تيارات الماء السريعة صاخبةً ، فَدَفَعَتْ

إلى البحر المنحسر أمواجَ المَدِّ الغائر المنكسر .

وعلى الفور طار من الفُلك غُراب ، ٨٥٥

وبعده طارت حمامة ، الرسول الذى يحظى بثقة أكبر ،

إذ أُرسِلَتْ المرة بعد المرة لتبحث عن

شجرة خضراء أو أرض خضراء تَحُطُّ عليها قدمُها ،

وعادت فى المرة الثانية وفى منقارها

ورقةُ زيتونةٍ أَتَتْ بها آية سلام . ٨٦٠

وسرعان ما ظهرت اليابسة ، وبدأ السيد الهرم

فى النزول من فُلكه هو وأتباعه جميعًا ،

ثم رفع كفّيه إلى السماء ، ونظر بعينين مُخلصتين ،

وبامتنان إلى السماء ، فشاهد فوق رأسه

سحابةً نَدِيَةً ، وفى السحابة قوس قزح ٨٦٥

يتجلّى وفيه ثلاثة ألوان بهيجة منضودة فى حُزم ،

بشرى السلام من الله ، وعهدًا جديدًا منه .

وعندها بدأ قلب آدم ، الذى كان يغشاه حزن شديد ،

يفيض بالفرح العميم ، وما لبث فرحه أن انطلق قائلاً :

أنت يا من تستطيع تقديم أحداث المستقبل ٨٧٠

فى الحاضر ، أيها المُعلّم السماوى ، لقد عُدْتُ إلى الحياة

بفضل هذا المشهد الأخير ، واثقًا أن الإنسان سوف يحيا

مع سائر المخلوقات ، ويحفظ ذريتها .

وأصبح حزنى الآن على دمار عالم كامل

من الأبناء الأشرار ، يقل كثيرًا عن فرحتى بوجود ٨٧٥

رجل واحد ثبت تمتُّعُه بمثل ذلك الكمال والبِرّ ،

حتى أن الله تعطّف لينشئ عالمًا آخر

من صُلْبه ، ولينسى كل غضبه .

ولكن قل لى ما معنى تلك الخطوط الملونة فى السماء

التى انبسطت عند انفراج القطوب فى جبهة الله ، ٨٨٠

أم تراها حاشية زَهْرية جُعلتْ لتربط أطراف

الأُزُر السيّالة لتلك السحابة المائية نفسها

حتى لا تَنْحَلَّ من جديد وتهطل على الأرض ؟

وأجابه المَلَكُ الأكبر قائلاً : لقد أصبت حين رميت ،

إذ يشاء الله راضيًا أن يعفو عمّن غضب عليهم ٨٨٥

من بنى الإنسان وإن تأخرت توبتهم ،

وإن تأسىّ قلبه عندما نظر من علٍ فرأى
الأرض حافلة بأعمال العنف ، والبشر كلهم
وقد أفسدوا سبلهم جميعًا ، لكنهم ما يكادون يذهبون
حتى يستدرَّ رجل بارٌّ أوحد من عين الله عطفًا سابغًا ٨٩٠
فإذا هو يرحم فلا يمحو البشرية محوًا تامًا
ويقطع على نفسه عهدًا بألاّ يعود أبدًا إلى تدمير
الأرض بالطوفان ، وبألاّ يجعل البحر
يتجاوز حدوده ، ولا المطر يغرق العالم
والإنسان فيه أو الحيوان ، لكنه حين يسوق ٨٩٥
سحابة فوق الأرض ، فسوف يجعل فيها
قوسه ذا الألوان الثلاثة ، حتى تبصره عناصر الطبيعة
فتتذكر عهده ، وهكذا يتتابع النهار والليل ،
وزمن البذر وزمن الحصاد ، والحرارة والصقيع الأشهب ، ٩٠٠
كل يجرى فى مجراه ، حتى تُطَهِّر النارُ جميع الأشياء وتجدّدها ،
فتنشأ أرض جديدة وسماء جديدة ، مُقام الإنسان فى المستقبل .

## نهاية الكتاب الحادى عشر



# الكتاب الثانى عشر

## الموضوع

يستـمر المَلَكُ ميكائيل فى روايته ، فـيروى ما سوف يقع من أحـداث بعد الطوفان ، وعندما يذكر إبراهيم عليه السلام ، يشرح تدريجيًا ويفصح عن ولد العذراء الذى كان آدم وحواء قد وُعدا بمقدمه عند السقوط ، وعن تجسده وموته وبعثه ورفعه، وعن أحوال الكنيسة حتى مقدمه الثانى . ويسعد آدم سعادة بالغة بهذه القـصص والوعود التى تعـيد إليه اطمـئنانه ، ويهبط التل مع مـيكائيل ، ويوقظ حواء التى كانت نائمة فى أثناء ذلك ، وقـد رأت فى منامها أحلامًا تدل على هدوء البال والخـضوع ، ويسـوقهمـا ميكائيل فيـسيـران معه وقـد أمسك بأيديهما إلى خـارج الفردوس ، والسيف النارى يتراقص فى الهواء خلفـهما ، وملائكة الشاروبيم قد أخذوا مواقعهم لحراسة المكان .

مثلما يتوقف المسافر فى ترحاله عند نقطة الزوال ،

وإن كان يقصد الإسراع ، توقف ميكائيل هنا

بين العالم الهالك والعالم الوليد ، ليرى

إذا ما كان آدم سوف يعنّ له أن يقول شيئًا ما ،

قبل أن يستأنف الحديث منتقلاً نُقلةً حلوةً قائلاً : ٥

وهكذا شاهدتَ عالمًا كاملاً يبدأ وينتهى ،

والإنسان وهو يَنْسِلُ كأنما من صُلْب جديد ،

ولسوف تشاهد أكثر من ذٰلك ، لكننى ألحظ

أن بصرك الفانى يخبو ، فالأشياء الإلهية

لابد أن تُضعِفَ وتُرهق الحواسَّ البشرية ، ١٠

وهكذا فسوف أقتصر منذ الآن على رواية أحداث المستقبل

وعليك أنت أن تستمع وتُنْصت وتَنْتَبِه :

كان البشر الذين انحدروا من هذا المصدر الثانى لا يزالون قلة

وكان رُعْبُ العقوبة التى وقعت لا يزال

ماثلاً فى أذهانهم يذكرونه فيخافون الله ، ١٥

ويراعون إلى حد ما كل ما هو حق وعدل ،

وسوف يعيشون حياتهم ، ويتكاثرون بسرعة ،

ويفلحون الأرض ؟ ويجنون محاصيل وافرة ،

من القمح والنبيذ والزيت ، ومن الأبقار والأغنام ،

وكثيرًا ما يقدمون أضحياتهم من العجول أو الحملان أو الجداء ٢٠

مع صبّ مقادير كبيرة من النبيذ قربانًا ،ومآدب مقدسة ،

وسوف يقضون أيامهم فى فرح دون مَلاَم ، ويقيمون

زمنًا طويلاً فى سلام ، أُسَرًا وقبائل
فى ظل حكم الآباء ، حتى ينهض رجل
فى قلبه كبرياء وطموح ، لا يقنع ٢٥
بالمساواة المنصفة ، ولا بدولة الإخاء ،
بل سوف يغتصب السيطرة دون استحقاق
على إخوانه ، وينزع كل سلطان
للوفاق وقانون الطبيعة على الأرض ، فيمارس
الصيْد (وسوف تكون فرائسه من البشر لا الوحوش) ٣٠
معلنًا الحرب وناصبًا شراك العدواة لكل من يرفض
أن يخضع له ولطغيان سلطانه المطلق ،
وسوف يتخذ صورة الصياد الجبار
أمام الرب ، كأنما يتحدى السماء ،
أو كأنما استمد من السماء سيادة ثانية ، ٣٥
وسوف يُشْتَقّ اسمه من التمرّد
وإن كان سوف يتهم الآخرين بالتمرد .
وسوف ينضمّ إليه فريق ممن سيربطهم به طموح مماثل ،
أو يعملون تحت إمرته ، لممارسة الطغيان ،
فيسير الجميع من عدن نحو الغرب ، حتى يجدوا

السهل الذى ينبجس منه نبع فوّار من القار الأسود ٤٠

وهو يغلى من تحت الأرض ، من فُوَّهة الجحيم ،

ومن ثم يأتون بالآجُرّ وغيره من المواد فيصبونها لبناء

مدينة وبُرْجٍ تصل قمته إلى عنان السماء ،

ليذيع اسمهم ، ولئلاّ يتبددوا فى أقاصى ٤٥

بلدان الأرض وتنمحى ذكراهم ،

سواء اشتهروا بالخير أو بالشر .

ولكن الله الذى كثيرًا ما ينزل لزيارة البشر

فى الخفاء ، ويمشى بين مساكنهم

ليرقب فعالهم ، وسرعان ما يراهم ، ٥٠

ينزل ليشاهد مدينتهم ، قبل أن يعلو البرج

فيعترض أبراج السماء ، ثم يسخر منهم فيطلق

فى ألسنتهم عفريت التشتيت الذى يمحو

تمامًا لغتهم الأصلية ، ويبذر فى مكانها

بذور جلبة صاخبة حادّة من ألفاظ مجهولة ٥٥

وعلى الفور تتعالى هَذْرَمَةٌ بشعة عالية

بين البنّائين ، وينادى بعضهم بعضًا

دون تفاهم حتى تُبَحَّ أصواتُهم ويثوروا غضبًا

كأنما يُستهزأ بهم، فيهدرون جائحين ، وتجلجل الضحكات فى السماء

التى تنظر من علٍ لترى خَلْطَ الضجيج الغريب ٦٠

وتسمع ضوضاء العجيج ، وهكذا تُرك البناء

مثار سخرية وأصبح يدعى 'بابل' ، اسمًا مشتقًا من البلبلة .

واستاء آدم استياء الوالد من ولده قائلاً :

يا له من ابن مقيت يطمح أن يعلو

فوق إخوته ، وينسب إلى نفسه ٦٥

السلطة المغتصبة التى لم يمنحها الله إياه ،

فلقد وهبنا الله سيادة مطلقة على الحيوان

والأسماك والطير فقط ، ونحن نتمتع بهذا الحق

لأنه وهبه لنا ، لكنه لم يجعل للإنسان على الإنسان

سيادة أو حيازة ، فهذا هو حقه الذى ٧٠

يحتفظ به ، بل قضى بألاّ يمتلك إنسان إنسانًا آخر

ولكن هذا المغتصب لا يقتصر تعديه المتباهى

على الإنسان وحده ، بل إن برجه يعتزم التطاول على الله

والتصدّى له والتحدّى ، ترى أى طعام

سوف يقدمه فى الأعالى غذاءً ٧٥

لنفسه وغذاءً لجيشه الأرعن ، حيث الهواءُ رهيفٌ

فوق السحب ، تذوى فيه الأحشاء الغليظة ،
ويسلب الإنسان الأنفاس وإن لم يسلبه الخبز ؟
ورد ميكائيل قائلاً : أصبت فى بُغضك
هذا الابن ، وهو الذى أقلق حال الإنسان المطمئنة ٨٠
بمثل هذه البلبلة ، إذ حاول أن يُخضع
الحرية الرشيدة ، لكن عليك أن تعلم
أن الحرية الحقيقية قد ضاعت منذ زَلّتِك الأولى ،
فهى تقيم دائمًا مع العقل الصائب ، وهما
توأمان ، وليس لها وجود منفصل عنه ، ٨٥
فإذا حُجِبَ العقلُ فى الإنسان وأظلم ، أو إذا عُصِيَتْ أوامرُه ،
هَبَّتْ الرغبات العارمة الجائحة ،
والمشاعر المحدثة الجانحة ، فاستولت على زمام الحكم
من يد العقل ، وفرضت العبودية على
الإنسان الذى كان حُرًّا حتى تلك اللحظة . وهكذا فما دام يسمح ٩٠
للقوى الدنيئة بالحكم داخل نفسه والتغلب
على العقل الحر ، فإن الله العادل فى حكمه
يُخضعه من الخارج لأسياد ذوى سطوة وعنف
كثيرًا ما يقومون ، دون استحقاق أيضًا ، باسترقاق

حريته الظاهرة ، فيقع الطغيان حتمًا ، ٩٥
ولو أن ذلك لا يبرر طُغيان الطاغية .
ومع ذلك فإن بعض الأمم تهبط هبوطًا شديدًا عن مصاف
الفضيلة ، وهى العقل ، حتى تُعاقب - لا ظُلمًا
بل عدلاً - وبسبب لعنة مُهلكة تصيبها ،
بالحرمان من حريتها الظاهرة ، ١٠٠
بعد فقدها الحرية الباطنة ، وانظر إلى الابن العاق
الذى أنجبه من صَنَع الفُلْك ، فلقد جلب العار على نفسه
بما فعله لأبيه ، فسمع هذه اللعنة الثقيلة ، أى أن يصبح
عَبْدَ العبيد ، وهى تصدر على نسله الخبيث .
وهكذا سوف ينحدر هذا العالم الأخير ، كشأن الذى سبقه ، ١٠٥
من سيىء إلى أسوأ ، وباطراد ، حتى يملّ الله آخر الأمر
ويضجر من حَيْفهم وجَنَفِهِمْ ، فَيُبْعِدَ
حضرته عنهم ، ويحجب عنهم
عينيه المقدستين ، معتزمًا من تلك اللحظة
أن يتركهم لدنسهم وخبائثهم ، ١١٠
وأن يصطفى أُمّةً واحدةً خاصةً فيرفَعَها
على سائر الأمم ، ويختصها دونهم بندائه ،

أمة تنحدر من نسل رجل مخلص واحد
كان يقيم فى الأرض عَبْر نهر الفرات
ودَرَج فى صباه على عبادة الأصنام ، كيف يمكن للبشر ١١٥
(وهل تصدق ؟) أن يصبحوا بهذا الغباء
والرجل العظيم لا يزال حيًّا بعد أن نجا من الطوفان ،
وأن يتركوا عبادة الله الحىّ ، ويسقطوا فى وهدة
عبادة ما صنعته أيديهم من الخشب والحجر ، داعينها
آلهة ! ولكن الله العلىّ يتكرّم ويتعطف ١٢٠
بأن يناديه فى رؤيا من منزل أبيه
ومن بين أهله وآلهته الكاذبة ، ويدعوه إلى أرض
سوف يريها له ، قائلاً إنه سوف يُخرج من صُلْبه
أُمّة قوية ، وسوف يُسْبِغُ عليه
بركاته حتى تَخْرُجَ من نسله ١٢٥
جميع الأمم مباركة ، ويطيع الرجل فورًا
وإن كان يجهل تلك الأرض ، لكنه ذو إيمان راسخ .
إننى أراه ، ولكنك لا تستطيع ، وأرى مدى الإيمان
الذى يترك به آلهته وأصدقاءه وأرض موطنه ،
مدينة « أُور » الكلْدانية ، وهو يعبر الآن المخاضة ١٣٠

إلى « حاران » ، ومن خلفه حشد هائل من قطعان

الأبقار والأغنام ، وعدد كبير من العبيد والخدم .

لم يكن يرحل فقيراً ، ولكنه كان يضع كل ثروته فى أيدى

الله الذى دعاه ، فى هذه الأرض المجهولة .

ويصل الآن إلى « كنعان » ، وها أنذا أرى خيامه ١٣٥

وقد ضربها حول « شكيم » والسهل المجاور لبلوطة

« موره » ، وهناك تلقى الوعد بالحصول

على كل تلك الأرض هدية لذريته ،

من « حماة » شمالاً حتى الصحراء الممتدة جنوبًا

(وأنا أدعو هذه الأماكن بأسمائها وإن تكن الآن دون أسماء) ١٤٠

ومن « حرمون » شرقًا إلى البحر الغربى العظيم ،

وجبل « حرمون » ، وذلك البحر نفسه ، وأشهد كل مكان

يتجلّى وأنا أشير إليه ، وعلى الشاطىء

جبل « الكرمل » ، حيث النهر ذو المنبعين ،

نهر الأُرْدُنّ ، وهو الحد الحقيقى شرقًا ، ولكن أبناءه ١٤٥

سوف يسكنون منطقة تمتد حتى « سَنير » ، وهى جُرف جبلى طويل ،

وتأمّل هذا : إن جميع أمم الأرض

سوف تكون مباركة فى ذريته ، وهى الذرية التى

أعنى بها مخلّصك العظيم ، الذى سوف يسحق

رأس الثعبان ، ولسوف أكشف لك عنه بعد قليل ١٥٠

فى صورة أوضح . وسوف يخلّف هذا الأب المبارك ،

الذى سوف يدعى إبراهيم الحنيف فى قابل الأيام ،

ابنًا ، وحفيدًا من صُلْب هذا الابن ،

يماثله فى الإيمان وفي الحكمة وذيوع الصيت

وسينجب الحفيد اثنى عشر ابنًا ، ويرحل ١٥٥

من كنعان ، إلى أرض يطلق عليها فيما بعد اسم

مصر ، يَقْسِمُها نهر النيل ،

وانظر حيث يتدفق فيصب ماءه من سبعة مصبات

فى البحر ، وهو يأتى للإقامة فى ذلك البلد

حين يدعوه أحد صغار أبنائه ١٦٠

فى زمن الشدّة ، وهو الابن الذى ترفعه فَعَاله العظيمة

إلى المنزلة الثانية فى مملكة

فرعون ، ويموت فيها ، ويترك ذريته

التى تنمو فتصبح أُمَّةً ، ثم تمسى موضع

اشتباه أحد الملوك بعد ذلك ، فإذا به يسعى ١٦٥

للحدّ من زيادة تكاثر أفرادها ، باعتبارهم ضيوفًا حَلُّوا لديه

فزاد عددهم عن الحد ، ويحيل الضيوف إلى عبيد ،
على غير ما تقتضيه الضيافة ، ويذبّح مواليدهم الذكور ،
حتى يأتى شقيقان (ويدعى هذان الشقيقان
موسى وهارون) مُرْسَلَيْن من عند الله لإنقاذ ١٧٠
شعبه من العبودية ، ويعودان مع الجميع مكلَّلين
بالمجد ، حاملين الغنائم إلى الأرض التى وُعدوا بها .
وإن كان لابد أولاً من إرغام الطاغية المستبد ، الذى يرفض
معرفة إلههما ، أو تصديق رسالتهما ،
وإجباره بآيات وأحكام رهيبة على الخضوع ، ١٧٥
ولابد أن تتحول مياه الأنهار إلى دماء غير مُهْرقة ،
ولابد أن يمتلىء قصره بالضفادع والقمل والذباب الذى
يقتحمه اقتحامًا بغيضًا وأن ينتشر فى الأرض كلها ،
ولابد أن تموت قُطعانه بمرض العفن والطاعون البقرى ،
وأن تنتشر على جلده البُثُور والدمامل فى كل مكان ، ١٨٠
وتصيب جميع أفراد شعبه ، وأن يُدوّى الرعد المختلط بالبَرَد ،
والبَرَد المختلط بالنار ، فيمزّق سماء مصر ،
ويكرّ على الأرض بعجلاته مُلْتهمًا ما يكرّ عليه ،
وما يفوته التهامه من عشب أو ثمر أو حَبّ

يقع فريسة سحابة سوداء من الجراد الذى يتجمع وينقض ١٨٥
لالتهامه ، ثم لا يبقى على الأرض شيئًا أخضر .
ولابد أن يهبط الظلام مُدْلِهماً على تخومه جمعاء ،
ظلامٌ غليظٌ ملموس ، فيطمس النهار ثلاثة أيام متوالية .
وأخيرًا لابد أن تقع ضربة واحدة فى منتصف الليل ، فتقتل
جميع أبكار مصر ، ويمسى المَلِكُ مثخنًا بجراح عشرة ، ١٩٠
ويُروَّضُ ذلك التنين النهرى فيوافق على مضض آخر الأمر
على أن يسمح للمقيمين لديه بالرحيل ، وكثيرًا ما
يلين قلبه العنيد ويخشع ، لكنه يعود كالجليد
الذى يزداد شِدَّةً إذا تجمّد بعد انصهاره ، حتى يحفزه غضبه إلى
مطاردة الذين كان قد سمح لهم بالخروج أخيرًا ، فإذا البحر ١٩٥
يبتلعه هو وجنوده ، بعد أن يتيح للراحلين المرور
كأنما يسيرون على اليابسة بين جدارين من البلّور ،
عندما يرفع موسى عصاه آمرًا إياه أن يَنْشَقَّ
وينقسم حتى يصل الناجون إلى البر .
وهذه القوة الجبارة سوف يستمدها الكليم من الله ٢٠٠
الذى يرسل مَلَكًا من لدنه إليهم ، وسوف يسير
أمامهم فى سحابةٍ وعمودٍ من نار ،

سحابة بالنهار وعمود من النار بالليل ،

ليرشدهم فى رحلتهم ، وعلى مسافة ما من

خلفهم يحميهم فى أثناء مطاردة الملك العنيد لهم ، ٢٠٥

ولسوف يطاردهم بالليل ، ولكن الظلام يحول دون

اقترابه منهم حتى انبلاج الصبح ،

ثم ينظر الله من خلال عمود النار والسحابة

فَتُرْبِكُ نظرته الحشد الحاشد جميعًا

وتصيب عجلات عرباتهم الحربية بلوثة ، ثم يأمر الله ٢١٠

موسى أن يرفع عصاه الجبارة

فوق البحر ، فيطيع البحر عصاه ،

وترتد الأمواج فتُطْبِقُ على صفوف المقاتلين

وتكتسح جيوشهم ، وتتقدم الذرية المصطفاة

سالمة نحو أرض كنعان ، فتنطلق من الشاطىء ٢١٥

خلال الصحراء الموحشة ، وليس ذلك بأيسر السبل ،

لكنهم يخشون أن يدخلوا على الكنعانيين فيفزعوهم إلى

الحرب ، وهم لا خبرة لهم بها ، فيصيبهم الرعب ، ويدفعهم الخوف

إلى العودة إلى مصر ، مؤثرين أن يحيوا

حياة ذل وعبودية ، فالحياة ٢٢٠

فى شرف أو ضعة أحلى لمن
لم يُدَرَّبْ على حمل السلاح ولا تحفزه الرعونة .
وسوف يحققون ذلك أيضًا بالمكوث فترةً ما
فى البرّية الشاسعة ، إذ سوف ينشئون فيها
حكومتهم وينتخبون مجلس شيوخهم العظيم ٢٢٥
من القبائل الاثنتى عشرة ، للحكم بالشريعة المُنَزَّلة .
وسوف يَنْزل الله إلى جبل سيناء فترتعد
قمته الشهباء لنزوله ، ولسوف يفرض بنفسه
بين هزيم الرعد وومض البرق ودَوِىّ الأبواق العالية
هذه الشريعة المُنَزَّلة ، فبعضها يتعلق ٢٣٠
بالعدالة المدنيّة ، وبعضها بالطقوس الدينية
للتضحية ، وسوف يُطْلعهم ، بالأمثلة
وخلال الآيات السماوية ، على الرجل الذى قُدّر له أن يسحق
الأفعى ، وعلى الوسيلة التى سوف يحقق بها
خلاص البشرية . ولكن صوت الله ٢٣٥
رهيب مرعب لأذن الإنسان الفانى ، ولذا فهم يتوسلون
إلى موسى أن يبلغهم بمشيئة الله نقلاً عنه
لينجيهم من الرعب ، فيجيبهم إلى مطلبهم ،

إذ أُعْلِمَ أنه لا سبيل إلى الله

دون وسيط ، وهو المنصب السامى الذى يشغله الآن ٢٤٠

موسى فى الشكل والصورة ، توطئة لتقديم

وسيط أعظم ، ولسوف ينبئهم بيوم مقدمه

ولسوف يتغنَّى جميع الأنبياء ، كُلٌّ فى عصره ، بزمن

مقدم المسيح العظيم . وبعد نزول الشرائع والطقوس

وإقامتها ، يبلغ فرح الله مداه بالبشر ٢٤٥

المطيعين لمشيئته ، فيتعطف ويتكرم

ويسمح ببناء بيته بين ظهرانيهم ،

وهو المسكن المقدس الذى يقيم فيه البشر الفانون ،

وهكذا ينشئون حرمًا قدسيًا وفق الشكل الذى وضعه

من خشب الأرز ، مطعّمًا بالذهب ، وبداخله ٢٥٠

تابوت ، وفى التابوت شهادته ،

أى سجلات عهده ، وفوق هذه

مقعد رحمة من الذهب بين أجنحة

مَلكَيْن وضّاءين من ملائكة الشاروبيم ، وأمامه

سبعة مصابيح موقدة فى دائرة بروج تمثل ٢٥٥

النجوم فى السماء ، وسوف تَثْبُتُ غمامةٌ فى السماء

فوق الخيمة بالنهار ، ويسطع ضوء ملتهب ليلاً ،
إلا عندما يسافرون ، وهكذا يَصِلُون آخر الأمر ،
يحدوهم المَلَكُ المرسل ويرشدهم ، إلى الأرض التى
وُعد بها إبراهيم وذريته ، وأما باقى القصة ٢٦٠
فقد تطول روايتها ، فكم من المعارك نشبت ،
وكم من الملوك قُتِلوا ، وكم من الممالك فُتِحَتْ ،
أو كيف ستقف الشمس فى كبد السماء ثابتة
يومًا كاملاً ، فتؤجّل مقدم الليل فى موعده ،
عندما يأمرها صوت إنسان قائلاً ، قفى أيتها الشمس فى "جبعون" ٢٦٥
وقف يا قمر فوق وادى "أيّلون" ،
حتى ينتصر النبى يعقوب ، فهكذا سيدعى الثالث
من أبناء إبراهيم ، والثانى من نسل إسحاق ، ومنه
تنحدر ذرية كاملة تظفر بأرض "كنعان" .
وقاطعه آدم هنا قائلاً : أيها المرسل من السماء ، ٢٧٠
يا من أضأت ظلامى ، ما أجمل الأشياء
التى كشفت عنها ، وخصوصًا ما يتعلق منها
بإبراهيم الحنيف وذريته ، فلأول مرة أشعر
بعينىّ وقد تَفَتَّحتا حقًا ، وبقلبى وقد خَفَّتْ أثقاله كثيرًا ،

وقد كنت حائرًا نَهْبًا لأفكار عصيّة عمّا عساه يحدث ٢٧٥
لى وللبشرية كلها ، ولكننى أرى الآن
يوم مقدم الذى سوف تُبارك كل الأمم فيه ،
وهو فضل لا أستحقه ، بعد أن سعيتُ للحصول على
المعرفة المحرمة بوسائل محرمة ،
لكننى لا أفهم لماذا تنزل على ٢٨٠
الذين سيتنازل الله ليسكن بينهم على الأرض
كلُّ هذه القوانين الكثيرة والمنوعة ،
ولماذا تؤدى هذه القوانين الكثيرة إلى خطايا كثيرة
بينهم ، فكيف يمكن لله أن يقيم مع هؤلاء ؟
وردَّ عليه ميكائيل قائلاً : لا يخامرنّك الشك فى أن الخطيئة ٢٨٥
سوف تسود بينهم ، لأنهم ورثوها منك ،
ولذلك أُنْزِلَتْ القوانين عليهم ، أى للكشف عن
الخبث الطبيعى فيهم وكبحه ، إذ ستهبُّ
الخطيئة لمحاربة القانون ، وإذنْ فإنهم عندما يرون
القانون سوف يكتشفون الخطيئة ، دون إقصائها ، ٢٩٠
باستثناء تلك الكفّارات الشاحبة الضعيفة ، مثل
دماء الثيران والماعز ، وربما انتهوا من ذلك إلى

ضرورة إراقة دماء أثمن وأغلى لفداء الإنسان ،
بارٌّ يفدى الظالمين ، وبذلك يجدون فى الصلاح
الذى يكتسبونه حين يؤمنون به ، ٢٩٥
سبيلاً إلى الله وصفاءً
فى الضمير ، وهو الذى لا تستطيع القوانين بكل إجراءاتها العملية
أن ترضيه ، مثلما لا يستطيع الإنسان بها تحقيق
وجوده المعنوى ، وهو الذى لا يستطيع الحياة دون تحقيقه .
وهكذا يبدو القانون ناقصًا ، ولكنه أُنْزل عليهم ٣٠٠
حتى يُسْلموا أنفسهم مطمئنّين ، آخر الآمر ،
إلى عهد أوثق وأمتن ، يرسم بضوابطه الطريق
من النماذج الغامضة إلى الحقيقة ، أى من الجسم إلى الروح ،
من فرض القوانين الصارمة ، إلى حُرّية
تقبل فضل الله الواسع وكرمه ، ومن خوف العبد من سيّدِه ، ٣٠٥
إلى حُبٍّ الابن لأبيه ، ومن العمل بالقانون إلى العمل بالإيمان .
وهكذا لن يكون موسى ، على حُبّ الله له
حُبًا شديدًا ، سوى أداةٍ من أدوات
القانون ، ولن يستطيع أن يسير بشعبه إلى أرض كنعان .
ولكن يشوع ، الذى يسميه الأميون يسوع ، ٣١٠

فهو يحمل اسمه ويضطلع بمهمته ، سوف يقهر
الخصم وهو الثعبان ، ويعود بالإنسان ،
الذى طال تجواله حائرًا فى بريّة العالم ،
سالمًا إلى فردوس الراحة الخالدة .
وريثما يكون ذلك ، سيمكثون فى كنعان الأرضية التى ملكوها ٣١٥
فيسكنونها وتزدهر أحوالهم زمنًا طويلاً ، إلا حين تهب الخطايا
الفطريّة فتقلقل سلم الأمة ،
وتحفز الله إلى إيجاد أعداء لهم
وكثيرًا ما ينقذهم الله منهم عندما يتوبون ،
على أيدى القضاة أولاً ، ثم على أيدى الملوك ، ومن بين هؤلاء ٣٢٠
ينهض الثانى ، الذى ذاع صيتُ وَرَعه
وصيتُ أفعاله الجبارة ، فيتلقى وعدًا
لا نَقْضَ له بأن يَظَلَّ عرشه الملكى
قائمًا أبد الدهر ، ولسوف يُنْشِدُ أيضًا
جميع النبوءات ، قائلاً إن السلالة الملكية ٣٢٥
لداود (وهذا هو الاسم الذى أدعو به هذا المَلِك) سوف يخرج منها
ابن هو ولد العذراء الذى نُبِّئْتَ به من قبل ،
ونُبِّيء به إبراهيم ، وهو الذى سيغدو موضع ثقة

جميع الأمم ، والذى نُبِّئ به الملوك ، فهو
آخر الملوك ، إذ لن تكون لحكمه نهاية . ٣٣٠
ولكن لابد أن تسبقه سلسلة طويلة من الورثة ،
وسوف يشتهر ابنه التالى بالثراء والحكمة ،
وسوف ينقذ تابوت عهد الرب المغمور من التنقل
من خيمة إلى خيمة ، فينزله فى معبد رائع مهيب .
وسوف يتبعه آخرون ، ممّن يُسجّل التاريخ أسماءهم ، ٣٣٥
فبعضُهم صالحٌ وبعضهم طالح ، وسِجِلُّ الطالحين أكبر ،
وهم الذين يقترفون خبائث وثنية ، وخطايا أخرى
تُضاف إلى خطايا الشعب الكثيرة ، فيبلغُ الغضب
بالله حدًّا يجعله يتخلى عنهم ، ويعرّض أرضهم
ومدينتهم ، ومعبده ، وتابوته المقدس ، ٣٤٠
مع جميع مقدساته ، للإذلال والافتراس ، إذ تلتهمها
تلك المدينة المتكبرة ، التى رأيت جدرانها العالية
وقد تُركت فى بلبلة ، فأطلق عليها من ثَمَّ اسم بابل .
وسوف يجعلهم يقيمون فى الأَسْر هناك
سبعين سنة ثم يعيدهم ٣٤٥
إذ يذكر الرحمة ، والعهد الذى قطعه

لداود ، وهو الثابت ثبات أيام السماوات ،
وعندما يعودون من بابل ، بعد أن يسمح لهم الملوك من
أسيادهم ، بفضل من الله وتوفيقه ، يعمدون إلى بيت الله
فيعيدون تعميره أولاً ، ويعيشون فترة ما ٣٥٠
حياة التواضع والاعتدال ، حتى تتضخم
ثروتهم وتتكاثر أعدادهم ويتفرقوا شيعًا وأحزابًا ،
ولكن الشقاق ينشَبُ أولاً بين الكهنة ،
وهم الرجال الذين يصلّون فى الهيكل والأَوْلى بهم
أن ينشدوا السلام ، وما يلبث نزاعهم أن يأتى بالفساد ٣٥٥
إلى المعبد نفسه ، فإذا بهم يقبضون على
صولجان الحكم ، غير آبهين بأبناء داود ،
ثم يفقدونه ليستولى عليه أحد الغرباء ، وذلك حتى
يولد المسيح الصادق ، الملك الذى مُسح على رأسه بالزيت القدسى ،
محرومًا من حقه ، ولكن مولده سوف يتميز ببزوغ نجم ٣٦٠
لم يشاهد قبل ذلك فى السماء ليعلن مقدمه
ويهدى حكماء الشرق إليه ، فيستفسرون
عن مكانه حتى يحرقوا البَخور ويقدموا أزهار البلسم والذهب
ويُفصحُ ملاكٌ مهيبٌ عن مكان مولده

للرعاة البسطاء ، قائمًا على حراسته ليلاً ، ٣٦٥

فَيُهْرعون فرحين إلى ذلك المكان ، ويستمعون إلى فرقة

من فرق الملائكة المنشدين وهى تُنْشِدُ أغنيته .

والدته عذراء ، وأما والده

فقوة الرب الأعلى ، ولسوف يصعد إلى

العرش الذى ورثه ، فلا تَحُدُّ حُكْمَهُ ٣٧٠

إلا حدودُ الأرض الرحيبة ومجدُه الذى فى السماوات .

وتوقف ميكائيل إذ رأى آدم وقد غَلَبَهُ فرحٌ

قاهر مثلما غلبه الحزن من قبل فأسال أنداء العبرات ،

دون التنفيس عنه بالكلمات ، لكنه تكلّم قائلاً :

يا نَبيَّ الأنْباء السارة ، يا من اكتملت على يديه ٣٧٥

أقصى الآمال ! لقد فهمتُ الآن بوضوح

ما دَأَبَتْ أكثر أفكارى اتزانًا على بحثه دون طائل ،

ألا وهو سبب تسمية العظيم الذى نتوقع مجيئه

بولد العذراء . السلام عليك أيتها الأم العذراء

رفيعة القدر فى حب السماء ، ولو أنك سوف تنحدرين ٣٨٠

من صُلبى ، ومن رحمك سوف يخرج ولد ينتسب

إلى الرب الأعلى ، وهكذا يتحد الله مع الإنسان .

ولابد أن يتوقع الثعبان الآن سحق رأسه
بآلام مهلكة . قل لى أين ومتى يقع
صراعهما ، وأى ضربة سوف تسحق عقب المنتصر . ٣٨٥
ورد عليه ميكائيل قائلاً : لا تحلم بأن يكون صراعهما
نزالاً أو مبارزة ، أو بأن يتخذ صورة جراح موضعية
فى الرأس أو العقب ، فليس من أجل هذا يجمع الابن بين
البشرية والربوبية ، بحيث تزداد قوته حتى تقهر
عدوك ، بل وليس هذا سبيل قهر ٣٩٠
إبليس ، بعد أن أدى سقوطه من السماء سقوطًا أشد إهلاكًا
إلى عجزه عن إصابتك بجرح مُهْلك ،
فهو جرح سوف يستطيع من جاء لخلاصك أن يشفيك منه
لا بتدمير إبليس ، بل من خلال أعماله التى تتجلى
فيك وفى ذريتك ، بل ولن يكون ذلك ٣٩٥
إلا بتلبية ما سبق أن طلبته ، ألا وهو
طاعة شرع الله الذى فرضه وفرض
عقوبة الموت لمن يعصيه ، ولابد إذن من مكابدة الموت
فهو العقوبة الواجبة على عصيانك ،
وعلى عصيان الذين سوف ينحدرون من صُلْبك ، ٤٠٠

فهو السبيل الأوحد لإقامة العدالة العليا .

ولسوف يُطبِّق شرع الله الدقيق

بالطاعة والمحبة معًا ، وإن كانت المحبة

وحدها قادرة على إقامة شرع الله ، وأما عقوبتك

فلسوف يكابدها بالمجئ بجسده ٤٠٥

إلى حياة مَلامٍ وموت ملعون

فيبشر بالحياة لكل من يؤمنون

بالخلاص الذى أتى به ، وبأن طاعته لله ستصبح طاعة

من جانبهم ، فتنتسب إليهم بقوة إيمانهم ، وبأن خصاله العالية

هى التى تنقذهم ، لا أعمالهم ، على اتفاقها مع الشرع . ٤١٠

ولهذا السبب سيحيا مكروهًا ، ويُتَّهَم بالتجديف فى الدين ،

ويُقبض عليه بالقوة ويُحاكم ويحكم عليه بالموت

ويُرمى بالعار وباللعنة ، ولسوف يُسمِّره فى الصليب

أبناءُ أُمّته نفسها ، ويقتلونه لأنه أتى بالحياة .

ولكنه سوف يُسمِّر فى الصليب أعداءك ٤١٥

والقانون المعادى لك ، وخطايا

جميع البشر ، فسوف تُصْلب جميعًا معه

ولن تؤذى بعدها أبدًا كل من يؤمن بحق

بأنه قد قضى بذلك عقوبة الإنسان ، ومن ثم فهو يموت
لكنه سرعان ما يُبعث ، فلن تكون للموت سلطة ٤٢٠
تغتصبه فترة طويلة ، ولن ينبلج ضوء الفجر الثالث
حتي يعود ، ولسوف تشهد نجوم الصبح قيامه
خارجًا من القبر ، في نضرة ضوء الفجر ،
وقد دفع فديتك التى يستعيدها الإنسان من الموت ، وهى
موته فى سبيل الإنسان ، ويُصطفى الكثيرون للحياة ٤٢٥
بإدراكهم ذلك ، ويظفرون بالنعيم
بالإيمان الذى يصدّقه العمل الصالح ، وهذا الفعل الإلهى
يلغى عقوبتك ، وهى الهلاك الذى كان ينبغى أن يصيبك
بسبب الخطيئة التى تعني الحرمان الأبدى من الحياة ، وهذا هو الفعل الذى
سوف يسحق رأس إبليس ، ويسحق قوته ، ٤٣٠
فيهزم الخطيئة والموت ، وهما أهم أسلحته ،
ويغرس حرابهما فى رأسه بأعمق كثيراً
من سحق الموت الزمنى لعقب المنتصر ،
أو من يفديهم بنفسه ، فيغدو موتًا مثل الرقاد
وانتقالاً لطيفًا إلى حياة الخلود . ٤٣٥
لكنه لن يبقى بعد بعثه

طويلاً على الأرض ، إلا لَيظهر فى أوقات معينة
لحوارييه ، وهم الرجال الذين كانوا فى حياته
يتّبعونه دائمًا ، وسوف يعهد إليهم بمهمة
تعليم جميع الأمم كل ما تعلموه منه ٤٤٠
ومن نجاته ، وهم الذين سوف يؤمنون
بالتعميد فى النهر الدفّاق ، آيةَ
تطهيرهم من ذنب الخطيئة واستحقاقهم الحياة
الطاهرة ، ويتهيأون ذهنيًا ، إن قضت الأحوال بذلك ،
للموت ، فيموتون موتًا يشبه ميتة من افتداهم . ٤٤٥
وسوف يُعلّمون جميع الأمم ، فمنذ ذلك اليوم
لن يستأثر النسل المنحدر من صلب إبراهيم
بتلقى المعرفة بالخلاص ، بل يتلقاها أيضًا جميع الأبناء
المؤمنين بعقيدة إبراهيم أينما يكونوا فى هذا العالم ،
وهكذا تصبح جميع الأمم مباركة فى ذريته . ٤٥٠
وبعدها سوف يصعد إلى سماء السماوات
بالنصر ، مَزْهُوًّا بالظفر ، خلال الهواء ،
على أعدائه وأعدائك ، وهناك سوف يفاجئ
الثعبان ، أمير الهواء ، ويجرّه فى الأصفاد مغلولاً

في شتى أرجاء مملكته ، فيلقى به تعسًا شقيًا هناك ، ٤٥٥
ثم يدخل في غامر المجد عائدًا إلى
مقعده على يمين الله ، رفيعًا يسمو
على جميع الأسماء في السماء ، ومن هناك سوف يأتي ،
عندما ينفرط عقد هذه الدنيا ويكتمل انحلالها ،
بالمجد والسلطان ليحكم على الأحياء والأموات ، ٤٦٠
وليحكم على من ماتوا على كفرهم ، ويكافئ
المؤمنين به ، ويتلقاهم في النعيم ،
سواء في السماء أو في الأرض ، إذ إن الأرض
سوف تصبح كلها فردوسًا ، مكانًا أهنأ كثيرًا
من فردوسِ عَدْنٍ هذه ، وسوف تشهد أيامًا أهنأ وأسعد . ٤٦٥

بذلك تكلم ميكائيل الملاك الأكبر ثم توقف ،
كأنما إجلالاً للعصر العظيم الذي ستشهده الدنيا ، وكان والدنا
قد أُفعم فرحًا وعجبًا فرد قائلاً :

يا للخير اللامتناهي ! يا للكرم السابغ الذي أدى إلى
أن يخرج كل هذا الخير من أعطاف الشر ، ٤٧٠
وأن يتحول الشر إلى خير ، بل إن روعته أكبر
من روعة الخلق الذي أتى أولاً

بالنور من جوف الظلام ، لقد غَدَوْتُ نهبًا للشّك والتردد ،
تُرى هل ينبغى أن أندم الآن على الخطيئة
التى اقترفتُها وتسببتُ فيها ، أم أبتهج ٤٧٥
ويزداد فرحى لزيادة الخير الذى سوف ينبع منها ،
وزيادة المجد لله ، وزيادة الخير الذى سيتلقاه الناس
من الله ، وزيادة رحمته عن غضبه ؟
ولكن قل لى : إذا كان مُخَلِّصنا لابد أن يصعد إلى السماء
ولا مناص من عودته إليها ، فماذا عساه يحدث للقِلَّة ٤٨٠
من المؤمنين به ، وقد تركهم وسط قطيع الكُفّار من
أعداء الحق ، فمن ذا الذى سيهدى
شعْبه ، ومن يدافع عنه ؟ أفلن يفعل الكُفَّار
بأتباعه أنكى وأمرّ مما فعلوه معه ؟

وقال المَلَك : بل سيفعلون ذلك وثِقْ فى قولى ، ولكنه ٤٨٥
سوف يرسل من السماء المُعَزِّى إلى خُلَصَائه ،
حسبما وعد الله ، وهو الذى سوف يُسْكِنُ
روحَه فيهم ، وناموس الإيمان ،
الذى يعمل بقوة الحب فيكتبُ ما يكتبُ على قلوبهم ،
ليهديهم إلى الحق كله ، ويُحَصِّنَهم أيضًا ٤٩٠

بدروع روحية ، حتى يستطيعوا صدّ
اعتداءات إبليس ، وإطفاء نار سهامه الملتهبة ،
وكل ما يستطيع الإنسان أن يفعله لصدّها ، غير هيّاب ،
ولو كان ذلك حتى الموت ، والتصدّى لأمثال تلك القسوة ،
واجدين من السلوى والتسرية الباطنة مكافأة وعِوَضًا ، ٤٩٥
وكثيرًا ما يلقون المؤازرة الثابتة التى سوف تُدهش
أشد من يضطهدونهم كبرًا وخيلاء ، إذ إن الروح
الذى يُلقيه أولاً على رُسُله ، الذين يبعثهم
لهداية الأمم إلى الإيمان ، ثم يلقيه على جميع الذين
عُمِّدوا ، سوف يهبهم عطايا رائعة تمكنّهم ٥٠٠
من الحديث بجميع اللغات ، والقيام بجميع المعجزات ،
على نحو ما فعله سيّدهم من قبل ، وهكذا يكتسبون أنصارًا
بأعداد كبيرة من كل أُمّة حتى تتلقى
بالفرحة الأنباءَ القادمةَ من السماء ، وأخيرًا وبعد
أداء مهمتهم ، وإنتهاء الشوط الذى قطعوه ركضًا ، ٥٠٥
يتركون ما سجلوه كتابة من مذهبهم وقصتهم ،
ويموتون ، ولكن يَحُلُّ مَحَلَّهم ، على نحو ما يُحَذِّرون منه ،
ذئابٌ تخلُفُهم ترتدى مسوح المُعلّمين ، ذئابٌ شرسة فتاكة ،

تعمد إلى جميع الأسرار المقدسة للسماء

فتستغلها فى تحقيق مصالحها الخبيثة الخاصة ، ٥١٠

فى تحقيق الربح ومرامى الطموح ، وأما الحق

فيلوثونه بالخرافات والتقاليد ،

وإن ظل نقيًا فى تلك السجلات المكتوبة فحسب ،

ولا سبيل إلى فهمه إلاّ بالروح وحدها .

وسوف يسعون بعد ذلك إلى إضفاء أسماء رفعة على أنفسهم ، ٥١٥

وحيازة العقارات واكتساب الألقاب ، ويضمّون إلى ذلك

السلطة العلمانية ، ولو ظلوا يتظاهرون فى أعمالهم

بالروحانية ، فينسبون إلى أنفسهم مِلْكيّة

روح الله ، وهى التى وَعَدَ بها ونَزَّلها

على كل المؤمنين ، واستنادًا إلى ذلك التظاهر ٥٢٠

سوف يفرضون القوانين الروحية بالسلطة المادية

على كل ضمير ، وهى القوانين التى لن يجدها أحد

فيما انتهى إليهم من سجلات ، أو فيما سوف تنقشه الروح بالفطرة

وتحفره فى القلب ، فماذا عساهم يفعلون إذن

سوى أن يفرضوا سلطانهم على روح العطف الإلهى نفسه ، ويحبسوا ٥٢٥

الحرية رفيقة تلك الروح ، وسوى أن يهدموا

معابدها الحية ، التى بناها الإيمان فانتصب صرحها ،
إيمانهم لا إيمان غيرهم ، وهل يمكن أن نسمع فى الأرض
عمّن هو مُنزّه عن الخطأ ، قياسًا بالإيمان والضمير ، أو من هو
معصوم ؟ لكن الكثيرين سوف يزعمون العصمة ، ٥٣٠
ومنها ينشأ اضطهادهم الغليظ
لكل من يثابر فى العبادة ، عبادة
الروح والحق ، وأما سائر الناس ، بل أكثرهم ،
فسوف يعتبرون الطقوس الظاهرة والأشكال الجذابة الخادعة
مناط الدِّين كله ، وسوف يتراجع الحق ٥٣٥
مُصابًا بأسهم البُهتان ، وأما الأعمال التى تصدّق الإيمان
فسوف يندر وجودها ، وهكذا سوف يمضى العالم ،
خبيثًا للأخيار حميدًا للأشرار ،
وهو يئن تحت أثقاله نفسها حتى يحين اليوم الذى
يتنفس فيه الأبرار الصعداء ، ٥٤٠
وينصبُّ الانتقامُ على الخبثاء ، عند عودة
من وُعِدْتَ بعودته منذ هنيهة ليعينك ،
ولد العذراء ، وهو الذى نُبِّئْتَ بمقدمه فى نبوءة غامضة آنذاك ،
ثم عرفته الآن بوضوح مُخلّصًا لك وسيّدًا ،

وآخر من يتجلى فى السحائب المرسلة من السماء ٥٤٥
فى بهاء الله ومجده ، ليدمر
إبليس مع عالمه الفاسق ، ثم ينشئ
من الكتلة الملتهبة ، وفى صورة مطهرة نقية ،
سماءً جديدة ، وأرضًا جديدة ، وعصورًا لا نهاية لمواقيتها ،
تقوم على أسس الصلاح والسلم والحب ، ٥٥٠
وتؤتى ثمارها فرحًا ونعيمًا مقيمًا .

وانتهى ميكائيل من حديثه فرد عليه آدم آخر مرة قائلاً :

ما أسرع ما نجحت نبوءتك ، أيها النبئ المبارك ، فى
قياس عمر هذا العالم العابر فى سباق الزمن
حتى يقف الزمن ويثبت ، فلا وراءه إلا العماء ، ٥٥٥
والسرمد ، حيث لا تقدر عين على بلوغ منتهاه .
ولسوف أرحل من هنا وقد تلقيت علمًا عظيمًا ،
واطمأن فكرى اطمئنانًا عظيمًا ، ونلتُ مِلْءَ ذهنى
من المعرفة ، بقدر ما يستطيع ذلك الوعاء أن يحمل ،
وكانت حماقتى هى الطموح إلى طلب ما يتجاوزه ٥٦٠
ولقد تعلمت ، منذ الآن ، أن أَحْسَنَ الأشياء الطاعة ،
وأن أُحِبَّ الله الواحد وأخشاه معًا ، وأن أمشى
كأنما أمشى فى حضرته ، وأن أرقب إلى الأبد

عنايته الإلهية ، وأن أتوكل عليه وحده ، فهو

الرحيم بكل ما خلق وصوّر ، مدركًا أنه بالخير ٥٦٥

دائمًا ما يغلب الشر ، وأنه بصغرى الأسباب

ينجز أعظم الأمور ، وبما يُظن ضعفُه من الأشياء

يقهر ذوى القوة الدنيوية ، ويقهر حكماء الدنيا

بذوى الطيبة البسطاء ، وبأن المعاناة من أجل الحق

هى الجَلَدُ المؤدى إلى الانتصار الأرفع ، ٥٧٠

وأن الموتَ للمؤمن بابُ الحياة ،

فلقد تعلمتُ ذلك من المثل الذى ضربه لى

من أُقِرُّ الآن بأنه سيفدينى وأنه مبارك إلى الأبد .

وأجابه المَلَكُ لآخر مرة أيضًا قائلاً :

ما دمت قد تَعَلَّمْتَ ذلك فقد بلغت جِماعَ ٥٧٥

الحكمة ؛ فلا تطمحْ فى طلب ما هو أرفع ، على أنك عُلِّمْتَ

أسماءَ جميع النجوم ، وجميع القوى الأثيرية

وجميع أسرار المحيط ، وجميع بدائع الطبيعة ،

أو بدائع الله فى السماء ، أو الهواء أو الأرض أو البحر ،

وتستمتع بجميع ثروات هذا العالم ، ٥٨٠

وبيدك زمام الحكم كله ، فهى مملكة واحدة ، وما عليك إلا أن تضيف

أعمالاً تتناسب مع معرفتك ، وأن تضيف الإيمان ،
وتضيف الفضيلة ، والصبر ، والتعفف ، وأن تضيف الحب
وهو الذى سيطلق عليه اسم الإحسان فى المستقبل ، فهو رُوحُ
سائر الخصال ، وعندها لن تكره ٥٨٥
أن تترك هذه الفردوس ، بل ستملك
فردوسًا فى باطنك ، أَسْعَدَ كثيرًا وأهنأ .
فلنهبط الآن إذن من هذه القمة التى
نتطلع منها ، فلقد حان الموعد المضروب ،
ولابد من رحيلنا من هنا ، وانظر هؤلاء الحراس ٥٩٠
الذين جعلتهم يرابطون على ذلك التل ، وينتظرون
أوامر انتشارهم ، وفى مقدمتهم سيفٌ ملتهب ،
يُلَوِّحُ به ضاريًا ، فهو إشارة الانطلاق .
لا يجوز لنا التلكُّؤ ، فاذهب وأيقظ حواء ،
فلقد بعثتُ الطمأنينةَ فى نفسها أيضًا بأحلام لطيفة ٥٩٥
تبشر بالخير ، وهيأتُ مشاعرها وملكاتها جميعًا
للتسليم الخاشع ، وعليك أنت فى الوقت المناسب
أن تُطلِعَها على ما سَمِعْتَه منى حتى تشاركَكَ فيه ،
خصوصًا ما يخص إيمانها من معرفة ،

ألا وهو الخلاص العظيم على يد أحد أبنائها فى المستقبل ٦٠٠
(إذ سيأتى به ولد عذراء) لجميع أبناء البشر ،
وحتى يعيش كلاكما - ولسوف تعيش أنت أيامًا كثيرة -
وقد اجتمعتما على إيمان واحد ، برغم الأحزان
الناشئة عن سابق الآثام ، لكن بفرْحٍ وابتهاج أكبر
عند تأمل النهاية السعيدة . ٦٠٥

وانتهى ميكائيل من حديثه ، فأخذا يهبطان التل ،
وعند السطح أَهْرَعَ آدمُ إلى الخميلة التى كانت حواء
ترقد نائمة فيها ، قبل ميكائيل ، فألفاها قد استيقظت ،
فاستقبلته بكلمات خَلَتْ من الأحزان قائلة :

أعرف من أين رجعتَ وأين ذهبتَ ، ٦١٠
فلقد كان الله معى فى منامى ، وأرشدتنى أحلامى
إلى الذى أُرسل إلينا بالبُشرى ، وبالخير العظيم
الذى تنبأ به ، منذ أن ران علىَّ الهمُّ وغَمُّ القلب
فأنهكنى فنمت ، ولكن هيّا بنا ، تقدم فأتبعك ،
لن أتباطأ عنك ، فالذهاب معك ٦١٥
هو البقاء هنا ، وتصوُّرُ البقاء هنا دونك
يحفزنى على الرحيل وإن كرهته ، فأنت لى

جميع الأشياء تحت قبة السماء ، وجميع الأماكن أنت ،

أنت الذى نُفيتَ من هنا بسبب جريمتى المتعمدة .

وإليك عزاء آخر لا ريب فيه ٦٢٠

أحمله معى من هنا ، وهو أننى ، وإن كنت السبب فى فقدان كل شيء ،

قد أُنعم علىّ بفضلٍ لا أستحقه ،

إذ سأضع الولد الموعود الذى سوف يعيد لنا كل شئ .

بهذا تكلمت أُمُّنا حواء ، وسمعها آدم فَسُرَّ

سرورًا عظيمًا لكنه لم يُجبها ، إذ كان المَلَكُ الأكبر ٦٢٥

يقف على مسافةٍ جدٍّ قصيرةٍ منهما ، وكان ملائكة الشاروبيم

يهبطون من التل الآخر لاحتلال مواقعهم الثابتة

فى صفوف وضاءة ، تومض على الأرض

وهم يزحفون كالشهب البراقة ، مثلما يزحف ضباب المساء

المتصاعد من صفحة النهر على وجه المستنقع ، ٦٣٠

ويسرع بخطى لاهثة فى أعقاب العامل

العائد إلى منزله . وكان يتقدمهم عاليًا

سيف الله المسلول ، ملتهبًا يبرق

بريقًا ساطعًا كالمُذَنَّب فى السماء ، ويشع حرارة كالسعير

وأبخرة حارقة مثل هواء صحراء ليبيا ، ٦٣٥

وبدأ يشيع اللظى فى ذلك الجو المعتدل ، وعندها

أسرع المَلَكُ بوضع يديه فى يَدَىْ كل من

والدينا المتباطئين ، وساقهما إلى الباب الشرقى

مباشرة ، وبالسرعة نفسها هبط الجميع من الصخرة الشاهقة

إلى السهل المقصود عند السفح ، ثم اختفى المَلَك . ٦٤٠

والتفتا إلى الخلف فشاهدا الجانب الشرقى كله

من الفردوس ، التى كانت منذ هُنيهة مقام هنائهما ،

والسيف الملتهب يُلَوَّحُ به فوق الباب ،

حيث تجمعت وجوه تلقى الرعب فى القلب وأسلحة نارية .

وذرفا بعض العبرات - عبرات الطبيعة البشرية - ثم جففاها على الفور ، ٦٤٥

كانت الدنيا تمتد كُلُّها أمامهما ، تدعوهما لاختيار

مقر راحتهما ، تهديهما العناية الإلهية .

وهكذا ، بأيد متشابكة ، وخطوات حائرة بطيئة ،

ساروا وحيدين فى أرض عدن .

نهاية الكتاب الثانى عشر

والملحمة

٣ - ( المذاق المهلك ) عبارة تتضمن تورية إذ يريد ميلتون أن يقول إنه أيضًا ( مذاق الهلاك ) أى المذاق الذى يأتى بالفناء أو الهلاك ( **تكوين ٢ / ١٧** ) .

٥ - الحقيقة أن عدن لم تضع وإنما ضاعت الفردوس فحسب وهى عند ميلتون جزء من عدن - ولكنه يستخدم عدنا هنا للدلالة على الفردوس والمقصود بالرجل الأعظم المسيح عليه السلام ( **الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ٢١/١٢ والرسالة إلى أهل رومية ١٩/٥**) .

٦ - هى (أورانيا) - ولكنها ليست الآلهة الأسطورية فحسب بل روح القدس أيضًا. وقد كان هذا الخلط شائعًا عند ميلتون .

٨ - يحتمل أن يكون (حوريب) وطور سينين اسمين مترادفين لنفس الجبل ويحتمل أن يكونا اسمين لذروتين من ذراه المتعددة .
(واسم الجبل فى التوراة سيناء - **خروج ١١/١٩** - ولكنه يشار إليه أيضًا باسم (حوريب) ( **تثنية ٤/ ١٠** ) . والمقصود بالراعى موسى عليه السلام . إذ كان راعيًا فى الحقيقة وكان راعيا بالمعنى المجازى لبنى إسرائيل . انظر **الخروج ١/٣** للمعنى الأول **والمزمور ٧٧/ ٢٠** للمعنى الثانى حيث ترد عبارة « هديت شعبك كالغنم بين موسى وهرون» .

٨ - أى علم بنى إسرائيل - ( **تكوين ١** ) .

١٠ - هذه فكرة أسطورية قديمة طوعها ميلتون لتساير التراث الدينى . إذ تقول الأساطير اليونانية إن العماء هو المادة الأولية (الهيولة) التى لا شكل لها ولا صورة ، والتى خلق منها العالم . وجبل صهيون وجبل (المريا) هما الجبلان اللذان بنيت عليهما بيت المقدس . كان المعبد على جبل المريا . أما صهيون فكان اسمه «مدينة داود» ( انظر **تكوين ٢/٢٢** ، **صموئيل ثانى ٢٤ - ١٨ أخبار الأيام ثانى ١/٣**) .

١١ - كان سلوام غديرا رقراقا تدفقت مياهه بعد ذلك وسالت ، وغدت جدولا يروى (حديقة الملك) ( **أنجيل يوحنا ٧/٩** إلى ١١ ) كما ورد ذكره باعتباره مكانا عاما فى أنجيل لوقا ٤/١٣ ) .

١٢ - أى المعبد المقام فى بيت المقدس ( أورشليم) ( انظر **ملوك أول ١٩/٤** و ٢٠ ) وهو المكان الذى تنزل فيه الوحى على المسيح عليه السلام . ولما كان المسيح قد أثبت معجزة ارتداد البصر إلى الأعمى هناك حين جعله يغتسل من ماء الغدير (سلوام) فربما كان ميلتون يرمى إلى التمثل بهذه المعجزة لأنه كان قد فقد بصره هو الآخر . وربما كان ميلتون يريد أن يعقد مقارنة أخرى بين الغدير القريب من المعبد وبين النبع الذى يجاور مذبح (زيوس) على جبل (هليكون) وهو النبع الذى كانت ترتاده ربات الفنون والآداب .

١٥ - جبل (هليكون) الذى كانت ترتاده ربات الشعر . ويقصد ميلتون أنه سيعلو عليه لأنه سيعالج موضوعات أسمى من موضوعات الشعر الوثنى .

١٦ – هذا التباهى بالتجديد معهود فى القصائد الملحمية .

١٨ – انظر **المزمور** ١٥/ ١ و ٢ **والرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس** ٣/ ١٦ .

٢٢ – انظر **أنجيل متى** ٣/ ١٦ ، **وأنجيل مرقس** ١/ ١٠ ، **وأنجيل لوقا** ٣/ ٢٢ ، **وأنجيل يوحنا** ٣/ ٢ .
وهذه إشارة إلى الفكرة الشائعة التى تقـول إن الحياة (والإنسان) قد خلقا من الموت والظلام .

٣٤ – أى إبليس الذى تمثل بالثعبان .

٣٥ – أى حسده الإنسان لما أسبغه الله عليه من مكانة عالية .

٤٥ – يمزج مـيلتون هنا بين الإشارات إلى مـا ورد فى الأنجيل ( **لوقا** ١١/ ١٨ ) وإلى مـا ورد فى **إلياذة هوميروس** ( الكتاب الأول / ٥٩١ ) .

٤٩– هذا البيت هو نهاية المقدمة والبيت التالى هو بداية أحداث الكتاب الأول .

٥٠ – الفقرة من البيت ٥٠ إلى البيت ٨٣ تمثل ما يسـمى فى البلاغة القديمة بالعرض أو البسط أى وصف المشهد الذى تقع فيه الأحداث .

٧٤ – مركز الأرض يعنى الأرض نفسها ، أما القطب الأقصى فهو ليس قطب الأرض بل قطب الكون . إذ كان المعتـقد أن الأرض مركز لعدد من الأفلاك يشـير أحد أقطابها إلى السماء الأثيـرية ويشير القطب الآخر إلى الدرك الأسـفل من الجحـيم . أما تحديد المـسافة فـيعتـمد فيـه ميلتـون على (هيزيود) (وهوميروس) .

٨١ – (بعلزبول) فى العـبرية أو بعلزبوب تحريف لـكلمتى بعل ذباب أى – بعل الذباب أى سـيدها – وهو يسمى فى الأنجيل أمير الشياطين (انظر **أنجيل متى** ١٢/ ٢٤) .

٨٤ – حديث إبليس هنا مختلط لألمه وغضبه – وهو فى الأبيات الأربعين التالية يفصح عن هذا عن طريق العبارات الممزقة غير المكتملة . هذه العبارة صدى للآية الواردة فى **إشعياء** ١٤/ ١٢ .

٩٢ – أى الله – سبحانه وتعالى . لاحظ أن إبليس يتحاشى ذكر لفظ الجلالة مباشرة.

٩٧ – يذهب بعض الشـراح إلى أن الأبيات من ٩٥ – ٩٧ مـأخوذة من رد برومـيثيـوس على زيوس فى مسرحية **بروميثيوس مغلولا** ( الأبيات ٩٩٢ – ٩٩٧ ) ولكن ميلتـون رغم معرفته بتلك المسـرحية لم يكن يرمى إلى محـاكاة ايسخولوس الكاتب المـسرحى اليونانى القـديم بل كان يحاول إضفـاء صفات ملحمية على شخصية إبليس .

١٠٥ – دارت المعركة ثلاثة أيام انتهت بهزيمة الملائكة العاقين ولكنهم لم ينهزموا هزيمة ساحقة كما يتضح من هذه الفقرات إذ لم يكن الخالق يريد لهم الفناء بل كان يريد إخراجهم من الجنة فحسب كما يقول ميلتون نفسه فى الكتاب السادس (البيت ٨٥٤) . أما استخـدام كلمة «سجال» وتعبير زلزلت عرشه فهو من قبيل المبالغة .

١١٦ – المقصود بالآلهة الكائنات الروحية أو الملائكة .

١١٧ – المعنى الحرفى هو الكـيان النارى لأن الشياطين تنتمى إلى طبـقة من طبقات السمـاء تغشاها النار . وبينما يتفاخر إبليس بأن الأقدار قـد قضت للملائكة بالخلود لا يرى بعلزبول فى هذا الخلود ما يبعث على الأمل .

١٢٨ - أى من كانوا متوجين قبل الهزيمة ولكن المقصود هو الإيحاء بالرفعة والعظمة والمتوجون ، طبقة من طبقات الملائكة ، كذلك كلمة الصناديد التى أوردها هنا ترجمة لكلمة Powers انظر الكتاب الثانى البيت (١١) حيث ترد الإشارة إلى الصناديد (وانظر الحاشية) والبيت (٣١٠) حيث يقرن المتوجون بالصناديد.

١٢٩ - (الصاروفيم) هو صيغة الجمع بالعبرية (فالياء والميم تقابل الواو والنون بالعربية) والكلمة إذن جمع وتشير إلى أرفع درجات الملائكة .

١٣٢ - يشير (امبسون) إلى أن هذين البيتين يتضمنان مفارقة ، إذ إن (بعلزبول) يكرر المبالغة التى وقع فيها إبليس أولاً ثم يضيف أن رفعة البارى تعرضت لامتحان أثبت حقيقتها .

١٣٨ - أى الأرواح - وهذه مفارقة إذ يعنى (بعلزبول) أنه لم يفن منها شىء - كما يتضح من البيت التالى .

١٤٠ - ميلتون يستخدم الفعل فى حالة المفرد لأنه يرى أن الذهن والروح شىء واحد .

١٥٢ - المحيط البهيم هو العماء كما يتضح من الكتاب الثانى .

١٥٥ - يفرق ميلتون بين صفة الأزلية والدوام التى يختص بها البارئ جل وعلا وبين صفة السرمدية التى يهبها الله للخلق - وهناك قطعا تفرقة بين اللفظين Aeternus و Perpetuus فى اللاتينية . ولذلك فضلنا صفة السرمدية هنا . ( انظر سورة القصص - الآيتين ٧١ - ٧٢ ) .

١٥٨ - يقصد بالعمل أداء ما يأمرهم به الله ، أما المعاناة فهى احتمال العذاب . وثم مقابلة بين إيجابية العمل وسلبية المعاناة .

١٧١ - يقصد بالرسل الملائكة الأخيار . وقد ذهب بعض الشراح إلى تفسير قول إبليس هذا بأنه يرفض الاعتراف بأن البارئ هو الذى أوقع به الهزيمة وينسب ما حل به إلى فرق الملائكة الأبرار . ويقول (امبسون) إن هؤلاء الشياطين كانوا فى حال من يفيق من المخدر ولا يذكرون الأحداث التى وقعت ما بين الموقعة وإطلاقهم من الأصفاد.

١٩٨ - ١٩٩ (التيتان) فى الأساطير القديمة سلالة من نسل (أورانوس) أى السماء و(جى) أى الأرض ، وقد ثاروا على حكم أبيهم (أورانوس) ونصبوا واحد منهم هو (ساتورن) ملكًا على الآلهة . وأما (جوبيتر) فهو (زيوس) رب أرباب اليونان القديمة ، وأبناء الأرض هم العماليق الذين تمردوا عليه ( مثلما تمردت سلالة التيتان على أورانوس ) ولكنهم هزموا . وأما (برياروس) فهو اسم لكائن ضخم من نسل السماء والأرض ، ( مثل التيتان ) والعماليق ولكنه ليس منهم وكان فى رأى البعض عملاقًا له مائة ذراع وقد ذهب معظم النقاد إلى أنه كان قريب الصلة ( بالتيتان ) غير أن أرجله على شكل أفعوان . ويذهب جمهور الشراح إلى أن (تايفون) أو (تايفوس) كان من العماليق وكانت له مائة رأس على شكل الأفاعى وأنه يختلف فى ذلك عن (برياروس) وأنه يقترب فى هيئته من (التيتان) ولكن الأساطير كثيرًا ما تخلط بين السلالتين ويذكر أوفيد فى كتابه **مسخ الكائنات** أن أهل الأوليمب لم تكن لهم حيلة أمام (التايفون) إلا أن يمسخوا صورهم حتى يفلتوا من غضبته إن هو قاتلهم .

٢٠٠ - (طرسوس) هى عاصمة (سليسيا) القديمة ( فى أسيا الصغرى ) والمقصود هنا هو (سليسيا) وليس (طرسوس) بالذات .

٢٠١ - (ليفاياثان) هو الوحش الأسطورى المذكور فى **سفر أيوب** وفى النشيد رقم ١٠٤ وأحيانا ما يوصف بالتنين أو الأفعوان كما يوصف أحيانا بأنه له جسد حوت ضخم (رغم أن الحوت لا تغطى جسمه

القشـور كما يذكـر ميلتـون هنا ) . وقصة المـلاحين والحوت ذائعـة وقد وردت فى قـصة السندباد البحرى مثلا وفـى رحلات القديس (برندان) . وربما اطلع عليها ميلتون فى كـتاب المؤرخ السويدى (أولاس ماجنوس) التى ترجمت إلى الإنجليزية فى ١٦٥٨ - وهذا يفسر إشارته إلى بحر النرويج .

٢٣٢ - جبل (بلوروس) يقع فى الشمال الشرقى من جزيرة صـقلية على مقربة من جبل «إتنا» ويسمى الآن رأس فارو .

٢٣٧ - تعتمد هذه الصـورة على النظرية القديمة التى كانت تقول بأن البراكـين تثور عندما تهب الرياح فى باطن الأرض وتزيد من سرعتـها المعادن الملتـهبة مثل الكبريت المـتبخر بحيـث تفور وتخلف القاع خاويًا . والشاعـر يشبه أرض الجحـيم بأرض البركان بعد أن يفـرغ ما فى أحشائه من مـعادن وأبخرة وبخاصة لونها المكفهر القاتم .

٢٣٧ - فى الأصل يصف ميلتون هذه البـحيرة بأنها **Stygian** نسبة إلى نهر **Styx** أحد أنهار الـجحيم أو العالم السفلى فـى الأساطير اليونانية ، ولكن الإشـارة واضحة إلى بحيرة اللهـب التى سبق ذكرها فى البيت ٢١٠ وسبـقت الإشارة إليها فى البيت ٥٢ أيضًا. ويقـول (تليارد) إن الصفة أصبحت تشـير بوجه عام إلى الجحيم أو العالم السفلى بل إن ميلتون يستـخدمها فى الكتاب الثانى بهذا المعنى ( انظر البيت ٥٠٦ ) .

٢٤١ - أضفت عبارة « فى ظنهما » إلى هذه الجملة لإيضاح مرمى ميلتون .

٢٥٥ - هذه من الأفكار الرواقية الشائعـة وقد أشار إليها (هوراس) فى **الرسالة الأولى** (الباب الحادى عشر - ٢٧) ولكن النظرية التى شـاعت فى القرن السـابع عشـر واقترنت بالإلـحاد هى أن الجنة والجـحيم حالتان من حـالات النفس أو الذهن يمكن ردها إلى (أمورى دى بينى) أحد زنادقـة العصور الوسطى ولذلك فهى تختلف عن الأفكار المشابهـة التى وردت فى شيكسبير (هاملت - ف ٢ - م ٢ - ٢٥٠) وفى مارلو (**فاوست** - ف ٢ - م ١ - ١٢٢ و ١٢٤ ) وعلى أى حال فـثم مفـارقة كبـرى فى هذين البيتين إذ إن إبليس يعجز عن إثبات دعواه أولا حـين يبدى دهشته للتغير الذى طرأ على بعلزبول وثانيًا حين يقر فى الكتاب الرابع أنه أنى ولى وجهه فثم جحيم وأنه يحمل الجحيم فى ذاته .

٢٨٨ - هو (جاليليـو) الذى أدخل تحسينـات كبيرة علـى المنظار المقرب واسـتطاع من ثم استخـدامه فى دراسة الفلك إذ اكتشف بالفعل حلقات (زحل) وأقمار (المشترى) . وأما كلمة الفنان فتعنى العالم وقد كان ميلتـون معجبًا بعلم (جاليلـيو) وهو يذكر أنه زاره ويقال إن ذلك قد حـدث فى عام ١٦٣٨ وكان جاليليو آنذاك قد حددت إقامـته فى منزله فى فلورنسا وهى (فالدارنو) أو وادى (الأرنو) - وكان منزله يشرف على تلال (فيزولى) . أما تشبيه الدرع بالقمر فقد ورد فى **الإلياذة** رغم أن الصورة التى رسمها هوميروس (انظر الـقسم ١٤ - البيت ٣٧٣ ) تركز على البـريق لا على الحجم. كما أن (سـبنسر) قد شبه الدرع بالقمـر فى ملكة الجان - ويذكر بعض الشراح أن التشبيه بالقـمر يقرب إلى الأذهان العالم الأرضى الذى ستقع فيه حوادث الملحمة فيما بعد .

٣٠٣ - تعنى حرفيا « وادى الظلال » وهو بقـعة رائعة الجمال بالقرب من فلورنسا من المحـتمل أن ميلتون قد زارها فى خـريف ١٦٣٨ . وأما 'أتروريا' فهـو اسم آخر لمنطقة (توسكانا) - لاحظ أن مـيلتون يسـتخدم الـظلال هنا كناية عن أوراق الأشجـار الوارفة . أمـا أوراق الأشجـار الذابلة نفـسها فـهى

الاستعارة المألوفة للتعبير عن الأعداد التى لا تحصى من الموتى ( انظر الإلياذة ( ٤/ ١٤٦ ) و**الإنيادة** ( ٦/ ٣٠٩ ) و**جحيم** دانتى ( ٣/ ١١٤ - ١١٥ ) .

٣٠٥ - كوكبة (الجبار) من أبرز ما يرى فى السماء صيفًا وشتاءً وهو مجموعة من النجوم تخيلها الأقدمون فى صورة صياد عملاق يحمل على كتفه الأيسر جلد الأسد وبيده اليمنى قوسه ونشابه فى وسطه حزام من ثلاثة نجوم براقة وعند قدميه كلبان أحدهما هو المشهور بالشعرى اليمانية Sirius عند العرب أو ما يطلق عليه كلب الجبار وحسب Canis majoris وقد ارتبط ظهور هذه الكوكبة أول الأمر ببداية موسم الرياح والأعاصير ، وهكذا أشار (فيرجيل) فى **الإنيادة** ( ١/ ٥٣٥ ) إلى هذه الأسطورة وأشار غيره من الكتاب إليها أيضًا (بلينى وريشيولى ) ولكن المهم هو ارتباط الصورة بما ورد فى سفر أيوب عن قدرة الخالق على إرسال الرياح لمعاقبة المخطئين وهى القدرة التى يرمز لها خلق ( أوريون ) نفسه ( أيوب ٩/ ٩ ) .

٣٠٨ - أرض (جاسان) (جوشن بالعبرية) هى منطقة بالقرب من محافظة الشرقية الآن فى مصر اشتهرت فى الزمن القديم بخيراتها الوفيرة .

٣١٦ - هناك إيحاء فى النص الانجليزى بأن زهور الجنة تعنى الملائكة أيضًا ، ولكن بناء الجملة العربية لا يبيح إبراز المعنيين معا .

٣٢٤ - (الشاروبيم) جمع - وهى كلمة تحتفظ بإعراب الجمع فى العبرية شأنها شأن الصاروفيم ويستخدم مترجمو العهد القديم حرف الكاف بدلاً من الشين ، ولقد أثرت أنا - بناء على اقتراح للدكتور لويس عوض - أن استخدم الصورة الشائعة فى مصر لهذا الاسم . وقد استخدم ميلتون مفرد هذه الكلمة كما استحدث مفردًا لكلمة الصاروفيم ( انظر فاولر ص ٤٨١ ) .

٣٢٩ - وهى الأسلحة التى استخدمها (جوبيتر ومنيرفا) ضد المتمردين من العماليق .

٣٤١ - تشبيه الشياطين بالجراد يعتمد على الصورة الواردة فى الكتاب المقدس والتى شاعت فى القرن السابع عشر . وقد أبرز أحد النحاتين فى عام ١٦١٧ هذه الصورة أيضًا عندما صور محاولة إغراء القديس أنطونيو ( انظر كتاب **الفن والوهم** تأليف ا.هـ. جمبريتش - ١٩٦٢ ) .

٣٥١ - هم (القوط) و (الهون) و (الواندال) الذين اكتسحوا جنوب أوروبا ونهبوا ثروات روما وأثينا فى القرن الخامس الميلادى . وربما كان ميلتون يخص (الواندال) بالذكر لأنهم هم الذين عبروا مضيق جبل طارق واستقروا فى شمال إفريقيا .

٣٥٣ - يخص نهرى (الراين) (والدانوب) لأن هذين النهرين كانا يشكلان حدود الامبراطورية الرومانية القديمة .

٣٥٥ - بهذا يكون ميلتون قد شبه الملائكة الفسقة أولا بعالم النباتات ( أوراق الشجر ) ثم عالم الحيوان (الجراد) ثم عالم البشر ( غزاة الشمال ) مما يوضح فكرة السُّلَّم أو الدرجات التى خصصها لكائنات هذا الكون وحيث تعكس الاستعارات حالات الذهن التى يمر بها الشياطين .

٣٦١ - يعود ميلتون إلى الفكرة نفسها فى الكتاب السادس حيث يقول ( ٣٧٨ - ٣٨٠ ) إن الأقدار قضت بإقصاء أسمائهم من السماء ومن الذاكرة القدسية وأنهم لابد أن يقطنوا غياهب النسيان .

٣٦٣ - « لوح الحياة » تعبير شائع ورد فى الكتاب المقدس - ( انظر **رؤيا يوحنا اللاهوتى** - الاصحاح الثالث - ٥ - ) انظر أيضًا سفر **الخروج** (٣٢) **والمزمور** ٧٩ (٢٨) ولكن صيغة الجمع الواردة هنا غير مألوفة ويعتقد أنها خطأ إملائى .

٣٦٥ - كانت الفكرة الشائعة فى العصور الوسطى وما بعدها أن آلهة الوثنية هم الملائكة الفسقة والشياطين الذين ذكرهم الكتاب المقدس وهكذا فإنهم منذ الآن لابد أن يكتسبوا أسماء هذه الآلهة الوثنية إذ نزعت عنهم اسماؤهم القديمة .

٣٧٦ - ٥٢١ - يقدم ميلتون هنا قائمة طويلة بأسماء آلهة الوثنية ولا شك أنه يحاكى فى ذلك قائمة السفن وقوادها الواردة فى **الإلياذة** (الكتاب الثانى - البيت ٤٨٤ وما بعده ) والقائمة التى يوردها فيرجيل فى **الإنيادة** ( الكتاب السابع - البيت ٦٤١ وما بعده ) والتى يعدد فيها أسماء الأبطال الذين حاربوا إنياس . وهو يبدأ مثل هوميروس وفيرجيل باستلهام ربة الشعر . وهو يقسم الشياطين الذين تحولوا إلى آلهة وثنية إلى فئات بحسب المناطق التى عبدوا فيها - وهذه هى (١) الأراضى المقدسة (٣٨١ - ٤١٨) ، (٢) سوريه وفينيقيا (٤١٩ - ٤٧٦) ، (٣) مصر (٤٧٦ - ٤٨٩) ، (٤) بليعال - دون تخصيص مقدسات بعينها ( ٤٩٠ - ٥٠٥ ) ، وأخيراً (٥) اليونان وروما ( ٥٠٧ - ٥٢١ ) .

٣٨٦ - هو أحد ألفاظ الجلالة الواردة فى التوراة . والمقصود معبد صهيون ومعنى العبارة التالية أن صور الملائكة تحف بقدس أقداس هذا المعبد .

٣٩٢ - يجمع إبليس حوله اثنى عشر شيطانًا وهم (ملكوم) (وبعليم) (وعشتورث) (وتموز) (وداجون) (واوزوريس) (وايزيس) (وحورس) (وبليعال) (وتيتان) (وساتورنوس) (وجوبيتر) وربما كان اختيار ميلتون لهذا العدد يعود إلى مذهب التنجيم الفلكى (المانيلى) الذى يقوم على افتراض أوصياء أوليمبيين يبلغون اثنى عشر وصيا أو إلى محاولة إقحام الرسل الإثنى عشر فى نظام البروج الشمسية . واسم (ملكوم) معناه بالعبرية «الملك» .

٣٩٦ - يصف (جورج ساندز) صنم (ملكوم) قائلاً إنه أجوف وبداخله موقد ملتهب ويقول إن كهنته كانوا يضربون الدفوف وينفخون الأبواق حتى لا تصل صرخات الأطفال من الضحايا إلى آذان آبائهم . ( انظر **عاموس** ٥ - ٢٦ ) .

٣٩٧ - **صموئيل ثانى** ١١ - ١ .

٣٩٨ - **ملوك أول** ٤٣ - ١٣ .

٤٠٣ - تقول التوراة : عندما تقدم سليمان الحكيم فى السن استطاعت زوجاته الكافرات التأثير عليه فبنى معبدًا عاليًا لكل من (كموش) و (ملكوم) (**ملوك أول** ١١/ ٤ إلى ٨) وذلك على قمم تل الزيتون الذى تحول اسمه من ثم إلى تل النساء ( **ملوك ثانى** ٢٣/ ١٣ ) أوتل العار - أو كما يصفه ميلتون بالدنس ويذكر (أرمياء) بستان (ملكوم) وغيره من آلهة الوثنية .

٤٠٥ - كان وادى بنى (هنوم) (**ملوك ثانى** ٢٣/ ١٠) بستانا ملكيا ترويه مياه جدول يتدفق من (سلوام) ولكنه بعد أن شهد الضحايا الذين أحرقوا فى صنم (ملكوم) لم يعد يحظى بأى احترام وأصبح الناس يخافونه ويرتعدون من ذكره . بل إن اسمه باليونانية (جهنه) أصبح يعنى جهنم أى الجحيم ، كما أن

اسمه الآخر (توفه) يعنى الدف بالعبرية وهو يشير إلى الموسيقى المصاحبة لطقوس التضحية أمام صنم ملكوم . وقد وضع (يوشيا) حدا لكل هذه الطقوس والضحايا ، كما دمر المعبد وأزال البستان وأعلن أن المكان قد حلت عليه اللعنة وغدت تلقى فيه القمامة ( **ملوك ثانى** ٢٣/ ١٠ إلى ١٤ ) .

٤٠٦ - يعتبر (كموش) الإله الوثنى المقابل (لملكوم) عند أهل مؤاب الذين يقطنون المنطقة التى حددها موسى عليه السلام ميراثا لقبيلتى رؤبين وجاد . وجميع الأسماء الواردة هنا مذكورة فى الكتاب المقدس (**عدد** ٣٢) وتقع جميعها شرق نهر الأردن والبحر الميت. وثم خلاف حول مكانها بل وما ترمز إليه . فمثلا يقال إن ( عروعير ) تقع فى أقصى شمال المنطقة وأن ( نبو ) بلدة فى الجنوب بالقرب من جبال (عباريم) .

والتوراة تذكر أن بنى إسرائيل قد فتحوا مدينة (حشبون) وهى مدينة مؤابية كان ملك سيحون قد احتلها ( **عدد** ٢١ / ٢٥ إلى ٣٠ ) كما تتضمن النبوءة الحزينة بدمار مؤاب ذكر (حشبون) و (حورونايم) ونبيذ (سبمة) و (العالة) ( **إشعياء** ١٥ - ٢٦ ) .

٤٠٩ - سيحون هو ملك العموريين الذين كانوا قد احتلوا تلك المنطقة .

٤١٠ - سبمة - ذكرت عرائش الكروم فى **إشعياء** ١٤ - ٨ إلى ١٠ وفى **إرميا** ٤٨ - ٣٢.

٤١١ - يقال إن ( العالة ) بلد بالقرب من ( حشبون ) . وميلتون يصف البحر الميت فى النص بأنه «بركة الأسفلت» وهذا هو الاسم القديم لأنه كان يتميز ببقع من الزيت الأسود تطفو فوق سطحه .

٤١٢ - (فغور) أو (بعل فغور) أحد الآلهة الوثنية التى أغوت النساء المؤابيات بنى إسرائيل بعبادتها فى (شطيم) ( **عدد** ٢٥/ ١ - ٣ ) أما كلمة ( بعل ) وجمعها بالعبرية (بعليم) فتشير إلى كبير آلهة الكنعانيين ، وقد كانت له أسماء كثيرة تختلف من مكان إلى مكان - و ( بعل فغور ) كان يعبد - كما هو واضح - فى (فغور) .

٤١٣ - (شطيم) تقع على الشاطئ الشرقى لنهر الأردن فى مواجهة (أريحا) على الشاطئ الغربى.

٤١٤ - تذكر التوراة أن عدد من ماتوا عقابا على عبادة (بعل فغور) بلغ أربعًا وعشرين ألفًا - وذلك بالطاعون الذى أرسله الله عليهم ( عدد ٢٥/ ٩ ) .

٤١٨ - انظر الكتاب المقدس( **ملوك ثانى** ٢٣ - ١ - إلى ٢٥ ) ، ( **أخبار الأيام الثانى** ٣٤/ ١ إلى ٧ ) حيث الوصف الكامل لتحطيم الأصنام الوثنية ومعابدها وكهنتها على يدى (يوشيا) .

٤٢٠ - يوصف الفرات بأنه عريق لأنه مذكور فى سفر **التكوين** ٢/ ١٤ باعتباره أحد الأنهار الأربعة التى تتدفق من جنة عدن .

٤٢١ - المقصود هو نهر (البسور) (**صموئيل الأول** ٣٠/ ١٠ ) وهو المذكور فى سفر التكوين باسم نهر مصر ( **تكوين** ١٥ - ١٨ ) ويقول (تليارد) إنه فى الحقيقة نهير أو غدير تجف مياهه فى الصيف .

٤٢٢ - انظر **ملوك أول** ١٨/ ١٨ . و( ١١/ ٣٣ ) - وعشتورث فى الحقيقة مفرد وجمعها عشتاروث وهى التى يستخدمها ميلتون مع البعليم ( التى هى جمع ) .

٤٣٥ - مثل العجل الذهبى ( **الخروج** ٣٢/ ١ إلى ٨ ) والآلهة المصرية التى اتخذت صور الحيوان .

٤٣٨ - كانت عشتروت أو إلهة القمر تنسب إلى (صيدا) فى فينيقيا القديمة - وكان لها تمثال له جسم امرأة وفوق رأسها رأس ثور وقرنان يشبهان الهلال .

٤٤٤ - كان سليمان يتمتع - إلى حكمته - برحابة القلب **(ملوك أول ٤/ ٢٩)** .

٤٤٦ - كان (تموز) ابنا لأحد ملوك سورية وقد وقعت (عشتورث) فى غرامه . وبينما هو يصطاد ذات يوم إذ قتله خنزير برى وهنا أقنعت عشتورث آلهة العالم السفلى أن يسمحوا له بقضاء نصف العام على الأرض معها والنصف الآخر فى العالم السفلى. وكانت نساء (فينيقيا) يعقدن مأتما ينعينه فيه مرة فى العام - وقد امتدت هذه العادة إلى العديد من البلدان . وقد رأى **(حزقيال)** ( ٨ / ١٤ ) نساء إسرائيل وهن يبكين تموز على باب المعبد .

وأخذ اليونان هذه القصة مستبدلين (أدونيس) (وأفروديت) (بتموز) (وعشتورث) وربما كان هذا الاحتفال الذى يتم بعد الانقلاب الصيفى (أى بعد رحيل فصل الثمر والحصاد)مرثية للعام المنصرم وهكذا فإن لون المياه فى نه (أدونيس) ( انظر الحاشية التالية) الذى يتغير فى موسم الفيضان بسبب الغرين والطمى الأحمرالذى يأتى به من جبال لبنان، أصبح رمزا لتجدد الجرح الدامى لذلك الإله الوثنى .

٤٥٠ - ربما كان هذا النهر هو نهر ليطانى الحالى فى لبنان .

٤٥٥ - رغم أن (حزقيال) كان حبيسًا وبعيدًا عما يجرى فقد استطاع أن يهتدى فى رؤياه إلى ما كان بنو إسرائيل يفعلونه .

٤٥٦ - ورد تعبير «فى الظلام» فى الكتاب المقدس بمعنى الاعتقاد بأن الله لا يرى شيوخ بنى إسرائيل انظر (حزقيال ٨ / ١٢) .

٤٦١ - انظر **(صموئيل الأول** ٥/ ١ - ٤ ) - الكتاب المقدس يشير إلى «تابوت الرب» الذى أحدث ذلك (لداجون) ولكن الكلمة الانجليزية صريحة الدلالة . أما (داجون) فهو كبير أرباب الفلسطينيين وكان يعتبر إلها من الأسماك لأن سائر جسمه - فيما عدا الرأس واليدين - مثل السمكة انظر الفقرة المشار إليها فى الكتاب المقدس ( وانظر أيضًا قضاة ١٦ - ٢٣ ) .

٤٦٦ - كانت (أشدود) (وجت) (وعسقلان) (وعكا) (وغزة) هى المدن الرئيسية فى فلسطين (انظر **ملوك أول** ٢ - ٢٩) ونبوءة تدمير هذه المدن واردة فى **(صفنيا** ٢/ ٤ ) .

٤٦٧ - رمون هو أحد الآلهة السورية ( انظر **ملوك ثانى** ٥/ ١٨ ) .

٤٦٩ - نهران من أنهار دمشق القديمة .

٤٧١ - المجذوم هو نعمان ( **ملوك ثانى** ٥ / ١ إلى ٩ ) وكان قد أوصاه (اليشع) أن يغتسل فى نهر الأردن حتى يشفى ولكنه أبى واستكبر وقال إن نهرى (بانه) (والفرفر) أجمل ثم أصاخ للنصح واغتسل فشفى ومن ثم آمن بالله . وكان أحاز **(ملوك ثانى** ١٦/ ٩ إلى ١٧ ) قد أقنع الآشوريين بفتح دمشق وبعدها استهوته عبادة (رمون) فأقام له معبدًا على النمط السورى فى بيت المقدس مكان معبد الله . كما أنه عبد سائر آلهة دمشق ( **أخبار الأيام ثانى** ٢٨ - ٢٣ ) .

٤٨٢ - لم يرد ذكر هذه الآلهة المصرية فى الكتاب المقدس - ولكن ميلتون يشير إلى الأسطورة القائلة بأن بعض آلهة (الأوليمب) الهاربين من بطش العملاق (تيفوس) دخلوا مصر وتنكروا فى صور الحيوان التى عرفها المصريون القدماء . وكان من أشهر هذه الصور صورة العجل (أبيس) التى كانت ترمز إلى (أوزوريس) وفى قصيدة «الاحتفال بصبيحة عيد الميلاد» يتحدث ميلتون أيضًا عن الآلهة المصريين (انظر الأبيات ٢١١ - ٢١٥) .

٤٨٣ - يقول ميلتون إن العجل الـذهبى المذكور فى سفر **الخروج** ( ٣٢/ ١ إلى ٨ ) قـد صنع من الحلى التى اقترضـها بنو إسرائيل من المصريين قـبل أن يرحلوا من مصر (**خروج** ١٢ / ٣٥) وأن العـجل الذهبى كان يشبه آلهة المصريين ويقول (فاولر) إنه العجل ابيس .

٤٨٤ - الملك العاصى هو (يربـعام) الذى تمرد على (رحـبعام) خليفـة سليمان عليـه السلام وأقام لنفـسه مملكة مستقلة فى شمال فلسطين وأقـام فى مدينتى (بيت آيل) و (دان) وهما مدينتان قرب الحدود - تمثالين من الذهب للعجل الذى يقدسه - وهكذا «ضاعف» من الإثم بصنعه «عجلين» بدلا من عجل واحد. ( انظر **ملوك أول** ١٢ - ٢٨ ) .

٤٨٦ - انظر **المزمور** ١٠٦ (٢٠) عن العجل الذهبى . ( وأبدلوا مجدهم بمثال ثور آكل عشب ) .

٤٨٩ - فى ليلة الخروج من مصـر أتى (يهوه) - أى الرب - على أكبر الأبناء فى كل أسـرة مصرية - انظر التوراة (**سفر الخروج** ٢ - ١٢ ) « فإنى أجتاز فى أرض مـصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصـر من الناس والبهائم وأصـنع أحكاما بكل آلهة المـصريين . أنا الرب » ويرى (فـاولر) أن الضربة وقعـت بالحيوانات المـقدسة فـى مصر (انظر - **عدد** ٣٣ / ٤ ) وربما كانـت صفة «الثاغيـة» (البيت ٤٨٩) لا تنطبق على كل الحيوان ولكن المقصود بها السخرية من اتخاذ الحيوان إلها .

٤٩٠ - ليس (بليعال) اسما لإله حقيقى ولكنه صفة مجردة تعنى الظلم أو التفاهة أو الشر بوجه عام . وعبارة أبناء بليعال (انظر البيتين ٥٠١ - ٥٠٢ ) تعنى الأشقيـاء بصفة عامة - انظر التوراة « قد خرج أناس بنو لئـيم من وسطك » ( **تثنية** ١٣ / ١٣ ) - ولكن اعتبـار (بليعال) شخصـا يعود إلى العبارة الاسـتعارية الواردة فى **العهد الجديد** «وأى اتفاق للمسيح مع بليعال وأى نصـيب للمؤمن مع غير المؤمن» (رسالة بولس الثانيـة إلى أهـل كورنثوس ٦ - ١٥ ) وانظـر أيضًا الكتاب المـقدس : « وأجلس رجلين مـن بنى بلعيال تجاهـه » ( **ملوك أول** ٢١ / ١٠ ) ويقول ( بيـرتون ) إن بليعال هو أمـير الطبقة الثـالثة من طبقات الشياطين الذين ابتدعوا كل أنواع الخبائث .

٤٩٣ - لأنه لم يكن إلها . لاحظ أن كلمة «أخيرًا» لا تدل على أنه أقل وزنا من باقى الشياطين أو أدنى فى المرتبة .

٤٩٥ - كان بنو (عالى) كهنة للرب فى (شيلوه) - انظر **صموئيل ثانى** (١٢ - ٢ - ١٧) وكانوا - كما يقول نص الكتـاب المقـدس من أبناء بليـعال أى من الـذين لم يعرفـوا الرب ولا حق الكهنة من الشـعب (المرجع نفسه) .

٤٩٧ - يرمى ميلتـون إلى انتقاد الكنيـسة فى عصـره وبلاط الملك (جيمس) الثـانى . وهو يعود إلى نفس الهجـاء والسخرية من الملوك وحيـاة البلاط فى **عودة الفردوس** - حـين يجـعـل إبليس يخاطب بليعال قائلاً :

ألم نرك أو نسمع من يقص علينا
كيف تختبئ فى البلاط وحجرات الملوك ؟
(الكتاب الثانى - ١٨٢ - ١٨٣)

٥٠٥ - فى الطبعة الأولى من الفردوس المفقود يقول ميلتون إن أبواب الرجل الكريم (أى لوط عليه السلام) أخرجت بنات حتى يفـدين رسل الله - أى الملائكة الذين اتخذوا صورة الرجال ، حلوا ضيـوفا عليه

وكان قومه يريدون الفاحشة بهم - وهى القصة التى أوردها القرآن الكريم فى سورة هود ( الآيات ٧٧ - ٨٣ ) وأوردتها التوراة - **الخروج** - الاصحاح التاسع عشر - ولكن الطبعة الثانية تشير إلى قصة أخرى وهى التى وردت فى ( **قضاة** - ١٩ ) ومجملها أن رجلا من (اللاويين) من أهل (أفراييم) خرج يقصد بيت المقدس ومعه غلامه وخليلته وبينما هم فى الطريق إذ أدركهم التعب فقرروا المبيت فى (جبعه) استجابة لدعوة رجل كريم . وحينما حل الليل أحاط بالمنزل رجال بنى بليعال يطلبون الضَّيف ليأتوا الفاحشة به - ولكن صاحب المنزل رفض وعرض عليهم ابنته العذراء فرفضوها ، فقدم الضيف خليلته إليهم « حيث تعللوا بها الليل كله » . وفى الصباح وجدوها ميتة لدى الباب .

٥٠٧ - عبارة مألوفة استعارها كثير من الكتاب من الأدب الكلاسيكى ولذلك فإن ميلتون يتحدث بإيجاز واقتضاب عن آلهة اليونان الذين ألم بهم بعد دراسة مستفيضة .

٥٠٨ - كان المعتقد أن (الأيونيين) - وهم أحد الفروع الرئيسية للإغريق - قد انحدروا من صلب (ياوان) وهو ابن (يافث) ابن نوح عليه السلام (**خروج** - ١٠ / ٢ ) (**إشعياء** ٦٦ / ١٩) .

٥١٣ - يقول هيزيود وغيره من الشعراء القدامى (يونان ورومان) إن السماء (أورانوس) أو (كويلوس) والأرض (جى) أو (تيرا) أو (ثيا) هما اللذان أنجبا (ساتورنوس) وغيره من سلالة (التيتان) . ولكن قصة (تيتان) الابن الأكبر والحرب التى شنها على (ساتورنوس) أى (كرونوس) لم تصل إلينا إلا عن طريق المؤلف المسيحى (لاكتانتيوس) وقد قام أحد أبناء (ساتورنوس) وهو (جوف) بإنقاذ والده وتتويجه أولا ثم عاد فنفاه فاضطر إلى الهروب عبر (أوروبا) أى البحر الادرياتى . ويقول (تليارد) إن ميلتون يقدم لنا هنا صورة مختلفة من صور الأسطورة إذ يتحدث فيما يبدو عن إله واحد اسمه (تيتان) وليس عن الاثنى عشر إلها من سلالة (التيتان) ، كما أنه يجعل (ساتورنوس) يتمرد على هذا (التيتان) مما يدفعنا إلى الظن بأنه أحد إخوته الكبار وليس قطعا بأبيه (أورانوس) . وقد جرى العرف على اعتبار (أوقيانوس) أكبر سلالة (التيتان) . وقد أنجب ثلاثة آلاف نهر وثلاثة آلاف حورية من حوريات المحيط

٥١٤ - كانت (كريت) مسقط رأس (زيوس) أى (جوف) .

٥١٥ - (ايدا) جبل فى جزيرة (كريت) .

٥١٦ - (الأوليمب) كان الإغريق يعتبرون هذا الجبل مقر الآلهة ويقع فى شمال بلاد اليونان وقمته مغطاه بالثلوج دائمًا حتى فى بعض أشهر الصيف . وأما السماء الوسطى فهى إشارة إلى الفكرة التى أشاعها المدرسيون (الاسكولائيون) فى العصور الوسطى عن تقسيم السماء إلى ثلاث سماوات . الدنيا دافئة ورطبة والعليا حارة والوسطى باردة. وتمتد السماء الوسطى حتى تصل إلى قسم الجبال العالية .

٥١٧ - كانت نبوءة أبوللو الشهيرة تقيم فى (دلفى) على حافة صخرة شاهقة تطل على هوة سحيقة وذلك فوق جبل (البارناس) .

٥١٨ - فى (ابيروس) وكانت أيضًا مقرا لنبوءة (زيوس) .

٥١٩ - أى بلاد اليونان ، كان (الدوريون) وهم من الشعوب التى يتكون منها الإغريق يعيشون فى (دوريس) وينسبون إليها .

٥٢٠ - عند هروب (ساتورنوس) - بعد هزيمته من (جوف) - عبر البحر الأدرياتى انظر الحاشية (١١٣) أعلاه . وأما حقول (هسبيريا) فهى إيطاليا الحديثة . وهسبيريا تعنى حرفيا الغربية لأن إيطاليا تقع إلى الغرب من بلاد اليونان .

٥٢١ – سهول أو حقول (الكلت) هى فرنسا . والجزر القصوى هى الجزر البريطانية – لأن القدماء كانوا يعتبرون أن الجزر البريطانية تقع على حافة الأرض – وربما كان المقصود هو بريطانيا وأيرلندا وأيسلندا جميعا .

٥٤٣ – يظهر (عزازيل) فى صورة أحد كبار الملائكة العاصين الذين يتعرضون لعقاب الله وذلك فى سفر الرؤيا (المشكوك فى صحته) – انظر (سفر **حنوك** وبخاصة ٨ و ١٠ و ١٣ و ٦٤ و ٦٥ و ٧٩ ) وهو يلقى به فى البرية مغلولا فى نفس المكان الذى ألقى فيه بتيس الفداء (**لاويين** ١٦/ ٨ ) ويقول (تليارد) إن الاسم يشير هنا إلى أحد الشياطين الذين ذكرهم بعض كتاب العصور الوسطى ويشير أحدهم إلى أنه كان أحد الأربعة الذين حملوا رايات إبليس .

٥٤٣ – كان (العماء) ملكًا على مملكة العماء وكانت زوجته هى الليل .

٥٥٠ – كانت لموسيقى الاغريق ثلاثة مقامات رئيسية أولها مقام (دوريس) ، وثانيها مقام (فريجيا) وثالثها مقام (ليديا) . والفرق بينهما يماثل الفرق بين المقامات الكبيرة (سباعية الأنغام) والصغيرة أو الملونة ذات الإثنتى عشرة نغمة . ومقام (دوريس) بسيط رصين – ويصفه أفلاطون – فى الجمهورية بأنه المقام الوحيد الذى يناسب المحاربين والعاقلين، أما مقام (فريجيا) فكان مثيرًا وملهبًا للحماس بينما كان مقام (ليديا) عذبا رقيقا ناعمًا.

٥٥٣ – يشير ميلتون هنا إلى الأنغام التى كان يعزفها أهل اسبرطة حين تتقدم جيوشهم للنزال – وهى أنغام النايات الرقيقة التى لا تثير الحماس وذلك حتى يحتفظوا بـرباطة جأشهم وتماسك صفوفهم – على عكس أعدائهم الذين كانوا يهرعون للقتال بخطى وثابة سريعة تفقدهم النظام . ولا يعنى هذا أنه يفضل الاسبرطيين على الرومان ولكنه بالقطع يفضل نوعا من الموسيقى على نوع آخر .

٥٦٠ – آثرت استخدام نفس الفعل الذى استخدمه ميلتون فى البيت ٥٥٣ أولا لأنه ورد فى الإلياذة فى تعبير « يتنفسون الشجاعة » (٣ – ٨) وثانيا حتى أحتفظ بالصورة الشعرية . ومعظم الشراح يقولون إنه يقصد ( يستلهم ) .

٥٧٦ – يعنى بالصغار «الأقزام» الذين كانوا يهزمون فى كل مرة يتعرضون فيها لغزو الكراكى وهى الطيور الضخمة المهاجرة ومفرده كركى (بضم الكاف الأولى وتشديد الياء) . ومصدر هذه الصورة هو **إلياذة** هوميروس ٣ – ٥ . وكان علماء الجغرافيا فى العصور الوسطى يؤمنون بوجود هذه السلالة من الأقزام ، فى أواسط آسيا – ويعود ميلتون إلى نفس الفكرة فى بيت آخر فى هذا الكتاب هو ٧٨٠ – ٧٨١ . وميلتون ينطلق من هذه الصورة ليستعرض عددًا من الموضوعات التى شغلت بها الملاحم القديمة ثم يستصغر شأنها كأنها موضوعات لا تزيد فى حجمها عن الأقزام إذا قورنت بموضوعه الرفيع السامى – مثل موضوع روما العظيمة وبريطانيا وفرنسا . ومن ثم كانت التورية لازمة فى كلمة «صغار» التى يستخدمها فى هذا البيت .

٥٧٧ – (فليجرا) – وسميت فيما بعد (بالينى) شبه جزيرة فى أقصى الغرب من مجموعة شبه جزر (خالسيديس) شمالى اليونان . ويذكر أوفيد فى **مسخ الكائنات** ( ١٠ – ١٥١) إن الحرب بين العمالقة وآلهة الأوليمب قد وقعت على سهول (فليجرا). ولكن الموقعة التى بدأت فى (فليجرا) اليونانية ( أى بالينى وهى جزء من مقدونيا) قد تجددت فى (فليجرا) الإيطالية أى الواقعة بالقرب من (كوماى) .

٥٧٨ - (طيبة) هى المكان الذى اختاره شعراء اليونان القدامى لأحداث مسرحيات أوديب ومن ثم اشتهر بمعالجات (أيسخولوس) و (سوفوكليس) و (يوربيديس) لهذه الأسطورة فى تلك المدينة . كما أن قصتين من أشهر قصص الملاحم القديمة تدوران حول الصراع بين الإخوة فى (طيبة) وحصار (طروادة) . وفى كل قصة من هذه القصص تهب الآلهة لمؤازرة البشر ممن يناصرونهم فى القتال ضد أعدائهم مثلما يحدث فى **إلياذة** (هوميروس) **وطيبية** (ستاتيوس) . وأما (إليوم) فهو أحد أسماء (طروادة) .

٥٨٠ - أى الملك (آرثر) فهو ابن (أوثر بندراجون) . وقد كان ميلتون يعتزم أن يكتب ملحمته عن موضوع الملك آرثر .

٥٨١ - (أرموريا) أحد أسماء المنطقة التى نطلق عليها الآن (بريتانى) .

٥٨٣ - رغم تعدد الأماكن التى تحمل هذا الاسم أى (اسبارامونتى) فالمحتمل أن ميلتون يقصد القلعة القريبة من مدينة (نيس) والواردة فى الرومانسة الذائعة فى عصره والتى تحمل نفس الاسم ومن تأليف (أندريا دا باربرينو) - حسبما يقول (فاولر) . أما (تليارد) فيرجح أن (أسبارامونتى) تشير إلى سلسلة جبال فى كالابريا فى جنوب إيطاليا لأن شارلمان حارب العرب فى موقعة بالقرب منها . وعلى أى حال فإن الخريطة المعتمدة فى عصر ميلتون تستعمل نفس الإسم فى الإشارة إلى المكانين . والمقصود بـ (مونتالبان) قلعة (رينالدو) الواردة فى عدد من الرومانسات .

٥٨٤ - تقع طرابزون فى تركيا . كانت عاصمة لإحدى الإمبراطوريات القديمة فى آسيا الصغرى . ويشار إليها فى العربية أيضًا باسم طرابزونده .

٥٨٥ - أى شمال إفريقيا - كما كان العلماء العرب أنفسهم يطلقون عليها . أما بنزرت (وهى مدينة فى تونس) فكانت المكان الذى انطلق منه العرب لمهاجمة (شارلمان) . ولكن ميلتون يقص قصة مناقضة للقصة المألوفة عن الموقعة ، غير أن هذا لا يمنع من أن ميلتون قد استقى القصة من مصدر آخر غير القصة الشائعة ، أضف إلى هذا أن **أنشودة رولان** لم تكن معروفة فى عصر ميلتون مع أنها أشهر الأعمال الأدبية التى تحكى هذه القصة . وتقول هذه الرومانسة إن العرب قد استعانوا بأحد الخونة للانقضاض على مؤخرة جيش شارلمان فى مضيق (رونسفال) . وكان على (رولان) أن ينفخ بوقا يحمله إن احتاج إلى طلب العون ، لكنه لم ينفخ فيه حتى فات الوقت وقضى الأمر فهلك وهلك جميع من معه . أما (شارلمان) فقد هب عند سماعه البوق لنجدة الجيش مما دفع العرب إلى الانسحاب ، وهكذا فإنه لم يهلك بل نجا هو وبقية الفرسان الاثنى عشر ويرجح (فاولر) أن ميلتون قد استقى معلوماته من قصة لاحقة لهذه القصة مثل قصة (باربرينو) التى كتبت حوالى عام ١٤٠٠ والتى تقول بأن (رولان) قد هلك فى الموقعة هو وسائر فرسان شارلمان . ويضيف (فاولر) أن جميع القصص التى وصلت إلينا عن تلك الموقعة تؤيد نجاة (شارلمان) نفسه . والروايات التاريخية تقول بنجاة (شارلمان) وبأنه عاش طويلا بعد تلك الموقعة . ويورد تليارد أبياتًا للسير (والترسكوت) يذكر فيها حادثة النفير :

وا / شواقا إلى صوت النفير المهيب
الذى رددت أصداءه (فونتا رابيا)
فوصل إلى سمع الملك (شارل)
عندما سقط (رولاند) الشجاع (وأوليفييه)
فى حومة الوغى ، فى وادى (رونس)
وهلكا مع سائر الفرسان الصناديد !

**(مارميون ٦ - ٣٠)**

٥٨٧ - تقع (فونتا رابيا) على بعد أربعين ميلا من (رونسفال) . ويقول (فاولر) : ربما كان الدافع على إقحام اسم هذا المكان فى السياق التاريخى أن الملك (تشارلز) الثانى ذهب إلى ذلك المكان فى عام ١٦٥٩ عند فشل الثورة الملكية لينشد العون من الفرنسيين والإسبان . ولذلك فربما كان ميلتون يرمى إلى السخرية من هذا الملك الذى ينشد العون من أعدائه ويقصد مقارنته (بشارلمان) العظيم الذى دافع عن بلاده دونما تفريط .

٥٩٩ - الاستعارة ذات حدين فكسوف الشمس ينذر بمصائب للخلق وبهلاك الحاكم الذى يكتسى صورة الإله وقد جرت العادة على اعتبار الشمس رمزا له . وهكذا يروى أن الرقيب الذى عينه الملك (تشارلز) الثانى اعتبر هذا البيت ماسًا بالذات الملكية ويتضمن آراء تخريبية ويقول (تليارد) إنه كاد يمنع نشر **الفردوس المفقود** بسبب هذا البيت .

٦٣٣ - هذه مبالغة واضحة إذ إن إبليس نفسه يقول فى الكتاب الخامس(البيت ٧١٠) إن عدد من تبعه لم يزد على ثلث ملائكة الجنة . وهذا هو الرأى المتفق عليه إذ يوحى به النص الوارد فى **رؤيا يوحنا** ١٢/ ٤ .

٦٣٥ - يقصد إبليس بهذا أن يتملق الملائكة الفاسقين فيصفهم بأنهم أهل الجنة .

٦٣٧ - يحاول إبليس هنا أن يقول إنه كان ينفذ آراء أتباعه وإنه لم يكن ليرى رأيا آخر أو ينشق عنهم وهكذا فهو يلقى باللوم على الجميع حتى وهو يدافع عن موقفهم المشترك .

٦٥٠ - يقول إمبسون «إن هذه أول إشارة إلى القارئ (وليس بطبيعة الحال إلى الملائكة العصاة) عن الشك الذى يخامر إبليس فى قدرة الله على خلق أى شىء » (ص ٤٨) والواضح أن إبليس يعرض هنا للخطة التى ينتوى تنفيذها بل وينفذها بالفعل فى النهاية ويقدم لنا (بعلزبول) تفاصيل هذه الخطة فى الكتاب الثانى (البيت ٣٤٥ وما بعده) ثم يعود إبليس إلى إيضاحها فى نفس الكتاب (٨٣٠ - ٨٣٥) .

٦٦٢ - يقول (برود بنت) إن إبليس بدأ حديثه بنبرات البطل المأسوى ( ص ٧٣ وما بعدها ) ولكنه الآن يعود إلى طبيعة البطل الملحمى الذى يدبر للقتال دون مشاعر متناقضة .

٦٦٨ - كان الجنود الرومان يحيون خطب قادتهم بهذه الطريقة .

٦٧٤ - يقول (بيكون) ، وهو أعظم حجة علمية فى ذلك العصر « إن الزئبق والكبريت هى المواد الرئيسية للمعادن» ( التاريخ الطبيعى - ٤ - ص ٣٥٤ ) وكانت هذه هى النظرية المقبولة ، إذ كان يفترض أن حرارة الكبريت من شأنها أن تحيل التراب إلى معدن.

٦٧٨ - كلمة آرامية تعنى الغنى أو المال وجاءت بهذا اللفظ فى **إنجيل متى** ٦/ ٢٤ . ويقول د. مجدى وهبة إن شاعرنا هنا أول من استعملها علما على أحد أمراء الشياطين وقد استخدمها (سبنسر) فى الحقيقة - فى قصيدته (ملكة الجان) عندما تعرض لوصف كهف (مامون) - (النشيد الثانى - البيت السابع) - (تليارد) .

٦٩٤ - المقصود هو برج (بابل) الذى بناه (النمروذ) (**تكوين** ١١ / ٤ إلى ٩) . ويقول (راجان) إن العادة قد جرت على اعتبار الأهرامات نماذج للغرور والخيلاء (ص ٤٨) وميلتون هنا لا يشير إلى «المعنى» أو الدلالة التى نراها اليوم فى الأهرامات ولكن إلى الجهد البشرى الذى بذل فى بنائها ، إذ يقال إن مئات الآلاف قد عملوا عشرين عاما فى بنائها .

٧٠٠ - ليس من السهل تصور المنهج الذى اتبعه الشياطين فى البناء ولكن المرجح أنهم صهروا أولا المعدن النفيس بنيران البحيرة الملتهبة (انظر البيت ٢١٠) ثم صبوه فى خنادق ليكون الأساس الذى أقيم عليه البناء وعلى هذا الأساس ارتفعت الجدران كأنما بسحر ساحر . (تليارد) .

٧٠٩ - يعود ميلتون فى الكتاب الحادى عشر ( البيت ٥٦٠ وما بعده ) إلى الربط بين الموسيقى وتصنيع المعادن ، ويصرح بأن مهارات الملائكة العاصين قد اكتشفها البشر . أما الربط بين الموسيقى والصناعة فترجع إلى أن (يوبال) و (توبال قايين) كانا أخوين غير شقيقين كان الأول « أبا لكل ضارب بالعودة والمزمار » والثانى « الضارب كل آلة من نحاس وحديد » (تكوين ٤/ ٢١ و ٢٢) وكان كلاهما من نسل قابيل .

٧١٧ - يشتمل هذا الوصف على إشارة ساخرة لقصر الشمس الذى بناه (مولكبر) حسبما يروى (أوفيد) فى كتابه (**مسخ الكائنات**) ( ٢/ ١ إلى ٤ ) ولكن ما يرمى إليه ميلتون هو أن (بانديمونيام) قصر ذو طراز كلاسيكى كامل من كل الوجوه مثل قصر (البانثيون) القديم الذى ما يزال قائمًا وقد كان موضع إعجاب الجميع فى عصر ميلتون .

٧١٨ - فى الشروح التقليدية للكتاب المقدس كانت بابل ترمز للظلم والبغى ومن ثم للجحيم أما القاهرة فالمقصود بها (ممفيس) التى كانت أروع مدينة فى مصر أيام الوثنية .

٧٢٠ - (بعل) إله آشورى وليس إلها مصريا . أما (سيرابيس) فهو الإله المصرى المعروف باسم أبيس.

٧٣٩ - (أوسونيا) هى الاسم القديم (باليونانية) لإيطاليا الحديثة .

٧٤٠ - مولكيبر هو لقب الإله (فولكانوس) راعى الحدادة والتعدين واللقب يعنى باليونانية من يصهر الحديد. وقد تولى بناء قصور الآلهة .

٧٥٦ - (بانديمونيام) كلمة نحتها ميلتون نفسه من اليونانية لتعنى ملتقى الشياطين جميعا . أما كلمة «عاصمة» فهى تحمل أيضًا معنى القصر الكبير وثم خلاف بين محققى نص ميلتون حول هجاء الكلمة الانجليزية فمن قائل إنها (كابيتول) ومن قائل إنها (كابيتال). ويذهب جمهور النقاد إلى أن القراءة الأخيرة هى الأصح وأن الإيحاء بالمعنى الأول لا يزيد عن كونه إيحاء ثانويا يضاف إلى المعنى الأصلى .

٧٦٦ - يشيــر ميلتون إلى ضربين من ضـروب الفروسية والنزال : الأول هو الهـجوم المباشـر والثانى هو محاولة الإسقاط بالرمح من على ظهر الجـواد . وهو ينسب إلى الجحيم منشأ هذا اللون من الصراع البشرى الذى انتقل فيما بعد إلى الأرض - حسبما يقول (برودبنت) ( ص ٩٦ ) .

٧٨١ - يقول (بلينى) إن أرض الأقزام تقع فى الجبال القائمة وراء منابع نهـر (الجانجيز) (التاريخ الطبيعى - ٧ - ٢٦) .

٧٨٦ - هذه العبارات رجع صدى لما يقوله شيكسبير فى مسرحية **حلم ليلة صيف** (الفصل الثانى - المشهد الأول - البيت ٢٨ ومـا بعده ) من أن القمـر يجلس مجلس الحكم بين الجنيـات لأن القمر هو أمـير الجن المتوج .

# حواشى الكتاب الثانى

٢ - (هرمز) جزيرة فى الخليج العربى كانت ذائعة الصيت باعتبارها سوقا للجواهر .

١١ - لم ألتزم هنا بالإشارة إلى الكتاب المقدس فيما يختص بألقاب الملائكة . فالإشارات واضحة إلى **رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوس** (١ - ١٦) حيث يرد اللقبان وهما (الرياسات) و (السلاطين) ترجمة لنفس اللقبين بالانجليزية ، وقد حفزنى على عدم التقيد أن ميلتون يقصد الإشارة إلى الملائكة العاصين جميعًا دون أن يخص طائفة بعينها وأنه يريد معنى القوة والجبروت أن ينسحب على الجميع .

١٥ - فى الأصل تورية - فالأصل يشير إلى فضائل السماء وهى من ألقاب الملائكة أيضًا ولكنى آثرت ترجمة المعنى الظاهر

٢٤ - يقدم إبليس خمسة أسباب لتقلده مقاليد الرئاسة أولها (مكانه الحق) فى السماء بينهم قبل السقوط ، وثانيها قوانين السماء الثابتة أى القضاء ، وثالثها الإرادة الحرة لسائر الملائكة ، ورابعها امتيازه فى التدبير للحرب وفى إدارة المعركة ، وخامسها وأهمها هو السقوط ، إذ إن الهزيمة لم تعد تجعله فى موقف مثير للحسد . ومن هنا ينطلق ليفصل القول فى معنى الابتعاد عن الحسد .

٢٨ - يحاول إبليس هنا الحط من شأن المولى جل وعلا بأن يسمه بالبطش فالرعد من صفات (جوبيتر) رب أرباب الوثنية ومن ثم فإن إبليس يحاول أن يقول إن البارئ سبحانه يشبه أرباب اليونان .

٣٧ - يقول (إمبسون) إن محاولة إبليس الإشادة بمزايا السقوط تمثل مفارقة سامية فى إطار التقاليد الرومانية الرفيعة ولكننا ينبغى أن نلاحظ أن هذه المحاولة المستميتة لقلب منطق الأشياء تبين مدى خداع النفس الذى ينزلق إليه .

٤٣ - (ملكوم) يعنى بالعبرية (الملك) - انظر **عاموس** ٥ / ٢٦ . راجع البيت ٣٩٢ فى الكتاب الأول وفى مجالس الملك التى وصفها (هوميروس) كان الملوك يوصفون رسميا بأنهم ذوو صولجان انظر **الإلياذة** ٢ - ٨٦ **والأوديسا** ٢ - ٢٣١ .

٥٦ - يشتر (إليوت) و (ليفيز) إلى التناقض بين «يقفون» و «جالسين» ولكن المعنى هو كما يقول (فاولر) إن الوقوف إشارة لواقع حاضر بينما يتضمن الجلوس إشارة ساخرة إلى عدم الحركة فى المستقبل .

٦١ - ربط الألفاظ المجسدة بالمجردة من خصائص أسلوب ميلتون أى أنه إذا كان من باب التعبير الحقيقى التسلح بالنيران فإن التسلح بالغضبة من باب المجاز وربط التعبيرين أى استخدام فعل واحد معهما من الخصائص البلاغية المسماة (زيوجما) باليونانية .

٦٩ - (تارتاروس) هى مملكة الجحيم فى الأساطير اليونانية . وجريا على العرف فى عصر النهضة نجد أن ميلتون يرسم صورة الجحيم الواردة فى الكتب السماوية فى إطار ما ذكره الكلاسيكيون فى عصر الوثنية . و (تارتاروس) هى المكان الذى يلقى فيه بالمذنبين من هذا العالم عند الموت حسبما تروى الأساطير .

٨١ - إشارة إلى (فيرجيل) فى **الإنيادة** - ٤ - ١٢٦ إلى ١٢٩ حيث يذكر يسر الصعود للملائكة .

٨٢ - يقصد أن هناك من بين الملائكة من يخشون عاقبته وهو من ثم يرد على اعتراضاتهم مقدما .

١٠١ - يعرب إبليس عن ثقته فى استحالة تدمير الكيان السماوى للملائكة (انظر البيتين ١١٦ - ١١٧ من الكتاب الأول) ويشاركه (بعلزبول) هذا الرأى ( الكتاب الأول - الأبيات ١٣٨ - ١٤٠ ) ولكن (ملكوم) متردد وغير واثق .

١٠٥ - وهذا هو الدافع الذى يحفز إبليس على القتال .

١١٣ - إشارة إلى المن والسلوى - والمن بعد يعنى - فى رأى جمهور الشراح - عسل النحل ومن ثم فالمعنى هو (يقطر عذوبة) **خروج** (١٦/٣١) .

١٢٧ - هذا تعبير ساخر يرد به (بليعال) على (ملكوم) . فهو يقف بالثأر عند حدود المحاولة واصفًا الثأر - لا المحاولة - بأنه رهيب . والأصح إذن ترجمة العبارة بـ «محاولة للثأر الرهيب » . ويلاحظ القارئ أن (بليعال) يستخدم نفس ألفاظ (ملكوم) (مثل كلمة الثأر) للسخرية منه وإحباط حجته .

١٣١ - يقصد ذلك الجزء من مملكة العماء المتاخم للجنة .

١٣٩ - المعنى الظاهر هو أن الجوهر الأثيرى ينتمى للبارى جل وعلا ، إذ إن بليعال ينتقد هنا ما اقترحه ملكوم من بث شآبيب الكبريت والنيران السوداء فى عرش الله (انظر البيتين ٦٨ و ٦٩ . ولكن الشراح يقولون إن الجوهر النقى يمكن أن ينتمى إلى الملائكة - وبخاصة (تليارد) .

١٤٦ - ليس هذا رأى (بليعال) بطبيعة الحال بل تصويره لرأى (ملكوم) . أما رأيه فيبدأ من البيت ١٤٦ والأبيات التالية .

(٢١) أى كيان الملائكة . فالمعتقد أن الملائكة ذات كيان ذهنى يفوق الكيان العقلى أو العاقل الذى يتمتع به البشر ويتفوقون به على الحيوان والنبات .

١٤٧ - وضعت هذه العبارة بين قوسين لأبين أنها اعتراضية ، إذ إن سير الجملة ينبغى ألا يتوقف بين الفعل «لنفترض أن . . » و «أتراه فى حكمته . . .» .

١٦٠ - يقصد (ملكوم) .

١٧٠ - أى نفخة الله (ونفخنا فيه) - وربما كان النص يشير إلى ما ورد فى **إشعياء** ٣٠ - ٣٢ عن (توفه) باعتبارها رمزا للجحيم «نفخة الرب كنهر كبريت توقدها» .

١٧٤ - يستخدم (هوراس هذه العبارة **Rubente Dextera** فى الأناشيد ١ - ٢ عندما يصف تهديد (جوبتير) أى (جوف) بتدمير روما . ومن ثم فإن (بليعال) يريد الإشارة من طرف خفى إلى أن البارئ سبحانه طاغية مثل (جوبيتر) .

١٧٩ - «مجيدة» كلمة يستخدمها (بليعال) للسخرية من الحرب الخاسرة .

١٨١ - ربما جاءت هذه الفكرة أو الصورة من وصف (فيرجيل) فى **الإنيادة** (١ - ٤٤) للعقاب الذى أوقعه (بالاس) (بآجاكس) .

١٨٢ - شاعت هذه الصورة فى كتابات القدماء والمحدثين : - (أيسخولوس) ، و (فيرجيل) و (هوارس) ثم (شكسبير) و (درايدن) . انظر **الإنيادة** ٦ - ٧٤ ، **وصاع بصاع** (شكسبير ف ٣ - م ١ - ١٢٤ ) .

١٨٤ - فى الأصل توريه إذ يستخدم ميلتون فعل Converse بمعناه الحديث ومعناه اللاتينى الذى يوحى بالإقامة لا التخاطب . وقد تعذرت ترجمة التورية .

٢٦٧ - انظر **المزمور** الثامن عشـر : «جعل الظلمة ستره حـوله ، مظلته ضباب الميـاه وظلام الغمام . . أرعد الرب من السـموات » (١١ - ١٣) **والمزمور** السابع والتسعين «السحاب والضباب حوله العدل والحق قاعدة كرسيه» (٢) **وأخبار الأيام الثانى** ( ٥ / ١٣) «بيت الرب امـتلأ سـحابًا» ، و ( ٦ / ١ ) «قال الرب إنه يسكن فى الضـباب . وانظر أيضًا قول الله لمـوسى عليه السلام فوق جـبل (حوريب) «هاأنا آت إليك فى ظلام السـحاب» (**الخروج** - ١٩ - ٩) وتكريس المـعبـد فى **التثنية** (٤ - ١٢) « والجبل يضطـرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب فكلمكم الرب من وسط النار» .

٢٧٥ - المعنى الحرفى للعبارة «العناصر أو العنصـر الذى خلقنا منه أو الذى يلائمنا » ولكن السياق يقتضى الترجمة الحاليـة . وكلمة عنصر أو عناصر تشير إلى العقيـدة التى سادت القرون الوسطى ومؤداها أن أنواعا معـينة من الشياطين تسكن كـلا من عناصر الكون الأربعة وهى النار والهواء والـماء والتراب ، وأن هذه الشياطين هى الملائكة الفسقة . يقول ميلتون فى قصيدة «المفكر» : «إن الشياطين التى تعيش فى النار والهواء أو المـاء أو تحت الثرى . . . مـتوافقة مـع العنصر الذى تعيش فـيه» . ( ٩٣ - ٩٦ ) ويقول فى **عودة الفردوس** :

**إن الأرواح الشيطانية التى اختص كل منها بعنصر**
**ليسوده لأحرى بها أن تسمى**
**قوى النار والهواء والماء وباطن الثرى . ''الكتاب الثانى - ١٢٢ - ١٢٤``**

٢٩٨ - يشرح (تليارد) المـعارضة بأنها أولا قائمة تحـت مملكة العماء بينما تقـوم الجنة فوق تلك المملكة وثانيا بأنها مناقضة للجنة فى طبيعتها وأغراضها وثالثا بأنها معادية لها .

٣٠٧ - كان من الشائع تشـبيه الساسة الذين يتـحملون أعباء الحكم بأطلس (انظر مـثلا مسرحية شكسـبير **أنطونيو وكليوباترا** ١ - ٥ - ٢٣ ) ولكن الإشارة هنـا إلى أطلس تعتبـر إشارة إلى واحـد من سلالة (التيتـان) . إذ إن جوبيتر - حسبـما تروى الأسطورة - كان قد أرغم أطلس على حمل السـماء فوق أكتافه عقابا له على الدور الذى قام به فى التمرد .

٣١٠ - ارجع إلى الحاشية الخاصة بالبيت ١٢٨من الكتاب الأول والحاشية على البيت ١١من الكتاب الثانى.

٣١١ - فى الأصل «خصال الأثير» وكلمة خصال تشـير أيضًا إلى الفضائل وهى من طبقات الملائكة ولكنى آثرت ترجمة المعنى دون التورية انظر الحاشية على البيت ١٥ من الكتاب الثانى .

٣٢٤ - انظر **رؤيا يوحنا اللاهوتى** : (١/ ١١) أنا هو الألف واليـــاء : الأول والآخـر و ( ٢١/ ٦ ) أنا هو الألف والياء : البـداية والنهاية ، و ( ١٣/٢٢ ) أنا الألف واليـاء . البداية والنهـاية . الأول والآخر . وقد ورد اللفظان فى القرآن الكريم وهما من أسماء الله الحسنى .

٣٢٨ - يعنى (بعلزبول) أن الصـولجان أو القضـيب الحديدى (انظر **المزمور الثانى** - الآية التاسـعة ) رمز للعدالة الصارمة بينما يرمز الصولجان الذهبى للمساواة الرحيمة . يقول ميلتون فى قصيدة (ليسيداس) إن القديس بطرس :

**يحمل مفاتيح ثقيلة لنوعين من المعادن :**
**الذهبى يفتح الأبواب والحديدى يغلقها . ( ١١٠ - ١١١ )**

وقد أصبح تعبير القضيب الحديدى شائعًا فيما بعد فى اللغة الانجليزية كناية عن الحكم الصارم .

٣٥١ - **المزمور** ٨ / ٤ و ٥ « فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده . وتنقصه قليلا عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله » .

٣٥٢ - يقول (نليارد) إن النطق بقسم من جانب الله فكرة غريبة رغم أنها تتردد كثيراً فى الكتاب المقدس . انظر **التكوين** ٢٢ - ١٦ **والرسالة إلى العبرانيين** ٦/ ١٧ .

٣٥٣ - أخذ ميلتون هذه الصورة من الملاحم الكلاسيكية . انظر (هوميروس) (**الإلياذة** ١/ ٥٣٠) و (فيرجيل) (**الإنياده** ٩ / ١٠٦) ولكن الصورة لها سند فى الكتاب المقدس أيضًا (اشعيا ١٣ - ١٢ و ١٣) و (**الرسالة إلى العبرانيين** ١٧/٥ و ٢٦/١٢) و(**التكوين** ٢٢ - ١٦) و (**إشعيا** ٢٣/٤٥) ومن ثم فهى نموذج للمزج بين الصور الكلاسيكية والدينية .

٣٥٧ - اللفظ يعنى الإغواء والهجوم أو التصدى لشخص ما للإيقاع به فى الوقت نفسه .

٣٧١ - انظر **التكوين** ٦ / ٦ و ٧ « فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته » .

٣٧٥ - فى الطبعة الأولى من الفردوس المفقود ترد هذه الكلمة بصيغة الجمع أى كلمة Originals وتوحى بالمعنى المترجم هنا أما فى الطبعة الثانية فترد هذه الكلمة بصيغة المفرد بحيث يمكن أن تعنى آدم وحواء. والمعنى الأول يشمل المعنى الثانى فى نظرى ولهذا اخترته فى الترجمة حتى لا أفسد السياق العربى .

٣٧٨ - يسخر هنا (بعلزبول) من آراء (مامون) انظر البيت ٢٥٢ وما بعده فى الكتاب الثانى) ولكن ميلتون يريد القارئ أن يسترجع عبارة «الجلوس فى الظلمة» الواردة فى **المزمور** ١٠٧ الآية ١٠ وما بعدها : «الجلوس فى الظلمة وظلال الموت موثقين بالذل والحديد لأنهم عصوا كلام الله » .

٣٨٣ - أى آدم عليه السلام . وقد أضفت كلمة «الشجرة» هنا حتى ألقى الضوء على الاستعارة الشائعة فى الكتاب المقدس وفى الفردوس (انظر الكتاب الثالث ٢٨٨ والكتاب التاسع - ٨٩ و ٦٤٥ ) وقد اعتمد زعماء حركة الإصلاح الدينى على هذه الاستعارة فى تفسيرهم لمفهوم الخطيئة الأولى للإنسان أى النابعة من جذر الشجرة - شجرة الإنسان .

٤٠٠ - يقول الشراح إن ثمة تشبيها مضمرا هنا أى أن للظلام كيانا ماديًا ( انظر البيت ٤٠٦ من نفس هذا الكتاب) .

٤٠٦ - ربما كانت كلمة «ملموسة» أصدق فى التعبير عن المعنى المقصود أى الإشارة الاستعارية إلى الظلمات (انظر الحاشية السابقة) . فالواضح أن ميلتون يشير إلى سفر **الخروج** ( ٢١/١٠ ) . « ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يلمس الظلام » .

٤٠٩ - أى التى تفصل بين السماء والأرض وهى هوة العماء .

٤١٠ - أى الأرض فهى تشبه الجزيرة السعيدة فى خضم العماء - وتزخر **الفردوس المفقود** بالاستعارات التى تصور إبليس فى صورة التاجر المسافر المغامر ، وتصور الأرض فى صورة الجزيرة . انظر الأبيات ٤٢٦، ٤٣٦ - ٤٤٢، ٩١٩، ١٠١١، ١٠٤٢ - ١٠٤٤ فى هذا الكتاب وحده .

٤٣٠ - أى يا من تحتلون العروش فى السماء أو يا من كنتم تحتلونها . والعروش طبقة من طبقات الملائكة . انظر الكتاب الأول - البيت ١٢٨ وحاشيته وانظر الكتاب الثانى البيت العاشر وحاشيته .

٤٣٢ - ابتداء من هذا البيت يحاكى ميلتون وصف (فيرجيل) لهبوط (إنياس) إلى العالم السفلى (فى الكتاب السادس من **الإنيادة** ) وخاصة التحذير الذى جاء على لسان (سيبيل) من أن النزول يسير ولكن الصعود شاق عسير . كما أن ثمة محاكاة لما جاء فى **الكوميديا الإلهية** لدانتى (**الجحيم** ٣٤/ ٩٥) من أن الطريق طويل والسبيل عسير . ويحاكى ميلتون **الإنيادة** فى بعض التفاصيل مثل الأسوار التسعة والأبواب المصنوعة من الصخور الموقدة إلخ .

٤٧١ - «فى الرأى» تعنى فى الحقيقة «فى رأى سائر الملائكة والشياطين» أى فى نظر المجتمعين أى ما يقابل التعبير الحديث «الرأى العام» .

٤٩٥ - يقول (برودبنت) إن البراكين التى ذكرت فى الكتاب الأول قد تحولت إلى تلال ترعى عليها الأغنام بفعل خيال الشياطين الخصب (ص ١٢١) . أما غفلة ريح الشمال فالمقصود بها سكونها إذ إنها حين تهب يصفو الجو وتسطع الشمس .

٥٠٥ - الواضح أن ميلتون يتحدث بمرارة شديدة عن الحروب الطاحنة التى زلزلت بريطانيا إبان حياته .

٥٢٨ - يحاكى ميلتون فى هذه الأبيات ( ٥٢٨ - ٥٦٩ ) ما ذكره (فيرجيل) فى **الإنيادة** ( ٦/ ٦٤٢ - ٦٦٥ ) عن سبل التسرية عن النفس وتزجية الوقت لدى الأرواح فى العالم السفلى فهم يمارسون الرياضة هنا وفى الإنيادة (فى إليزيوم) ويعزفون الموسيقى ويشتغلون بالفلسفة ولديهم معدات حربية وخيول وعربات بينما يمتاز الشياطين بقدرتهم على الاكتشاف والمغامرة . وفى تقاليد الملحمة الكلاسيكية نماذج لهذا اللون من قضاء وقت الفراغ - انظر **إلياذة** (هوميروس) ٢ - ٧٧٤ ، والأبيات التالية التى تصف ألعاب الزبانية أثناء غياب (أخيلاس) فى الحرب وانظر أيضًا نفس الملحمة (٢٣) حيث يذكر (هوميروس) الألعاب الجنائزية اليونانية .

٥٣٠ - ألعاب (بيثيا) فى (دلفى) تلى فى أهميتها الألعاب الأوليمبية . وكانت تمتاز على الألعاب الأوليمبية بإقامة المسابقات الموسيقية والفنية .

٥٣٩ - انظر الحاشية رقم ٤٢ فى الكتاب الأول .

٥٤٦ - تقول الأسطورة إن (هرقل) كان غائبا فترة طويلة فى حملة ضد ملك (إيقاليا) وفى طريق عودته أراد أن يقدم تضحية إلى (زيوس) امتنانا على النصر الذى ظفر به فأرسل صديقه (ليكاس) إلى زوجته ليعود بثوب مناسب فأرسلت معه الزوجة ثوبا كانت قد غمسته فى سائل يثير الحب فى نفسه (إذ كانت تشك فى إخلاصه لها) ولكن هذا السائل كان فى الحقيقة مسموما وعندما ارتداه هرقل أصابه الجنون من شدة الآلام التى عاناها فأخذ يقتلع الأشجار من جذورها ثم انتهى به المطاف إلى أن ألقى بصديقه (ليكاس) من قمة جبل (إيتا) ظانا أنه هو الذى أتى له بهذا الثوب المسموم . ولما لم يستطع أن يخلع الثوب (لأنه قد التصق بجسده) أعد هرما من الأحطاب وأشعل فيه النار ثم ألقى بنفسه فيه فتحول إلى سحابة وارتفع إلى السماء وأصبح من الخالدين وميلتون يتبع خطى (أوفيد) فى روايته للأسطورة وليس ما ذكره (سنيكا) أو (سوفوكليس) . (تليارد وفاولر) .

٥٦٠ - كانت هذه الموضوعات وبخاصة قضية الجبر والإختيار أو التسيير والتخيير - من القضايا الشائعة بين علماء الدين فى عصر ميلتون وقد عاد إليها ميلتون نفسه فى الكتاب الثالث ( ٩٦ وما بعده ) والكتاب العاشر ( ٣٤ وما بعده ) .

٥٦٥ - كانت هذه الموضوعات هى ما اهتم به فلاسفة اليونان والرومان إذ إنهم كانوا يسعون إلى الخير الأسمى وهو ما رآه الأبيقوريون فى اللذة وما وجده الرواقيون فى التحرر من جميع الانفعالات .

٥٦٩ – فى الأصل «المضاعف ثلاثا» وهى عبارة استعارها من (هوراس) .

٥٨٣ – تقول الأساطير اليونانية إن الجحيم أو العالم السفلى كانت تحده أربعة أنهار وهى تلك التى أوردها ميلتون هنا وأسماؤها باليونانية تقابل الأوصاف التى يوردها لها فمثلا تعنى كلمة (ستيكس) اليونانية المقيت أو الكرية . ويعتمد ميلتون فى وصفه للأنهار الأربعة على ما أورده (فيرجيل) فى **الإنيادة** (٦) وما ذكره (دانتى) فى **الكوميديا الإلهية** (**الجحيم** ١٤) وما قاله (سبنسر) فى **ملكة الجان** ( ٢ – ٧ البيت ٥٦ وما بعده ) ولكن ميلتون يضيف قائلاً إن هذه الأنهار تصب فى البحيرة الملتهبة (انظر الكتاب الأول من **الفردوس المفقود** ٢١٠ **ورؤيا يوحنا اللاهوتى** ١٩/ ٢٠ حيث يرد ذكر «بحيرة النار المتقدة بالكبريت ربما ليقدم المقابل للأنهار الأربعة التى تجرى فى الفردوس (انظر الكتاب الرابع من **الفردوس المفقود** ٢٢٣ – ٢٢٣ وسفر **التكوين** ٢ / ١٠ ) .

٥٨٤ – يختلف عن «بحيرة النسيان» التى ورد ذكرها فى البيت ٧٤ أعلاه والبيت ٢٦٦ من الكتاب الأول .

٥٨٧ – كان الاعتقاد بأن عذاب الجحيم يتضمن البرودة إلى حد التجمد (إلى جانب الحريق) سائدًا فى العصور الوسطى وربما كان يرجع إلى التراث اليهودى . ويقدم (دانتى) وصفا لهذا اللون من العذاب فى الكتاب الثانى والثلاثين من **الجحيم** كما يشير إليه شكسبير فى **صاع بصاع** ٣ – ١ – ١١٩ .

٥٩٢ – أى بحيرة المنزلة حاليا .

٥٩٣ – أى سيناء اليوم .

٥٩٥ – ليست هذه مبالغة حسبما يقول (تليارد) إذ إن للصقيع آلاما تشبه آلام الحريق .

٥٩٧ – الآلهة اللاتى يطاردن المذنبين (مثل القتلة) حتى يقتصصن منهم .

٥٩٨ – فى الأصل «ذوات الأقدام التى تشبه أقدام الهاربى» Harpy - Footed وكان الهاربى حيوانًا خرافيًا له وجه حسناء ، وجسد طائر وأجنحة وأقدام ذات مخالب وقد ذكره (فيرجيل) فى **الإنيادة** ( ٣/ ٢١١ إلى ٢١٨ ) كما ذكره (دانتى) فى **الجحيم** (١٣/ ١٠) كما ذكره (هوميروس) فى **الأوديسا** (٢٠/ ٧٧).

٦١١ – كانت (ميدوزا) إحدى الأخوات الثلاث المسميات (بالجرجونات) . كان لها وجه جميلٌ ولكن خيوط شعرها كانت من الأفاعى وكان أى إنسان ينظر إليها مباشرة يتحول إلى صخر أصم . وكان (أوديسيوس) يخاف أن ينظر إليها خلال زياراته لعالم الموتى لهذا السبب (**الأوديسا** ١٠/ ٦٣٤) وقد استطاع (بيرسيوس) أن يقتلها آخر الأمر بأن تطلع إلى صورتها فى المرآة .

٦١٤ – فى الجحيم الذى يصوره (هوميروس) (**الأوديسا** ١١/ ٥٨٢ – ٥٩٢) كان عقاب طانطال أو (طانطالوس) يتمثل فى العطش إذ وضعه (زيوس) فى بركة ماء وصل سطحه إلى رقبته وكلما أراد الشرب انحسر الماء بعيدًا عنه وتقول إحدى الروايات إن عقابه كان بسبب تقديمه طعام الآلهة إلى البشر وتقول رواية أخرى إنه كان يعاقب على طموحه. وتقول إحدى الأساطير إنه عوقب أيضًا بالجوع وكان الثمر يتدلى من الأشجار القريبة من رأسه دون أن يستطيع بلوغها مهما حاول .

٦١٨ – انظر **إنجيل متى** ١٢ – ٤٣ **وإنجيل لوقا** ١١/ ٢٤ «إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز فى أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد » .

٦٢٨ – كان (للجرجونة) شعر من الأفاعى (انظر الحاشية ٧٠) وكانت (الهايدرا) (التى ترجمتها بالسعلاة) عبارة عن ثعبان مائى ضخم لها تسعة رؤوس وكانت إذا قطعت لها رأس نمت لها اثنتان فى مكانها وقد

استطاع هرقل أن يقتلها آخر الأمر . أما الغيلان فهى فى الأصل (كميرة) (باليونانية خيمايرة) وهو غول له رأس أسد وجسد جدى وذيل ثعبان ويبث النيران من فمه . وقد استطاع (بلوروفون) أن يقتله آخر الأمر . ويذكر (فيرجيل) هذه الكائنات البشعة ضمن حراس مدخل الجحيم (**الإنيادة** ٦/ ٢٨٧ إلى ٢٨٩) كما يذكرها تاسو فى **تحرير بيت المقدس** ( ٤/ ٥ ) .

٦٤٠ – جزيرتان فى إندونيسيا بالقرب من جزيرة (جايلولو) أى فى مضايق الملايو .

٦٤٢ – يقول (تليارد) إنه القطب الجنوبى إذ إن اتجاه السفن هنا نحو الجنوب .

٦٤٣ – يقول (فاولر) إن هذا التشبيه دليل على قدرة ميلتون على إيجاد أوجه شبه عديدة بين المشبه والمشبه به . ويقول (امبسون) إن السفن تبحر ليلا لأن إبليس كان يطير فى «الظلمات المبصرة» التى ذكرت فى الكتاب الأول وهى بعيدة إلى الحد الذى بدت معه كأنها سراب أو كأنها طائرة فى الهواء وهو ما بدا عليه إبليس فعلا ، وهى تتجه نحو القطب لأن إبليس كان يقصد سقف السرادق النارى ( ص ١٧١ ) ويضيف فاولر قائلاً إن السفن تحمل عاطر المخدرات لأن إبليس سوف يشترى براءة حواء بعاطر الثمر من الشجرة المحرمة .

٦٥٠ – هذه هى «الخطيئة» رغم أننا لا نعرف ذلك الآن ولا نكتشفه إلا فى البيت ٧٦٠ عندما تخبرنا هى بذلك . والصورة التى يقدمها ميلتون للخطيئة تشبه الصورة التى يقدمها (سبنسر) فى قصيدة **ملكة الجان** لما يسميه بـ «الخطأ» ( ١/ ١/ ١٣ إلى ١٥ ) وقد صور أحد أتباع هذا الشاعر العظيم واسمه (فينياس فلتشر) الخطيئة فى نفس الصور فى قصيدة بعنوان **الجزيرة الأرجوانية** ( ١٢ – ٢٧ و ٢٨ ) وهو يطلق عليها الإسم اليونانى وهو همارتيا . وهو يرسم لها صورة مختلفة فى قصيدة أخرى تجعلها أقرب شبها بالصورة التى يقدمها ميلتون للموت . وقد شاع الربط بين الخطيئة والموت فى هذه الصور الرمزية فى العصور الوسطى وربما كان الأصل فى هذا ما جاء فى رسالة يعقوب ( ١/ ١٥ ) « ثم الشهوة إذا حملت تلد خطية والخطية إذا حملت تنتج موتا » .

٦٥٥ – (كيربروس) هو الكلب ذو الرؤوس الثلاثة الذى كان يحرس الجحيم فى الأساطير الكلاسيكية .

٦٦٠ – كانت (سيلا) فتاة جميلة يحبها إله البحر (جلوكوس) الذى تضرع إلى الساحرة (كيركى) لتساعده على الظفر بقلبها . ولكن كيركى كانت تغار منها ومن ثم دست أعشابا سحرية فى البحر الذى اعتادت (سيلا) أن تستحم فيه وهكذا استطاعت أن تحولها إلى مخلوق شائه له رأس امرأة وجسدها ذيل سمكة، ويحيط بها كلاب تنبح وتعوى . (أوفيد – **مسخ الكائنات** – ١٤/ ٥٠ – ٧٤) وكان الشائع أن (سيلا) تعيش فوق صخرة على الساحل الإيطالى لمضايق (مسينا) حيث يعلو موج البحر وصخبه ، والمعروف أن صوت الأمواج وهى تلطم الصخور هناك هو الذى أوحى بنباح الكلاب . وتقول رواية أخرى إن (سيلا) قد تحولت هى نفسها إلى صخرة تمثل خطرًا كبيرًا على الملاحين بين (ترينا كاريا) أى صقلية و (كالابريا) . وأخيرًا فقد شاع فى شروح العصور الوسطى لكتاب **مسخ الكائنات** أن ( سيلا ) رمز للشهوة أو الخطيئة .

٦٦١ – (ترينا كاريا) هو الإسم القديم لجزيرة صقلية ، والصوت (مبحوح) بسبب صخب الأمواج .

٦٦٢ – اسمها (هيكات) وقد استخدمت (كيركى) تعاويذ هذه الجنية عندما مسخت (سيلا). انظر الحواشى السابقة وبخاصة (٧٩) . وفى المشهد الأول من الفصل الرابع من **ماكبث** (مسرحية شكسبير المعروفة) تظهر (هيكات) للساحرات استجابة لترانيمهن .

٦٦٣ - كان المعتقد أن الساحرات يطرن فى الهواء على مكنسة .

٦٦٤ - كان الشائع أن الساحرات يقتلن الأطفال .

٦٦٦ - تزعم خرافات العصـور الوسطى أن السحر يمكن أن يهبط بالقمر إلى الأرض ويخسفه أو يزيل ما به من خسوف . وتربط التقاليد القديمة بين السحر بصفة عامة وبين القمر .

٦٧٨ - فى الأصل «ابنه» والمقصود هو المسيح عليه السلام .

٧٠١ - انظر ما قاله (رحبعام) فى **الملوك الأول** ١٢/ ١١ «أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب» ومعناه المجازى - بطبيعة الحال - أن قبول إبليس لحكم الله كان أفضل له من هذا المصير .

٧٠٩ - كوكبة من النجوم يراها سكان نصف الكرة الشمالى صورها القدماء فى صورة حامل ثعبان ضخم . أما عن دلالة المُذَنَّب على الشر فهو من تقاليد الأساطير والأعمال الكلاسيكية فقد شبه (تاسو) فى قصيدته تحرير القدس أحد أبطاله بمذنب ضخم ، وفى هذا يحاكى (فيرجيل) فى تشبيهه (اينياس) بالمذنب (**الإنيادة** ١٠/ ٢٧٢ ) ويقول (تيرنر) إن المذنب الذى يشير إليه ميلتون هو المذنب الذى ظهر فى عام ١٨١٦ فى كوكبة (أورفيوكوس) . وقال (ايفلين) فى مذكراته إن ذلك المذنب هو الذى تسبب فى نشوب حرب الثلاثين عاما . والصورة ملائمة لإبليس إذ إنه سيتحول فيما بعد إلى ثعبان .

٧١٥ - مدافع السماء : فى الأصل مدفعية السماء أى البرق والرعد .

٧٢٢ - أى المسيح عليه السلام ، وذلك عندما «يبيد بالموت ذاك الذى له سلطان الموت أى إبليس» (**الرسالة إلى العبرانيين** ٢ - ١٤) وانظر أيضًا **كورنثوس** ١٥/ ٢٦ «آخر عدو يبطل هو الموت» .

٧٢٤ - أى الخطيئة .

٧٣٥ - أى الموت .

٧٤٩ - أى إبليس ومن انضم إلى صفوفه من الملائكة الفسقة .

٧٥٧ - مثلما خرجت (أثينا) شاكية السلاح من رأس (زيوس) حسبما تروى الأساطير اليونانية وهذا مثل آخر على مزج العناصر الدينية والكلاسيكية إذ إن ثم إشارة خفية أيضًا إلى **رسالة يعقوب** ١/ ١٥ ( انظر الحاشية ٧٧ ) .

٨٤٤ - يثبت إبليس أنه قادر على الوفاء بعهده للموت والخطيئة بعد نجاحه فى مسعاه وسقوط آدم وحواء فريسة لغوايته . وفى الكتاب العاشر من **الفردوس المفقود** (٣٩٧ - ٤٠٩) يدعو الخطيئة والموت ليحكما الأرض بما فى ذلك الإنسان .

٨٥٧ - فى الأصل (تارتاروس) أو الجحيم الأسفل انظر الحاشية رقم (١٤) وقد آثرت ترجمة المعنى هنا دون اللفظ لأن المقصود هو الدلالة البلاغية .

٨٨٣ - فى كتاب آخر يورد ميلتون بيتا للشاعر القديم (هيزيود) يقول فيه « من العماء خرج (إيريبوس) والليل الأسود » ولكن كثيرًا ما كان يشار إلى (إيريبوس) باعتبارها الجحيم الأسفل (انظر الحاشية السابقة) . فمثلا يقول (فيرجيل) فى **الأناشيد الرعوية** (٤/ ٤٧١) إن ظلال الموتى قد نبهها وأيقظها «من أدنى دركات إيريبوس» غناء (أورفيوس) .

٨٨٤ - لن يغلق أبواب الجحيم أحد حتى يوم الحساب وبعدها يغلقها المولى جل وعلا .

٨٩٥ - لم يكن العماء فى الأساطير الكلاسيكية مجـرد كم لا صورة له من المادة ولكنه كان شخصا يرتبط بالليل (الذى كان يشار إليه من خـلال نفس الاستعارة) ولما كان العمـاء يعنى انعدام الشكل فإن ظلمة الليل هى أفـضل ما يناسب هذا اللاشكل . وهكـذا فإن النور قد بـدأ مع الخلق أما عـلاقة العـماء والليل بالطبيعة فمشروحة فى الحاشية التالية .

٨٩٨ - فى الكتابات الكلاسيكية مثل **منشأ الآلهة** (لهيزيود) وعن **التكوين** (بوكاشيو) يرد ذكر العماء والليل باعتـبارهما أبـوين للقوى المحـددة القائمة فى الـطبيعـة . أما وصف ميلتـون للصراع بين الخـصال المتناقـضة الذى سبق ظهور الكون فـهو يحاكى وصف أوفـيد للعماء الأول - وذلك فى كـتابه **مسخ الكائنات** حيث يقول « إن الأشياء الباردة تصـارعت مع الأشياء الساخنة ، وتصارع الرطب والجاف ، واللين والصلب ، والخـفيف والثـقيل » (١/١٩) وقد اسـتطاع معظم المـصلحين الدينيـين فى ذلك العصر أن يوفقوا بين العماء الذى وصفه أفـلاطون و (أوفيد) وبين عقيدة الخلق من العدم ، مستندين إلى كبار علماء اللاهوت مثل (فيلو) وآباء الكنيـسة الكبار (القديس أوغسطينوس فـى كتابه **الاعترافات** ١٢/ ٢٩ - ٤٠) .

٩٠٤ - (سيرنيكا) تعنى حاليًا برقة . وقـد ذكرها (فيرجيل) باسم (برقة) فى **الإنيادة** ( ٤/ ٤٢) أمـا فى هذا السياق فهى مدينة كبرى (سيرينى) . والتفرقة إذن تنحصر بين إقليم برقة وبين المدينة .

٩١٢ - يشيـر (سبنسـر) فى **ملكة الجان** ( ٣ - ٤ - ٣٦ ) إلى العـمـاء باعـتبـاره رحم العـالم . ويقـول (لوكريشيوس) فى **(عن طبيعة الأشياء)** (٥/ ٢٥٩) إن العماء قـبر كل الأشياء . و (لوكريشيـوس) يشير إلى الأرض وليس إلى الهوة السحيقة ، أما ميلتون فإنه يلزم الحذر فى التعبير فيقول (ربما) .

٩٢٢ - كانت (بللونا) إلهة الحرب فى الأساطير ولكنها هنا كناية عن الحرب نفسها .

٩٢٥ - المقصود بالسماء الإطار المباشر للأرض ومن ثم فإن الهيكل يعنى الكون .

٩٢٦ - يقول (تليارد) إن كلمة (المـحور) هنا غريبة على السياق لأن المحـور معناه أن ما حوله يدور وهذا بالقطع مخالف لـرأى ميلتون الذى يقول فى نفس العبـارة إن «الأرض ثابتة». وربما كانت الكلمـة تفيد الثبات أيضًا فى هذا النص .

٩٣٩ - منطقة من الرمـال المتحركـة فى شمال ليبـيا بالقرب من مـدينة بنغازى - والمقصـود هنا أى رمال متحركة .

٩٤٣ - (الغريفون) أو (الغريفين) حيوان خرافى نصفـه الأعلى يشبه العقاب والأسفل يشبه الأسـد . ولذلك فهـو يختلف عن الطير الخرافى عند العرب - سـواء الرخ أم العنقاء .

٩٤٥ - قبيلة (اسقيتية) Scythian ذكرها المؤرخ (هيـردوت) ( ٣ - ١٦ ) على أنها تتكون من ذوى العين الواحدة . و (اسقيتيا) مكان فى جنوب روسيـا الحالية . وتقول الأساطير إنهم سرقوا كنوز الذهب التى كان (الغريفـون) أو التنين أو الأفعوان يسهـر على حراستهـا . وقد شاعت هذه القصـة فى الأساطير القديمة الجرمانية واليونانية معًا .

٩٦٤ - تجسـيدان للجـحيم وحاكم الجـحيم الأول رومانى والـثانى يونانى - والهجـاء الشائع للأخـير هو (هاديس)، وهما فى هذا النص كناية عامة عن الفوضى والاضطراب والخلل .

٩٦٥ - (ديموجـورجون) أحد شـياطين العالم السـفلى التى يكتنفها الغـموض وقد شـاع ذكره فى الأدب اللاتينى بعـد الميلاد وأصـبح مألوفـا فى عصر الـنهضة . وقـد ذكره (سبـنسر) فى **ملكة الجان** ( ٤/٢/٤٧ ) وربط بينه وبين العـماء . أما عـبارة اللقب الرهيب فتـعنى «الحضرة» بالـمعنى الدينى أى الوجود الذى يفرض الرهبة وقد ذكر (ستاتيـوس) أن لقب هذا الشيطان يخيف العفاريت والأشباح وأن معرفة هذا اللقب فى ذاتها تلقى الرعب فى القلوب .

١٠١٧ - كانت السفينة (أرجـو) فى الأساطير اليونانية أول سفينة تعبـر المحيط وقد ركبها (جـيسون) ورفاقه الملاحـون وأقلعوا من اليـونان وعبروا مـضيق البسـفور ليأتـوا بالفراء الذهبى من منطقـة بالقرب من الشاطئ الشرقى للبحر الأسود . وكان عليهم أن يبحروا بين صخرتين متحركتين ما تفتآن تصطرعان . وقد اسـتطاعت السفـينة المرور بأن قـدر الملاحون الوقت المناسب لـلعبور أثناء ابتـعاد الصـخرتين بعضهما عن البعض .

١٠١٩ - يقول (هوميروس) فى **الأوديسا** إن (أوديسيوس) اتبع نصيحة السـاحرة (كيركى) وتحاشى صخرة (خاريبديس) بأن أبحر مع التيار المعاكس بحذاء صـخرة (سيلا) (انظر الحاشية ٧٩) وكان لكل صخرة دوامة تبتلع السفن وهكذا فإن الصورة تتضمن الدوامتين إلى جانب الصخرتين .

١٠٢٠ - صخرة مقابلة لصخرة (سيلا) وحولها دوامة خطرة ( انظر ١١١ ) .

١٠٥٠ - هنا إشارة إلى ما جاء فى **رؤيا يوحنا اللاهوتى** ( ٢١/ ١٨ إلى ٢١ ) عن وصف «المدينة العظيمة أورشليم المـقدسـة نازلة من السمـاء من عند الله » (١٠) إذ يقـول فى (١٩) إن أساسـها الثـانى من الياقوت الأزرق ( وهو ما نسمـيه اليوم بالسفير ) أما معنى « النابض بالحـياة » فهو ( الذى لم يقطع بل قدم فى صورته الأولى ) . وفـى هذا إشارة إلى سفر الخروج ( ٢٠/ ٢٥ ) « وإن صنعـت لى مذبحا من حجارة فـلا تبنه منها منحوتة . إذا رفـعت عليها أزميلك تدنسـها» والمذبح المقـصود هو مذبح (يهوه) .

١٠٥٢ - يقـول (زيوس) فى الإلياذة إنه أقـوى وأعلى من سائـر الآلهة ولإثبـات ذلك يزعم أنه إذا تدلت سلسلة ذهبيـة من السماء فـسوف يقدر على أن يحمل بهـا سائر الآلهة والأرض والبـحر جميـعا ثم يجعلها تتدلى من قمة الأوليمب ( الإلياذة ٨/ ١٨ إلى ٢٧ ) . ويقول مـيلتون فى المقدمة تفسيراً لهذه السلسلة إنها «التوافق العالمى والتوحد العذب بين جميـع الأشياء وهو ما يصوره (فيثاغورس) تصويراً شاعريًا باعتباره التناغم» وهكذا فإن ميلتون يقبل التقاليد الفلسفية والأدبية التى تمتد من أفلاطون ، عبر (بوثيوس) و (تشوسر) ( انظر قصة الفارس فى **قصص كنتربرى** ) و (سبنسر) ( انظر **ملكة الجان** ١١ - ٧ - ٤٦ ) .

# حواشى الكتاب الثالث

١ - ٥٥ تمثل هذه الأبيات مدخلاً جديدًا Exordium يتناسب وتغير المشهد من الجحيم (والعماء) إلى السماء، ومن ثم فكان لابد من استلهام الله حتى يساعد الشاعر على هذه النقلة . وينصح القارىء بمقارنة هذه البداية بالمدخل الخاص بالكتاب الأول وهو الذى يخاطب فيه الشاعر ربة الشعر و "الروح" وبالمدخل الخاص بالكتاب السابع الذى يحدد فيه الشاعر اسم الربة (أورانيا) - إذ إن مدخل الكتاب الثالث يمس الشاعر نفسه ، على حفوله بالإشارات اللاهوتية والفلسفية والفنية . وقد اضطرم الخلاف حول المقصود بالنور هنا فذهب البعض إلى أنه المسيح - مثل "النور الحى" الذى ذكره (دانتى) فى **الفردوس** (٧/ ٥٥) ، بينما ذكر كيلى Kelley إن ميلتون يتحدث عن النور بمعناه المادى أى الضوء ، على حين يتفق (وليامز) Williams و (ألن) Allen على أن ميلتون يمزج الدلالتين وأنه ينهج نهج أفلاطون فى النظر إلى الضوء ليس فحسب بإعتباره الصورة الأساسية لله ولكنه أيضًا إشعاع الله أى بهاؤه - كما يدل على ذلك استخدام كلمة "البهاء" فى البيت السادس من هذا الكتاب والفكرة هى أن هذا "البهاء" يتفرق ليخلق شتى الأشياء التى تعتبر من ثَمَّ إشعاعًا لقدرة الله . والواضح من البيت الثانى والأبيات من ٥١ - ٥٥ أن ميلتون يقصد بالنور أكثر من مجرد الضوء الذى تدركه العيون ، ولا شك إنه تأثر بالتقاليد المسرحية التى تمتد من العصور الوسطى التى شاع فيها الحديث عن النور الربانى بين المتصوفة (انظر كتاب "**الكاتدرائية القوطية**" لمؤلفه (سيمسون) Otto Von Simson طبعة نيويورك ١٩٥٦) ، التى تصبغ كتابات الأفلاطونيين الجدد فى عصر النهضة . ولكنه فى هذه المقدمة يتحاشى التقيد بأى مذهب فلسفى وضعى ويترك للقارىء حرية تفسير صوره الشعرية .

١ - يمكن فهم البيت الأول بأكثر من طريقة: فهو يعنى إما أن النور هو أول أبناء السماء أى أول ما خلق الله ، أو أنه المسيح- كما يتردد ذلك فى الإنجيل والتوراة **(رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسى)**

٣ - يقول الشراح إن ميلتون لا يلام على استخدامه هذه الصور وربما كان إحساسه بأن كلمة "صنو الخالد" يمكن أن توقعه فى مشكلات لاهوتيه (لأنها قد توحى بأن ثمة صنو للرب) هو الذى جعله يقتبس كلمات التوراة فى الأبيات من ٣ - ٦ وهى فى الترجمة العربية المنشورة (انظر مقدمة الجزء الأول) : "الذى وحده له عدم الموت ساكنًا فى نور لا يُدنى منه أحد من الناس" **(رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس** ٦/ ١٦) أما أن الله هو النور فإشارة إلى **إنجيل يوحنا** (١/ ٥) .

٨ - إشارة إلى الآية الواردة فى **سفر أيوب** "أين الطريق إلى حيث يسكن النور ؟" (٣٨/ ١٩) ، أما صورة النهر فمستقاة من **فردوس** (دانتى) (٣٠/ ٦١ - ٧٣) حيث تستخدم هذه الصورة للدلالة على الرحمة التى يغدقها الرحمن على الخلق .

٩ - ١٢ إشارة إلى التوراة "وقال الله ليكن نور فكان نور" **(التكوين** ١/ ٥) وإلى **المزامير** حيث يشار إلى أن الله "يلبس النور كثوب" (١٠٤/ ٢) - أما العدم والهيولة فيشيران إلى العماء الوارد فى الكتاب الثانى - (انظر الجزء الأول) - وفى البيت ١٨ هنا .

١٧ - ٢١ يشير ميلتون هنا إلى الدلالة الرمزية لأسطورة (أورفيوس) فى كتب القرن السابع عشر انظر مقال (هنرى رينولدز) Henry Reynolds بعنوان "أسرار الأساطير" - الذى أورده (سبنجارن) J. E. Spingarn فى كتابه (**مقالات نقدية من القرن السابع عشر** - أكسفورد ١٩٠٨) الذى يتضمن الفقرة التالية : "شاعت قصيدة (أورفيوس) وتغناها المنشدون وفحواها أنه استطاع أن يستعيد زوجته (يوريديس) من الجحيم بقوة موسيقاه ، فالموسيقى هنا تمثل الحقيقة والعدالة بينما تمثل الجحيم الهمجية والجهالة - أى أن الموسيقى ترمز لأفكاره ومبادئه العميقة الممتازة ، غير أن (أورفيوس) قد فقد زوجته وهو يمضى بها فى طبقات الظلمة الكثيفة من قشرة الأرض" (المجلد الأول - ١٥٨) أما قول ميلتون بأن ألحانه "تختلف" عن ألحان (أورفيوس) فيفسر (فاولر) ذلك بأن ميلتون لم يكن يشكو فقد زوجته .

٢٣ - يشير ميلتون ، كما هو واضح ، إلى الضوء المحسوس ولكن العقيدة القديمة لم تتغير وهى أن النور السماوى لا يختلف عن النور الأرضى من حيث الدرجة رغم أنه أنقى ورغم أنه يرمز إلى الحق والحكمة وقد سبق ميلتون إلى ذلك الشاعر الإنجليزى ادموند سبنسر فى قصيدة قصيرة بعنوان **أنشودة إلى الجمال السماوى** - إذ يقول فيها :

**ولكن ذلك النور الخالد الذى يسطع هناك**
**أنقى وأبهى آلاف المرات**
**وأكثر امتيازًا وسناء وقدسية**
**إذ إنه النور الذى يكسو فعال البشر أمام الله**
**بل وأفكار البشر**
**فهو ينبع من الحق الخالد**
**وفضائل السماء التى تنميه بأشعتها .**

١٦٩ - ١٧٥

٣٠ - يقصد بجبل (صهيون) أنه يفضل الشعر العبرانى على غيره .

٣٢ - كان من عادة ميلتون أن يكتب الشعر ليلاً .

٣٥ - ٣٦ (تامريس) Thamyris شاعر ذكره (هوميروس) فى **الإلياذة** (الكتاب الثانى ٥٩٤ - ٦٠٠) وقال إنه توله بحب ربات الشعر وتحداهن إلى نزال يقدم فيه الخاسر كل ما يريده المنتصر . وعندما انتصرت ربات الشعر أخذن بصر الشاعر وقيثارته (وفى رواية أخرى قدرته على الإنشاد) - ومن ثم شاع تعبير Thamyris insanit أى "جن (تامريس)" وكانت تطلق على من يحاول إنجاز ما فوق طاقته . ولما لم يبق من مؤلفات (تامريس) ما يبرر طموح ميلتون إلى نفس الدرجة من الذيوع فقد مال بعض الشراح إلى تصور خوف ميلتون من تصوير السماء بإعتبار ذلك فوق طاقته . ويقول فاولر إن فكرة كف البصر وطاقات النبوءة - ومنهم (بيكو) Pico الذى يورد اسم (هوميروس) واسم (تيريسياس) فى هذا السياق . بل إن ميلتون نفسه يذكر هذا صراحة فى إحدى قصائده اللاتينية

وعنوانها ''عن الصورة المثالية الأفلاطونيـة كما فهمها أرسطو'' إذ يقول فى البـيت ٢٦ إن كف بصر (تيريسياس) وهبه بصيرة نافذة، وترجمتهــا الحرفية (وهبه نوراً نافذًا) . وأما (فينيوس) فكان ملكًا فقد بصره - حسبمــا تقول إحدى الروايات - لأنه تفوق فى نبوءاته فأخذ يفـشى مشورات الآلهة . ولكن ميلتون أنكر إن فقدان البصر كان عقابًا له فى مقال لاحق (هو ''الدفاع الثانى'') .

٤٧ - ''كتاب المعرفة'' يعنى هنا كتاب الطبـيعة أو كتاب الله كما يـسميه ميلتون فى هذه القـصيدة (الكتاب الثامن، البيت ٦٧) .

٤٨ - المعنى الأول للخواء هو الصفحة الخالية ولكننى فضلت المَعنى الثانى (انظر **قاموس أكسفورد الكبير** - المعنى رقم ٦ ب للكلمة) .

٦٠ - فى الأصل ''القداسات'' ومعناها الأرباب أى الملائكة - والقداسة صـفة من صفات الملائكة ومن ثم فهى كناية عنهم . انظر أيضًا الحاشية على البيت ٧٦٧ من الكتاب السادس .

٦٢ - ٦٣ إشــارة إلى الآية الواردة فى **الرسالة إلى العبرانيين** ''ابنه . . . . الذى جـعله وارثًا لكل شىء . . . الذى وهو بهاء مـجده ورسم جـوهره . . . جلس فى يمين العظمـة فى الأعالى'' (١/١ - ٣) مـن الترجمة العربية المنشورة .

٧٤ - فى الأصل ''العالم'' والمقصود بها الكون لا الأرض (انظر الكتاب الثانى البيتين ١٠٥٢ - ١٠٥٣) .

٧٥ - ''سماء'' هنا معناها ''الجو'' - ولما كـانت داخل القشـرة التى تحيط بالكون ولما كـان إبليس يقف عليها الآن فإنه لا يستطيع رؤيتها .

٩٤ - الأمر الأوحد هو ألا يأكل الثمرة المحرمة .

١٠٣ - ١٠٦ انظر ما يقوله ميلتون فى كتابه ''**عن العقيدة المسيحية**'' (٤/١) : ''إذا لم نسلم بحرية الإرادة فسوف يصبح حـبنا لله وعبادتنا له عبثا لا طائل منه ولا قيـمة له . . . ومن ثم فلن يكون هناك مجال لتقبل أى تكاليف (جمع تكليف) تؤدى بمقتضى قانون الضرورة أو الحتمية ، وذلك لانتفاء الحرية التى لابد منها حتى تكتسب الإرادة معناها'' .

١٠٨ - ربما كـان ميلتون يشـير هنا إلى ما قـاله أرسطو عن العقل فى كـتاب **الأخلاق** انظر أيضًا مـا يقوله ميلتون فى **أريوباجيتيكا** : ما أحمق هؤلاء الذين ينعون على العناية الإلهية أن تركت آدم يقترف الإثم ! ما أحمق تلك الألـسنة ! إن الله حين وهبه العقل وهبـه فى الحقيقة حـرية الاختيار فـما العقل إلا الإختـيار - وإلا لكان آدم زائفًا غـير طبـيعى'' . (انظر الحـديث عن هذا المـوضوع فى مـقدمـة الملحمة) .

١١٣ - ١٢٣ يوضح ميلتون فى كتابه **عن العقيدة المسيحية** - أنه يوفق بين التسيير والتخيير عن طريق العلم الأزلى ، وأنه يعارض فكرة الحتمية كل المعارضة . فيقول مثلاً : ''إن الأحداث المقبلة التى يعرفها الله قبل أن تقع سوف تقع ولا شك . . . لأن العلم الإلهى السابق لا يمكن أن يخطىء ، ولكن هذه

الأحداث لا تقع بالضرورة أو الحتم لأن العلم السابق لا يمكنه التأثير على الشىء المعلوم سلفًا لأن "يعلم" فعل لازم فحسب" (١/ ٤) .

١٢٥ - الواضح أن الحديث يدور عن آدم وحواء - رغم استمرار الحديث عن "القوى الأثيرية" المذكورة فى البيت ١٠٠ - وهذه السيولة فى بناء الجملة تجعل ميلتون ينتقل من المستقبل (البيت ١٢٥) إلى الحاضر (الأبيات ١٢٢ و ١٣٠) إلى الماضى (١١٦ و ١١٨ و ١٢٨) بحيث يؤكد قدرة الله على رؤية الزمن السرمدى فى كل حالاته كما نص على ذلك فى البيت ٧٨ من هذا الكتاب .

١٥٣ - ١٥٤ انظر **سفر التكوين** : "حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشا لك" (١٨/ ٢٥) .

١٥٦ "الخصم" هو المعنى الحرفى لكلمة Satan بالعبرية (إبليس هنا) .

١٧٣ - ٢٠٢ يعارض ميلتون فى كتابه عن **العقيدة المسيحية موقف** (كالفن) الذى يعتبر الإنسان عاجزًا كل العجز عن تحقيق الخلاص - وهو هنا يوحى بنفس الموقف إذ يقول إن الإنسان قادر على الخلاص وذلك بالصلاة والتوبة والطاعة (البيت ١٩١) .

١٨٤ - معنى الاصطفاء فى ميلتون (مثلما هو عند الكالفنيين - انظر مقدمة الجزء الأول) هو الإيمان والثبات عليه .

١٩٣ - يبدأ الوفاء بهذا الوعد فى الكتاب الحادى عشر ١ - ٤٧ عندما يتقبل الله صلاة آدم وحواء ويقبل توبتهما .

٢٠٦ - فى الكتاب العاشر (٧٠٨ - ٧١٧) يغوى إبليس حواء حين يعدها بأنها سوف تصبح هى وآدم "مثل الأرباب" .

٢١٦ - الكلمة الإنجليزية Charity المشتقة من اللاتينية Caritas تفيد المحبة الرحيمة ، وهى تقترب من المعنى السائد حاليًا وهو الإحسان بمعناه الدينى - فالإحسان المادى لابد أن يقوم على المحبة والرحمة وإلا فقد معناه . وهو بعدُ درجةٌ من درجات الإيمان .

٢٤٤ - انظر **إنجيل يوحنا** "لأنه كما أن الأب له حياة فى ذاته كذلك أعطى الابن أيضًا أن تكون له حياة فى ذاته" (٥/ ٢٦) .

٢٤٨ - ٢٥٩ تتضمن هذه الأبيات إشارات كثيرة إلى الكتاب المقدس .

٢٦٧ - ٢٦٩ يقول (فاولر) إن طاعة الابن تفوق محبته ، وهو ما ينبغى أن يكون وفقًا لترتيب الفضائل فى نظر ميلتون . "فالمسيح هو الشخص الوحيد الذى يتسم بالطاعة البطولية فى القصيدة" انظر الكتاب السادس ٨٢٠ ، والتاسع ٣١ - ٣٢ ، والسابع ٦٠٢ - ٦٠٧ .

٢٧٧ - ٢٧٨ انظر ما يقوله الملك لير فى مسرحية شيكسبير الشهيرة بهذا الاسم عن ابنته كورديليا (ف ١ - م ١ - البيت ٨٥) .

٢٨٣ - انظر **إنجيل يوحنا** ''والكلمة صارت جسدًا'' (١/ ١٤) .

٢٨٥ - ٢٨٦ انظر رسالة **بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس** - ''إن رأس كل رجل هو المسيح . . . ورأى المسيح هو الله'' (١١/ ٣) .

٢٨٧ - انظر **كورنثوس ١** :''لأنه كما فى آدم يموت الجميع هكذا فى المسيح سيحيا الجميع'' (١٥/ ٢٢) . .

٢٩٠ - ٢٩٤ انظر **الرسالة إلى أهل رومية** (٥/ ١٧ - ١٩) .

٣٠٠ - ٣٠١ لاحظ أن ميلتون يستخدم الفعل الماضى (دمره) ثم الحاضر (يدمره) فى نفس الوقت بحيث يشعر القارىء أن السقوط قد حدث بالفعل ولكن الإيحاء الأول هو أن الزمن هنا فيض لا زمنى ويقول أحد الشراح إن ميلتون يتحدث عن السقوط كأنما حدث فى الماضى ، ربما لأن كل شيء - بما فى ذلك أحداث المستقبل - حاضر فى نظر الله .

٣٠٧ - يعلق (فاولر) على غرابة الإستعارة هنا أى على تعبير ''ثمار الربوبية'' قائلاً إن الاستعارة تتضمن تورية تشير إلى تناقض السلوك لدى آدم : فها هو المسيح على استعداد للتخلى عن ''ثمار'' الربوبية من أجل الإنسان ولكن الإنسان لا يتخلى عن ''الثمرة'' التى ترفعه إلى مصاف الخلود أى إلى الإقتراب من الربوبية .

٣١٧ - ٣١٨ انظر العبارة الواردة فى **إنجيل متى** (٢٨/ ١٨٩) ''دفع إلىّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض'' - وقد ورد فى كتاب ميلتون عن **العقيدة المسيحية** أن هذا النص الإنجيلى دليل على أن المسيح يختلف فى جوهره عن الأب .

٣٢٤ - ٣٢٩ استقى ميلتون صور يوم القيامة من العهد الجديد من **رؤيا يوحنا ومن إنجيل متى** (٢٤/ الآية ١٦ وما بعدها) ومن **الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس** (١٥/ الآية ٥١ وما بعدها) .

٣٣٩ - ٣٤٣ انظر **كورنثوس الأولى** (١٥/ ٢٨) ''ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه سيخضع للذى أخضع له الكل كى يكون الله الكل فى الكل'' - وقد حيرت هذه الأبيات الباحثين ، ويُنصح القارىء بالنظر فى رأى (إمبسون) فى استخدام كلمة ''الكل'' عند ميلتون (ص ١٠١ - ١٠٤) .

٣٥٢ - زهر (الأماران) يعنى فى الأصل اليونانى الزهر الذى لا يذوى ولا يبلى وقد لجأ ميلتون إلى هذا الاسم استنادًا إلى ما جاء فى العهد الجديد ''سوف تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى'' (**رسالة بطرس الرسول الأولى** - ٥/ ٤) والكلمة باليونانية هى أمارانتينون amarantinon - وقد كان هذا الزهر يميل إلى اللون الأرجوانى ويعتبره أحد الشراح رمزًا للخلود - ويعتقد (فاولر) أن ميلتون كان يعرف أن أكاليل الزهور من التقاليد الوثنية القديمة وأنه كان يستخدمها هنا عمدًا للمقارنة بين رمزية الزهور فى الوثنية والمسيحية .

٣٥٧ - ٣٥٩ من الآيات التى تُستخدم فيها صور الأنهار رموزًا لفرح المؤمن آية فى **المزامير** تقول ''من نهر نعمك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة'' (٣٦/ ٨ - ٩) .

٣٦٧ - كنانة السهام القديمة كان يوضع فيها القوس أيضًا ولذلك كانت مقوسة مثل القيثار .

٣٧٥ - ٣٨٢ صورة النور والسحاب مأخوذة من **الكتاب المقدس** ( **تكوين** ١٤/١٦ ، و ٣٣ - ١٨ وما بعدها و**إشعياء** ٦/١ وما بعدها و**تيموثاوس** ٦/١٦ ) .

٣٨٣ - انظر **رؤيا يوحنا** (٣/ ١٤) حيث ترد الآية القائلة إن المسيح هو "بداءة خليقة الله" ، و**كولوسى** (١/ ١٥ و ١٧) - ويقول ميلتون فى كتابه **عن العقيدة المسيحية** "إن المسيح نفسه مخلوق بإعتباره أول إنسان وأول الخلق" وقد ثار الجدل حول هذه الفكرة خاصة بالنسبة لمعنى كلمة أول - أى إذا ما كانت تعنى التكريم أو السبق الزمنى .

٤٠٧ - كثيرًا ما صور الأدباء المسيحيون نظرة الله إلى الإنسان فى صورة حوار بين أربع صفات من صفاته بعد تجسيدها والحديث على لسانها - والصفات هى الرحمة والعدالة والحق والسلام . وقد نوقش ذلك مناقشة مستفيضة فى كتاب " بنات الرب الأربع" من تأليف هوب ترافر Hope Traver (فيلادلفيا - بنسلفانيا - ١٩٠٧) .

٤٣١ - ٤٤١ فى كل التشبيهات الملحمية الطويلة التى يبنيها ميلتون تتعدد أوجه الشبه بين المشبه والمشبه به . فإبليس يشبه النسر فى شراسته وإدراكه الفريسة على البعد وطريقة تحليقه ، كما تشبه الحملان وصغار المعز بنى الإنسان لبراءتها وانقسام القطيع فيها إلى خراف وجداء (**إنجيل متى** - ٢٥/ ٢٢) إلى جانب التشابه الجغرافى بين رحلة (جنكيز خان) ورحلة إبليس (أى من الثلوج إلى الأنهار) . ويلاحظ أن ميلتون يجمع آخر الأمر بين المشبه والمشبه به حين يوحى بأن نهر (جانكيز) هو نهر (الفيشون) المذكور فى **سفر التكوين** (٢/ ١١) .

٤٥٩ - يقصد "بالبعض" الشاعر الإيطالى الكبير (أريوسطو) كما تصور آخرون وجود من يعيش على سطح القمر مثل (برونو) و (كاردن) و (هنرى مور) ( انظر كتاب **ميلتون والمعرفة المحرمة** من تأليف هوارد شولتز - نيويورك ١٩٥٥) .

٤٦٣ - ٤٦٥ أول الحمقى هم العماليق "الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم" والذين جاءوا نتيجة الاقتران الخاطىء بين "أبناء الله" و "بنات الناس" (تكوين ٦/ ٤) .

٤٦٩ - ٤٧٣ يذكر أحد قدماء الكتاب فى كتاب له عن أتباع (فيثاغورس) والرواقيين أن (إمباذوقليس) و(كليومبروتوس) قد انتحرا لإيمانهما بخلود الروح - فأما الثانى فقد انتحر غرقا بعد أن أساء فهمه لمؤلفات أفلاطون وبالذات (فايدو) ، وأما الأول فقد انتحر تمردًا على بشريته ومحاولةً منه للخلود . (انظر مثلاً ما يذكره (هوراس) عن هذا فى **فن الشعر** حيث يقول: "لقد ألقى امباذوقليس بنفسه يومًا فى نيران (إتنا) رغبة منه فى أن يخاله الناس بين الخالدين." (السطور ٤٦٤ - ٤٦٦) **من ترجمة الدكتور لويس عوض** .

٤٧٤ - ينتقد ميلتون هنا بعض التقاليد الكلاسيكية التى تنص على أن البلهاء والمشوهين والأطفال "غير المعمدين" مأواهم إحدى الطبقات العليا فى الجحيم وهى طبقة Limbo infantum - أما الفرنسيسكان فقد قالوا إن هذه الطبقة تقع فوق الأرض فى منطقة من مناطق النور .

٤٧٥ - كانت طبقات الكهانة الفـقيرة تتميز بألوانها المختلفة فـاللون الأبيض يعنى الطبقة الكرملية ، والأسود طبقة الدومينيكان والرمادى الفرنسيسكان . وميلتـون يقصد السخرية من الأهمية التى يوليها هؤلاء إلى اللون وإلى المظاهر الفارغة . كما يبين ذلك فى البيت نفسه بإشارته إلى البهرج .

٤٧٦ - ٤٦٧ (جلجثـه) هو التل الذى وقعت عليه حادثة الـصلب . وميلتون هنا يقول إن الحـجاج يكررون الخطأ الذى وقع فيه الحـواريون قبل أن يعرفوا أن المسيح قـد رفع إلى السماء (انظر **إنجيل لوقا**) : ''لماذا تطلبن الحى بين الأموات ؟ ليس هو ههنا لكنه قام'' (٢٤/ ٥) .

٤٧٩ - ٤٨٠ تعتبر هذه الصورة تمهيدًا لتخفى إبليس ابتداء من البيت ٦٣٤ فى نفس الكتاب . وتقارن هذه الفقرة بما ذكره دانتى فى ''الجحيم'' (٢٧/ ٦٧ - ٨٤) عن محاولة (غويدودا مـونتفلترو) دخول الجنة بإرتدائه مســوح رهبان الفرنسيـسكان ، وفشله فشـلاً ذريعًا لأن التوبة شرط من شروط الغـفران ولا تكفير عن الذنوب دون توبة .

٤٨١ - ٤٨٣ أقرب الأفلاك التى يمرون بها إلى الأرض هى : فلك الكـواكب السبعة ، ومن بعدها الفلك الثامن - فلك النجوم الثـابتة - ثم الفلك البلورى ، ثم الفلك العاشر وهو أول الأفـلاك حركة أى أنه المحرك الأول .

٤٨٢ - ''الميزان'' هنا له عدة معان أولها هو ''الميزان'' أى برج الميزان ، (وهذه تورية شـائعة) وثانيها هو ''الإتزان'' أى اتزان حركة فلك الكواكب مع الفلك البلورى . وثالثـها وهو أهمها هو ''التوازن'' بين فلك الكواكب السبعة مع اهتزاز فلك النجوم الثابتة . وقد حاولت التوفيق والجمع بينها فى الترجمة . كان أهل الـعصور الوسطى يـتصورون أن هذا الاهتـزاز هو سبب اخـتلاف طول الليل والنهـار بين الفصول المتعاقبة . بل إن كـوبرنيق (كوبرنيكوس) كان يؤمن هو الآخر بوجود هذا الاهتزاز . (انظر كتاب **تاريخ الفلك من طاليس إلى كبلر** - تأليف درابر - ١٩٥٣ خاصة صفحـــة ٣٢٩ وما بعدها ، وكتاب **التكفير الفلكى فى انجلترا فى عصر النهضة** - تأليف ف.ر. جونسون ١٩٣٧ - صفحة ١١٠ وما بعدها وكتاب **ثلاثة مباحث لكوبرنيكوس** نشر وتحقيق ادوارد روزين - نيويورك ١٩٥٩ - صفحة ٤٥ وما بعدها) . أما عـن أهمية رمز ''الميزان'' فى شعر ميلتـون فانظر الأبيات ٩٩٧ - ١٠٠٤ من الكتاب الرابع . والحاشية .

٤٩٤ - ''ظهر الكون'' هو نصف الكرة المظلم لأول الأفلاك حـركة - وهو أبعدها عن السمـاء أى السماء المشرقة التى ورد ذكرها فى البيت ٤٢٩ .

٥٠٦ - ٥٠٧ يحتمل أن يكون المدخـل مرصعا باللآلىء التى ''تشبه الشمس المشـرقة وهذه بعض معانى كلمة براقة Orient التى تعنى الشرق فى غيـر هذا الموضوع - انظر **رؤيا يوحنا** ٢١/ ٢١ حيث يقال إن الأبواب الإثنى عشر لأورشليم الجديدة كانت ''اثنتا عشرة لؤلؤة'' .

٥١٠ - كان الرسامون يصورون ''سُلَّم يعقوب'' فى لوحاتهم الدينية باعتباره رمزا للصعود إلى السماء حتى بعد العصور الوسطى وحتى عـهد ميلتون . والأصل (كما هو وارد فى **سفر التكوين** ٢٧ - ٢٨) أن

يعقـوب - بعد أن خدع أخاه لينال بركـة أبيه - هاله أن يرى فيمـا يرى النائم سُلما يمتد صـاعدًا إلى السماء ، مما جـعله يقسم قسما مُغَلَّظًا بطاعة الله فالسُّلَّم يعنى أن دخـول الجنة لا سبيل له إلا التوبة والإخلاص فـى العبـادة والعكوف على تأمل الطبيعة التى خلقـها الله وليس بمفتـاح يمسكه القديس بطرس . ويقول (فاولر) إن النقاد كثيرًا ما يخطئون فهم علاقة هذه الصورة بموقف إبليس ، ثم يشرح هذه العلاقة قـائلاً : إن إبليس قد هرب من مقر عـقابه ووصل إلى مفتـرق الطرق أى إنه كان قادرًا حتى فى هذه اللحظة على التوبة . ويضيف (فاولر) : وثم إشارة أخرى إلى رؤيا يعقوب إذ إن إبليس على وشك أن يتأمل بدائع الطبيـعة حينما ''لاح له هذا العالم كله بـصورته الكاملة'' (البيتين ٤٥٢ - ٥٤٣) . بينما يقـول البروفسـور كريسـتوفر ريكس فى كـتابه **أسلوب مـيلتون الرفـيع** - أكسـفورد - ١٩٦٣- إن ثمة تناقضا بين المشبه والمشبـه به لأن يعقـوب نبىّ وهـو يختار التوبة أما أبليس فشيطان وقد حقت عليه اللعنة . (صفحة ١٦٧ وما بعدها) .

٥١٣ - (أرام) هى سوريا . أما حقل (لوز) فهـو الاسم القديم لمدينة (بيت إيل) أو بيت الله - حيث توقف يعقوب وجاءته رؤيا السُّلَّم . (انظر **سفر التكوين** ١٨/١٩) .

٥١٥ - انظر ما جاء فى **سفر التكوين** ''فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقًّا إن الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم . وخاف وقال ما أرهب هذا المكـان . ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء'' . (١٦/٢٨ - ١٧) .

٥١٦ - ٥١٧ ذهب بعض الشراح إلى إقامـة علاقة رمزية بين سُلَّم يعقوب وبين السلسلة الذهـبية التى قال هوميروس إنهـا تربط الكون إلى (جوبيتر) (رب الأرباب) لأن كل درجة ترمـز إلى درجة من درجات الوجود الطبيعى أو ما يسمى سُلَّم الطبيعة الذى يحدد مراتب الوجود .

٥١٨ - البحر هو مـا يسمى ''الماء الذى يحيط بالسماء'' (خارج الكون) والذى يتدفق حـول باب السماء. وقد ورد ذكره فى **رؤيا يوحنا** ٦/٤ على أنه ''بحر من الزجاج'' .

٥٢١ - ٥٢٢ يقول **إنجيل لوقا** (٢٢/١٦) إن العازر حين مات ''حملته الملائكة إلى حضن إبراهيم'' وتقول التوراة (**الملوك الثانى** / ١١/٢) إن اليشع حملتـه الملائكة فى ''مركبـة من نار وخيل من نار'' . أما صـورة الإبحار فـى البيت ٥٢٠ فتـذكرنا بالصـورة التى رسمهـا دانتى فى **المطهر** لسفـينة تنطلق بها الملائكة .

٥٣٥ - (بانياس) هو الاسم اليـونانى الذى أُطلق فى العصور الحديثـة على نبع (دان) وينبغى ألا نخلط بين هذا النبع ومدينة (دان) الواردة فى الكتاب المقدس .

٥٣٦ - بير سبع تمثل الحد الأقصى فى الجنوب لأرض (كنعان) مثلما كانت (دان) تمثل الحد الأقصى فى الشمال لها . وكان التعبير الشائع هو ''من دان إلى بير سبع'' . (انظر **قضاة** ١/٢٠) .

٥٣٨ - ٥٣٩ المقصود بالظلام هنا بالطبع هو العماء- غير أن بعض الكلمات فى الأبيات السابقة (التخوم - الحدود - موج البحـر - سواحل) توحى بمعنى مجازى آخر هو ظلمة الجـاهلية أو ظلمة الوثنية التى

تحدها تخـوم الأرض المقدسـة . انظر الصـورة الواردة فى **سفر أيوب** ٢٨/ ٣ "إنه يضع حـدودًا للظلام" .

٥٤٢ - ٥٥١ تقول إيزابـيل ماكافـرى فى كتـابها "**الفردوس المفقـود باعتبارها أسطورة**" - كيمـبردج - ماساتشوستس - ١٩٥٩ - "إن هذه الصورة تنقل إلينا بدقة الأثر الذى تحدثه القصـيدة بصفة عامة - أى صورة شيء صلب معقـد يمكن النظر إليه نظرة كلية" ص ٥٠ وتسهب الكاتبـة فى الحديث عن الدلالة المعنوية والخلقية **للصور** البانورامية فى الفردوس المفقود باعتبارها صورًا للاتساق والإنتظام .

٥٥٥ - ٥٦١ يجد بعض الشراح صعوبة فى تصـور المكان الذى يقف فيه إبليس ليطل من عَلٍ على العالم الجديد . . ولكن الواضح أنه يقف على خط الاسـتواء السماوى والذى كان يمـثل المدار الأساسى للأفلاك قبل خلق العالم وهبوط الإنسان . .

٥٥٦ - "القبة الكبرى" هى الصورة التقليدية للسماء والمقصود عادة قبة من النسيج تشبه سقف السرداق - ولكنها تتـحول فى أيدى الشعـراء من صورة إلى صورة - فمـثلاً يشير إلـيها شكسبـير فى مسرحـية **هاملت** (الفصل الثانى - المـشهد الثانى - الأبيـات ٣١٨ - ٣٢١) باعتبارها قبـة من الهواء المرصع بالنجوم :

**هذه القبة البديعة الرائعة - قبة الهواء**
**هذه السماء الجميلة المعلقة فوق رؤوسنا**
**هذه السقف الرفيع المرصع بالنيران الذهبية**

أما هنا فتعنى الجانب من السماء الذى يسقط عليه ظل الأرض فالقارىء يلاحظ أن الوقت فى الأرض هو منتصف الليل ، وأن إبليس يرى من تحته أرضا مظلمة تلقى ظلاً مخروطيًا يتجه طرفه إلى موضع قدميه .

٥٥٧ - ٥٥٩ المقصود بالنجـم الناعم برج الحمل - والأصل فى النص الإنجليزى هو "النجم ذو الفراء" - وقد ترجـمت المعنى غير الظاهر لأن برج الحـمل ليس نجمًا واحدًا . أمـا أن هذا النجم بحمل (أندروميدا) فتفسـيره أن برج الحمل وكوكبة (أندروميدا) متجاوران تجـاورًا شديدًا بحيث يشرقان معًا ويغربان معًا - مما ييسر تصور ما يعنيه ميلتون .

٥٦٠ - ٥٦١ يقول إمبسون إن مـيلتون يعنى قطبى الأرض (انظر كتابه **بعض صور الشعر الرعوى** - ١٩٥٠ - ص ١٥٠) - ولكن المقصود هو قطبـا السماء - أما كلمة العالم فى البيت ٥٦٢ فـتشير إلى الكون بصفـة عامـة . وأما قول مـيلتون إن إبليس ينقـل عينيه من القطـب إلى القطب ليدرك عـرض العالم فيقتضى قدرة فـائقة على التصور لأنه يقتضى أن نتخيل أن الكون قد مـال على جانبه . ولكن ميلتون يعتمد على نص دينى هو ما ورد فى **سفر أيوب** (١٨/٣٨) "هل أدركت عرض الأرض ؟" .

٥٦٢ - "أولى مناطق العالم" لا تشير إلى منطقـة على الأرض بل إلى آخر طبقة من طبقـات الجو - فوق الطبقات الثـلاث الأولى المعرفة والمذكورة فى الكتـاب الأول حيث يشير ميلتون فى البـيتين ٥١٥ -

٥١٦ إلى ''السماء الوسطى . . أرفع سماواتهم'' وانظر الحاشيـة على البيت ٥١٦ من الكتاب الأول التى تفصل القول فى تقسيم السماء إلى ثلاث مناطق أو طبقات أو سماوات .

٥٦٤ - ''الصقل'' هى ترجمة للمـعنى فالأصل يقول ''مثل الرخام'' وقد سبقه فى اسـتخدام هذا التركيب اللاتينى (فيرجيل) فى **الإنيادة** (٤/ ٧٢٩) وانظر أيضًا شكسبير - فى مـسرحية **عطيل** ف ٣ - م ٣ - البيت ٤٦١ حيث يصف السماء بأنها كالرخام - ولو أن التعـبير فى شكسبير قد يقصد به الدوام وليس الصقل .

٥٦٥ - ٥٧١ فكرة الحياة فى الكواكب الأخرى فكرة محببة إلى ميلتون فهو يذكرها فى البيتين ٤٥٩ و ٦٧٠ من نفس هذا الكتاب - ويعود إليها فى الكتاب الخامس (٢٦٣) والسابع (٦٢١) والثامن ١٤٠ - ١٥٨ و ١٧٥ وقد كانت الفكرة شائعة وكتب عنها الكثيرون فى القـرن السابع عشر - كما كان معظم علماء الفلك يقبلون وجود سكان فى كـواكب المجموعة الشمسـية نفسها . انظر مقالة الأسـتاذة مارجورى نيكولسون ''عالم فى القمر'' (العنوان الكامل فى ثبت المراجع) - وكـتاب راجان **الفردوس المفقود وقارئ القرن السابع عشر** - لندن - ١٩٦٢ - ص ١٥٣ - وكتاب البروفسور آرثر لافجوى ''**التسلسل الأكبر للوجود - دراسة لتاريخ فكرة**'' نيـويورك ١٩٦٠ - ص ١٠٨ - ١٤٢ . وتقـول مارجـورى نيكولسون فى كتاب آخر هو ''**كسر الدائرة : دراسـات فى تأثير العلم الجديد على شعـر القرن السابع عشر**'' - طبعـة إيفانزتون - إلينـوى - ١٩٥٠ - تقول ''إن رحلة إبليس فى عالم العمـاء تمثل إحدى ''الرحلات الكونية'' الكبرى فى عـصر كان يقبل فكرة وصـول ملاحى الفضـاء الخياليين إلى القـمر والكواكب بحثا عن عوالم أخرى وبشر آخرين'' ص ١٦٥ .

٥٦٨ - ورد ذكر حقـول هسبيريا أى إيطاليـا فى الكتاب الأول البيت ٥٢٠ (وانظر الحاشـية) ولكن الحدائق الهسبيرية تختلف عنها - فهذه الحدائق كانت فى نظر القدماء تقع فيما وراء المحيط الأطلنطى - انظر البيـتين ٥٥٩ - ٥٦٠ - وقد ذكر هيـزيود أن (جوبيتر) رب الأربـاب قد عهد إلى قـوم يطلق عليهم ''الهسبيريون'' أى أهل هسبـيريا بحـراسة ثمـار التفاح ولكنهـم لم يفلحوا - ويذكر هـيزيود أن هذه الحدائق تقع أيضًا فـيما وراء المـحيط . ويورد البروفـسور لافجـوى (فى الكتاب المذكـور آنفا ص ١٠٩) رأيا ذكره (جـون ولكنز) مفـاده أن فى هذه العبـارة تلميحًا بأن سكـان الكواكب الأخرى ''قد أصابتهم خطيئة آدم'' - وهذه فكرة طالت مناقشتهـا فى ذلك العصر . وربما كانت فيهـا إشارة خفية إلى سقوط الجنس البشرى أيضًا .

٥٧٠ - ''الجزر السعيدة'' إشارة إلى جـزر المبـاركين التى تحـدثت عنها الأسـاطير اليونانـية إذ إن بعض المصطفين من البشر فيـها كانوا لا يموتون . وقد ورد التعبير ثانيا (مقتـرنا بذكر هسبيريا) فى الكتاب الثامن فى الأبيات ٦٣٠ - ٦٣٢ .

٥٧٣ - ٥٧٦ يقول (فـاولر) إن هذه فقرة عـسيرة الفهم لأنهـا تجمع بين الاختـيارات التى يواجهـها إبليس والاختيـارات المطروحة فى زمن ميلتـون إزاء شكل الكون . فإبليس يستطيع أن يختـرق الكون من وسطه ويستطيع أن يدور فى الأفلاك الخارجية مع الشمس مثلاً حتى يصل إلى الأرض- أما لماذا لا

يستطيع ميلتون تحـديد المسار (إذ يقول فى البيت ٥٧٥ "لا نستطيع القطع فى هذا") فربما لأنه لا يريد إظهـار التزامه بـمذهب فلكى دون غـيره . وآية ذلك أن الوسط (أى مـركز الكون) ربمـا كان الأرض وربما كـان الشمس – حـسبمـا توحى هذه الفقـرة – ولابد أن ميلتون كـان مُلمًّا بالنظريات الذائعة آنذاك عن مـركز الكون – بل عما إذا كان الـكون له مركز على الإطلاق ، وربما كـما يقول (فرانسـيس بيكون) كانت النجوم منتـشرة "دون نظام ودون مركـز يتوسطها جـميعا . . . مـثل جزر متعددة فى بحر عريض شاسع" (مذكور فى فاولر ص ٥٩٦) .

٥٧٨ – يقول (أليستير فاولر فى كتابه **سبنسر والأرقام الزمنية** – لندن – ١٩٦٤ إن عين السـماء هى الصورة الاستعارية التى توحى بأسطورة أورفيـوس – ص ٧٤ – وهى صورة رمزية شائعة لوجود **الله** فى كل مكان .

٥٧٩ – الرقصة الكونية صورة محببة إلى نفس ميلتون – انظر الكتاب الخامس ١٧٨ – والسابع ٣٧٤ والثامن ١٢٥ – ومسرحية **كوموس ١١٢** – أما دلالة الرقصات على المواقـيت فهى فكرة قديمة ترجع إلى فكرة رقـصات جوقـات النجوم عند أفـلاطون – ولها سند فى التـوراة – انظر **سفـر التكوين** ١/ ١٤ "وقـال **الله** لتكن فى جلد السـماء أنـوار لتفـصل بين النهـار والليل . وتكون لآيات وأوقـات وأيام وسنين".

٥٨٣ – ٥٨٦ كان القدماء يتصورون أن تأثير الـشمس ينفذ من خلال سطح الأرض إلى باطنها (انظر الكتاب الخامس ٣٠١ – ٣٠٣ ، والسادس ٤٧٢ – ٤٨٣) . وقـول درابر فى كتابه **تاريخ الفلك من طاليس إلى كبلر** لندن – ١٩٥٣ – إن النظرية التى أتى بـها (كـبلر) ومؤداها أن الكواكب تدور فى أفـلاكهـا مدفـوعة بالقوة المغناطـيسية للشـمس تمثل "أول محـاولة جادة لتفسـير قوانين حـركة المجمـوعة الشمسية" ص ٣٩٧ .

٥٩١ – يقـول برودبنت (الصفـحات ١٦٥ – ١٦٨) إن وصف الشـمس التالى يحـقق "التقابل بين الجحيم والفردوس الذى توحى بـه السماء فـحسب" . ويعتـرض برودبنت على مبالـغة ميلتـون فى تصوير الشمس فى هذه القصيدة التى تقول إن منبع النور السماوى الوحيد هو الله . ولكن (فاولر) يرد على ذلك قائلاً إن تمجـيد الشمس الذى أتت به الأفلاطونيـة الجديدة قد أصبح جـزءًا لا يتجزأ من تراث التصـوّف المسيحى الذى يدور حـول النور وقداسته وأن مـيلتون ينتمى فكريا إلى تراث الأفـلاطونية المسيحية ومن ثم فمن الطبيعى أن ينسب البهاء والروعـة الأخاذة إلى الشمس باعتبارها مصدرًا مهيبًا للنور .

٥٩٤ – ٦٠٥ فى الكتاب المقـدس نرى أن الجواهر الاثنتى عشرة التى تحلى بها (هارون) تمـثل قبائل بنى إسرائيل الإثنتى عشرة . ولكن ميلتون يلمح أيضًا إلى عملية تحويل المعادن إلى ذهب وإلى درجات المعادن الاثنتى عشرة .

٥٩٦ – ٥٩٧ فى **سفر الخروج** ١٨/ ١٥ – ٢٠ ورد الوصف الكامل لدرع هارون المربع وبه أربعـة صفوف من الحجارة النفيسة – الأول "صف عقيق أحمر (ياقوت) وياقوت أصفر وزمرد" أما الزبرجد فيحل

محل المـاس فى الصف الرابع – فى النسخـة الشائعة من الكتـاب المقـدس . وقد لاحظت بعض الاختـلاف فى أسماء الأحـجار الكريمة فى التـرجمة التى أعـتمد عليـها للكتاب المـقدس (انظر – التصدير) فاعتمـدت على تفسير (فيريتى) بصفة أساسية فى ضبـط أنواع الأحجار الكريمة التى يعنيها ميلتون لأنه يستخدم أسماء قديمة تشيـر إلى أعداد منوعة من الأحجار أصبحت تعرف بأسماء أخرى فى أيامنا هذه. وقد وردت فى الكتاب المـقدس ترجمة درع هارون ''صدرة قضاء'' (النص العربى) ووردت فى النصوص الإنجليزية بصور مختلفة – منها ''درع للفصل فى الأمور'' و ''درع للحكم'' و ''درع لتحـديد إرادة الله'' (فى آخر طبـعة من الترجـمة الإنجليـزية للكتاب المقـدس ١٩٧٦) . أما الأحجار الكريمة المـذكورة فهى جميعا ترتبط بالشـمس فى إطار النظرية السائدة آنذاك عن درجات المعادن وطبقاتهـا . وقد كانت لها دلالات صوفية نابعة من وجود الأحـجار نفسها فى بوابة أورشليم الجديدة (انظر **رؤيا يوحنا** ٢١/١٩ وما بعـدها) . وقد أسهب الشـراح فى الحديث عن هذا – انظر مثلا برودبنت ص ١٦٥ .

٥٩٨ – ٦٠١ الحـجر الآخـر المذكـور فى البـيت ٥٩٨ هو حجـر (الأوريم) المذكـور فى **سفر الخروج** ٢٨/ ٣٠ وقد تخيله الناس كثيراً فى غير هذا المكان لأنهم كانوا يقولون إنه هو نفسه حجر الفلاسفة . أما حجر (التميم) المذكور فى نفس الآية فيـقال إنه من الأحجار القمرية التى يمكن أن تحول المعادن إلى فضة – بينما يستطيع حجر (الأوريم) فى ظنهم تحويلها إلى ذهب لأنه حجر شمسى .

٦٠١ – ٦٠٥ المعنى الأساسى هو أن االكيميائيين قد فشلوا فى العـثور على حجر الفلاسفة رغم نجاحهم فى إخـراج ''الزئبق الفلسفى'' و ''هيرميس'' عـند اليـونـان هـو (مـيركـورى) أو الزئبـق عند الرومـان و (بروتيـوس) معناه فى الأسـاطير ''المادة'' وذلك لقـدرته على اتخاذ أشكال عـدة ولكن الإشارة هنا هى بصـفة خاصـة إلى المادة الأولى للخلق – (انظر البـيت ٤٧٢ وما بعـده من الكتاب الخامس – إذ أن ''الزئبق الفلسفى'' كان يعـتبر فى نظرهم مادة أولى ومن ثم كـان الجوهر أو الروح للزئبق ''الطيار'' العادى وكانوا يصنعونه أولا بتخليص الزئبق من الهواء أى بتقـييده (كما يقول ميلتون) ثم بفك قيوده أى بتحريره من السـيولة . هذه هى المرحلة الأولى ولابد أن تتلوها فى نظرهم مرحلة أخرى يستخدم فيها حجر الفلاسفة لتحويل هذه الصورة الأولى حتى تكتسب الصفات المطلوبة. وثم عدة وجوه للشبه بين هـذه الأمثلة وموقف إبليس – فهو أولا يشبه الكيمـيائيين فى عجزه عن إدراك مسعاه إذ إنه لا يستطيع أن ينال الغفران (الذى يقابل حجر الفلاسفة) ومع ذلك يستطيع أن يكسو نفسه ببهاء خارجى فقط . وهو ثانيا مثل الزئبق الخـادع أو (ميركورى) رب التخفى والتنكر. ومن ثم فأول خطوة لتطهير روح الإنسـان هى (تقييد) إبليس. وثالثًا فإن إبليس يشبـه (بروتيوس) فى أنه استطاع فك قيوده والهرب من بحر اللهب، وهو يتحول فى أتون مشاعره ، كما أنه ''سياسى'' ماكر محنك .

٦٠٦ – المعنى الأول لكلمة ''هنا'' هو فى ''الشمس'' – والمعنى الثانى ''فى الأرض'' حيث يحيل ضوء الشمس ماءها إلى ذهب . والغموض يكسو الأبيات من ٦٠٦ – ٦١٠ .

٦٠٧ – ٦٠٨ الأكسير (وقـد فضلت هذه الكلمة الأجنبية التى شاعت فى العربيـة المصرية) هو أى عنصر وسيط كيميائى أو طبيعى يستطيع تحـويل المعادن الدنيا إلى ذهب . وهذا ينطبق على حجر الفلاسفة

. وكان الكيميائيون يحاولون جادين التوصل إلى "أكسير طول العمر" أو ما أسموه بالذهب السائل . انظر كتاب **الكيميائيون** - تأليف م. كارون وس. هوتين طبعة لندن ١٩٦١ - ص ١٦٨ .

٦٠٨ - ٦١٢ "رأس الكيمياء" صفة مناسبة للشمس لأن تأثيرها ينفذ إلى باطن الثرى ، كما يقول ميلتون ، وتدريجيا وعلى مدى أزمان طويلة يخرج لنا الأحجار الكريمة (انظر الأبيات ٥٨٣ - ٥٨٦ من نفس البيت والأبيات ٤٤٧ - ٤٨١ من الكتاب السادس) .

٦١٠ - "ماء الأرض" هو الندى - وقد ذكر (درايدن) فى حاشية له على إحدى قصائده أن "الأحجار الكريمة تنشأ من الندى الذى يتكثف ويتصلب فى دفء الشمس" .

٦٢٠ - تعبير "نور بصره" فيه غرابة - ويحتمل أن ميلتون يشير هنا إلى النظرية القديمة لعلم الضوء التى تقول إن النور يخرج من العين ليسقط على الأشياء التى نشاهدها - وقد ورد تعبير مشابه فى مسرحية ميلتون **شمشون الجبار** فى البيتين ١٦٢/ ١٦٣ إذ يقول :

**وا أسفا ! إن نور البصيرة**

**لا يلقى بنور البصر على ما حولى .**

٦٢٣ - انظر **رؤيا يوحنا** ١٧/١٩ "رأيت ملاكًا واحدًا واقفًا فى الشمس" .

٦٣٤ - يقول (برودبنت) فى معرض حديثه عما اعتاده إبليس من تغيير صورته (ص ١٠٦) إن "كل تغيير فى الشكل أو الطبيعة . . . يعتبر شرًا بل من مظاهر سقوط الإنسان" - أما الإشارة المباشرة إلى الكتاب المقدس فهى إلى الأبيات ١٣ - ١٥ من **الرسالة الثانية إلى أهل "كورنثوس"** (الأصحاح الحادى عشر) "لأن مثل هؤلاء . هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح . ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير نفسه إلى شبه ملاك نور" .

٦٣٦ - ٦٣٧ يقول (إمبسون) إنه يصعب علينا تقبل فكرة وجود "صبى من ملائكة الشاروبيم" (ص ٥٩ - ٦١) بسبب إحساسنا بأن الملائكة لا تتوالد ويقول إن إبليس قد تخفى فى صورة ملاك ترقى حديثًا إلى رتبة الشاروبيم حتى يتفادى الشك فيه - فهو يريد أن يعلم المزيد عن الخلق الجديد و (أوريل) يجد من الطبيعى أن يتساءل هذا الملاك الذى رقى حديثًا عن كل شىء" . ويقول فاولر إن الدافع عند ميلتون هو شيوع تصوير الشاروبيم فى صورة طفل مجنح . وقد فضل إبليس هذه الصورة لامتياز الشاروبيم فى العلم والمعرفة ومن ثم كان من المقبول أن يتساءلوا ويحاولوا معرفة المزيد .

٦٤٣ - هناك كلمة في النص الإنجليزى تفيد قصر الثوب الذى يرتديه أوتفيد أنه شمر عن ثيابه حتى لا تعوقه فى السير وهى كلمة Succinct ولما كان ميلتون يصور الملائكة عادة دون ثياب فربما كانت العبارة تعنى أنه ارتدى (حلة مناسبة تساعد على السرعة) - ولذلك حذفت الكلمة فى الترجمة . أما الجناحان المذكوران فى البيت ٦٤١ فهما من خصائص مرتبة الشاروبيم .

٦٤٨ - ٦٦١ ورد فى **سفر زكريا** تفسير "للمنارة ذات السرج السبعة" وهو أنها "أعين الرب الجائلة فى الأرض كلها" ٤/ ١٠ (انظر أيضًا **رؤيا يوحنا** ٥/٦) أما الملائكة السبعة الكبار فقد ورد ذكرهم فى

**رؤيا يوحنا** أيضًا (١/ ٤) ''نعمة لكم وسلام من الكائن والذى كـان والذى يأتى ومن السبعة الأرواح التى أمام عرشه'' .

٦٤٨ - (أوريل) معناها نور الله . ورغم أن هذا الاسم لم يرد فى الكتاب الـمقدس إلا أنه ورد فى التراث اليهودى بـاعتباره أحد كـبار الملائكة (إلى جانـب ميكائيل وجبريل وروفـائيل) الذين يحكمون أقطار الأرض الأربعة . ويقول (فـاولر) إنه قد نشأ خلاف حـول السبب الذى حدا بميلتـون إلى تخصيص ''الشمس'' لهـذا الملاك . فـالشـائع أن الملائكة طاقـات ذهنيـة ترشد الـكواكب فى سيـرها دون تخصيص باستثناء ميكائيل لكوكب الزهـرة وجبريل للمريخ وروفائيل للمشترى . أما الشمس فكان لها (أوريل) و (أدونيس) معًا . وقد اعتمد (فاولر) فى هذا عـلى كتاب قديم دون أن يحسم الأمر وربما كان ميلتون يستقى مادته هنا من مصدر مجهول من مصادر التراث الدينى .

٦٥٦ - تعبير ''أول مفسر'' له عدة دلالات - أولها أنه أول من يركب العـربة التى بناها سليمان (انظر **نشيد الإنشاد** ٣/ ٩) وساد اعتبارها نموذجا للعهد الجـديد - أى العربة التى ينقل المسيح المؤمنين فيها إلى السماء. وهكذا فإن (أوريل) أول ملاك كريم يظهر فى القصيدة هنا وأول من يركب عربة المؤمنين - ولكن ثمـة معنى آخـر أبسط وأقرب إلى الذهن وهو أن (أوريل) هو أحـدُ الأرواح بصرًا ، (البـيت ٦٩١) ومن ثم فهـو أعمقها بصـيرة وأقدرها على تفسـير مشيـئة الله . والشمس التى يرعاها تـتمتع بموقع متميز فريد بين الكواكب .

٧٠٥ - ٧٠٧ يقول (دنيس بيردن) فى كتابه **الأسطورة المنطقية** - لندن ١٩٦٧ - إن هذا يعنى أن الله يبقى بعض العلم سرًا عن الجـميع حتى عن الملائكـة - وهذا يعنى أنه يحرم الإنسان كثـيرًا من العلم . (ص ١١٠) - ويؤكد ميلتون فى كتابه ''**عن العقيدة المسيحية**'' (١/ ٩) قصور معرفة الملائكة - قائلاً ''إن الملائكة الأخيار لا يطـلعون على شتى أسرار الله'' كما يزعم البـابويون . . . بل إنهم يجهلون الكثير من علمه . ويقول فى موضع سابق (١/ ٥) ''وحتى المسيح نفسه لا يحيط علما بكل شىء ، إذ إن ثمة أسبابًا خفية يحتفظ بها الله لنفسه'' .

٧٠٨ - ٧١٨ يقول (فاولر) إن ذكريات (أوريل) عن الخلق تقدم إلينا فى الإطار التقليدى للمذهب المسيحى الأفلاطونى الذى يقـول بأن العالم لم يخلق من العـدم ولكن من المادة الأولية - أو الهـيولى - التى كـانت فى حالة عـماء أولا ثـم انتظمت حين فـصلت عناصـرها الأربعـة واتخذت صـور الطبقـات المتـداخلة ويورد (فاولر) عددًا من المـصادر التى اعتمـد عليها مـثل كتابات أفلاطون و (أوفـيد) و (ماكروبيوس) - ثم يضـيف قائلاً إن صورة العالم الأفلاطونى قد امتـزجت بالصورة التى تبرز لنا فى سفر التكوين منذ عهد (فيلو) . وكان (أوريل) من الملائكة الذين شهدوا خلق العالم مثل روفائيل .

٧١٠ - سبق ذكر ''الاختلاط'' باعتباره من رجال قصر ''العماء'' فى الكتاب الثانى البيت ٩٦٦ .

٧٤٢ - (نيفـاطيس) جبـل يقع على حدود أرمنيـا وآشور (انظر الكتـاب الرابع البيت ١٢٦) وهو منبـع نهر (دجلة) . ويذكر ميلـتون فى الكتاب التاسع (البيت ٧١) أن (دجلة) هـو النهر الأول فى الفردوس أى قبل أن يتفرع إلى عدة أنهار .

## حواشى الكتاب الرابع

١ - ١٢ تروى الـرؤيا أو الـ Apocalypse التى رآها القديس يوحـنا موقعة ثانـية فى السمـاء بين ميكائيل والتنين أى إبليس . وهذه هى الـرواية كمـا يذكرها الكتـاب المقـدس فى **رؤيا يوحـنا اللاهوتى** : "وحديث حرب فى السماء . ميخائيل ومـلائكته حاربوا التنين وحارب التنين وملائكته ولم يقووا فلم يوجد مكانهم بعد ذلك فى السماء . فطُرح التنين العظيم وهو الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذى يضل العـالم كله طُرح إلى الأرض وطُرحت معـه ملائكتـه . وسَمِعْتُ صوتًا عظيمًا قـائلاً فى السماء الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وسلطان مسيحه لأنه قد طرح المشتكى على إخواننا الذى كان يشتكى عليهم أمام إلهنا نهارًا وليـلاً . . ويل لساكنى الأرض والبحر لأن إبليس نزل إليكم وبه غضب عظيـم عالما أن لـه زمانًا قليلاً" (١٢/٧ - ١٢) والواضـح أن ملتـون يتـمنى أن ينـذر آدم وحـواء بأن الشيطان عـلـى وشـك أن يغويهمـا . والواقـع أن هـذا تمهـيد للتحـذير الذى يقدمه لهـما (روفائيل) و (أوريل) فى هذا الكتاب - ولو أن إمبسون يرى (ص ٦١) أن ميلتون كان يشعر أن تحذير روفائيل لا يكفى .

١٧ - آلة الحرب هى المدافع التى اخترعها إبليس (الكتاب السادس ٤٦٩ - ٥٠٠) .

١٨ - يفسر إمبسون "الفزع والشكوك" التى تنتاب إبليس بأنهـا نتيجة لمـا عَلِمَه من (أوريل) عن قدرة الله على الخلق (ص ٦١ - ٦٣) ولكن تفسير ميلتـون للحالة النفسية لإبليس تفسير معقـول - ففى البيتين ١٥ و١٦ يصور لنا رهبة إبليس من اقتراب موعد تنفيذ خطته الرهيبة .

٢٤ - يعترض أحـد الشراح على استخـدام كلمة الذكرى فى هذا البيت لأن البـيت التالى يذكر المسـتقبل أيضًا - وكيف يمكن لإبليس أن يذكر المستقبل ولا مستـقبل له - واسمه يعنى ذلك اشتقاقًا فالمبلس هو من فقد الأمل ! ولكن مـيلتون لا يقول إن إبليس "يتذكر" المستقبل ، والأقرب أن نتصور قوله إنه يذكره بمعنى أنه يجول بخاطره - أى أن الذكر هنا أقرب إلى معنى ميلتون ومرماه .

٢٧ - ٢٨ المعنى الإشتقاقى لعدن هو السرور والمتعة - وكان هذا المعنى شائعًا فى القرن السابع عشر .

٣٠ - "برج الظهيرة" صورة مقتبسة من فيرجيل . أما اقتران وقت الظهيرة أو توسط الشمس للسماء بوقت الفصل فى الأمور أو إصدار الأحكام فهو قديم وشائع فى التقاليد الكلاسيكية والدينية .

٣٢ - ٤١ يقول (إدوارد فيليبس) إنه قـد قرأ هذه القطعة قبل شروع ميلتون فى كتابـة القصيدة بعدة سنوات وقد عرضها عليـه ميلتون حين كان ينتوى أن يكتب مأساة لا ملحمة عن سـقوط الإنسان . (مذكور فى كتاب هيلين داربيـشر - ص ٧٢ وما بعدها - الاسم فى ثبت المراجع) ويقـول إن الأبيات كانت معـدة لبداية المأسـاة . وقد ألمح بعض الشـراح إلى وجه شبـه بينها وبين مسـرحية (أيسـخولوس) **بروميثيوس مغلولا** ولكن هذا الشبـه لا يتعدى توجـيه الخطاب إلى الشمس . وخطاب إبليس برمـته (الأبيات من ٣٢ - ١١٣) درامى إلى أبعد الحدود إذ إنه يمثل حوارًا باطنًا بين جانبى الشر والخير فى نفس إبليس يشبـه الحوار بين ملاكى الـخير والشر فى مـسرحيـة (مارلو) **الدكتور فـاوستوس** وكان ميلتـون يرى أن تصوير اليأس هذا التـصوير الدرامى لا يتأتى إلا من إبلـيس . وقد علق (برودبنت)

على هذا تعليقا طريفـا يقول فيه : ''إن الشخصيـات فى الفردوس المفقود لا تحدث نفـسهاً إلا بعد سقوطها'' (ص ٨٠).

٣٧ - انظر **إنجيل يوحنا** ٣/ ٢٠ ''وكل من يعمل السيئات يبغض النور'' .

٣٨ - ٣٩ انظر **رؤيا يوحنا** ٢/ ٥ ''فاذكر من أين سقطت وتب'' .

٤٢ - ٤٣ يكاد التغير فى مـوقف إبليس تجاه البارىء أن يكون تغيرا كاملا بحـيث قال بعض النقاد إنه يمثل تغيرا فى مـقصد الشاعر نفسـه ، وقال البعض الآخر إنه قد أضاف إلى الملحـمة بعض الأبيات التى كان قد أعدها للمـأساة . ويهاجم (إمبسون) (ص ٦٤ وما بعدهـا) الرأى القائل إن إبليس يعترف فى أول حديث منفرد له بأن خطبتـه السابقة التى ألقاها على أقرانه وأتباعـه كانت حافلة بالأكاذيب ، وهو يفند ذلك تفنيـدًا مقنعًا - رغم أنه لا يرضى (فاولر) ! فـفاولر يقـول إن ذلك لا يرضى إلا من كانت قيمه علـى درجة عالية من التعقـيد مثل قيم إبليس نفسه ! وآية ذلك أن أوائل من قـرأوا الملحمة لم يدهشوا على الإطلاق للتغيـر فى موقف إبليس بل كانوا يتوقعون أن يبدى وهو أول الخـاطئين وأكبر العاصين قدرًا مـن الندم بعد أن أتيح له الوقت الكافى لتأمل حاله والنظر فى مآله وحده ودون الأقران والأعوان - وحـين لم يؤد الندم إلى التوبة بل إلى التمـادى فى الإثم والإصرار على العصـيان أدرك أولئك القراء أنه قد هوى إلى درك أسفل جديد ومرحلة أخطر من مراحل الإدانة واللعن !

٤٣ - ''بعد أن خلقنى'' عبارة بالغـة الأهمية - لأن إبليس كان يتـظاهر أثناء فورة العصيـان فى السماء أن الملائكة ''أنجبوا أنفسهم وأنشأوا ذواتهم بقوة الحياة الكامنة فيهم'' (الكتاب الخامس/ ٨٦٠ - ٨٦١)

٤٥ - الإشارة إلى رسالة يعقوب ١/ ٥ ''إن كان أحدكم تعوزه حكمـة فليطلب من الله الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يعير فسيعطى له'' .

٥٥ - ٥٧ المعنى واضح وهو أن إظهار الامتنان للدين المعنوى يسقطه عـن المدين . والعبارة لها مثيل فى خطبة ذائعـة ألقاها (شيشـرون) دفاعا عن صديقـه (بلانكيوس) إذ يقول فـيها (٢٣/ ٦٨) ''فيما يتعلق بالدين المعنوى أقول إن الرجل إذا سدده أى إذا اعترف به كـان له أن يحتفظ به ، وإذا احتفظ به كان قد سدده باحتفاظه به'' - ومثلما يستـخدم شيشرون التورية فى اسـتخدام فعل habere فى معنيين يستخدم ميلتون التورية فى استخدام فعل Owe أيضًا فى معنيين أولهما الإقرار بملكية الشىء وثانيهما الالتزام بالتسديد . واستخدام الفعل بالمعنى الأول شائع فى شكسبير .

٦٦ - ٧٠ أوضح الله أن إرادته السابقة لا تلغى حرية الإرادة لدى الملائكة وأن حبه لمخلوقاته يتطلب منهم أن يستجـيبوا له بمحض اخـتيارهم (انظر الكتاب الأبيات ٥٣٥ - ٥٤٠) - ويعـلق أحد الشراح على ذلك قائلاً إن هـذا الحب هـو فى آخر المطاف - المسئـول عن سقوط الملائكة لأنه أتاح لهم حرية الإرادة .

٨٢ - ''الإباء'' هنا كلمة تدين إبليس بدلاً من أن ترفع من قدره - فهى تذكرنا بالكلمة الإيطالية التى قيست عليها واشتقت منها وتعنى الاحتقار لما هو وضيع ولا يناسب احترام الملاك لنفسه .

١١٠ - انظر **إشعياء** ٥/ ٢٠ ''ويل للقائلين للشر خيرًا وللخير شرًا'' .

١١٢ ''أكثر من نصفه'' لأنه سيحكم فى ظنه الأرض أيضًا فإذا أضيـفت إلى الجحيم زاد حجم سلطانه عن حكم السماء !

١١٥ – كان اللون التقليـدى لوجوه الشاروبيم هو الأحمر . لاحظ أن مـيلتون يذكر فى ''الموضوع'' ثلاثة مشاعر هى ''الخوف والحسد واليأس'' .

١١٨ – ''الأخلاط'' إشارة إلى أخلاط البدن الأربعة أو إلى اختلاط مقومات النفس .

١٢٦ – الجبل الآشورى هو جبل (نيفاطيس) انظر الحاشية على البيت ٧٤٢ من الكتاب الثالث .

١٣٢ – ١٥٩ لا يوجد مصدر واحد اعتمد عليه ميلتون فى وصف الفردوس إذ إنه يستقى مادته من التراث الأروبى كله – تراث الفراديس والجنان والمنتزهات وجزر السعادة وأرض البركات إلخ .

١٣٢ – الفردوس هى الجنة القائمة داخل أرض عدن (انظر الأبيات ٢٠٩ – ٢١٠ والكتاب الأول ٤ – ٥).

١٣٤ – ''عارية'' أى غير مسورة أو خالية من الأشجار .

١٣٥ – يقـول (ك. س. لويس) فى كتـابه **مقدمة للفـردوس المفقود** – لندن ١٩٤٢ إن الفكرة الفـرويدية القائلة بإن الجنة السعيـدة صورة للجسم البشرى لم تكن لتخيف مـيلتون لو علم بها ! (ص ٤٧) وقد دأب من تحدثوا عن الجنة على تصويرها فوق جبل أو تل ، وكثـيرًا ما توحى بصور الجسم البشرى مثلما يفعل (سبنسر) فى **ملكة الجان** حين يصف جنة أدونيس قائلاً :

**فى وسط تلك الفردوس**

**ينتصب جبل مهيب ، يحيط بقمته المستديرة**

**دغل أدكن من أشجار الآس والريحان**

**لم تقلم أفنانه الظليلة نصال المقص الحديدية**

**ولا التهمت براعمه الرقيقة أفواه الوحوش الخبيثة**

**ولكنه يحيط مثل السوار بالقمة**

**ويلقى من جانبيها المثمرين رحيقًا حلوًا**

**يزين الأرض كلها بقطراته الثمينة**

**ويشيع أعبق أريج وأحلى بهجة**

**(الكتاب الثالث – التشيد السادس الفقرة ٤٣)**

أما دانتـى فهو يضع الـفردوس فى **المطهر** فوق قـمة جبل التطهـير (٢٨/٩١ – ١٠٢) ليضـمن أنها ستسلـم من آثار التغيرات الجـوية كما أن (أريوسطو) يجعل قـمة التل الذى تقع عليه الفـردوس عاليا

''حتى أنه ليكاد يلمس هالة القمر'' (**غضبة أورلاندو** ٣٤/٤٨) وترجع هذه الفكرة إلى **سفر حزقيال** (٢٨/١٣ - ١٤)'' كنت فى عدن جنة الله . . . على جبل الله المقدس'' .

١٤٨ - كانت الفراديس الأرضية دائمًا تتسم بتزامن شتى مراحل النمو وأطواره انظر (أريوسطو) (غضبة أورلاندو ٣٤/٤٩) و (تاسو) (**تحرير بيت المقدس** ١٦/ ١٠ وما بعده) يقول الأول :

**قبل أن تسقط الفاكهة الناضجة تظهر البراعم**

**فهذه تسقط وهذه تظهر ، وهذه تنضج وهذه تتفتح !**

ويقول الآخر :

**كانت الأوراق تختبىء على نفس الأغصان**

**وإلى جوار الثمار الغضة ثمار ناضجة وتين شهى !**

وكذلك قال (سبنسر) فى **ملكة الجان** (الكتاب الثالث / النشيد الرابع/ الفقرة ٤٢) . وعادة ما ترك الشراح هذه الظاهرة دون تفسير - ظاهرة الازدهار الدائم فى الجنة ، ولكن ميلتون يحاول أن يشرح فكرة الخلود باعتبارها صورة من صور الدوام فى الطبيعة مستندًا إلى ما جاء فى **سفر التكوين** (١/ ١٢) عن أمر الله للأرض بإخراج براعيم العشب والثمر الناضج معًا .

١٦١ - كان الطريق البحرى للسفن التجارية يمر بين موزمبيق ومدغشقر صاعدًا إلى اليمن ثم البحر الأحمر .

١٦٢ - أرض سبأ هى أرض اليمن .

١٦٣ - بلاد العرب المباركة هى الصيغة التى اختارها ميلتون للتعبير القديم أى بلاد العرب السعيدة Arabia Felix وهو الاسم القديم لليمن .

١٦٦ - ١٧١ ابن (طوبيت) هو (طوبيا) الذى كان قد أُرسل إلى أرض (ميديا) لإنجاز أمر هام ثم تزوج من (سارة) ابنة (راغويل) . وكانت سارة قد وهبت من قبل لسبعة أزواج ولكنهم قتلوا جميعًا قبل أن يتم الزواج وذلك على أيدى (أزموديوس) الجنىّ الغيور . ثم قدم روفائيل نصيحة إلى (طوبيا) استطاع بها أن ينجح حيث فشل الآخرون إذ إنه قام بحرق قلب سمكة وكبدها ليثير دخانًا كثيفًا - ''وحينما شم الجنى الشرير تلك الرائحة هرب إلى أقاصى مصر حيث غلله الملاك فى الأصفاد'' **طوبيت** (٨/ ٣) - ويقول (ك. س. لويس) (ص ٤٢) إن ميلتون يقدم هذا التشبيه ''ليجعلنا نشعر ببذاءة وجود إبليس فى جنة عدن إذ نحس معه بالرائحة الكريهة للسمك فجأة وسط الأريج والعبير الذى تفوح به الزهور''

١٦٨ - يقص علينا ميلتون فى الكتاب السادس البيت ٣٦٥ الدور الذى اضطلع به (ازموديوس) فى الحرب التى وقعت فى السماء . ويقول فاولر إنه طبقًا للتقاليد الاسكولائية التى نقلها إلينا (كورنليوس أجريبا) و (هيوود) و (بيرتون) وغيرهم كان للشياطين ثمانى طبقات وكان (أزموديوس) على رأس الطبقة الرابعة .

١٨٣ - انظر **إنجيل يوحنا** ١/ ١٠ "إن الذى لا يدخل من البـاب إلى حظيرة الخراف بل يطـلع من موضع آخر فذاك سارق ولص" .

١٨٨ - ١٩١ انظـر **سفر يوئيل** ٢/ ٣ - ٩ "الأرض قدامـهم كجنة عـدن . . سوف يجرون عـلى السور يصعدون إلى البيوت يدخلون من الكوى كاللص" .

١٩٢ - ١٩٣ يعود ميلتـون هنا إلى التشبيـه الذى سبق فى الأبيات ١٨٣ - ١٨٧ ولكنه يجعل المـشبه به هنا مشبها حين يعقد مقارنه بين رجال الكنيسة والشيطان .

١٩٦ - تعتبـر صورة غراب الماء استمـرارًا للهجوم الذى بدأه ميلتون فى البـيت ١٩٣ ، وأى إنسان جشع متكالب على المـادة يمكن وصفه بغراب المـاء ولكن هذا الاصطلاح كان يطلق بصفة خـاصة على "الأجراء" من رجال الكنيـسة - ولما كانت الثـمرة الخالدة لشـجرة الحياة هى الجـزاء الذى وعد به المؤمنون المخلصون فى أورشليم الجديدة (انظر **رؤيا يوحنا** ٢/ ٧ ، ٢٢/ ١٤) **فقد جعل ميلتون هذا الغرب يجثم عليها لأن الأجراء يطمعون فى الخلود** .

١٩٧ - يرصد روبرت الرودت Robert Ellrodt فى كتابه **الأفلاطونية الجديدة فى شعر سبنسر** ، جنيف ، ١٩٦٠ - التقاليد الأدبية التى تستند إلى ما جاء فى **سفر التكوين** (٢/ ٥ و ٩) من أن الخلق كان مرة واحدة وأن الفردوس كانت تشتمل على إمكانيات الحياة فى المـستقبل جميعها - ص ٧٥ - ٨١ منذ كتابات القديس (أوغسطينوس) حتى (سبنسر) . وانظر وصف (سبنسر) فى **ملكة الجان** لجنة أدونيس فى الكتاب الثالث ، النشيد السادس ، الفقرة ٣٠ .

٢٠٩ - ٢١٦ انظر **سفر التكوين** (٢/ ٨) "وغـرس الرب الإله جنة فى عدن شـرقًا ووضع هناك آدم الذى جبله" وقد شب جدل عنيف حول موقع الفردوس . ويكاد يجمع من اعتقدوا بوجود فردوس أرضية على أنها كانت تقع جنوب إيران الحالية إما فى منطقـة الخالدية أى فى جنوب العراق عند إلتقاء نهرى دجلة والفرات أو فى شمال العراق عند منابع هذين النهرين بالقرب من جبل (نيفاطيس) . وقد نجح ميلتـون فى التوفيق بين هذين الرأيين . بل إنه نجح فى التـوفيق بينهما وبين رأى آخـر وهو أن عدن كانت تقع "تحت خط الاستواء" وذلك لأنه يعتبـر أن مدار الشمس فى السماء كـان ينطبق تمامًا مع خط الاستـواء على الأرض قبل سقوط آدم (انظـر الكتاب العاشر الأبيـات من ٦٥١ - ٧٠٦) . أما (حوران) فهى الحـد الشرقى لأرض إسرائيل فى **سفر حزقيال** (٤٧/ ١٦ - ١٨) وهى - وقد كـتبت (حران) - ترتبط بعـدن فى نفس السفر (٢٧/ ٢٣) ولكنها وقـد كتبت (حاران) ترد فى سـفر التكوين باعتبـارها المدينة التى "مات فيها تارح" أحد أحـفاد سام بن نوح (١١/ ٣٢) وأمـر إبراهيم بتركـها (١٢/ ٤) . أما (سلوشيا) العظيمة فقد بناها أحد قواد الإسكندر الأكبر وهو (سلوكوس نيكاتور) لتكون مقـر الحكومة لإمبـراطوريته فى سـوريا . ويورد (فاولر) رأى (هايلين) الذى يقـول إنها أحيـانا كانت تختلط فى الأذهان ببـابل (٣/ ١٢٩) وتقع على نهر دجلة جنوب شـرقى حوران وذكر ميلتـون مدينة (تِلَسَّار) يمثل مفارقة درامية لأنه ينذر بوقوع الحرب فى عدن والإشارة هى إلى **ملوك ثانى** (١٩/ ١١) أو إلى **إشعياء** (٣٧/ ١١) حيـث يرد ذكر (تِلَسَّار) باعـتبـارها إحدى المـدن التى أُبيدت عن آخـرها "هؤلاء الذين أهلكهم آبائى (جوزان) و (حاران) و (رصف) وبنى عدن الذين فى تِلَسَّار" .

٢١٧ - ٢٢١ انظر **سفر التكوين** (٢/ ٩) "وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر" . أما الثمار الذهبية فتعيد إلى الذهن فاكهة (هسبيريا) التى كان (هرقل) يقطفها رغم أنف التنين الذى يحرسها .

( أوفيد - **مسخ الكائنات** ٤/ ٦٣٧ وما بعده) .

٢٢٣ - ٢٣٢ يرجع خصب الفردوس (انظر الأبيات ٢١٥ - ٢١٧) لا إلى المطر ولكن كما يقول سفر التكوين (٢/ ٥ و ٦) إلى "ضباب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض" . وقد اعتمد كل من كتب فى الموضوع على هذه الفقرة .

٢٣٣- ٢٣٥ انظر **سفر التكوين** (٢/ ١٠) "وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس" . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية **تكوين** ٢/ ٥ (فى الحاشية السابقة) تعنى أن الأرض كلها كانت تروى بمياه الفردوس .

٢٥٠ - أساطير (هسبيريا) - انظر الحاشية على الأبيات ٢١٧ - ٢١ من هذا الكتاب والحاشية على الأبيات ٥٦٨٠ - ٥٦٩٠ من الكتاب الثالث .

٢٥١ - "رائعة المذاق" هنا فحسب ، أما تفاح (هسبيريا) فلم يكن يؤكل .

٢٥٦ - استنادًا إلى ما جاء فى **سفر التكوين** (٣/ ١٨) " وشوكًا وحَسَكًا تنبت لك" وهى اللعنة التى صُبّت على آدم بعد السقوط وذهب كثير من مفسرى التوراة إلى أن شجرة الورد كانت دون أشواك قبل عصيان آدم . ومن ثَم فإن الورد الذى لا شوك له Sine Spinis Rosa كان يرمز إلى البراءة التى كان يتمتع بها الإنسان قبل السقوط .

٢٦٢ - ترمز حواء خفية إلى (فينوس) - ويتضح هذا من صورتين أولهما شجرة الآس والريحان وثانيهما صورة المرآة (فى البيت التالى) - ليس فحسب لأنها ربة الحدائق بل أيضًا لأنها ذات قوة تشكيلية أى أنها أيضًا تتحكم فى دورة التوالد التى تفصح عنها رموز الفصول المتعاقبة وطالما صور الشعراء الفراديس باعتبارها حدائق فينوس - انظر مثلا (سبنسر) فى **ملكة الجان** (الكتاب الثالث/ النشيد السادس وكذلك الكتاب الرابع/ النشيد العاشر) . وتدخل ضمن هذه الصور المتشابكة صور عرائش الكروم (٢٥٨) - انظر أوفيد - **فن الهوى** ١/ ٢٤٤ (ترجمة الدكتور ثروت عكاشة) .

٢٦٣ - ٢٦٦ التوافُق بين أهازيج الطيور وخشخشة الأوراق وخرير المياه (٢٦٠) من خصائص حدائق (فينوس) . أما كلمة "نسائم" فلها دلالة ثانوية ترتبط بالأهازيج والإيقاع (٢٦٥) - أى الدلالة على الألحان وقد لاحظ هذه الدلالة (إمبسون) فى كتابه **بعض صور الشعر الرعوى** لندن - ١٩٥٠ (ص ١٥٧) - أما الجدل الذى لا مبرر له حول هذه الفقرة فقد حسمه (كريستوفر ركس) فى كتابه **أسلوب ميلتون الرفيع** (١٩٦٣) ص ١٠٤ - ١٠٦ .

٢٦٦ - ٢٦٨ أسهب الشراح فى التعليق على الدور الذى تقوم به "الحسان الثلاث" فى القصائد الكلاسيكية التى تتناول الربيع . أما هذه الحوريات فهى "تجسيد للحسن والجمال" (انظر **موجز**

**الأساطير الإغريقية** - تأليف هـ. ج. روز - لنـدن - ١٩٧٨ - ص ١٢٤) وهى ربات النمـاء لأنهـا تعلن عودة الربـيع وازدهار المراعى . وقد حـدد (هيزيود) عددهن بثـلاثة ، ويقول (أوفـيد) إنهن يشتركن مـع ربات الفصول فى جمع الزهور فى الربيع . أمـا (بان) فهو رمز للطبـيعة بصفـة عامة . واسمه يعنى "الجميع" - أو الصورة الكلية . و "الساعات" Hours فى النص الانجليزى تعنى ربات الفصول . وأما الرقصة فتعود أهميتها إلى أن الأفلاطونيين الجدد كانوا يعتبرون أن النمط الثلاثى لهذه الرقصة - سواء من ناحية الإيقاع أو من ناحية التـشكيل - تعبير عن الحركة التى هى أساس كل نماء طبيعى .

٢٦٨ - ٢٧٢ (ديس) هو (بلوطو) ملك الجـحـيم الذى اغتـصب (بروزيربينا) - وهو الاسم الرومـانى للربة (بيرسـيفونى) - (انظر القصـة كاملة فى **موجـز الأساطير اليـونانية** تأليف (روز) الصفـحات ٩٣ وما بعدها) - أما (ديس) فكان اسمه أيضًا (هاديس) أى الجحـيم أو (هاديس - بلوطو) وكان يمثل شيئين متناقـضين معًا إذ كـان إلها لخصب الأرض وإلهـا للموت فى الوقت نفـسه وكانت هى كـذلك إلهة للموتى وإلهـة للخصب وذلك لأن اختطافـها أدى إلى قحط الأرض وبورها وربمـا كان ذلك نتيـجة لحزن أمها (كيريس) أو (كورى) عليها - وحـتى بعد العثور عليها لم يكن النماء يعود إلى الأرض إلاّ نصف العام لأنها أخطأت أثناء وجودها فى العالـم السفلى بأن أكلت سبع حبات من حب الرمان - وهذا كما يقول أحد الشـراح فى تعليقه على رواية (أوفيد) فى **مسخ الكائنات** (١٩٥) مُسكر مُهلك جعل لها مكانًا دائمًا فى الجحـيم مثلما أخرجت التفاحةُ حـواءَ من الفردوس - وهذا سِرّ العلاقة بين الإثنتين .

٢٦٨ - يذهب كثير من القدماء إلى أن العالم قد خلق فى شـهر مارس . وقد اعتمد الشراح الأوائل على التفسير الحرفى للكتاب المقدس فى إثبات أن "المسيح قد رفع فى نفس اليوم الذى خلق فيه آدم" - واعتمادًا على ما جاء فى **سفر الخروج** من أن نيسان Nisan (مارس/ إبريل) هو أول شـهور العام "وكلمة الرب موسى وهارون فى أرض مصر قـائلاً . هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور. هو لكم أول شهور السنة" (١٢/ ١ - ٢) .

٢٧٢ - ٢٧٤ كان بجـوار نهر (أورنتـيس) بالقرب من أنطـاكية دغل جـميل يسـمى دغل (دافنى) أى دغل أشجار الغار Laurel لأن الفتاة المسـماة بهذا الاسم والتى كان يعشقـها ويطاردها (أبُولُّو) قد تحولت إلى شجرة غار حتى تنجو منه (انظر **موجز الأساطير اليونانية** ١٤١) - وكان بجوارها غدير أطلق عليه نبع (كاسـتاليا) تشـبيها له بنبع (كـاستاليـا) الموجود فى جـبل (البارناس) . أما لمـاذا يسميه مـيلتون "الملهم" فلأن إحدى نبوءات (أبولّو) كانت تعيش بالقرب منه .

٢٧٥- ٢٧٩ جزيرة (نايسا) إحدى جـزر البحر المتوسط بالقرب من تونس العـاصمة . وتقول الأسطورة إن (أمون) ملك ليبيـا كان على علاقة غرامية مع الفتـاة (أماليثا) كان من نتيجتـها أن أنجبت منه طفلا هو (ديونيس) أو (باخوس) . ولما كان يريد أن يحمـى الأم وابنها من غضب زوجته (ريا) ابنة (أورانوس) فقد أخفاها فى جـزيرة (نايسا) . وكان القدماء يقولون إن (آمون) هو (جوبيتـر) الليبى الذى كان يتخذ صورة كبش (تحولت فيما بعد إلى برج الحمل) ويقولون إنه أيضًا حام بن نوح عليه السلام .

٢٨٠ - ٢٨٥ يورد فاولر وصف هايلين Heylyn لجبل (أمارا) قائلاً إن إرتفاعه مسيرة يوم كامل وإن صخوره ملساء وإن قمته يحيط بها سور عال حيث الحدائق والقصور . ويمتد إقليم (أمارا) غربا نحو النيل ويزخر بالمتع والملذات حتى تصور البعض خطأ أنه مكان الفردوس . - ويتفق (هايلين) - حسبما يروى فاولر - مع معظم جغرافى ذلك العصر فى القول بأن (أمارا) يقع على خط الاستواء أو قريبًا منه . وميلتون يؤكد أن جبل (أمارا) يقع جنوب (مدار اثيوبيا) أى خط الاستواء وبهذا يؤكد صراحة إن الفردوس استوائية تتمتع بالربيع الدائم المذكور فى البيت ٢٦٨ .

٢٨٩ - أضفت كلمة (الوثنية) إلى الترجمة اعتمادًا على ما قالته (ايزابيل ماكافرى) فى كتابها المذكور آنفًا من أن ميلتون كان يريد الإيحاء بالكمال فى مظهر آدم وحواء باستدعاء صور الآلهة الوثنية فى مخيلة القارىء (ص ٩٨) .

٢٩١ - ٢٩٣ انظر **سفر التكوين** ١/ ٢٧ "فخلق الله الإنسان على صورته" .

٢٩٥ - "المصدر" كما يوحى النص هو الخصال العلوية التى وهبها الله للبشر - ولكن فاولر يقول إنه الصورة القدسية فى آدم وحواء .

٢٩٩ - الفكرة تستند إلى ما جاء فى **رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس** ١١/ ٣ - "رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله" .

٣٠١ - ٣٠٨ طول الشعر الخاص بكل من الجنسين يستند إلى التفاوت فى مرتبتهما انظر ما يقوله **بولس الرسول فى كورنثوس ١** "إن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده وأما المرأة فهى مجد الرجل . . وأما المرأة إن كانت ترخى شعرها فهو مجد لها لأن الشعر قد أعطى لها عوض برقع" (٧ و ١٥) .

٣٠١ - "خصلاته السوداء" - فى الأصل خصلاته التى بلون زهر الجاسنت أو الياسنت وقد اعتمدت فى تحديد اللون على ما قاله أحد شراح (هوميروس) فى تعقيبه على فقرة مماثلة فى ملحمة **الأوديسا** حين وصف شعر (أوديسيوس) بأنه فى لون تلك الزهرة . ولكن (فاولر) يقول إنه يمكن أن يكون أزرقَ أو بُنّياً شديد الدكنة أو أى لون آخر . لاحظ أن آدم ليس له لحية . وربما كان هذا من تأثير تصويره فى اللوحات والتماثيل المعروفة فى عصر النهضة على صورة مماثلة لصورة (أبولّو) .

٣٢٨ - يقول (دنيس بيردن) فى **الملحمة المنطقية** - لندن - ١٩٦٧ إن ميلتون أتى بجديد بل أضاف إضافةً لها وزنها إلى تراث الشعر الرعوى هنا حين جعل آدم وحواء يعملان بزراعة الحدائق بدلاً من الرعى . (ص٤١ وما بعدها) ويعلق (برودبنت) على ذلك قائلاً إن رعاية الحدائق لها دلالات أخلاقية وسياسية - (ص ١٧٧) أى أنها رمز للنظام والثبات . (انظر مسرحية شيكسبير **ريتشارد الثانى** الفصل الثالث/ المشهد الرابع) .

٣٢٩ "النسائم" هى ترجمة Zephyr أو رياح الغرب التى تغنى بها الشعراء المحدثون أما القدماء - فكانوا يعتبرون "زفير" هذا شخصًا أسطوريًا يبدأ عملية التجديد لشباب الطبيعة (فى أساطير الأفلاطونية

الجديدة مثـلاً) ومنذ أن ذكره أوفيد فى وصفـه للعصر الذهبى (**مسخ الكائنات** ١/١٠٧ وما بعده) والشعراء يقرنونه بالربيع الدائم .

٣٤٠ - ٣٥٢ كانت الصـورة الرعوية المثاليـة لآدم وحواء وقد أحاطت بهـما الحيوانات صورة مـألوفة فى العديد من اللوحات الزيتية .

٣٤٩ - ٣٥٠ فى الأصل ''وكان يقدم إثباتا على قدرته على التخابث القاتل فلم يلتفتا إليه'' - ولكن الشراح فى خلاف حول معنى ''إثبات'' ولذلك فضلت الترجمة الحاليـة . ويقول بيردن (ص ٣٥) إن الثعبان يستعـرض خبثه المـاكر بصراحة حـتى لا يقول الإنسان إنه لم يكن يعرف أنه خـبيث . ولكن النص يوحى بالمفارقة الصـارخة فى موقف آدم وحواء - فهما لا يلتفـتان إلى المخلوق الذى سيكون له فى حياتهما شأن عظيم .

٣٥٤ - جزائر المحيط هى جزر (الأزور) حيث غربت الشمس فى البيت ٥٩٢ .

٣٦١ - ٣٦٢ انظر **الرسالة إلى العبرانيين** ٢/٧ ''وضعته قليلاً عن الملائكة بمجد وكرامة كللته'' .

٣٧٠ - ٣٧٤ إشفـاق إبليس على الإنسان إشفاق زائف - فـالإنسان ''قادر على الصمود'' كما يثبت ذلك خوف إبليس من الاقتراب منه (الكتاب التاسع - البيت ٤٨٣ وما بعده) .

٣٧٧ - معنى ''أقيم معكما'' أن أنفذ إلى باطنكـما بالغواية والخطيـئة ، و''تقيما معى'' معناها أن نتـقاسم السعير أى عذاب الجحيم .

٣٨١ - ٣٨٥ انظر نبوءة إشعياء حول سقوط بابل ''الهاوية من أسفل مهتزة لك لاستقبال قدومك منهضة لك الأخيلة جمـيع عظماء الأرض .أقامت كل ملوك الأمم عن كـراسيهم'' (**إشعياء** ١٤/٩) . ويصـر (إمـبسـون) على أن أبليس مخلص فى تقـديم مكانة كـبرى لآدم وحـواء فى الجحـيم - ولكن هذه المكانة الكبرى تتضـمن مفارقة واضحـة وهى أنها مكانة عذاب وآلام مبرحـة ولذلك فإن الشيطان لا يناقض نفسه حين يعترف أنه بهذا يود الثأر من الله بإسقاط البشر الذين خلقوا ''على صورته'' .

٣٨٩ - يقوم إبليس هنا بدور سياسى ''ماكيافيلى'' معاصر إذ ينشد الذرائع والأعذار إسـتنادا إلى ما يسميه ''الصالح العام'' - انظر الحوار الـطويل بين شمشـون ودليلة فى **شمشون الجبار** - حيث تبـرز دليلة خيانتها له فى آخر الحوار بأنها كانت تنشد الصالح العام :

**ماذا كان بيدى**
**إزاء تلك الحجج الدامغة ؟**
**لم يكن لدى إلا حبك الذى اشتبك معها**
**فى حوار طويل بل والتحم مع هذه الأسباب جميعاً**
**فى نزال طاحن . وأخيرا ساد المبدأ الثابت**
**الذى كثيرا ما تردد واحتفلت به أفواه**

**أحكم الرجال – وهو أن الصالح العام**
**تخضع له الشئون الخاصة . لقد تسلط علىَّ**
**بسلطانه القوى وتمكن منى كل التمكن**
**ورأيت أننى مدفوعة إليه بالفضيلة والحق والواجب . (٨٦١ – ٨٧٠)**

٤٠١ – ٤٠٢ انظر **رسالة بطرس الرسول الأولى** (٨/٥٥) ''اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول متلمسا من يبتلعه هو'' – ويقول (بيردن) (ص ٤٩ وما بعدها) إن الحيوانات كانت فى الواقع وديعةً ولطيفة قبل سقوط الإنسان وإن إبليس يتخذ هنا صورها التى اتسمت بها بعد السقوط .

٤٢١ – ٤٢٤ انظر سفر **التكوين** (١٦/٢ – ١٧٧) ''وأوصى الرب الإله آدم قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت'' .

٤٣٠ – ٤٣٢ انظر سفر **التكوين** ٢٨/١ ''وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض'' .

٤٤٠ – انظر سفر **التكوين** (٢٣/٢) ''وقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت'' .

٤٤٣ – انظر **كورنثوس الأولى** (٣/١١) ''رأس كل رجل هو المسيح وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله'' .

٤٤٩ – ٤٥٠ فى البيت ٢٥٣ من الكتاب الثامن يصف آدم احساسه بعد الخلق مباشرة بأنه كان يشبه اليقظة من نوم عميق .

٤٤٩ – تعبير ''فى ذلك اليوم'' يعنى بوضوح أنه قد مضى على خلق آدم وحواء عدة أيام – ومن ثم فلا نستطيع تقبل رأى ماكوللى (انظر ثبت المراجع) القائل بأنهما خلقا فى نفس ذلك اليوم (ص ١٦) . وتؤيد ما ذهبنا إليه فقرات عديدة من هذا الكتاب – الأبيات ٦١٠ – ٦٢٠ ، ٦٣٩ وما بعده و ٦٨١ وما بعده و ٧١٠ وما بعده ، والكتاب الخامس : الأبيات ٣١ ، ١٤٥ – إلا إذا كان ميلتون قصد أن يقول إن آدم قد خلق وهو يعلم كل شىء وهذا مستبعد .

٤٦٠ – ٤٧١ هذه إشارة إلى القصة التى يرويها أوفيد فى **مسخ الكائنات** (٤٠٢/٣ – ٤٣٦) عن الشاب المتباهى بحسنه (نارسيسوس) أى نرجس الذى عوقب على استعلائه وكبريائه بأن جعلته الآلهة يقع فى غرام صورته المنعكسة فى الغدير وأن يذوى ويذبل فى أتون حبه اليائس لنفسه .

٤٧٤ – ٤٧٥ انظر سفر التكوين ٣/ ٢٠ ''ودعا آدم إسم إمرأته حواء لأنها أم كل حى'' وقد شرح المفسرون هذا اعتماداً على المعنى الإشتقاقى لحواء فهو حَوَّاء أو حَيَّاء – ولا شك أنه من الحياة ، ولكنهم يقولون إنها لم تكتسب هذا الإسم إلاَ بعد السقوط وإنجاب الأطفال وكانت قبل ذلك تسمى ''المرأة'' وحسب (**تكوين** ٩٢٣/٢) وهكذا فإن ميلتون يؤكد أنها حَوَّاء من البداية تدعيما للمكانة العظيمة للمرأة باعتبارها زوجة وأماً .

٤٨٦ - ''وقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى'' (**تكوين** ٢/ ٢٣) .

٤٨٤ - انظر سفر **التكوين** (٢/ ٢١ - ٢٢) ''فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً . وبنى الربُّ الإلهُ الضلعَ التى أخذها من آدم إمرأة وأحضرها إلى آدم'' .

٤٩٩ - ٥٠١ فى إطار التفسير ''الطبيعى'' للأساطير أى تفسيرها فى إطار قوى الطبيعة كان (جوبيتر) يظهر فى صورة الأثير بينما تظهر (جونو) فى صورة الهواء أى مصدر العواصف المطيرة - وتقول كتب الأساطير ''إن الهواء حين تشتد حرارته ، تتولد منه النباتات وصنوف الحيوان'' .

٥٠٢ - يقول (راجان) إن تسمية ابليس باسم الشيطان المجرد معناه تقليص سلطانه ونزع ألقابه القديمة عنه (ص ٩٩) .

٥٢٣ - انظر سفر **التكوين** (٣/ ٤ وما بعدها) ''فقالت الحية للمرأة . . . . الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر'' .

٥٤٩ - ٥٥٠ معنى ''جبريل'' بالعبرية ''قوة الله'' أو ''جبروت الله'' وهو أحد الملائكة الكبار الأربعة الذين يحكمون أقطار العالم الأربعة . ولكنه يظهر فى الكتاب المقدس (دانيال ٨-٩ ولوقا ١) باعتباره رسول سلام وليس باعتباره مقاتلا ''جبارا'' ، انظر الحاشية على البيت ٤٦ من الكتاب السادس .

٥٥٥ - اختلف الشرح حول معنى ''المساء'' إذ يقول البعض إنه لا يعنى فترة زمنية ولكن شطرًا من القبة السماوية .

٥٥٧ - ٥٥٨ كان القدماء يرون منذ عهد (سينيكا) أن الشهب مصدرها الأبخرة المتصاعدة من الأرض والتى لم تستطع الصعود إلى الطبقات العليا فاحترقت ثم هبطت .

٥٦١ - استنادا إلى طقوس المعابد اليهودية حيث توزع الوظائف ''بالقُرْعة'' انظر **أخبار الأيام الأول** ٢٦/ ١٣-١٤ ''وألقوا قُرَعًا الصغير كالكبير حسب بيوت آبائهم لكل باب . فأصابت القُرعة من جهة الشرق شلميا'' وقد وردت إشارة إلى هذه العادة فى القرآن الكريم - فى سورة آل عمران الآية ٤٤ ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ صدق الله العظيم .

٥٦٧ - يمكن أن يعنى الأصل ''آخر صورة لله'' أى آخر أو أحدث صور الله استناداً إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن ''الله خلق الإنسان على صورته'' (**تكوين** ١/ ٢٧) وعلى هذا يقول الشراح إن أول صورة لله هو المسيح ، تتلوها الملائكة التى تشغل مكاناً وسطاً بين الله والإنسان ثم السماء وما خلقه الله فى الأيام الخمسة الأولى من عمر الكون . انظر الكتاب الثالث ٦٣ ، ٣٨٤ وغيرها . ولكننى فضلت الترجمة الحالية لأنها تتمشى مع ما ورد فى الأبيات الأخرى من أن الإنسان هو أحدث وآخر ما صوره البارئ .

٥٧٧ - (أوريل) معناهـا الحرفى "نور الله" - فهو بهـذا المعنى أحد "عيون" الله - انظر الكتـاب الثالث ٦٤٨ - ٦٦١ والحاشية .

٥٨٠ - فى الأصل يستخدم ميلتون صفة السهر بدلا من الإشارة مباشرة إلى الحراس - وهى كناية شائعة

٥٨٥ - انظر الكتاب الأول ٤٢٣ - ٤٣١ والحاشية ، والكتاب السادس ٣٤٤ - ٣٥٣ .

٥٩٢ - ٥٩٧ انظر الحاشية على الأبيات ٥٧٣ - ٥٧٦ من الكتاب الثالث - وتفـسير ما يقوله ميلتون هنا هو أن مـشهـد الغروب يمكن أن يكون الـسـبب فـيه دورة الشـمس فى فلك ما حـول الأرض أو دورة الأرض حول نفسها - ومـيلتون لا يلتزم بتفسير للغروب دون سواه أى أنه لا يرجـح التفسير البطلمى (نسبة إلى نظريـة بطليـموس الفلكية) على التفسـير الكوبرنيقى . أى تفسـير (كـوبرنيق) ومن اتبعه - مثل (كبلر) .

٦٠٥ - كوكب الزُّهَرَة الذى يسـميه مـيلتون هنا (هسبـيروس) هو "نجم المسـاء ورسول الحب" (الكتاب الحادى عشر ٥٨٨) .

٦٠٦ - يلاحظ القارئ أن "القمر" باللغة الإنجليزية مؤنث - ومن ثم التشـبيه بالملكة لا بالملك أما الملك فى الصور الشعرية فهو الشمس لأنها بالإنجليزية مذكر .

٦١٤ - ٦١٥ صورة "ندى النوم" سبقت فى (سبنسر) (**ملكة الجان** ١/١/٣٦) وشيكسبير (**ريتشارد الثالث** ٤/٨٣١ **ويوليوس قيصر** ٢/١/ ٢٣٠) .

٦١٨ - ٦١٩ فكرة "العمل" حتى فى الجنة فكرة أتت بها البـروتستانتية ولم تكن قائمـة فى صور العصور الوسطى عن الجنة حيث يبدو الإنسان عاكفا على التأمل والتفكير فحسب .

٦٣٥ - تشير الباحثة (مارجورى بارستو) فى مقال نشر فى إحدى الدوريات (وهى M. L. N. العدد ٣١ - ١٩١٦ - ص ١٢٠ - ١٢١) بعـنوان "استخدام ميلتـون لأشكال التخاطب الملحمى" - وأشار إليه (فاولر) فى حواشيه على نص ميلتون - إلى أن آدم وحـواء يقلعان عن تبادل الألقاب بعد السقوط وأن هذه الألقاب الـمهذبة مـقصورة عـلى الحياة فى الفـردوس - ويعلق فاولر على ذلـك قائلا إن هذه الألقاب موجودة فى الكتاب المقدس مثلما هى ملحمية .

٦٦٠ - يتضـمن اللقب "ابنة الله" مفارقةً درامـيةً بمعنى أنه يمثل نقيض الصورة المألوفـة لمريم البتول - حواء الثانية- التى كانت توصف دائما بأنها "أم الله" - وهى الترجمة المألوفة للكلمة اليونانية Theo-tokos التى دخلت اللغـة الإنجليـزية . أما كلمـة "الكاملة" accomplished فكانت تستـخدم فى التخـاطب فعـلا بين الناس فى القرن الـسـابع عشر ومـعناها الأصلى "التى تعلمت وتهـذبت ولُقِّنت الأدب" (شيكسـبير **الليلة الثانيـة عشرة** ٣//١/٩٦)- ولكنهــا هنا تـعنى "التي توفـرت لها أسـباب الكمال" .

٦٨١ - ٦٨٤ يذكر (لوكريشيوس) فى **طبيعة الأشياء** (٤/٥٨٦ وما بعده) أن هذه الموسيقى تخرج من ناى الإله (بان) وكثيرا ما فسِّرت تفسيراً رمزياً بأنها موسيقى الأفلاك .

٦٩٠ - ٧٠٣ يتميز وصف الفردوس فى هذا الكتاب بالتوازن بين الفن والطبيعة ويعلق على ذلك (برودبنت) قائلاً : ''إنه كلما برز الفن فى صنائع الطبيعة زاد الاحساس بوجود الخلاق المبدع . . . وحينما تسود يد الفن . . . يزداد إحساسنا بمدى الإبداع فى صنع خميلة آدم وحواء التى صورها البارئ خصيصا لهما'' (ص ١٧٩ - ١٨٠) .

٦٩١ - ''الذى أنبت الجنة'' تستند إلى الآية فى سفر **التكوين** ٢/٨ ''وغرس الرب الإله جنة'' .

٧٠٥ - ٧٠٨ كثيرا ما خلط القدماء فى الأساطير بين (بان) و (سيلفانوس) و (فاونوس) - لأن كلا منهم نصفه بشر ونصفه ماعز . أما (بان) فكان يرمز للطبيعة بصفة عامة (انظر الحاشية على الأبيات ٢٦٦ - ٢٦٨) ولكنه هنا يرمز إلى الخصب كما أنه رب الأماكن المنعزلة . وكان (سيلفانوس) الذى يقول البعض إنه إبن (فاونوس) - رباً للغابات والحدائق والتخوم . ولكن (فاونوس) إله ذو صفتين متناقضتين: فمن ناحية كان نظيراً للإله (بان) عند الرومان - إله الخصب والغابات كما يصوره (هوراس) فى **أناشيده** (٣/١٨/١) وكما يصوره (فيرجيل) فى **الإنيادة** (٧/٨١ - ٨٤) - ومن ناحية أخرى كان رمزاً للاشتهاء والرغبة .

٧١٤ - يقول (فاولر) إن ثمة أصداء لغويةً توحى بأن ميلتون كان يتبع فى روايته صورة الأسطورة التى رواها (شارل استيين) ووردت فى كتاب (ستارنز) وعنوانه **الأساطير الكلاسيكية** - ١٩٥٥ - ويقول فيه (ص ٢٧٠) ''يقول (هيزيود) إن (باندورا) هى أول امرأة صنعها (فولكان) تنفيذا لأمر (جوبيتر) وقد أغدقت عليها جميع الآلهة عطاياها - وقد أطلق عليها اسم (باندورا) إما لأنها تحلت بكل عطايا الآلهة أو لأنها تحلت بالعطايا من جميع الآلهة . والرواية التقليدية هى أنها أرسلت بعد ذلك إلى (إبيميثيوس) ومعها صندوق مغلق ، لأن (جوبيتر) أراد أن ينتقم من البشر بسبب اجتراء (بروميثيوس) على سرقة النار من السماء وإنزالها إلى الأرض . وهكذا استقبلها (إبيميثيوس) وفتح الصندوق فإذا به يشتمل على شتى ضروب الشر بحيث ملأ العالم بالأمراض والمصائب'' . وكان (بروميثيوس) و (إبيميثيوس) ابنين لعملاق من سلالة (التيتان) وهو (يابيتوس) ابن السماء والأرض . وميلتون يقول إن (يافث) ابن نوح (**تكوين** ٩ - ١٠) هو (يابيت) أو (يابيتوس) إستناداً إلى المصادر المعاصرة للأساطير الكلاسيكية . أما إذا أراد القارئ أن يطلع على التفسير الدينى لأسطورة (باندورا) عبر العصور فعليه أن يرجع إلى كتاب **صندوق باندورا** من تأليف دورا وإروين بانوفسكى (لندن ١٩٥٦) .

٧٢٤ - ٧٢٥ انظر **المزمور** ٧٤ (١٦) ''لك النهار ولك أيضا الليل . أنت هيأت النور والشمس'' .

٧٣٢ - ٧٣٣ إشارة إلى **سفر التكوين** (١/٢٨) حيث يقول الله لآدم وحواء قبل السقوط ''أثمروا واكثروا واملأوا الأرض'' - وهو نص أثار خلافاً كبيراً لأنه يعنى أن الزواج لا يتناقض مع براءة البشر ، وأنه كان مباحا للجميع .

٧٢٥ - انظر **المزمور** ١٢٧/ ٢ "باطل هو لكم أن تبكروا إلى القيام مؤخرين الجلوس آكلين خبز الأتعاب . فإنه يعطى حبيبه نوماً" . ولكن صورة النوم باعتباره هبة من الله فكرة عالمية قديمة . انظر **إلياذة** هوميروس (٩/ ٧١٣) **وإنيادة** فيرجيل (٢/ ٢٦٨) .

٧٤٣ - "الشعائر الغامضة" ترجمة أعم للأصل الذى يمكن أن يعنى "الطقوس السرية" - وقد تحاشيت هذا المعنى الأخير لما به من دلالات غير مرغوبة فى العربية . ولكن فكرة الإلغاز أو السرية قائمة فى هذا التعبير وهى إشارة لما يقوله **بولس الرسول إلى أهل أفسس** (٥٥/ ٣١ - ٣٣) من أن الزواج يعنى أن "يكون الإثنان جسداً واحداً - هذا السر عظيم ولكننى أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة"- أى إنه يفسر علاقة الامتزاج فى جسد واحد باعتبارها رمزا للعلاقة بين المسيح والكنيسة . وقد اتُّهم ميلتون بأنه بهذا يحدث تناقضا فى حبكة الملحمة لأن آدم وحواء إذا كانا قد أنجبا قبل السقوط فلابد أن يكون ابنهما بريئا من الخطيئة الأولى . وقد رد النقاد على هذا قائلين إن آدم وحواء ربما لم ينجبا قبل السقوط، وعلى أى حال فإن النظريات التقليدية للوراثة كانت تقبل أن يولد البرىء ثم يتسلل الإثم إليه .

٧٤٤ - ٧٤٩ انظر **رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس** (٤/ ١-٣) وهو النص الذى اعتمد عليه (البروتستانت) فى الهجوم على كنيسة روما إذ يقول "إنه فى الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان . . . فى رياء أقوال كاذبة موسومة ضمائرهم مانعين عن الزواج" . وميلتون بطبيعة الحال يدافع عن شرعية الزواج بل وقدسيته .

٧٤٥ - "قداسة الأمكنة" يشرحها البيت ٧٥٩ .

٧٤٧ - انظر **كورنثوس الأولى** (٧/ ١ - ٢) - "حسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن لتفادى الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها" ويقول ميلتون فى كتابه عن **العقيدة المسيحية** (١/ ١٠) : "ومن ثم فإن الزواج ليس أمرا ملزما للجميع ، ولكن فقط لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحافظوا على عفتهم دون زواج" .

٧٦١ - انظر **الرسالة إلى العبرانيين** (١٣/ ٤) "ليكن الزواج مكرما عند كل واحد والمضجع غير نجس" .

٧٦٣ - السهام الذهبية التى يطلقها (كيوبيد) كانت حادة وبراقة وكانت تذكى العاطفة ، أما السهام الرصاصية فكانت غير حادة وكانت تقتل الحب . (انظر أوفيد - **مسخ الكائنات** ١/ ٤٦٨ - ٤٧١) .

٧٦٤ - "مصباحه الدائم" توحى بالتناقض بين الحب فى الفردوس الذى يتسم بالدوام ، والحب على الأرض الذى يتصف بالتقلب والتغير يُشَبَّه نورُه بضوء المصباح .

٧٦٧ - ٧٦٨ انظر الهجوم على أبناء (بليّعال) فى الكتاب الأول البيت ٤٩٧ وما بعده .

٧٦٩ - "الأغانى" فى الأصل هى أنشودة الحب التى يتغنى بها العاشق تحت نافذة حبيبته - عادة فى الليالى الصافية الباردة - Serenade واشتقاقها يعنى ذلك لأنها كانت تنشد In Sereno .

٧٧٥ – معنى البيت إما (١) ألا تطلبا المزيد من المعرفة بأكل الثمرة المحرمة أو (٢) أن تعرفا كيف تقتصران على حياة البراءة .

٧٨١ – انظر الحاشية على البيت ٥٤٩ .

٧٨٢ – ٧٨٨ (عُزّيئيل) معناه "عزة الله" وهو وارد فى الكتاب المقدس باعتباره اسما عاديا من أسماء البشر (**سفر الخروج** ٦/١٨) وكذلك اسم (صفون) الذى يعنى "باحث الأسرار" (**عدد** ٢٦/١٥) أما (إيثوريل) فغير وارد فى الكتاب المقدس ولكنه يعنى "اكتشاف الله" .

٧٩٩ – يقول بيردن (ص ٩٣) إن نجاح الملاكين فى العثور على ابليس وأسره مثال ملموس على أن الله لم يكن يريد أن يمنعه من دخول الجنة ولو شاء لفعل .

٨٠٥ – "أبخرة النفس" Animal Spirits ومعناها الأبخرة الرهيفة التى كان البعض يعتبرها فى منزلة وسطى بين الجسد والروح ، ويعتبرها آخرون نفسا ثانية – ولهذا اقترنت بكلمة Animal وهى صفة من Anima التى تعنى النفس باللاتينية . ويقسم القدماء "الأبخرة الجثمانية" إلى أنواع ثلاثة أدناها "الأبخرة الطبيعية" وكانوا يتصورون أنها تنشأ فى الكبد وتدور مع الدم فى الأوردة – وتليها "عصائر الحياة" التى تتكون من هذه الأبخرة فى القلب وتدور مع الدم فى الشرايين (انظر الحاشية على البيت ٤٨٤ من الكتاب الخامس) وأعلاها هى "أبخرة النفس" التى تتكون من "عصائر الحياة" أى من "الدم النقى" ثم تتصاعد وتسرى في الأعصاب لتهب الجسد القوة على الحركة . وكان القدماء يتصورون أن حركة "أبخرة النفس" يمكن أن تُوَلِّد خيالات وتصورات ذهنية ، وأن تأثير الملائكة على الذهن البشرى يتوسل بهذه الأبخرة . وقد تعرض ابن خلدون فى **المقدمة** إلى هذه الفكرة (فى المقدمة السادسة – ص ٩٦ – ٩٧ من طبعة بيروت – دار القلم) حيث تحدث عن "تدريج التكوين" واستعداد النفس "للانسلاخ من البشرية إلى الملاكية" فى لمحة من اللمحات . وذلك عن طريق ما يسميه بالخيال والواهمة والحافظة . ومن ثم كان أمام إبليس أن يختار إما أن ينفذ إلى ذهن حواء عن طريق الخيال ، أو عن طريق أبخرة النفس وهى مصدر الانطباعات الحسية والحافظة لتجارب الماضى . ويقول و . ب . هنتر فى مقالة عن "حلم حواء الشيطانى" نشرها فى مجلة E. L. H. العدد ١٣ عام ١٩٤٦ (ص ٢٥٥ – ٢٦٥) وأشار إليها (فاولر) إن ميلتون يخالف التقاليد هنا فى أنه لا يجعل للشيطان قدرة على النفاذ إلى عقل الانسان – فهو لا يستطيع إلا التأثير على مخيلته .

٨٤٨ – يستند هذا البيت إلى الفكرة الأفلاطونية القائلة بأن الفضيلة يمكن أن تؤثر فى مظهر الإنسان الخارجى– وقد أصبحت هذه الفكرة إحدى الثيمات الرئيسية فى شعر الحب فى عصر النهضة ربما بسبب تأثير (دانتى) كما يذهب إلى ذلك بعض النقاد .

٩٥٤ – "أكان انضباطكم" – ضمير الجمع هنا معناه أن جبريل يخاطب جيش الشياطين برمته من خلال رئيسهم وممثلهم إبليس .

٩٦٥ – ٩٦٧ انظر **رؤيا يوحنا** (٢٠/١-٣) "ورأيت ملاكاً . . . معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده . فقبض على التنين الحية القديمة الذى هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة . وطرحه فى

الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكى لا يُضِلَّ الأمم فى ما بعد حتى تتم الألف سنة وبعد ذلك لابد أن يحل زمانا يسيرا'' . وانظر أيضا الكتاب الأول ٤٥ - ٤٨ والكتاب الثالث ٨٢ . ويعلق (إمبسون) على ذلك قائلا إن اكتفاء جبريل بتحذير إبليس وانذاره لا ينم عن ضعف ولكنه إجراء ''سياسى'' (ص ١١٢) .

٩٧١ - ''ملاك الحدود'' تعنى يا من تقيم على تخوم السماء ولكنها تعكس سخرية إبليس من قول جبريل له ''داخل حدود المنطقة'' فى البيت ٩٦٤ .

٩٧٦ - ''طريق السماء'' هو المَجَرَّة . (الطريق اللبنى أو درب التَّبَّانة) .

٩٨٠ - ٩٨٥ تشبيه الجيش شاكى السلاح بحقل الحنطة مأخوذة من (هوميروس) (**الإلياذة** ٢/ ١٤٧ - ٥٠) ويعلق البروفسور (كريستوفر ريكس) فى كتابه أسلوب ميلتون الرفيع على هذا التشبيه قائلا إنه جميل ولكنه لا يتصل بصلب الموقف فكأنه استطراد (ص ١٢٩) . وقد اعترض عليه إمبسون فى كتابه **بعض صور الشعر الرعوى** (ص ١٧٢) لعدم التطابق بين صورة الفلاح وصورة الله . إذ لا يمكن للعلىّ القدير أن يَقْلَقَ إزاء نتيجة الموقعة . ويعلق (فاولر) على ذلك قائلا إن صورة درس المحصول لها جذور دينية فهى استعارة تستخدم للدلالة على حكم السماء (انظر إرميا ٥١/ ٣٣) وهكذا فربما كان ميلتون يعنى أن الحكم النهائى ومحاسبة ابليس ينبغى ألا يكون سابقا لأوانه .

٩٨١ - ''المحصول'' فى الأصل Ceres وهى ربة الزراعة وتستخدم هنا كنايةً عن محصول الحنطة محاكاة لفرجيل **الرعائيات** ١/ ٢٩٧ .

٩٨٥ - ٩٨٧ التشبيه هنا له حدان ، الأول أن ابليس يتحمل ثقل أتباعه مثلما حمل أطلس ثقل النجوم والثانى هو أنه مثل أطلس قد تمرد على الإله الأعلى . وقد سبق تشبيهُه بأطلس فى الكتاب الثانى ٣٠٦ - وجبل أطلس المذكور هنا هو الموجود فى أقصى الغرب من شمال إفريقيا (موريتانيا أو المغرب) وكانت قمته دائماً تختفى وراء السحب مما أوحى بأنه أحد أعمدة هرقل أى أحد أعمدة السماء . أما جبل (تنريف) فهو جبل سامق فى جزيرة (تنريف) إحدى جزر الكنارى وكان يقال إن ارتفاعه يبلغ حوالى ٢٥ كيلو مترا - بل يزيد عن ذلك !

٩٩٧ - ١٠٠٤ تمثل هذه الأبيات ذروة التطور لصورة الميزان التى سبقت فى الأبيات ٣٥٤ - ٣٥٥ وفى الكتاب الثالث ٥٥٥ - ٥٦١ . أما معادلة ميلتون بين الميزان السماوى وبرج الميزان فليست كلاسيكية ولا سابق لها إلا سبنسر فى **ملكة الجان** (٥/ ١١١) - رغم ما يقوله فاولر من أنها فكرة قديمة ، (انظر كتابه **سبنسر وأرقام الزمن** ١٩٦٤) ولكنها تستدعى صورة الكواكب فى السماء لأن الرب بين إبليس وكوكبة الثعبان يجعل كوكبة الميزان فوقها أى فوق إبليس مباشرة عند منتصف الليل . وبرج الميزان هو البرج السابع بين البروج إذ يسبق العقرب ويُعْقِبُ العذراء .

٩٩٩ - ١٠٠١ يقول ميلتون هذا استناداً إلى ما جاء فى **سفر أيوب** ٢٨/ ٢٤ وما بعدها و ٣٧/ ١٦ . وكذلك فى **إشعياء** ٤٠/ ١٢ ، **والأمثال** ١٦/ ٢ .

١٠١٠ - انظر **إشعياء** ١٠/ ٦ "على أمة منافقة أرسله . . ليجعلهم مدوسين كطين الأزقة" .

١٠١٢ - مثار الخلاف حول هذا البيت هو اختلاف مفهوم الميزان عند الله وجبريل وابليس . والجدل طويل ويمكن الرجوع إليه فى طبعة فاولر للقصيدة .

# حواشي الكتاب الخامس

١ - ٢ هذا هو اليوم الرابع والعشرون من أيام أحداث القصيدة . أما ''الخطى الوردية'' فمحاكاة لهوميروس (**الإلياذة** ١/٤٧٧) وأما حبات اللؤلؤ فيفهم منها أن الندى يشبه اللؤلؤ البراق . ولكن (فاولر) يقول إن ثمة معنى استعاريا خبيئا يتمثل فى تشبيه ضوء الصباح بحبات اللؤلؤ المنثور على الأرض ويستشهد فى التدليل على ذلك بما جاء فى المزمور السابع والتسعين من أن النور يُبذر على الأرض للصالحين (١١) - والعبارة التى وردت فى قصيدة لوكريشيوس عن **طبيعة الأشياء** ٢١١/١١ عن بذر الضوء على أرض الحقل Lumine conseritarva . ويبدو أن تفسير (فاولر) معقول لأن ميلتون يستخدم كلمة Orient التى تصف اللؤلؤ بالبريق وتعنى ''الشرق'' فى الوقت نفسه .

٦ - مروحة (أورورا) ربة الصباح هى أوراق الأشجار لا أبخرة الجداول ولذلك يبدو وضع ''البدل'' غريبا فى العبارة العربية (بل والإنجليزية!)

١٥ - ''لا مثيل لها'' لأنها نابعة منها فحسب ومقصورة عليها لا تتعداها .

١٦ - فى الأصل Zephyrus الذى كانت أنفاسه العبقة تنبت الزهور مثل أنفاس زوجته (فلورا) ربة الأزهار . ويقول (فاولر) إن الإنسان قبل السقوط كان يعيش حياة متكاملة متوافقة مع الطبيعة فأبخرة الطعام النقى (البيت الخامس) تقابلها أبخرة الجداول (٦) والآن تقابل همساته (١٦) همسات النسيم (١٧) . ومن ثم فهناك تشبيه مضمر بين آدم و(زفيروس) رب النسيم الذى يوقظ الأزهار وبين حواء والزهور الغضة . وقد علق بعض الشراح على هذا قائلا إن تشبيه حَوّاء بالزهور يوحى بضعف الجسد البشرى وضعف نوازعه .

١٨ - ٢٥ انظر **نشيد الإنشاد** (٢/ ١٠ - ١٣ و ٧/ ١٢) - ''قومى يا حبيبتى يا جميلتى وتعالى لأن . . . شجرة التين قد أخرجت فجها ، وقعال الكروم تفيح رائحتها قومى يا حبيبتى وتعالى . . . لنبكرن إلى الكروم لننظر هل تفتح القعال ، هل نَوّر الرمّان'' - ولكن ميلتون يورد أنواعًا مختلفة من النبات هنا - و''البكور'' يقصد به أول ساعة من ساعات اليوم . ويقول البعض إنها كانت تبدأ دائما فى السادسة أو أنها كانت ساعة الشروق . وقد فضلت ''البكور'' على الشروق لما توحى به من تبكير (انظر **فقه اللغة للثعالبى** - طبعة بيروت - دار الحياة - ص ٢٠٤) - كما أن تلك الساعة ذات دلالات دينية فهى ساعة الصلاة كما يتضح ذلك من البيت ١٤٥ وما بعده .

٢٣ - ''المر'' هو ''اللاذن'' ( أو ''اللادن'' ) المذكور فى سفر **التكوين** ٢٧/ ٢٥ - وقد فضلت الكلمة المستخدمة فى العطارة المصرية- أما البلسم فهو ''البلسان'' الوارد فى نفس الآية- وقد فضلتها لشيوعها ولدلالتها على الشفاء من الأمراض وهو المعنى الشائع للكلمتين على أى حال - فى الإنجليزية .

٤٣ - ٤٥ يستغل إبليس التساؤل الذى أثارته حواء فى البيتين ٦٥٧ - ٦٥٨ من الكتاب الرابع ''لمن خلق هذا المشهد البديع إذا أوصد النوم كل العيون ؟'' .

٤٤ - "عيون السماء استعارة مألوفة - انظر أريوسطو "**غضبة أورلاندو**" ١٤/ ٩٩ ، وتاسو **تحرير بيت المقدس** ١٢/ ٢٢ وسبنسر **ملكة الجان** ٣/ ١١/ ٤٥ .

٤٥ - ٩٠ فى هذه الأبيات يلمح ميلتون إلى الثيمات التى يتناولها فيما بعد بتفصيل أكبر حين يتعرض للإغواء الثانى فى الكتاب التاسع .

٥٥ - ٥٧ يشير ميلتون إلى وصف (فيرجيل) لفينوس وهى تترك (إينياس) خارج قرطاجنة (**الإنيادة** ١/ ٤٠٣ وما بعده)

٥٦ - "العطر" فى الأصل يتضمن تلميحا إلى الزيت الذى تمسح به الآلهة على الشعر . وقد وردت الكلمة فى البيت ٢٤٥ من الكتاب الثانى .

٧٠ - ٨١ انظر سفر **التكوين** ٣/ ٥ "الله عالم أنه يوم تأكلون منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر" .

٧٩ - "فى الهواء" إشارة إلى ما ورد فى **أفسس** ٢/ ٢ من أن ابليس هو "رئيس سلطان الهواء" .

١٠٢ - ربما كان الخيال Fancy هنا يعنى المخيلة imagination ولم يكن التفريق بينهما معروفاً آنذاك . وقد ذهب ابن خلدون فى المقدمة نفس المذهب حين تحدث عن "الخيال والواهمة والحافظة" (ص ٩٧) باعتبارها قوى إدراك المحسوسات واختزانها فى الذهن ثم تحدث عن المخيلة باعتبارها "قوة ادارك الجزئيات" (ص ١٠٠) دون أن يتصدى للمعنى الحديث لأى منهما . والمحتمل أن ميلتون لم يكن يقصد الخيال Fancy بالمعنى الذى فصله (كولريدج) أى طاقة استدعاء المحسوسات إلى الذهن بعد غيابها عن الحواس أو ما يسميه ابن خلدون "تمثل الشيء المحسوس فى النفس كما هو مجرد عن المواد الخارجة (**انظر بازيل ويلى دراسات فى القرن التاسع عشر - الفصل الأول**) ولكنه كان يقصد المخيلة imagination وهى القوة التى قال (كولريدج) إنها تركيبية وتحليلية معاً ويؤكد هذا الظن ما جاء فى كتاب سفنسن بعنوان **ميلتون والعلم** - كيمبريدج ماساتشوستس - ١٩٥٦ - حيث نجد مقتطفا لأحد كتاب العصر هو (بارثولوميو) يخلط فيه بين الخيال والمخيلة (ص ٣٨)" .

١١٥ - أى المناقشة حول تحريم شجرة المعرفة التى سبقت فى الكتاب الرابع ٤٢١ وما بعده .

١٣٠ - ١٣١ هذه إشارة إلى النموذج التقليدى للخاطئة التائبة مريم المجدلية - انظر **إنجيل لوقا** ٧/ ٣٨ "ووقفت عند قدميه من ورائه باكية وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها" ولكنها لا تعنى بالضرورة أن حواء قد وقعت فى الإثم .

١٦٦ - ١٧٠ "أجمل نجم فى السماء" هو كوكب الزُهَرة الذى يشرق قبل طلوع الشمس ويعرف أيضا بنجم الصباح (**لوسفير أو فوسفورس**) انظر الحاشية على الأبيات ٦٥٨ - ٦٥٩ من هذا الكتاب وكذلك الأبيات ٧٠٨ - ٧٠٩ "ساعة البكور" - انظر الحاشية على الأبيات ١٨ - ٢٥ .

١٧١ - دأب كتاب عصر النهضة على وصف الشمس بأنها ''عين السماء'' مثل سبنسر فى **ملكة الجان** ١/ ٣/ ٤ وشكسبير فى **السوناتا** ١٨ .

١٧٧ - الواقع أن الباقى من الكواكب (بعد ذكر الزُّهرة) لا يزيد على أربعة وهى زحل والمشترى والمريخ وعطارد . ولكن ميلتون ربما قصد أن يقول إن الأرض أحد هذه الكواكب - إذ يشير إلى ذلك فى الكتاب الثامن ١٢٨ - ١٢٩ .

٢١٥ - ٢١٩ صورة الزواج بين شجرة الدردار والكرمة التى تتسلق عليها صورة قديمة إذ يذكرها (هوراس) فى **الأناشيد** ٢/ ٥/ ٤ . ولكن شيوع هذه الصورة فى عصر النهضة باعتبارها دليلاً على التكافل والتكامل يرجع بصفة أساسية إلى (أوفيد) **مسخ الكائنات** ١٤/ ٦٦ وما بعده . كان شجر الدردار يعتبر رمزاً للقوة والرجولة وتعتبر الكرمة رمزاً للخصب ونعومة الأنثى وخضوعها ورقتها . ويقول (فاولر) إن أهمية الصورة تعود إلى دلالتها على عودة آدم وحواء إلى التوافق بعد خلافهما الذى أتى به حلم حواء .

٢٢١ - ٢٢٣ انظر الكتاب الرابع ١٦٦ - ١٧١ - واسم (روفائيل) يعنى ''عافية أو شفاء الله'' وقد ورد الإسم فى الكتاب المقدس - ويقول (فاولر) إنه الملاك الأكبر ''المناسب'' لأداء المهام الخاصة بالعلاقات الزوجية استناداً إلى نص قديم يتصل بقدرته على التوفيق النفسى . والإشتقاق فى العبرية والعربية يؤيد ذلك فالنصف الأول من الكلمة ''رفا'' فى اللغتين تعنى التوفيق والإصلاح (ومنه رفا الثوب والمثل ''بالرفاء والبنين'' ) والنصف الآخر (إيل) يعنى الله بالعبرية . (انظر لسان العرب) .

٢٣٥ - ٢٣٧ تفصيل القول فى حرية الإرادة وارد فى الأبيات ٩٦ - ١٢٥ من الكتاب الثالث .

٢٦٤ - أرخبيل (كيكلاديس) يتكون من مجموعة من الجزر على شكل دائرة فى جنوب بحر إيجه (باليونانية ''كوكلوس'' ) ومن ثم فهو يشبه الأرض فى استدارتها .

٢٦٥ - جزيرة (ديلوس) هى إحدى جزر الأرخبيل المذكور وقد حددها القدماء باعتبارها مسقط رأس (أبولو) و (ديانا) أما جزيرة (ساموس) فليست من جزر هذا الأرخبيل - ولا شبه بينها وبين (ديلوس) سوى أن (جونو) قد ولدت فيها وفيها تزوجت (جوبيتر) ولكن هذا الشبه يكفى لمقارنتها بالفردوس .

٢٧٢ - ''العَنْقاء'' هنا ترجمة غير دقيقة للطائر الخرافى Phoenix الذى قيل إنه يقوم كل ٥٠٠ عام أو نحوها ببناء هرم من العطور أو عُشٍّ من الأعشاب الفواحة يأوى إليه ويموت فيه ، ولكنه بمجرد أن يموت تخرج عَنْقاءُ جديدة مختلفة من نخاع عظامه ، ومن ثم تطير على الفور إلى (هليوبوليس) أى مدينة الشمس لتحفظ رُفات الطائر الذى قضى. (انظر أوفيد - **مسخ الكائنات** ١٥/ ٣٩١ - ٤٠٧) . وكان كُتّابُ عصر النهضة يرادفون بين (هليوبوليس) ومدينة طيبة القديمة فى مصر . وقد استخدم الشعراء فى العصور المسيحية صورة ''العنقاء'' الكلاسيكية رمزاً لانتصار الحياة الأزلية على الموت ورمزاً لتجدد الحياة أيضا . ولم أجد مقابلا لها سوى ''العنقاء'' فى العربية .

٢٧٥ - ليس للفردوس إلا باب واحد فى الجانب الشرقى (انظر الكتاب الرابع البيت ١٧٨) - ودخول (روفائيل) من الباب يمثل تناقضا مع تسلق إبليس "**مثل اللص ليدخل حظيرة الله**" (الكتاب الرابع ١٧٨ - ١٩٢) وقد أعد ميلتون لهذا التناقض من قبل حين روى قصة (طوبيا) و (روفائيل) فى الكتاب الرابع ١٧٠ .

٢٧٧ - ٢٨٥ انظر وصف ملائكة الصاروفيم فى **إشعياء** ٦/ ٢ "لكل واحد ستة أجنحة . باثنين يغطى وجهه وباثنين يغطى رجليه وباثنين يطير" .

٢٨٠ - ٢٨٥ "الزخرف الملكى" يعنى أن أول زوج من الأجنحة ذولون أرجوانى وأن الثانى ذهبى والثانى أزرق سماوى - ووصفه بأنه لا يتصل دليل على الدوام . وقد علق (إبراهام كاولى) فى إحدى حواشيه على ملحمته **الداودية** على هذا اللون قائلا إنه رمز لمجد السماء وبهائها ومن ثم لقوة الله ورفعته .

٢٨٥ - ٢٨٧ إبن (مايا) هو (عطارد) سفير الآلهة وواهب الرحمة - وقد أشار إليه شكسبير فى هاملت ٣/ ٤/ ٥٨ - ٥٩ وخاصة - مثل ميلتون هنا - إلى وقفته الخاصة التى توحى بالنبل والشرف وذلك حين يقارن هاملت بين وقفة أبيه ووقفة (عطارد) :

**وقفة كوقفة (عطارد) رسول الآلهة**

**وقد هبط لتوه على ربوة قبلتها السماء !**

(من ترجمة الدكتور عبد القادر القط)

٢٩٢ - "المر" سبقت الإشارة إليه فى الحاشية على البيت ٢٣ من هذا الكتاب وكان يستخدم حسبما يقول (برودبنت) فى الوقاية من شر الشياطين و (برودبنت) يستشهد فى ذلك بقول لأحد معاصرى ميلتون هو (هنرى هوكنز) . (ص ١٨٣) .

٢٩٣ - "القاسيا" بهار يشبه القرفة وهو يدخل فى تركيب الزيت المقدس المستخدم فى مسح "خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة" (انظر سفر **الخروج** ٣٠/ ٢٤) وزيوت الطيب واردة فى **إنجيل مرقس** (١٤/ ٣ و ٨) وكان الارتباط بين "القاسيا" وزيوت الطيب شائعاً . أما البلسم فقد سبقت الإشارة إليه فى الحاشية على البيت ٢٣ من هذا الكتاب .

٢٩٤ - ٢٩٧ معنى "تلهو وتلعب" : تُمثِّل وتُجَسدً تصاوير خيالها ويرى (كريستوفر ريكس) فى **أسلوب ميلتون الرفيع** - ص ١١٢) أن ثمة تورية هنا لأن استخدام الكلمتين يلمح إلى لهو حواء بعد السقوط !

٢٩٩ - ٣٠٠ استضافة آدم لروفائيل تشبه استضافة إبراهيم عليه السلام لضيوفه من الملائكة (**تكوين** ١٨/ ١) "وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار" .

٣٠٢ - انظر الحاشية على الأبيات ٦٠٨ - ٦١٢ من الكتاب الثالث .

٣٢١ - انظر تكوين ٢/ ٧ ''وجعل الربُّ الإله آدم تراباً من الأرض'' - وآدم بالعبرية تعنى الأحمر نسبةً إلى التراب الأحمر الذى خلق منه - وانظر قول ابن منظور فى لسان العرب ''والأديم الجلد ما كان وقيل الأحمر وأديم كل شىء ظاهر جلده وأدمة الأرض وجهها'' ص ٤٥ .

٣٢٦ - ٣٢٧ يقول الشراح إن ثمة مصادر أربعةً للثمر فى الجنة فأولها أشجار الفاكهة وثانيها الشجيرات ، وثالثها النباتات الصغيرة (مثل الفراولة) ورابعها النباتات المتسلقة أو الزاحفة مثل البطيخ والشمام . ولهذا فضلت ترجمة gourd ومعناها ''القرع العسلى'' بالبطيخ والشمام معا فالمحتمل أن ميلتون كان يعنى النوع بصفة عامة لا فاكهة محددة . وآية ذلك أن الترجمات الإنجليزية الحديثة للكتاب المقدس لا تذكر اسم الفاكهة القديم الوارد فى **يونان** ٤/ ٦ - ١٠ بل تشير فقط إلى ''النبات المتسلق'' . أما النص العربى فيذكر اسما غير شائع له وهو ''يقطينة'' .

٣٤٠ - فى الأصل سواحل بحر (بنطش) أى البحر الأسود والساحل (البونى) أى الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط بالقرب من قرطاجنة . أما جزيرة (الكينوس) فكانت ذات حدائق توصف بدوام الزهر والثمر انظر هوميروس **الأوديسا** ٧/ ١١٣ - ١٢١ .

٣٤٥ - فى الأصل ''الشراب الطهور'' هو عصير الكرم المتخمر must الذى لا يسكر inoffensive وقد رفض ميلتون أى أنبذة مسكرة لأنها تتصل فى نشأتها بعصيان الله . وهكذا يقول سبنسر فى **ملكة الجان** ٥/ ٧/ ١٠ وما بعده إن كهنة إيزيس قد حرمت عليهم الخمر لأنها قد تثير فى دمائهم أفكار العصيان القديم . وقد شاعت الإشارة إلى السُّكْر باعتباره رمزاً لاختلال المَلَكَات الذهنية نتيجة للسقوط .

٣٤٨ - ''الأكواب'' هنا هى قشور الفاكهة الصلبة . انظر البيت ٣٣٥ من الكتاب الرابع .

٣٤٩ - لا وجود للبخور لأنه لا وجود للنار فى الجنة ! ولكن ميلتون يهاجم عادة حرق البخور فى الطقوس الكاثوليكية من طرف خفى .

٣٧٨ - (بومانا) ربة الفاكهة (من لفظ Poma ) - وخاصة تلك التى تنمو على الأشجار مثل التفاح والكمثرى . وقد ورد ذكرها فى أوفيد **مسخ الكائنات** ١٤/ ٣٢٠ وما بعده ووردت قصة غرامها فى نفس الكتاب فى مكان آخر ١٤/ ٦٣٣ . (انظر القصة فى **موجز الأساطير اليونانية** ص ٣٢٨) - ويلفت (بيردن) (ص ٧١) نظرنا إلى تفرقة ميلتون بين حواء و(بومانا) وبستانها و(فينوس) - وأهم ما يقوله هو أن حواء تتحلى بصفات روحية وأنها حقيقة تاريخية وليست أسطورية .

٣٨١ - ٣٨٢ الربات الثلاث هن (جونو) أو (هيرا) و (منيرفا) أو (أثينا) و (فينوس) أو (أفروديت) وكن يتنافسن على تفاحة كتب عليها ''لأجمل النساء'' . وقد عين للحكم فى هذا الأمر أحد أبناء البشر المشهود لهم بالحكمة وحصافة الرأى وهو (باريس) . وقد ظهرت له الربات الثلاث حيث كان يسكن فوق جبل (أيدا) عاريات ودون زينة . وكانت كل منهن قد قدمت له رشوة تتمثل فى عدة وعود منها وعد (فينوس) له بأن تهبه أجمل امرأة من البشر إذا حكم لها . وهكذا قال إنها أجمل الثلاثة وفاز

بالجمـيلة (هيلين) زوجة (منيـلاوس) . وهكذا شن اليونان الحـرب على (طروادة) ودمروها (**موجز الأساطير اليونانية** ص ١٠٦) والواضح أن التشـبيه لا تقف حـدوده عند جمال حـواء . فإن اختـيار (باريس) للجمال الذى قدمته (فينوس) تسبب فى الهلاك وهذا فى نظر ميلتون مقابل أسطورى لسقوط الانسان . ونستدل من هذه الاستعارة على أن (باريس) يقابل (آدم) فى بشريته وضعفه ويمثل النقيض للملاك (روفائيل) الذى يقابل (عطارد) رسول الآلهة الوثنية .

٣٨٥ - ٣٨٧ فى ''البشارة'' حل الملاك جبريل ببـيت مريم البتول ليخبرها أنها سـوف تحمل وتلد غلاما اسمه عيسى - وخاطبها قائلا ''سلام لك أيتها المنعم عليها . الرب معك . مباركة أنت فى السماء'' (**لوقا** ١/ ٢٨) . أمـا ''حواء الثانية'' (انظر الكتاب العـاشر ١٨٣) فدلالتهـا واضحة إذ تؤكد العـلاقة القديمة فى كتابات المفكرين المـسيحيين بين البتول وحواء - تماما مثل العـلاقة القديمة بين المسيح وآدم -- بل إن المسيح يطلق عليه اسم ''آدم الأخير'' (**كورنثوس الأولى** ١٥/ ٤٥) .

٣٩٣ - للمنضدة ''أربعة جوانب'' لأن الرقم ٤ كانت له دلالات مـعنوية وخلقية - ومنشـأ هذه الرمزية هو نظرية (فيثاغورس) عن ''التربيع'' ولكن الدلالة تطورت فيما بعد بحـيث أصبحت كلمة مربع Square فى اللغة الانجليزية تعنى الأمانة أو الاستقامة .

٣٩٩ - انظر **رسالة يعقوب** ١/ ١٧ ''كـل عطية صالحة وكل مـوهبة تامة هـى مـن فوق نازلة من عند أبى الأنوار'' .

٤٠٧ - ٤١٣ شب جدل عنيف حول طعام الملائكة وما إذا كانت تأكل أم لا - مـوجز القول فيه أن ميلتون يشيـر إلى ما ورد فى **المزمور** الثامن والسبعـين (٢٤ وما بعده) من أن ''المن والسلوى'' هو حنطة السماء وطعام الملائكة . ويرى بعض الشراح أن الأكل هنا رمزى - رغم إصرار ميلتون على حدوثه فى الواقع (انظر الحاشية على ٤٣٥ - ٤٣٦) .

٤١٨ - ٤٢٠ ''أدناها'' أى أدنى أفلاك الكواكب . وفى البيـتين غرابة ترجع إلى أن هذا التفسـير للبقع التى تبدو على وجه القمر كان قد أصبح قديما فى عصر ميلتون بعدما أوضحه (جاليليو) من أنها تضاريس طبيعيـة . بل إن ميلتون قد قبل تفسـير (جاليليو) عندما تحدث عن القـمر فى الكتاب الأول ٢٨٧ - ٢٩١ . ولكن يبدو أن الموضوع كان مثار جدل فى تلك الأيام .

٤٢٣ - ٤٢٦ ترجع هذه الفكرة إلى نظريات قديمة عن الشمس والكواكب - وأهميتها فى السياق أنها ترتبط بصورة الطعام والشراب وهى صورة أساسية فى إطار رؤية ميلتون الشاعرية .

٤٣٠ - حبات اللؤلؤ هنا هى ''المن والسلوى'' أى حنطة السماء - كما ورد فى الحاشية على الأبيات ٤٠٧ - ٤١٣ .

٤٣٥ - ٤٣٦ يهاجم مـيلتون الشـروح الشائعـة فى عصـره التى تنفى ما جـاء فى الكتاب المـقدس من أن الملائكة ''يأكلون حقا'' (**تكوين** ١٨/ ٨) - وهى الشروح التى كـانت قائمة على أن المـلائكة كائنات

غير مادية ومن ثم فإن "الشقاء المنذر بقدوم الموت" ظاهرى فقط . ويقول (فـاولر) إن ميلتون قد استند فى رأيه إلى ما جاء فى **إنجيل لوقا** (٢٤/ ٣٩ - ٤٣) من أن المسيح تناول طعاما فى السماء بعد أن رفعه الله إليه .

٤٤٠ - "الكيميائى التجريبى" هو الكيميـائى الذى يمارس صناعته بين الناس لا البـاحث الضليع الذى كان يُظَن أنه يستند إلى نظريات علمية معقدة بعضها دينى .

٤٤٦-٤٥٠ "الملائكة" فى البيت ٤٤٧ ترجمـة لمعنى التعبـير فى الأصل الإنجليزى "أبناء الله" - وهذه إشارة إلى ما ورد فى **سفر التكوين** من "أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا" (٦/ ٢) - ولكن ميلتون لا يقول بذلك هنا .

٤٥٩ - مصدر «الحذر» فى حديث آدم أنه يخاف أن تكون المعرفة التى يطلبها هى المعرفة المحرمة . انظر (بيردن) ص ١١٣ .

٤٦٩ - ٤٩٠ تتميز صورة العالم التى يرسمها روفائيل بالحركة الدائرية أى بالانطلاق والعودة - مما يجعلها تنتمى إلى الفلسفة الأفلاطونية ، مثل فكرة التفاوت فى درجة الروحانية عند الكائنات . ويصعب على الباحث رصد مصادر هذه الفكرة بسبب شيوعها شيوعا كبيراً فى العالم القديم .

٤٧٢ - ذكر "الهيولة الأولى" يؤكد مـا سبقت الإشارة إليـه من أن ميلتون لا يقـبل فكرة الخلق من العدم (الكتاب الثالث ٦٠١ - ٦٠٥ والحاشية) .

٤٨٤ - سلم الطبيعة Scala naturae هو السلم الكونى . و "التسامى" معناه الارتفاع وأيضـا التحول من صورة إلى صورة كما يعنى اللفظ فى الكيمياء . (انظر الكتاب الثالث ٥١٦ - ٥٠٨ والحاشية).

٤٨٤ - "عصائر الحياة" هى فى رأى القدمـاء سوائل بالغة النقاء يفـرزها الدم من القلب حتى تحفظ حـياة الكائن الحى . أما "أبخرة النفس" فقد سبق ذكـرها فى الكتاب الرابع (٥٠٨) ومصدرها المخ وهى تتحكم فى الإحساس والحركة الإرادية (وانظر الحاشية على ذلك البيت) .

٤٧٨ - ٤٩٠ استـقى ميلتـون من أفلاطون فكرة التـفريق بين "الحدس" الذى يعتمـد على النشاط الكلى للذهن "المتأمل" ( mens باللاتينية) وبين "المنطق" الذى يعتـمد على النشاط التـحليلى للعقل ( ratio باللاتينية) - (انظر **الجمهورية** ٥٣٣ وما بعده) .

٤٩٦ - ٥٠٠ كان من الشـائع الإعتقاد بأن الإنسـان كان يمكن أن يرقى إلى مستـوى الملائكة لو لم يعص الله ويأكل الثمـرة المحرمة ويورد (ك. س. لويس) فى كـتابه **مقدمة للفردوس المفقود** - لندن - ١٩٤٢ - نصا للقديس أوغسطينوس يؤيد هذه الفكرة (ص ٦٦) - ويقول - (بيردن) إن ميلتون يصور الإنسان تصويراً يوحى بإمكانية "التقدم" أى الإرتقاء فى منزلته لا الثبات على بشريته (ص ٣٦ - ٣٧) .٥٠٣ - هنا إشارة إلى ما ورد فى **أعمال الرسل** ١٧/ ١٨ "لأننا أيضا ذريته" .

٥٠٩ - يشير آدم هنا إلى "سلم الطبيعة" الذى سبق ذكره .

٥٢٠ – ٥٤٣ نفس الأفكار التى وردت فى حديث **الله** عن رفض الجبر والتسيير فى الكتاب الثالث ٩٣ – ١٢٨ ولو أننا هنا نواجه موقفاً يضعها موضع التطبيق . لاحظ أن ميلتون يستخدم عبارات قصيرة عمداً وذلك عملاً بنصيحة هوراس فى **فن الشعر** .

**عندما تريد الإفادة أوجز**
**حتى أن أذهان الناس تستقبل أقوالك فى سرعة**
**ويسر ثم تعيها فى أمانة**
**(البيتان ٣٣٥ – ٣٣٦)**

(ترجمة الدكتور لويس عوض)

٥٤٧ – وصف ميلتون أغانى الحراس من ملائكة الشاروبيم من قبل فى الكتاب الرابع ٦٨٠ – ٦٨٨ .

٥٥٧ – ''جديرة برهبة الإصغاء فى صمت'' – فى الأصل ''جديرة بأن يصغى إليها فى الصمت المقدس'' – وهذه إشارة إلى (هوراس) – **الأناشيد** ٢٩/٨/٢ – ٣٠ – حيث ترد هذه العبارة بنصها . ولكن كلمة المقدس عند (هوارس) لا تحمل نفس المعنى عند ميلتون ومن هنا جاء الاختلاف فى الترجمة .

٥٦٣ – ٥٦٤ يستمر سرد روفائيل للحرب التى وقعت فى السماء حتى آخر الكتاب السادس . وهذه خصيصة من خصائص الملحمة .

٥٧٤ – ٥٧٦ كلمة ''الظل'' هنا بالغة الأهمية لأنها تشير إلى المذهب الأفلاطونى القائل إن علاقة العالم الظاهر بعالم المثل السماوى هى علاقة الظل بالحقيقة . وقد عرض هذا المذهب عرضاً مستفيضاً فى **الجمهورية** – ١٠ – وانظر الكتاب الرابع ٢٠٧ – ٢٠٨ .

٥٨٠ – هذه فكرة أفلاطونية فى جوهرها ولكن ميلتون يُعَدِّلُهـا بقبوله وجود الحركة فى ''الزمن الأزلى'' – وهو ما يرفضه أفلاطون . ويشرح ميلتون هذا فى كتابه عن **العقيدة المسيحية** قائلا إنه ممكن ''لأن أرسطو – الذى يقول باستحالة نشوء الأفكار الخاصة بالحركة والزمن إلا بالرجوع إلى هذا العالم – يقول فى نفس الوقت إن هذا العالم نفسه أزلى'' (٧/١) .

٥٨٣ – ''الدورة الكبرى'' هى الفترة التى تعود فيها الأجرام السماوية جميعاً وفى نفس الوقت إلى مواقعها الأصلية . وقد تفاوتت تقديرات الزمن الذى تستغرقه هذه الدورة – أو السنة الكبرى annus magnum ما بين ١٣ و ٣٦ ألف عام !

٥٩٧ – صورة الإبن فى أحضان الأب واردة فى الكتاب الثالث – الأبيات ١٦٩ و ٢٣٩ و ٢٧٩ .

٦٠١ – إشارة إلى الفقرة الواردة فى **كولوسى** ١٦/١ ''فإنه فيه خلق الكل ، ما فى السموات وما على الأرض ، ما يرى وما لا يرى ، سواء كان عروشا أم سيادات أو رياسات أم سلاطين ، الكل به وله قد خلق'' .

٦٠٣ - ٦٠٦ الإشارة الرئيسية هنا هى إلى المزمور الثانى "أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى . إنى أخبر من جهة قضاء الرب . قال لى أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك" (٦-٧) وإلى **الرسالة إلى العبرانيين** ١/ ٥ "لمن من الملائكة قال قط أنت إبنى أنا اليوم ولدتك ؟ وأيضا أنا أكون له أبا وهو يكون لى ابنا ؟" ويشرح ميلتون كلا من هذين النصين فى كتابه عن **العقيدة المسيحية** قائلا إن الإنجاب فى النص الأول استعارى ويعنى رفع الإبن إلى ما فوق مستوى الملائكة وأنه فى المزمور الثانى يعنى "نصبه ملكاً" (١/ ٥) وقد تضاربت الأقوال حول معنى الإنجاب والأبوَة والملك وكان الرأى الشائع فى القرن السابع عشر أن أمر الله للملائكة بتوقير المسيح وتعظيمه رغم أنه "سيكون من البشر" كان سبب عصيان الملائكة وتمردهم - لأن بشرية المسيح تجعله أدنى منزلة منهم . (انظر ماكولى ص ٣٣) .

٦٠٧ - ٦٠٨ انظر "وقال بذاتى أقسمت يقول الرب" (**تكوين - ٢٢/ ١٦**) وانظر أيضا **رسالة بولس الرسول إلى أهلى فيلبى** (٢/ ٩ - ١١) "لذلك رفعه الله أيضا وأعطاه اسما فوق كل اسم . لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض . ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الأب" .

٦٤٣ - فى كتابه عن **العقيدة المسيحية** (١/ ٧) يفرق ميلتون بين السماء الظاهرة وأخرى هى "الخفية أعلى السموات" القائمة فى سماء المباركين حيث "عرش الله" . (١٢/٤) والكتاب السابع ٥٨٤ - ٥٨٦

٦٤٥ - انظر البيت ١٦٢ **وأيضًا رؤيا يوحنا** ٢١/ ٢٥ "لأن ليلاً لا يكون هناك" .

٦٤٦ - انظر البيت ٦١٤ من الكتاب الرابع حيث يستخدم ميلتون صورة قطرات ندى النوم .

٦٤٧ - انظر **المزمور** ١٢١/ ٤ "إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل" .

٦٥٢ - انظر **المزمور** ٣٦/ ٨ - ٩ "من نهر نعمك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة . بنورك نرى نورا" . وهذا يعنى أن الأنهار الحية هى أنهار الحياة .

٦٥٨ - ٦٥٩ انظر الكتاب الأول ٨٢ ، و ٣٦١ - ٣٦٣ (والحاشية) إذ يقول ميلتون :

**إن أسماءهم قد انمحت الآن من سجلات السماء**

**ولم يعد لها من ذكر بعد أن كشطها فسوقهم ومحاها**

**من ألواح الحياة .**

والشائع هو أن إبليس كان اسمه (لوسيفر) قبل العصيان . واشتقاق (لوسيفر) واضح فهو من كلمة باللاتينية تعنى الضوء ، وهو أحد أسماء كوكب الزُّهَرَة الذى ارتبط بإبليس . انظر الحاشية على البيت ٦٨٩ والأبيات ٧٠٨ - ٧٠٩ من هذا الكتاب .

٦٦٠ - يعلق (فاولر) على هذا قائلا "لسنا واثقين" إذا كان روفائيل يعنى أن إبليس كان الأول فى طبقة "كبار الملائكة" فحسب أم أنه كان بين أوائل الملائكة من جميع الطبقات . والبيت ٨١٢ يرجح

التفسير الأخير ، بينما يقول البيت ٦٩٠ من الكتاب السادس إن إبليس قد خلق مساوياً لميكائيل ، وأنه لم ينازل نداً له فى أول يوم من أيام القتال حتى رأى "أيان يهوى سيف ميكائيل" (٢٤٧ - ٢٥٠)

٦٧١ - "من يليه فى المنزلة" هو (بعلزبول) - استنادا إلى الكتاب الثانى ٩٩ - ٣٠٠ ويقول (إمبسون) إن ميلتون لا يذكر اسمه هنا لأنه كتب هذا الكتاب قبل الكتاب الثانى (ص ٩٩) . والأرجح أنه لا يعرف ماذا كان اسمه قبل العصيان بعد أن "انمحى من سجلات السماء" كما يقول - انظر الحاشية على البيتين ٦٥٨ - ٦٥٩ .

٦٨٥ - ٦٩٣ يقول (إمبسون) إن هذه الخدعة جزء من "عملية الدعاية الحربية" والواضح أن إبليس يحاول أن يمنع أتباعه من إظهار الولاء لله بقبول مُلك المسيح .

٦٨٩ - "فى الشمال" إشارة إلى التقاليد الثابتة التى تربط بين الشمال والشر استناداً إلى ما جاء فى **إشعياء** ١٤/١٢ - ١٤ "كيف سقطت من السماء يا زُهَرَة بنت الصبح . . وأنت قلت فى قلبك أصعد إلى السموات أرفع كرسى فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع فى أقاصى الشمال" .

٧٠٩ - الضمير فى "أكاذيبه" يعود فى النص العربى على "زعيمهم" (البيت ٧٠٦) ولكنه فى النص الانجليزى يعود على "وجهه" مما أثار اعتراض بعض الشراح . ولكن (فاولر) يفسر ذلك قائلا إن ميلتون يشير فى الحقيقة إلى ما جاء فى **رؤيا يوحنا** (١٦/٢٢) من أن المسيح هو "نجم الصباح" الحقيقى أما "الوجه المشرق" لإبليس الذى تمثل بالزُهَرَة بنت الصبح "(**إشعياء ١٤/ ١٢**) فهو تمثل كاذب . ومن هنا فلا تناقض بين كذب إبليس وكذب وجهه . انظر الحاشية على الأبيات ٦٥٨ - ٦٥٩ و ١٦٦ - ١٧٠ من هذا الكتاب" .

٧١١ - انظر الحاشية على الأبيات ٦٤٨ - ٦٦١ من الكتاب الثالث - **والأمثال** ١٥/ ٣ "فى كل مكان عينا الرب مراقبتين الطالحين والصالحين" . . **والمزمور** ١٨/٣٣ .

٧١٣ - ٧١٤ انظر رؤيا **يوحنا ٤/ ٥** "وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هى سبعة أرواح الله" ويذهب (إمبسون) فى كتابه **بعض صور الشعر الرعوى** لندن - ١٩٥٠ - إلى أن هذه المصابيح هى الكواكب السبعة (ص ١٨٤) . ولكن النص نفسه يوحى بغير ذلك إذ إن ميلتون يشير فى الكتاب الثالث إلى "الملاك الأكبر (أوريل) أحد السبعة الذين يقفون فى حضرة الرب" (٦٤٨ - ٦٤٩) . وهذا يعنى أن هذه المصابيح مصابيح "ذهنية" لا بصرية - وربما كان ميلتون يعنى الاثنين معا .

٧١٦ - "أبناء الصباح" هم الملائكة استناداً إلى ما جاء فى سفر أيوب حيث يطلق عليهم "نجوم الصباح" (٧/٣٨) .

٧٢٠ - انظر **الرسالة إلى العبرانيين** ١/ ٢ "ابنه الذى جعله وارثا لكل شىء به أيضا عمل العالمين"

٧٢٦ - اقتران الشمال بالشر قديم . انظر الحاشية على البيت ٦٨٩ .

٧٣٦ - ٧٣٧ انظر **المزمور الثانى/ ٤** "الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزىء بهم" .

٧٤٦ - "نجوم الصباح" - انظر الحاشية على ٧٠٨ - ٧٠٩ ، ٧١٦ . أما عن "قطرات الندى" فكانت رمزا شائعا لكل عارض زائل انظر **هوشع** ٦/ ٤ .

٧٥٠ - "طبقات ثلاث" - كان القدماء يقسمون المراتب التسع للملائكة إلى طبقات ثلاث فى كل طبقة ثلاث مراتب . انظر (دانتى) **الفردوس** ٢٨ و(سبنسر) **ملكة الجان** ١/ ١٢/ ٣٩ .

٧٥٥ - انظر الحاشية على ٦٨٩ .

٧٧٢ - ٨٠٢ اختار (ت. س. إليوت) هذه الخطبة ليدلل بها على عدم الدقة التى يتسم بها أسلوب ميلتون، وذلك فى المقال الشهير الذى نشره عام ١٩٣٦ وأهم ما فيه أن ميلتون يلجأ إلى التعقيد فى سبيل حسن الجرس والموسيقى اللفظية الأخاذة . وقد رد عليه (إمبسون) (ص ٢٦ وما بعدها) قائلا إن (إليوت) قد تعمد الهجوم الظالم وأنه يتهم ميلتون دون حق ، ذلك أن ميلتون هنا يورد خطبة لإبليس - وحديث إبليس إذن حديث شخصية من شخصيات الملحمة - وهى شخصية غير عادية فهو يتعمد عدم الدقة فى حديثه حتى يربك أذهان سامعيه . ويفسر (إمبسون) التغيرات المفاجئة فى الحجج التى يسوقها إبليس بأن الملائكة المتمردين ليسوا بحاجة إلى حجج كاملة فهم مقتنعون مقدماً بفحوى خطاب إبليس . ويقول (فاولر) إن ميلتون يريد أن يقدم صورة لخطيب لا يجرؤ على عرض حججه صراحة أو فى إطار من الإنصاف والمنطق . أضف إلى ذلك أن ما لدينا هو رواية (روفائيل) لخطبة إبليس وليس الخطبة نفسها - ولذلك فربما كانت الخطبة أطول من ذلك وربما لم يشأ روفائيل أن يُعَرِّضَ آدم "الضعيف" لقوة البلاغة الشيطانية التى ربما كان إبليس قد أبداها فى الخطبة الأصلية .

٧٨٣ - انظر ما يقوله جبريل عن خضوع إبليس لسلطان الله أول الأمر فى الكتاب الرابع ٩٥٩ .

٧٩٩ - "أهون به" - الضمير فى "به" يعود على تشريع الشرائع - ولكن الأصل الإنجليزى يوحى بمعنى آخر وهو كون المسيح بشراً - والإشارة هى كما يقول (فاولر) إلى **انجيل لوقا** ١٩/ ١٤ "لا نريد هذا (الإنسان) أن يملك علينا" .

٨٠٥ - ٨٠٧ (عبديئيل) : المعنى الحرفى هو "عبد الله" . وهو وارد فى **أخبار الأيام الأول ٥/ ١٥** باعتباره اسماً من أسماء البشر .

٨١٧ - انظر **فيلبى** ٢/ ٩-١١ "لذلك رفعه الله أيضا . . . لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الأب"

٨٢١ - الفكرة واردة فى **رسالة بولس الرسول إلى أهل روميه** ٩/ ٢٠ "من أنت أيها الانسان الذى تجاوب الله . ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا ؟" .

٨٣٥ - ٨٤٠ انظر **كولوسى** ١٦/١ - ١٧ "فإنه فيه خلق الكل ما فى السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين . الكل به وله قد خلق . الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل" .

٨٤٥ - ٨٤٨ انظر **المزمور الثانى** ١٢ **وإشعياء** ٦/٥٥ - ٧ . .

٨٥٥ - يقول (فاولر) إن هذا البيت له أهمية خاصة بالنسبة لعنصر السرد فى الملحمة ، ويورد رأيا لأحد النقاد مفاده أن إبليس يسمع هنا لأول مرة بأن "للإبن دوراً فى الخلق" ومن ثم فهو يفاجأ ويبدأ فى إنكار فكرة الخلق نفسها - بل إنكار خلقه هو نفسه - ثم يرد على ذلك قائلا إنه لما كان (عبديئيل) يعرف بهذا سلفا فلابد أن الملائكة المطيعين قادرون على معرفته حدسا أو أن كلمات الله التى قالها عند تتويج المسيح لم تكن مقصورة على ما أورده روفائيل (٦٠٠ - ٦١٥) .

٨٦٠ - يورد (ك. س. لويس) رأيا يقول إن إبليس يقترف الإثم الأكبر حين يتمنى أن يحيا "فى ذاته" - مستشهدا بما قاله القديس أوغسطينوس فى هذا الصدد (ص ٦٥) - وأن إبليس يحاول تبرير موقفه ذلك بالحديث عن استحالة "العدم" .

٨٩٠ - إشارة إلى تحذير موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل بعدم مناصرة تمرد (قورح) إذ قال "اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئا مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم" . **عدد** ٢٦/١٦ .

٨٩٣ - انظر **الرسالة إلى العبرانيين** ٢٩/١٢ "لأن إلهنا نار آكلة" .

## حواشى الكتاب السادس

١ - الملاك المقدام هو (عبديئيل) .

٢ - "دورة الساعات" : يقول ميلتون إن الساعات تدور لأنه يقصد تقسيمات قبة السماء التى تدور ظاهريًا حول محور النجم القطبى - وهى تقسيمات مكانية تمثل أقسام اليوم مثل الأقسام المرسومة على المزولة، وميلتون يعاملها معاملة الأشخاص هنا فكأنها ربات يدرن حول الأرض . وقد أشار هوميروس إليها فى **الإلياذة** حين جعلها تحرس أبواب السماء (٥/ ٧٤٩) وقال سبنسر إنها يقظة على الدوام فى هذه الحراسة **ملكة الجان** (٧/ ٧/ ٤٥) .

٢٩ - ٣٤ أنظر إنجيل متى ٢٥/ ٢١ - " نعمًا أيها العبد الصالح والأمين" . **وتيموثاوس** ٦/ ١٢ "جاهد جهاد الإيمان الحسن" ، **المزمور** التاسع والستين(٧) : "من أجلك احتملت العار" . أما "عبد الله" فهى المعنى الحرفى لاسم الملاك (عبديئيل) . انظر الكتاب الخامس ٨٠٥ .

٤٢ - "الضمير" هو معنى التعبير الإنجليزى right reason المشتق من التعبير الرواقى الذى أشاعه الإسكولائيون وهو باللاتينية recto ratio والمقصود به العقل الصائب الدفين الذى يرادف الضمير فى لغتنا الحديثة - ولذلك فإن ميلتون يفرق بينه وبين "العقل" وحسب فى البيت ٤١ (انظر روبرت هوبس Robert Hoopes **العقل الصائب فى عصر النهضة الإنجليزية** كيمبريدج - ماساتشوستس ١٩٦٢) .

٤٤ - انظر سفر **دانيال** ١١/ ١**ورؤيا يوحنا** ١٢/ ٧ وما بعدها حيث يَرِدُ ذكر الحرب التى وقعت فى السماء.

٤٦ - "جبريل" أو جبرائيل أو جبريئيل - معناها الحرفى "جبروت الله" أنظر الحاشية على الأبيات ٥٤٩ - ٥٥٠ من الكتاب الرابع .

٤٩ - الواقع أن عدد الملائكة الأخيار يبلغ ضعف عدد الفسقة - انظر الحاشية على البيت ٢٦٢ من الكتاب الثانى .

٥٤ - ٥٥ "الجحيم" فى الأصل هى (تارتاروس) وكانت مملكة الجحيم فى الأساطير اليونانية . انظر الحاشية على البيت ٦٩ من الكتاب الثانى . أما "نيران العماء" فهى فى الأصل "العماء الذى اشتعل نارا" - وهو وصف دقيق لأن ألسنة نيران الجحيم امتدت إلى العماء (الكتاب الثانى البيت ١٠٠٢) فالظاهر أن الجحيم لم تنشأ إلا عند سقوط إبليس .

٦٥ - ٦٠ يقال إنه قبل نزول الوصايا العشر "صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدًا . فارتعد كل الشعب فى المحلة . . . وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدًا" . سفر **الخروج** ١٩/ ١٦،١٨ .

٦٣ - ٦٨ قارن هذا الوصف بما ورد فى الكتاب الأول ٥٤٩ - ٥٦١ .

٧١ - ٧٢ الملائكة عند ميلتون يسيرون مثل الأرباب القدماء أى دون أن يلمسوا الأرض .

٧٣ - ٧٦ انظر **تكوين** ٢٠/ ٢٠ .

٩٧ - الشمال منطقة الشر . أنظر الحاشية على ٦٨٩ من الكتاب الخامس .

٣٨ - يبدى (فاولر) ملاحظة هامة مؤداها أن الملائكة عند ميلتون يستخدمون أسلحة لا تختلف عن أسلحة المقاتلين عند (هوميروس) و (أريوسطو) و (سبنسر) .

١٠٠ - ١٠٢ صورة إبليس هى صورة الصنم أو الصورة الزائفة للجلال القدسى لأنه يجلس عاليًا فى عربة متوهجة تحاكى العربة الكونية التى يركبها المسيح (انظر ٧٤٩ - ٧٥٩ من نفس هذا الكتاب) - ولهذا فهو محاط بملائكة الشاروبيم البراقة الذين يحاكون صور الشاروبيم فى العربة الكونية .

١٠٨ - ''خط المواجهة'' تعبير حديث فضلته على الأصل وهو ''حافة المعركة'' لأنه أصدق فى نقل المعنى المقصود .

١١٤ - ١٢٦ هذا ''المونولوج الداخلى'' كما نسميه فى أيامنا هذه منسوج على غرار مونولوجات المقاتلين الذين صورهم هوميروس فى **الإلياذة** وخاصة (هكتور) أنظر مثلا مونولوجه قبل منازلة أخيلاس فى تلك الملحمة (٢٢/ ٩٩/ ١٣٠) وربما لاحظ القارىء أن الفردوس المفقود بها إشارات أخرى إلى **الإلياذة** توحى بأن إبليس يشبه (أخيلاس) فى كبريائه وغيرته وأن ميلتون ربما كان يضفى عليه عامدًا هذا البعد الكلاسيكى . وانظر مثلا الكتاب الأول ٢٨٦ - ٢٨٩ حيث يشبه ميلتون درع إبليس بالقمر مثلما شبه هوميروس درع أخيلاس بالقمر (**الإلياذة** ١٩/ ٢٧٣) ، والكتاب الخامس البيت ٦٧٣ حيث يحاكى ميلتون الكلمات الأولى فى الحلم الذى أرسله (زيوس) إلى (أجاممنون) ليحثه على شن حرب جديدة على طروادة وتشريفاً (لأخيلاس) فى الوقت نفسه (**الإلياذة** - ٢/ ٣٢٩) .

١٢٢ -١٢٣ رغم كراهية ميلتون للحرب - وبخاصة عدم تحبيذه لها كموضوع للشعر الملحمى (الكتاب التاسع/ البيت ٢٧ وما بعده) - فهو يتعرض هنا لمعركة كبرى فى السماء ويُسهب فى سرد تفصيلاتها وقد اختلف الشراح والنقاد فى دلالة هذا فمنهم من قال إنها رمزية ومنهم من قال إنها غير جادة - ولكن النص يتحدث عن نفسه : فهى حرب ولا شك رغم نهايتها الرمزية .

١٣٧ - ١٣٩ انظر **إنجيل متى** ٣/ ٩ ''لا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أبًا . لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم'' وغيرها مثل ٢٦/ ٥٣ من نفس السفر .

١٥٦ - عادة ما تترجم كلمة gods فى هذا السياق بالملائكة لأن ذلك هو المعنى الأول - ولكن إبليس يتعمد أحيانًا استخدامها لتعنى أكثر من ذلك أى لتوحى بالربوبية فعلاً . وقد سبق له أن استخدمها بنفس المعنى فى الكتاب الأول ١١٦ .

١٦٢ - ١٦٣ تعقيد العبارة متعمد - فإبليس يريد أن يقول ببساطة إنه لن يقضى على (عبديئيل) قبل الرد على ما رماه به - وهو لا يريده أن يتباهى بعجز إبليس عن ذلك . والتعقيد إذن يرجع إلى افتقار إبليس إلى الثقة فى قدرته على القضاء على (عبديئيل) قبل أن يرد عليه .

١٦٧ - "أرواح خادمة" تعبير ورد فى الرسالة إلى **العبرانيين** ١/ ١٣ - ١٤ لتأكيد انخفاض منزلة الملائكة عن منزلة المسيح : "لمن من الملائكة قال قط إجلس عن يمينى؟ . . أليس جميعهم أرواح خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص ؟" .

١٧٦ - يستند إبليس فى إقامة حججه على أن قانون الطبيعة يدعو إلى الحرية (انظر الأبيات ٧٨٧ - ٨٠٢ من الكتاب الخامس) ولو أنه يفضل التلميح على التصريح - أما (عبديئيل) فلا يتردد فى التصريح فى رده على الشيطان قائلا إن قانون الطبيعة هو القانون الأزلى الذى وضعه البارىء وهذه فكرة أساسية من أفكار مذهب "الإنسانية المسيحية" (أو الهومانيزم المسيحية كما يسميها الدكتور لويس عوض) - إذ إن الطبيعة مجرد سبب - والله هو الذى يسبب الأسباب . والواقع أن (عبديئيل) يقول إن الحرية تتمثل فى أن يضع كل مخلوق نفسه فى المكان الذى خلق له أى فى مكانه الطبيعى - وهذا معناه الطاعة - طاعة الخلق وقوانين الخالق . انظر (راجان) (ص٦٤) .

١٨٣ - انظر الكتاب الثانى ٢٦٣ "سيد فى جنهم أكرم من عبد فى الجنة" .

١٩٥ - ١٩٨ شاعت فى القرن السابع عشر نظرية تقول إن الرياح الحبيسة فى باطن الأرض هى التى تتسبب فى الزلازل والبراكين - بل إن هذه الرياح هى التى تبرر "الانتفاخ" والتضخم فى بعض مناطق الكرة الأرضية . وقد نشر "بحث عن الزلازل" يعود إلى تلك الفترة ضمن المؤلفات النثرية الكاملة لسبنسر عام ١٩٤٩ فى أمريكا ويعرض لهذه النظرية عرضًا تفصيليًا (ص٤٤٩ - ٤٥٩) وقد أشار (فيرجيل) إلى نفس الفكرة فى **الإنيادة** ٣/ ٥٧١ - ٥٧٧ كما أشار إليها (أوفيد) فى **مسخ الكائنات** ١٥/ ٢٩٧-٣٠٦ عندما تعرضا لوصف بركان (إتنا) - وقد إستقى ميلتون منهما الصورة التى رسمها فى الكتاب الأول فى الأبيات ٢٣٠ - ٢٣٧ . وميلتون يطور الصورة هنا لا لإبراز مدى الدمار والخراب والفوضى فحسب، بل أيضًا لتأكيد معنى التمرد القائم على الكبرياء والذى لا شك يعتبر مُنافيًا للطبيعة فالشعراء يستخدمون البركان عادة للدلالة على هذا المعنى . أما ارتباط إبليس بصورة أشجار الصنوبر فترجع إلى استخدام الإنسان "الوحشى العاصى" لسلاح من شجر الصنوبر - وهو ما يذكره فيرجيل فى الإنيادة ٣/ ٦٥٩ وسبنسر فى ملكة الجان ١/ ٧/ ١٠ . أنظر كتاب ريتشارد بيرنهايمر **المتوحشون فى العصور الوسطى: دراسة لفنونهم ومشاعرهم وشياطينهم** - كيمبردج - ماساتشوستس - ١٩٥٢ . وأما صورة الماء هنا فهى صورة لتآكل القاعدة - وهى قاعدة الباطل - مثل الصورة التى رسمها سبنسر فى **ملكة الجان** :

**وهكذا سقط ولفظ أنفاس حياته**

**التى تلاشت سريعًا - سحائبَ ودخانًا ؛**

**وهكذا سقط ، حتى أن الأرض من تحته**

**لتئن ألمًا ، عاجزة عن احتمال ثقله الكبير ؛**

**وهكذا سقط ، مثل صخرة عظيمة انشقت**

**إذ نَحَرت الأمواجُ قاعدتها الضعيفة**

**وانتزعتها بقوة رهيبة من بين صخور الساحل**

**فانهارت لتزعج ربَّ البحر العظيم**

**وهكذا سقط وارتمى كأنه جبل خامد ؛**

**الكتاب الأول / النشيد الأول / الفقرة ٥٤**

١٩٩ - ''الملائكة المتمردين'' فى الأصل ''أصحاب العروش المتمردين'' وأصحاب العروش أو ''العروش'' فقط طبقة من طبقات الملائكة . ولما كان ميلتون يقصد الملائكة المتمردين جميعًا وهم ينتمون إلى ست طبقات على الأقل (انظر الكتب الخامس ٧٧٢ والسادس ١٠٢) فلا شك إن هنا مجازًا مرسلاً (بعض من كل) يحسن معه الإيضاح .

٢١٣ - انظر الحاشية على البيت ٨٣ من هذا الكتاب - وهو رأى فاولر - وانظر الإشارة إلى الأسلحة الرمزية للمؤمنين والكافرين فى **أفسس** ٦/١٦ ''درع الإيمان الذى به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الأشرار الملتهبة'' - ثم انظر ما يقوله (فاولر) هنا من أن أسلحة الملائكة ''روحية'' فى الحقيقة ؛ أفلا يمكن اعتبار المعركة برمتها معركة رمزية أيا كان التصوير الواقعى (أو على الأقل ''غير المجازى'') للمقاتلين وأسلحتهم ؟

٢١٥ - ''القبة'' هى قبة السماء . انظر الحاشية على البيت ٩٩٢ من الكتاب الرابع .

٢٥٤ - ٢٥٥ فى الأصل الصخر هو adamant وهو صخر أو ''تكوين معدنى'' لا وجود له فى الواقع ولكنه يطلق على عدة أنواع من الصخور أو المواد المعدنية إذ اقترن فى العصور الغابرة بالفولاذ ثم بالياقوت الأرزق sapphire ثم بالماس . وكان معناه فى القرن السابع عشر أقرب إلى الماس مما أثار مشكلة فى تحقيق نص ميلتون ذلك أن ''درعًا من الماس'' لابد أن يكون رمزًا إما للصلابة والصمود أو للثبات على الإيمان - مثل الدرع الذى استخدمه (آرثر) فى منازلة التنين فى **ملكة الجان** ٥/١١/١٠ فإذا شئنا ألا يقتصر معناه على الصلابة فلابد أن نفترض أن ميلتون يصور لنا إبليسًا بالغ البراعة والدهاء.

٢٦٧ - لاحظ أن ميلتون لا يعتبر الملائكة كائنات ''فوق الطبيعة'' بل كائنات لا تنفصل عن الطبيعة - وإن كانت هنا الطبيعة السماوية لا الأرضية .

٢٧٥ - ٢٧٦ أنظر الكتاب الثانى ٧٤٣ - ٧٦٠ حيث يقدم ميلتون استعارة ''إنجاب'' إبليس للخطيئة .

٢٨٢ - فى الأصل adversary أى الخصم وهو المعنى الحرفى لـ Satan بالعبرية كما سبق .

٢٩٢ - يقول إبليس ''تتخيل وجوده'' لأنه لا يعرف بوجود الجحيم - بينما نستدل من السياق على معرفة الملائكة الأخيار بها . وقد سبق ذكرها فى البيت ٥٤ و(عبديئيل) يذكرها فى البيت ١٨٣ بعد انضمامه لصفوف المخلصين .

٣٠٣ - يقول (فاولر) "هذا بيت غريب فهو يفصح إما عن سذاجة قائله روفائيل أو عن غروره - إذ كيف يبدو له أن الملائكة خليقة بأن تفصل فى أمر كهذا ؟" - ولكن الواضح أن روفائيل يحاول تضخيم صورة اللقاء الرهيب بين ميكائيل وإبليس .

٣٠٦ - تجسيد "الترقب" يكشف عن مخاوف الملائكة . انظر شكسبير - البرولوج لمسرحية **طرويلوس وكريسيدا** والبرولوج لمسرحية **هنرى الخامس** (الجزء الثانى) .

٣١٢ - "مواقع نذر السوء" : كان المنجمون يستمدون من علم الفلك البطلمى بعض المعلومات التى يبنون عليها نبوءاتهم . ومن هذه خمس علاقات هندسية محددة فيما بين الأجرام السماوية كانوا يسمونها "مواقع" ومن هذه "موقعان" يتميزان بالتعارض (البيت ٣١٣) - ينشأ حين يواجه جُرمان بعضهما البعض فى الجانبين المتقابلين من السماء ، وكانوا يعتبرون ذلك "نذير سوء" أى أنه تأثير سيّىء على البشر .

٣٢٠ - ٣٢٣ ورد ذكر أسلحة الله فى **إرميا** ٥٠/ ٢٥ - وكان لهذه الأسلحة دلالات رمزية فى الأدب على مر العصور منذ أن حطم (إينياس) بسيفه الذى وهبه له الإله سيف (تورنوس) الذى صنعته أيدى البشر (**الإنيادة** ١٢/ ٧٤١) - والنموذج المعاصر فى القرن السابع عشر هو (سبنسر) الذى يصور سيف العدل الذى سُرق من (چوبيتر) رب الأرباب وأعطته (أستريا) إلى (أرتيجال) فى **ملكة الجان** :

**كان مصنوعًا من أنقى المعادن وأقواها**

**وقد ثقف وصقل بصخر الماس**

**وزين نصله بالذهب**

**أجمل زينة ونقش عليه اسمه**

**وما كان امتيازه أقل من شهرته !**

**لم تكن ثم مادة أصلب ولا أشد منه**

**فحيثما هوى اخترق أو شق**

**وما استطاع درع أن يصمد لضربته**

**فأينما ضرب مزق وفتت !**

**الكتاب الخامس / النشيد الأول / الفقرة العاشرة**

ويلاحظ أن سبنسر يستخدم كلمة (adamant) فى البيت الثانى بمعني الماس (انظر الحاشية على الأبيات ٢٤٥-٢٥٥) مع الفعل الذى يستخدمه ميلتون بمعنى (ثقف وصقل) ومن ثم فإن القارىء المُلم بسبنسر سوق يلمح الإشارة الخفية إلى هذا "الصخر الماسى" العجيب . انظر أيضًا البيت ٣٦٤ من هذا الكتاب حيث يصرح ميلتون بأن دروع الشياطين "من صخر الماس" .

٣٤٤-٣٥٣ يقول ميلتون إن الملائكة ليس لها أعضاء فمادتها متجانسة أى غير مركبة - انظر الكتاب الأول "بسيطة فى جوهرها النقى" (٤٢٥) - ويورد (فاولر) مقتطفا لأحد كتاب العصر يُبين فيه المصدر

الذى اعتمد عليه ميلتون فى قوله إن الشياطين تتألم من الجروح - وخاصة جرح السيف - وسرعان ما تبرأ.

٣٥٥- "جبريل بجبروته" فى الأصل : "قاتل جبروتُ جبريل" وهى الصيغة التي يستخدمها هوميروس - أما العلاقة الاشتقاقية بين (جبريل) والجبروت فقد سبقت الإشارة إليها فى الحاشية على البيت ٣٧١ من الكتاب الخامس .

٣٥٩-٣٦٠ انظر **الملوك الثانى** ١٩/٢٢ "من عَيَّرتَ وجَدفت ؟ . . قُدّوس إسرائيل" .

٣٦٣-٣٦٨ يلاحظ القارىء أن (روفائيل) لم يذكر اسمه لآدم وحواء - فلا حاجة بهما إلى ذلك - وهو هنا يروى ما حدث له بغير ضمير المتكلم - بل بضمير الغائب - حتي يضفى الموضوعية اللازمة على السياق أما غريم روفائيل فكان (أصمداى) أو (أزموديوس) المذكور فى الكتاب الرابع (١٦٨) . وأما غريم (أوريل) الملاك الشمسىّ فكان (أدْرَمُلك) وهو إله وثنى من الآلهة الشمسية ورد ذكره فى **الملوك الثانى** ٣١/١٧ . وانظر الكتاب الأول حيث ينسب ميلتون الآلهة الوثنية إلى الملائكة العصاة ويحدد أسماءهم . (٣٦٤-٣٧٥) .

٣٧١-٣٧٢ (أريئيل) و (أريوك) اسمان فى الكتاب المقدس . أما (أريئيل) فمعناه الحرفى (أسد الله) ويطلق على بيت المقدس (**إشعياء** ١/١٩) . وأما (أريوك) فوارد فى سفر **التكوين** ١/١٤ باعتباره ملك (الأسَار) الذى حاربه إبراهيم عليه السلام ، وقد أصبح يشار إليه فى "علم الشياطين" فى عصر النهضة على أنه روح الانتقام . والاسم يعنى حرفيًا "مثل الأسد" ، أما (راميل) فهو ممن سقطوا للعلاقة الآثمة مع "بنات الناس" .

٣٧٤-٣٧٥ يقول آلان جلبرت Allan Gilbert فى كتابه عن **تأليف الفردوس المفقود : دراسة لتنظيم مادتها وإدراجها فى السياق** - ١٩٤٧ إن ثمة تناقضًا بين ما يقوله (روفائيل) هنا عن قناعة الملائكة بذيوع أسمائهم فى السماء وبين ما ذكره فى ٣٦٤-٣٦٥ عن النصر الذى أحرزه هو و (أوريل) على أعدائهما ، ولكن - كما أشرنا فى الحاشية على ٢٦٣-٣٦٨ إن روفائيل لم يذكر اسمه لآدم ولا يجوز إذن إتهامه بالتناقض . والحقيقة أن هنا مفارقة طريفة لأننا نعرف المتحدث وآدم لا يعرفه .

٣٩٥ - ٣٩٧ على عكس الملائكة الأخيار الذين "لا يمسهم سلاح" (٤٠٠) فإن "الإثم قد أغلظ كيان" العصاة (٦٠١) . ومن ثم أصبحوا يعرفون الألم . انظر الحاشية على ٣٤٤ - ٣٥٥ .

٣٩٩ - "مكعبة" كلمة لها دلالتها - فالتكعيب شكل يرمز إلى الفضيلة والاستقرار . وليس واضحًا إن كان المقصود هنا هو الشكل الرباعى على إطلاقه أم المكعب على وجه التحديد . ورمزية الرقم ٤ تعود إلى (فيثاغورس) كما سبق .

٤١٣ - يقوم بالحراسة عادة ملائكة الشاروبيم لتفوقهم فى العلم والمعرفة انظر البيت ٧٧٨ وما بعده من الكتاب الرابع وكذلك البيت ٥٩٠ وما بعده من الكتاب الثانى عشر .

٤١٦ - اجتمـاع مجلس الحرب ليلاً يجرى على غرار مـا رواه (هوميروس) فى **الإلياذة** (٩) عندما عرض للاجتماع الذى دعا إليه (أجاممنون) بعد هزيمة (هكتور) .

٤٤٧ - كان ''نسْروخ'' هو الصنم الآشورى الذى كان (سَنْحاريب) يصلى له ساجدًا عندما قُتل (**ملوك ثانى** ١٩/٣٧ **وإشعياء** ٣٧/٣٨) واسم (نسروخ) بالعبـرية يعنى (الهرب) أو (الغواية الرقيـقة) حسبـما يقول (فاولر) إستنادًا إلى قاموس (ستيفانوس) - وهما صفتان يبرزهما سلوكه وحديثه كما يصورهما ميلتون هنا .

٤٥٣ - ''الأرباب'' هنا تعنى أما ''الكائنات المستقلة بذواتها'' أو ''الملائكة'' -كما سبق .

٤٦٤ - ٤٦٨ تهديد مقنع : يريد (نسروخ) أن يقول ''إن لم تأتنا بجديد فسوف نعين قائدًا آخر'' .

٤٧٢ - ٤٨١ انظر الأبيات ٦٠٨ - ٦١٢ من الكتـاب الثالث حيث يتـحدث ميلتون عن طاقـة الشمس على تكوين الأحجار الكريمة بفعل تأثيرها فى باطن الثـرى على قطرات الندى ، وميلتون يقول إن المعادن تتكون هنا بنفس الطريقـة بفعل تـأثير ''أشعة السماء'' التى تقـابل أشعة الشـمس على ''الزبد'' الذى تخرجه أرضية السماء .

٤٨٣ - أبدى أحد أوائل الشـراح اعتراضًا على استخـدام إبليس كلمة ''الجحيم'' فى هذا البـيت قائلاً إن إبليس لم يكن يدرى بعد كيف يكون عقابه . وقد رد (إمـبسون) على هذا الاعتراض فى كتابه **بعض صور الشعر الرعوى** - لندن - ١٩٥٠ - صـ ١٥٨ قائلاً إن إبليس يستند إلى التلميحات ''والإشارات إلى الجحيم التى سمعها فى اليوم السابق'' - ويعلق (فاولر) على ذلك قائلاً إن (روفائيل) الذى يروى هذه الوقائع هو وحده الذى يقـصد الإشارة إلى الجحيم بالمـعنى المعروف ، أما إبليس فيقـصد بها ''نار المنطقة السفلى'' فحسب .

٤٨٤ - ٤٩٠ ربما كان المـصدر الذى اعتمد عليـه ميلتون فى القول بأن الأسلحة النارية قـد اخترعت فى الجحيم هو (أريوسطو) **غضبة أورلاندو** ٩/٢٨ - ٢٩ و ٩١ ، وربما كـان المصدر الأقـرب إليه هو سبنسر الذى يقول فى **ملكة الجان** :

**أرأيت إلى تلك الآلة الشيطانية التى صنعت من الحديد**
**فى أعمق أعماق الجحيم ، إذ شكلتها مهارة ربات القصاص**
**وحَمّلَتها بالنطرون ذى الرياح والكبريت الحى**
**ثم وضعت فيها الرصاصة المستديرة وأمرتها أن تقتل**
**حين تشتعل نارًا وتملأ السموات**
**بضجيجها الراعد ، ويختنق بها الهواء كُلُّه**
**حتى ما يستطيع أحد أن يتنفس أو يرى أو يسمع ما يريد**
**من خلال سحائب الحريق والدخان الأدكن كريه الرائحة**
**حتى أن من ينجو من الطلقة يُصاب بالذعر من أنفاسها !**

**الكتاب الأول/ النشيد السابع - الفقرة ١٣**

٤٨٥ - "الفتحة الأخرى" هى فتحة فتيل الإشتعال .

٥٣٥ - لم يستطع أحد من الشراح أن يعثر على مصدر لاسم (زوفيل) - (أى الجاسوس الإلهى) - وربما كان من الأفضل مراعاة الهجاء المتبع فى الكتاب المقدس لمثل هذه الأسماء وكتابته (زوفيئيل) بالعربية - مع أنه غير موجود فى أى نص دينى .

٥٣٩ - انظر **فيرجيل الإنيادة** ١٠/ ٨٠٩ "سحابة الحرب nubes belli ولكن ربما كانت هذه الإشارة فى الحقيقة إلى **رسالة بطرس الرسول الثانية** ٢/ ١٧ "غيوم.. حُفظ لهم قتام الظلام إلى الأبد" - أى معلمون زائفون "ينطقون بعظائم البُطْل" (نفس المصدر ١٨) .

٥٤٢ - ٥٤٦ "الصلب" فى الأصل adamantine وهى صفة من adamant الصخر الذى سبقت الإشارة إليه فى الحاشية على ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ٣٢٠ - ٣٢٣ و ٢٦٤ من هذا الكتاب . أما أن الدرع محكم حول الجسد فإشارة إلى الدرع الروحى الذى توحى به الآية الواردة فى **أفسس** ٦/ ١٤ - ١٧ .

٥٥٣ - "المكعب الأجوف" صورة للفضيلة الزائفة لأن التكعيب رمز الفضيلة (انظر الحاشية على ٣٩٩ و ٥٥٠ من هذا الكتاب) والتجويف رمز الخلو من الإيمان .

٥٦٠ - ٥٦٢ تعبير "قلب مفتوح" يتضمن تورية لأنه يشير فى الحقيقة إلى الجبهة العريضة للفيلق المتقدم ويوحى فى الوقت نفسه بالمعنى الحديث (الإستعارى) . وميلتون يستغل هذه التورية أيضًا فى البيت ٥٦٢ حين يتحدث عن المبادرة باعتبار أنها فاتحة Overture أى فتح المفاوضات من أجل التسوية (المعنى الثالث فى **قاموس أكسفورد**) بينما توحى الكلمة فى الوقت نفسه بفتحة المدفع الواردة فى البيت ٤٨٥ (وهو أحد معانيها فى اللغة) والفُوَّهة الواسعة البشعة فى البيت ٥٧٧ - (المعنى الأول فى قاموس أكسفورد) .

٥٦٩ - ٥٧٠ هذه حيلة شائعة من حيل الحرب فى ذلك العصر .

٥٧٢ - كان لكل مدفع ثلاث "مواسير" تطلق قذائفها مرة واحدة شأن المدافع التى كانت شائعة فى القرن السابع عشر وبخاصة فى حصار المدن .

٥٧٢ - ٥٧٨ إذا كانت التشكيلات الحربية للشياطين "جوفاء" - لأن المكعب الأجوف رمز للفضيلة الزائفة - الحاشية على ٥٥٢ - فالمدافع أيضًا تتكون من أعمدة جوفاء - لأن العمود كان هو الآخر رمزًا للفضيلة .

٥٨٦ - ٥٨٩ يعلق (فاولر) على التشبيه بجسد الإنسان وصور الفحش المرتبطة بالشياطين فى هذه الأبيات قائلاً إن لها سندًا فى الفنون التشكيلية المعاصرة التى تصور الشياطين فى أبشع صورة .

٦٣٥ - انظر عبارة **فيرجيل فى الإنيادة** ١/ ١٥٠ Furor arma ministrat أى أن الغضب يزود الغاضب بالسلاح - وكثير من مترجمى **الإنيادة** يستخدمون نفس ألفاظ ميلتون فى هذا البيت .

٦٣٩ - ٦٦٦ انظر الكتاب الأول (٢٣٠ - ٢٣٧) حيث التشبيه :

**... مثل بركان تثيره قوى**
**الرياح الحبيسة فى باطن الأرض ، فتنقل التل من مكانه**
**وتنتزعه من جبل (بلوروس) أو مثل السفح الذى مزقه**
**بركان (إتنا) الراعد ، فاشتعلت**
**أحشاؤه بوقود جبار سرى فيه الضرام**
**وفارت فيه المعادن فغدت أبخرةً تندفع مع الريح**
**وخلفت القاع محترقًا ، يغلفه**
**الدخان ...**

أو تشبيه إبليس بجبل انتزع من مكانه فى الأبيات ١٩٥ - ١٩٨ من هذا الكتاب . وتعرض الباحثة (إيزابيل ماكافرى) فى كتابها **الفردوس المفقود باعتبارها أسطورة** كيمبريدج - ماساتشوستس ١٩٥٩ لهذه الصور قائلة إنها ترمز لحالة الفوضى والعماء التى انتهت عند خلق الكون ولكنها حالة يمكن أن تعود نتيجة لانسياق الإنسان وراء إبليس . وهذه الصور الشعرية - ومنها الصورة الواردة هنا - مستقاة من التراث الكلاسيكى وخاصة الحرب التى شنها العماليق (وأحد أسمائهم يعنى - اشتقاقًا - أنهم أبناء الأرض) ضد (زيوس) أو (جوبيتر) رب الأرباب - (انظر **موجز الأساطير اليونانية** ٥٦ - ٥٩) ففى هذه الحرب استخدم العماليق التلال والصخور والأشجار أسلحة يقذفونها على الأرباب ، وفى النهاية ظل الكثير منهم مدفونا فى الأرض فأصبحوا البراكين الحالية - انظر الأبيات ١٩٧ - ٢٠٠ من الكتاب الأول والحاشية عليها .

٦٦٤ - ٦٦٧ ترجع صعوبة تصور هذا المشهد إلى ضخامته البالغة .

٦٧٣ - "مجرى الأمور" هو المعنى الثانى للعبارة الأصلية **sum of things** أما المعنى الأول فى رأى الشراح فهو "حال الكون" استنادًا إلى العبارة اللاتينية الموازية **Summatum summa** الواردة فى (لوكريشيوس) . ولكننى فضلت المعنى الثانى لتلاؤمه مع السياق .

٦٨٠ - ٦٨٢ انظر **الرسالة إلى العبرانيين** ١/ ٣ "بهاء مجده ورسم جوهره" **وكولوسى** ١/ ١٥ "الذى هو صورة الله غير المنظور" .

٦٨٤ - "القدير الثانى" عبارة تتضمن تناقضا فى رأى الشراح - مثل التناقض فى البيت ٦٨١ "تشاهد فى وجهه المحجوب" .

٦٨٩ - انتقد البروفسور (كريستوفر ريكس) فى كتابه : **أسلوب ميلتون الرفيع** (صـ ١٩) كلمة "تعرف" فى هذا البيت (كما انتقدها (جون بيتر) فى كتابة **نقد الفردوس المفقود** - لندن - ١٩٦٠ - صـ ١٣) استنادًا إلى أن "الابن عالم بكل شىء . ولكن الترجمة العربية توضح مرمى ميلتون - فهو لا يقول

فى النص ''اعلم'' ولكن ''وأنت تعرف'' thou knowest ويعنى بها - كـما فى الترجـمة - ''كما تعرف'' . ومرد الصعوبة هنا هو نسبة الكلام إلى الله سبحانه وتعالى .

٧٠٠ - ٧٠٩ يقيم (إمبسـون) حجته فى كتابه الذى أكثـرنا من الإشارة إليه فى هذه الحواشى وهو **الله عند ميلتون** - لندن - ١٩٦١ - ص ٤١ - ٤٢ على أن الله يؤخر هزيمة إبـليس حتى لا يكشف له مدى قدرته سبحانه وتعالى فهو يـمد له فى الأمل ولا ينهى الحرب إلا فى اليوم الثالث عامدًا . ولكن هذه الأبيات العشـرة توضح أن مقصد ميلتون غـير ذلك : فهو يريد لإبليس أن يتبـين الفارق بين قوة الله التى يهبها للمسيح وبين قوة مخلوقاته من الملائكة . ولهذا السبب يتجاهل إبليس تمامًا أحداث اليوم الثالث من أيام الحرب فى روايته للموقعة فى الكتاب الأول .

٧٠٨ - انظر الكتاب الخامس ٧٢٠ **والعبرانيين** ١/ ٢ .

٧١٢ - ''عُدَّتى'' فى الأصل ''عُدَّة الحرب'' ولو أن ميلتون يحذف ''العُدَّة'' ويذكر الحـرب فقط - وهى حيلة بلاغية سرعان ما شاعت فى اللغة الإنجليزية .

٧٢٠ - ٧٢١ انظـر **كورنثوس الثانية** ٤/ ٦ ''الله الذى قـال أن يشرق نور من ظـلمة هو الذى أشـرق فى قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله فى وجه يسوع المسيح'' .

٧٢٤ - ٧٣٤ انظر **إنجيل يوحنا** ١٧/ ١ - ٢٣ **وإنجيل متى** ٣/ ١٧ .

٧٣١ - ٧٣٢ انظر الحاشية على الأبيات ٣٣٩ - ٣٤٣ من الكتاب الثالث **وكورنثوس الأولى** ١٥/ ٢٤ ، ٢٨ '' وبعد ذلك النهاية متى سلم الملك لله الآب مـتى أبطل كل رياسة وكل سلطان وكل قوة . . ومتى أخضع له الـكل فحينئـذ الابن نفسـه أيضًا سيـخضع للذى أخـضع له الكل كى يكون الله الكل فى الكل'' .

٧٣١ - ٧٣٢ انظر **المزمور** ١٣٩/ ٢١ ''ألا أبغض مبغضيك يا رب وأمقت مقاوميك ؟'' .

٧٣٨ - هذا هو النقيض للوعد الذى وعد به المسيح ''فى بيت أبى منازل كثيـرة وإلا فإنى قد قلت لكم . أنا أمضى لأعد لكم مكانا'' ( **إنجيل يوحنا** ١٤/ ٢ ) .

٧٣٩ - انظر البيت ٤٨ من الكتاب الأول الذى يستلهم الآية الواردة فى **رسالة بطرس الثانية** ''الله لم يشفق على ملائكـة قد أخطأوا بل فى سلاسل الـظلام طرحهم'' (٢/ ٤) - وانظـر **يهوذا**/ ٦ ''والملائكة الذين لم يحفظوا رياسـتهم بل تركوا مسـكنهم حفظهم الله إلى دينونة اليوم العظيم بقـيود أبدية تحت الظلام'' - **وإنجيل مرقس** حيث توصف الجحيم بأنها ''جهنم النار، حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ'' (٩/ ٤٣ - ٤٤) .

٧٤٩ - ٧٥٩ يقول (فاولر) إن هذه هى الصورة الرئيسية فى القصيـدة التى أعد لها ميلتون ومهد لها الطريق بالعديـد من الصور الفرعـية والإشـارات الرمزية مثـل عربة إبليس الزائفـة (الأبيات ١٠٠ - ١٠٣ و ٣٣٨) وصورة الملائكة الكبار السبعة أصحاب العربة الكونية ، وغير ذلك من الإشارات إليها وغيرها

من العربات (الكتاب الأول ٣١١ ، الثانى ٨٨٧ ، الثالث ٣٩٤، ٥٢٢ ، الرابع ٢١١، ٣٥٨، ٣٩٠، ٧١١) - ويقارن (فاولر) بين معالجة ميلتون لهذه العربة ومعالجة الرسامين والأدباء لها فى عصر النهضة قائلاً إنها تتسم بالغموض والروحانية حتى ولو كانت تفاصيلها توحى بغير ذلك . أما المصدر الذى استقى منه ميلتون هذه الصورة فهو **حزقيال** ١/ ٤ - ٦، ١٦، ٢٦ - ٢٨، ١٠/ ١٢، ١٦) وقد أجمع الشراح على أن هذه الآيات تمثل مشهداً كونيًا يلعب فيه الرقم ٤ دوراً أساسيًا فهو عدد العناصر، وفصول السنة إلخ - وأيضًا عدد الفضائل الكبرى ، ولكن ميلتون يضيف إلى الصورة الواردة فى **حزقيال** ذكر النجوم.

٧٦١ - انظر الحاشية على البيت ٥٩٨ من الكتاب الثالث و (الأوريم) صخر شمسى . وانظر الحاشية على الأبيات ٦٩٦ - ٥٩٧ من الكتاب الثالث حيث تفصيل القول فى مغزى درع هارون .

٧٦٢ - ٧٦٤ كان العقاب "طائر جوبيتر" ومن ثم كان رمزًا للجلال الملكى وكان يصور أحيانًا جاثما عند أقدام "النصر" (وكان النصر هو الآخر مجنحا) . ولكن ميلتون يجمع بين الاستعارتين فى صورة واحدة حين يجعل للنصر أجنحة عقاب .

٧٦٤ - "يهوه" فى الكتاب المقدس له سهامه الراعدة ، ولكن ميلتون يشير أيضًا إلى رعود (جوبيتر) فى حربه ضد العماليق - انظر الحاشية على الأبيات ٦٣٩ - ٦٦٦ من هذا الكتاب .

٧٦٥ - انظر **المزمور** الثامن عشر ٨ "صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه" .

٧٦٧ - انظر **رؤيا يوحنا** ٥/ ١١ "ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش والحيوانات والشيوخ وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف" . وربما لاحظ القارىء أن ميلتون عادة ما يشير إلى أعداد الفسقة دون تحديد فهو يسميها "حُشوداً" (انظر "حشود المارقين" فى البيت ٣١ من هذا الكتاب) ولكنه يشير إلى أعداد الملائكة الأخيار بأرقام تمثل العشرة ومضاعفاتها - (مثلاً فى الكتاب الخامس - البيت ٥٨٨) لأن العشرة كانت فى التراث القديم رمزًا للوحدة - وفكرة الوحدة من الأفكار الأساسية فى تفكير ميلتون الدينى - فالوحدة قدسية لأنها ترمز لوحدانية الله ولذلك يبدأ روفائيل حديثه إلى آدم قائلاً "القهار واحد" الكتاب الخامس ٤٦٩ - بعد أن أشار من قبل إلى "رب السموات الواحد" (الخامس ٤٠٣) ويتكرر ذكر الوحدة فى القصيدة باعتبارها ثيمة أساسية "متحدين مثل نفس واحدة لا تتجزأ" (الخامس ٦١٠) وهلم جرا . وقد خصص (فاولر) فى كتابه **سبنسر وأرقام الزمن** لندن ١٩٦٤ - عدة صفحات للحديث عن أصل فكرة التقابل بين وحدة الحق وتعدد الباطل ، وهو ينسبها إلى (فيثاغورس) بصفة أساسية (ص ٥ و ٧) - ولكن ألا يمكن أن يكون لها أصل دينى لا علاقة له بذلك الفيلسوف اليونانى ؟ أما كلمة "ملاك" فهى saint فى الأصل التى شاعت ترجمتها بـ "قديس" - ولكن ميلتون يستخدمها للدلالة على الملائكة فى مواضع كثيرة باعتبار أن تقديس الله أخص صفة من صفات الملائكة - وربما كان يعنى بها " الملائكة المصطفين" - انظر الأبيات ٤٧، ٣٧٤ - ٣٧٥ من الكتاب الخامس والبيت ٣٣٠ من الكتاب الثالث حيث تعنى "المصطفين" فحسب - وكان هذا المعنى شائعًا فى القرن السابع عشر .

٧٦٩ - انظر **المزمور** ٦٨/ ١٧ "مركباتُ الله ربَوات ُألوفٍ مكررة . الرب فيها . سينا فى القدس" .

٧٧١ - انظر **المزمور** الثامن عشر/ ١٠ "ركب على كروب (شاروبيم) وطار وهف على أجنحة الرياح" .

٧٧٢ - انظر **حزقيال** ١/ ٢٦ "وفوق المقبب الذى على رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق" - وصحته "الياقوت الأزرق" . أما السماء البلّورية فهى التى تلى "سماء النجوم" .

٧٧٦ - إشارة إلى النبوءة الواردة فى **إنجيل متى** ٢٤/ ٣٠ "وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان فى السماء وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتيًا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير " .

٧٨٨ - يحاكى ميلتون هنا عبارة فيرجيل الشهيرة فى **الإنيادة** (١/ ١٠) التى يتعجب فيها من نقمة (جونو) التى يسميها "ملكة السماء" قائلاً : Tantaene animis Caelestibus irae ? أى "أنَّى لأرواح السماء بمثل هذا الحقد !" - وقد ترجمها (جاكسون نايت) فى طبعة ١٩٥٦ (لندن) **للإنيادة هكذا** "يصعب أن نصدق أن أرباب السماء قادرون على مثل هذا الحقد" (ص ٢٧) من طبعة Penguin Classics .

٧٨٩ - ٧٩١ إشارة إلى سفر **الخروج** ١٤/ ٤ حيث لم تفلح آيات موسى عليه السلام فى إقناع فرعون بل زادت قلبه غلظة .

٨٠١ - انظر **سفر الخروج** ١٤/ ١٣ حيث يطلب موسى عليه السلام من بنى إسرائيل أن يقفوا ساكنين ويشهدوا هزيمة عدوهم .

٨٠٨ - يعلق (فاولر) على هذا البيت قائلاً إن الإعتقاد بأن القصاص من الخاطئين حق إلهى لا يفوضه البارىء إلا لمن يصطفيه يستند إلى الكتاب المقدس (**تثنية** ٣٢/ ٣٥ ، **المزمور**٦٤/ ١ ، **رومية** ١٢/ ١٩، **العبرانيين** ١٠/ ٣٠) .

٨٠٩ - ٨١٠ انظر الحاشية ٧٦٧ : فالعصاة هنا لا يواجهون حشود المؤمنين الحاشدة بل المسيح وحده (البيت ٨٢٠) - ولما كان "الواحد" ليس عددًا - لأن الوحدانية لا عدد فيها بل هى مصدر وأصل الأعداد فهو أقوى من الأعداد التى ترمز للتفكك والشقاق .

٨١٥ - انظر **إنجيل متى** ٦/ ١٣ "لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد" .

٨٢٧ - "الأربعة" هم "الأربعة فى صورة الشاروبيم" المشار إليهم فى البيت ٧٥٣ من هذا الكتاب ، (والبيت ٧٥٥) يقول ميلتون إن أجنحتهم كانت لها عيون - استنادًا إلى ما جاء فى **حزقيال** ١٠/ ١٢ "وأجنحتها ملآنة عيونًا" - أما قوله هنا إنها مرصعة بالنجوم فلا سند له من الكتاب المقدس أو كتابات السلف ، وربما كان ميلتون يريد أن يؤكد الصورة الكونية لموكب المسيح . انظر الحاشية على الأبيات ٧٤٩ - ٧٥٩ من هذا الكتاب .

٨٢٨ - ''فالتصقت'' استناداً إلى ما جاء فى **حزقيال** من أن أجنحة ملائكة الشاروبيم الذين يحركون العربة متصلة ''وأجنحتها متصلة الواحدة بأخيه'' (١/ ٩) .

٨٣٠ - انظر **حزقيال ١/ ٢٤** ''فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة صوت ضجة كصوت جيش'' .

٨٣١ - قارن زحف الشاروبيم فى **حزقيال** : ''وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهه . إلى حيث تكون الروح لتسير تسير . لم تدر عند سيرها'' (١/ ١٢) .

٨٣٣ - ٨٣٤ هذا ينفى دعوى إبليس الباطلة **فى** البيت ١٠٥ من الكتاب الأول ''زلزلت عرشه'' - وقول ميلتون يستند إلى **إشعياء ١٣/ ١٢ - ١٣** ''وأجعل الرجل أعز من الذهب الإبريز والإنسان أعز من ذهب أوفير . لذلك أزلزل السموات وتتزعزع الأرض من مكانها فى سخط رب الجنود وفى يوم حمو غضبه'' .

٨٣٦ - ''عشرة آلاف'' - انظر الحاشية على البيت ٧٦٧ من هذا الكتاب ، وانظر تفسير ''السهم الراعد'' فى الحاشية على البيت ٧٦٤ من هذا الكتاب أيضًا .

٨٣٨ - ربما كان ''الطاعون'' يعنى هنا ''الضربات أو الجروح'' وهو المعنى المشتق من الكلمة اللاتينية كما يفسرها **قاموس أكسفورد الكبير** (المعنى الأول) ولها سند من **سفر التكوين ١٢/ ١٧** ''فضرب الرب فرعون ضربات عظيمة'' - **وخروج ٣٢/ ٣٥** ولكن المعنى الشائع وهو حلول غضب الله والآلام العاصرة الناجمة عنه أقرب إلى روح النص . ولا يمكن استبعاد الإشارة الثانوية إلى ''الطاعون'' الذى أصاب قوم فرعون وذلك بسبب الإشارة الخفية إلى موسى عليه السلام فى البيت ٨٠١ من هذا الكتاب - وسفر **الخروج** حافل بالإشارات إلى معانيه المختلفة - مثلاً ٧/ ١٢ ، ١٤ - ٢٥ ، ٨/ ١ - ١٥ ، ١٦ - ١٩، ٢٠، ٩/ ١ - ٧، ٨ - ١٢، ١٨ - ٣٤ ، ١٠/ ١ - ٢٠ ، ٢١ - ٢٣ .

٨٤٢ - هنا إشارة إلى **رؤيا يوحنا اللاهوتى** ''وملوك الأرض والعظماء والأغنياء . . . أخفوا أنفسهم فى المغاير وفى صخور الجبال وهم يقولون للجبال والصخور أسقطى علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم'' ١٥ - ١٧ .

٨٤٥ - انظر **رؤيا حزقيال** للعجلات ''ولكل واحد أربعة أوجه . الوجه الأول وجه كروب (شاروبيم) والوجه الثانى وجه إنسان والثالث وجه أسد والرابع وجه نسر'' (١٠/ ١٤) - لاحظ أن الترجمة العربية للكتاب المقدس تسمى العجلات ''بكرات'' .

٨٤٦ - العجلات ذوات العيون المشار إليها فى **حزقيال** ١٠/ ١٢ (انظر ''الأجنحة ذات العيون'' فى الحاشية على ٨٢٧ من هذا الكتاب) هى كائنات حية وإن لم تكن من طبقات الملائكة - ومِن ثَمَّ نص على ذلك ''لأن فيها روح الحيوان'' (١٠/ ١٧) فى نفس السفر - وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن ملائكة الشاروبيم كانوا هم أنفسهم ''عجلات حية'' ومن ثم فلا غرابة فى تعبير ''عيون العجلات'' . ولكن ميلتون يعتمد اعتماداً كاملاً على نص **حزقيال** ولا يقول إن الشاروبيم أنفسهم عجلات .

٨٥٨ - ''ذاهلين صعقين'' - حرفيًا ''كمن أصابته الصاعقة فأذهلته'' - والكلمتان موجودتان فى القرآن الكريم ''**تذهل كل مرضعة عما أرضعت**'' سورة الحج/ ٢) - ''**وخر موسى صعقا**'' الأعراف/ ٣٣ وخاصة ارتباط الصاعقة بيوم الحساب الزمر/ ٦٨ والطور/ ٤٥ - ولما كان ميلتون يقصد المعنى الحرفى للصاعقة إلى جانب المعنى المجازى فقد أضفت ''ذاهلين'' إلى النص العربى .

٨٥٩ - يجمع ميلتون هنا بين آيتين من آيات الكتاب المقدس الأولى واردة فى **سفر أيوب** وهى ''**أهوال الله** مصطفة ضدى'' ٦/ ٤ والثانية فى **إشعياء** ''بنوك قد أعيوا . . الملآنون من غضب الرب من زجرة إلهك'' (٥١/ ٢٠) أما ''النقمة'' فتوحى فى الأصل الإنجليزى بمعنى ''الإنتقام'' أو ''ربات الإنتقام'' فى الأدب اليونانى والتى شاعت ترجمتها ''ربات القصاص'' .

٨٧٤ - انظر الكتاب الثانى حيث يخبر العماء إبليس أنه رأى وسمع الملائكة الفسقة أثناء سقوطهم وقد اختلطت صفوفهم وارتبكت ٩٩٥ وما بعده .

٨٧٥ - انظر **إشعياء** ٥/ ١٤ ''لذلك وسعت الهاوية نفسها وفغرت فاها بلا حد ، فينزل بهاؤها وجمهورها وضجيجها والمبتهج فيها'' .

٨٧٦ - ٨٧٧ انظر **إنجيل مرقس** ٩/ ٤٣ ''خير لك أن تدخل الحياة أَقْطَعَ من أن تكون لك يدان وتمضى إلى جهنم إلى النار التى لا تطفأ'' .

٨٨٠ - ٨٨٣ انظر الكتاب الأول ١٦٩ - ١٧١ والكتاب الثانى ٩٩٣ - ٩٩٧ حيث ترد رواية إبليس ورواية العماء على الترتيب لطرد الفسقة من السماء .

٨٨٦ - التغنى بالنصر من التقاليد الرومانية القديمة . ولكن هنا إشارة خفية إلى ''الصوت العظيم'' الذى يتغنى فى السماء بالنصر على ''الحية القديمة'' إبليس بعد أن طرد من السماء (**رؤيا يوحنا** ١٢/ ١٠).

# حواشى الكتاب السابع

١-٧ «يورانيا» كانت فى الأساطير القديمة «ربة» علم الفلك ، واسمها يعنى حرفيًا " السماوية" ، وميلتون لا يشير إلى هذا الاسم صراحة إلا فى مقدمة هذا الكتاب ، أى إنه لا يذكر اسمها هذا إلا هنا ، وإن كان يشير إلى استلهامها فى عدة مواضع ، والمعروف أن الطبعة الأولى من الملحمة كانت لا تفصل بين الكتابين السابع والثامن بل تعتبرهما كتابًا واحدًا (هو السابع) يتناول ميلتون فيه شئون الكون الكبير ومن ثم فقد أحس أنه يحتاج إلى معونة الربة السماوية لإمداده بالإلهام . والواقع أن تقاليد الشعراء فى عصر النهضة كانت تصر على استلهام ربة واحدة بدلاً من ربات الفنون التسع ، وكانت «يورانيا» هى المفضلة بسبب اسمها ، ويقول فاولر ، أهم شرّاح ميلتون ، إن الشاعر بذلك يؤكد الوحدة الإلهية وينكر التعدد الوثنى .

٤ - الجواد الطائر هو "بيجاسوس" الذى صورته الأساطير القديمة وكان يشار إليه باعتباره رمزًا للإلهام الشعرى .

٨-١٢ الإشارة هنا إلى سفر **الأمثال** فى الكتاب المقدس ، حيث يتضمن الأصحاح الثامن آيات صريحة عن وجود الحكمة منذ الأزل . سالرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم . منذ الأزل . . . إذ لم يكن غمر أبدئت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت» (٢٢-٢٤/ ٢٥) وأما كلمة «لهوت» فهى من الترجمة اللاتينية الشعبية للكتاب المقدس حيث تحل كلمة (Ludens) محل الكلمة الأصلية الدالة على الفرح والسرور باليونانية ، وهى الموجودة فى الآية ٣٠ من الأصحاح نفسه سكنت عنده صانعًا وكنت كل يوم لذته فرحة دائمًا قدامه» وأما دلالة الحكمة فقد اختلف حولها النقاد ، وإن كان الجمهور على أنها مشيئة الله التى تتمثل أحيانًا فى الكلمة **Logos** وهى قوة الخلق التى يرمز لها المسيح فى هذا الكتاب ، وأحيانًا فى أسرار الله التى يخفيها عن البشر ، وهى فى ذاتها قوةٌ تماثل إن لم تكن تطابق قوة «الروح» (جبريل) ودراسات التسعينيات من القرن العشرين تجعلهما قوة واحدة ، فالمحدثون ينفرون من التقسيمات التى وضعها شراح العصور الوسطى وينزعون إلى ربط القوى الإلهية بعضها بالبعض .

١٣- «المجازفة» المشار إليها سببها الاعتقاد الشائع آنذاك أن هواء «السماء الدنيا» مهلك للبشر ، ولذلك فالشاعر يجازف فى طيرانه مجتازًا هذه الأصقاع .

١٦- المقصود بالوطن أو بالموطن هو الأرض .

١٧-٢٠ عندما حاول «بيلروفون» فى الأساطير أن يطير إلى السماء ممتطيًا صهوة الجواد «بيجاسوس» أرسل «جوبيتر» رب الأرباب الأسطورى حشرة جعلت تقرص أو تلدغ الجواد حتى يلقى براكبه من على ظهره . ويقول ـ رواة الأساطير إن «بيلروفون» سقط فى حقل الضياع (حقل «إليا») وظل يتجول وحيدًا مكفوف البصر حتى وافته المنية .

٢١- معنى البيت أن ما بقى من الملحمة هو النصف ، وهو التقسيم الأول الذى يفصل بين الكتب الستة الأولى والكتب الستة الأخيرة .

٢٢- يريد ميلتون التفرقة بين اليوم الأرضى وأيام الله سبحانه .

٢٥-٢٨ يقول الشراح إن ميلتون يشير من طرف خفىّ إلى ما كان يواجهه من صعوبات فى أيام الاضطهاد التى تلت عودة الملكية وانهيار حكم «كرومويل» والبيوريتانيين .

٢٨- «ظلام العين» يشير إلى فقدان البصر الذى كان ميلتون يكابده آنذاك .

٢٩-٣٠ يشير شراح ميلتون إلى أنه كان يؤلف القصيدة ليلاً أو فى الساعات الأولى من الصباح ، وكان يقضى الليالى ساهدًا ، ثم ينادى على ابنته لإملائها ما كتب ، والكلمات ترجع صدى آيات **المزامير** «جرّبت قلبى تعهدته ليلاً» (١٧/٣) .

٣٤- المقصود هو «أورفيوس» الذى كان يعتبر بصفة عامة رمزًا للشاعر الملهم ، ولكن الإشارة إليه هنا تعتبر ملائمة بصفة خاصة بسبب العزلة التى كان يعيش فيها ، وإشارة ميلتون إلى أنه قتل على أيدى النساء أثناء الاحتفالات الماجنة برب الخمر «باخوس» تتضمن إعرابًا دفينًا عن مخاوفه من «النظام الحاكم» آنذاك .

٣٥- «رودوبيا» هو اسم سلسلة جبال فى «تراقيا» أو «تيراقيا» .

٣٧- القيثار المشار إليه هو الذى منحه «أبولّو» أو «ميركورى» إلى «أورفيوس» .

٣٩- الربة العاجزة هى «كاليوبى» والدة «أورفيوس» ولذلك كانت تعتبر حلمًا خاويًا .

٦١- «دون أن يذنب» (yet sinless) تعنى فى الواقع «ولا لوم عليه» أى إنه لا يلام على محاولة الاستزادة من العلم «الطبيعى» ، وهذا يعتبر فى رأى فاولر ردًا على من يتهمون ميلتون بمعاداة العلوم الطبيعية .

٦٦-٦٩ على غرار ما يشتاق «دانتى» إلى المزيد من المعرفة من «فيرجيل» (**المطهر** ١٨/٤) وأما تصوير الرغبة فى المعرفة فى صورة عطش وتعطش إلى نبع الحكمة (**fons sapientiae**) فيرجع إلى تفاسير آباء الكنيسة وتعليقاتهم على آيات **المزمور الثانى والأربعين** «كما يشتاق الأيّل إلى جداول المياه. . . عطشت نفسى إلى الله» . (٤٢/١-٢) .

٧٩- انظر **سفر الجامعة** ١٢/١٣ «اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله» ويقول بعض الشراح إن قراء ميلتون آنذاك ربما دهشوا من إيراده هذه الإشارة لأن أول سؤال وجواب فى المجموعة الكنسية التى وضعها كالفن هما «ما هى الغاية الأولى والرئيسية لحياة الإنسان ؟ - أن يعرف الله»

٩٦- انظر سفر **أيوب** «اذكر أن تعظّم عمله» (٣٦/ ٢٤) ويقول الشراح إن آدم كان يخشى أن يكون بذلك قد طلب «المعرفة المحرمة» وهذا هو سر الحذر الذى يبديه فى حديثه .

٩٨-١٠٠ طلب مواصلة السرد من التقاليد الراسخة فى الملاحم الكلاسيكية (هوميروس - **الأوديسا** - ١١/ ٣٧٢-٢٧٦) .

١٠٨- فعل المطاوعة «تنصرف» يدل فى رأى النقاد على كياسة آدم وحسن تصرفه أو لباقته ، فهو لا يقول إننى سوف أصرفك بل يوحى بأن الملاك سوف يصرفه **الانتهاءُ** من القصة ، ومن ثم فالفعل بالعربية «محايد» .

١٢٢-١٢٣ الإشارة إلى **تيموثاوس الأولى** ١/ ١٧ «وملك الدهور الذى لا يفنى ولا يُرى ، الإله الحكيم وحده له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور» .

١٢٤- الإشارة إلى **إنجيل متى** ٢٤/ ٣٦ «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبى وحده» .

١٣٢- كانت كلمة «لوسيفر» (المشتقة من اللاتينية ***lux-lucis*** بمعنى الضوء) هى الاسم الذى كان يطلق فى غابر الأزمان على كوكب «فينوس» أو الزُّهَرَة حين تكون فى موقع «نجم الصباح» ، وكان ذلك اسم إبليس قبل العصيان ، أما عن الروابط الرمزية بين إبليس ونجم الصباح فقد تعرض لها روفائيل تفصيلاً فى مقدمة حديثه فى الكتاب الخامس ٧٠٠-٧١٤ .

١٣٥- الإشارة إلى سفر **أعمال الرسل** ١/ ٢٥ «.. التى تعدّاها يهوذا ليذهب إلى مكانه» .

١٤٤- الإشار إلى سفر **أيوب** ٧/ ٩-١٠ «السحاب يضمحل ويزول . هكذا الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد . لا يرجع بعدُ إلى بيته ولا يعرفه مكانه بعد» .

١٦٣-١٦٤ يقول فاولر «إن إيمان ميلتون بالوحدانية (الأريوسية) لم يجعله يشك فى الدور المنوط بالمسح باعتباره '**الكلمة**' (لوغوس) وفق مذهب الأفلاطونية الجديدة ، أى الوسيلة المستخدمة فى الخلق ، دون أن يعنى ذلك أنه خُلق بصفة خاصة قبل باقي ما خلق الله» . ص ٧٨٤ ويشير فاولر إلى الآيات الأولى من **إنجيل يوحنا** «فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان فى البدء عند الله . كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان» . (١/ ١-٣) ويقول ميلتون فى كتاب **عن العقيدة المسيحية** (١/ ٧) «إن الخلق هو العمل الذى أخرج إلى الوجود كل ما هو موجود بكلمته وروحه» . ويقول فاولر معلقًا على كلمة الروح فى السطر ١٦٥ قائلاً «إن ميلتون يعنى إرادة الله ، أو طاقته الإلهية» . والواقع أن إرتباط الكلمة بالإرادة واضح من السياق ، وكذلك إرتباط الخلق - من ثَمّ - بالإرادة . وفكرة «يُظِلُّ كل شىء» قديمة وراسخة، وتؤكد معنى القوة أو الطاقة الإلهية ، إذ يقول **إنجيل لوقا** «قوة العلىّ تظلّك» (١/ ٣٥) ويقول سفر **التكوين** «وروح الله يرفُّ على وجه المياه» (١/ ٢) ويقول الشرّاح إن الترجمات الأولى

للكتاب المقدس من اليونانية كانت تربط الكلمة بالقوة أو بالروح لا بروح القدس أو بجبريل (جبرئيل - الكلمة التى تعنى اشتقاقًا جبروت الله أو قوته). والفكرة على ما يبدو من تعقيدها بسيطة فى القصيدة ، وهى تستند إلى تراث كامل من الفكر الدينى .

١٧٣- حاول إبليس فى الجحيم (انظر الكتاب الأول السطرين ١١٦-١١٧) أن يعزو ما حدث له إلى القدر ، مثل الرواقيين ، ولكن ميلتون يقول هنا إنه لا يوجد 'قدر' آخر سوى إرادة الله .

١٧٦-١٧٩ المعني المضمر فى كلام روفائيل هو أن ما رواه من الخلق سوف يصبح «أسطورة» بمعنى القصة **المسطورة** التى يتناقلها الخلف عن السلف ويختصمون فيها ، شأنها فى ذلك شأن روايته للحرب بين الملائكة والشياطين (انظر الكتاب الخامس ٥٧١-٥٧٦) وأما عن موضوع الخلْق الفورى («كنْ فيكون») فلقد أوضحت تفاسير الكتاب المقدس المستندة إلى مذهب القديس أوغسطينوس أن الستة أيام ما هى إلا تقريب لأذهان البشر عما خلقه الله فى لحظة واحدة .

١٩٣- «الحرف» هو **الكلمة** (أنظر السطر ٢٠٨) **والروح** (٢٠٩) ويشير إليه ميلتون أحيانًا باسم «**الابن**» (١٩٣) أو «**المولى**» أى **الرب** (٢٠٥) ويصر شراح ميلتون على إنكار وجود كيانات مستقلة تشير إليها هذه الألفاظ ، ومن أهم مفكرى العصر الحديث (عصر النهضة) الذين شرحوا مقاصد البارىء فى الخلق «فرانسيس بيكون» الذى كان قد كتب فى كتابه **تقدم المعرفة** يقول إن الله خلق الوجود **بالقوة**، وخلق معانى الموجودات **بالحكمة** ، كأنما ليميز بين اسمين من الأسماء الحسنى لله جل وعلا وهما القوىُّ والحكيمُ ، باعتبارها من الصفات العلوية التى لابد أن تشير إلى مصدر واحد ، وكان بهذا يمهّد للتفريق بين قوة اللحظة التى توجد الشىء من العدم ، وحكمة الأيام الستة التى تضفى المعنى على الموجودات . ويقول بعض النقاد إن ميلتون قد استفاد من هذه الاجتهادات فى القصيدة الحالية .

٢٠٥-٢٠٨ الإشارة إلى **المزامير** (٢٤/٧-٨) «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن ، وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد . من هو هذا ملك المجد .. الرب القدير الجبار» .

٢١٠-٢١٥ الإشارة إلى **المزامير** (٢٤/١-٢) «للرب الأرض وملؤها . المسكونة وكل الساكنين فيها . لأنه على البحار أسسها وعلى الأنهار ثبَّتها» .

٢٢٥-٢٣٠ فكرة البناء الإلهى على أسس هندسية ترجع أول الأمر إلى **سفر الأمثال** : سلما ثَبَّتَ السموات كنتُ هناك أنا . لما رسم دائرة على وجه الغمر» (٨/٢٧) وكلمة الدائرة نفسها واردة فى السطر ٢٢٨، والمعنى مجرد ، ولكن مفسرى الكتاب المقدس حولوا جهاز القياس المجرد إلى جهاز مادى كالفرجار (البرجل) . والصورة كما يقول النقاد تتضمن عناصر بشرية إذ تنسب إلى الله فنون الهندسة المعمارية.

٢٣٥- الإشارة إلى **سفر التكوين** (١/٢) «وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يَرِفُّ على وجه المياه» .

٢٤٣-٢٤٩ ميلتـون هنا يضيف تفصـيلات إلى ما سبـق أن قاله فـى الكتاب الثـالث عن نشأة النور فى السطور ٨-١٢ ، والإشارة هى إلى **سفر التكوين** «وقال الله ليكن نور فكان نور» (١/ ٣) .

٢٤٩-٢٥٢ الإشارة إلى **سفر التكوين** «ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارًا والظلمـة دعاها ليلاً . وكان مـساء وكان صباح يـومًا واحدًا» (١/ ٤-٥) . الابتداء بالمساء فى حساب اليـوم من التقاليد الشرقية الموجودة فى اللغات السـامية كلها ، وهذا مهم فى حساب النظام الزمنى لأحداث القصيدة .

٢٥٦-٢٦٠ الإشارة إلى **سفر أيوب** «حين أَسسْتُ الأرض . . . تَرَنَّمَتْ كواكب الصبح معًا وهتف جميع بنى الله» (٣٨/ ٧٢٤) أما أول مساء فى الخلق فهو المـساء الذى يبدأ به اليوم الرابع عشر لأحداث القصيدة.

٢٦١-٢٦٩ الإشارة إلى **سفر التكوين** «وقال الله ليكن جَلَدٌ فى وسط المـياه . وليكن فاصلاً بيـن مياه ومياه. فعـمل الله الجَلَدَ وفصـل بين الميـاه التى تحت الجَلَدِ والميـاه التى فوق الـجَلَدِ . وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء» . (١/ ٦-٨) .

٢٨٣-٢٩١ الإشارة إلى **سفـر التكوين** (١/ ٩-١٠) «وقال الله لتـجتمع المـياه تحت السـماء إلى مكان واحد ولتظهـر اليابسة . وكان كـذلك . ودعا الله اليابسة أرضًا . ومـجتمع الميـاه دعاه بحارًا» . **والمزامير** (١٠٤/ ٦-٨) «كسوتها الغمر كثوب . فوق الجبال تقف المياه . من إنتهارك تهرب من صوت رعدك تفر ، تصعد إلى الجبال . تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذى أسسته لها» .

٢٩٦- العبارة بين القوسين يقصد ميلتون بهـا الرد على تهمة خلط الأزمان إذ كان يتوقع إتهامه بذلك ، ولكنه بهذه الإشارة يدعو القارىء إلى توّخى الدقة وأخذ حساباته الزمنية مأخذ الجد .

٣٠٧-٣١٣ الإشارة إلى **سفر التكوين** (١/ ١٠-١١) «ودعا الله الياسبة أرضًا ومجتمع المياه دعاه بحارًا، ورأى الله ذلك أنه حسن . وقال الله لتنبت الأرض عشبًا وبقلاً يبزر بزرًا وشجرًا ذا ثمر يعمل ثمرًا كجنسه بزره فيه على الأرض وكان كذلك» .

٣٣١-٣٣٤ الإشارة إلى **سفر التكوين** (٢/ ٥-٦) «الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض . ولا كان إنسان ليعمل الأرض ، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض» .

٣٣٩-٣٤٥ الإشارة إلى **سفر التكوين** (١/ ١٤-١٥) «وقال الله لتكن أنوار فى جَلَدِ السماء لـتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين . وتكون أنوارًا فى جَلَد السماء لتنير على الأرض» .

٣٤٦-٣٥٤ الإشارة إلى **سفر التكوين** (١/ ١٦-١٧) «فعمل الله النورين العظيـمين . النور الأكبر لحكم النهـار والنور الأصغـر لحكم الليل ، والنجوم، وجـعلها الله فى جَلَدِ السـماء لتنيـر على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة» .

٣٧٤-٣٧٥ الإشارة إلى **سفر أيوب** (٣٨/ ٣١) «هل تربط أنت عقد الثريـا أو تفك رُبُطَ الجبار» . يقول أحد الشراح إن الفجر يسـبق الشمس حقًا ، فى الحركة الظاهرية اليوميـة ، ولكن كوكبة الثريا لا تسبق الشـمس لأنها فى برج الثور ، وقد كـانت فى هذا البرج أيضًا قبل سقـوط آدم وحواء ، أما الآن - فى إبان الخلق الأول - فـالشمس فى برج الحـمل ، البرج الذى يسبـق برج الثور ، لأن الخلق وفقًا لما يقـوله ميلتون كان فى الاعتدال الربيـعى (انظر الكتاب الثالث ٥٥٥-٥٦١) وهكذا فإن الثريا ترقص قبل الشمس هنا بمعنى أنها تسبقها فى حركتها السنوية فى دائرة البروج ، وينتهى الشارح إلى القول بأن ميلتون يمهد بذلك لوقوع فصول السنة .

٣٨٧-٣٩٨ الإشارة إلى **سفر التكوين** (١/ ٢٠-٢٢) «(٢٠) وقال الله لِتَفِضِ الميـاهُ زحافات ذاتَ نفس حـية وليطر طيـر الأرض على وجـه جَلَد السمـاء . (٢١) فخلق الله الـتنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحيـة الدبابة التى فاضت بهـا المياه كأجـناسها وكل طائر ذى جناح كـجنسه . ورأى الله ذلك أنه حسن (٢٢) وباركها الله قـائلاً أثمرى وأكثرى واملإى المياه فى البـحار وليكثر الطير على الأرض» والنص الشعبى اللاتينى للكتاب المقدس يورد الآية (٢٠) كما يلى :

***producant aquae reptile animae viventis, Tremellius reptilia animantia***

٤٢٣-٤٤٦ يقول فاولر «إن الطيور السبعة المشار إليهـا ترمز جميعًا إلى فضائل محددة ، وسوف يلاحظ القارىء أن ميلتون يلفت النظر مرارًا وتكرارًا إلى تلك الصفات الرمزية منها» .

٤٢٣-٤٣٠ يأتى ذكر العُقاب أولاً باعتبارها سيدة الطيور ، وربما كانت العقاب ترمز إلى الرشاقة الإلهية أو الكرم الإنسانى أو الجلال البشرى أو السـمو الفكرى - بل وحتى إلى التَنَوُّر الروحى (ويتفق فى هذا ثلاثة من كبار النقاد) والإشارة إلى **سفر أيوب** «من فهمك يستقل العقاب وينشر جناحيه نحو الجنوب؟ أو بأمـرك يحلق ويعلى وكره ، ويسكن الـصخر ويبـيت على سِنِّ الصـخر والمـعقل ؟ (٣٩/ ٢٦-٢٨). وأمّا اللَّقْلَقُ ، فكان رمـزًا للعدالة النزيهـة ، وللامتنان بالجمـيل ، وورع الأبناء وبرّهم والديهم ، وبعدائه للثعبان (ويتفق فى هذا ناقـدان) . وعادةُ بناء وكره فى ذُرا أشجار السرو كانت تـرمز إلى مقـصد الحـياة الإلهـية *animus divinus intentus* وهـما يمـثلان الطبقـتين الفرعـيتين للطيـور ، الأولى هى التى تطير وحدها أى مـتفرقـة والثانية هى الطيـور التى تطير فى جمـاعات أو تشكيلات مـجتمعـة ، وهكذا شاعت عن العقـبان صفـة العزلة وعن اللقالق صـفة الانضباط الحربى. وأما عن معرفته مواعيد رحيله ، ففيه إشارة إلى آية من **سفر إرميا** (٨/ ٧) «بل اللقلق فى السموات يعرف ميعـاده واليمامة والسنونة المزقزقة حفظتا وقت مجيـئهما» ، والترجمة العربية التى لدىّ للكتاب المقدس تحذف من هذا النص الإشارة إلى الكُرْكىّ crane أو الغُرْنوق، وهى الإشارة الواردة فى جميع الطبعات الإنجليزية للكتاب المقدس .

٤٣٠-٤٣٢ الكُرْكِىّ العاقل أو الـحصيف رمـز للاجتهـاد واليقظة ، وهو ينتـمي مثل اللقلق إلى الطبـقة الفرعية للطيور التى تطير فى تشكيلات مجتمعة .

٤٣٤- الأجنحة المخضّبة أى الملونة بالخضاب من الصور التـقليدية الكلاسيكية، وهى محاكاة لما جاء فى **الإنيادة** إذ يشير إليها فيرجيل ***(pictae volucres)*** فى **الفقرة** التى تسبق انتحار «ديدو» مباشرة (٤/ ٥٢٥) .

٤٣٥-٤٣٦ البلبل يرد ذكـره فى مواقع أخـرى كـثيـرة فى الملحمـة (٣/ ٢٨-٤٠ ، ٤/ ٦٠٢-٦٠٤ ، و٦٤٨، و ٥/ ٤٠، و ٨/ ٥١٨-٥٢٠) ويشير إليه ميلتون فى قصيدة **المفكر** (الحزين) واصفًا إياه بأنه «أعذب الطيور لحنًا وشجنًا» (السطور ٦٢) ويقول أحد النقاد إن ميلتون جعله رمزًا له لأنه كان يغنى فى الظلام، وإن كان النقـاد الآخرون يشيرون إلى شـيوع الإشارة إلى البلبل فى شـعر القرن السابع عشر.

٤٣٨- كان طائر التَّمّ ، أو الإوزّ العراقى (Swan) ، الذى كثيـرًا ما يخلط الناس هنا بينه وبين البـجعة (pelican) رمزًا للشعر والموسيقى أيضًا ، مثل البـلبل ، وكثيرًا ما كان يرمز إلى نقاء الروح (هل بسبب لونه الأبيض الصافى ورقته ؟) .

٤٥٠-٤٥٨ الإشارة إلى **سفر التكوين** (١/ ٢٤) «وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفـس حية كجنس ، بهائم ودبابات ووحوش أرض كجنسها وكان كذلك» .

٤٧١- الإشارة إلى **سفر أيوب** (٤٠/ ١٥) «هو ذا بَهِيمُوثُ الذى صنعته معك» وكلمة سبهيموث» (Be-hemoth) مشـتقة من العـبرية (b'hémóth) وقد درج علمـاء اللغة على إرجـاعها إلـى الكلمة المصرية الـقديمة (p–ehe–mau) التى تعنى «ثور الماء» ، ولكن الهامش الوارد فـى الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس يقول «إنه إما الفيل أو فرس النهر» ، ويتضح من السطر ٤٧٤ الذى ترد فيـه كلمة «فرس النهر» صـراحة (river horse) أن ميلتـون كان يعنى بالأول «الفـيل» ، وهو ما أخذنا به فى الترجمة .

٤٧٦- فصيلة الديدان تضم الأفـاعى بشتى أنواعها ، وجـميع أنواع الدود الصغير ومـا يمثل أطوار نمو الحشرات المختلفة .

٤٨٤- يرجع أحد النقاد فكرة الحيات ذوات الأجنحة إلى آية وردت فى الكتاب المقدس وهى «الثعبان السام الطيّار» (**إشعـياء** / ٣٠/ ٦) والنص الانجليزى مـختلف بعض الشىء وهو (fiery flying serpent) ولكن الناقد ألن Allen يرجع أصولها إلى حقائق علمية ، ويستشهد بالمؤرخ هيرودوت، والواقع أن علماء الحيوان المحدثين يخصصون رتبة حـيوانية خاصة لبعض أنواع الزواحف ذات الأجنحة واسمها العلمى (pterodactyl) وقد تكون قد عرفت فى الزمان القديم وانقرض معظم أفرادها .

٤٨٥- «النملة» تعني أنواع النمل ، وميلتون يشير إليها بلفظ emmet وهى الكلمة القديمة التي لم تعد تستـعمل إلا فى تعبـير emmet–hunter وهو طائر «النوّانية» (wry–neck) الذى يتغـذى على

النمل، ويقول أحد الشراح إن ميلتون أخذها من ترجمة شعبية قديمة للكتاب المقدس حيث ترد فى سفر **الأمثال** «النمل طائفة غير قوية ولكنه يعد طعامه فى الصيف» (٣٠/ ٢٥). «إذهب إلى النملة أيها الكسلان» (**أمثال** /٦/٦) وبالانجليزية القديمة (Goe to the emmote o slug-gard).

٤٨٧- يقول روفائيل «ربما» إما **لأنه** يظهر عدم اليقين فيما سوف يقع من أحداث ، وإما للإيحاء بعدم الاطمئنان إلى نتائج الحكم الجمهورى . والمعروف أن حياة النمل كانت تعتبر نموذجًا للديموقراطية في ظل الجمهورية، وترجع ناقدةٌ هذه الفكرة إلى أرسطو .

٤٩٥-٤٩٨ مجيء ذكر الثعبان أخيرًا قد يكون من قبيل المصادفة من وجهة نظر روفائيل ، ولكن ميلتون يقصده . والإشارة واضحة إلى سفر التكوين ٣/ ١ «وكانت الحية أَحْيَلَ حيوانات البرية التى عملها الرب الإله» .

٤٩٧- «لبدة من الشعر الكثيف المخيف» إشارة إلى وصف فيرجل للثعبان الذى قتل اللاوكون : *iubaeque sanguinae superant undas* ويقول أحد العلماء إن كلمة **iuba** قد تعنى اللبدة أو العرف ، ولكننا نعرف أن الثعابين التى ساهمت مساهمة كبرى فى تدمير طروادة كانت لها لبد من الشعر الكثيف المخيف ! .

٥٠٢-٥٠٣ يتضمن هذان البيتان ضربًا بلاغيًا قديمًا يوازى اللّف والنشر (versus rapportati) بالعربية وهما :

air, water, earth,

By fowl, fish, beast, was flown, was swam, was walked

Frequent

أما الترجمة الحالية وهى :

ففى الهواء وفى الماء وفوق الثرى

تطير الطيور وتسبح الأسماك وتمشى الحيوانات

بأعداد كبيرة

فهى لا تنقل الضرب البلاغى . ويمكن أن يكون على النحو التالى :

فالطيور والأسماك والحيوانات

فى الهواء وفى الماء وفوق الثرى ، تطير وتسبح وتمشى

بأعداد كبيرة

ولكن التزامى بموازاة الأبيات الانجليزية والعربية بعضها بالبعض جعلنى أضحى بهذا الضرب البلاغى، وهو نادر في العربية على أى حال ، ومثاله من صفى الدين الحلى :

وجدى حنينى أنينى فكرتى ولهى  منهمْ إليهمْ عليهمْ فيهمْ بهمُ

والتكلّف واضح ولا شك . والنموذج المعروف فى شيكسبير هو الوارد فى مسرحية **هاملت** الفصل الثالث ، المشهد الأول ، البيت ١٦٠ :

The courtier's, soldier's, scholar's, eye, tongue, sword.

(أى عين رجل البلاط وسيف الجندى ولسان العالم !) وإن كان المعنى يختلف باختلاف المفسرين، فالجمهور ينسب إضافة العين واللسان والسيف إلى الثلاثة جميعًا ! .

بل إن بعضهم يوزع الإضافة توزيعًا مختلفًا ، وليس هذا ما قصد إليه ميلتون .

٥١٩-٥٢٣ الإشارة إلى **سفر التكوين** (١/٢٦) «وقال الله نعمل البشر على صورتنا كشبهنا . فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض» .

٥٢٤-٥٢٨ الإشارة إلى **سفر التكوين** (٢/٧) «وجعل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حيوة . . فصار آدم نفسًا حية» .

٥٢٦-٥٢٨ الإشارة إلى **العبرانيين** (١/٣) «الذى وهو بهاءُ مجده ورَسمُ جوهره وحاملٌ كلَّ الأشياءِ بكلمة قدرته . . . تطهيرًا لخطايانا» .

٥٢٩-٥٣٠ الإشارة إلى **سفرالتكوين** (١/٢٧) «فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم» .

٥٣٠-٥٣٤ الإشارة إلى **سفر التكوين** (١/٢٨) «وباركه الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» .

٥٣٥-٥٣٨ الإشارة إلى **سفر التكوين** (٢/٨ ، ١٥) «وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقًا ووضع هناك آدم الذى جبله» . . «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها» .

٥٣٩-٥٤١ الإشارة إلى **سفر التكوين** (٢/٥) «وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل» .

٥٦٥-٥٦٧ الإشارة إلى **المزامير** (٢٤/٧) «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد» .

٥٧٥-٥٨١ 'الأبواب النارية' (blazing portals) عبارة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بمجرة درب التّبانة (٥٧٩) فى هذا السياق مما جعل النقاد يقطعون بأن الجمع يقصد به المثنى ، أى أنهما البابان اللذان يحدان مسار الشمس (Portals of the Sun) ومن ثم تكون الصفة («النارية» أو «الملتهبة») إشارة إلى تعامد الشمس ، الذى يولد أقصى وقدة للقيظ ، على مدار السرطان ومدار الجدى ، ومن ثم

يكون البابان هما باب السرطان وباب الجدى ، والشمس لا تستطيع فى حركتها الظاهرية تجاوز هذين البابين ، فعندما تصل إلى باب السرطان وتتعامد عليه تجده مغلقًا فتضطر إلى العودة إلى الجنوب حيث تتعامد على مدار الجدى فتجد الباب مغلقًا أيضًا فتضطر للعودة من حيث جاءت ، ولذلك أطلق عليهما هذا الاسم . وكان فلاسفة الطبيعة يعتقدون أن الأرواح تدخل وتخرج من هذين البابين في طريقها من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء ، ولما كان الله هو خالق كل شىء ، ولما كان قد قدر إغلاق البابين فى وجه الشمس ، فإنه يمر منهما فى طريق الصعود للعرش تنبيهًا للمخلوقات وإشعارًا لهم بقدرته اللامتناهية ويذهب بعض النقاد إلى إقامة علاقة رمزية بين الشمس باعتبارها نورًا خالصًا وبين الخالق نور السموات والأرض .

٦٢٢-٦٢٣ عبارة «ولكنك تعرف مواقيتها» وردت هكذا فى الأصل .

but thou know'st / their seasons

وقد اختلف الشراح فى تفسيرها ، فالوجه الأول هو :

you know whether their seasons are compatible with
habitation

أى

وأنت تعرف ما إذا كانت الفصول / الأوقات فيها ملائمة للسكنى (أى للحياة البشرية)

والوجه التالى هو :

you know the seasons when they are
destined for habitation

أى

وأنت تعرف الأزمنة / الأوقات التي قدر لها أن تصبح معمورة فيها

وأشار بعد النقاد إلى أن ميلتون كان يحيل أقوال روفائيل إلى ما ورد فى سفر أعمال الرسل (١/ ٧) وهو :

It is not for you to know the times or the seasons
which the Father hath put in his own power

وترجمتها المعتمدة هى :

«ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة أو الأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه»

والإشارة واضحة ولا شك ، ولما كانت كلمة seasons قد ترجمت بالأوقات هنا فقد رجحت الوجه الثانى للتأويل ، وعليه ترجمت العبارة .

# حواشي الكتاب الثامن

١-٤ كان الكتابان السابع والثامن كتابًا واحدًا فى الطبعة الأولى هو السابع ، على نحو ما ألمحنا إليه فى حاشية الأبيات الأولى (١-٧) من الكتاب السابع. وكان السطر الرابع فى هذا الكتاب ، الذى يقابل السطر ٦٤١ فى الكتاب السابع هو «وأجابه آدم بامتنان قائلاً» . ويقول الشراح إن السطور الثلاثة الأولى فى الكتاب الثامن قد أضيفت ، على الأرجح ، لتبرير الوقفة القصيرة (التى يشير إليها ميلتون بعبارة «برهة يسيرة») بين الكتابين .

٣ - «ظل ثابتًا فى مكانه» عبارة تؤكد استمرار تقاليد الملحمة الكلاسيكية ، إذ جرت العادة على أن يظل الجمهور فى مكانه طالبًا مواصلة القصة بعد الاستطرادات التى تتميز بها كل ملحمة كلاسيكية ، والجمهور واقع فى قبضة سحر الراوى . فهذا يحدث فى **الأوديسا** - فى مطلع الكتاب الثالث عشر وفى السطور ٥١٢-٥١٦ فى مطلع الكتاب الأول من ملحمة « **الأرجونوتيكا**» (أو ملاحو السفينة أرجو) وربما كان ميلتون يحاكى السطور الخمسة الأخيرة فى الملحمة الأخيرة حيث يوصف الجمهور بانبهاره وصمته بعد إنشاد «أورفيوس» نشيد الخلق ، لقهر مشاعر الصراع والتناحر لدى الجمهور .

١٥-٣٨ يعرض آدم على روفائيل جوهر المشكلة التى عرضتها عليه حواء فى الكتاب الرابع فى السطر ٦٥٧ وما بعده ، وإن كان يزيد من طابعها المجرد ومن تعميم النظر إليها ، وكانت من المشكلات الشائعة لدى الاسكولائيين (رجال المدارس الكنسية) وكان ميلتون قد تطرق إليها فى عمل سابق . أطلق عليه اسم «الدراسة التمهيدية» أو **(Prolusion)** وفيه يقول إنه يستبعد أن تكون السماوات قد خلقت لا لسبب إلا لنفع البشر ماديًا أى فى حياتهم المادية ، ويرجح أن الله قد خلقها حتى يتفكر فيها الإنسان ويتدبر مظاهر إعجازها ، ومن ثم يزداد إيمان ذوى الألباب بروعة الخلق وإعجاز الخالق .

٤٥-٤٧ تصوير تجاوب الزهور مع حواء يرفعها إلى مصاف «فينوس» ربة الحب والجمال ، على نحو ما تصورها الآداب الكلاسيكية ، وهو يؤكد هذه الصورة فى الكتاب نفسه فى السطور الخمسة من ٥٩-٦٣ .

٤٨-٥٦ الواضح أن ميلتون أراد لحواء أن تخرج من المكان تمهيدًا لما ينتويه آدم من الحديث عن علاقتها به بعد الزواج ، وهو يذكر هنا أنها لا تخرج بسبب عزوفها أو عجزها عن التأملات الفلسفية العميقة ، فالمرأة فى هذا صنو الرجل ، ولكنه يشير أيضًا من طرف خفى إلى الآية التى وردت فى **كورنثوس الأولى** (١٤/ ٣٤-٣٥) وهى «لتصمت نساؤكم فى الكنائس . . ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فَلْيَسْأَلْنَ رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة» .

٥٩-٦٣ «الحاشية» المشار إليها من «آيات الجاذبية الخلابة» تعادل «ربات الرشاقة الخلابة» اللائى كن يحففن بفينوس فى التقاليد الكلاسيكية ، وهو يلمح إلى وجودهن أكثر من مرة ، فى البيت ٤٦

والذى يليه ، وفى الكتاب الخامس فى السطر ٣٨١ .

٦٧-٦٩ استعارة «كتاب الله» ذات أصول لاهوتية ، ولكنهـا تحولت إلى العالم الدنيوى في عهد ميلتون بعد الدرسات الفلكية وانطلاق عصر العلم ، وإن لم تفقـد دلالتها الدينية ، وهو السياق الحالى . وكثيرًا ما كان الكُتّاب حتى عصر ميلتون يشيرون إلى بعض الحيوانات والمخلوقات الواردة فى هذا الكتاب باعتبارها صفحات مهمة «فى كتاب الله» .

٦٩- انظر الأبيات ٣٤٠-٣٥٢ من الكتاب السابع ، والآية الواردة فى سفر **التكوين** (١/ ١٤) «وقال الله لتكن أنوار فى جَلَد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين» .

٧١-٨٤ ذهب بعض النقاد إلى أن ميلتون كان يفصح هنا عن عـدائه لمكتشفات علم الفلك فى عصره ، ولكن نقادًا آخرين ردوا عليهم ردًا مفحمًا وهو أن النص الشعرى يهاجم الذين يفرضون التقسيمات الحسابية والرياضية والهندسية فرضًا ثم يكتشفون عدم دقتها فيفترضون غيرها ، أى إنه كان يهاجم الشكوك التى تكتنف العلم الطبيعى لا العلم نفسه ، وقال آخرون إنه كان يؤمن بالنسبية فيما يتعلق بقضية مركز الكون ، وحركة الأجرام السمـاوية ، بما فيها الأرض ، وهى التى كان يدعو لها أحد علماء ذلك العصر واسمـه «نيقولا قوصا» Nicholas of Cusa فى كتاب كتبـه قبل إقدام ميلتون على تأمل هذه المسائل بفترة طويلة ، وإن لم يترجم إلى الانجليزية إلا عام ١٩٥٤ . ويقول فاولر إنه يرجح تأثر ميلتون به .

٨٢- المقصود «بتفـسير الظواهر» - وهو تعبير اسكولائى - «محاولة التـوفيق بين الحقائق الظاهرة وبين بعض النظريات التى يختلفـون معها فيمـا يبدو» وقد تنجح المحاولة وقـد تخفق ، وعلماء الكلام دائمًا ما يحاولون ذلك ، ومحاولة التوفيق بين العلم والدين قديمة ، والتعبير نفسه موجود فى أحد مقالات «فـرانسيس بيكون» ( **المقالات** - ١٦٢٥) إذ يقول فى مـقال بعنوان «عن الخـرافات» إن «علماء الفلك لدينا يبتدعون الدوائر الخارجـة وأشكال الإهليلج ، ومبتكرات المسارات الفلكية ، **تفسيرًا للظواهر** ، مع علمهم بعدم وجود مثل هذه الأشكال الهندسية» . وقد خصص أحد العلماء الألمان دراسة كاملة لهذا الموضوع نشرت فى مجلة **أنجليا** عام ١٩٣٨ .

٨٣- «الدوائر المنتظمـة والمنبعجـة» تعبيـر مستـقى من علم الفلك فى عصر مـيلتون ، فـعلماء الفلك اكتشفـوا أن الكواكب تسير فى مسارات دائرية بعضـها كامل الاستدارة وبعضهـا بيضىّ (بيضاوى) ومن ثم ابتدعـوا أشكالاً متفـاوتة من الدوائر ، وتعددت هذه الأشكال حتى وصـلت عند كوبرنيق Copernicus إلى أربعة وثلاثين شكلاً للدائرة .

٩٠-٩١ يقول أحد النقاد إن فصل روفائيل بين الضخامة وشدة الضوء وبين الامتياز يرجع إلى سُلّم القيم التصاعـدية فى القصيدة وفى أعمـال ميلتون كلها ، ويقارن بـين هذه الأبيات والأبيات الواردة فى الكتاب السادس ٨٢٠-٨٢٣ حيث يناقش ميلتون صُوَرَ الامتياز .

٩١-٩٢ تذكرنا هذه الحجة بما ورد فى مسرحية **الدكتور فاوستوس** من تأليف كريستوفر مارلو ، حيث يقول فى السطر ٦٢٠ إن السماوات صُنِعَتْ من أجل الإنسان ، ومن ثم فإن الإنسان أشد امتيازًا منها» .

١٠٢- الإشارة إلى سفر أيوب «أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبر إن كان عندك فهم ! من وضع قياسها ، لأنك تعلم . أو من مد عليها مطمارًا ؟» (٣٨/ ٤-٥) .

١١٠- «سرعة تكاد تكون روحية» - انظر البيت ٣٧ من الكتاب نفسه ، فالواقع أن نسبة «الروحية» إلى السرعة تعتمد على العقيدة القديمة التى شاعت فى العصور الوسطى ومفادها أن الأفلاك تتحرك بفعل أرواح أو قوى ذهنية مجردة . ويحيلنا أحد النقاد إلى تعليق «فيكينو» علي ما قاله أفلوطين فى «إنياداته» (٢/ ١-٣) من تشبيه حركة السماوات بحركة الروح أثناء التفكير .

١١٤-١١٨ يقول فاولر : سيفاجئنا روفائيل بتغيير الوجهة التى كان يسير فيها فيتنصل من النظرة البطلمية. والتناقض صارخ بين محاورات الملائكة في شعر ميلتون ومحاوراتها فى شعر الآخرين ولنقل فى شعر مارلو . فالشيطان فى مسرحية الدكتور فاوستوس (٦٥٣-٦٨٧) يختار بجهامة صورة العالم التقليدية . أما روفائيل هنا فهو مستقل التفكير ، مشير للتأمل ، سريع البديهة ، يدعو القارىء إلى إعمال ذهنه فيما يقرأ» . والمقصود بالنظرة «البطلمية» صورة العالم التي وضعها الجغرافى بطليموس.

١١٧-١٢٢ يقول النقاد إن مراوغة روفائيل تبين الصعوبة التى لابد أن ميلتون قد واجهها في إصدار قرار حاسم باعتماد صورة محددة لعالم الأفلاك من بين الصور العديدة المطروحة فى عصره . وتتجلى هذه الحيرة فى الصياغة ، وفى الترجمة !

١٢٨- الكواكب الستة هى : زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وكان الفلكيون منذ كوبرنيق Copernicus يناقشون مسألة اعتبار الأرض أو الشمس كوكبًا سابعًا .

١٣٠- «ثلاثة أنواع مختلفة من الحركات» - المقصود بها الحركات التى نسبها كوبرنيق إلى الأرض وأولاها الدورة اليومية حول نفسها ، والثانية هى الدورة السنوية حول الشمس والثالثة هى الدورة المفترضة للمحور وكان يسميها «الحركة المائلة» قائلاً إن معنى الأخيرة هو أن «محور الأرض يدور بما يقدر بمسطح مخروط كامل فى [نحو] عام ، ويتحرك هكذا فى عكس اتجاه مركز الأرض» . وقد قال كوبرنيق بهذا ، فيما يذكر أحد المفسرين ، تبريرًا للحقيقة المؤكدة وهى أن محور الأرض دائمًا ما يواجه البقعة ذاتها فى السماء ، على الرغم من الدورة السنوية للأرض . ولكن فلكيًا آخر يُدعى «تاكوبراهى» استطاع أن يثبت فيما بعد أنه لا لزوم لافتراض هذه «الحركة المائلة» ، ثالث أنواع الحركات التى قال بها كوبرنيق .

١٣١-١٣٢ المعني المنثور هو «إذا لم تنسب الحركة إلى الأرض ، فعليك إن شئت تفسير الظواهر أن تفترض أن عدة كواكب تسير فى مدارات أو أفلاك متقاطعة متعارضة يدخل بعضها فى بعض» . والترجمة تلتزم بالأصل على عُسر صياغته .

١٣٤- هذا السطر يقدم الترجمة الحرفية على غموضها للنص الانجليزى . والشراح يسهبون فى إيضاح المقصود «بالانحراف» ، فالكلمة الانجليزية وهى rhomb مشتقة من اليونانية ρόμβos

(رومبوس) التـــى تعنى «الـعجلة السحرية» والتى تشيـر إلى ما كان القدماء يتصـورونه من محرك أول (primum mobile) أو فلك عاشر يدور دورة يومية (وفقًا للصورة القروسطية للنظام الكوكبى أو مجموعة الكواكب) ، حول الأرض بسرعة لا تكاد تـصدق ، حاملاً معه الأفلاك الداخلية التى تدور فيـها النجوم والكواكـب . ولكن كلمة ' رومبوس' تعنى أيضًا أى شكل مـستطيل مـحدب الأطراف كالبيضة الطويلة ، ووفقًا للنظام الجغرافى الذى وضعه بطليموس كان ضوء الشمس على نصف الأرض يصـوّر فى صـورة مـثلث وكـذلك منطقـة الظل على الجـانب الآخـر المظلم من الأرض، وكـان تعاقب النور والظـل مع انحراف المـحور يـجعل الشكل بيـضـيًا يدور كالعـجلة السريعة، كأنما يدور حول نفسه بسرعة فائقة ودائمة ليلاً ونهارًا ، وهكذا فإن معنى «سرعة الدوران بانحراف» تعنى تعاقب الضوء والظلام فى شكل مائل بيضىّ ، ومن ثم تبارى النقاد فى الدفاع عن دقة تعبير ميلتون ، وإن كنت ، كما قلت، أراه غامضًا .

١٤٠-١٤٥ يورد فاولر رأيا أعرب عنه بيرتون فى كتابه «تشريح الحسن» (جـ٢/ فـ٢ / ص٣) يقول فيه «إذا كانت الأرض تتحـرك فهى كوكب ، وهـى ترسل ضوءها إليهم فى القمـر ، وإلى غيرها من سكان الكواكب، مثلمـا يرسل القمر ضـوءه إلينا على الأرض ، والأرض تسطع بالتأكـيد ، على نحـو ما أثبـته جـاليليو وكـبلر وغيـرهما ، وإذن يتـبع ذلك حـتمًا (per consequens) أن باقى الكواكب آهلة بالسكان وكذلك القمر». ويعلق فاولر على ذلك قـائلاً «إن هذه المقولة الغريبة التى يحذو فيها بيرتون حذو كبلر ، بقدر ما من الدقة ، تستند إلى الافتراض الذى يجعل الإنسان مركز الكون والذى يقول إنه لا معنى لوجود كواكب أو توابع تسطع إلا إذا كانت تسطع من أجل الإنسان أو من أجل كائنات شـبيهة بالإنسـان . وكبلر يشاركه فى هذا الرأى آدم وحـواء (انظر الأبيات ٢٤ وما بعده، والكتاب الرابع السطر ٥٦٨) بل وروفائيل نفسه (الأبيات ١٥٣-١٥٨)» .

١٤٤-١٤٥ انظر البيت ٢٩٠ وما بعده من الكتاب الأول حيث يذكـر ميلتون أن جاليليو استطاع أن يرى أراضى جديدة أو أنهارًا جديدة أو جبالاً جديدة على سطح القمر المرقش .

١٤٥-١٤٦ كان الناس ينسبون مـا يلاحظه الفلكيون من تغيرات فى البقع على وجه القمـر إلى تغييرات فى جو القمر ، وإن كانت هذه التغيرات وهمية ، وقد تكون نتيجة فساد آلات الرصد .

١٤٨- ترجع إلى نيقولا قـوصا الفكرة القائلة بأن النجوم الثـابتة شموس لها كـواكبها التابعـة لها . وقد رفضها البعض (مثل كبلر) وقبلها البعض (مثل برونو) وكانت مثار خلاف كبير آنذاك .

١٥٠- يقول بلينوس فى كتـابه «التاريخ الطبيعى» إن الشـمس «نجم ذكر ، يشتعل لهيـبًا ويستوعب كل شىء» وإن القمر «كوكب أنثى رقـيق» وهو التمييز الجنسى القائم على الأسـاطير القديمة . ولكن روفائيل يحـاول إثبات أن ضـوء الشموس «خـاص بها» وأن نور الأقمـار أو الكواكب منعكس فى معظم الأحوال. (انظر السطر ٣٦٨ من الكتاب السابع) . وهكذا فإن هذه الفقرة ، وفقًا لما يقوله فاولر ، لهـا دلالتها فيـما يتعلق بتـعاليم روفائيل عن العـلاقة بين الجنسين فى الأبيـات ٥٦١ وما بعدها من هذا الكتاب ، ولكن فاولر يستطرد قائلاً : «ربما كان ميلتون يقصد إحالـة غـير مباشـرة

إلـى الاستـقطاب الغنوصـى الـذى يكـون «الضوء الذكر» فـيه ضوءًا ذهنيًا و «الضوء الأنثـى» فيه ضوءًا جسديًا» .

١٦٧- يقول بيردنْ إن نطاق محاولة روفائيل مع آدم تبيّن أن الفاكهـة المحرمة ليست المعرفة العلمية فى ذاتها ، بل إن المعرفة العلمية - شأنها فى ذلك شأن أى معرفة - قد تقع فى نطاق الفئة المحرمة.

١٦٨- الإشارة إلى **سفر الجـامعة** (١٢/١٣) : «فلنسمع ختام الأمـر كله . اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله» .

١٧٦- كان التفكير فى صورة الكائنات المفتـرض وجودها فى الكواكب الأخرى شائعًا فى تلك الفترة ، وكان كبلر يناقش درجـة عقلانية تلك الكائنات ، وإن كانت لهم نفوس تحـتاج إلى الخلاص وما إلى ذلك.

٢١٨- الإشارة إلى **المزامير** (٤٥/ ٢) «انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الأبد» .

٢٢١- برزت فكرة خلق ظاهر الإنسـان فى صورة الله أول مـرة فى أول وصف لآدم وحواء فى الكـتاب الرابـع فـى السطور ٢٨٩-٢٩٥ ، ولكـن ميلتون يوضح فى كتابه **عن العقيدة المسيحية** (ف ١ / ٧ ) أن «خلق آدم فى صورة إلهية كان يتعلق أساسًا بالروح التى نفخها فيه الله» (طبعة كولومبيا - ص ٢٥) .

٢٢٥- الإشارة إلى **رؤيا يوحنا اللاهوتى** (٢٢/٨-٩) «وأنا يوحنا الذى كان ينظر ويسـمع هذا ، وحين سرحت ونظرت خررت لأسجد أمام رِجْلَىْ الملاك الذى كان يرينى هذا ، فقال لى انظر لا تفعل. لأنى عبدٌ معك ومع إخوتك الأنبياء . . . اسجد لله» .

٢٢٩- هذا هو اليوم السادس من أيام الخلق ، واليوم التاسع عشر من أحداث القصيدة .

٢٤٢-٢٤٤ يحاكى ميلتـون هنا ما جاء فى **إنيادة** فيرجـيل (٦/ ٥٥٧-٩) وما جاد فى ملحمـة أريوستو بعنوان **غضبة أورلاندو** (٣٤/ ٤) فالصورة واحدة .

٢٤٦- «مساء اليـوم السابع» هو المساء الذى يبـدأ يوم العطلة فمساء اليـوم يبدأ قبل صبـاحه ، وما زلنا نقول **ليلة الجمعة** لنقصد «بعد غروب شمس الخميس» أى أن اليوم يبدأ بغروب الشمس .

٢٥٦- «الأبخرة المتصاعدة» تشير إلى الأبخرة المتصاعدة من الأرض كلها .

٢٦٥-٢٦٦ يناقش كريستوفر ريكس فى كتابه **الأسلوب الرفيع عند ميلتون (Milton's Grand style)** مسألة سيولة البناء والتركيب' (fluid syntax) ويدلّل على ذلك بهذا البيت وهو فى الأصل :

all things smiled,

With fragrance and with joy my heart o'erflowed.

وإن شئنا محاكاته بالعربية لتعذر ذلك ، ولكن لنحاول :

جميع الأشياء تبسمت

بالأريج وبالفرح فاض قلبى

ومصدر «السيولة» هو وجود فعلين يتنازعان أشباه الجمل ، ولذلك يحاول ريكس أن يعدل من وضع الفاصلة لإخراج معانٍ متعددة . أى إنك يمكن أن تقول إن تبسم الأشياء كان بسبب الأريج، وإن قلبى فاض بالفرح (إذا وضعت الفاصلة بعد الأريج) أو إن الأشياء تبسمت بالأريج والفرح ففاض قلبى [سرورًا] (إذا وضعت الفاصلة بعد الفرح) أو إن الأشياء تبسمت وحسب ، وإن قلبى فاض بالأريج والفرح (إذا أبقيت الفاصلة مكانها) وهو ما يذهب إليه فاولر ، وما ذهبنا إليه فى الترجمة (دون نقل الفاصلة من موضعها) .

٢٩٢- يقول النقاد إن «رؤية حلم واقفًا» ليست مجازًا مرسلاً بمعنى أنه رأى شخصًا فى حلمه واقفًا ، ولكن ميلتون يحاكى عبارة وردت فى **الإلياذة** هوميروس يعامل الحلم فيها معاملة الإنسان بتشخيصه (٢/ ١٦٥٨ وغيرها) وتعبير واقفًا . . رأسى» تكرار أو إحالة إلى الحلم الزائف الذى أرسله زيوس إلى أجاممنون فوقف عند رأسه (المرجع نفسه ٢/ ٢٠) .

٢٩٦- يقول **سفر التكوين** (٢/ ٨ و ٢/ ١٥) إن آدم خلق خارج الفردوس ثم وضع فيها بعد ذلك . وقد ترجمتُ كلمة mansion بالبيت فى ٢٩٦ ، والخلاف حول تحديد الفوارق بين البيت والمنزل محتدم فى ترجمة الكتاب المقدس ، وميلتون أحيانًا يستخدم تعبير dwelling place وهو تعبير محايد، ولكنه هنا يستخدم لفظة mansion مما يذكر القارىء بالترجمة المعتمدة لإنجيل يوحنا (١٤/ ٢) «فى بيت أبى منازل كثيرة . . . أنا أمضى لأعد لكم مكانًا» - وهى بالانجليزية :

(In my father's house are many mansions ... I go to prepare a place for you)

فهل كان الأفضل أن تكون بالعربية : فى منزل أبى بيوت كثيرة ؟ أما كلمة seat فى السطر ٢٩٩ فلا خلاف على ترجمتها بالمقر ، وأحيانًا ما تعنى العرش .

٣٠٨- كلمة إغراء هنا ذات معنى حسن ، وعلى أى حال فإن الله قد جعل جميع ثمار الجنة مغرية حتى لا تنفرد شجرة المعرفة بإغراء خاص .

٣١٦- وضع عبارة «إنى أنا» فى آخر السطر للتأكيد ، يشير من طرف خفى إلى المقابل فى سفر الخروج (٣/ ١٤) عندما أجاب الله موسى عن سؤاله عن اسمه قائلاً :

«I AM THAT I AM ... thus shalt thou say unto the children of Israel, I AM has sent me unto you.»

وترجمتها «أَهْيَهِ الذى أَهْيَهْ . وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل أَهْيَهْ أرسلنى إليكم» .

و «أَهْيَهُ» صورة من يَهْوَهُ ، والمتفق عليه أن معناها بالعبـرية أصلاً هو «أنا موجود» ، أو باختصار «إنى أنا» ، وليس هذا مجال تفصيل القول فى تحريم نطق اسم الله عند قوم موسى ، والاستعاضة عنه بحروف العلة (التى جمعتها لفظة 'أدوناى' فيما بعد) ولكن المهم هنا هو أن ميلتون يستند إلى التـرجـمة الانجـليزية لـلكتاب المـقـدس فى الإيحـاء بأن «إنى أنا» تعنى «المـوجـود» أو الله . و«الموجـود» بعدُ من الأسماء الحـسنى ، والقرآن يكرر «إنى أنا» لتأكـيد معنى الوجود (كـما فى سورة طه مثلاً) ولهذا اخترت هذه العبارة فى ترجمة I AM .

٣٢٠-٣٢٢ الإشارة إلى **سفـر التكوين** «وأخذ الرب الإلـه آدم ووضعـه فـى جـنة عـدن ليعمـلها ويحفـظهـا ، وأوصـى الـرب الإله آدم قائلاً من جـميع شجـر الجنّة تأكل أكلاً» (٢/ ١٥-١٦) وكلمة ستفلحها» (till) لا توجد فى الكتاب المقدس بل يستخدم النص الانجليزى كلمة (dress) أى تشذّبها وترعـاها ، ولا يستعمل الكتاب المـقدس كلمة ' الفلاحة' إلا بعد سقوط آدم وحواء (عقـابًا لهمـا) فوجود الـكلمة (work the land) أى يزرع الأرض ويفلحهـا ، وهو ما نراه فى الترجمة العربية المعتمدة .

٣٢٣-٣٣٣ الإشارة إلى **سفرالتكوين** (٢/ ١٧) «وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكلْ منها لأنك يومَ تأكلُ منها موتًا تموت» . وأما البيت سيُكتب عليك الفناء من ذلك اليوم» (٣٣١) فيتميز بدقة بالغة فى الصياغة ، إذ شغل الأقدمون بمسألة مـوت آدم أى كيف لم يمت هو وحواء بعد أن عصيا أمر الله ، وانبـرى المفـسرون فـوضعـوا ثلاث درجات للمـوت ، أولهـا هو الموت الروحى بمـعنى الإحسـاس بالذنب ، وثانيهـا هو الموت الجسـدى أى انفصال الروح عن الـجسد ، وثالثـها هو الموت الأبدى ، وقد رصـدها جميعًا ميلتـون فى كتابه **عن العقـيدة المسيـحية** . فأما الدرجتان الأوليان فعـرفهما آدم بعد أن اقـترف العصيان مـباشرة ، وهذا هو ما يصـوره الكتاب التاسع، فى البيت ١٠١٠ وما بعده ، ويقـبل ميلتون تفسير القديس جـيروم الذى يقول «إن آدم بدأ يموت فى اليوم نفسه ، ليس موتًا فعليًا ، بل لأنه أصبح محكومًا عليه بالفناء أى بالموت» . وكان المفسرون يقولون إنه لـولا خطيئة آدم لكتب له الخـلود . ويؤكد ميلتـون فى الكتاب المـذكور أن الله وضع حدودًا لحياة الإنسان بعد إرتكاب الخطيئة.

٣٤٣-٣٥٦ انظر الإشارات الأخـرى إلى تسمـية الحـيوانات فى ١/ ٢٧٦ ، ٦/ ٧٣-٧٦ ، و ٧/ ٤٩٣ ، وهذه الفقرة وتتضمن الأسباب الخمسة التى ذكرها ويليت (ص ٣٦) وموجزها ١- أن يرى الإنسان مدى تفوقه البالغ عليـها فيحمد الله على نعمائه ، ، ٢- أن يكون اختـبارًا لذكاء آدم ، فلقد علمه الأسماء كلها وهو يريد أن يعرف إن كان يذكرها ، ٣ - أن تنشأ اللغة البشرية التى نطقت بها هذه الأسماء ، ٤- أن يسيطر الإنسان على الحيـوانات كلها ، ٥- أن يدرك أنه لن يجد من بينها رفيقًا له - أى زوجًا مناسبًا . ولكن هذا الاهتمام بالأسماء كان له مـبرر فى عصر ميلتون ، عصر العلم الطبيـعى ، إذ شغل العلماء بتـقسيم المـملكة الحيوانيـة والمملكة النباتيـة ، وبحلول عام ١٦٨٢ استطاع عـالم يدعى جونْ راى أن يضع قـائمة تتـضمن ١٨٠٠٠ نوعٍ من النبـاتات . وهكذا فإن أسماء الحيوان وغيره كانت لها أهمية معاصـرة ، إذ كانت الطاقة على التسمية تعنى سعة المعرفة،

وهو المذهب الذى يبدو أنه يدين بالكثير إلى أفلاطون (**محاورات كراتيلوس**) مثلما يدين **لسفر التكوين** ، كما كـان للأسماء سحرهـا الخاص، فكان «فرانسيس بيكون» يقـول إن الإنسان سوف يستطيع «أستعادة السيطرة على المـخلوقات حين يستعيد القدرة على مناداتها بأسمائهـا الحقيقية . (**عن تفسير الطبيعة**) .

٣٥٠- «من كل زوجين اثنين» تذكر القارىء بسفينة نوح (**تكوين** ٧/ ٩) .

٣٧٣- كان المعـتقد أن آدم كان يستـطيع قبل السقوط أن يفهم لغـة الحيوان ، وكان المـفترض أن هذه كانت اللغة العبرية ، ولكن كان يشار إليها أحيانًا على أنها السريانية ، أو اليونانية أو الآرامية .

٣٨٤-٣٨٩ الاستعارة الموسـيقية تقوم على ضرورة التناغم الصادر عن الأوتار المـضبوطة وآدم يقول إن الإنسان منضبط والحيوان غير منضبط وهو ما يعنيه التناقض بين المشدود والمرتخى ، ويعلن أحد النقاد قـائلا إن فى ذلك مفـارقة ، فالإنســان هو الذى يثبت عدم انضـباطه وتراخـيه فى الواجب والطاعة لله آخر الأمر (لا الحيوان !) .

٣٩٨- يشير أحد النقـاد إلى أن الله سبحانه وتعالى يتظاهر بأنه لم يقرر خلق حواء حـتى لا يبدو خلقها محتومًا ، فلقد سبق له أن قضى بخلقها (أو اعتزم ذلك) وإن كان آدم لا يعرف .

٤٢٠- يقول كيلى Kelley (فى صفحة ١٢١) إن هذا السطر يدل على تأثر ميلتون بمذهب أريوس -Ar) ius (Apios أو Apieos باليونانية) وهو كـاهن مشيخى (presbyter) عاش فى الاسكندرية فى القرن الرابع للمـيلاد ، وكان يـنكر بنوة المسيح المـادية لله (جل وعلا) وقد أصـبح إنكار الصلة المادية (consubstantial) رمزًا لمـذهبه ، وإن كـان العامة يتـصورون أن المـذهب الذى أصبح يسمى «الأريوسية» (Arianism) يعنى إنكار أى علاقـة بينهما، مـما أثار رجال الكنيسـة عليه ، ويذهب فيريتى أيضًا إلى اتهام ميلتون «بالأريوسيّة» استنادًا إلى السطور ٤٠٥-٤٠٧ (أعلاه) ويقول فاولر إن مذهب التـوحيد وما يتصل بـه من مبادىء لاهوتية لا يتناقض مع القول بـالتثليث ، وقد عارضه البعـض استنادًا إلى طبيعة الشعـر التى تملى على الشاعر إتخاذ عدة مواقف ، مـنها ما قد يبدو متعارضًا مع غيره حتى داخل القصيدة نفسها .

٤٢١- يميل «محررو» وناشرو نصوص ميلتون إلى رصد التلاعب اللفظى بكلمة «عدد» أو «رقم» فى هذا السطر ، فكلمة numbers تعنى الأعـداد أو الأرقام ، ولكنـها تحـمل ظلاً من المـعنى اللاتينى القديـم وهو الأجزاء ، وهكذا يكون المطلق دائمًا واحـدًا مهـما تعـددت أجزاءه ، ويقـول فاولر «ولكن المـعنى الأولى هنا هو أن الإله الواحـد يتضـمن جمـيع الأعداد الأخـرى وهو مـن ثـم كامـل ويتمتع بالكمال (وهـو أحد معانى كلمة المطلق) باحتوائه عليها جـميعًا» . ويشرح بونجو (صفـحة ١٣ وما بعـدها) المقصـود بهذا قائلاً «إن الـوحدة الواحدة تشـبه الله لأنها أصل جـميع الأرقـام والله هـــو أصل الوجـود الذى خَلَقَهُ جَلَّ وعَلا» . وهو يتوسع فى بَيان هذا التـماثل بين الرقم واحـد والله قائلاً إن الإله واحـد لأنه يجمع كل شيء ولا حـاجة له بأى شيء، وهو يضم

العالـم والكـون لأنه صاحبه ، ويورد العبارة التى تـقول إننا حين نقول الواحد فإننا نعنى الشامل الكامل ولا نعنى الرقم أو الأرقام.

*Unus si dicatur, non numeri, sed universitatis est nomen.*

وقد استمر الجدل حول معنى 'الواحد' المقصود ، على وضوحه ، حـتى التسعينيات من القرن العشرين ، والغريب أن الكثيرين ينسون أو يتناسون أن هذه قصيدة ، وأن الشاعر يكتب شعرًا .

٤٣١- المقصود «بالتوحّد» وهو من مصطلحات اللاهوت (ثم التصوف) ، أن الله يستطيع رفع المخلوق أو «رفع نفس الإنسان إلى حالة تـتجاوز طبيعتهـا البشرية» عن طريق الغفران والرحـمة ، وهو ما يتمتع به القديسون الأبرار، أى أولياء الله الصالحون (كوركوران - ص ١٠٣) .

٤٤٥- الإشارة إلى الكتاب المقدس : «وقال الربُّ الإله ليس جيدًا أن يكون آدم وحده» (**تكوين** ٢/١٨) .

٤٤٨- الإشـارة إلـى الكتـاب المـقدس «مـمتـحن القلوب الرب» ( **أمثال** ١٧/٣) و «وإنما قـال هذا ليمتحنه» (**إنجيل يوحنا** ٦/٦) .

٤٥٠- «فأصنع له معـينًا نظيره» (**تكوين** ٢/١٨) والذات الأخرى هى **alter ego** ، وهو تعبـير يطلق على أقرب الأصدقاء .

٤٥٢-٤٨٦ الإشارة إلىسفر **التكوين** «فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام . فـأخذ واحدة من أضلاعه ومـلأ مكانهـا لحـمًا . وبنى الرب الإله الضلع التى أخـذها من آدم امـرأة وأحـضـرها إلى آدم» (٢/٢١-٢٢) .

٤٩٥-٤٩٩ الإشارة إلىسفر **التكوين** (٢/٢٣-٢٤) «فقـال آدم هـذه الآن عظـم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تـدعى امرأة لأنها من امـرءٍ أخذت . لذلك يتـرك الرجل أباه وأمه ويلتـصق بامرأته ويكونان جسدًا واحدًا» .

٥٠٨- الإشارة إلى **العبـرانيين** (١٣/٤) «ليكن الزواج مكرّمًا والمضـجع غير نجس ، وأمـا العاهرون والزناة فسيدينهم الله» .

٥١١- وقف الشراح طويلاً عند تعبير «حمرة الخجل» ظانّين أن فيه تناقضًا مع إصرار ميلتون على تكريم الزواج وتشريفه ، ويبرر ذلك فـاولر قائلا : «لابد أن ندخل فى اعتبارنا هنا ما يبـدو أنه كان تغيرًا عامًا فى الحساسيـة منذ القرن السابع عشر ، فكان الرجال فى انجلترا يمـيلون ميلاً شديدًا إلى أن تظهر المرأةُ الصُّدودَ أو التَّمنُّع ، وهكذا فمهما يكن من مـؤازرة ميلتون للتكاثر ، كان من المحتوم أن يشارك أهل عصره بعض ما كانوا يحسونه من أن 'قبلات الرضا لا تأتى بفرحة' (كما جاء فى إحدى مقطوعات المجموعة الشعرية التى أصدرها ستانلى آنذاك بعنوان **قصائد وترجمات** وحررها ونشرها كرمب عام ١٩٦٢) .

Stanley, *Poems and Translations*, ed. G.M. Crump (Oxford 1462, 55) .

٥٧٤- الإشارة إلى **كورنوس الأولى** (١١/٣) سان رأس كل رجل هو المسيح . وأمـا رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله» .

٦٣٤-٦٣٥ انظر **رسالة يوحنا الرسول الأولى** (٥/٣) «فإن هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه» .

# حواشى الكتاب التاسع

١-٤٧ هذه هى رابع مناجاة لربة الشعر فى القصيدة ، وآخر مناجاة فيها ، فالأولى كانت فى الكتاب الأول (١-٤٩) والثانية فى الكتاب الثالث (١-٥٥) والثالثة فى الكتاب السابع (١-٥٠) ، ولكن هذه المناجاة الأخيرة تختلف عن الثلاث الأولى فى أنها تتجنب التخاطب المباشر مع ربة الشعر، بل تتناول موضوع «القصيدة البطولية» أى الملحمة ، وتسخر من موضوعات الأقدمين إعلاءً لشأن الملحمة الحالية .

٦ - مناقشة معنى «المأساة» بمفهوم التراجيديا الكلاسيكية لابد أن تؤدى إلى تبرير اختيار آدم بطلاً مأسويًا ، استنادًا إلى المفهوم القروسطى الذى يعتبرها تصويرًا لسقوط العظماء من الرجال *(de casibus virorum illustrium)* وسقوط آدم يحتل المرتبة الثانية فى **قصة الراهب** (التى كتبها تشوسر فى مجموعة قصص كانتربرى - التى ترجمها إلى العربية د. مجدى وهبة) وليكن ذلك ، مثلاً ، بعد سقوط إبليس (أو ' لوسيفر' - انظر الحاشية على السطر ١٣٢ من الكتاب السابع). وقال أحد النقاد إن ميلتون يحاول التنبيه إلى أنه سوف يعدل عن الأسلوب الرفيع للملاحم إلى أسلوب المأساة الأقل سُموًا ، ولكن جميع النقاد ينكرون ذلك ويؤكدون أن **الفردوس المفقود** كلها ملحمة ومكتوبة بأسلوب ملحمى ، ولم يخفض ميلتون من مستوى اللغة ولا الألفاظ فى الجزء الباقى منها .

١٢-١٣ اعترض أحد النقاد على تعبير "الشقاء المنذر بقدوم الموت" قائلاً إن الشقاء (أو الشقى) كثيرًا ما يطلب الموت عبثًا . ولكن ناقدًا آخر رد عليه قائلاً إن الصورة تنبع بصورة طبيعية من فكرة المراحل المختلفة للموت ، وهى الفكرة التى وضعت تبريرًا لعدم موت حواء وآدم بعد أكل الثمرة المحرمة ، وفقًا لما جاء فى **سفر التكوين** (٢/١٧) انظر الحاشية على الأبيات ٣٢٣-٣٣٣ من الكتاب الثامن عاليه.

١٦- ليس اختيار «أخيلاس» ومطاردته عدوه نموذجًا **للإلياذة** بالمصادفة التى اقتضاها الموقف الشعرى ، فلقد دأب النقاد على السخرية منها باعتبارها موضوعًا غير ذى جلال ، وقال أرسطو - دفاعًا عنها- إن الملحمة قد تتضمن أحداثًا سخيفة لا يقبلها غيرها من الأنواع الأدبية ، وأما ما يريد ميلتون أن يوحى به هنا فهو أن ملحمته الدينية لن تحتاج إلى مثل هذه «المادة» غير المقطوع بسموها .

١٧-١٨ كان تورنوس Turnus البطل الإيطالى ابنًا فى (ملحمة **الإنيادة** التى كتبها فيرجيل) لأب يدعى داونوس Daunus وأمٍّ هى الحورية فينليا Venilia، وأختًا لحورية تدعى يوتورنا Juturna. ، وكان يعتبر منافسًا لإينياس Aeneas فى إيطاليا قبل عهد فيرجيل بزمن طويل ، وأما فى ملحمة **الإنيادة** فهو ملك أرديا Ardea ، وهو يتقدم لخطبة لافينيا مع آخرين ، ويظل فى مقدمة الراغبين فى خطبتها، أما لافينيا هذه Lavinia فهى ابنة لاتينوس Latinus ، وينافسه فى خطبتها إينياس ويظفر بقلب الفتاة، فيصاب تورنوس بغضب جنونى خصوصًا بعد تدخل الإلهة جونو Juno ،

فيجمع جيوش اللاتينيين ويسيّرهم للحرب التى شنها على الطرواديين (فى الكتاب السابع من **الإنيادة**) وهو يحارب بشجاعة قائدًا لجيوشه ويحظى بتعاطف القارىء على الرغم من تهوره أحيانًا، ولكن اينياس يقتله فى آخر الملحمة. وميلتون يقول «إنه حُرم من لافينيا» كأنما كانت زوجته (disespoused) وذلك حتى يظهر إينياس بطل الملحمة فى صورة غير مشرفة أو أقل شرفًا مما يصورها فيرجيل . وأما نبتون (Neptune) فكان إله البحر أو المياه بصفة عامة وأما جونو Juno فكانت من الربّات التى نُسبت إليها أساطير كثيرة، وقيل إنها ربة الشباب وربة الحمل والولادة ، وارتبط اسمها بعدة بطلات ، وهى تظهر فى الصور المرسومة على شكل المقاتلة أو المحاربة ، وتُنسب لها قوة التأثير فى شجاعة المحاربين ، والخصوبة الفردية والتنظيم العسكرى وكانت «غضبة رجل واحد» عادة هى الموضوع الرئيسى للملحمة القديمة ، وميلتون يشير أولاً إلى أخيلاس بطل **الإلياذة** ثم إلى إينياس بطل **الإنيادة** فى مواقف لا تشرف مؤلفيها وهما هوميروس فيرجيل حتى يدلّل على أن موضوع القصيدة البطولى القديم الذى كان يستأثر وحده بالشرف فى عصره لم يعد يصلح فى عصر التوحيد والتنوير .

٢١- «من ترعانى فى السماء» أى «يورانيا» ، انظر الحاشية على السطور من ١-٧ فى الكتاب السابع . وقد أشار أحد النقاد إلى اعتقاد ميلتون بأنه كان يتلقى الشعر فعلاً من مصدر دفين أو علوى ، وفقًا لنظرية الوحى الشعرى التقليدية .

٢٧-٤١ يسخر ميلتون من موضوع الملحمة الحديثة أو الرومانسية كما يتجلى فى شعر الشاعر أريوستو، قائلاً إنه الحرب ولا يتجاوزها إلى سواها ، فالشاعر يقوم «بتشريح» جراحات الأبطال ووصف المعارك ثم لا يخرج من ذلك بفكر سامٍ ، أما ميلتون فهو يتجاوز الحرب والقتال (فى النصف الأول من الملحمة) إلى ما سما فتجاوزها فى النصف الثانى . والواقع أن زعم الأصالة يعبر عنه ميلتون تعبيرًا غير مألوف فى شعر الملاحم ، وإن كان سبنسر قد سبقه فى **ملكة الجان** . وهكذا قال الدكتور صمويل جونسون إن هذه «فقرات خارجية» لأنها تخرج عن صلب الموضوع وتناقش عمل الشاعر ، وهو فى رأيه «غير صواب» وإن كان يمكن تبريره بسبب حب الناس له قائلاً «ما دامت غاية الشعر هى الإمتاع، فلا يمكن أن نَعُدَّ ما أمتع الجميع إلا من الشعر» . (**سيَرُ الشعراء**).

٣٠-٣١ كثيرًا ما يصر ميلتون على أصالة مادته الشعرية وصدقها ، موحيًا بأنها تفوق فى قيمتها المادة الخيالية أو الأسطورية ، فلقد سبق له أن أشار إلى ذلك فى الكتاب الأول (البيت ٧٤٦ وما بعده) وفى الكتاب الرابع (٧٠٦) ولكنه كان فى وقت من الأوقات يفكر فى كتابة ملحمة عن أسطورة الملك آرثر ، وقد استمر اهتمامه بالتاريخ البريطانى ، على ما يزخر به من أساطير ، ومن ثم فمن المحال القول بأنه كان يحتقر المادة الخيالية فى الشعر .

٣١-٣٢ يوحى ذلك بوضوح وجلاء بمراتب تصاعدية للقيم البطولية ، يعتبر أن الصبر يشغل فيها مرتبة أعلى من الجلد ، وقد أشار أحد النقاد إلى حديثه عن بعض هذه القيم فى الكتاب ٣/ ٢٦٧ ، و٤/ ٨٢٠-٨٢٣ و ٧/ ٦٠٤-٦٠٧ ، ورد عليه ناقد آخر قائلاً إن هذه قيم مأسوية لا بطولية.

٣٣- «وصف . . المباريات» لم تكن الملاحم الكلاسيكية تخلو من وصف الألعاب والمباريات وقد علق على ذلك الدكتور جونسون (فى المرجع نفسه) وإن كان قد أشار إشارات مقتضبة إلى

الألعاب والمباريات فى ٥٢٨/٢ وما بعده وفى ٥٥١/٤ وما بعـده ، والمقارنة تثبت إختلافه عمن سبقوه .

٣٤-٣٧ يورد الشراح نماذج كثيرة من الملاحم السابقة على إنشغال الشعراء بهذه الأمور .

٤٢- «وقد بقى لى» تعبير يحاكى التعبير اللاتينى الشائع me manet .

٤٣- المقـصود «بذلك الاسم» اسم «الملحمـة» ومعنى السطر أن الموضـوع الذى اختاره مـيلتون ليس فحسب ساميًا بل هو قادر على السمو بالملحـمة كنوع أدبى . والملاحظ أن الشاعر هنا يشير إلى ثلاثة مثـالب «طبيعـية» قد تعـيق نجاحه ، أولهـا هو تدهور ثقافة العـصر ، وكان عـصره يغص بنظريات تتنبأ بنهاية التـاريخ وتنسب التشاؤم السائد إلى المكتشفات الفلكيـة الجديدة ، وثانيها هو برودة الجو ، وكـان بيرتون يقول إن شدة البـرد مرذولة مثل شـدة الحر ، وهى تدفع على الكسل وتجلب الكآبة والحزن (فى كـتابه **تشريح الحسن** جـ١/ ف٢/ ٢/ ٥) وثالثها هو تقـدم ميلتون فى العمر ، إذ كـان فى الثامنة والخمسين حين نشـرت الطبعة الأولى من **الفردوس المـفقود** ويدافع فاولر عن هذا الاستطراد «الذاتى» قائلاً إنه يصب أيضًا فى موضوع سقوط الإنسان ، فالسقوط هو الذى تنسب إليه كل هذه المثالب .

٤٨-٤٩ ميلتون يشير إلى كوكب الزُهَرَة بتعبير (Star / Of Hesperus) انظر ٦٠٥/٤ .

٥٠-٥١ يقول أحـد النقاد إن الإشارة إلى الشفق بإعـتباره فاصـلاً قصيرًا بين الليل والنهـار له دلالته من حيث الإيحاء بقصـر المدة التى سبقت العصيان ، وبموضـوع الموازنة والاتزان ، وهو الموضوع الذى يتردد صداه فى الملحمة كلها ٤/ ٢٥٤-٣٥٥ ، و ٤/ ٩٩٨-١٠١٥ .

٥٣- «منذ فترة» أى منذ أسبوع فى زمن الملحمة ، أى فى آخر الكتاب الرابع .

٥٨- «منتصف الليل» أى منتصف الليلة الثامنة (السطر ٦٧) بعد رحلته (٦٣-٦٦) .

٥٩- انظر الكتاب الثالث ٤٤٠-٤٤١ **وسفر أيوب** (٧/١) «فقال الرَّبُّ للشيطان من أين جئت . فأجاب الشيطانُ الرَّبَّ وقال من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها» .

٦٠- انظر الكتـاب الثالث ، السطر ٦٤٨ أعـلاه فيمـا يتعلق بوصـاية أوربيل على الشمـس ، والكتاب الرابع، السطور ٥٦٤-٥٧٥ فيما يتعلق بحديثه عن مشاهدته دخول إبليس .

٦٢- سبقت رواية الطّرد فى نهاية الكتاب الرابع .

٦٣- «سبع ليـال متصلة» أى منذ ليلة محـاولة الإغواء الأولى (الكتاب الرابع - السطر ٨٠٠ ومـا بعده) وهى الليلة السـابقة لليـوم ٢٤ ، إلى الليلة السابقـة لليوم ٣١ ، وهكذا فـإن الشيطان ينتـهى من تجهيزاته لمحاولة الإغواء الثانية فى أسبوع ، وهى تجهيزات الشر التى تقابل خلق العالم فى المدة نفسها ! أما كلمة «متصلة» فمعناها أن إبليس كان يدور مع الأرض مختبئًا فى ظلّها، والليلة الأولى تحسـب من منتصف الليلة ٢٤ حـتى منتصف الليلة الـتالية (٢٥) حـتى يصل فى السابـعة أو من منتصف الليلة ٣٠ إلى منتصف الليلة ٣١ .

٦٤-٦٦ دوران إبليس حول الأرض لا سند له من الآية المقتطفة من **سفر أيوب** (الحاشية ٥٩) ولكن السند هو التصاوير الدينية التى يحوّلها ميلتون إلى تصاوير فلكية ، وأهم ما فى هذه التصاوير التفاف الثعبان الجهنمى حول الأرض ومريم البتول ترمقه بنظرات ازدراء . وأما القول بأن الشيطان استطاع أن يفعل ذلك ملتزمًا بظل الأرض (أى الليل) دائمًا فقد يصدق على الليالى الثلاث الأولى التى أمضاها فى الدوران حول خط الاستواء ، ولكنه يتعذر فى الليالى الأربع التى قضاها فى الدوران طوليًا من القطب إلى القطب ، لأن محور الأرض - وفقًا لما يرويه ميلتون - لم يكن قد انحرف بعد ، ولم ينحرف إلا بعد السقوط (الكتاب العاشر ٦٦٩) مما يعنى أن إبليس كان لابد أن يمر بمنطقة ضوء ! ويستبعد فاولر أن يكون ذلك من باب السهو ، نظرًا للدقة المتناهية التى يلتزم بها ميلتون ، وهو يرجح أنه استعارة درامية للمستقبل (prolepsis) ومفارقة متعمدة تنذر بميل محور الأرض بعد السقوط ، قائلاً «إن إبليس يرسم عالمًا بعد سقوطه ، وهو يتناقض مع رسم الله للكون أثناء الخلق فى الكتاب السابع ٢٢٩-٢٣٢» . أما «أقطار الأرض الأربعة» فالمقصود بها تقسيم الأرض طوليًا إلى أربعة أرباع متساوية من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ، مثل تقسيم البطيخة المكورة إلى أربعة أرباع متساوية من أعلى إلى أسفل ، وذلك بافتراض وجود دائرتين تتقاطعان بزوايا مستقيمة عند القطب أى (colures) وكانت كل دائرة تمر بنقاط التعامد الشمسى فى الصيف والشتاء ، أى بمدار السرطان ومدار الجدى ونقاط تعامدها فى الاعتدالين الربيعى والخريفى أى بخط الاستواء ، ولما كانت هذه النقاط لم توجد بعد ، وفقًا لتصور ميلتون، قبل السقوط ، فهى تنتمى أيضًا إلى الاستعارة المستقبلية السابق ذكرها (prolopsis) . وأما «ركب الليل» فهو فى الأصل «مركبة الليل» أى (Car of night) ولا يعنى ذلك أكثر من الجانب المظلم من الأرض أو ظل الأرض .

٦٧-٦٨ فى الليلة الثامنة (قبل اليوم ٣٢) دخل إبليس جسم الثعبان ، وفى اليوم الثامن من أسبوع الأشواق ارتفع المسيح إلى السماء ، وقد شاع الإرتباط بين رقم ٨ والبعث والتعميد أيضًا .

٦٩- «المكان» يقع شرقىّ الفردوس (٤/ ٥٤٢) والنهر يدخل من الشمال (٤/ ٢٢٣) وانظر البيت ٦٨٩ وما بعده من الكتاب (والحاشية عليه) حيث يُذكر الشَّمَالُ باعتباره الجهة التى يرد الشر منها .

٧١-٧٥ يتضمن الكتاب الرابع وصفًا أشمل لهذا المكان (٢٢٣-٢٣٢) .

٧٥- «الرّذاذ والضَباب المتصاعد» : يرجح فاولر أن يكون ذلك بفعل الخاصيّة الشعرية ، أى ألا يكون هناك ضباب بالمعنى المفهوم بل رذاذ ماء ينبجس عينًا دفّاقة . وميلتون يتبع سفر التكوين فى نسبة العين إلى نهر من أنهار الفردوس ، ولكنه يسميه نهر دجلة («واسم النهر الثالث حدّاقِل (دجلة) Hiddeke » (**تكوين** ٢/ ١٤) وهو أحد أربعة أنهر توسع المياه من المنبع الأول ، وقد كثر نقاش المفسرين والشراح حول هذه المسألة ، ولكن المهم هو دلالتها الرمزية وهى أن الشر يدخل إلى عالمنا حتى من المنبع ، ورغم التعميد ، وهى الدلالة التى تتأكد فى الكتاب العاشر (٢٠) عندما

لا يجدى حذر الملائكة فى منع الغواية والشر ، فالملائكة يوصفون بأنهم يدهشون ويعجبون لدخول إبليس .

٨٢-٨٦ التفاصيل الجغرافية لرحلة إبليس : البحر الأسود كان يسمى بحر بنطش فى الخرائط القديمة **(Pontus Euxinus)** وبحر آزوف كان يسمى بالوس ماوتيس **(Palus Maotis)** ونهر «أوب» فى سيبيريا (والترجمة تضيف **سيبيريا** ابتغاء الإيضاح) يتجه شمالاً حتى خليج «أوب» ومنه يصب فى المحيط القطبى الشمالى آزوف والمحيط ذو القضبان هو المحيط الهادىء أو محيط السلام الذى تحده قضبان برزخ بَنَمَا التى كانت تسمى «داريان» (Darien) ويلاحظ النقاد أن كل المعالم الجغرافية معالم مائية (نهر أو بحر أو محيط) ويعلق الشراح على ذلك قائلين : ربما يكون الهدف هو الإيحاء بدخول إبليس خلسة إلى ماء الحياة . وفى هذا الصدد نجد القديسين يقولون إن نهر الجانجا (Ganges) المذكور هنا هو نهر فيشون (Pison) أحد أنهار الجنة الأربعة الوارد ذكرها فى الكتاب المقدس (**تكوين** ٢/ ١٠-١١) «وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة . ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس . اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب» .

٨٦- لاحظ النقاد الربط السياقى فى الكتاب المقدس بين الثعبان والغواية : «وكانت الحية أَحْيَلَ جميع حيوانات البرية التى حملها الرب الإله فقالت للمرأة أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟» (**تكوين** ٣/ ١) .

٩٩- انظر قول روفائيل إن الأرض تشبه السماء فى ٣٢٩ من الكتاب الثامن .

١٠١-١٠٢ من أخطاء التفكير عند إبليس فالله العليم بكل شىء والقادر على كل شىء لا يرتكب أخطاء ثم يصلحها .

١٠٣-١١٣ طرح روفائيل مسألة كون **الأرض مركزا للكون** من باب إثارة القضية ومناقشتها فى الكتاب الثامن ٨٦-١١٤ ، وكان يتخذ موقف ما يسمى بمحامى الشيطان (*diaboli advocatus*) أى أن يعرض الحجة الخاطئة للوصول إلى الحقيقة ، وها هو الشيطان نفسه يقدم لنا الحجة الخاطئة ! فطابع الإنسان الذى يفصح عن عظمة الخالق لا يصبح لديه إلا مصدر فخر وكبرياء ! .

١٠٨-١٧٨ خلط فى تفكير إبليس . والشراح يفنّدون حُجَجَهُ حجّة حجّة .

١٨٦- 'الكلأ المعشب' محاكاة لعبارة فيرجيل (**الرعائيات** ٥/ ٢٦) *graminis ... herbam* .

١٨٧- «من فمه» لأن الاعتقاد السائد كان يقول بأن الروح تدخل وتخرج من الجسم من تلك الفتحة .

١٩٢- صباح اليوم ٣٢ .

١٩٥- «معبد الأرض» - فى الأصل «مذبح» الأرض ، وهو مجاز مرسل ، أى تعبير بالبعض عن الكل ، ومع ذلك فقد ألمح بعض النقاد إلى أن التعبير يتضمن تورية درامية ساخرة لأن المذبح لا يستخدم

إلا فى تقديم القرابين والأضحيات ، ويرد فاولر على ذلك التلميح قائلاً إن «مزمور التوبة» يتضمن العبارات التالية «ذبائح الله هى روح منكسرة . القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره» (مزامير ١٧/٥١) . ويؤكد فاولر المجاز المرسل ، وهو ما أخذنا به فى الترجمة .

٢٠٤- لاحظ أن حواء تتكلم **أولاً**، وهو ما لم تفعله من قبل ، والفكرة تؤكدها عبارة 'أفكارى **الأولى**' (السطر ٢١٣) مما يتناقض مع ما جاء فى الكتاب الخامس، السطر ١٧ وما بعده، وخصوصًا ما جاء فى الكتاب الرابع ٤٠٨-٤١٠ حيث الإصرار على حق آدم فى المبادرة بالحديث.

٢٠٥-٣٨٤ يوضح بيردن (فى الصفحة ٨٦ وما بعدها) أن مسارات الحوار هنا تحددها المتطلبات المنطقية للمادة التى يعالجها ميلتون . فلابد أن تكون حواء وحدها عمدًا ، ولابد أن يوافق آدم على انفرادها، حتى يصبح الاثنان مسؤولين مسؤولية كاملة عن السقوط ، أى أنه لابد من عدم ترك شيء للمصادفة أو وقوع أى حدث عارض ، إذ يجب فى كل مرحلة أن تكون أفعال الإنسان هى 'السبب' فى النتيجة .

٢٤٩- انظر الحكمة القديمة المنسوبة إلى شيشرون :

*numquam minus solus quam cum solus*

وقد ذكر الشاعر إبراهام كاولى أن تلك الحكمة غدت«تعبيرًا بالغ السوقية».

٢٦٥- «الجانب المخلص» - سبق وصف خلق حواء فى الكتاب الثامن فى السطر ٤٦٥ وما بعده ، إذ أخذت مَن الجانب القريب من قلبه أى من جانبه «المخلص» .

٢٧٠- «جلال الطهر والنقاء» - الأصل يقول (Virgin majesty) والشراح جميعًا على أن البكارة المقصودة هى الطهر والبراءة ، استنادًا إلى ما يقوله ميلتون نفسه ، ويقول فاولر إن هذه لا تعدو كونها «صيغة جامدة» تعنى العظمة التى تصدر عن الطهر والنقاء ، ولكن نقادًا آخرين يشيرون إلى ما فى العبارة من ظلال معانٍ جنسية ، ويقولون إن الغواية تكتسى بعض هذه المعانى هنا وهناك .

٣٣٥- «الإخلاص والحب والفضيلة» هى ثلاثية القيم العليا للأفلاطونية الجديدة ، وكانت الثلاثية تُصور وقد تشابكت أيديها ، ولكنها كانت تتكون من (١) الإخلاص ، و (٢) الحقيقة والفضيلة ، ويوحّد بينها ثالث هو (٣) الحب .

(*Fidius*, *Veritas* and *Virtus*, united by a third *Amor*) .

ويقول فاولر إن الإجابة على سؤال حواء هى : «إنها رمز الاستقامة والإخلاص طالما استمرت متشابكة الأيدى» . وقد بينت باحثة هى الأستاذة وليامز أن ثلاثية **الإخلاص** ترجع إلى (أو تتصل بصورة ما) بثلاثية الطبيعة البشرية التى وضعها بيكو Pico ألا وهى الذهن والوجدان والإرادة أو الجانب الانفعالى ويقول أحد النقاد إن هذه الخصال ليست مطلقة فالوجدان عقلانى وهو يضم

عناصر المنطق والحس معًا ، أى يتميز عن الذهن بارتباطه بالحواس ، فى حين أن الذهن قد يستخدم المنطق الخالص أى المجرد من معطيات الحواس، ويدل على ذلك بالكلمات اللاتينية التى كانت تستخدم فى الدلالة عليها *intellectus, ratio & voluntas* ويقول إن هناك فقرات كثيرة فى **الفردوس المفقود** يبرز آدم رمزًا للذهن *intellectus* أو *mens* (ذهن/نفس) وحواء رمزًا للوجدان *ratio* أو *anima* (عقل / حس) والواضح أن التفرقة بالغة الصعوبة إن لم تكن محالة ، على نحو ما يرى القارىء لقصيدة ميلتون ، فالشاعر لا يميز هذا التمييز الدقيق بين آدم وحواء على المستوى الرمزى .

٣٦٠-٣٦١ يورد أحد النقاد تدليلاً على أن حواء تمثل العقل (reason) مما يقوله آدم فى هذين البيتين قائلاً إن العقل هو **الاختيار** - على أى حال - أى إنه هو الذى يفصل ويقرر استنادًا إلى معطيات الحواس - أى ما يسمعه ويراه وما يدركه بحواسه الأخرى ، ويورد تأكيدًا لذلك قول القديس أوغسطينوس إن حواءنا العزيزة التى خدعت الرجل كانت تعتمد على العقل، مستخدمًا اللفظة اللاتينية نفسها أى *ratio* .

*Caro nostra Eva est, quae seducit virum, id est rationem.*

ويقول فاولر ردًا على ذلك إن ڤاليريانو يقدم صورة أخرى للعلاقة الرمزية تمثل فيها حواء قوة **الحواس** ويمثل فيها آدم قوة **الذهن** ، ويقول إنها تقع فى منطقة وسطى بين الصورة الرمزية التى يقدمها القديس أوغسطينوس والصورة التى يقدمها ميلتون ، ولقد حاولت جاهدًا أن أضع حدودًا لهذه الصور الثلاث استنادًا إلى ما يقول الشاعر نفسه فلم أوفق ، إذ يحاول كل ناقد فرض نظرية ما على الشعر ، فيما يسميه الانجليز «اللعبة الأكاديمية» (academic game) فيناقضه ناقد آخر ، فينبرى لهما ثالث ، وهلم جرا ، وكان ذلك من أسباب جمع حواشى النص فى ذيل الكتاب حتى لا تعترض قراءة القصيدة .

٣٧٠-٣٧٥ يجمع النقاد على أن هذه فقرة حاسمة من فقرات القصيدة ، إذ عليها يعتمد مسار الأحداث التالية .

٣٨٥- «أخرجت يدها من يد آدم» تعبير واضح عن الانفصال ، والنقاد يفيضون فى الحديث عن دلالته، وخصوصًا بالاشارة إلى تشابك أيدى قيم الأفلاطونية الجديدة (انظر الحاشية على السطر ٣٣٥) .

٣٨٧- «ديانا» ربة من ربات الأدب اليونانى القديم ، واسمها مشتق من مقطع «ديو» (dyw-) أى ضوء ومن ثم فهى المنيرة ، وربة القمر ، أصلاً ، ثم أصبحت إلهة للبرّية وارتبطت بالصيد ، ويقال إنها كانت ربة **المرأة** ، على نحو ما يبدو من ركب الوصيفات اللاتى يحملن المشاعل الوضاءة ويسرن خلفها . وميلتون يعتمد على خصب هذا التراث المرتبط باسم ديانا ، فى الإيحاء بجو الجنة الذى تغمره الأضواء .

٣٨٨- «باليس» كانت ربة المراعى عند الرومان ، و «بومونا» Pomona حورية أو ربة لأشجار الفاكهة عندهم ، وكثيرًا ما كانت تصور جالسة على سلة الأزهار والفواكه وممسكة فى يدها بالتفاح .

وكان فيرتومنوس ، وهو أحد الأرباب ، يحبها ويحاول كسب ودها عبثًا حتى استطاع التخفى والتنكر فى صورة كائن آخر ففاز بقلبها ، والواضح أن ذلك له دلالته الرمزية ، كما سنوضح ، وكانت كيريس Ceres ربة القمح والزراعة . ويقول بعض النقاد إن «بومونا» تعتبر نظيرًا مواتيًا من الناحية المعنوية والأخلاقية ، إذ يقول أوفيد فى كتابه **مسخ الكائنات** إنها تحبس نفسها فى بستانها حتى لا يلتفت الذكور إليها فتنجو من ملاحقتهم ، وإنها لم تكن تحمل رمحًا بل أداة التشذيب المقوسة التى كانت تستخدمها فى تهذيب ما طال من النّبات فأمعن فى الطول ، (١٤/٦٢٨-٦٣٦) ولكن ميلتون يشير إلى غوايتها ووقوعها ضحية المخاتل فيرتومنوس ، ولم يشر أى ناقد إلى أن هذه تورية مستقبلية prolepsis على وضوحها ، إذ لن ينجح إبليس فى غواية حواء إلا بالتخفى والتنكر فى هيئة الثعبان ، وقول ميلتون إنها «فرّت» لا يعنى أنها نجت ، وكنت أتمنّى أن أترجم العبارة وفقًا للأسطورة ولكن النقاد توقفوا عند الكلمة فآثرت الإبقاء عليها . وأما «كيريس» فأحيانًا ما كانت تصور إلى جانب المحرات ، وإن كان المعتاد أن تصور حاملة شعلة موقدة - وهى النار التى ينص ميلتون صراحة على أنها لم تكن قد وجدت بعد فى السطر ٣٩٢ عاليه . وكانت الشعلة هى وسيلتها فى البحث عن ابنتها «بروسربينا» بعد أن اختطفها «بلوتو» وقيل إن ذلك من النظائر الأسطورية لسقوط الإنسان . والإشارة إلى الرب «**جوف**» لا يقصد بها العودة فى الزمن فحسب إلى ما قبل السقوط من عذرية كيريس وفقدانها ، بل أيضًا للإشارة إلى غوايته (بعد أن اتخذ شكل الثعبان) وإيقاعه العذراء «بروسربينا» وارتكاب زنا المحارم . وقد ورد فى الكتاب الرابع (٢٦٨-٢٧٢) ما يمكن اعتباره صورة مقلوبة لهذه الأساطير نفسها ، حيث توحى «بروسربينا» بأنها حواء قبل السقوط ، و «كيريس» بحواء بعد السقوط ، ويقول النقاد إن قلب الأسطورة ينفى أى تحديد زمنى لها ، أى إنه يصعد بها إلى مستوى «لا زمنى» .

٤١١- «البراءة والإخلاص والنعيم» ثلاثة من الصفات التى قد تكون مقابلة للثلاثية التى تتسم بطابع أنطولوغى فى السطر ٣٣٥ ألا وهى «الإخلاص والحب والفضيلة» - انظر الحاشية على ذلك السطر، أعلاه .

٤٢١- فى صورة العالم التى يرسمها إبليس ، عادة ما تقع الأحداث إما حتمًا (by necessity) أو مصادفة (hap = by chance) .

٤٣٩-٤٤٣ يقول ريتشاردسون (صفحة ٤١٦) : «لما كان مكتوبًا على حدائق أدونيس «ألا تعيش إلا فترة بالغة القصر ، ومع ذلك فقد غدت مضرب الأمثال فى العالم القديم ، فإن التشبيه بها يضفى على المثال هنا لمسة مؤثرة ، أضف إلى ذلك أن الحديث لا يدور الآن عن جنة عدن كلها بل عن بقعة شهّية واحدة تقف فيها حواء ، تلك البقعة الزهراء التى صنعتها يد حواء نفسها ، مثلما كانت حدائق أدونيس دائمًا من صنع أيادى العذارى الحسان ، وإن كنَّ أقل حسنًا من حواء» . ويقول كريستوفر ريكس (١٣٣-١٣٥) إن العلاقة الوثيقة بين حديقة سليمان والفردوس تعتمد أيضًا على التشابه بين الملك الحكيم وآدم ، فكل منهما حكيم ، وكل يحب زوجته ، وكل يتعرض لخداع «جميلة مارقة» (الكتاب الأول ٤٤٤-٤٤٦) . ولكن التشبيه قديم ، ويرجع إلى القديس

أوغسطينوس . وتوصف حدائق أدونيس وحدائق ألكينوس بأنها «خيالية» لأنها أسطورية ووثنية . وأما تعبير «يبعث كل عام» فمعناه أن أدونيس ، بعد أن قتله الخنزير البرى فى الأسطورة كان يبعث فى موسم الثمار كل عام ، وتسيل دماؤه فى الأسطورة لتلوّن ماء النهر . أما «ابن لايرتيس» فهو «أوليس» أو «أوديسيوس» الذى جاب الآفاق ورأى عجائب الدنيا ومع ذلك فلم يملك إلا أن يعلن دهشته من روعة تلك الحدائق عندما وقعت عينه عليها أول مرة. (انظر ملحمة **الأوديسا** من تأليف هوميروس (٧/ ١١٢-١٢٥) ويقول أحد النقاد إن ميلتون فضّل الإشارة إلى أوديسيوس بكنيته حتى يذكر أباه لايرتيس الذى ضحى بعرش ملكه حتى يعمل برعاية الحدائق ، وإظهار التناقض بينه وبين إبليس الذى يحتفظ بتاجه ويدمر الحديقة ! ويضيف الناقد نفسه إن هذا التشبيه المبسوط (extended simile) مثل العديد من التشبيهات الأخرى فى الكتاب التاسع ، يتكون من ثلاثة أقسام مرتبة بنظام محكم هو أ أ ب اثنان وثنيان منهما والثالث مقدس) مثل ٣٩٣-٣٩٦ أعلاه ، ويقول ناقد آخر إن هذه التشبيهات تتسم بالخط الصاعد إلى ذروة ، ويقول آخر إن الاثنين والواحد يرمزان إلى عقيدة التثنية والوحدانية التى جاءت بها الأديان السماوية ويقول ثالث إنها ترمز إلى علاقة العقل بالحواس ! .

٥٠٥-٥١٠ يقول بعض النقاد إن ميلتون كان على وعى بالتراث الأدبى الذى يصور افتتان حواء بجمال الثعبان ، وهو ما ورد فى كتاب بعنوان **دراسة للفردوس** بقلم جون سولكيلد وصدرت عام ١٦١٧ (مشار إليها فى كتاب هيوز- انظر المراجع) وقد يكون وليام امبسون على حق فى تفسير الصورة الكلاسيكية classical allusion بأنها توحى بأن «حواء تحولت - بمعنى من المعانى - إلى أفعى وغدت صاحبة «لإبليس» ، وتعبير 'بمعنى من المعانى' مهم ، فالصورة 'توحى' - كما يقول - بالتحوّل أو حتى بما يقترب من المسخ ، فهى على الأقل واجهت إغراء الهبوط إلى درك الحيوانية. ولكن فاولر يقدم تفسيراً آخر للصورة ، فإن «كادموس» تحوّل أولاً إلى ثعبان ، ولم تتحول زوجته «هيرميونى» إلى حية إلا بعد أن عانقها فى صورته الجديدة ، وهو ما أفزع كثيراً جميع الذين شهدوا المنظر (**أوفيد** ، **مسخ الكائنات** ، ٤/ ٥٧٢-٦٠٣) وهكذا فإن حواء هى التى تسببت فى التحوّل الذى أصاب «وجها آدم . أما رب الشفاء فى «إبيداوروس» فاسمه «أيسكولابيوس» Aesculapius الذى تمكن من إعادة الحياة إلى الكثيرين فأثار حنق «بلوتو» Pluto ملك الجحيم . وهكذا فعندما زاره وفد من روما يطلب منه سيارتها لشفاء بعض المرضى، اضطر إلى التنكر فى صورة ثعبان مرتفع القامة إلى مستوى صدر البشر ، ومضى مع الوفد وهو فى هذه الصورة (**أوفيد** ، المرجع نفسه ، ١٥/ ٦٢٦-٧٤٤) .

٥٠٨- چوبيتر آمون هو چوبيتر الليبى الذى سبقت الإشارة إليه فى ٤/ ٢٧٧ ، ويقول بلوتارخوس فى حديث عن أنساب الاسكندر الأكبر أن والده فى الظاهر أى فيليب المقدونى تراجع عن حبه لزوجته «أوليمبياس» بسبب عادتها فى مضاجعة أحد الثعابين ، ثم أخبرته نبوءة دلفى (Delphic oracle) أن الثعبان كان صورة من صور چوبيتر آمون . أما «چوبيتر الكابيتولينى» فقد أطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى معبده المقام فى روما وهو الكابيتول .

٥١٠- «سكيبيو» المقصود هو سكيبيو الإفريقى (Scipio Africanus) وهو يوصف بعظيم الرومان بمعنى أنه كان رومانيا عظيماً ، واسمه الكامل مبدوء باسم كورنيليوس Cornelius وقد ذاع اسم

ابنه وكثير من أفراد أسرته. وقد وردت قصة مضاجعة أمه لثعبان فى كتاب صدر عام ١٦٠٨ بعنوان **تاريخ الثعابين** .

٥٨١-٥٨٣ تشبيه مبسوط ينتمى إلى الشكل الثلاثى أ أ ب (انظر الحاشية على ٤٣٩-٤٤٣) فالتشبيه بنبات وبأثداء نوعين من الحيوان . وكان الشائع أن لبن الثدى ونبات الشَّمَار (أو الشَمر) من الأطعمة المفضلة لدى الثعابين .

٥٨٥- تحديد نوع الفاكهة المحرمة بأنها تفاح قد يكون مصدره كتاب الاستجواب الكنسى الأورسينى *Ursinian Catechism* فى هايدلبرج ، على نحو ما ذهب إليه فلتشر ، ولكن الواضح أن تلك الفكرة كانت بمثابة اعتقاد شائع أو شعبى .

٦٠٩- «لا يوجد جمال كفؤًا لك أو قريبًا من منزلتك» تعبير يحاكى عبارة وردت فى أناشيد هوراس (١/١٢/١٨) وهو :

*nec viget quicquam simile aut secundum*

والتعبير يذكر بما جاء فى الكتاب الثامن ، وهو القول المنسوب إلى الله تعالى :

إذ لا أعرف أحدًا

يلينى فى المنزلة أو يشبهنى ، وما أبعد أن يكون لى كفوًا أحد (٤٠٦-٤٠٧) .

٦١٥- معنى كلام حواء هو : إن إسرافك فى المديح ، وبهذا القدر من البلاهة، يدعونى للشك فيما أضْفَتْه تلك الفاكهة من العقل عليك !

٦٥٤- الإشارة إلى **رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية** (٢/ ١٤) «لأنه الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو فى الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم».

٦٨٥- الإشارة إلى **سفر التكوين** (٣/ ٤-٥) «فقالت الحية للمرأة لن تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» .

٧٣٥-٧٤٣ الإشارة إلى **سفر التكوين** (٣/٦) «فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت» .

النص الانجليزى لهذه الآية يزيد بعد كلمة «للنظر» ما يلى :

and a tree to be desired to make one wise

٧٤٤-٤٧٣ لا مهرب من التوقف هنا والتمهل حتى تكون حواء مدركة كل الإدراك لما تقدم عليه .

٧٦٦-٧٦٧ هنا مفارقة بالغة القوة فنحن نعرف من الحديث الإلهى فى الكتاب الثالث أن الموت قد 'اخترع' من أجل الإنسان فعلاً .

٧٩٣- من السطور ذوات التركيب «السائل» (fluid syntax) وهو :

And knew not eating death

والمعنى الظاهر الذى أخذنا به فى الترجمة هو : «وهى لا تدرى أنه طعام الموت» ، ولكن الشراح يأتون بقراءات مختلفة منها :

She was unaware, while she ate death

أى «أنها لم تكن تدرى ، وهى تأكل الموت» أو «لم تكن واعية / فى وعيها . . .» ومنها :

She **knew**, not eating (immediate) death

أى إنها كانت تعرف (فى وعيها) إذ لم تكن تأكل طعام الموت (الآنى) .

وقد سبق الحديث عن خصائص هذا التركيب السائل ، وصعوبته فى الترجمة .

٨٠٠- تقول حواء إنها سوف تنشد للشجرة ابتهالات الصباح التى كانت تنشدها لله فقط حتى تلك اللحظة .

٨٠٤-٨٠٧ تردد حواء الحجج التى أتى بها إبليس فى السطور ٧٢٢-٧٢٥ عاليه ولكنها تسىء تكرارها وفهمها . وعندما تشير إلى الأرباب فهى تحاكى إبليس ، وإن كانت تقصد الله الواحد ، انظر البيت ٧١٨ عاليه .

٨٠٥- المقصود 'بالآخرين' هو الله سبحانه وتعالى ، إذ تعلمت حواء من إبليس استخدام الصورة الوثنية الغامضة .

٨٢١-٨٣٠ تردد حواء الآن فى إتخاذ قرارات تحقق كلها أغراضًا ذاتية وأنانية .

٨٢١-٨٢٢ هذه أول إشارة إلى أن حواء تشعر بأى درجة من درجات النقصان .

٨٢٤- «وذلك شىء غير مكروه» يقول النقاد إن هذه الجملة الاعتراضية يمكن أن تفسر على أنها من قبيل 'خداع النفس المعلن' ، فحواء - حسبما يقول فاولر - ترى أنه من المستحب والمستحسن جدًا أن تكون متفوقة على آدم فى جميع الأحوال تقريبًا . قارن ذلك بأول وصف يرد لآدم وحواء فى الكتاب الرابع السطر ٢٩٦ .

٨٣٢-٨٣٣ يقول فاولر إن هذا هو أول تعبير صريح عن الحب من حواء - وأول تعبير زائف . فإنها فى الواقع تعتزم قتل آدم حتى تستريح نفسيًا . ويلفت فاولر النظر إلى الخلط فى تفكيرها ، فالواقع أن مسألة الحياة دون آدم مستبعدة أصلاً ، فإذا كانت سوف تفقده فذلك لأنها ستكون قد ماتت . ويقول إن الأبيات ربما ترجع صدى هوراس فى **الأناشيد** (٣/٩/ ٢٤) .

*tecum vivere amem, tecum obeam libens*

وإذا كان الأمر كذلك ، فلن يكون التشابه مقصوراً على أن قصيدة هوراس حوارية وحواء تحاور نفسها ، بل يتعدى ذلك إلى التضاد بين استعداد «ليديا» للموت من أجل «كاليس» لو قدر له أن يعيش بعدها (السطور ١٥ وما بعده) واستعدادها الأقل نبلاً للموت مع حبيبها القديم . وموقف حواء يتفق مع الطرف الأخير فى هذا التضاد ، وأما الطرف الأول (الاحتمال الأول) فلم يخطر لها ببال أصلاً . ويضيف فاولر قائلاً إن الإشارة إلى هوراس لم تكن لتغيب عن نظر معاصريه إذ كانت الأناشيد قد ترجمت إلى الانجليزية وشاعت فى القرن السابع عشر .

٨٤٢- يرجع بنا هذا التشبيه إلى المقارنات الأولى بين حواء وربات السراعة : «باليس» ، و «بومونا» و«كيريس» (انظر الأبيات ٣٩٣-٣٩٦) .

٨٨١- «الأقدار» من الكلمات التى تسربت إلى حديث حواء من إبليس .

٨٩٣- أول مثال على ذبول الأزهار فى الجنة .

٩٠١- 'شاه الوجه' ترجمة لكلمة defaced يستند إلى التعريف الوارد فى كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية (١/١٢) ويقول فيه عن الخطيئة إنها تورث «نقصًا فى جلال وجه الإنسان والوعى بإنحطاط العقل» .

‹a diminution of the majesty of the human countenance, and a conscious degradation of mind›

٩٠٦-٩٠٧ يقول فاولر إن الخيوط الرئيسية للمعنى هى : «عزمى الراسخ هو أن أموت معك» ، و«بالتأكيد اعتزم الموت معك» ، و «(إذا بقيتُ) معك فإن عزمى [بالمعنى اللاهوتى] هو يقينًا أن أموت» ويضيف فاولر قائلاً إن قوة الحب عند آدم زادت كثيراً عن الحد ، ولكن ميلتون يقصد أن يجعلها مؤثرة أيضًا .

٩٢١- استجابة آدم لتصوير ما فعلته حواء استجابة ملحمية ، ولذلك - كما يقول بيردن - فهى جديرة بالإعجاب .

٩٢٤- وصف الفاكهة يدل على أنها فقدت سحرها .

٩٢٨- يشارك آدم زوجته (بقوله 'ربما') فى المراوغة للإفلات من شرائط الأمر الذى أصدره الخالق جل وعلا .

٩٣٠- لا يحاول آدم النظر فى احتمال قيام العدو بحيلة أو خدعة ، وهو ما كنا نتوقعه أو نأمل فيه طبقًا لما سبق فى السطور ٩٠٤ وما بعده ، ولكنه يقبل دون مناقشة رواية حواء لقصة الأفعى .

٩٣٦- لا يكتفى آدم بالإنصياع لإرادة حواء بل يبدى طموحًا خاصًا من جانبه .

٩٤١-٩٤٢ منطق آدم يتحطم ! إنه بدأ ينسب الظلم إلى الله !

٩٩٦- استعادت الفاكهة جاذبيتها لآدم بسبب الفساد الذى أصاب قلبه ومن ثم شهيته .

١٠٠٢- أول عاصفة رعدية فى الفردوس ، فلم تكن شهدت حتى الآن إلا النسائم العليلة .

١٠٠٣-١٠٠٤ لا يذكر ميلتون فى **الفردوس المفقود** تعبير 'الخطيئة الأولى' إلا هنا .

١٠١٠- وهم الربوبية ينشئ الأجنحة المناسبة للملائكة .

١٠١٣- بداية رواية 'السبب الصورى' للسقوط أى السبب الذى جعل السقوط يتخذ هذه 'الصورة' . فإن 'صورة' عصيان الإنسان لله هى التغيّر فى طبيعته ، وهو الذى يصاحب الخطيئة ، ولا يمكن التمثيل لها إلا بما تؤدى إليه من آثار .

١٠٢٧- الإشارة إلى **الخروج** (٣٢/٦) : «وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للّعب [وتتكرر الآية فى **كورنثوس الأولى** (١٠/٧) وتعنى ' الجماع'] فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر» (**خروج** ٣٢/٧) .

١٠٥٢-١٠٥٩ الإشارة إلى **سفر التكوين** (٣/٧) «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان» .

١٠٥٨- «يستر» ... «ولكن رداء ...» ربما كان وجود الخجل هنا يتضمن إشارة مستترة إلى **المزامير** - انظر «ليلبس خصمائى خجلاً وليتعطّفوا بخزيهم كالرداء» . (**المزمور** ١٠٩/٢٩) وفيما يلى النص الانجليزى .

Let mine adversaries be clothed with shame, and Let them cover themselves with their own confusion, as with a mantle.

ونظراً لأن الترجمة العربية المعتمدة قديمة فسوف أورد ترجمة أخرى حديثة .

«فليكتس خصمائى بالخجل ، وليستتروا بخزيهم كأنه وشاح» .

ويناقش النقاد فكرة الخجل الكلاسيكية ، عند هوراس مثلاً ، التى كانت تقترب من الحياء ، وهو مفهوم حميد ، وصفة حسنة ، أما فى ميلتون فهو يقترب من الخزى أو العار ، والواضح أن للخجل درجاته ، ولدينا فى العامية تعبيرات تدل على بعض هذه الدرجات «اللى اختشوا ماتو» و«مش مكسوف من نفسك !» - مثلاً - ومن ثم فإن الحالة التى كان عليها آدم وحواء ، حالة إدراك العُرْى (السطر ١٠٥٧) جعلتهما يشعران بالخجل من ضعفهما الذى أدى إلى إرتكاب العصيان ، ومن ثم حاول آدم أن يستر نفسه ، وإزاء ذلك تبدو المفارقة فى الآية المقتطفة من المزمور ١٠٩ حيث يتضمن الدعاء طلب الإكتساء بالخجل ، بمعنى العار والاتشاح (أو الاستتار) بالخزى ! ولم يشر النقاد إلى هذه المفارقة فى الإحالة إلى الكتاب المقدس (Biblical allusion) وإن كانت الصورة تتضمن استعارة 'غارقة' أى دفينة (Submerged metaphor) وهى الاستعارة التى لا تخرج إلى «السطح» إلا بالعودة إلى الآية المشار إليها .

١٠٥٩-١٠٦٣ قصة خيانة دليلة لشمشون الجبار يرويها سفر القضاه فى الأصحاح ١٦ ، وأما سليل 'دان' فمعناها أنه ابن 'منوح' Manoah «من عشيرة الدانيين» ، (قضاة ١٣/٢) والمعروف أن دان من الأسباط أى أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام وكانت المقارنة شائعة فى التراث الأدبى الدينى بين آدم وشمشون .

١٠٦٧- يقول كريستوفر ريكس (صفحة ١٠٣) إن آدم قد أعلن أن كلمة الشر مشتقة من اسم حواء ، وأن الشر مستقى منها ، وهذا خلط واضح ، فكلمة evil الانجليزية مشتقة من الانجليزية القديمة yfel (التى ترجع إلى جذور أقدم فى اللهجات الشمالية) والتى جاء منها كلمة uvel فى الانجليزية الوسطى، ولا علاقة لها بالكلمة الانجليزية لحواء Eve (Eva) المحرّفة من اللغة السامية الأم protosemitic (وهى لغة يفترض أنها أصل العربية والعبرية والسريانية والآرامية والجعزية) وهى كلمة Hava المحرفة عن Hāwa أى 'حواء' وهى صيغة سامية معروفة معناها العام هو واهبة الحياة (أصلها حَيَّاء - صيغة تكثير أى (فعّال) من حَيَّا أى أحْيَا) وإذن فإن افتراض هذا الاشتقاق باطل وينتمى إلى ما يسمى باشتقاق العوام folk etymology ، أى الاشتقاق دون سند تاريخى والاعتماد على أصوات الألفاظ الظاهرة . وقد نشأ خلاف كبير حول عدم تسمية الكتاب المقدس حواء باسمها إلا بعد السقوط ، وكانت الإشارة إليها قبل ذلك بلفظ ' المرأة'، وقال بعض الباحثين إن السقوط كان معناه أن تحمل وتلد فتأتى بالأحياء ورد عليهم آخرون قائلين إن ذلك يفترض أن خلودها فى الجنة أولاً (قبل السقوط) لم يكن يعنى عدم الحمل والإنجاب ، وميلتون - كما هو واضح - من الفريق الأخير .

١٠٧٤-١٠٧٦ النقاد مغرمون بالتقسيم والتعديد ، فبعد أن كان القدماء يؤمنون بثلاثية القيم فى الأفلاطونية الجديدة (انظر الحاشية على السطر ٣٣٥ من الكتاب التاسع) أصبح المحدثون يتحدثون عن رباعية للمثل العليا أو القيم العليا وهى - على نحو ما وردت فى الأبيات ١٠٥٤-١٠٥٧ أعلاه : البراءة ، والثقة ، والصلاح ، والشرف ، وهم يربطون بين هذه الرباعية الجديدة وبين ما تضمنته هذه الأبيات من قيم مجردة هى : الشرف ، والبراءة ، والإخلاص (الثقة) ، والنقاء (الصلاح) ، ويرجع العيب فى منهج التقسيم والتحديد المذكور إلى أنه لا يأخذ فى اعتباره اختلاف المعانى من سياق إلى سياق ، واختلاف معانى الكلمات من عصر إلى عصر ، فكلمة 'الشرف' فى ميلتون قد تعنى التكريم فى سياق معين ، على نحو ما ترجمت به فى سياق يماثل الآية القرآنية ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء- ٧٠) فى هذه القصيدة ، وقد تعنى 'نبل المقصد' كما ترجمت به فى سياق آخر ، والشرف بعد مفهوم له أصل حسى وهو الارتفاع (شرف يشْرُفُ - ومنه جاءت الشُّرفة) ولكن «الحفاظ على العهد» من المعانى الواردة فيه أيضًا ، وكذلك نرى جميع تلك المفهومات الكُلّية hypernyms التى تتضمن من العناصر الدلالية ما يجعل افتراض وحدة معناها مستحيلاً ، وانظر إلى ما يقوله فاولر من معادلة الإخلاص بالثقة (ص ٩١٨) أو معادلة النقاء أو الطهر بالاستقامة أو الصلاح ، فالواضح أن ميلتون الشاعر ليس الباحث الذى ينبرى لوضع الفروق الدقيقة بين الألفاظ بالصورة التى تسمح بجمعها فى ثلاثيات ورباعيات ،

شأن ما كان القدماء يفعلونه ، وأظن ظنًا أن الولع بالعدد نفسه ، ثلاثًا كان أم أربع ، من وراء هذا التعديد .

١٠٧٩- يقول أحد الشراح (شوكروس) إن ' آخر' (last) فى هذا البيت معناها 'أقل' أو أدنى (Least)، على نحو ما ترد أحيانًا فى نص ميلتون ، ولكننى لم آخذ برأيه ، فقول آدم إن 'الخجل' هو آخر شر يعنى أنه أقرب شر عرفه زمنيًا ، أى أنه قد عرفه لتوه أو منذ عهد قريب ، ولا أعتقد أن آدم يذهب مذهب فاولر أو شوكروس فى تفصيل درجات الشر ، خصوصًا لو فهمنا 'العار' من الكلمة (Shame) .

١٠٨٥-١٠٩٠ تحمل هذه الأبيات خصائص ما يسمى بقصيدة العزلة poem of retirement أى الإنسحاب من حياة المجتمع والعيش فى وحدة بعيدًا عن شرور الناس وذلك يعنى أن ميلتون كان يسير فى درب التقاليد الأدبية الشائعة ، وهى حافلة ، ولكنه يتوسل بها تعبيرًا عن خجل آدم (وعاره).

١٠٩١-١٠٩٨ الإشارة إلى الكتاب المقدس «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر» (تكوين ٣/٧) ويوجد هامش على الآية فى النص الانجليزى يقول «أشياء يحيطان بهما وسطهما».

١١٠٠-١١١٠ أفاض الشراح في الحديث عن شجرة التين الشهيرة ، وحسبنا ما جاء فى نص ميلتون نفسه .

١١٢٢- لاحظ رمزية الفرد ، الكائن الأصغر (microcosm) للكون الأكبر (macrocosm) وما يحمل ذلك من دلالات للمجتمع والدولة .

١١٢٧-١١٣١ الدلالات هنا واضحة بالنسبة للعالم الكبير ، وخصوصًا للدولة.

١١٤٤- محاكاة لما قاله أوديسيوس (لأوليس) للاعتراض على خطاب ألقاه أجاممنون فى الإلياذة (هوميروس) (١٤/٨٣) .

١١٤٦-١١٥٠ يشير بيردن إلى استعمال حواء لتعبير «يتصادف فيقع» وهو صدى لكلمات إبليس الذى يؤمن بالمصادفة .

١١٥٥- الإشارة إلى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١١/٣) «إن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله» . والملاحظ أن حواء بعد أن أوحت من حديثها فى السطور ١١٤٦-١١٥٠ أن آدم لا يزيد عنها حكمة تعود هنا لتلومه على تركه إياها وعدم إرشادها إلى الخدعة . وهى من ثم تفرغ القيادة من معناها الصحيح - كما يقول فاولر - وتجعلها لا تزيد عن درجات سلطة وأوامر بعضها فوق بعض ، وقارن ما تقوله هنا فى السطر ٤٤٢ وما بعده من الكتاب الرابع .

١١٧٨-١١٨٦ هذا هوَ «الإعجاب» الذى أقَرَّ آدم به لروفائيل فى ٨/ ٥١٠-٥٥٩ . وتتضمن هذه الأبيات تفسيرًا نفسيًا للسقوط ، ومارجورى نيكولسون تقارن بينه وبين تفسير هنرى مور للسقوط على أنه صراع بين الذهن الذى يمثله آدم والإرادة التى تمثلها حواء ، ولكن ذلك قد لا ينطبق تمام الانطباق على قصيدة ميلتون .

## حواشى الكتاب العاشر

١ - ١٦ يقول فاولر إن هذه الأبيات تمثل من زاوية البناء الملحمى ما يسمى فى البلاغة الكلاسيكية بالتوطئة أو الاستهلال *(principium)* (أو ما يوازى فى العربية 'خطبة الكتاب') كما تمثل ما يوازى فى الشعر القصصى عموماً ، بل وفى الشعر المسرحى أيضاً ، ما يسمى بالمدخل *(initium)* وربما كان يقصد ما يوازى فى فن الخطابة وفن الرسائل تعبير *(exordium)* ولكن بعض النقاد الكلاسيكيين يوازون بين **الاستهلال** الملحمى **والمدخل** القصصى والمسرحى ، ويفرق آخرون بينهما قائلين إن الاستهلال يقتصر على تحديد موضوع الكتاب فى الملحمة ، وإن المدخل يرسم المشهد الذى ستقع فيه الأحداث ، ولما كان ميلتون يحدد فى باب '**الموضوع**' المكتوب نثرًا *(The Argument)* موضوع الكتاب ، فإن هذه الأبيات تكاد تقتصر على رسم المشهد ، وإن كان ذلك فى ذاته يعتبر 'توطئة' للأحداث .

ويقول جوزيف أديسون تعليقًا على هذا الكتاب فى مجلة **المُشاهد** *The Spectator* العدد ٣٥٧ (طبعة بوند ، المجلد الثالث) إن الكتاب العاشر يتميز بكثرة الشخصيات وتنوعها وزيادتها عن الشخصيات الواردة فى أى كتاب آخر من كتب الملحمة ، ويضيف قائلاً (فى صفحتى ٣٢٩ و ٣٣٠) : "إن المؤلف يعتزم اختتام الحدث *Action* بتقديم جميع الذين شاركوا فيه من قريب أو من بعيد ، ويعرض عرضًا جميلاً كيف أثر الحدث فى كل منهم ، وبذلك فإن هذا الكتاب يشبه الفصل الأخير من مسرحية محكمة الصُّنع ، حيث يقدم الكاتب المسرحى جميع أبطالها ، مهما صغرت أدوارهم ، بذريعة ما ، إلى الجمهور ، وبحيث يكون الموقف شاملاً للملابسات التى وضع الحدث الأبطال فيها" .

ولن يفوت قارئ هذا الكتاب الطويل إدراك تنوع الشخصيات فيه ، ولكنه ليس قطعًا موازياً للفصل الأخير من التراجيديا التى كان ميلتون يعتزم كتابتها ، بل ربما كان يعتبر الفصل قبل الأخير .

٥ - تعبير 'عين الله' من التعبيرات التى أثارت بعض الجدل فى عصر النهضة بسبب شيوع تصوير العين رمزاً للعدالة ، واقتران ذلك الرمز بموعد قيام الساعة الذى شاعت الإشارة إليه بالتعبير الوارد فى العهد الجديد (**كورنثوس الأولى** ١٥/ ٥٢) من أن قيام الساعة سيحدث "فى طرفة عين" ، وهو ما يذهب إليه روجر وند (Wind) فى كتابه **الأسرار الوثنية فى عصر النهضة** ولكن استعمال العين استعمالاً رمزياً أقدم بكثير من عصر النهضة ، ولنا فى التراث المصرى القديم أدلة تثبت عالمية الرمز وقدمه ، بل وطابعه الإنسانى الشامل الذى يتجاوز تفاسير الكتاب المقدس .

١٦ - يؤكد النقاد على اختلافهم أهمية تعبير "تضاعفت" بمعنى تعددت وتكاثرت ، قائلين إن التعدد والتكاثر من الصفات الأصيلة فى 'الإثم' ، على عكس الوحدة والتوحيد ، ويورد بعضهم آيات من **المزامير** (٣٨/ ١٣ ، ١٦/ ٤) للدلالة على ذلك ، ويقول أحدهم إن الكلمة توحى أيضاً بالتفرق والافتراق ، مُدّللاً على ذلك بأن الخطيئة لم تقع إلا عندما افترقت حواء عن آدم ، وبأن التعدد يوحى بالشرك بالله ، وهو مذهب الوثنية المعادى للتوحيد ، مستمداً حجته من أقوال ميلتون نفسه فى كتابه عن **العقيدة المسيحية** .

١٧ - 'الملائكة الحارسة' angelic guards هم 'الملائكة الحارسون ، (اى guardian angels ) الذين ورد ذكرهم فى 'الموضوع' (فى السطر الأول) وهم مـلائكة الشاروبـيم الذين ورد ذكرهم من قـبل فى الكتاب الرابع (السطر ٥٥٠ وما بعده) وفى الكتاب التاسع (السطر ٦١ وما بعده) وأما التأنيث والتذكير فمـسألة لغوية محـضة ، فالملائكة لا جنس لهـا / لهم ، والقرآن يفضل صـيغة المذكر ، كـما تؤنث العرب الجمع (قالت العرب / العرب تقول / تلك الرسل) .

٣٢ - ٣٣ صورة 'السحابة الخفية' تعنى فى الحقيقة 'السحابة التى تخفى' ومن ثم فنحن نواجـه هنا الحيلة البلاغية القديمة التى تسمى transferred epithet أى نقل الصفة من اسم إلى اسم كقولك

I read a lazy book

بمعنى إننى أقرأ كسـولاً كتاباً ، لا أقرأ كتاباً كـسولاً ، وكذلك فإن secret cloud هنا تعنى 'السحابة الساترة' أو ظلل الغمام (قال تعالى : **﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾** - ٢١٠ - البقـرة) . ولكننا فضّلنا الإبقاء على الـصورة البلاغيـة الأصلية . وأما صـورة الرعد فمـصدرها هو الكتاب المقدس (**رؤيا يوحنا اللاهوتى** ٤/٥) "ومن العرش يخرج برق ورعود وأصوات" وقد سبقت مناقشة صـورة الرعد فى حواشى الكتاب الثانى على السطـرين ٢٦٤ - ٢٦٥ ، والكتاب الثالث على السطور ٣٧٥ - ٣٨٢ .

٣٩ - تعبير الهوة يحيل إلى الآية الواردة فى **إنجيل لوقا** ١٦/٢٦ "وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" .

٤٣-٤٤ سبق الحديث فى حواشى الكتاب الثالث عن رفض الله جل وعلا لأى قول بالتسيير أى بفرض فعل الشر على البشر ، وهى فكرة تتكرر فى ثنايا الملحمة .

٤٦ - صورة الميزان من الصورة المتكررة والأسـاسية فى الملحمة ، وهى - بطبيعـة الحال - قديمة قدم الفكر الإنسانى فى مجال العقيدة (انظر إلياد '**أصول الأفكار الدينية**' ) ولا تقتصر على المصادر الكلاسيكية عن هوميـروس وفيرجـيل حتى عصـر النهضة (سـبنسر وشيكسـبير) بل تسـبق ذلك كله فى التراث المصرى القديم ، ثم فى الـتراث الإسلامى . انظر الحاشيـة على السطور ٩٩٧ - ١٠٠٤ من الكتاب الرابع من الملحمة .

٤٩-٥٣ انظر الحاشـية على السطور ٣٢٣ - ٣٣٣ من الكتاب الشـامن بشأن التفسـير الحرفى لكلمات سـفر التكوين (٢/١٧) "لأنك يوم تأكل منهـا موتًا تموت" ، وأما تعـبير "قبل نهاية اليوم" فقـد أثار عدة مسـائل تتعلق بحسـاب اليوم وفق التـقويم العبـرانى (على نحو ما سـبق شرحه فـى حواشى الكتب السابقة) أى من غروب الشمس إلى غروب الشمس التالى ، أو وفق أنواع أخرى من التقويم ، فنزول كلمة الله للحكم على آدم عند غروب الشـمس يوحى باعتبار الغروب نهاية اليـوم (نهاية اليوم = آخر النهار) وهو التقويم العبرانى ، ولكن آدم يعود فى هذا الكتاب إلى اعتبار الليل جزءًا من اليوم ، وهو التقويم الحديث ، فى السطر ٧٧٣ ، وانظر الحاشية التى ستلحق به ، مما يسمح بتقويم يبيح اعتبار اليوم

ممتـدًا من منتصف الليل إلى منتـصف الليل التـالى ، أو من شروق الشـمس إلى الشروق التـالى ، والواقع أن آدم يتخبط فى حسـاب اليوم ، وربما كان ذلك عمدًا أملاً فى عدم وقـوع العقوبة ، حتى يدرك المعنى الحقيقى لها ، والصورة الاستعارية التى اتخذتها صياغتها .

٥٣- "إسقاط الدّين" يعنى إبراء الذّمة منه ، والمثل الإنجليـزى القديم يقول إن الإمهـال لا يعنى الإعفاء (أى Omittance is not quittance ) وهو الوارد فى مسرحيـة شيكسبير 'كما تهوى' ٣/ ٥/ ١٣٣ ، وهو قريب من القول المأثور إن الله يمهل ولا يهمل .

٥٤- "عائد العدالة" استعارة يواصل بهـا ميلتون الصورة 'التجارية' فى البـيت السـابـق ، وهى تعنى أن العـدالة لا ينبغى أن تعـود علىّ الجحـود والنكران ، وإذن فإن كلـمة 'عائد' ترتبط 'بالعودة' على صاحب الفضل ، مثلما ترتبط بما يسمى 'المردود' أو 'الدخل' بلغة التجار .

٥٩- اقتران الرحمة بالعدل قـديم فى التفاسير اللاهوتية ، وعادة ما يشرحهـا الشارحون استناداً إلى ما جاء فى المزامير (٨٥/ ١٠) "الرحمة والحق التقيا . البر والسلام تلاثما" ، ولكن أحد النقاد يقول إن هذه أربعة فـضائل لا فـضيلتـان ، ويفضل إرجـاع الاقتـران إلى التراث الرومـانى الذى يحدد الفـضائل الامبراطورية بأنها العدل مع الرحمة (Iustitia and Clementia) .

٦٠-٦٢ كلمة الله التى ستصبح بشـرًا هى المسيح عليه السلام ، وتقول العقيدة المسيحية إن المسيح باعتباره بشرًا ، وهو كلمة من الله (قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ - ٤٥/ آل عمران) سوف يـفدى الإنسان بموته ، ويقول ميلتون فى كـتابه عن العقيدة المسـيحية "إن مهمة الوسـاطة للمسيح هى أنه . . . قام طواعية ، ولا يزال يقـوم ، نيابة عن الإنسان ، بأداء كل ما هو مطلوب لبلوغ رضى الله والخلاص الأبدى" . وقد آثرت استعمال لفظ 'المسيح' أو 'الكلمة' فى الترجمة بدلاً من 'الابن' خشية بلبلة القارئ غير الملم بالعقيدة المسيحية ، ونشداناً للاتساق فى النص العربى .

٨٢-٨٤ "الثالث" هو إبليس ، وسـوف تناقش مسألة توزيع الذنـب بين إبليس والثعبـان فى الحاشـية على السطور ١٦٤ - ١٧٤ من هذا الكتاب نفسه .

١٠١- ذكر الله صراحة (God) بدلاً من كلمته وهو المسيح مقصـود ، فالحاكم هنا هو الله ، فهو تحوّل فى الصياغة لا فى المعنى .

١٠٢ - ١٠٨ الإحالة إلى سفر التكوين ٣/ ٩ "فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت" .

١١٦ - ١١٨ الإحالة إلى تكوين ٣/ ١٠ "فقال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت" .

١١٩ - ١٢٣ انظر تكوين ٣/ ١١ "فقال من أعلمك أنك عريان . هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها" .

١٤٣- انظر تكوين ٣/ ١٢ "فقال آدم المرأةُ التى جعلتها معى هى التى أعطتنى من الشجرة فأكلت" .

١٤٧- "أو حتى مساوية لك" تحيل القارئ إلى حديث حواء فى الكتاب التاسع (٨٢٣ - ٨٢٥) حيث تسأل نفسها إن كان من الأفضل ألاّ تدعو آدم لمشاركتها الثمرة ، وأن تحتفظ بها لنفسها ، فمن شأن ذلك ، حسبما تقول أن "يجعلنى أكثر مساواةً معه ، وربما أيضاً . . . أن أكون أحيانا أسمى منه".

١٤٩-١٥٠ انظر **كورنثوس الأولى** (١١/٨-٩) "لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل ، ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل" .

١٥٤-١٥٥ انظر **تيموثاوس الأولى** (٢/١٢) "ولكن لست آذن للمرأة أن تُعَلِّم ولا تتسلط على الرجل بل تكون فى سكوت" .

١٦٤-١٧٤ قضية محاسبة الثعبان على خطيئة إبليس قضية شائكة ، ويذهب دنيس بيردن فى كتابه "**الملحمة المنطقية**" (١٩٦٧) إلى أن ميلتون وجد صعوبة فى تقبل حكم الله على الثعبان لأنه حيوان أعجم ، الأمر الذى جعله يكتب هذه الأبيات لتبرير الحكم الذى يبدأ فى السطر ١٧٥ ، ويرد على ذلك فاولر قائلاً إن أحد مفسرى الكتاب المقدس واسمه أندرو ويليت كان قد أصدر كتاباً فى مطلع القرن السابع عشر يفسر فيه سفر التكوين ، ويورد فيه رأياً لأحد آباء الكنيسة اسمه ميرسيروس يقول فيه "إن الله يصدر اللعنة على الثعبان لأنه كان الوسيلة والأداة التى استعملها إبليس ، وإن عدالة الله تقضى بمعاقبة الوسيلة والفاعل معاً . . . [ مستشهداً بآية من التوراة (**سفر اللاويين** ٢٠/١٥) تقول "وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها" ] . . . . وعلى الرغم من أن الثعبان لا عقل له فإن الله يعاقبه من أجل تعليم الإنسان ، إذ يقصد باللعنة إفهامه مدى غضبه على ما فعلاه معًا لإغوائه" .

أما طبيعة اللعنة فقد اختلفت الآراء بشأنها ، ونورد نص كلمات سفر التكوين فى الحاشية التالية ، فالبعض ينسب اللعنة كلها إلى الثعبان ، وينسبهما البعض الآخر رمزياً إلى إبليس ، وهناك فريق ثالث يفسرها تفسيراً حرفياً بالنسبة للثعبان وتفسيرا دينياً بالنسبة لإبليس ، وفريق رابع (ينتمى إليه **كالفن**) ينسب القسم الأول من اللعنة إلى الثعبان والقسم الثانى إلى إبليس . ويقول فاولر إن "سطور ميلتون تضم آراء هذه الجماعات كلها تقريباً" .

١٧٥-١٨١ الإحالة إلى **سفر التكوين** (٣/ ١٤-١٥) "فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه" .

١٨٣- "حواء الثانية" إحالة إلى التعبير نفسه فى الكتاب الخامس ، السطر ٣٨٦ .

١٨٤- عندما عاد الحواريون من الوعظ قائلين إنهم قد أخضعوا الشياطين باسم يسوع المسيح رد عليهم قائلاً "رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء" (**إنجيل لوقا** ١٠/١٨) .

١٨٥- انظر **أفسس** (٢/٢) ". . . سلكتم . . . قبلا . . . حسب رئيس سلطان الهواء" .

١٨٦- انظر **كولوسى**(٢/ ١٤-١٥) وهو الذى يذكر أن المسيح قد أعلن إزاحة الإدانة القائمة على أساس القانون "إذ محا الصك الذى علينا فى الفرائض ، الذى كان ضدًا لنا وقد رفعه من الوسط مسمّرًا إياه فى الصليب ، إذ جرد الرياسات والسلاطين ، أظهرهم جهاراً ، ظافرًا بهم فيه" .

١٨٨- انظر **المزمور** ١٨/٨٦ "صعدت إلى العلاء . سبيت سبيًا" وهذه الآية نفسها تشير إلى المسيح فى **أفسس** ٨/٤ .

١٩٠- انظر **رومية** (١٦/ ٢٠) حيث يوجد النص الذى يقطع بصحة التفسير الدينى (الروحانى) للّعنة الصادرة على الثعبان "وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعًا" وفى الهامش ، فى النص الإنجليزى ، توجد كلمة "يطأ" فى مقابل كلمة يسحق ، وفى طبعة أخرى تتبادل الكلمتان المواقع ، ولما كان ميلتون يعود فى السطر التالى (١٩١) إلى كلمة السحق ، فقد أبقينا عليها فى السطرين ترجمة عربية للكلمتين الإنجليزيتين (tread) & (bruise) .

١٩٢- يقول فاولر إن ترتيب اللعنات ذو أهمية بالغة . والحق أن ميلتون حريص على البدء بالأدنى والأشد قبل التقدم إلى الأعلى والأخف ، خصوصاً لأن فداء الإنسان الذى تنص عليه العقيدة المسيحية ينبع من كرم الله وعطفه دون أن يكون جزاء وفاقاً لأعماله ، ولذلك يأتى به آخرًا للدلالة على ذلك .

١٩٧-٢٠٢ انظر **سفر التكوين** (٣/ ١٧) "وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك" .

٢٠٣-٢٠٨ انظر **سفر التكوين** (٣/ ١٨-١٩) "وشوكًا وحسكًا تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التى أُخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود" .

٢١٠- ٢١١ سبق إيراد شروط الحظر فى الكتاب الثامن (انظر الحاشية على ٣٢٣ - ٣٣٣) والله هنا يبعد خطر الموت 'الآنى' لأنه سبق أن أشار فى السطر ٢٠٢ من قبل إلى مشقة آدم "طيلة أيام حياتك كلها" .

٢١٣- انظر وصف "التغيير" الذى يصيب الهواء فى السطور ٦٩٢-٧٠٦ من هذا الكتاب .

٢١٤- انظر **فيلبى** (٢/ ٥-٧) "فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى يسوع المسيح أيضاً . الذى إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله . لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه الناس" . والواضح أن كلمة servant الإنجليزية تعنى فى هذا السياق العبد (عبد الله) أى الإنسان مثلما تعنى الخادم فى سياقات أخرى ، وهكذا فالعباد هم الناس ، والفكرة عسيرة على غير الملمّين بالعقيدة المسيحية .

٢١٦- لاحظ المعنى الرمزى للوالد هنا ، أو الأب ، فجميع المؤمنين بالمسيح يدعون أبناء الرب ، وهناك نص فى **الرسالة إلى العبرانيين** (٢/ ٧) ربما كان ميلتون يشير إليه وهو "أنا والأولاد الذين أعطانيهم الله" ، ومازلنا نشير إلى "آباء الكنيسة" بمعنى رجال الدين .

٢١٦-٢٢٣ يشير ويليت فى الكتاب المذكور فى الحاشـية على السطور ١٦٤ - ١٧٤ عاليه ، إلى ما قيل من أن الله قتل الحيوانات وكسا بجلودها آدم وحواء "رمزًا . . . لستـر عُرْى النفس بالتوبة" رافضًا هذا القول ، ويورد بعض أسبـاب ما حدث قائلاً إن من بينها تـعليم الإنسان كيف يهتم بجسـده ، وستر عزيه بلباس الحـشمة *vestimenta honoris* ، وتعليم الإنسـان القـتل لصنع الملابس ، ولتـذكيـره بالفناء. ولكن هذه التفسيرات تخرج بنا عن السياق الشعرى الذى تقع فيه الصورة ، فستر الجسد رمز للستر بصفـة عامة ، وارتداء ثياب العفة صورة شـعرية شائعة ، كما كان الشـعر الدينى يحفل بصور اكتساء المرء ثيـاب الصلاح والتقوى . ومن الأمثلة الشهيـرة على ذلك قصيدة "يوم الأحد" للشاعر جورج هيربرت التى يقول فيها :

The brightnesse of that day
We sullied by our foul offence
Wherefore the robe we cast away
Having a new one at his expence
Whose drops of blood paid the full price
That was requir'd to make us gay
And fit for paradise

وترجمتها

فى وقدة النهار والضياء
تلطخ الرداء
بفعلة شنعاء
والآن ألقيناه واستترنا
بسترة جديدة أتى بها لنا
مسددًا كل الثمن
بالقطر من دمه
وهو الذى لابد منه
حتى يكون الفرح نهلاً
ونحن للفردوس أهلاً

وأما مصدره من الكتاب المقدس فهو سفر إِشَعْياء ٦١/ ١٠ "أفرح فرحًا بالرب ، تبـتهج نفسى بإلهى لأنه قد ألبـسنى ثياب الخـلاص ، كسانى رداء البـر مثل عريس يتـزين بعمـامة ومثل عـروس تتزين بحليّها" وقد سبق استعمال ميلـتون لصورة رداء الطّهر والبراءة فى الكتاب التاسع فى السطور ١٠٥٤ - ١٠٥٩ وفى السطور ١٠٧٤ - ١٠٧٦ .

٢٣٠ - اعترض أديسـون على الحدث الرمزى الذى يبدأ هنا ويستـمر على امتداد أبيات كثـيرة قائلاً إنه لا يلائم طبيعة الملحمة ، ولكن نقادًا آخرين ردوا قائلين إن جانباً كبيرًا من قصيدة ميلتون تقع أحداثه فى

العالم الخفىّ ، وإذا كنا قد قبلنا تصوير الملائكة والشياطين وما يدور بينهم من حوارات فلماذا لا نقبل تصوير المجردات فى صور حسية ؛ وقد سبق تصوير الموت والخطيئة فى الكتاب الثانى من الملحمة .

٢٤٤ – انظر الأبيات ١٠٠٩ – ١٠١١ من الكتاب التاسع حيث يصور ميلتون آدم وحواء وهما فى نشوة الخطيئة "يتوهمان أنهما يحسان أن / الربوبية فى باطنهما تنسج لهما أجنحة يطيران بها / فيطلان على الأرض من عل" ، ويقول النقاد إن الأجنحة تنمو للزوجين وللخطيئة معًا وفى الوقت نفسه ، بمعنى أن الحبكة الثانوية الخاصة بالخطيئة لا تمثل حدثاً مستقلاً بل هى معالجة للحدث نفسه (الحدث الرئيسى) بأسلوب فنى مختلف ومن وجهة نظر مختلفة ، وميلتون يشير إلى ذلك من طرف خفى عندما يقول فى السطر ٢٢٩ "وفى أثناء ذلك" ملمحًا إلى أن ارتقاء الخطيئة متزامن مع سقوط الإنسان .

٢٥٢ – ٣٢٣ المعروف أن تقاليد الملحمة الكلاسيكية تتضمن بناء صرح أو مدينة ، مثل بناء قرطاجنة فى ملحمة **الإنيادة** لفيرجيل (١/ ٤٢٣ وما بعده) وتزخر **الفردوس المفقود** بأعمال إنشائية كثيرة ، فالله سبحانه يخلق الخلق كله (فى الكتاب السابع) والشياطين يبنون قصر الشياطين بانديمونيام (الكتاب الأول) والجسر الممتد فوق العماء هنا (١٠) .

٢٥٣ – ٢٥٤ انظر الحاشية على السطر ٣٩ .

٢٦١– تستخدم الخطيئة المصطلح اللغوى الخاص بالفكر الشيطانى ، ومن أهم ما يبرز فى هذا المصطلح مفهوم 'الأقدار' (بمعنى 'النصيب' أو 'القسمة' أو 'المكتوب') ولقد استخدم آدم اللفظ نفسه فى الكتاب التاسع (٩٥٣) وحواء (٨٨٢) فى الكتاب نفسه .

٢٦٤– 'الظّل الناحل' – عادة ما كان الموت يُصوّر فى صورة هيكل عظمى أو جسم بلغ أقصى درجات الهزال والنحول .

٢٦٨ – ٢٧٠ 'وأتذوق / طعم الموت' إشارة غير مباشرة ، تتضمن تورية ساخرة ، إلى ما سبق أن ورد فى الكتاب التاسع حين خاطب آدمُ حواء بعد السقوط ، ملاعبًا ملاطفًا ، قائلاً بإنها تتسم

بدقة الذوق
والتأنق ، ونصيبك من الحكمة ليس ضئيلاً
مادمنا نحدد لكل مذاق معنى
ونصف حاسة الذوق بالحكمة
(٩/ ١٠١٧ – ١٠٢٠)

إذ يشير آدم هنا إلى ما سبق أن ذكر عن عدم خلط مذاق بمذاق عند إعداد العشاء للملاك روفائيل (الكتاب الرابع ٣٣٢ – ٣٣٦) ووصفها بالحكمة هنا فيه نقض لما فعلته حين ضحّت بالطاعة فى سبيل حاسة الذوق ، مما يدل على تدهور النسق القيمى لدى آدم بعد السقوط ، ولذلك فإن الأبيات التى يقول فيها الموت إنه 'يتذوق طعم الموت' تعتبر مكمّلة أو موضحة لطبيعة ذلك المذاق الذى تغنّى به آدم من قبل ، وهذا واضح فى صلب حدث الملحمة ، لأن مذاق الثمرة المحرمة كان مذاق الموت ، مما

دفع ناقدة اسمها كستر سفندن إلى إقامة تماثل رمزى بين الموت وحواء ، فى كتاب عنوانه ميلتون والعلم وهى تورد (فى صفحة ١٢٨) مقتطفات من كتاب كتبه سباستيان فرانك (Sebastian Franck) عام ١٦٤٠ بعنوان **"الثمرة المحرمة ، أو مقال حول شجرة المعرفة بالخير والشر التى أكل منها آدم أولاً ، وغدا البشر حتى الآن يأكلون منها طعام الموت"** .

(The forbidden fruit, or a Treatise of the tree of knowledge of Good and Evil which Adam at first, and as yet All Mankind doe eate death)

ويقول فرانك في بعض هذه المقتطفات إن جميع البشر ، مثل حواء ، "يأكلون طعام الموت ومع ذلك . . . يظنون أنهم يأكلون طعام الحياة ، آملين أن يصبحوا أرباباً ،" وتقول الكاتبة تعليقًا على ذلك إن حواء تلتهم الثمرة المحرمة بأسلوب يذكرنا بالموت نفسه ، "فإطلاق الشهية المتطرفة فى العالم يأتى بالموت الذى يلتهم الناس فلا يشبع نهمه" .

٢٧٣ - ٢٧٨ سبق أن ورد تشبيه إبليس بالنسر فى الكتاب الثالث ، السطر ٤٣١ وما بعده ، وأما اعتبار المتوقّع حاضرًا (Prolepsis) وهى حيلة بلاغية قديمة تعنى الإشارة للمستقبل باعتباره قد وقع فعلاً (مادام توقعه قائماً ومؤكداً) وهو ما نقرؤه فى تعبير "الجثث الحية" فيقول أحد النقاد إنه ربما كان مستوحىً من 'بلينيوس' (Pliny) فى كتابه **التاريخ الطبيعى** (١٠/٧) - وهى العبارة التالية :

*triduo antea volare eos ubi cadavera futura sunt*

٢٨٩ - ٢٩٣ (أ) **المحيط القطبى الشمالى** هو المحيط المتجمد الشمالى (The Arctic Ocean) والذى اشتهر باسم البحر المتجمد فحسب *mare concretum* (التى قد تعنى أيضًا البحر الصُّلب) وهو يرد فى النص باسم (The Cronian Sea) ويقول النقاد إن اختياره فى هذا التشبيه ملائم للموت الذى يجمّد الحياة .

(ب) **الممرّ المائى المتخيَّل** : فى عام ١٦٠٨ قام رحّالة يدعى هدسون (Hudson) بالبحث عن ممر مائى تخيَّل الناس وجوده فى الشمال الشرقى بحيث يوصل الملاّح إلى (قيطان) ولكنه لم يجد منفذاً وسط الجليد .

(جـ) **"بتسورا"** أو بتشورا نهر فى سيبيريا ذكره ميلتون فى دراسة أسماها **"موجز تاريخ بلاد الموسقو"** (أى روسيا) .

(د) **"قيطان"** مملكة مغولية قديمة ، ورد اسمها فى الأطلس التاريخى ، ولها اسم آخر هو "خيطان" ولكن ميلتون يوردها فى النص باسم (Cathay) (انظر السطر ٣٨٨ من الكتاب الحادى عشر) وكانت تعتبر مملكة مستقلة عن الصين وإلى الشمال منها . ووصفها بالثراء يوضح مرمى التشبيه ، لأنها تمثل الفردوس .

٢٩٣ - ٢٩٦ '**بحربته الصخرية**' تعبير يماثل ما ورد فى مسرحية ''مأساة دايدو'' التى كتبها كريستوفر مارلو (بالاشتراك مع ناش) قبل نحو قرن من الزمـان ، فى الفصل الثانى ، المشهد الأول ، السطر ١١٥ ، ألا وهو أن ''للموت الشاحب حربة حجرية'' والواقع أن الكلمة الانجليزية mace قد تعنى الصولجان أيضًا ، ولكن الإشارة هنا واضحـة إلى السلاح ذى الرأس الذى كان القدماء يستـخدمونه فى الحرب وكان يشير رمزيا إلى الدمار الكامل ، ومن ثم فهو يتناقض فى دلالته مع قوة الخلق الإلهية ، ووصفه بالصخرى أو الحجرى يعنى أنه يتسبب فى التحـجر لا أنه صنع من الحجر ، ولم أستطع ترجمة الصفة ''بالمُحَجِّر'' لصعوبة فهمها وعدم شيـوعها ، والنسبة فى الانجليزية ، على أية حال ، تسمح بكل من الدلالتين سواء ما ورد فى ميلتون (petrific) أو فى مارلو (Stony) .

(ب) **ديلوس** (Delos) جزيرة رفعها 'نبتون' (Neptune) إله البحر بحـربته ذات السّنان الثلاثى من وسـط الماء حـتى تـأوى إليـها 'لاتونــا' (Latona) وتضـع فـيه مـولوديها 'أبـولو' (Apollo) و 'ديانا' (Diana) ، وظلت جزيرة طافية (أى مـتنقلة) حتى ثبّتها 'جوبيتر' (Jupiter) بالسلاسل إلى قاع البحر . وقد سبقت الاشارة إلى ديلوس وربطها بالفردوس رمزيا باعتبارها مأوى آدم وحواء ، فى الكتاب الخامس (٢٦٥) والكتاب التاسع (٣٨٧) حيث يكنّى عـن 'ديانا' بأنها 'بنت جزيرة ديلوس' ( Delia من Delos ) . . .

(جـ) **الرمح ذو السنان الثلاثى** ذو دلالتين متنازعتين ، الأولى هى التـشبيه برمح 'نبتون' الذى يتحكم فى الأمواج ، وهى دلالة تتضمن الثبات والـسلام ، والثانية هى ارتباط الرمح ثلاثى السنان بإبليس ، فأسنانه الثلاثة ترمز لثلاثية الجحيم (الشيطان والخطيئة والموت) .

٢٩٦ - ٢٩٨ **جُرجونية** 'الجرجونات' (Gorgons) كائنات خرافية كنّ إذا نظرن إلى أحد حوّلنه إلى حجر ، وكانت 'ميدوزا' (Medusa) جرجـونة ، وورد فى **الأوديسية** (الصيغة التى يفضلهـا الدكتور أحمد عتمان لترجمة عنوان ملحمة **الأوديسا**) أن أوديسيوس (أوليس) Odysseus (Ulysses) كان يتحاشى نظرتها إليـه خشيـة تحويله إلى حجر . انظـــر الحاشية (رقم ٧٠) علـى السطر رقم ٦١١ من الكتاب الثانى .

٣٠٧ - ٣١١ ســوســه ، فى تونس الحاليـة ، كانت المـقر الشـتوى لملوك الفـرس ، وكانت أحـيانًا تـسـمى ''ممنونيا'' أو ''الممنـونية'' (Memnonia) نسبـة إلـى 'ممْنـون' ، ابن 'تيثونـوس' (Tithonus) و 'أورورا' (Aurora) ، الذى كان يقيم فيها . والتشبيه يتضمن أوجه شبه كثيرة ، فالموت وأرتخشثا (Xerxes = Artaxerxes) يبنى كل منهما جسراً ، وكل منهما يعتزم اخضاع أمم برمّتها ، وكلاهما متكبر ، وكلاهما 'يضرب البحر' . ويقول أحـد النقاد إن أهم مـا يربط الموت 'بأرتخشثا' إشارة مضمرة إلى قصـة شهيرة فحواها هو أن ذلك الملك بكى وهو يستعرض جـيشه عندما تذكر أن هذه الحشود كلها قد كـتب عليها أن تموت وسوف تختفى فى غضون قرن واحـد ويلاحظ القارئ أن كثيرا من الصور الفنية مستقى من السياقات الحربية فى مواطن الحديث عن الأشرار .

٣١٣- '**فى تشييـد الجسور**' - الأصل هـو pontifical وهى تورية مبـنية من الكلمتين اللاتـينيتين pons

(جسر) و facere (يصنع) ولكن المعنى المعتاد للكمة وهو 'أسقفى' مقصود أيضاً، والدلالة المضمرة، وهى أن الكهنة بارعون براعة الموت والخطيئة فى تمهيد الطريق للجحيم ، تستمد قوة التورية الساخرة من اللقب الذى يطلق على البابا وهو pontifex والذى كان يفسره العلماء بأنه ينهض بدور بانى الجسور بين هذا العالم والعالم الآخر . (معجم الرموز *A Dictionary of Symbols* الذى وضعه J. E. Cirlot وترجمه جاك سيج Jack Sage عام ١٩٦٢ ونشر فى لندن) .

٣١٦ - 'أول مرة' تشير إلى السطور ٤١٨ - ٤٢٢ من الكتاب الثالث .

٣٢١ - ٣٢٤ كانت الحدود (التخوم) القديمة للسماء والعالم (الكون) تلتقى دون فواصل ، ولكن الطريق إلى الجحيم أصبح الآن ذا عوائق ، وأما الطرق الثلاثة فهى : سُلّم المعراج إلى السماء (الكتاب الثالث - السطر ٥١٠ وما بعده) والممر الممتد عبر الغلاف الخارجى المصمت للكون وحتى الأرض (الكتاب الثالث - السطر ٥٢٦ وما بعده) وأخيراً هذا الجسر الجديد . واليسار (٣٢٢) دلالة على الجانب الشرير الذى يوضع فيه الفاسقون ، بناءً على المثال الوارد فى إنجيل متى (٢٥/ ٣٣) "فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار" .

٣٢٨ - ٣٢٩ يختلف الشراح اختلافًا كبيرًا فى تحديد مسار إبليس بين كوكبات النجوم وبين البروج ، كأنما يحققون نصاً علمياً ، وأهمهم فيريتى Verity وهيوز Hughes (فى طبعته لأعمال ميلتون الصادرة فى نيويورك عام ١٩٥٧) اللذان يرددان مقولة نيوتن من أن إبليس يحاول تفادى اكتشاف الملاك 'أوريل' (Uriel) له فيتخذ مساراً يبتعد به كل البعد عنه ، قائلين إنه لما كانت الشمس آنذاك فى برج الحمل فإن إبليس يتخذ مساراً "بين كوكبتين فى بقعة أخرى من السماء" . ولكن فاولر يرد على ذلك القول واصفًا إياه بالخطأ قائلاً إنه لو كان قد ابتعد قدر الطاقة عن نظر 'أوريل' لما احتاج إلى التنكر ، ثم يثبت من واقع النص أن إبليس يدخل العالم من برج الميزان ويخرج منه بين برج العقرب وبرج القوس .

٣٣٧ - المقصود بالأردية (جمع رداء) هو ما استتر به آدم وحواء (فى الكتاب التاسع ١١١٠ - ١١١٤) وألوان التظاهر والذرائع (الكتاب العاشر السطر ١٦٦ ومابعده) .

٣٤٢ - "ليلاً" : المقصود فى الليلة التى رفع فيها آدم شكواه .

٣٤٤ - ٣٤٥ أى أنه استمع إلى تذكر آدم للّعنة وتفسيره إياها فى السطر ١٠٣٠ وما بعده .

٣٥٨ - 'قوة التوافق الخفية' هى قوة 'الانجذاب' أو 'القوة الفطرية' المشار إليها فى الأبيات ٢٤٦ وما بعدها عاليه .

٣٦٥ - هذا تفاخر أجوف وكاذب بدليل ما ورد فى الأبيات ٢٠٩ - ٢١٣ من الكتاب الأول و ٨٠ - ٨٦ من الثالث . وقد سبقت الإشارة إلى دلالة الثلاثية الجهنمية .

٣٧٩ - انظر الكتاب الرابع ، السطر ١١١ : "سأتقاسم ملك الكون مع ملك السماء" .

٣٨١ - انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (١٦/٢١) حيث يرد وصف أورشليم الجديدة : "والمدينة كانت موضوعة مربعـة طولها بقدر الـعرض . فقـاس المدينة بالقصبـة مسافـة اثنى عشر ألف غـلوة الطول والعرض والارتفاع متساوية" . أما العـالم (الكون) فتـتكرر الإشارة إلى أنه 'دائرى' فى **الفردوس المفقود** ، وانظر مثـلاً الكتاب الثالث ، السطر ٧١٨ ومـا بعده (حيث يتـحدث 'أوريل' عن الخلـق) وترد فى السطر ٧٢٠ إشارة إلى 'الجدار المستدير' وكلمة 'الكرة' فى السطر ٧٢٢ .

٣٨٤ - 'ولدى - وحفيدى معاً' - لأنه ثمرة علاقات إبليس الآثمة بالخطيئة وهى ابنته .

٣٨٦ - 'الخصومة' - لأن كلمة شـيطان تعنى فى اللغة السامـية الأم (Protosemitic) 'الخصم' ، وقد انتقل المعنى إلى بعض اللغات السامـيـة المتفرعة منها . وكلمة 'شت' (القريبة من 'شط' بمعنى الجهة المقابلة) ربما كـانت ذات علاقة قـديمة بكلمة 'ست' المصـرية وهـى اسـم رمـز الشر عند المصـريين القدماء ، على نحو ما يذهب إلى ذلك الدكتور لويس عوض ، وربما كان فى العربية بعض من المعنى القديم لا فى 'الشت' فقط بل فى 'الشطط' وفى شطّ واشتطّ (بمعنـى بَعُد عن الحق - اللسان) وفى القرآن "ولا تُشطط" (ص - ٢٢) و الشّطَطُ (الكهف - ١٤) (الجن - ٤) ومن ثم فإن 'الشيطان' قد يتصل بمادة الكلمة فى العربية أيضاً .

٣٩٩ - ٤٠٢ انظر الكتاب الثانى ٨٣٩ - ٨٤٤ وانظر **رومية** (١٤/٥ ، ١٧ ، ٢١) : "لكنْ قد مَلَكَ الموت من آدم إلى موسى" ، "لأنه إن كان بخطية الواحـد قد ملك الموت بالواحد" ، "حتى كما ملكت الخطية فى الموت هكذا تملك النعـمة بالبر للحياة الأبدية بيـسوع المسيح ربنا" . وأما تعـبير 'استعباده' (٤٠٢) فهو يستند إلى ما جاء فى **إنجيل يوحنا** (٣٤/٨) "إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية" .

٤٠٧ - انظر **رومية** (١٢/٥) "من أجل ذلك كأنما بـإنسان واحد دخلت الخطيّة إلى العـالم وبالخطيّة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع" .

٤٠٩ - محـاكاة ساخرة مـريرة لأمر موسى عليـه السلام إلى يشوع باصطحـاب بنى إسرائيل إلى الأرض الموعودة وامتلاكها (**تثنية** ٧/٣١ وما بعـده) ولكن مصدر المفـارقة هنا هو أن الخلاص سـوف يجعل الموت سبيـلاً إلى الأرض الموعودة وهى الفردوس ويلاحظ النقاد أن تقـاليد الاحتفال بالـنصر والغلبة مسـتقاة فى هذه الملحـمة من التراث الرومـانى الحربى والسـياسى ، وهكذا يستـخدم ميلتـون كلمة (detriment) بمعنى 'الضرر' فى هذا البيت التى كانت تعنى مؤاخذة الـقنصلين اللذين تفوض إليهما السلطة المطلقـة فى رومـا **فى أوقـات الأزمات فـقط** ، فقـد يأمران أو يـأمر أحدهمـا بقتـل أحد الأشخاص فـلا يضار (لا يصيبـه الضرر) بسبب السلطة المفـوضة إليه ، وإن كان عليـه أن يبرر ذلك قانونًا .

٤١٣ - 'الخسوف الحقيقى' يعنى أن ضوءها غـام فعلاً لا بسبب الاحـتجاب خلف كـوكب آخر ، ويلمح ميلتـون هنا إلى أن 'الطمس' قد يكون بـسبب الاصطدام ببـعضهـا البعض لا بسـبب الظاهرة التى يرصدها الرائى فـى مكان ما ولا يرصـدها راء فى مكان آخـر ، وأما معنى 'العدوان' فهو التأثير الضار ، أو 'الخبيث' الذى كان يُظنّ أن الكواكب تمارسه على بعضها البعض .

٤١٨ - فى الأصل [ العُمُد ] 'التى ازدرت غضبته' . . .

(That Scorned his indignation ...)

ويقول فاولر إن ذلك ربما يكون مستمداً من قول فيرجيل فى *The Georgics* (الزراعيات) إن المحيط كان غاضباً من قيام لوكرين ببناء حاجز أمواج على الشاطئ .

٤٢٠ - اسم الموصول للمثنى يرجع إلى الخطيئة والموت .

٤٢٧ - 'الكبراء' هم 'شيوخ ملائكة الصاروفيم والشاروبيم' الذين التقوا فى الركن القصىّ من القصر فى الكتاب الأول ٧٩٤ وما بعده .

٤٣١ - ٤٣٩ أ - مدينة ''أستراكان'' (Astracan) كانت عاصمة لمملكة من ممالك التتار تحمل الاسم نفسه ، وتقع بالقرب من مصب نهر الفولجا ويكثر ميلتون من الإشارة إليها فى كتابه عن تاريخ روسيا الذى سبقت الإشارة إليه .

ب- **ملك الفرس** : فى الأصل Bactrian sophy والصفة تعنى الفارسى وأما 'صوفى' فهى تحريف للاسم 'صافى الدين' (الذى شاع بدلاً صفىّ الدين) ، وهو اسم الأسرة الحاكمة فى بلاد الفرس من مطلع القرن السادس عشر تقريبًا حتى عام ١٧٣٦ ، وهى أسرة أو دولة الصفويين ، أو الدولة الصفوية .

جـ- **قرنى الهلال التركى** : لا تقتصر إشارة الهلال إلى العلم التركى بل تتعداه إلى التشكيل الحربى لكتائب الأتراك ، فهى تورية .

د - **مملكة أرمينيا الكبرى** : فى الأصل ((The realm of Aladule)) والمقصود بها أرمينيا والأراضى التابعة لها ، أى الخاضعة لحكمها .

هـ- **تبريز** هو الاسم الحديث لمدينة 'توريز' القديمة (بقلب الباء واواً) .

و - **قزوين** مدينة تقع شمالى طهران وينسب إليها البحر المعروف ، وللإسم عدة أشكال قديمة ، مثل Casbeen (الموجود فى نص ميلتون) و ((Kazvin)) .

٤٤٤ - 'پلوتو' هو حاكم العالم السفلى فى الأساطير الإغريقية .

٤٤٨ - كان من دواعى دخول إبليس متخفياً هو التحقق من مدى ولاء أتباعه .

٤٥٠ - ٤٥٢ استدعاء صورة إبليس الأولى يقصد به إبراز التناقض إلى أقصى حد بينها وبين صورة الثعبان الذى حُوّل إليه .

٤٥٧ - استعمال لفظ 'الديوان' يستدعى إلى الذهن مجلس الدولة الشرقى وهو ما يساعد على استمرار الصور الشرقية السابقة ودلالاتها .

٤٦٩ - ٥٠٢ يقول دنيس بيـردن فى كتابه عن **الملحمة المنطقية** (١٩٦٧) إن هناك "ملحمة شيطانية" تجرى أحداثها بالتوازى مع أحداث ملحمة ميلتون ، ويؤيده فاولر مستشهدا بهذه الأبيات التى يستعرض فيها إبليس الأحـداث التى وقعت حتى تلـك اللحظة فى صورة ملخص جـذاب وبذلك يدعو الشـياطين (والقارئ) إلى أن يظن أنه بطل الملحمة بطولية زائفة ، وأنهم أيضاً يشاركون فيها .

٤٧١ - 'اللجج الهيولية' : الصفة فى الأصل هى (unreal) وهى لا تعنى هنا 'الوهمية' بل تعنى التى لا شكل لها ومن ثم فهى ليست مـادية بالمعنى المفهوم ، وهنا يكشف إبليس عن إيمانه بالصّورة التى تهب المادة حقـيقتها ، فكـأنما يدين نفسه بعد أن تَحـوَّل من صورة إلى صورة فى ثنايا الملحمـة ، أى كأنما يصف نفسه بأنه أصبح أقرب إلى 'الهيولة' بعد أن عصى الله .

٤٧٧ - ٤٧٩ 'القديم' أى غير المخلوق أو الأزلى ، وانظر البيت ٩٦٢ من الكتاب الثانى حيث توصف ربة الليل بأنها 'أكبر الأشياء سناً' ، ولكن لا الليل ولا العماء عارض إبليس ، بل إن العـماء قد ساعده فى الواقع - انظر الأبيات ١٠٠٢ - ١٠٠٩ من الكتاب الثانى .

٤٨١ - ٤٨٢ سـبق ذكـر الشائعـات من قـبل فى الكتـاب الأول ٦٥١ - ٦٥٤ ، والثـانى ٣٤٦ - ٣٥٢ ، والسابع ١٤٥ - ١٥٦ .

٥١٧ - 'الحكم الصادر عليه' هو فى الحقيقة الحكم الصادر على الثـعبان (انظر الحاشية على الأبيات ١٦٤ - ١٧٤ عاليه) وهو ينفذ الآن تنفيـذاً حرفيًا ، ويقول بعض النقاد إن المسخ يجب ألا يفسر تفسـيراً حرفياً باعتبـاره عقوبة فحسب ، إذ إنه فى الـواقع حكم من جانب الله على طبيعـة إبليس ودحض لما زعمه من قبل من أنه بطل مغوار ، فالمسـخ تجسيد لحقيقة معاداة إبليس لخـصال البطولة أو عدم قدرته على التحلى بها ، وأهم من قال بهذا هو جون سـتيدمان فى مقال بعنوان 'فضيلة البطولة والصورة الإلهية فى الفردوس المفقود' ، ونشره فى مجلة معهـدى واربورج وكورتولد عام ١٩٥٩ وهذا الانقلاب فى المصير (peripeteia) ذو طابع درامى غلاّب إذ مـا يكاد الشياطين يصلون إلـى تصور أنهم أبطال فى ملحمة إبليس حتى نتبين أنهم وحوش فى ملحمة الله . ويقول هيوز فى طبعته لأعمال ميلتون الكاملة إن الفكر الدينى والفكر الفلسفى يلتقـيان هنا - أى عند نقطة الانقلاب المذكورة - مستـشهدًا بما يقوله جاكوب بيمه (Boehme) تفسيراً لمعنى التحول من النورانية إلى الوحشية .

٥٢٤ - ٥٢٦ وصف أنواع الثعابين مدرج فى التـرجمة - على اقتضابه فى الأصل - ولكن القـارئ قد يفيد من تعليق هيـوز على دلالة أنـواع الثعابين علـى خصال معـينة ، مـن باب الطرافة لا غير ، فميلتون لا يقصـد التحليل العلمى أو التـاريخى أو النفسى لدلالة أنواع الثـعابين فى تراث الإنسـانية ، بل هو يقصد 'الخلط' بينها لا التـمييز ، على نحو مـا يتضح فى السطر ٥٢٣ ، فبعـضها له حمـة العقرب ورأس أصلة ، وبعضـه له ذيل الصّل ورأس القرناء وهكـذا . والطريف أن الأستاذة كـستـر سفندن تفصل القول تفصيلا فى خصال تلك الثعابين ودلالاتها مـستشهدة (فى صفحة ٣٥ وما بعدها) بكتاب كتبه باحث اسمه توبسيل (Topsell) بعنوان **تاريخ الثعابين** عام ١٦٠٨ . وربما يكون ميلتون قد اطلع

على ذلك الكتاب ، ولكن حشده للثعابين بأنواعها يرمى إلى إبراز صور التشوه لا الصفات المفردة المميزة لكل منها .

٥٢٦ - ٥٢٧ يقول فاولر "عندما كان بيرسيوس (Perseus) عائداً وهو يحمل رأس ميدوزا المقطوعة ، وقعت قطرات من دمها على الأرض ، وهو ما يفسر سبب امتلاء ليبيا بالثعابين" . انظر أوفيد **مسخ الكائنات** ٤/٦١٧ - ٢٠ ، كما يزعم لوكان (Lucan) أن عددًا من أنواع الأفاعى وجد بهذا الأسلوب .

٥٢٨ - 'أوفيوزا' (Ophiusa) تعنى حرفياً 'الحافلة بالأفاعى' [ من اليونانية 'أوفيس' التى تعنى الثعبان (O"Pis) ] وقد أطلق هذا الوصف على كثير من الجزر ، من بينها جزيرة رودس (Rhodes) .

٥٢٩ - ٥٣٢ إنبات الأصلة من الطين ، أو مولد ذلك الثعبان الضخم من الأرض التى غمرتها المياه وانحسرت عنها ، فكرة ترجع إلى **مسخ الكائنات** لأوفيد ، ولكن ميلتون لا يذكر الأصلة دون أن يذكر قتل أبولّو إياها ، هنا وفى سائر شعره ، وسيلاحظ القارئ أن ميلتون يشير إلى الأصلة باسم التنين أولاً ، ليوازى بينهما ، فى وصف إبليس ، مستلهمًا فى ذلك الكتاب المقدس "فطُرِحَ التنينُ العظيم، الحيةُ القديمة، المدعوّ إبليس والشيطان الذى يضل العالم كله" (رؤيا يوحنا اللاهوتى ١٢/٩) .

٥٣٥ - 'الاستعراض' معناه استعراض رئيسهم إياهم ، أى أنهم عُرضوا عليه .

٥٤٦ - انظر هوشع (٤/٧) "على حسبما كثروا هكذا أخطأوا إلىّ فأبدل كرامتهم بهوان" .

٥٥٦ - 'العطش الحارق والجوع الضارى' الذى يكابده الشياطين هنا - إلى جانب الأصداء الواردة فى السطور ٤٣٢ و ٥٣٧ ، ٥٦٠ - عقاب يشبه عقاب طانطال (Tantalus) الذى وضع فى ماء يعلو حتى يلامس شفتيه ثم ينحسر عنه ، وهو يذكرنا بعقابهم الذى وقع فى الكتاب الثانى (٥٩٦ وما بعدها) وأما العقاب بالمسخ فهو ينزل بهم على فترات متباعدة (انظر السطر ٥٧٥ وما بعدها من هذا الكتاب) وقد كتب جون ستيدمان مقالاً ممتعًا فى مجلة فقه اللغة الإنجليزية والألمانية عام ١٩٦٥ بعنوان "طانطال وتفاح البحر الميت" (وأدرج المقال بعد ذلك فى كتاب صدر عن ميلتون فى ٢٠٠١) يقول فيه إن هناك مزجاً بين أسطورة طانطال وبين عقوبة الشياطين فى ملحمة ميلتون ، ويحلل ذلك المزج تحليلاً وافياً ، والواضح من دراسته أن العقوبة الطانطالية هى عقوبة المثْل بالمثل (العين بالعين والسن بالسن) .

٥٦٠ - "ميجيرا" (Megaera) هى إحدى ربات القصاص اللائى يعاقبن مرتكب الخطيئة ، انظر البيت ٥٩٦ من الكتاب الثانى والحاشية عليه . وعادة توصف هذه الربات بأن شعر رأسها من الحيات .

٥٦٢ - 'البحر الميت' - فى الأصل (bituminous lake) أى بحيرة القار السائل ، فالبحر الميت يقع بجوار سدوم التى عوقب أهلها الذين كانوا يمارسون اللواط بالحريق ، والإشارة هنا إلى كتاب المؤرخ يوسفوس (Josephus) وعنوانه **الحروب**(٤/٨) حيث يقول إن آثار النار التى أحرق بها الله سدوم

مازالت قائمة ، مثل وجود الرماد فى الفاكهة "وهى فاكهة تبدو للناظرين ناضجة شهية للطاعمين ، فإذا قطفت ثمرة بيدك تفتتت وصعد منها الدخان وانتثر الرماد" (مقتبس من كتاب كستر سفندن المشار إليه، فى صفحة ٢٨ و ٢٩) ويضيف فاولر أن ميلتون يشير إلى تلك الرواية كأنما كان الجميع يعرفونها ، ويحدد المصدر الأساسى للفكرة قائلاً إنه سفر التثنية ، الأصحاح الثانى والثلاثون : "لأن من جفنة سدوم جفنتهم ومن كروم عمورة . عنبهم عنب سم ولهم عناقيد مرارة خمرهم حمة الثعابين وسم الأصلال القاتل" (الآيتان ٣٢ و ٣٣) ويعلق على ذلك قائلاً إن إشارة موسى عليه السلام إلى 'جفنة (نبيذ) سدوم' ، معناها أن شعب إسرائيل قد أصبح فاسداً وبلغ العفن باطنه .

٥٥٦ - ٥٧٠ هذا هو التحقيق الحرفى للّعنة الصادرة على الشعبان فى السطر ١٧٨ من هذا الكتاب نفسه ، ويناقش تويسيل فى الكتاب الذى سبقت الاشارة إليه الخطأ الشائع الذى يقول إن الثعابين لا تأكل سوى التراب - وينفيه .

٥٧٨ - ٥٨٤ هذه الأبيات مبنية على ما ورد فى ملحمة الارجونوتيكا (Argonautica) (ملاحو السفينة 'ارجو' ) التى كتبها أبولونيوس روديوس (Apollonius Rhodius) (السكندرى) فى القرن الثالث الميلادى ، فى الكتاب الأول (السطور ٥٠٣ - ٥٠٩) حيث ينشد أورفيوس (Orpheus) عن زواج 'أوفيون' (Ophion) (الكلمة اليونانية المشتقة من اسم الثعبان السابق ذكره) من 'يورينومى' (Eurynome) ومعناه واسعة السلطة ابنة أوقيانوس (Oceanus) (المحيط) حكما الكون من قمة جبل الأوليمب (Olympus) ، ثم خضع الأول "لكرونوس" (Cronos) (ساتورنوس (Saturnus) عند الرومان) أو الزمن ، وخضعت الثانية لـ "ريا" (Rhea) (اوبس (Ops) عند الرومان أو ربة الوفرة والثراء) (عن معجم اكسفورد الكلاسيكى) : ثم تولى خليفتاهما حكم شعب 'التيتان' (The Titans) وإن "استمر زيوس (Zeus) مقيماً فى كهف دكتايوس (the Dictaean cave) ". .
وفى عام ١٩٥٥ أصدر باحثان (هما ستارنز وتولبرت Starnes & Talbert ) كتاباً عن الأساطير الكلاسيكية يصححان فيه بعض ما أورده فيريتى وهيوز من نسبة هذه السطور إلى أبولونيوس ، إذ يقولان إن ميلتون يمزج بين 'أوفيون' الذى أورده 'أبولونيوس' بشخصية أخرى ، أحد أصدقاء كادموس (Cadmus) ، وهو أحد الذين ولدوا من أسنان الثعبان :

***(ideoque et nomen habet a serpente, qui Graece O'φ ls dicitur)***

(عن معجم المعانى الذى وضعه ستيفانوس) ويعلق أحد النقاد على ذلك قائلاً إن تحديد الطبيعة الثعبانية لأوفيون يسير بالرجوع إلى مصادر أخرى ، ويفصل فاولر القول فى الدلالات الشعرية لاستلهام هذه المصادر الكلاسيكية .

٥٨٤ - 'دكتايوس' هو جبل فى جزيرة كريت قضى جوبيتر فيه طفولته ، وكان اسمه الأول ديكتى Dicte وأما دكتايوس Dictaeus فكان أحد ألقابه .

٥٨٦ - ٥٨٧ - "من حيث القوة / ومن حيث الفعل" تعبيران فلسفيان يوازيان تعبيرى "بالقوة وبالفعل" عند إخوان الصفاء ، وأما معنى الأول فهو potential ، وهو يرد هنا فى نص ميلتون فى صورة (in power) وأما معنى الثانى فهو actual وميلتون يستعمل المصطلح الفلسفى نفسه ، أى إن

الفردوس قد شهدت إمكان حلول الخطيئة بها ، فى نوازع آدم وحواء الفطرية ، وهكذا يعتبر أن الخطيئة قد زارتها **من حيث القوة** ، وقد تحاشيت استعمال المصطلح الفلسفى العربى القديم خشية اختلاطه بالمصطلح المعاصر الذى يعنى عَنْوةً (by force) ، وثم زارتها الخطيئة بالفعل أو **من حيث الفعل** (ليتوازى مع التعبير الأول) حين ارتكب آدم وحواء الخطيئة فعلاً ، وهى الآن تزور الفردوس **بجسدها** ، وتعبير "جسد الخطية" هو تعبير القديس بولس . انظر مثلا **رومية** (٦/٦) "عالمين أن إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية كى لا نعود نستعبد أيضاً للخطية" وميلتون يميز بين الخطيئة الفعلية (بالفعل / من حيث الفعل) – وهى ثمرة فعل الإرادة الحرة – وبين الخطيئة الأولى أى الفطرية ، وهى حال الميل إلى الخطأ الذى يولد به الإنسان ، ويقول ذلك فى كتابه **عن العقيدة المسيحية** بألفاظ صريحة .

٥٨٩ – ٥٩٠ انظر **رؤيا يوحنا اللاهوتى** ٦/٨ "ونظرت وإذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه وأعطيا سلطانًا على ربع الأرض أن يقتلا بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض" أما لماذا لم يركب الموت فرسه حتى الآن فهو لأننا فى بداية التاريخ لا فى نهايته .

٦٠٠– 'الجلد الفضفاض' – الأصل هو (unhide-bound) وهو تعبير ينفرد به ميلتون إذ لا يورد معجم أوكسفورد الكبير (O. E. D) مثالاً على أحد استعمله قبل ميلتون أو بعده ، وأما المعنى فهو غريب ، إذ يعكس ميلتون المعنى بأداة النفى وهى البادئة -un فى الصفة المركبة hidebound أى الذى التصق جلده بعظمه لنحوله وهزاله ، فيجعل الجلد فضفاضاً فوق العظم ، دون وجود لحم تحته !

٦٠٢– انظر الكتاب الثانى – السطر ٧٩٠ وما بعده .

٦٠٦– أعرب روفائيل قبل سقوط الإنسان عن أمله فى أن يرتقى الإنسان عالم الروح 'بمرور الزمن' ، ولكن الزمن أصبح الآن قوة مدمرة . وقد كتب إروين بانوفسكى كتاباً عنوانه **دراسات فى علم الصورة** عام ١٩٦٢ ناقش فيه تفصيلاً تصوير الزمن فى الفن والأدب وتوقف طويلاً (من ص ٦٩ – ٩٤) عند صورة منجل الزمن .

٦١١– "**أو للتسبب فى فناء**" : فى الأصل : 'or *unimmortal* make' وهى صفة ينحتها ميلتون لأول مرة بإلحاق البادئة -un بصفة immortal وهى صفة تتكون من أصل يعنى 'الفانى' (إلى جانب معنى المهلك) والبادئة im - التى تنفى الفناء فتفيد الخلود ، بحيث عاد المعنى إلى الفناء بنفى النفى ، ولم يسبق ميلتون أحد إليها ، ويعلق أحد النقاد على ذلك قائلاً إن ميلتون ينحت صفات منفية للموت (مثل unhidebound – (٦٠١) و unnamed (دون أسماء) و undreaded (دون أن نخيف أحدًا) فى السطر ٥٩٥ عاليه) لتأكيد الطابع السلبى للموت .

٦١٦– 'كلاب الجحيم' انظر التعبير نفسه فى السطر ٦٥٣ وما بعده من الكتاب الثانى :

وحول وسطها [ أى الخطيئة] التفّت زمرة من كلاب
الجحيم لا تتوقف عن النباح بأفواه فاغرة –

مثل كيـربروس – عالية جلبتـها ، رنانة طنانة
مفزعة ! . . . إلخ

وانظر أيضـاً تعبـير 'كلاب الحرب' الذى يستـخدمه شيكسـبير فى مسـرحية **يوليوس قـيصر** (ف ٣/م١/ ٢٧٠ – ٢٧٣) فى سياق استدعائها من الجحيم لإشاعة الدمار ! .

٦٢٢ – ٦٢٣ 'الدخـول والامتلاك' من المصطلح القـانونى فـى عصـر ميلتـون (يقابل 'وضع اليد' فى عصرنا) .

٦٣٣- انظر **صموئيل الأول** (٢٥/ ٢٩) "وأما نفس أعدائك فَلْيَرْمِ بها كما من وسط كفة المقلاع" .

٦٣٥ – ٦٣٦ انظر **هوشع** (١٣/ ١٤) "أين أوباؤك يا موت أين شـوكتك يا هاوية" وانظر كورنثوس الأولى (١٥/ ٥٤) "ابتلع الموت إلى غلبـة" **ورؤيا يوحنـا اللاهوتى** (٢٠/ ١٤) "وطرح الموت والهـاوية فى بحيرة النار . هذا هو الموت الثانى" .

٦٣٨ – ٦٣٩ الاشـارة هنا إلى رؤيا النهـاية فى **رسالة بطرس الثانية** (٣/ ٧-١٣) "وأما السموات والأرض الكائنة الآن فهى مخـزونة بتلك الكلمة عينها محفـوظة للنار إلى يوم الدين . . . ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر" . والمقصود بالسماوات والأرض الكونُ كله .

٦٤٠- 'اللعنة' ربما كان المقصود اللعنة الواردة فى **سفر التكوين** (٣/ ١٧) "ملعونة الأرض بسببك" .

٦٤٢- انظر الكتـاب الخامس ، السطر ٨٧٢ وما بـعده ، وانظر **رؤيا يوحنا اللاهوتى** (١٩/ ٦) "وسمعت كصوت جمع كـثير وكصوت مياه كثـيرة وكصوت رعود كثيرة قـائلة هلّلويا فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شىء" .

**٦٤٤**- انظر **رؤيا يوحنا اللاهوتى** (١٦/ ٧) "حق وعادلة هى أحكامك" .

**٦٤٧**- 'زمن الهناء' – فى الأصـل (the ages) وهو اختصـار للعصر أو العصـور الذهبية والمقـصود بها الأعوام الألف التى ستقضى فى هناء فى نهاية الزمن ، وانظر : ". . . وعصور لا نهاية لمواقيتها" – فى الكتاب الثانى عشر ، السطر ٥٤٩ .

٦٤٨- 'تنزل' – انظر **رؤيا يوحنا اللاهوتى** (٢١/ ٢) "وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء عند الله" .

٦٥٠- ربما تكون الإشارة هنا إلى الملائكة السـبعة الذين سبق ذكرهم فى الكتـاب الثالث – السطر ٦٤٨ وما بعده .

٦٥١-٧٠٦ يقول فاولر إن هذه الأبيات تمثل خـير تمثيل صورة العالم فى نظر ميلتون قـبل سقوط آدم وحواء وبعده ، فلقد كان عالماً من الربيع الدائم – لا يتـبع النظام الذى وضعه بطليموس ، (Ptolemy) ولا النظام التـالى له الذى وضعه كـوبرنيق (Copernicus) – ولكنه يقـوم على "نظام نظرى ذى بسـاطة مثالية" ، وأما النظم الجغرافية الحديثة فقد حدثت بعد السقوط .

٦٥٥- تصوير الشتـاء فى صورة شيخ هرم أو عجوز فانيـة كان شائعاً فى علم التصـوير وفنونه ، وكان يقوم على المقابلة القديمة بين أطوار الإنسان وفصول العام .

٦٥٨ - ٦٦١ يستخدم ميلتون فى هذه الأبيات مصطلحات بطليموس لزوايا الميل - وهى فنية ومتخصصة - ولكن 'ارتباط السوء' غير وارد فى جغرافية بطليموس ، ولذلك يفرد له ميلتون مكانًا مستقلاً .

٦٦٨ - ٦٨٠ 'يقول البعض' . . . و 'يقول البعض' : يشرح فاولر ذلك قائلاً إن ميـلتون لم يشأ أن يتخذ لنفسه موقفاً محدداً من تفسير الظواهر الفلكية والجـغرافية الحالية والتى يمكن تفسيرها إما بافتراض ميل محور الأرض ٢٣,٥ درجة ، ومعنى ذلك أن الكواكب تدور حول الشمس ، أو بافتراض ميل مدار الشمس بالمقدار نـفسه ، ومعنى ذلك أن الشمس تدور حـول الأرض . ويقدم فاولر تفسـيرًا لكل ما ورد فى نص ميلتون فى حواشيه ، وقد آثرت أنا إدراج الشرح فى الترجـمة بصورة غير مباشرة حتى لا أرهق القارئ بالرجوع فى كل كلمة إلى هذه الهوامش .

٦٧٨- 'إقليم' - فى الأصل (Clime) بمعنى إقليم مناخى ويشرحها فاولر بأنها region أى إقليم جغرافى قائلاً إن كل نصف من نصـفى الكرة الأرضية كان مقـسمًا إلى سبعـة أقاليم أفقية فـى أيام ميلتون ، ومعنى هذا أنها أقـاليم مناخية لا جغرافيـة ، ولذلك اقتصرت فى الترجـمة على كلمة 'إقليم' دون الصفة ، والكلمة من الدخيل المعرّب .

٦٨٦ - 'استوتيلاند' منطقة فى شـمال شرقى لبرادور الحاليـة ، ولكن الإسم كان يطلق فى حالات كـثيرة على أى منطقة باردة فى الشمال .

٦٨٧- 'منطقة ماجلان' (Magellan) هى الأرجنتين الحـالية ، وقـد آثرت الإبقـاء على الكلمة الأصليـة لدلالتها التاريخية ، وكان اسم المنطقة (magellonica) .

٦٨٧ - ٦٨٩ 'ثايستيس' (Theystes) أغـوى 'إيروبى (Aerope) ' زوجة أخـيه 'أتريوس' (Atreus) حسبما تقول الأسطورة ، وعلم 'أتريوس' بذلك وقرر الثأر فتظاهر بالعفـو عن أخيه ودعاه إلى مأدبة لكنه قدم له طعاماً من لحم أحـد أبنائه (أبناء ثايستيس) وساد الاعتقاد بأن الاشمـئزاز والتقزز من ذلك الفعل قد دفع الشمس إلى تغيير مسارها والانحراف فيه حتى تتجنب رؤيته .

٦٩٤- 'النفثات الحـارة' قد تكـون شـهاباً أو نيزكًا ، إذ كـان المعـتقد أن الشهب والنـيازك كتل ملتهـبة من البخار .

٦٩٥ - ٧٠٦ يقـول هـوايتنج فى كتابه **الوسط الأدبى االذى عاش فيه ميلتون** (١٩٦٤) فى صفحة ١٢١ وما بعدها إن خريطة الرياح الوحيدة التى تتضمن جـميع الرياح التى يذكرها ميلتون موجودة فى **الأطلس الجديد** (Novus Atlas) الذى وضعه يانسون (Jansson) فى أحد عشر مـجلدًا ونشره فى الأعوام من ١٦٤٧ - ١٦٦٢ ، وأنه من المعـروف أن ميلتـون قد سأل عنـه أو طلبه ذات يوم . وقـد حوّلت

الأسماء الكلاسيكية للرياح إلى مقابلاتها الحديثة تيسيرا على القارئ العربى ، بل إن القارئ الأجنبى نفسه ليجدها غريبة إلى الحد الذى يلجئه إلى الرجوع إلى التفاسير أو الحواشى .

٦٩٦ - 'نورمبيجا' (Norumbega) هو الأسم القديم الذى كان يطلق على منطقة تقع فى جنوب شرقى كندا وتتضمن بعض المناطق التى أصبحت داخل الولايات المتحدة حالياً ، وأما 'ساموديا' (Samoedia) التى ذكرها ميلتون فى تاريخه الموجز لروسيا ، المذكور آنفاً ، فهى منطقة تقع فى أقصى الشمال الشرقى لسيبيريا .

٧١٠-٧١٤ قارن مرور الحيوان مرور المطمئن أمام الإنسان قبل السقوط فى الكتاب الرابع ابتداءً من السطر ٣٤٠ ، وأما العشب باعتباره الطعام السائد قبل السقوط ، فالإحالة هنا إلى الكتاب المقدس : "ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعامًا" (تكوين ١/ ٣٠) .

٧١٨- التقابل بين المشاعر الجياشة والمضطربة وبين الاختلاط فى النظام الكونى الكبير يتحول هنا إلى استعارة 'ذاتية' - انظر إشَعْياء (٥٧/ ٢٠) "أما الأشرار فكالبحر المضطرب لأنه لا يستطيع أن يهدأ وتقذف مياهه حمأة وطينًا" وموضوع البحر الهائج أو المضطرب - كما يقول فاولر - (The Sea of Troubles topic) يمكن رصد تراثه فى كتابات القديس أوغسطينوس ، والمزمور ١٠٧ وقصة المحامى فى تشوسر ، وتصوير ربة الحظ فى صور العصور الوسطى وعصر النهضة ، وهاملت ٣/ ١/ ٥٩ وغيرها كثير (يوردها فاولر) .

٧٢٠- يقول برودبنت فى كتابه عن الفردوس المفقود (انظر المراجع) إن شخصيات الفردوس المفقود لا تتحدث بأسلوب المناجاة المسرحية (Soliloquy) إلا حين تسقط ، وأما كلمات وحركات من لم يسقط فعادة ما تكون موجهة إلى شخص آخر (ص ٨٠) .

٧٢٢- ربما كان القصد إظهار آدم هنا فى صورة من يخلط فى فهم أصول الدين إذ لم يكن يمثل مجد العالم بل 'مجد الله' (كورنثوس الأولى ١١/ ٧)

٧٢٨-٧٢٩ المعنى هو أن الطعام يطيل الحياة ومن ثم يمد ويبسط من نطاق اللعنة ، وإنجاب الأطفال ينقلها من جيل إلى جيل ، ويقول فاولر إن الطعام والجنس يعتبران مجال نشاط ملكة الاشتهاء (The concupiscible faculty) وهى التى كثيراً ما كانت تعتبر المجال الخاص لعمل الشهوة (concupiscence) أو 'جسد الخطية' ، ومن ثم ينتهى فاولر إلى القول بأن الطعام والإنجاب يمكن اعتبارهما معًا لعنة .

٧٣٠- انظر الكتاب السابع ، السطر ٥٣٠ وما بعده ، وسفر التكوين (١/ ٢٨) "وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها" .

٧٣٦- أسلوب السخرية هنا يراه أديسون أسلوباً عامياً (دارجًا) لا يرقى إلى مستوى الأسلوب الرفيع للملحمة .

٧٣٨ - ٧٤٠ لاحظ تكرار ياء المتكلم - الضمير - فى "لعناتى" ، "تفارقنى" ، "منّى" ، "إلىّ" ، "علىّ" وأخيراً التكرار المؤكد لها فى "علىّ أنا" وهى الحيلة البلاغية التى تسمى (Ploce) أى التأكيد اللفظى وإن تفاوتت صورة اللفظ المكرر . انظر ٨٣٢ من هذا الكتاب والحاشية .

٧٤٠ - ٧٤١ معنى البيت يعتمد على قوانين الحركة المعروفة فعند المركز تكون قوة الدفع صفراً ، وفى الأطراف تزداد السرعة والقوة إلى الحد الأقصى ، ويقول فاولر إنه نظراً لشيوع الانشغال بالعلم الطبيعى فى عصر ميلتون وتعقيد هذه الصورة الشعرية ، فلنا أن نفترض أن ميلتون كان يريد أن يوحى بأن ذكاء آدم يشبه ذكاء الشعراء الميتافيزيقيين .

٧٤٣-٧٤٤ الشكوى المرذولة الواردة فى سفر **إشعياء** (٤٥/٩) "ويل لمن يخاصم جابله . خزف بين أخزاف الأرض . هل يقول الطين لجابله ماذا تصنع . أو يقول عملك ليس له يدان" .

٧٥٤- 'أحزان سرمدية' يشير بيردن (فى الكتاب المشار إليه - ص ١٧٦) إلى أنه من المحال تصور رضا ميلتون عن هذه التعميمات ، ولكن الواضح أن آدم لم يصل إلى درجة التوبة الكاملة بعد .

٧٥٨- 'ولكنك يا آدم' - يجرى آدم حواراً خيالياً مع الله ، فيتصور ما يقوله له ورده عليه ، وقد حاولت إيضاح ذلك فى الترجمة .

٧٦٠-٧٦٥ انظر **إشعياء** (٤٥/ ١٠) "ويل للذى يقول لأبيه ماذا تلد ، وللمرأة ماذا تلدين" .

٧٧٠- الإحالة إلى انتهاء اللعنة التى حكم بها الله على آدم فى **تكوين** ٣/ ١٩ "لأنك تراب وإلى تراب تعود" .

٧٨٦-٧٩٢ حجة آدم هنا هى أنه مادامت روحه هى التى أخطأت ، ومادام الموت هو عقاب الخطيئة ، فمن الظلم أن يموت جسده ولا تموت روحه . ويقول ميلتون فى كتابه عن **العقيدة المسيحية** (١/ ١٣) إنه يرفض القول السوفسطائى بأنه على الرغم من موت كيان الإنسان كله ، فإن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن كيان الإنسان كله ينبغى أن يموت (طبعة كولمبيا ١٥/ ٢٢٧) ويقول فى الفصل نفسه "هل هناك أسخف من القول بأن العقل ، وهو المرتكب الرئيسى للجريرة ، ينبغى أن يفلت من عقوبة الموت التى تتهدد الإنسان ، وأن الجسد وحده ، الذى وُهب الخلود مع العقل سواء بسواء قبل أن يأتى الموت إلى العالم بسبب الخطيئة ، يجب أن يتحمل عقوبة الخطيئة بالموت وإن لم يشارك فى ارتكاب الإثم؟" (٢١٩) ويقول أيضاً "إن موت الجسد هو فقدان الحياة أو إعدامها . أما التعريف الشائع الذى يفترض أن الموت هو انفصال النفس عن الجسد ، فهو تعريف غير مقبول . إذ ما الذى يموت فى الإنسان عندما يحدث هذا الانفصال؟ هل هى الروح ؟ لن يقبل ذلك مناصرو التّعريف المذكور . هل هو الجسد إذن ؟ ولكن كيف يقال إنه يموت وهو الذى لم يتمتع بأى حياة فى ذاته من قبل ؟ ومن ثم فلا يمكن القول بأن انفصال النفس عن الجسد هو موت الإنسان" (الفصل نفسه ٢١٧ - ٢١٩) . ويعلق فاولر على ذلك قائلاً إن إيمان ميلتون بموت العقل والجسم معاً وبعثهما معًا لم يكن بدعة شاذة ، بل كان فهمًا صحيحاً للكتاب المقدس . ولقد ناقش آخرون هذه القضية أيضاً مثل

موريس كيلى الذى يؤكد صحـة موقف ميلتون فى كتابه عن علاقة كـتاب ميلتون المذكور **بالفردوس المفقود** (فى صفحة ١٣) ومثل جورج ويليامـسون الذى نشر مقالاً فى مجلة **دراسات فى فقه اللغة** عام ١٩٣٥ (العدد ٣٢ ، فى الصفحات ٥٥٣ - ٥٧٩) يعـارض فيه ميلتون ثم صحح ن. هـ. هنرى 'أخطاء' ويليامـسون فى مقال نشـر بالمجلة نفسهـا عام ١٩٥١ (العدد ٤٨ - صفـحة ٢٤٨) . ولكن الخلاف حول هذه القضية لم يحسم بسبب طابعها الدينى المحض ، إلى جانب ما تتضمنه من غموض فى تعريف العقل والنفس والروح وهى المفاهيم الخلافية فى تفاسير الكتاب المقدس .

٧٨٨- 'الموت الحى' معناه الموت الأبدى ***mors aeterna*** وهو يمثل الدرجة الرابعـة من الموت ، على نحو ما ورد فى حاشـية سابقة على السطور ٣٢٣ - ٣٣٣ من الكتـاب الثامن ، وكما أوضحـه ميلتون فى كتابه **عن العقيدة المسيحية** .

٧٩٨ - ٨٠١ يقـول فاولر إن آدم يخطئ هنا فى فـهم أصـول الدين ، وإن ميلتـون لا يرى أى تناقض بين موت الإنسان بدناً وروحاً أولاً وبين بعثه من جديد يوم الدين .

٨٠٤ - ٨٠٨ هذه الحجـة التى يسوقـها آدم عزاءً وتسـرية مستـقاةٌ من 'المدارس' أى من أحـد المذاهب الاسكولائية التى تقول بأن تلـقى أى شىء يتوقف على أسلوب التلقى وتزعم أن ذلك بديهى ***(Quod recipitur, per modum recipientis)*** وهى بديهية ترجع إلى كتـاب أصدره ستاليوس **Stahlius** فى عام (١٦٥١) بعنوان **البديهيات *(Axiomata)*** وآدم يقول فى الواقع إن معنى الموت وعمل الموت يتوقفان على طبيعة الشىء الذى يموت (أى ينصب عليـه فعل الموت) ولما كان الجسد عاجزاً عن الخلود فى ذاته فكيف يخلد فى الموت ؟ وهى حجة تتضمن قدراً كبيراً من السفسطة .

٨١٣- انظر مونولوج الكينونة فى مسرحية **هاملت** ٣/ ١/ ٦٤ - ٦٨ :

نهايةٌ ما أجدر الإنسان أن يطلبها ! موت هو الرقاد !
لكنّ من ينام قد تعوده الأحلام ! وذاك سر العقبة !
إذ ما عسانا أن نراه فى منام رقدة الأبدية
من بعد أن نفلت من قيودنا البشرية
يرغمنا على التمهل !

٨٢٥- لا يؤمن مـيلتـون بمذهب كـالفن(**Calvin**) القـائـل بانحطاط الإنســان انحـطاطاً كامـلاً ولكنه يـؤمن 'بالانحطاط المشتـرك (العام) للعـقـل الإنسانى' - كـمـا يقول فى كـتـابه **عـن العقـيدة المسيحـية** : ***(Communis ... mentis humanae pravitas)*** .

٨٢٦-٨٢٧ انظر رومية (١/ ٣٢) "الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مـثل هـذه يستوجبون الموت لا يفعلونها فقط بل أيضاً يسرّون بالذين يعملون" .

٨٢٨ - ٨٤٤ أخيراً يصل آدم إلى الإقـرار الكامل بخطيئته ولكـن يعجز عن الانتقال إلى المرحلـة التالية من مراحل التـوبة وهى مرحلة الندم ، فـيلقى بنفسه فى غـمرة اليأس . ويقـول ميلتون فى كـتاب عن

**العقيدة المسيحية** (١/ ١٩) "لنا أن نميز بين عدة خطوات متعاقبة على طريق التوبة ، وهى الإقرار بالاثم ، ثم الندم ، ثم الاعتراف ، ثم الإقلاع عن الشر ثم التحول إلى الخير" .

٨٣٢ - يقول الشراح إن تكرار ضمير المتكلم مستقى من **الإنيادة** (فيرجيل) حين يعرض 'نيسوس' نفسه (Nisus) على الروتوليين (Rutulians) ويحاول افتداء 'يوريالوس' Euryalus ، قائلاً : *me, me, adsum, qui feci in me convertite ferrum* (ix, 427) واشارة إلى محاولة أبيجيل افتداء 'نابال' فى **صمويل الأول** (٢٥/ ٢٤) وانظر ٣٢ - ٤٤ من الكتاب الحادى عشر والحاشية .

٨٤١ - سبق لنا سماع تمييز الله سبحانه بين خطيئة إبليس وخطيئة آدم فى الكتاب الثالث (السطر ١٢٩ وما بعده) ولذلك يتضح لنا خطأ هذه النظرة التى يمليها اليأس .

٨٤٢ - ولكن الله تعالى يقول فى الكتاب الثالث (السطور ١٩٤ - ١٩٧) إنه سوف يجعل الضمير 'الحكم الفصل' فى الصدور ، هادياً ومرشداً ، وأن الإنسان إذا ما استمع إليه فسوف يصل إلى بر النجاة والأمان فى النهاية . ويورد ميلتون 'الضمير' بين شخصيات المسرحية (فى المخطوطات) التى كان يحاول كتابتها عن سقوط الإنسان .

٨٥٤ - ٨٥٩ لا يزال آدم يظن أن شروط الحظر المفروض يمكن أن تتحقق حرفياً بموته الجسدى ، وهو لا يبدأ فى إدراك العدل الإلهى إلا عندما لا يحدث ذلك وهو يدرك الألغاز المحيطة بالعدل الإلهى تدريجياً ، فيكتشف أهم عنصر وهو أن الرحمة تسبق العدل ، وأن التنفيذ واقع لا محال وإن كان يتسم باللطف .

٨٦٠ - ٨٦١ هذا صدى لأنشودة الصباح التى أنشدها آدم وحواء ، خصوصاً فى الكتاب الخامس ، السطور ٢٠٢ - ٢٠٤ .

٨٦٧ - بعض المفسرين يقرنون حواء بالحية استناداً إلى الاشتقاق فى اللغات السامية .

٨٧٥ - ٨٧٩ يتخذ آدم الآن موقفاً متشدداً من رغبة حواء فى العمل وحدها ، ويتحدث بلهجة مختلفة عن أهدافها ودوافعها - قارن ما ورد فى الكتاب التاسع ٣٣٥ - ٣٨٦ .

٨٨٤ - ٨٨٨ الهجوم الصارخ على المرأة يعكس روح العصر ، وخصوصاً الكتاب الذى يكثر الباحثون من الإشارة إليه وهو "من تأليف سويتنام (Swetnam) والذى صدر عام ١٦١٥ - وفيما يلى عنوانه الأصلى"

*The Arraignment of Lewde, Idle, Forward, and Unconstant Women.*

أى (اتهام الفاسقات والعاطلات والطامحات والخائنات)

وتقتطف الباحثة سفندن فقرات مطولة منه للتدليل على مغزى 'الضلع الملتوى' الذى خلقت منه حواء لدى كتاب العصر وخصوصاً شراح الكتاب المقدس ، مثل أندرو ويليت ، الذى يقول فى الكتاب الذى سبقت الاشارة إليه فى شرح سفر التكوين ، واستناداً إلى مفسرين آخرين (من بينهم ميرسيروس

(Mercerus) وكالفن (Calvin) ) ، إن حـواء لابد أن تكون قـد خلقـت من ضلع زائد (إضـافى extra ) لدى آدم حتى تخلق بهـذا الكمال أول الأمر . ثم يسـتمر قـائلا إن هذا الضلع كان "زائداً عن العدد . . . أى فوق العدد المعتاد أو الأضلاع التى خلقهـا الرب عن عمد ولغاية ما ، لا باعتباره زائداً عن الحاجة أو من قبيل العيب فى الخلقة ، بل باعـتباره لازمًا لخلق المرأة الذى كان الله يعتزمه" (ص ٣٨) .

٨٨٨ - ٨٩٥ نموذج آخر للعداء للمرأة فى العالم القديم - انظر مسرحية **هيبوليت** (Hippolytus) للكاتب المسرحى اليونانى يوريبيديس (السطر ٦١٦ وما بعده) .

٨٩١ - ٨٩٢ العـورة هى الخلل والعـيب وهى ترجمة دقـيقـة لكلمة defect الانجليـزية هنا ، ويؤثر عن أرسـطو قـوله فى *De Generatione* (عن التكاثر) إن الأنثـى ذكـر ناقص / أو معـيب / (فـيـه عـوار) أو (the female is a defective male) .

٨٩٨ - ٩٠٨ يقول فاولر "إن على من يحاول العثـور فى هذه الأبيات على إشارات إلى حيـاة الشاعر أن يذكر التطرف الشديد فى نبوءات آدم ، فتكاثر المصائب التى يذكرها آدم ، والتى تكاد تثير الضحك ، تتفق مع ما يكابده من يأس فى هذه اللحظة ، لكنها لا تتفق مع رأى مـيلتون المتسم بالعقلانية . فإن ميلتون يتعمد أن ينسب إلى آدم على امتداد هذه الفقرة مشاعر تدين صاحبها وآراء ضالة" .

٩٢٦- لاحظ أن حواء هى التى تذكر آدم بذلك إذ إن العداوة - وفقاً لمنطوق الحُكْم - سوف تكون بين المرأة والثعبان - انظر **تكوين** ٣/ ١٥ "وأضع عداوة بينك وبين المرأة" .

٩٣١ - هذا رجع صدى للبيت ٢٩٩ فى الكتاب الرابع ، حيث تُمَيِّز طبـيعة الرجل عن طبيعة الأنثى بألفاظ مشابهة "خُلق هو لله وحـده وخلقـت هى لله من خـلاله" وانظـر **المزمور** ٥١/ ٤ "إليك وحدك اخطأت" .

٩٥٩ - 'فى مكان آخر' تعنى إما 'فى السماء' أو 'ساحة الحكم' الواردة فى السطر ٩٣٢ .

٩٩٥ - انظر دانتى - **الجحيم** "فى شوق لا يحدوه أمل" (٤/ ٤٢) عن ترجمة حسن عثمان .

٩٩٦ - لاحظ أن ميلتون يشير إلى المحبـوب الماثل (حواء) بتعبير (The present object) وقد يرى البعض فى ذلك تخفيضا لقدر المرأة خـصوصًا بعد أن شاع تعبير (sex object) بمعنى كيـان جنسى أو حتى سلعة جنسية ، ولكن ميلتون يقصد (object of love) أى المحبوب ، وهو ما يظهر فى الترجمة .

١٠٠٧ - 'اليأس المشبوب' فى الأصل (vehement despair) وعادة ما يفسر اللغويون الصفة استناداً إلى أصلها الاشتقاقى إذ تتكون من - *vehe* التى تعنى 'بدون' أو 'بغير' ومن *mens* التى تعنى العقل ، ولكن الصفة تكاد تقتـصر على المشاعر ، على أى حال ، ومعنى الشدة الوارد فيـها معنى أساسى ، واشتباب اليأس وشدته معناه إقصاء التفكير العقلانى .

١٠١٣ - ١٠٢٤ كتب جورج ويليامسون دراسة فى مجلة **دراسات فى فقة اللغة** (٣٢) عام ١٩٣٥ بعنوان 'ميلتون وبدعة الانتحار' (٥٥٣ - ٥٧٩) يدافع فيها عن إدانة ميلتون للانتحار باعتباره منافيا لقانون الطبيعة ، فى سياق عرضه للمناقشة التى دارت فى القرن السابع عشر حول هذا الموضوع ، والواقع أن ميلتون يدين الانتحار فى كتاباته الأخرى مستشهدًا بالثقات ممن سبقوه ، ويقول بصراحة فى كتابه **عن العقيدة المسيحية** إن المنتحرين يجب أن يوضعوا فى قائمة "رجال الدماء والغشّ لا يَنْصُفُون أيامهم" (**المزمور** ٥٥/ ٢٣) أى لا يعيشون نصف أيام حياتهم .

١٠٢٨ - 'أن يجعل الموت يحيا فينا' - انظر الحاشية على 'الموت الحى' فى السطر ٧٨٨ أعلاه .

١٠٥٢ - ١٠٥٣ انظر **إنجيل يوحنا** (١٦/ ٢١) "المرأة وهى تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت . ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح لأنه قد ولد إنسان فى العالم" .

١٠٥٣ - 'بثمرة رحمك' - فى الأصل (fruit of the womb) وهى نفس العبارة الواردة فى **إنجيل لوقا** ١/ ٤٢ (بالإنجليزية) وقد ترجمت إلى العربية "ثمرة بطنك" وهى الإشارة إلى المسيح عليه السلام فى **إنجيل لوقا** .

١٠٨٨ - ١٠٩٢ بعد أن انتقل آدم من مرحلة الاقرار بالذنب إلى مرحلة الندم على اقترافه أصبح الآن مستعدًا للاعتراف ، وهى المرحلة الثالثة من مراحل التوبة - انظر الحاشية على الأبيات ٨٢٨ - ٨٤٤ .

١٠٩٠ - انظر **إشَعْياء** (١٦/ ٩) "أرويكما بدموعى يا حشبون وألعالة" ، وربما كان يشير إلى الصورة نفسها فى **إنيادة** فيرجيل ١١/ ١٩١ :

*(Spargitur et tellus lacrimis)*

١٠٩١ - إشارة أخرى إلى مزمور من مزامير التوبة "ذبائح الله هى روح منكسرة . القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقرْه" (**مزامير** ٥١/ ١٧) .

١٠٩٦ - ١٠٩٧ أخيراً يأتى الإدراك الصريح لرحمة الله حتى يقترن بإدراك عدله ، ورحمة الله هى فى الواقع موضوع الحديث الممتد من السطر ١٠٤٦ إلى ١٠٩٦ ولكن كلمة الرحمة نفسها لا تأتى حتى السطر الأخير . وفى السطر التالى ١٠٩٧ يمكن اعتبار آدم تائبًا حقا وصدقًا .

١٠٩٨ - ١١٠٤ تكرار لما ورد فى السطور ١٠٨٦ - ١٠٩٢ وقد تحول الكلام إلى سرد ، وقد سبق استخدام الأسلوب نفسه فى الكتاب الرابع ، فى السطور ٦٤١ - ٦٥٦ .

## حواشى الكتاب الحادى عشر

١ - يمثل السطر الأول استئنافًا للحديث بعد التوقف فى آخر الكتاب العاشر ، كأنما طال بآدم وحواء السجود لله عزّ وجلّ .

٢ - 'مقعد الرحمة' (mercy - seat) هو الغطاء المصنوع من الذهب الخالص الذى يغطى تابوت العهد ، وقد ورد وصفه تفصيلا فى سفر الخروج ، فى الأصحاح الخامس والعشرين ، باعتباره مقرًا للإله عند بنى إسرائيل ، وورد فى الآية الثامنة عشرة من هذا الأصحاح رسم وصناعة ملاكين من ملائكة الشاروبيم ، ووضعهما على الغطاء ، بحيث يكونان "باسطين أجنحتهما إلى فوق" (٢٠) وكان مفسرو العهد القديم يقولون إن ذلك دليل على الشفاعة عند الله فى السماء .

٣ - 'الرحمة' هنا هى التدخل الإلهى السابق (prevenient) لكل عمل بشرى ، وهى إذن من أهم صور الرحمة إذ يقول المفسرون إنها الهداية التى تسبق تحديد الإرادة الإنسانية ، ومع ذلك فهى لا تجبر الإنسان على قبول أى شىء ، أو فعله ، بل تظل إرادة الإنسان حرة فى قبول الهداية أو رفضها . وذلك المفهوم يستند إلى بعض آيات الكتاب المقدس ، مثل الآية العاشرة من المزمور رقم ٥٩ "إلهى رحمتك تتقدمنى" ، والكلمة الانجليزية التى يستعملها ميلتون مبنية على الكلمة الواردة فى الصورة اللاتينية لهذه الآية فى الترجمة الشعبية للكتاب المقدس :

(*Deus meus, misericordia, eius praeveniet me*)

٤ - انظر حزقيال ١١/٢١ ١٩ "وأعطيكم قلبًا واحدًا وأجعل فى داخلكم روحًا جديدًا وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم" .

٥ - ٧ انظر رومية (٨/ ٢٦) "وكذلك الروح أيضًا يعين ضعفاتنا . لأننا لسنا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغى ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها" .

١٠ - ١٤ "ديوكاليون" (Deucalion) هو المثيل الأسطورى لنوح عليه السلام ، إذ زُعم أن أباه "بروميثيوس" نصحه ببناء سفينة مكنته من تفادى الغرق فى الطوفان ، وعندما غيض الماء ذهب مع زوجته "بيرا" (Pyrrha) إلى عرافة "تيميس" (Themis) طلبًا للمشورة ، فأجيبت دعواتهما ، إذ علّما السبيل إلى إعادة الجنس البشرى إلى الحياة ، وكان ذلك بإلقاء الحصى والحصباء خلفهما أثناء سيرهما ، فتحول الحصى إلى رجال ونساء . وترجع أهمية الصورة الأسطورية إلى رمزية الحصى باعتبارها قطعًا صغيرة من الحجر وهكذا فإن تحول الحجر إلى بشر صورة لتحول القلوب الغليظة كالأحجار [ قال تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة - ٧٤)] أى إلى اتخاذها طابع الرحمة الإنسانية ، وهى صورة تصب مباشرة فى تحوّل آدم وحواء إلى التوبة النصوح .

١٤ - ١٦ 'الرياح الحسود' هنا هى "الريح العاصفة التى تهب . . ثم تلوى عاتية فى الهواء الشارد" (الكتاب الثالث ٤٨٧ - ٤٨٩) ، بكل من تجرفهم "جهود الخرافة والحماس الأعمى" (٣/ ٤٥٢) .

١٧ - 'بلا أبعاد مادية' لأنها روحية محضة ، انظر **المزمور** ١٤١/ ٢ "لتستقم صلاتى كالبخور قدامك ليكن رفع يدى كذبيحة مسائية" . وانظر **رؤيا يوحنا اللاهوتى** (٨/ ٣) "وجاء ملاك آخر ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأعطى بخوراً كثيراً لكى يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم على مذبح الذهب الذى أمام العرش" .

١٩ - 'الشفيع' هو المسيح هنا - انظر **العبرانيين** (٩/ ٢٤) "لأن المسيح لم يدخل إلى أقداسٍ مصنوعةٍ بيدٍ أشباه الحقيقة بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا" .

٢٤ - انظر **الرؤيا** (٥/ ٨) "جامات من ذهب مملوَّةً بخوراً هى صلوات القديسين" .

٢٦ - 'أطيب رائحة' - طيب رائحة الأضحيات أو القرابين المقبولة من الصور الشائعة فى الكتاب المقدس ، ولكن العبارة تحمل أصداء الفاكهة المحرمة فى الكتاب الخامس "وفاحت رائحتها الطيبة الممتعة" (٨٤) والتاسع "أثارتها رائحة رائعة اللـذة لتلك الفاكهة" (٧٤١ - ٧٤٢) وانظر **حزقيال** (٢٠/ ٤١) "برائحة سروركم أرضى عنكم" .

٢٦ - ٣٠ يمزج ميلتون هنا بين إشارتين للكتاب المقدس، وتحديداً لمثال الزرع والبذر ، فهو يعدّل الصورة الواردة فى **إنجيل مرقس** ٤/ ١٤ - ٢٠ "الزارع يزرع الكلمة . . ." على ضوء الآية الواردة فى **العبرانيين** ١٣/ ١٥ "ثمر شفاه معترفة باسمه" .

٣١ - انظر **رومية** (٨/ ٢٦) "ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها" .

٣٢ - ٤٤ - يقول الشراح إن تكرار ضمير المتكلم للتأكيد (التوكيد اللفظى) يساعد على ربط هذه الفقرة بالفقرة التى يعرض المسيح فيها نفسه للموت فداءً للإنسان فى الكتاب الثالث ، السطر ٢٣٦ وما بعده "ها أنذا إذن أتقدم لأفديه، وأقدم حياتى/ مقابل حياته . . ." وانظر الحاشية على الأبيات ٧٣٨ - ٧٤٠ ، والبيت ٨٣٢ من الكتاب العاشر (حيث يرد ذكر الإشارات الأدبية) .

٣٣ - انظر **رسالة يوحنا الرسول الأولى** (٢/ ١-٢) "لنا شفيع عند الآب [هو] يسوع المسيح البار ، وهو كفارةٌ لخطايانا" .

٣٥ - "تطعيم الفرع بالغصن" صورة تحافظ على استمرار الصور الزراعية (البذر والغرس والثمر) . انظر **رومية** (١١/ ١٦ وما بعده) "وإن كان الأصل مقدسًا فكذلك الأغصان . فإن كان قد قطع بعض الأغصان وأنت زيتونة بريّة طُعِّمْتَ فيها . . ." .

٤٣ - ٤٤ - انظر **إنجيل يوحنا** (١٧/ ١١، ٢١ - ٢٢) "أيها الآب القدوس احفظهم فى اسمك الذين أعطيتنى ليكونوا واحداً كما نحن . . . ليكون الجميع واحداً . . . ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا" .

٤٥ - 'دون سحائب فى محياه' ، أى دون تقطيب جبينه ، ولكن الصورة تلمح من طرف خفى إلى السحائب التى تخفى وجهه عندما يخاطب الملائكة أو البشر (انظر **العدد** ١١/ ٢٥ ، **إنجيل مرقس** ٩/ ٧، والكتاب الثالث - البيت ٣٧٨ وما بعده ، والكتاب السادس ٢٨) .

٤٩ - ٥٧ لا يُشار هنا إلى الطرد من الفردوس باعتباره 'عقوبة' بل باعتباره نتيجة محتومة للتغيير الذى طرأ على طبيعة الإنسان بعد السقوط .

٦٤ - 'الأعمال التى تصدّق الإيمان' أى الأعمال التى تنبع من الإيمان وتحققه فتثبت وجوده ، فالإيمان هو ما وقر فى القلب وصدّقه العمل ، أى حققه ، وجاء فى التنزيل العزيز "ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه" (سبأ - ٢٠) ، وانظر "بالإيمان الذى يصدقه العمل الصالح" فى الكتاب الثانى عشر ، البيت ٤٢٧ ، والواضح أن ميلتون كان يعتنق العقيدة البروتستانتية العامة القائلة **بالتبرير** بمعنى التبرئة من الخطيئة (من بَرَّ يبَرُّ أى صَلَحَ يَصْلُح والبِرُّ هو الصلاح) استنادًا إلى الإيمان بِبِرّ المسيح أو استنادًا إلى رحمة من الله تجعل المرء بَرًّا أى تبرّره ، والأبرار هم الصالحون (عكس الفجّار) ولا مناص من وجود الإيمان قال تعالى **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾** (البقرة - ٧٧) ولا مناص أيضًا من الأعمال التى تصدّق الإيمان **﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** (آل عمران - ٩٢) . والبَرُّ يجمع على أبرار وبَرَرَة ، ولكننى تجنبت فى الترجمة كلمة 'التبرير' بسبب دلالتها المعاصرة ، كما فضلت 'الصلاح' على البر بسبب دلالة الأخيرة على الإحسان والوفاء (كما فى التنزيل العزيز) . والبيت الذى نحن بصدده يمثل المرحلة الهامة من مراحل توبة آدم وهى مرحلة الإيمان .

٦٥ - 'نشور الأبرار' انظر **إنجيل لوقا** "قيامة الأبرار" (١٤/ ١٤) .

٦٦ - انظر **رسالة بطرس الثانية** (٣/ ١٣) "ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضًا جديدة يسكن فيها البر" .

٧٣ - ٦ - ربما يكون هذا البوق هو 'البوق الأثيرى' الذى أعطى الإشارة للمعركة فى الكتاب السادس ، البيت ٦٠ .

٧٤ - انظر **سفر الخروج** (١٩/ ١٦) والكتاب السادس ٥٦ - ٦٠ .

٧٥ - انظر **تسالونيكى** (٤/ ١٦) "لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات فى المسيح سيقومون أولاً" .

٨٤ - ٩٨ - الإشارة إلى **سفر التكوين** (٣/ ٢٢ - ٢٣) "وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحيوة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن" .

١٠٢ - ١٠٣ 'ممتلكات بلا صاحب' تعبير لا يقصد به المعنى الظاهر فيه بل يقصد به السخرية من تصور إبليس أن ثمة 'ممتلكات بلا صاحب' ، وهكذا فالتعبير يتضمن سخرية باطنة من إبليس .

١٠٥ - يقول بيرون فى الكتاب الذى سبقت الإشارة إليه إن هذا تحذير من شفقة فى غير محلها ، لأن الشفقة هنا تعنى أن الله جل وعلا يظلم آدم وحواء بطردهما من الجنة ، والمعروف أن ميلتون يصور الملائكة فى صورة من تثار شفقته بسرعة [انظر الكتاب الخامس ٥٦٦ والعاشر السطر ٢٥] .

١١٨ - ١٢٢ - الإشارة إلى **سفر التكوين** (٣/ ٢٤) "فطرد الإنسان وأقام شـرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" .

١٢٨ - ١٢٩ - انظر **حزقيال** (١/ ٤ - ٦، ١٦) حيث يتكرر ذكـر الوجوه الأربعـة ، وانظر البيت ٧٥٣ من الكتاب السادس والحاشية على الأبيات ٧٤٩ - ٧٥٩ من الكتاب نفسه ، وأما "الإله يانوس مضاعفًا" فـتـعنى أنه أصـبح ذا أربعـة وجـوه بدلاً من اثنين ، أى ***Ianus quadrifrons*** الذى يتولى حـراسة الأبواب. ويقول فاولر إن التشبـيه مناسب لأن الإنسان يخرج الآن إلى عالم من التغييـر ، وهو التغيير التاريخى وتغير فصول العام . وقد نشر الباحث أ. هـ . جلبرت مقالاً فى مجلة PMLA (العدد ٥٤ لعام ١٩٣٩) يقول فيه إن العدد 'اربعة' هو العدد الذى أصبح رمزًا للتغير مـستشهدًا بما يقوله القديس أوغسطينوس من موازاة الوجوه الأربعة بأركان الأرض الأربعة .

١٢٩ - ١٣٣ - انـظـر **حزقيال** (١/ ١٨) "وأطرها ملآنة عـيونًا حواليـها للأربع" . وتقــول الأسطورة إن 'أرجوس' (Argus) كُلّف بحراسة "يو" 'Io' لأنه كـانت له مـائة عين تتناوب فى الرقـابة ، ولكن 'ميركورى' (Mercury) جعل ينفخ فى مـزماره المصنوع من البوص أولاً حـتى جعل جميع العـيون تخلد للنعـاس (**مسخ الكائنات - أوفيد** ، ١/ ٦٨٢ - ٦٨٤) ثم خـدرها بعـــصـاه المنوّمـة *virga somnifera* (المرجع نفـسـه، السطر ٦٧١ ومـا بعـده ، والسطر ٧١٦) وكـان المفـسـرون يعـدون 'أرجوس' ، مثل 'يانوس' رمزًا زمنيًا أو فلكيًا .

١٣٤ - ١٣٥ - 'ليوكوثيا' (Leucothea) اليونانـية هى 'ماتير ماتوتا' (أو الأم مـاتوتا Mater Matuta) الرومانية، ربة الفجر ، التى تعادل (Aurora) .

١٤١ - هذه أول مرة يذكر آدم 'الإيمان' فيها ، وقد سبق الحديث عن هذه المرحلة من مراحل توبته .

١٤٢ - انظر **رسالة يعقوب** (١/ ١٧) "كل عطية صـالحة وكل موهبة تامـة هى من فوق نازلة من عند أبى الأنوار الذى ليس عنده تغيير ولا ظل دوران" .

١٤٨ - "عرش الله" - فى الأصل الإنجليـزى 'The seat of God' - ويقول فـاولر إن seat هو مقعد الرحمة mercy - seat المشار إليه فى السطر الثانى من هذا الكتاب (وانظر الحاشية) ولكن المعنى يبدو لى أكبر وأعم ، فـهو أقرب إلى الكرسى أو العرش ، ولا حـاجة بنا إلى الاستمـسـاك بتراث 'تابوت العهد' الخاص ببنى إسرائيل وحدهم .

١٥٨ - يلقى آدم على حواء السلام "وهى التحية القدسيـة التى ألقيت/ بعد زمن طويل على حواء الثانية - مريم البتول - فباركتها" (الكتاب الخـامس ٣٨٦ - ٣٨٧) لأن حواء قد حظـيت بالوعد الذى وُعدتْه باعتبارها - كما يقول فاولر - صورة من صور مريم البتول .

١٥٩ - انظر **تكوين** (٣/ ٢٠) "ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حىّ" .

١٧١ - ١٧٢ - مشيرة إلى لعنة آدم فى الكتاب العاشر ٢٠٥ وسفر **التكوين** ٣/ ١٩

١٨٢ - ١٩ يرمز الوحشان والطائران إلى الزوجين من البشر ، ويشير اتجاه الطراد إلى الوجهة التى سيسير فيها آدم وحواء خارجين من الفردوس .

٢٠٤ - انظر اشعياء (٣/١٦) "اصنعى إنصافًا اجعلى ظلك كالليل فى وسط الظهيرة" .

٢٠٩ - انظر الكتاب الثالث ٣٦٣ - ٣٦٤ ، ورؤيا يوحنا اللاهوتى (٣/٤) حيث يتبدى "الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد" .

٢١٢ - 'الخوف البشرى' فى الأصل carnal fear أى خوف الكيان الجسدى من الكيان الروحانى .

٢١٣ - ٢١٥ - انظر تكوين (٣٢/٢) "وقال يعقوب إذ رآهم هذا جيش الله . فدعا اسم ذلك المكان محنايم وهى كلمة تعنى ا'لجَيْشَيْن' أو ا'لمُخَيَّمَيْن' ، وكان سبب التسمية (وفقًا لمعجم الكتاب المقدس (*The Illustrated Bible Dictionary*, ed. M.G. Easton, London, 1989 هو أن يعقوب عليه السلام عندما استقبل الملائكة قسم حاشيته إلى قسمين أو مخيّمين لاستقبال ضيوفهم السماويين ولكن عدم وجود المثنى فى اللغات الأوروبية الحديثة أدى إلى تصور أن الكلمة جمع . وعلى أى حال فلابد أن فكرة الخيام (من المُخَيَّمَيْن) كانت واردة فى ذهن ميلتون عندما أشار فى السطر ٢١٥ إلى أن الحرس ضربوا خيامهم فى الميدان .

٢١٦-٢٢٠ انظر ملوك ثان (٦/١٣-١٧) حيث تفاصيل الواقعة .

٢٣٢ - ٢٣٣ انظر المزمور (٩٣/ ١) "الرب قد ملك . لَبِسَ الجلال . لبس الرب القدرة . ائتزر بها . أيضًا تثبت المسكونة . لا تتزعزع" . والإشارة ، كما يقول فاولر ، توحى بأن ميكائيل أُضْفِيَتْ عليه مسحة ربانية .

٢٤٢ - تقع مدينة "مليبوا" (Meliboea) على ساحل ثيساليا (Thessaly) وقد اشتهرت منذ العصور الغابرة بثيابها الأرجوانية الزاهية ، ويشير ڤيرجيل فى الإنيادة (٥/ ٢٥١) إلى جائزة ثمينة هى عباءة من أرجوان مليبوا *purpura Meliboea* .

٢٤٣ - مدينة 'صور' الحالية فى بلاد الشام (Tyre) وهى فى ميلتون (Sarra) .

٢٤٩ - ٢٥١ - البداية بلا تمهيد تتناقض مع اللقاء الهادئ المطمئن بين آدم وروفائيل فى الكتاب الخامس ٣٥٨ - ٣٧١ .

٢٥٤ - لاحظ اللغة القانونية المستخدمة فى الأصل والتى تحاكيها الترجمة العربية قدر الطاقة .

٢٥٦ - ٢٥٧ - انظر رسالة بطرس الأولى ٤/ ٨ .

٢٥٩ - ٢٦٢ - لاحظ أن ميكائيل ينقل الرسالة الإلهية نقلاً حرفيًا - بل كلمة بكلمة - على نحو ما وردت فى السطور ٩٦ - ٩٨ من هذا الكتاب نفسه .

٢٧٧ - ٢٧٩ - انظر الحاشية على الأبيات ٣٤٣ - ٣٥٦ من الكتاب الثامن بشأن الاهتمام بتسمية الأنواع والفصائل فى المملكة الحيوانية والنباتية إبان القرن السابع عشر .

٢٩٦ - ٢٩٨ - لم يكن آدم قبل السقوط يأبه للمراتب الاجتماعية للملائكة .

٣٠٧ - ٣١٠ - يقول النقاد إن هذا أول الأخطاء الكثيرة التى يقع فيها آدم فى حواره مع ميكائيل فلقد جاء فى **إنجيل لوقا** (١٨/ ٥ - ٧) أن الإلحاح بالصلوات والدعاء يمكن أن يؤتى بعض الثمار .

٣١٦ - قارن رد الفعل من جانب قابيل على اللعنة التى فرضت عليه (**تكوين** ٤/ ١٤) : "إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائهًا وهاربًا فى الأرض" .

٣٢٥ - ٣٢٦ - كان من عادة آدم وحواء ، حسبما يقول المفسرون ، إقامة مذبح فى كل مكان يتجلى الله لهما فيه .

٣٢٧ - إحراق القرابين ليس مناسبًا للفردوس - انظر الكتاب العاشر ١٠٧٨ - ١٠٨١ ، وانظر **سفر التكوين** (٤/ ٣) حيث يقدم قابيل قربانًا من الفاكهة .

٣٣١ - 'الذرية الموعودة' هى الذرية التى قدر لها أن تسحق إبليس - انظر ١٠/ ١٧٥ - ١٩٢ .

٣٣٢ - ٣٣٣ - 'أردان جلال الله' - انظر ٣/ ٣٨٠ .

٣٣٥ - ٣٥٤ - ميكائيل يصحح الحماس 'المغلوط' الذى أصاب آدم بعد السقوط لأماكن العبادة وما يسميه النقاد بالخرافات والمأثورات بصفة عامة ، قائلين إن ذلك كله يرتبط فى ذهن ميلتون بالاكتئاب والحيرة - وهما صفتان لا تليقان بالمؤمن . أما وجود الله فى كل مكان فهو ما تؤكده **الفردوس المفقود** مرارًا وتكرارًا ، وانظر **إرميا** ٢٣/ ٢٤ "أما أملأ أنا السموات والأرض يقول الرب" .

**لا هذه الصخرة فحسب** إشارة إلى ما قاله المسيح عليه السلام للمرأة السامرية من باب التحذير "قال لها يسوع يا امرأة صدقينى إنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للأب" . (**إنجيل يوحنا** ٤/ ٢١) ويقول فاولر إن استبدال 'الصخرة' بالجبل عند ميلتون يعتبر "بوضوح ضربة موجهة إلى خلفاء القديس بطرس ، فاسمه يعنى 'الصخرة' ، بسبب المبالغة فى اعتمادهم على التقاليد واعتقادهم أن وجود الله (أو حضرته) **مقصور** بمعنى من المعانى على **الحدود الضيقة** للمؤسسة الكنسية" . ولنضف هنا أن وجود الله (أو حضرته) فى كل مكان هو موضوع **المزمور** ١٣٩ كله ، وقد قرأت فى كتاب حديث عن ميلتون (١٩٨٩) من تحرير دنيس دانيلسون (انظر المراجع) أن باحثًا يدعى د. هـ. **تشارلز** حرر كتابًا يتضمن الكتب المشكوك فى صحتها والكتب المنحولة فى العهد القديم ونشره عام ١٩١٣ فى مجلدين ويقول فى تعليقه على هذا المزمور إن مؤلفه هو آدم عليه السلام (فى صفحة ١٧ من المجلد الثانى) .

٣٥٥ - يقول فاولر إن هدف 'الرؤيا' هو تثبيت (أو تأكيد to confirm) إيمان آدم ، موضحًا أن الإيمان هو موضوع الكتاب الحادى عشر، مثلما كانت التوبة موضوع الكتاب العاشر .

٣٦١ - 'الصبر الحقيقى' يختلف - ضمنًا - عن 'الصبر العاتى' (٢/٥٦٩) أى الفلسفى والموازى للعناد والمكابرة ، وعن 'الجلد' وهو المذكور فى ٩/ ٩٢٠ ، والمنسوب إلى الرواقيين والبيوريتانيين وإن كان للرواقيين فضل الحض على **الاعتدال** الذى قبلته المسيحية (السطر ٣٦٣) .

٣٦٢ - 'ورع الحزن' هو فى نظر بيردن 'الشفقة' التى إذا أضيفت إلى الخوف اكتمل رد الفعل المطلوب للمأساة ، وفق تعريف أرسطو ، وهو ما يعنى أن آدم سوف يشهد مأساة أو مآسى كثيرة .

٣٦٦ - 'طريق الهلاك' يعنى الموت .

٣٧٢ - يقول 'برودبنت' فى كتابه عن **الفردوس المفقود** (ص ٩٨) (انظر المراجع) إن إسلام الزمام ، أو إسلام الأمر للسماء ، هو الصفة التى يتميز بها تصوير ميلتون لفضيلة الصبر المسيحية ، والتى تختلف من ثم عن 'الجلد البارد الرواقى' ( انظر 'التسليم الخاشع' (الإسلام) فى السطر ٥٩٧ من الكتاب الثانى عشر ، وانظر الحاشية على السطر ٣٦١ أعلاه .

٣٧٥ - ٣٧٦ يتضمن السطران أصداء من آيات وردت فى **العبرانيين** ٤/١١ ، وفى **فيلبى** ٣/١١ مما يوحى ضمنًا بأن الغاية هى البعث .

٣٧٧ - ٣٨٤ - تقول إيزابيل ماكافرى (MacCaffrey) فى كتابها **"الفردوس المفقود باعتبارها أسطورة"** (١٩٥٩) إن هذه الصور التى سيعرضها ميكائيل على آدم يمكن إدراجها فى إطار "الرؤى الربانية غير الملتزمة بالسياق الزمنى" وتنتهى من ذلك إلى أنها تعتبر لوحات ثابتة (static tableaux) (ص ٦١) ولكن فاولر ما يفتأ يكرر أنها مآسٍ أو مأساوات موجزة ، يختار ميلتون من أحداثها حدثًا يتسم بالحركة لا بالسكون ، ويبدو أن ذلك هو ما انتهى إليه بيرون أيضًا إذ يقول إن دور المُشاهد الذى يقوم به آدم يمثل الدور الذى يأمل ميلتون أن يقوم به القارئ دون أن يقع فى الأخطاء التى وقع فيها آدم ، والواقع أن اللوحات تتضمن بعض الأحداث ، ولكنها لا تصل إلى عمق المأساة بمعناها المعتاد . والإشارة هنا إلى صعود **حزقيال** "كانت علىّ يد الرب وأتى بى إلى هناك ، فى رؤى الله أتى بى إلى أرض إسرائيل ووضعنى على جبل عالٍ جدًا عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب" (٤٠/١ -٢) وقارن ذلك بما جاء فى **إنجيل متى** (٤/١ و ٤/٨) "ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرّب من إبليس . . . ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عالٍ جدًا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها" . .

٣٨٨ - ٣٩٥ - يقول فاولر إن ميلتون يرتب الممالك الآسيوية ترتيبًا يقوم على التناظر وفقًا لنسق من أنساق مذهب 'الباروك' (Baroque) الفنى ، يتميز بوجود مركز وجناحين . فأما شبه جزيرة الملايو ، التى لا يُذكر لها حاكم ، فتحتل المركز أى تقع فى الوسط ، والجناحان يضمان مملكة المغول والمملكة الفارسية ولكل منهما عاصمتان ، ثم تأتى بعدها دولتا ملوك الصين والقياصرة ولكل منهما عاصمة واحدة ، وأخيرًا تأتى - فى كل جناح - مملكتان يحكم الأولى 'خان' والثانية سلطان . ويمكن ترتيبها إذن على النحو التالى : (١) قيطان ، (٢) مملكة التتار ، (٣) الصين ، (٤) الامبراطورية المغولية ، (٥) شبه جزيرة الملايو 'الذهبية' (٦) بلاد فارس ، (٧) روسيا ، (٨) بيزنطة و (٩) تركستان . وأما

سبب احتلال الملايو الذهبية مركز الوسط فيتضح عند تكرار النسق فى تعديد الممالك الأفريقية فى السطور ٣٩٦ - ٤٠٧ .

ولقد راعيت فى الترجمة إيجاد المقابل الحديث للأسماء القديمة ، تخفيفًا للغموض واعتمدت فى التحديث على **الأطلس التاريخى** وعلى أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ، وبعض الموسوعات (والمعاجم بطبيعة الحال) وأرجو أن أكون قد وفقت فى إيضاح ما قد يجده حتى قراء الانجليزية غامضًا فى نص ميلتون ، رغم شروح الشارحين وتفسيرات المفسرين .

٣٩٦ - ٤٠٧ - 'ولم يفت عينه أن تلمح' عبارة تشير إلى الانتقال من آسيا إلى أفريقيا . ويقول فاولر إن الترتيب هنا يشبه ترتيب الممالك الآسيوية من عدة زوايا ، فهى تسع ممالك أيضًا ، والأخيرة تحتل مرتبة مستقلة (لأنها هنا أوروبية) على النحو التالى : (١) الحبشة ، (٢) مومباسا ، (٣) كيلوا ، (٤) مالندى، (٥) صوفالا - أوفير ، (٦) الكونغو ، (٧) أنجولا ، (٨) بلاد البربر (شمال إفريقيا) التى يحكمها الملك المنصور ، (٩) روما . والملاحظ أن صوفالا يُظنُّ أنها 'أوفير' ، وذلك مثلما أضيف اسم 'أوفير' إلى الملايو ، وكل منهما يحتل مركز السيادة فى الوسط ، وربما يكون ذلك بسبب الذهب أو مناجم الذهب التى اشتهرت به كل منهما ، وعلاقة ذلك بالنبى سليمان عليه السلام ، وأما 'أوفير' فاسم أطلق على عدة أماكن اشتهرت بالذهب ، وجاء فى **معجم الكتاب المقدس** (المشار إليه آنفًا) إن أوفير ، وهو ابن يقطان ابن عابر بن شالح بن آرام بن سام بن نوح عليه السلام (**تكوين** ١٠/ ٢١ - ٢٥) هو الاسم الذى حُرِّف عن 'صُفير' ( أو 'صوفير') الاسم القبطى للهند ، وأنه الاسم الذى يحمله المكان باللغة العربية ، كما جاء فى المعجم المذكور أن المؤرخ يوسفوس قال إن ذلك المكان هو شبه جزيرة الملايو ، وإن كان العلماء يقولون إنه مدينة 'أبهيرا' المعاصرة على مصب نهر السِّند . وينتهى المعجم إلى القول بأن ثمة حججًا كثيرة على أن المكان يقع فى جزيرة العرب . وأما عن علاقة ذلك بسليمان عليه السلام ، وهو الحاكم الوحيد المذكور من بين رجال الكتاب المقدس الذى ترد الإشارة إليه ضمنا فى هذه الفقرة ، فتتلخص فى أنه الحاكم المنصف الذى اعتمد التقسيم (عدلاً) مذهبا ، وهكذا فإن الملايو تقع فى الموقع الخالص بين الدول الآسيوية ، وصوفالا كذلك بين الدول الإفريقية ، أى أنها تتمتع بالموقع الخامس الذى يقسم الدول التسع إلى قسمين متساويين ، كما كان الكفّ (الأصابع الخمسة) رمزًا لسليمان ، أو قل خاتمه الخاص ، بدلالته الدينية و'السحرية' . ويمكننا الاطلاع على هذه الرمزية فى **المزمور** الخامس والأربعين "جعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير" (٩)، وانظر أيضًا **إشعياء** (١٣/ ١٢ - ١٣) "وأجعل الرجل أعز من الذهب الإبريز والإنسان أعز من ذهب أوفير ، لذلك أزلزل السموات وتتزعزع الأرض من مكانها فى سخط رب الجنود وفى يوم حمو غضبه" ويورد بعض الشراح مقتطفًا من كتاب أصدره كاهن يدعى فرانشسكو جورجيو (Giorgio) عام ١٥٤٥ باللاتينية عن نظام العالم المتناغم يتحدث فيه عن حكمة وجود هيكل سليمان فى منتصف العالم تمامًا *in meditullio mundi* باعتبار ذلك من وحى الله سبحانه وتعالى ، وإن كان الربط بين سليمان والرقم 'خمسة' لم يظهر فى كتابات ميلتون الأخرى ، ويبدو أنه من اجتهادات المفسرين تبريرًا لانشغال ميلتون بالتنظيم العددى للملحمة ، واحتفاله بالتناسب العددى بين أجزائها ، على نحو ما يفعل فاولر .

٣٩٩ - 'مومباسا' و 'مالندي' مدينتان على ساحل كينيا ، و 'كيلوا' في تنزانيا الحديثة .

٤٠٠ - 'صوفالا' ميناء يقع في موزمبيق الحديثة . وأما عن تعبير 'يظن أنها أوفير' فقد بلغ من ثرائها في الزمن الغابر أن ظنها الكتاب 'أوفير' المذكورة في العهد القديم (انظر الحاشية السابقة) وقد كان نقاء ذهب 'أوفير' مضرب الأمثال - انظر كتاب **الأخلاق المسيحية** للسير توماس براون ، Thomas) (Browne الذي يشير إليه أحد الشراح ويقتطف منه العبارة التالية "جميع الطباع البشرية تحفل بالشوائب والحثالات الوضيعة التي تتسم بها السبائك المعدنية ، وأما من يظن أنه سوف يجد أوفير أو الذهب الإبريز في أي منها فإنما يحاول الطيران بلا أجنحة" . وكثيراً ما يرد ذكر ذهب أوفير في سياق بناء هيكل سليمان عليه السلام حتى اكتسبت الكلمة معنى 'السيادة الحكيمة' وقد تأكدت هذه الصفة الرمزية في **سفر التكوين** (٢/ ١١ ، ١٠/ ٢٩) حيث ارتبطت في أرض 'الحويلة' برافد من روافد نهر الجنة يدعى 'فيشون' ، وهو النهر الذي يقول أحد قدماء المفسرين إنه يعني الحكمة . ويعلق فاولر على استعمال ميلتون لذلك الاسم هنا قائلاً إن آدم يشهد 'المجرى المعنوي' للنهر ، وينسبه آخر الأمر إلى سيادة حكمة الدين الخالص، والواضح أن ذلك اجتهاد يتسم بالغلوّ .

٤٠٣ - 'المنصور' كان لقبًا للعديد من الأمراء المسلمين ، ولكن الكتاب الأوروبيين كانوا يعرفون ويتحدثون عن المنصور محمد بن أبي عامر ، حاكم قرطبة (٩٣٩ - ١٠٠٢) والممالك المذكورة كانت جميعًا أجزاء من دولة البربر القديمة . (**أطلس تاريخ الإسلام** ص ١٨٨) والمقصود ببلدة 'سوسة' هو تونس الحديثة ، وأما تلمسان فهي بلدة في الجزائر .

٤٠٦ - 'رأى بروحه' المعنى هو أن آدم ، حتى وهو على هذا الارتفاع الشاهق ، لم يستطع أن يرى النصف الآخر من الكرة الأرضية بعيني رأسه بل رآها بخياله أو - كما يقول ميلتون - 'بروحه' .

٤٠٧ - ٤١١ - كان القائد الأسباني كورتيز (Cortez) قد فتح مملكة 'مونتيزوما' (Montezoma) ، والقائد بتسارو (بيزارو) (Pizarro) قد فتح مملكة 'أتاهوالبا' (Atahuallpa) في بيرو الحالية (Peru) بأمريكا الجنوبية ، وعاصمتها كوزكو (Cuzco) ونهب ثرواتها من الذهب ، ولكن الأسبان لم يكونوا قد استطاعوا فتح 'مانوا' (Manoa) وهي البلد التي اشتهرت في الأساطير باسم 'إلدورادو' (El Dorado) عاصمة غيانا (Guiana) ولم ينهبوا ثروات الذهب فيها . وأما لماذا يطلق ميلتون على 'مانوا' اسم 'جريون' (Geryon) فالسبب هو أن 'جريون' كان وحشًا له ثلاثة أجساد وثلاثة رؤوس ، وهو الذي قتله هرقل ، وهكذا أتى ميلتون بثلاثة أقاليم تمثل هذا التثليث ، وأما في **الكوميديا الإلهية** فإن دانتي يصف هذا الوحش بأنه حارس الغشاشين والمحتالين ، وميلتون يصف الإسبان بأنهم أبناء 'جريون' لأن سبنسر كان قد جعل من 'جريون' مثالاً للطغيان السياسي في عمله الشعري الضخم **ملكة الجان** ، إذ يقول في الكتاب الخامس، النشيد العاشر ، السطر ٨ وما بعده : "إنه جريون/ الذي نشأ في أسبانيا فقذف الرعب في القلوب/ بسبب قوته الهائلة وطغيانه الرهيب" . وكانت غيانا تحظى باهتمام الرأي العام آنذاك ، خصوصًا في عام ١٦٦٧ ، عام ظهور الطبعة الأولى **للفردوس المفقود** ، بسبب الصفقة التي عقدتها بريطانيا مع هولندا وكانت تقضي بتسليم المستعمرة

التى أنشأتها بريطانيا عام ١٦٦٣ فى المنطقة الواقعة بين نهرى كوبنام (Copenam) ومارونى (Maroni) إلى هولندا فى مقابل التخلى عن نيويورك لبريطانيا ، وكان ذلك ما عرف باسم صلح بريدا (Breda).

٤١١ - ٤١٢ - 'إزالة الغشاوة عن العينين' صورة شعرية ملحمية شائعة ، فإن 'بالاس' Pallas فى إلياذة هوميروس يزيل الغشاوة عن عينى 'ديوميديس' (Diomedes) (١٢٧/٥) و **فينوس** (Venus) تزيل الغشاوة عن عينى 'إينياس' (Aeneas) فى إنيادة **فيرجيل** (٦٠٤/٢) وميكائيل فى ملحمة تاسو (Tasso) الشهيرة '**تحرير أورشليم**' يرفع الغشاوة عن عينى 'جودفريدو' (Godfredo) (٩٢/١٣ والسطور التالية . وقد وردت الصورة العربية فى التنزيل العزيز أيضًا : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ (الكهف/١٠١) و ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق - ٢٢) - وأما الغشاوة فوردت فى بعض الآيات الأخرى ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة ٧) ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ (الجاثية - ٢٣) .

٤١٤ - نبات السعد (euphrasy) واسمه المعاصر (eyebright) ونبات الخُفْت من الأعشاب التى كانت تستعمل لزيادة حدة البصر ، أو لعلاج ضعفه ، وهى مذكورة فى كتاب معاصر عن الأعشاب ولكن اختيار ميلتون لهذين بصفة خاصة يرجع إلى أن الأول اسمه مشتق من الكلمة اليونانية 'يوفراسيا' بمعنى البشاشة والسرور ، والثانى اسمه يتفق مع الكلمة التى تطلق على الحزن أو الشفقة أو الندم ، وكانت التورية فى الأخيرة شائعة إلى الحد الذى جعل **معجم أوكسفورد الكبير** يورد ما لا يقل عن خمسة نماذج منها ، وانتهى بعض النقاد من ذلك إلى أن ميلتون كان يقصد أن إزالة الغشاوة من عينى آدم تطلبت مزيجًا من الفرح (بغفران الله) والندم (التوبة) . وكريستوفر ريكس (Ricks) يلح على دور التوريات فى الأسلوب الرفيع عند ميلتون .

٤١٦ - انظر المزمور (٩/٣٦)"لأن عندك ينبوع الحيوة . بنورك نرى نورًا" .

٤١٨ - انظر الكتاب الثالث :

فليتك يا نور السماء تزداد
إشراقًا بين جوانحى وتضئ أعطاف الذهن
وتنير ملكاته وتكسبها عيونًا أخرى
ليتك تطهرها حتى ينقشع الضباب الذى غشيها فأرى
ما غاب عن بصر الفناء وأحكيه . (٥١ - ٥٥)

٤٢١ - فى سفر دانيال (٨/١٠ - ١٤) يأتى رسول يساعده ميكائيل - 'واحد من الرؤساء الأولين' - ليكشف لدانيال عن رؤية عظيمة للمستقبل ، ويقول دانيال "إذا بيد لمستنى وأقامتنى" (١٠) و "عاد فلمسنى" (١٨) .

٤٢٣ - تبدأ هنا ثانى القصص الكبرى فى الملحمة ، فالأولى كانت رواية روفائيل للحرب فى السماء فى

الكتابين الخامس والسادس ، ويقول الدكتور جونسون "إن كلا منهما مرتبط بالحدث العظيم ، الأولى كانت لازمة من باب التحذير ، والثانية عزاء وسلوى" . ويقول بعض النقاد إن ميلتون يتعمد إثارة المقارنة مع القصص المماثلة فى البناء ، فى ملحمة **الإنيادة** مثلاً (٤/ ٧٥٦ وما بعده) حيث يشاهد إينياس رؤيا عن مستقبل روما لا غير ، ونوع الشعر الذى ينتمى إليه الجزء التالى من **الفردوس المفقود** يعتبر قصًا تاريخيًا لروايات الكتاب المقدس أو شرحًا لها ، وقد صدر الكثير من مثل هذه الأعمال الشعرية بالانجليزية قبل ميلتون ، ومن بينها أو من بين أنجحها ما كتبه مايكل درايتون (Drayton) عن **طوفان نوح** (Noahs flood) و**موسى : مولده ومعجزاته** (*Moses: His Birth and Miracles*) ، وترجمة **سيلفستر** لكتاب دى بارتاس Du Bartas (عن الفرنسية) [والكتاب عنوانه **الأسابيع والأعمال الإلهية** (Divine Weeks and Works) فى جزءين ، صدر الأول عام ١٦١٣ والثانى ١٦٢١] ، وشروح ساندز (Sandys) للكتاب المقدس ، وملحمة الداوودية *Davideis* لإبراهام كاولى (Cowley) . وباستثناء العمل الأخير ، فإن هذه جميعًا أقل تنظيمًا "من الناحيتين المنطقية واللاهوتية" - كما يقول فاولر - من قصص ميلتون الوارد هنا .

٤٢٩ - ٤٤٧ - أول المشاهد الستة التى يراها آدم هو مشهد قتل قابيل لهابيل ، **تكوين** ٤ ، وانظر ما سبق إيراده عن هذه المشاهد فى حاشية الأبيات ٣٧٧ - ٣٨٤ عاليه .

٤٣٤ - سبب عدم ذكر ميكائيل اسم قابيل أو هابيل هو رغبته فى عدم إخبار آدم بمن سيصبح قاتلاً من أبنائه .

٤٤١ - 'نار من السماء' : كانت تلك دليلاً (يتكرر إلى حد يدعو للدهشة) على قبول القربان ، انظر **اللاويين** (٩/ ٢٤) "وخرجت نار من عند الرب وأحرقت على المذبح المحرقة والشحم" **وقضاه** (٦/ ٢١) ، **وملوك** (١٨/ ٣٨) **وأخبار الأيام الأول** (٢١/ ٢٦) **والثانى** (٧/ ١) .

٤٤٥ - يقول كاولى فى الحاشية رقم ١٦ على **ملحمة الداوودية** (١) "لكنه لم يتضح الأسلوب الذى قتل به [قابيل] أخاه . ومن ثم كانت لى حرية اختيار الأسلوب الذى رأيته الأرجح والأقرب إلى المنطق، وهو أن يضربه على رأسه بحجر ضخم ، وكانت الأحجار من أولى الأسلحة العادية والطبيعية فى أيدى الغضب ، وأما أن يكون هذا الحجر ضخمًا إلى الحد الذى يسمح بإقامته شاهدًا على قبر هابيل ، فلا مبالغة فيه ، على نحو ما يقول **فرجيل** عن تورنوس (Turnus)" .

٤٥٠ - ٤٥٢ - يقول بيردن إن آدم يعترض على الحادثة فيظهر عدم الثقة فى عدل الله (ص ١٩٠) وينتهى من ذلك إلى القول بأن آدم مخطئ فى 'استجابته' لأول مأساة قتل فى التاريخ .

٤٥٣ - 'تأثر ميكائيل' - وفقًا لتعريف سيدنى للمأساة فى مقاله **دفاع عن الشعر** .

٤٥٨ - ٤٥٩ - يبرز موضوع الإيمان فى جميع الرؤى ، إذ إن الهدف منها تثبيت إيمان آدم .

٤٦٥ - يقول بيردن إن آدم يشعر الآن بالخوف (الرعب) وهو عنصر من عناصر الاستجابة الصحيحة للمأساة ( ص ١٩١ ) .

٤٦٩ - 'كهفه العبوس' : كهف الموت الذى يصوره ميلتون يشبه العالم السفلى عند القدماء ، والوصف الكلاسيكى فى إنياده فيرجيل (٦) يؤكد المرور خلال كهف (السطر ٢٣٦ وما بعده) ويؤكد ألوان الرعب فى هذا المدخل :

(*Vestibulum ante ipsum primisque in faucibus Orci*, 273 )

كما ورد ذكر كهف الموت فى مقدمة توماس ساكفيل (Sackville) [دوق دورست Dorset الأول] لعمله الشعرى القصصى مرآة للقضاة فى أواخر القرن السادس عشر .

٤٧١ - ٤٧٢ - المشهد الاول يدور حول تأثير سقوط الإنسان فى نوازع الغضب التى تؤدى إلى الموت 'بضربة عنف' ، والمشهد الثانى يدور حول تأثيره فى نوازع الاشتهاء التى تؤدى إلى الموت مرضًا .

٤٩١ - 'سهم الموت' : انظر الكتاب الثانى ٦٧٢ و ٧٨٦ .

٤٩٢ - 'طلبه مرارًا' - انظر "ولكن الموت لا يأتى عند طلبه" (١٠/٨٥٨) وفيريتى يقارن هذا السطر بما ورد فى مسرحية (مأساة) فيلوكتيت *Philoctetes* التى كتبها سوفوكليس (Sophocles) (السطر ٧٩٧) وفى الأناشيد (*Odes*) (١١/١٨/٣٨ وما بعده) ولكن فاولر يقول إن ما ورد فى بلينى (بلينيوس) (Pliny (Plinius أقرب إلى النص الحالى (فى التاريخ الطبيعى -٧/١/١٦٧) :

*Tot morbi, tot metus, tot curae, totiens invocata*

*morte ut nullum frequentius sit votum*

٤٩٥ - ٤٩٧ - هذا صدى لما جاء فى مسرحية ماكبث لشيكسبير (٥/٧/٤٢ - ٤٧) فعندما يسمع ماكبث أن ماكدَفْ 'لم تلده امرأة' يصيح قائلاً "ملعون لسان من يقول لى ذلك/ فلقد أرهب أفضل خصال الرجال فى كيانى" . ولا يقتصر الصدى على التذكير لفظيًا بما جاء فى مكبث ، إذ إن أحد الخيوط الفكرية الرئيسية فى المسرحية هو خيط جفاف 'دَرّ الشفقة الإنسانية' أى قسوة القلب بمعنى تحجره (انظر البيت ٤٩٤ أعلاه) وامتناعه عن التراحم (compassion) أو الرحمة بمعنى رباط الشفقة بين البشر والشفقة هى الإحساس الثانى التى تثيره المأساة بعد الخوف أو الرعب - انظر السطر ٤٦٥ أعلاه.

٥١١ - ٥٢٥ - 'الصورة' و 'الشبه' : هناك تفريق فى النص الأصلى وفى الترجمة بين الصورة الإلهية *image Dei* فى الإنسان ، والشبه الإلهى *similitudo Dei* فعلماء اللاهوت الكاثوليك يقولون إن سقوط الإنسان أدى إلى تعتيم الصورة لا إلى فقدانها ، ولكنه أدى إلى طمس الشبه الإلهى تمامًا ، وإن كان التعميد قادرًا على إعادته ، وكثيرًا ما كانت الصورة الإلهية تعتبر متمثلة فى الطبيعة الذهنية والفكرية للإنسان ، أو ممثلة فيها ، ولكن علماء اللاهوت البروتستانت كانوا أشد تأكيدًا للتحول والتشوه الذى أصاب الصورة الإلهية فى الإنسان بعد السقوط ، وإن كان ميلتون يعتقد أن "بعض بقايا الصورة الإلهية لا يزال قائمًا فينا" (عن العقيدة المسيحية) وهو موقف أكثر تحررًا من موقف أقرانه البروتستانت ، وكان يرى هذه 'البقايا' قائمة فى عقل الإنسان وإرادته الحرة ويضرب الأمثلة بصفة

خاصة من حكمة الكثيرين ممن لا يدينون بالأديان السماوية ومن قُرْبهم من الله قربًا فطريًا ، ويقول فاولر تعليقًا على هذه الفقرة من نص ميلتون إن تعبير *image* (فى السطر ٥١٥) "يشير فيما يبدو إلى الشبه الإلهى *similitudo Die* وأن الشبه الإلهى *likeness* . . . (السطر ٥٢١) يشير إلى صورة الله *imago "Dei"* ولكن هذا تعسف واضح إذا إن ميلتون بالغ الدقة فى استعمال مصطلحه الدينى ، وهو يستخدم الكلمات الثلاث image و similitude و likeness فى حديث آدم وميكائيل دون تغيير لمعناها فى حديث الأخير عنها فى حديث الأول ، فآدم يقول similitude (التشابه/ الشبه) وميكائيل يقول likeness بالمعنى نفسه ، ولن يستقيم الحوار بين البشر والمَلَك هنا إذا اختلف المعنى ، أو إذا اختلف معنى كلمة image عند آدم عنه فى معناها عند ميكائيل . ولذلك فقد التزمت بظاهر النص على ما فيه من غموض ، ولم أغير معناها بسبب رأى فاولر فهو يسبق تعبيره عنه بما يوحى بعدم الاطمئنان الكامل له (قائلاً 'فيما يبدو' ) . والقضية نظرية ومجردة إلى حد بعيد ، لأن التفرقة بين الصورة والشبه تفرقة افتراضية ولا تساندها أدلة من الكتب المقدسة فى المسيحية .

٥٣٨ - ٥٤٦ - وصف الشيخوخة تقليدى إلى أبعد الحدود .

٥٥١ - ٥٥٢ - انظر **سفر أيوب** (١٤/ ١٤) "إن مات رجل أفيحيا . كل أيام جهادى أصبر إلى أن يأتى بدلى" .

٥٥٣ - ٥٥٤ - ميكائيل يصحح موقف آدم من الموت (والحياة) شارحًا له أن الصبر الحقيقى لا يتطلب الاندماج الشعورى فيما يحدث ، ويقول أحد الشراح إن هذه فكرة كلاسيكية مستشهدًا بما جاء فى أحد إبجرامات مارتيال (Martial) (١٠/٤٧/ ١٣) :

***summum nec metuas diem nec optes permitte divis cetera***

وفى **أناشيد هوراس** (Horace) (١/٩/ ٩) : وفى **رسائل سنيكا** (Seneca) (٢٤/ ٥٩ ، ٦٥/ ١٨) .

٥٥٦ - ٥٧٣ - **'لامك'** - أحد أحفاد قابيل - أنجب ثلاثة أبناء : 'يابال' "الذى كان أبا لساكنى الخيام ورعاة المواشى" ، و 'يوبال' "الذى كان أبًا لكل ضارب بالعود والمزمار" ، و "توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد" (تكوين ٤/ ١٩ - ٢٢) .

٥٨١ - ٥٩٢ **الإشارة إلى سفر التكوين** (٦/ ١-٢) انظر الحاشية على السطرين ٦٢١ - ٦٢٢ أدناه

٥٨٨ - 'كوكب المساء' - فى الأصل 'نجم المساء' والمقصود به كوكب الزُّهَرة ، وكان ظهوره إشارة إشعال 'مصباح الزواج' فى الكتاب الثامن (٥١٩ وما بعده) فى الاحتفال بزفاف آدم وحواء ، ولكنهما لم يستدعيا رب الزواج 'هايمن' فهو من الأرباب الوثنية .

٥٩٤ - إشارة خفية إلى ما قاله ميكائيل لآدم عن حتمية فقدان شبابه فى ٥٣٨ وما بعده .

٥٩٩ - ٦٠٢ يقول بيردن فى الكتاب المشار إليه آنفًا إن آدم يخطئ من جديد هنا حين يضع ثقته الكاملة فى مشاعره فلا يدرك زيف رب الزواج الوثنى ولا يدرك أن هذه الزيجات قائمة على 'الحماس' (٥٨٩) و 'الفرحة' (٥٩٦) لا على الاختيار العقلانى .

٦٠٥ - ٦٠٦ يبرز هنا التناقص بين غاية الإنسان فى الحياة وهى معرفة الله وبين تحقيق غايات الطبيعة فحسب .

٦٠٧ - ٦٠٨ انظر المزامير (٨٤/ ١٠) "اخترت الوقوف على العتبة فى بيت إلهى على السكن فى خيام الأشرار" .

٦٢١ - ٦٢٢ الإشارة إلى سفر التكوين (٦/ ١-٢) : "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل مما اختاروا" وقد اتجه بعض أوائل شراح الكتاب المقدس فى تفسير هاتين الآيتين إلى القول بأن الملائكة العاصين ضاجعوا بنات البشر ، مثل 'فيلو' (Philo) وكليمنت السكندرى (Clement) وتيرتوليان (Tertullian) والواقع أن ميلتون يترك الباب مواربًا فلا يغلقه فى وجه هذه التفاسير فى فقرة غامضة فى الكتاب الثالث (٤٦١ وما بعده) ولكنه هنا ينفى تلك الأقوال باعتبارها أساطير لابد من دحضها وإيضاح حقيقتها قائلا إن هؤلاء بشر وقعوا ضحية الفتنة والغواية فكان التية جزاءهم . وقد ذهب النقاد (بعد ميلتون) إلى اعتبار تلك التفسيرات الأولى من البدع الكاذبة التى تصل إلى حد التجديف فى الدين .

٦٢٥ - ٦٢٧ 'يسبحون فى بحر المرح' تذكرنا بعبارة مماثلة فى الكتاب التاسع "يسبحان فى موج المرح" (٩/ ١٠٠٩) و "عالم العبرات" الذى سيذرفه العالم يشير من طرف خفى (بتورية معنوية) إلى الطوفان الذى سيأتى ذكره فى الرؤيا الخامسة ، ويتكرر فيه التعبير بصورة أخرى "طوفان من الدموع" (٧٥٧) .

٦٣٢ - ٦٣٦ يقول فاولر إن ميلتون يقدس الزواج ، وإنه لا يهاجم المرأة لذاتها ، بل هو يعتزم "وضع مقولة نفسانية عن العلاقة بين الذهن والمشاعر" ، وآدم يخطئ فيصحح له ميكائيل خطأه ، ومصدر الخطأ ما شاع من تفسير لفظ المرأة بالإنجليزية Woman باعتباره يعنى (Woe to man) أى 'ويلٌ للرجل!' - وهو قول أصبح يجرى مجرى الأمثال ، بل إنه القول الذى أخذ به بعض مفسرى سفر التكوين (٢/ ٢٣) أو (٣/ ٢٠) .

٦٣٨ - ٧١١ المشهد الرابع يتضمن أربعة مشاهد فرعية أولها هو (٦٤٦ - ٦٥٠) والثانى هو النزال (٦٥١ - ٦٥٥) والثالث هو الحصار (٦٥٦ - ٦٥٩) والرابع هو المجلس (٦٦٠ - ٦٧١) . ويقول فاولر إن المشهد الرابع كله ذو علاقة وثيقة بوصف هوميروس التفصيلى لدرع أخيلاس ، الذى رسمت عليه لوحة شاسعة تضم نماذج للصراع فى مكان اجتماع عام ، وللحصار ، وللهجوم على الرعاة والأبقار . الإلياذة (١٨/ ٤٩٠ - ٥٤٠) وكذلك لمحاكاة فيرجيل لهوميروس فى الإنيادة (٨/ ٦٢٦ - ٧٢٨) حيث يرد وصف درع فولكان الذى أهدته أم إينياس إليه وعليه صورة تتنبأ بمستقبل روما . وكان كلا الدرعين القديمين يتضمنان صورًا للصراع أو الشقاق مجسمًا فى صورة بشرية .

٦٤٣ - 'العماليق' (Giants) وردت ترجمة مختلفة لهذه الكلمة فى الكتاب المقدس وهى 'الجبابرة' ولكننى

قررت عدم الخروج عن نص ميلتون ، **أولاً** بسبب إجماع الشراح على ذكر الحجم والضخامة الجسدية التى يتميزون بها ، **وثانياً** بسبب وجود التراث العربى الذى يرجح كفة الكلمة التى اخترتها ، **وثالثاً** بسبب انصراف كلمة الجبار إلى صفات لا تقتصر على القوة الجسدية بل تتضمن صفات نفسية مثل التكبّر والتسلط ، كما أن الجبار من أسماء الله تعالى (والقلب الجبار هو مالا تدخله الرحمة ولا يقبل الموعظة) .

٦٤٣ - ٦٤٤ يقيم ميلتون هنا موازاة ضمنية مع الشياطين أثناء حربهم فى الكتاب الثانى ، السطر ٦٣١ وما بعده ، ويقول بـرودبنت فى الكتاب الذى سبقت الإشارة إليه (ص ٩٦) إن ميلتون يكثر من مشاهد القتال فى الجحيم وفى الأرض بعد السقوط ، بل هى أكثر مما يحدث فى السماء ، وينتهى إلى أنه لا يضيع أى فرصة لتصوير الحماس القتالى الضارى .

٦٥٥ - ٦٧١ الرجل الصالح هو أخنوخ (Enoch) واستناداً إلى ما ورد فى **تكوين** (٥/ ٢١ - ٢٤) **والعبرانيين** (١١/ ٥) **ويهوذا** (١٤) نعرف أن أخنوخ عاش ٣٦٥ سنة (أى أقل من نصف العمر المعتاد للأنبياء) ثم رفعه الله إليه . ولكن تفاصيل الرفع غير واردة فى الكتب المقدسة ، وربما كانت مستمدة من الرسوم والتصاوير اللاحقة ، ويورد تشارلز فى طبعته للكتب المنحولة أو المشكوك فى صحتها فى العهد القديم ، فى المجلد الثانى مقتطفات من سفر **أخنوخ** يصف فيها رفعه إلى السماء .

٦٧٨ - لاحظ استمرار الإشارة هنا إلى رؤى أخنوخ ، إذ كانت إحدى نبوءاته الواردة فى **رسالة يهوذا** (١٤ - ١٥) تقول "هو ذا قد جاء الرب فى ربوات قديسيه ليصنع دينونة على الجميع" . والنص الإنجليزى فى نسخة الكتاب المقدس المعتمدة أقرب إلى نص ميلتون :

"The lord cometh with ten thousands of his saints, to execute judgment upon all"

وفى نسخة الكتاب المقدس المنقح (Revised) يرد النص هكذا :

"I saw the lord come with his myriads of angels to bring all mankind to judgment"

والمعروف أن (saints) توازى (angels) (ملائكة لا قديسون) وأن (myriad) تعنى عشرة آلاف ، وأن ربْوة تحمل ذلك المعنى وإن كانت مهجورة ، ولكن 'صنع الدينونة' بمعنى 'إصدار الحكم' أو 'تنفيذ الحكم' تعبير غير مألوف بالعربية ، والمهم فى إشارة ميلتون هو رقم الآلاف العشرة !

٦٨٩ - ٦٩٠ سبقت الإشارة إلى دراسة ستيدمان **Stedman** عن **الفردوس المفقود** ، والتى يقابل فيها بين مراتب الفضائل البطولية عند ميلتون قائلاً إنه عادة ما يقيم تعارضاً بين الفضائل المسيحية المبنية على 'الخير' والإحسان ، وبين الخصال الشيطانية المبنية على القوة والغلبة ، وهذان البيتان يؤكدان صحة ما ذهب إليه .

٦٩٨ - انظر **سفر التكوين** (٦/ ٤) "كان فى الأرض طغـاة فى تلك الأيام . وبعد ذلك أيضـاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر لهم اسم" .

٧٠٠ - ٧١٠ جاء فى **يهوذا** (١٤) "وتنبأ عن هؤلاء أيضاً أخنوخ السابع من آدم" . ويقول فاولر إن صورة السحابة ذات الخيول المجنحة صورة محيّرة ، ولعلها تستند إلى وصف رفع إيليّا إلى السماء الوارد فى **ملوك ثان** (١١) "وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبـة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعدَ إيليّا فى العاصفـة إلى السماء" . إذ يقـول بعض الشراح إن التـراث 'التفسيرى' يربط ربطًا وثيـقًا بين أخنوخ وإيليّا . وتعبير 'يسير مع الله' مأخوذ من سفر **التكوين** (٥/ ٢٤) "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه" . والمعروف أن قضـية رفع أخنوخ إلى السماء كانت قـضية خلافيـة فى عصر ميلتـون ، انظر الحاشـية على الأبيـات ٦٥٥ - ٦٧١ عاليـه ، وقد لخص 'ويليت' فى الكتـاب الذى سبقت الإشـارة إليه معظم الآراء التى أبداها الشراح فى هذا الموضوع (ص ٧١ ومـا بعدها) وإن كان المحدثون يرون أن 'الرفع' رمز وحسب ، إما للبعث أو لرفع المسيح إلى السماء .

٧١٩ - ٧٥٣ رواية ميلتـون لطوفان نـوح عليه السلام تلتـزم بمـا جاء فـى **سفر التكوين** (٦/ ٩ - ٩/ ١٧) ولا تأخـذ إلا بأقل القليل من شرح الشـراح ، حسـبمـا يبين Allen فى كـتابه عن الطوفـان (انظر المراجع) .

٧٢١ - انظر **العبرانيين** (١١/ ٧) "بالإيمان نوح لما أوحى إليه عن أمـور لم تُرَ بعدُ خاف فـبنى فلكاً لخلاص بيته فبه دان العالم" .

٧٢٣ - ٧٢٥ انظر **رسالة بطرس الأولى** (٣/ ١٨ - ٢١) "فإن المسيح أيضاً تألم مرةً واحدة من أجل الخطايا البار من أجل الأثمة لكى يقـربنا إلى الله مماتًا فى الجسد ولكن محييً فى الروح الذى فـيه أيضاً ذهب فكرز للأرواح التى فى السجن . إذ عصت قديماً حين كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح ، إذ كان الفلك يبنـى الذى فـيـه خلص قليلـون أى ثمـانى أنفس بالماء . الذى مـثـاله يخـلصنا نحن الآن أى المعمودية . . . بقيامة يسوع المسيح" .

٧٣٠ - انظر **تكوين** (٦/ ١٥) .

٧٣٤ - لا ذكر للحشرات فى رواية الكتاب المقدس وميلتون يضيفها من عنده .

٧٣٨ - ٧٥٣ يسـتند الوصف هنا على وصف طوفـان ديوكاليـون فى **مسخ الكائنات** (١/ ٢٦٢ - ٣٤٧) ويرجع النقاد كثيراً من صور ميلتون إلى أوفيد مثل صورة 'بحر بلا ساحل' وصور الوحوش البحرية التى احتلت مـكان الحيوانات البـرية وغيرها (المرجع نفـسه ١/ ٢٩٣ - ٣٠٣) وهناك فـقرات يمكن أن يكون ميلتون قد اطلع عليـها فى كتاب 'دى بارتاس' المشار إليه آنفـاً والذى ترجمه سيلفـستر ، وفى **ملحمة الداوودية** لإبراهام كاولى .

٧٦٥ - ٧٦٦ انظر **انجيل متى** (٦/ ٣٤) "فلا تهتموا للغد . لأن الغد يهتم بما لنفسه . يكفى اليوم شره" .

٧٧٠ - ٧٧٣ يقع آدم الآن فى هوة اليأس بسبب تصوره الخاطئ أن الإنسان مسيّر لا مخير .

٧٩٠ - 'الفضيلة الحقة' انظر الحاشية على السطرين ٦٨٩ - ٦٩٠ .

٧٩٧ - ٨٠٦ من الفقرات القليلة فى القصيدة التى تعتبر - إلى حد ما - نقداً لأحوال عصر ميلتون .

٨٢٤ - ٨٢٧ انظر **تكوين** (٧/ ١١) "فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء" .

٨٢٩ - ٨٣٨ يشير ألن (Allen) إلى أن مصير الفردوس أثناء الطوفان كان موضوع جدل كبير بين شراح الكتاب المقدس فمنهم من قال إنها نقلت إلى مكان آخر ومنهم من قال إنها ظلت آمنة فى مكانها لم تمسسها المياه بسوء . السطر ٨٣٣ يتضمن تعبير 'النهر العظيم' وهو يشير إلى نهر دجلة الحالى (أو نهر الفرات) استناداً إلى **سفر التكوين** "إلى النهر الكبير ، نهر الفرات" (١٥/ ١٨) وهذا يفسر لنا الأبيات الغامضة التى وردت فى الكتاب التاسع :

كان ثَمّ مكان -
واختفى الآن بعد أن بدّلت الخطيئة الأحوال ، لا صروف الدهر -
حيث تتدفق مياه دجلة ، فى آخر الفردوس ،
فى مجرى تحت الثرى ، ثم يندفع بعضها
وينجبس عيناً دفاقة بجوار شجرة الحياة

(٦٩ - ٧٣)

ويقول فاولر إن ميلتون يملأ ملحمته الشعرية بأوصاف الفردوس ، وينكر وجودها فى عدة أماكن ، كان أخرها فى الكتاب الرابع :

لا ولا حيث يحمى ملوك الحبشة أبناءهم فوق
جبل 'أمارا' - رغم ما يتصوره البعض من أن تلك هى
الفردوس الحقة الواقعة جنوب مدار إثيوبيا
عند منابع نهر النيل حيث تحيط بالجبل الصخور البراقة
وارتفاعه مسيرة يوم كامل ! (٤/ ٢٨٠ - ٢٨٤)

وأخيراً ، وبعد شتى النظريات الخاصة عن موقع الفردوس الأرضية ، يحسم الأمر قطعياً لنا ، فنجد أنها جزيرة عارية فى الخليج الفارسى (العربى) . ويضيف فاولر أن الدرس فى الأبيات الأخيرة درس فى التواضع البروتستانتى أى إن وجود الفردوس وجود باطنى وروحانى وينبغى عدم تحديد مكان لها استناداً إلى الخرافات . وأما قرنا الطوفان (٨٣١) فربما كان التعبير رجع صدى لوصف فيرجيل فى **الانيادة** (٨/ ٧٧) لنهر التايبر الجبار :

*corniger Hesperidum fluvius regnator aquarum*

وإن كانت العبارة قد وردت فى مسرحيات بن جونسون وكتاب من كتب السير توماس براون .

٨٤٠ - ٨٤٣ المشهد السادس مشهد خلاص الإنسان لأن الرقم ٦ ، كما يقول فاولر ، هو رقم الخلق (خلق الأرض فى ستة أيام) ومن ثم فهو يرمز إلى إقامة عهد جديد بين الله وبين آدم ، استناداً إلى العهد الميثاق مع نوح عليه السلام .

٨٥١ - يتعمد ميلتون عدم تحديد موقع رسو السفينة (الفُلْك) الوارد فى **سفر التكوين (٨/ ٤)** أى "على جبل أراراط" .

٨٥٢ - ٨٥٤ قارن انحسار المياه عند الخلق فى الكتاب السابع ٢٨٥ ومابعده . والعلاقة توحى ضمناً بأن «عالمًا كاملاً» قد دُمّر (السطر ٨٧٤) وأن الله يخلق من جديد **خلقًا جديدًا** على أساس العهد / الميثاق .

٨٦٥ - ٨٦٧ الألوان الثلاثة هى الألوان الرئيسية - الأحمر والأصفر والأزرق .

**عهداً جديداً** منه العهد هو الميثاق أو الموثق : **تكوين** (١٣ - ١٥) "وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض . فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس فى السحاب أنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم . . . فلا تكون المياه أيضاً طوفاناً لتهلك كل ذى جسد" .

٨٨٦ - ٨٨٧ انظر **سفر التكوين** (٦/ ٦) الذى يذكر أن السبب الذى حدا بالله إلى إحداث الطوفان هو أنه "حزن أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسّف فى قلبه" .

٨٨٨ - ٨٨٩ انظر **سفر التكوين** (٦/ ١١) "ورأى الله الأرض فإذا هى قد فسدت . إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض" .

٨٩٠ - انظر **سفر التكوين** (٨/٦) "وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب" .

# حواشي الكتاب الثاني عشر

١ - ٥ أضيفت الأبيات الخمسة الأولى عندما انقسم الكتـاب العاشر فى الطبعة الأولى للملحمة إلى الكتابين الحادى عشر والثانى عشر .

١ - 'الزوال' المقصـود انتصاف النهـار تمامًا ، وهكذا تكون نقطة الانتقـال بين عالم زال وعالم آت ، كـما يتضح من الأبيات التالية ، والانتقال يشـبه نقطة الزوال أى اللحظة التى تكون الشمس فيها فى السمت (فوق رأس المشاهد تمامًا) لأنها الساعة السادسة فى النهار وفق الكتاب المقدس . ويشير فاولر ، المولع بدلالة الأرقـام والأعداد فى **الفردوس المفقود،** إلى كتـاب كتبـه بيتـرو بونجو بعنوان **ألغاز الأعداد** (باللاتينية) فى أواخر القرن السادس عشر ، ويناقش فيه دلالة رقم 'ستة' مناقشة مستفيضة ، ويستقى مما جاء فى الأثر عن وقوع أهم الأحداث الكونية فى السـاعة السادسة أن هذا الرقم هو رقم الخلاص ويضـيف فاولر إن آدم قـد شـاهد ست رؤىً ، وأن الرؤى تنتـهى بطرده من الفـردوس فى السـاعـة السادسة من النهار .

٥ - 'نُقلة حُلوة' : يقـول فاولر الوصف بالحـلاوة يوحى بأن ميلتـون يريد الإشارة من طرف خـفى إلى حلاوة 'شهد العقيدة' (honey of doctrine) الذى يستقى منها ، وربما يكون ذلك من باب التأويل المتعسف .

١٩- 'القمح والنبيذ والزيت' كثيرًا ما اقترن ذكر الثـلاثة فى شروح العهد القديم بقانون الضرائب (مكوس العُشْر) - انـظر **تثنية** (١٤/ ٢٣) **ونَحَمْيَا** (١٠/ ٣٩) . ولكن العبـارة توحى بالمزاميـر التى تقـرأ فى الصلاة، ولا علاقة لها بالمكوس .

٢٤-٦٣ لا علاقة للنمروذ (Nimrod) فى **سفر التكوين** ببناة برج بابل ، فالسفر يقـتصر على القول بأن ''كوش ولَد نمرود الذى ابتدأ يكون جبارًا فى الأرض . الذى كان جبار صيد أمام الرب . لذلك يقال كنمرود جبّـار صيد أمام الرب . وكان ابتـداء مملكته بابل'' (٨-١٠) ولكن العـلاقة قائمـة فى تاريخ يوسفـوس الذى يتحـدث عن اشتـقاق اسم بابل (من البلبلة) وبـناء البرج ، قائلاً أن الـنمروذ ''حوّل الحكم إلى طغيان'' . واستنادًا إلى ما يقوله يوسفوس حوّله شراح الكتاب المقدس ، وخصوصًا القديس جيروم (St Jerome) ، إلى نموذج أولىّ للطاغـيـة ، وجـعلوه يبـدل الحكم الأبوى الذى أوصى به الأنبياء إلى 'سيطرة' و 'سلطان' ، والملاحظ أن تصوير مـيلتون للنمـروذ مصبـوغ بصبغـة دعوته الجمهورية ، فـهو يستند إلى 'قانون الطبيعة' (٢٩) الذى يعنى الإخـاء والمساواة (والحريـة) ، وهو ما هيأنا له ميلتون فى الأبيـات السابقة المستندة أو المستقاة (كما يقـول هيوز فى طبعته **للفردوس المفقود**) من سينيكا (**الرسائل** ٨١) ، ويشير إلى أن طغيان النمروذ ينافى طبيعته البشرية 'الجمهورية' ، ولاحظ وجود كلمة الإخاء وكلمة المساواة (٢٦) فى تقديم ميلتون للمشهد .

٣٦- يقول ستارنز وتولبرت (فى المرجع المشار إليه) إن تفسير اسم النمروذ (نمرود) اشتقاقيًا (أى أنه من التمرد - من مَرَدَ) مذكور فى معجم شارل إستين :

(Charles Estienne's *Dictionarium*)

٤١- 'السهل' هو سهل 'شنعار' . "وجدوا بقعـة فى أرض شنعار وسكنوا هناك" (**تكوين** ١١/٢) وبقية الفقرة تتبع ما جاء فى هذا الأصحاح من هذا السفر .

٤٥-٤٦ "وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء . ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض" (**تكوين** ١١/٤) .

٥٢ - 'فيعترض أبراج السماء' عبارة ساخرة ، ولو أن إمبسون يقول بعكس ذلك فى كتابه عن ميلتون (انظر المراجع) . و 'يسخر منهم' تؤكد نغمة السخرية ، وتلمح إلى آية فى **المزمور** الثانى (٤) "الساكن فى السمـوات يضحك : الرب يستـهزئ بهم" . وميلتـون يستعمل الكلمـة نفسها الواردة فى التـرجمة المعتمدة للكتاب المقدس .

٥٣-٥٨ كان الاعـتقاد السائد فـى القرن السابع عشـر هو أن انفصال اللغـات بعضهـا عن بعض ، بحيث أصبحت لغات متـميزة متفردة ، بدأ ببلبلة الألسنة فى بابل . وكان سر شيـوع هذه النظرية وجاذبيتها انشغال العلماء بوضع لغة عالمية 'مركبة' (composite) أو تركيبية (Synthetic) ، أو قل وضع عدة لغات تتصف بالعالمية والتركيب ، كأنما لاسـتعادة الوحدة الأوروبية التى تمزقت ، وحفزهم على ذلك اكتشاف لغات جـديدة فى الشرق تختلف اختلافات كبيرة عـن اللغات الأوروبية ، فوجدوا فى ذلك لونًا من البلاء كـأنما هو ثمرة 'لعنة بابل' فوضع السيـر توماس إيركارت (Urquhart) كتبًا تتضمن سبيل 'إحياء' تلك اللغة الواحدة المتصورة ، مثل **الدرة الرائعة الفريدة** و **معجم اللغة العالمية الشاملة** (على الترتيب *Most Exquisite Jewel* and *Logopandecteision*) وكتب ميلتون نفسه يقول إن اللغة القديمة التى كـان آدم يتكلمها واللغات التى ربما تفرعت منها فـيما بعد ، "وهى التى تلقاها بناة بابل فجـأة ، هى دون شك لغات منزّلة من السـماء" . وقد أفـاض النقاد فى الحـديث عن ذلك . وتعبير 'جلبة صاخبة' (jangling noise) منقول عن كتاب دى بارتاس المشار إليه (ترجمة سيلفستر) .

٦٢- 'اسمًا مشتقًا من البلبلة' - انظر **سفر التكوين** (١١/٩) "لذلك دُعى اسمـها بابل . لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض" . ويقول فاولر إن يوسفوس المؤرخ اليهودى الذى يجيد العبرانية ، "طور هذا الاشتقاق الزائف على شيوعه وذيوعه" ، وأما أنه زائف فالله أعـلم ، لأن القاموس يورد "بلبل الله ألسنة الخلق : **فرقها**" (دون ذكر اشتـقاق) ويورد البال (فى بول) بمعنى الخـاطر أو الحال والشأن (دون اشتـقاق) ويورد اللسـان اسم المكان بابل فى 'ببل' وقـد وردت فى القـرآن العظيم ﴿ **وَمَا أُنـزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ** ﴾ (البقـرة -١٠٢) ، ويورد **معجم أكسفورد الكبير** (OED) كلمة (babble) بمعنى الحديث المختلط غـير المفهوم ويفـسر اشتقاقـها ترجيحًا من الأصوات المبـهمة "با . . بـا" ، بمعـنى محاكاتها لتلك الأصوات على غرار (prattle) ، ثم يعلق قائلاً "وربما تأثر معناها بمعنى 'بابل'" . ولذلك نقول الله أعلم .

٦٦- يقارن 'برودبنت' بين ما يـحدث هنا وبين تتـويج إبليس ملكًا على الرغم من الآراء 'الجمهورية' التى يعرب عنها فى الكتاب الخامس - السطر ٧٩٠ وما بعده .

٧٦-٧٨ لا تصلح طبقات الجو العليا للبشر الفانين (انظر الحاشية على البيت ، ٥٦٢ من الكتاب الثالث) ويقول النقاد إن طبقات الغلاف الجوى ترمز فى **الفردوس المفقود** للمراتب أو الدرجات المعنوية والطبيعية – انظر مثلاً "الهواء النقى" (٢/١٥٣) فى الفردوس ، و "الهواء الخفيف" الذى لا تستطيع الأسماك أن تتنفسه (٨/٣٤٨) ونحن ندرك مدى أهمية هذه الفكرة لميلتون استناداً إلى الموقع البارز الذى تشغله فى المخطوط الثالث (أى المسودة الثالثة) للمسرحية التى كان يعتزم كتابتها عن سقوط البشر .

٨٠-١٠١ يقول فاولر إن هذه الفقرة كلها تذكرنا بأسلوب المقالات التى بررت قتل الملك تشارلز الأول عام ١٦٥٤ ، ولكنها تتبع من حيث المنهج الفكرى أقوال القديس أوغسطينوس : "إن الإنسان قد جعل سيداً على الكائنات غير العاقلة دون غيرها ، لا على الإنسان بل على الحيوان" ثم يقول إن العبودية لم تأت إلا حين أخطأ ابن نوح عليه السلام ، ومن ثم فهى وليدة الخطأ لا الفطرة ، فأمها هى الخطيئة "السبب الأول لإخضاع الإنسان للإنسان ، وهى – رغم ذلك – لا تحدث إلا بإرادة الرب الأعلى ، الذى لا يظلم أحداً" وفى هذا إشارة إلى الآية التى سبق الاستشهاد بها من **إنجيل يوحنا** (٨/ ٣٤) "إن كل من يعمل الخطيّة هو عبد للخطيّة" . ويقيم ميلتون علاقة بين الاستعباد النفسى والاستعباد السياسى فى آخر الكتاب التاسع (١١٢٧-١١٣١) .

٨٤- 'العقل الصائب' ربما كان يعنى الضمير ، على نحو ما جاء فى الخلافات اللاهوتية المستعرة فى القرن السابع عشر ، إذ كان الباحثون يفرقون بين 'العقل' بصفة عامة باعتباره المنطق أو قانون التفكير العام وبين 'الرُّشْد' الذى يستند إلى ما هو أعمق فى نفس الإنسان ، ويصل إلى أعمق أعماقه بالإيمان الروحى الخالص ، ولذلك فإن ميلتون يشير فى كتاباته النثرية إلى 'تصويب' (بمعنى تصحيح) مسار العقل .

٩٥- انظر الكتاب الرابع ٩٩٣ حيث يشير ميلتون إلى 'الضرورة' (أو ما تقتضيه الضرورة) باعتبارها 'ذريعة كل طاغية' .

١٠١-١١٤ يقول **سفر التكوين** إن حام بن نوح رأى عورة أبيه وهو سكران وأخبر إخوته بذلك ، الأمر الذى أدى إلى فرض اللعنة على ابنه (ابن حام) كنعان "فقال ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته" (٩/ ٢٥) .

١١١-١١٣ هذه بداية جديدة من 'بقايا' سلالة مؤمنة . ويقول هيوز (فى الطبعة المشار إليها) إن ميلتون "يدين المذهب الكالفينى الذى يقضى باصطفاء فرد واختصاصه بالخلاص" ، ويقول فاولر إن ميلتون لا يعارض الاصطفاء بل يعارض النَّبْذ أى الحرمان من الرضى ومن ثم من النعيم المقيم (الخلود) إذ لا يوجد ما يعيب اصطفاء البعض ، فى رأى ميلتون ، فالله يفتح باب رحمته للكثيرين ولا يغلقه فى وجه أحد . وكلمة 'خاصة' فى السطر ١١١ ترجع صدى كلمة 'خاص' فى الآية ، من **التثنية** (١٤) "لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" .

١١٤-١١٥ انظر **يشوع** (٢/٢٤) ''هكذا قال الرب إله إسرائيل . آباؤكم سكنوا فى عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى'' .

١١٧- الرجل العظيم هو النبى نوح عليه السلام ، الذى عاش - حسبما يقول الكتاب المقدس ، بعد الطوفان ٣٥٠ سنة (**تكوين** ٢٨/٩) .

١٢٠- 'العلىّ' هو الاسم الذى يستعمله ملكى صادق فى مباركة إبراهيم . (تكوين ١٤/ ١٩-٢٠) .

١٢١-١٣٤ يلتزم ميلتون بما ورد فى الكتاب المقدس عن نداء الله لإبراهيم وعهده معه (**تكوين** ١٢ ، **أعمال الرسل** ٧) السطر ١٢٦ انظر **تكوين** (٣/١٢) ''تتبارك فيك جميع قبائل الأرض'' . والسطر ١٢٧ - ''ذو إيمان راسخ'' - انظر **العبرانيين** (٨/١١) ''بالإيمان إبراهيم لما دعى أطاع أن يخرج إلى المكان الذى كان عتيدًا أن يأخذه ميراثًا فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتى'' . والتورية هنا ترجع إلى أن آدم يوشك أن يؤمر بالخروج إلى حيث لا يعلم . والسطر ١٢٨ 'ولكنك لا تستطيع' معناه أن المشهد فيه نورانية لا تستطيع عين آدم فى حالته الراهنة رؤيتها . وأما إشارة ميلتون إلى 'المخاضة' فى السطر ١٣٠ فهى من باب استقراء الكتاب المقدس ، خصوصًا **تكوين** (١١/ ٣١) ، فقد كانت مدينة 'أُور' على أحد شاطئى الفرات و 'حاران' على الشاطئ المقابل (انظر تفصيل ذلك كله فى الحاشية على السطور ٢٠٩-٢١٦ من الكتاب الرابع) .

١٣٥-١٥١ يستند ميلتون فى وصفه للرحلة إلى سفر **التكوين** (١٢/ ٥ وما بعده) وفى وصفه للوعد إلى **يشوع** (٨/ السطر ٥ وما بعده) والوصف التالى موجود فى الحاشية المذكورة أعلاه على السطور ٢٠٩-٢١٦ من الكتاب الرابع . ١٤٣- 'على الشاطئ' أى فى موقع جبل الكرمل ، وكان هذا الموقع يضرب به المثل فى الثبات أو لإبراز التأكد والثقة ، وقد ورد فى ذلك السياق فى **إرْميا** (١٨/٤٦) وأما تعبير 'ذو المنبعين' فى السطر ١٤٤ فهو يستند إلى الخرافة التى تقول إن نهر الأردن يتكون من التقاء رافدين هما 'الأرْ' و 'دُنْ' (أى Jor - dan = Jordan) ويقول هيوز إن تلك الفكرة قديمة وترجع إلى القديس جيروم .

١٤٧-١٥١ الوعد الذى يتلقاه إبراهيم (**تكوين** ١٢/ ١-٣) تجديد للوعد المضمر فى اللعنة التى فرضت على الثعبان . أنظر الكتاب العاشر ١٨٠ وما بعده .

١٥٢- جاء فى الكتاب المقدس أن إبراهيم كان اسمه 'أبرام' ثم تحول إلى إبراهيم بمعنى 'والد الكثيرين' اشتقاقًا من الكلمتين الساميتين (أب + رهام) والأب هو الوالد والرهام هو المطر ، ولذلك تتفاوت صور الاسم فى اللغات المختلفة فتجد إبراهام ، وأبراهام وإبرام وإبرامز . . . إلخ والشرح موجود فى هامش الطبعة الانجليزية المعتمدة للكتاب المقدس ، وأما صفة الحنيف بمعنى الذى حَنَفَ عن دين آبائه فَحَسُنَ لذلك إيمانه فالمرجع فيها هو سورة النحل فى القرآن العظيم (الآية ١٢٠) وسفر **غلاطية** (٩/٣).

١٥٣- يقول الكتاب المقدس إن الابن هو إسحاق والحفيد هو يعقوب .

١٥٥-١٦٣ جاء فى الكتاب المقدس (**تكوين ٤٥ و ٤٦**) كيف جاء يعقوب إلى مصر بناءً على طلب ابنه الأصغر يوسف عليه السلام . ويقول فاولر إن مصبات النيل السبعة تقابل الأماكن التسعة المحددة فى الأرض الموعودة (أرض الوعد أو الميعاد) وفاولر - المولع بالأرقام ودلالتها - يقول إن الرقم سبعة كان يرمز للتحول والتغير والفناء ، والرقم تسعة يرمز للروح والعقل والسماء .

١٦٤-١٦٨ يتبع ميلتون ما جاء فى **سفر الخروج** (١) والملك المشار إليه هنا كان ميلتون قد أطلق عليه 'فرعون' وحسب فى الكتاب الأول (٣٠٧) .

١٧٢- 'الغنائم' هى الحلىّ والملابس التى حصل عليها بنو إسرائيل من المصريين بصفة 'قرض' عندما كان المصريون حريصين على التخلص منهم فأعطوهم ما يريدون .

١٧٣-١٩٠ وصف الأوبئة يستند بصفة عامة إلى **الخروج** (٤-١٢) وأما 'الكَرّ' الوارد فينسبه الشراح إلى 'كرّ' العربة الحربية ، وهى الصورة التى ابتدعها ميلتون ويلمح بها إلى ما يعنى به 'عربة العدالة الكونية' . انظر تفاصيل ذلك فى الحاشية على الكتاب الرابع (السطور ٧٤٩-٧٥٩) . وانظر السطر ٣١١ من الكتاب الأول . وأما بلاء الجراد فكان قد أشير إليه قبل ذلك فى التشبيه الوارد فى الكتاب الأول ، السطور ٣٣٨-٣٤٣ .

١٨٨- 'الظلام الغليظ الملموس' : تستند هذه الصورة إلى الترجمة اللاتينية الشعبية للآية ٢١ من الأصحاح العاشر من سفر **الخروج** .

***Sint tenebrae super terram Aegypti, tam densae, ut palpari queant.***

والنص الانجليزى الحديث هو :

"..So that over the land of Egypt there may be a darkness so dense that it can be felt."

والنص العربى فى الترجمة المعتمدة :

"... ليكونَ ظلامٌ على أرض مصر حتى يُلمسَ الظلام"

والواضح أن ميلتون كان يشير إلى النص اللاتينى أو كان ذلك النص مرجعه الأول .

١٩٢- كثيراً ما يشير ميلتون إلى فرعون باعتباره نموذج قسوة القلب ويقارنه بالملك تشارلز الأول فى هذه الخصيصة - خصوصًا فى كتابه 'تحطيم الأوثان' *(Eikonoklastes)* طبعة ييل (Yale) (٣/٥١٦) وكان ميلتون يعنى بتحطيم الأوثان تحطيم الصور التى كان البيوريتانيون يرون فيها بقايا وثنية فى كنائس شرق أوروبا فى القرنين الثامن والتاسع للميلاد ، وكان ميلتون بطبيعة الحال يهاجم بذلك الكنيسة الكاثوليكية .

١٩٣-١٩٤ تقول سفندن فى كتابها المشار إليه (ص ٩٩) إن ميلتون استمد هذه الصورة من كتاب

Speculum mundi الذى كتبه سوان (Swan) ويقول فيه إن الثلج حين ينصهر ثم يتجمد يصبح جليدًا بالغ الصلابة كأنه الحجر ويسمى البلّور .

١٩٩- 'الانقسام' إذا كان خيرًا اكتسب معنى الإنصاف ، فالنيل 'يقسم' أرض مصر (السطر ١٥٧) وعصا موسى تقسم البحر .

٢٠٠-٢٠٥ انظر الخروج (٢١/١٣) "وكان الرب يسير أمامهم نهارًا فى عمود من سحاب ليهديهم فى الطريق ، وليلاً فى عمود نار ليضئ لهم . لكى يمشوا نهارًا وليلاً" . فى السطر ٢٠١ يقول ميلتون إن الله أرسل إليهم ملكًا من لدنه . وهو يوضح ذلك فى كتابه عن العقيدة المسيحية قائلاً (٥/١) (طبعة كولمبيا ١٢/٢٨٧-٢٨٩) إن الله لم يذهب بنفسه إلى بنى إسرائيل وإلا لدكّهم دكًا بل أرسل "من يمثل اسمه ومجده فى شخص مَلَك من الملائكة" . أما الكليم فهو موسى عليه السلام أى إنه 'كليم الله' .

٢٠٦-٢١٤ انظر خروج ١٤ وانظر الكتاب الأول الأبيات ٣٠٦ وما بعدها .

٢١٦-٢١٩ هذا هو التفسير الوارد فى سفر الخروج (١٣/١٧ وما بعده) وأما الطريق الفعلى الذى سلكه بنو إسرائيل فقد كان دائريًا بمعنى أنهم اتجهوا جنوبًا أولاً قبل أن يتجهوا شمالاً حتى يتجنبوا الدخول على 'الكنعانيين' أى الفلسطينيين المتمرسين فى القتال وفنون الحرب فيتشتت شملهم فى حرب لم يطلبوها ولا يستطيعون خوضها ، وفق ما ورد فى الكتاب المقدس ، وميلتون يركز على صورة التيه فى الصحراء لأنها كانت المثال الذى كثيرًا ما ضربه للحرب الأهلية فى انجلترا (فى كتابه **تحطيم الأوثان** على سبيل المثال ٣/ ٥٨٠) .

٢٢٤-٢٢٦ انظر عدد (١١/١٦-٢٥) وخروج (٢٤) .

٢٢٧-٢٣٠ انظر سفر الخروج (١١/١٦-٢٠) .

٢٣٢-٢٣٤ انظر العبرانيين (٨/ ٥) حيث يشار إلى الكهنة "الذين يخدمون شبه السمويات وظلها كما أوحى إلى موسى وهو مزمع أن يصنع المسكن . لأنه قال انظر أن تصنع كل شئ حسب المثال الذى أظهر لك فى الجبل" .

٢٣٥-٢٣٨ انظر خروج (٢/١٨-١٩) "وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البرق والجبل يدخّن . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد . وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلاّ نموت" .

٢٣٨-٢٤٤ "فإن موسى قال للآباء إن نبيًا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون فى كل ما يكلمكم به" (أعمال الرسل ٣/ ٢٢) وهذا يشير إلى ما سبق أن جاء فى سفر التثنية (١٨/ ١٥ و ١٨) "يقيم لك الرب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون . . أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به" ويقول ميلتون فى كتابه عن العقيدة

**المسيحية** "إن اسم ومنصب الوسيط يُنسبان إلى موسى بمعنى من المعانى باعتباره نموذجًا للمسيح" (١/ ٥ – طبعة كولمبيا ١٥/ ٢٥٨٧) ، وكان المفسرون يقولون إن الآية الأخيرة هى الأولى والأسبق من حيث الزمن ومن ثم فهى المرجع فى نبوة موسى وعيسى عليهما السلام جميعًا . وأما الشرائع والطقوس فقد وصفت باعتبارها نماذج فى العبرانيين (٩/ ١٩-٢٣) (مثلاً : "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة" – ٢٢) ويأتى بعد ذلك ذكر الذبائح تفصيلاً .

٢٤٧-٢٥٦ 'بيت الله' المقصود به الهيكل المتنقل الذى يوضع فيه 'تابوت الشهادة' داخل 'قدس الأقداس' ، ويعتبر 'البيت' المقر الإلهى الذى يحمله بنو إسرائيل معهم فى حلهم وترحالهم فى الصحراء قبل الوصول إلى الأرض الموعودة ، وهو يسمى 'المسكن' فى سفر **الخروج** ويوجد وصف بنائه بالتفصيل فى الأصحاحين ٢٥ و ٢٦ ، ومنه يتضح أنه كان خيمة كبيرة ذات دعامات خشبية ، ألواحها وعوارضها من خشب السنط ، وستائرها ذات ألوان متعددة ولها أعمدة مطعمة بالذهب (٢٦) . ولكن ميلتون يضيف ، استنادًا إلى ما جاء فى **العبرانيين** (٩/ ٤) ، أن 'الشهادة' هى 'سجلات عهد' الله ، داخل التابوت . والسفر المذكور يقول "وتابوت العهد مغشى من كل جهة بالذهب الذى فيه قسط من ذهب فيه المن وعصا هرون التى أفرخت ولوحا العهد (٤)" مما يعنى أن هذه هى السجلات المقصودة . وأما خشب الأرز فليس واردًا فى سفر الخروج وربما كان الخلط يرجع إلى تواليهما فى الآية ١٩ من سفر **إشَعْياء** ، الأصحاح ٤١ "أجعل فى البرية الأرز والسنط والآس وشجرة الزيت . أضع فى البادية السرو والسنديان والشربين معًا" وهى بالانجليزية :

"I shall plant cedars in the wilderness, acacias, myrtles, and wild olives; I shall grow pines on the barren heath, side by side with fir and box tree"

فالأرز هنا يسبق السنط ، الأمر الذى قد يكون أوحى لميلتون بفضل سبق هذا على ذلك . **ومقعد الرحمة** (٢٥٣) هو الذى سبق ذكره – انظر الحاشية على السطر الثانى من الكتاب الحادى عشر . وقوله 'تمثل النجوم فى السماء' يشير إلى الطابع الرمزى له . ويوسفوس يتوسع فى الرموز الكونية هنا وتفسيرها .

٢٥٦-٢٥٨ انظر سفر **الخروج** (٤٠/ ٣٤-٣٨) .

٢٦٠- للمزيد من الوعد الذى أعطى لإبراهيم انظر الأبيات ١٣٧ وما بعده .

٢٦٣-٢٦٧ انظر **يشوع** (١١/ ١٢-١٣) "حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بنى إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل يا شمس دومى على جبعون ويا قمر على وادى أيلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوبًا فى سفر ياشر . فوقفت الشمس فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل" . وقد تكررت الإشارة إلى هذه الحادثة باعتبارها نموذجًا لقوة الإيمان .

**'يعقوب ، فهكذا سيدعى' (٢٦٧) فى الأصل 'إسرائيل' وانظر تكوين** (٣٢/ ٢٣-٢٨) "قال له ما

اسمك. فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فى ما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرتَ" .

٢٧٤- 'تفتحتا حقًا' التفتح الحق يشير إلى الوعد الكاذب الذى قدمه الشعبان إلى حواء قائلاً إن الفاكهة المحرمة سوف تفتح عينى الإنسان ، وهو وعد يتضمن تورية ساخرة ، إذ أن عينى حواء قد تفتحتا فعلاً ولكن لتبصر بلاء المهوى والسقوط . انظر الكتاب الحادى عشر ، السطر ٤١٢ وما بعده .

٢٧٧- 'التورية الدرامية' هنا - كما يقول فاولر - ترجع إلى إلمام القارئ بقول المسيح إنه قبل أن يوجد إبراهيم كان اللـه منذ الأزل . وقوله فى **إنجيل يوحنا** (٨/٥٦) "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومى فرأى وفرح" ولكن آدم لا يقول إلا أنه يستطيع أن يتصور 'يوم' إبراهيم ، ظانًا أن الوعد سوف يتحقق آنئذ ، ولكن لا يعرف أن 'البركة' التى سبق ذكرها فى السطر ١٤٧والسطور التالية تتضمن سرًا آخر لم يكشف النقاب عنه بعد . (انظر الحاشية على السطر ٣١٦ من الكتاب الثامن) .

٢٨٥-٣٠٦ هذه فقرة تشغل مكان القلب من العقيدة المسيحية عند البروتستانت ألا وهى علاقة الشرائع بالإيمان ، ويطلق عليها علماء اللاهوت 'التبرير بالإيمان' Justification by Faith - ومعنى التبرير الوصول إلى البر أو الصلاح (البرّ - انظر الحاشية على السطر ٦٤ من الكتاب الحادى عشر) وأما تفصيل القول فيها فيسير : يقول ميلتون (على لسان ميكائيل) إن الشرائع أنزلت لا لتكون بديلاً عن الإيمان بل لتمتحنه ، فهى تضع الضوابط التى تيسّر على الإنسان تثبيت إيمانه بكشف السبيل إلى الأعمال الصالحة ، وابتلاء مدى طاعته لما أنزله الله ، ولتحدى الخطيئة الأولى المركبة فيه ، ولن يستطيع الإنسان أن ينصاع حقًا للشرائع المنزلة إلا عن طريق الإيمان ، فالإيمان هو الأصل ، وهو الذى يمكّن الإنسان من التغلب على نوازع الخطيئة ومن ثم تثبيت إيمانه . ولقد تحريت الدقة التى تصل إلى الحرفية فى ترجمة هذه الفقرة حتى يجد القارىء النص الدقيق المعبر عن هذه المعانى كلها فى ميلتون . وأما مصادر الفقرة فكلها من الكتاب المقدس ، وفاولر يورد ثبتًا بها لا أعتقد أنه يهم القارئ العربى .

٢٩٠- يقول بولس الرسول فى رسالته إلى **أهل رومية** (٣/١٩ وما بعده) إن الناموس أى القانون الإلهى أو الشرع يجعل الجميع مسئولين عن أفعالهم وعرضه للعقاب عن إنتهاك الشرع "لأن بالناموس معرفة الخطيئة" .

٢٩١- انظر الحاشية على السطور ٢٣٨-٢٤٤ ، فالشرع - كما جاء فى تلك الحاشية ، 'نموذج' فحسب أى مثال ، والأضحيات أو الكفارات التى يقدمها الإنسان فى سبيل الغفران بموجب ذلك الشرع لا تصل فى عمقها إلى الكفارة الحقيقية التى يقدمها المسيح - وفق العقيدة المسيحية - وهى افتداء البشر بنفسه . وجاء فى **العبرانيين** مصداق ذلك "لأن الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء لا يقدر أبدًا بنفس الذبائح كل سنة التى يقدمونها على الدوام أن يكمّل الذين يتقدمون" (١/١٠) .

٢٩٣- انظر **رسالة بطرس الأولى** (١/١٨-١٩) "عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التى تقلدتموها من الآباء . بل بدم كريم كما من حمل بلا عَيْبٍ ولا دنس دم المسيح" .

٢٩٤- انظر **رسالة بطرس الأولى** (٣/١٨) .

٢٩٧-٢٩٨ انظر **غلاطية** (٢/١٦) .

٣٠٠-٣٠٦ الفكرة هنا مطابقة لما ورد فى **غلاطية** (٣/ ٢٢-٢٦) .

٣٠٧-٣١١ انظر **تثنية** (٣٤) و **يشوع** (١) ونجد فى كتاب ميلتون عن **العقيدة المسيحية** ما يكاد يكون صورة منثورة من الأبيات الحالية ، إذ يقول إن الشرع لا يستطيع أن يعد بما يستطيع الإيمان بالله ، من خلال المسيح ، تحقيقه بل وما حققه فعلاً . "وهكذا فإن نقص القانون يتجلى فى شخص موسى نفسه ، الذى كان نموذجًا للقانون ، إذ عجز موسى عن إدخال بنى إسرائيل إلى أرض كنعان ، أى إلى النعيم المقيم أبدًا ، ولكن المدخل إليها قد أتاحه لهم يشوع أو يسوع" . (٢٦/١ - طبعة كولمبيا ١٦/ ١١١) .

٣١٠- 'الأميون' هم غير اليهود (أى gentiles) قال تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾ (الجمعة / ٢) . وتكتب أحيانًا 'الأممين' . وأما يسوع (**Jesus**) فهى المعادل باليونانية لـ (يشوع) (أى **Joshua**) وقد وردت معادلة الاسمين فى معجم شارل إستينّ ، الذى سبقت الإشارة إليه ، هكذا.

***Iosue, et Iesus, idem est nomen ...***

وبقية العبارة عن عبوره الأردن تؤكد ذلك

*Iosue, Typum Iesu Christi non solum in gestis, verum etiam in nomine genens, transiit Iordanem.*

٣٢٠- انظر **القضاة** (٢/١٦) .

٣٢١-٣٢٤ تلقى داود من ناثان النبى الوعد التالى "يأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامك . كرسيك يكون ثابتًا إلى الأبد" . (**صموئيل الثانى** ٧/١٦) .

٣٢٤-٣٣٠ فى كثير من فقرات العهد القديم (مثل **إشعياء** ١٠ **والمزمور** ٨٩/ ٣٦) نجد أن السلالة الملكية لداود تحمل دلالة مسيحية . ويطبق **لوقا** هذا على يسوع قائلاً : "هذا يكون عظيمًا وسوف يدعى ابن العلىّ ، ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه" (١/ ٣٢) . وأما عن الوعد الذى تلقاه آدم فانظر الكتاب العاشر السطر ١٨٠ وما بعده ، وعن تأكيد الوعد لإبراهيم انظر الكتاب الثانى عشر ١٢٥ وما بعده ، و ١٤٧ والسطور التالية .

٣٣٢-٣٣٤ أى سليمان عليه السلام الذى بنى الهيكل (المعبد) حتى يجعل للتابوت مكانًا ثابتًا لأول مرة (انظر **ملوك أول** ٥-٨ و **أخبار الأيام الثانى** ٢-٥) وعندما بنى المعبد [البيت ، فى **الكتاب المقدس** : - 'بيت الرب' - 'الرواق أمام هيكل البيت' (**ملوك أول** ٦/ ٣)] أعطاه الله عهدًا جديدًا أو ميثاقًا آخر (**ملوك أول** ٩/ ١-٩) .

٣٣٩-٣٤٣ انظر **أخبار الأيام الثانى** ٣٦ ، **والملوك الثانى** ١٧ السطر ٢٤ والسطور التالية .

٣٤٤-٣٤٧ المرجع فى قصة الأسر فى بابل هو سفر **إرْميا** ٢٥/١٢ ، و ٣٣/ ٢٠-٢٦ حيث يرد أن العودة تستند إلى الوعد (العهد) الذى تلقاه داود عليه السلام باعتباره مؤكدًا مثل تعاقب الليل والنهار . وانظر 'وعد داود' فى **المزمور** ٨٩/ ٢٩ : "وأجعل إلى الأبد نسله وكرسيه مثل أيام السموات" . وأمّا وضع ميلتون عبارة 'سبعين سنة' بجوار عبارة 'أيام السموات' فربما كان المقصود به التذكير بتفسير 'يوسفوس' للأجزاء السبعين من 'المنارة' (الشمعدان) فى الهيكل (المسكن) بأنها ترمز للديكانى (Decani) أى الأقسام السبعين للكواكب فى بروج السماء .

٣٤٨-٣٥٠ إعادة بناء أورشليم هو موضوع '**كتاب عزرا**' و **نحميا** (١-٦) وملوك الفرس هم 'قيرس' و 'أرتخشتا' و 'دارا' (Cyrus, Artaxerxes, Darius) .

٣٥٣-٣٥٨ يحكى **كتاب مكابى الثانى** (٤-٦) قصة النزاع بين الكهنة المتآمرين 'جاسون' (Jason) (يشوع) ومنيلاوس (Menelaus) (اونياس) (Onias) وسمعان (Simon) ، وهو النزاع الذى أدى إلى قيام الأنطاكى (أنطيوكوس) (Antiochus) بنهب أورشليم وتدنيس الهيكل (المعبد) . وفرضت بعد عامين أشكال العبادة اليونانية وأعيد تكريس المعبد فى أورشليم إلى 'جوبيتر أوليمبيوس' . وميلتون ينظر إلى هذه الأحداث باعتبارها نموذجًا لخيانة الكنيسة وبحيث تتضمن الأحداث إسقاطًا واضحًا على التاريخ المعاصر له .

٣٥٦- 'فإذا بهم' الضمير يعود إلى أسرة الأسمونيين (Asmonean) التى شغل أفرادها مناصب كبار الكهنة فى الفترة من ١٥٢-١٥٣ قبل الميلاد . ولقد قبض أحدهم على 'الصولجان' فأصبح 'أرسطوبولوس' الأول (Aristobulus 1) مما قضى على حكم كهنة بنى إسرائيل . [انظر يوسفوس - **آثار اليهود القديمة** (٢٠ كتابًا) - ٨/ ١٠/ ١] .

٣٥٧- 'أبناء داود' هم سلالة داود عليه السلام وأنسابهم مذكورة فى **إنجيل متى** (١) **وإنجيل لوقا** (٣) .

٣٥٨- 'أحد الغرباء' هو 'أنتيباتر الإيدومينى' (Antipater the Idumean) (والد هيرود الأكبر) (Herod the Great) الذى عينه يوليوس قيصر وكيلاً له فى حكم 'جوديا' (اليهودية Judea وهى أقصى جنوب فلسطين) . (يوسفوس ١٤/٨/٥) .

٣٦٠- التفاصيل من **إنجيل متى** (٢) و **إنجيل لوقا** (٢) ، و 'محرومًا من حقه' تعبير قانونى ، 'إلى ذلك المكان' أى إلى بيت لحم .

٣٦٩-٣٧١ يقول فاولر إن صياغة العبارة توحى بالتأثر بنبوءة فيرجيل بالنسبة لأغسطس فى الإنيادة (١/ ٢٨٧):

*imperium Oceano, Famam qui terminet astris*

ولكن الفكرة تتعلق - على الأرجح - بحكم المسيح على الأرض والتى جاءت النبوءات بها فى أماكن كثيرة من الكتاب المقدس مثل **إشعياء** (٩/ ٧) **ورؤيا يوحنا اللاهوتى** (٢/ ٢٥/ ٢٧) وغير ذلك . وانظر بصفة خاصة **المزمور الثانى** (٨) حيث تمتد مملكة المسيح "إلى أقاصى الأرض" .

٣٧٥-٣٨٥ يقول بيردن فى الكتاب المشار إليه آنفًا إن حديث ميكائيل عن المسيح يستخدم إلى حد ما مفردات ملحمية وهو الذى يوقع آدم فى خطأ تصوره بطلاً ملحميًا عاديًا ، وهو ما يتجلى فى هذه الفقرة ( ص ١٩٧ و ١٩٨ ) ولكن ميكائيل يسرع بتصحيح ذلك الخطأ بتأكيد الدور المأسوى للمسيح عليه السلام .

٣٧٩- انظر السطر ١٥٨ من الكتاب الحادى عشر والحاشية عليه . وهنا فى ٣٧٩ - ٣٨٢ عبارات من خطاب الملاك لمريم البتول فى البشارة . انظر **لوقا** (١/ ٣١-٣٥) .

٣٨٦-٣٨٧ لا يرى ميلتون فى صورة المبارزة التقليدية ما يفى برسالة المسيح ، فالمبارزة تقع بين اثنين ذوى قوة متكافئة أو متقاربة ونتيجتها ليست مؤكدة ، وأما رسالة المسيح ففوق ذلك لأنه يمثل قوة الله العلىّ القدير .

٣٩٥-٤٦٥ انظر الكتاب الثالث السطر ٢٠٨ والسطور التالية . ويقول فاولر إن هذه الفقرة ، على أهميتها (لأنها تقدم لآدم العقيدة التى عليه أن يعتنقها قبل الهبوط إلى الدنيا) تتضمن ضغطًا 'لتعريفات' كثيرة ومصطلحات لاهوتية دقيقة فى سطور قليلة وفى مساحة 'شعورية' محدودة جدًا ، ولذلك فهى فقرة فاشلة . ولكن فاولر لا يذكر أننا نقترب الآن من ختام الملحمة وأن ميلتون مضطر لذلك هنا . وعلى أى حال فإن انتقادات فاولر لها ما يبررها من وجهة النظر الفنية الخالصة .

٤٠٣-٤٠٤ انظر **رومية** (١٣/ ١٠) ''المحبة لا تصنع شرًا للقريب . فالمحبة هى تكميل الناموس'' .

٤٠٦- 'موت ملعون' انظر **غلاطية** (٣/ ١٣) و **تثنية** (٢١/ ٢٣) .

٤٠٩-٤١٠ انظر الحاشية على الأبيات ٢٨٥-٣٠٦ . وأما الإضافة هنا فهو أن التبرير (أى بلوغ البرّ والصلاح) بالإيمان يمكن أن يتحقق بالانتساب إلى إيمان المسيح نفسه ، أى إن المؤمن بالمسيح حقًا سوف يُنسب إليه إيمان المسيح فيكتسبه منه وهذا هو ما يسمى التبرير بانتساب الإيمان (Justification by Faith Imputation) وهو من أسس المذهب البروتستانتى . أى إن برّ المسيح وطاعته تنتسبان أو تُنسبان إلى المؤمن . ويقول فاولر ''وهكذا بفكرة قانونية خيالية (legal fiction) ترجح خصال المسيح الرفيعة كفة خطايا الخاطئ'' . ويبدو أن ذلك هو ما كان ميلتون يعتقده ، وفق ما جاء فى كتابه عن **العقيدة المسيحية** (١/ ٢٢) (طبعة كولمبيا ١٦/ ٢٤ وما بعدها) .

٤١٠- 'على اتفاقها مع الشرع' معناها أن 'التبرير' المذكور لا يكون بالأعمال مهما تكن بل بالإيمان .

٤١٦- ''إذ محا الصكّ الذى علينا فى الفرائض الذى كان ضدًا لنا وقد رفعه من الوسط مسمرًا إياه فى الصليب'' (كولوسى - ٢/ ١٤) .

٤١٩- 'قضى . . . عقوبة' تعبير قانونى . وفى الأصل إيحاء برضى المسيح عن قضائها .

٤٢٢- 'نجوم الصبح' تعبير يراه النقاد معقدًا لأنه قد يشير إلى النجوم الحقيقية وقد يكون استعاريًا فيشير إلى الملائكة .

٤٢٤- 'فديتك' أى فدية الإنسان الذى يمثله آدم .

٤٢٥-٤٢٦ إلماح إلى مبدأ الاصطفاء . انظر الكتاب الثالث ١٧٣-٢٠٢ 'سينجو منهم من يشاء' .

٤٢٧- 'بالايمان . . . الفعل' انظر الحاشية على ٦٤ من الكتاب الحادى عشر .

٤٣٤- انظر **تسالونيكى** (٤/١٣-١٥) .

٤٤٦- ٤٥٠ يقدم ميلتون الآن تفسيراً روحانيًا صريحًا للوعد الذى وعد إبراهيم به (الأبيات ٢٥ وما بعده و ١٤٧ والسطور التالية) مستوحيًا ذلك من **غلاطية** (٣/ ٧ و ٨) : "اعلموا إذن أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم . والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم" .

٤٥٨-٤٦٥ قارن ذلك بالحديث فى الكتاب الثالث (السطر ٣٢١ والسطور التالية) عن المجىء الثانى للمسيح، ويقول إمبسون فى الكتاب المشار إليه (ص ١٢٧) إن تعبير 'سواء فى السماء أو فى الأرض' (٣٦٣) يدل على أن ميلتون لم يكن واثقًا من فكرة العهد الذهبى (الألفية السعيدة The Millennium) ولكن العبارة لا يكتمل معناها إلا بما بعدها ، والسياق يدل على أن المقصود هو "فى السماء وفى الأرض جميعًا". ويوضح ذلك فاولر استنادًا إلى السطور ٣٣٠-٣٣٥ من الكتاب الثالث :

حتى يحكم فى أمر
العاصين من الناس والملائكة فمن حق عليه القول سقط
بما يقضيه حكمك . حتى إذا حشروا إلى الجحيم فامتلأت بهم
أغلقت أبوابها إلى الأبد . وعندها
تحترق الدنيا ومن رمادها تنشأ
سماء جديدة وأرض جديدة يسكنها الأبرار

(٣٣٠-٣٣٥)

ويضيف أن السياق يعنى أن النعيم سيكون شاملاً إلى الحد الذى يصبح التمييز بين السماء والأرض أمرًا لا وزن له ، فالبعض فى النعيم هنا والبعض فى النعيم هناك وتعبير 'الأحياء والأموات' يتكرر فى الكتاب المقدس (**أعمال الرسل** ١٠/ ٤٢ ، **تيموثاوس** ٤/ ١ و **رسالة بطرس الأولى** ٤/ ٥) .

٤٦٩-٤٧٨ يقول هاوارد فى دراسة له نشرتها **مجلة مكتبة هنتنجتون (الفصلية)** عام ١٩٤٥ إن تتبعنا لشتى أسباب السقوط ينتهى بنا هنا إلى الغاية من السقوط ، ألا وهى زيادة تمجيد الله ومعرفة مدى حبه الشديد من خلال تضحية المسيح عليه السلام (ص ١٦٥) . وأما قدرة الخالق على تحويل الشر إلى خير فتتبدى فى فقرات كثيرة - انظر مثلاً الكتاب الأول - السطر ٢١٥ والسطور التالية ، وانظر كتاب ك. س. لويس '**مقدمة للفردوس المفقود**' (١٩٤٢) انظر المراجع .

٤٧٨- انظر **رومية** (٥/ ٢٠) "ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا" - والمعنى أن رحمة الله تزداد حيثما ازدادت خطايا البشر .

٤٨٦- 'المُعَزِّى' هو 'الروح القُدس' - انظر **إنجيل يوحنا** (١٤/١٨) وأيضًا (١٥/٢٦) : "ومتى جاء المُعزِّى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى" وعادة ما يوازى النقاد بين 'روح القدس' وجبريل عليه السلام .

٤٨٨-٤٨٩ انظر **رومية** ((٣/٢٧) "أبناموس الأعمال ؟ كلا . بل بناموس الإيمان" . وانظر أيضًا **غلاطية** (٥/٦) **والعبرانيين** (٨/ ١٠) .

٤٩١- 'الدرع الروحى' يشير إلى القصة الرمزية الواردة فى **أفسس** (٦/ ١١-١٧) ومغزاها أن أهم جانب من جوانب الدرع هو الإيمان (٦/١٦) : "حاملين فوق الكل تُرْسَ الإيمان الذى به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة" .

٤٩٧-٥٠٢ الإشارة إلى ما روى من أحداث - على سبيل المثال فى **أعمال الرسل** (٢ ، ١٠) .

٥٠٥- الاستعارة ترجع إلى الرسول بولس (**كورنثوس الأول** ٩/ ٢٤) : "ألستم تعلمون أن الذين يركضون فى الميدان جميعهم يركضون ولكن واحدًا يأخذ الجعالة . هكذا اركضوا كى تنالوا" .

٥٠٧-٥٠٨ انظر **أعمال الرسل** (٢٠/ ٢٩) : "لأنى أعلم هنا أنه بعد ذهابى سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية" . وانظر التشبيه الذى يشبه إبليس فيه بالذئب فى الكتاب الرابع ١٨٣-١٨٧ . ويقول هاوارد شولتز فى كتابه **ميلتون والمعرفة المحرمة** ، نيويورك ، ١٩٥٥ ، إن تصوير ميلتون 'للمسيخ الدجال' موجه 'بصفة خاصة ضد روما' ( ص ١٢٧ ) أى ضد البابا والكنيسة الكاثوليكية، ولكن فاولر يقول إن القطعة كلها (٥٠٧-٥٣٧) يجب ألا تعتبر ضد كنيسة روما أو كنيسة انجلترا بل هى إدانة - بصفة عامة - لكل ما لا يقوم على الإيمان فى الكنيسة .

٥١١- انظر **رسالة بطرس الأولى** (٥/ ٢) "ارعوا رعية الله التى بينكم نظارًا . . . لا لربح قبيح بل بنشاط" . وميلتون يستخدم كلمة (lucre) (الربح) المستخدمة فى الكتاب المقدس نفسها .

٥١١-٥٢٢ كان من أهم أركان المذهب البروتستانتى أن الحَكَم النهائى فى المسائل العقائدية هو الضمير لا مجرد السلطة . وكان ميلتون كثيرًا ما يعرب عن ازدرائه للاعتماد على السلطات الكهنوتية وغيرها ، ويسميها 'البركة الموحلة للانصياع للتقاليد' . ويقول فى كتابه **عن العقيدة المسيحية** (١/ ٣٠) (طبعة كولمبيا ١٦/ ٢٨١) "من المحرم علينا صراحة أن نلتفت أدنى التفات إلى التقاليد البشرية ، مكتوبة كانت أم غير مكتوبة" وهو بهذا يشير إلى ما ورد فى **سفر التثنية** (٤/ ٢) من ضرورة الالتزام "بالوصايا" التى أنزلها الله فقط . وانظر أيضًا **كورنثوس الأولى** (٢/ ١٤-١٥) "ولكن الإنسان الطبيعى لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة . ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يُحكم فيه روحيًا . وأما الروحى فيحكم فى كل شئ" .

٥١٥-٥٢٤ 'السلطة العلمانية' (بفتح العين - نسبة إلى العالم) هى السلطة الزمنية أى الدنيوية - فكلمة secular مشتقة من كلمة so eculum التى تعنى 'العصر' أو 'الجيل' ، وتعنى فى الفقه المسيحى 'العالم' (خصوصًا فى المقابلة مع الكنيسة) وكانت كلمة so ecularis اللاتينية تعنى ذلك أيضًا ،

وكان فساد الكنيسة الراجع إلى نشدانها السلطة العلمانية من الموضوعات التى شغلت ميلتون وناقشها باستفاضة فى دراسة عنوانها **عن الإصلاح** (طبعة ييل/ ١) ويدين فى كتابه **عن العقيدة المسيحية** فرض الطاعة للأفكار أو السلطة البشرية *(sanctiones quascunque ... et dogmata)* والمقصود بالفطرة (٥٢٣) هو الفطرة السليمة أو الضمير الحيّ لكل فرد على حدة انظر **إرميا** (٣١/ ٣٣) "أجعل شريعتى فى داخلهم وأكتبها على قلوبهم" .

٥٢٦- انظر **كورنثوس الثانية** (٣/ ١٧) "وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية" .

٥٢٧- انظر **كورنثوس الأولى** (٣/ ١٧) "لأن هيكل الله مقدس الذى أنتم هو" .

٥٢٨-٥٣٠ يقول فاولر إن ميلتون لا يخص بالهجوم كنيسة روما لاعتقادها أنها منزهة عن الخطأ ، ولكنه يهاجم كل من يتصور ذلك ، وكان الظن هو أن مراسيم المجمعات المسكونية منزهة (معصومة من الخطأ) ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن فكرة تنزه البابا عن الخطأ لم تبتكر إلا عام ١٨٧٠ ، فإن كنيسة روما هى الهدف الرئيسى لهجوم ميلتون هنا . إذ يقول فى دراسة له بعنوان **بحث فى السلطة المدنية** (طبعة كولمبيا ٦/ ٨) إن "البابا يدعى لنفسه العصمة ، فوق الضمير وفوق الكتب المقدسة" .

٥٣٢-٥٣٣ انظر **إنجيل يوحنا** (٤/ ٢٣) "الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق" .

٥٣٦- 'الأعمال التى تصدق الإيمان' انظر البيت ٤٢٧ والبيت ٦٤ من الكتاب الحادى عشر والحاشية عليه .

٥٣٩- انظر **رومية** (٨/ ٢٢) "فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معًا إلى الآن" .

٥٣٩- ٥٥١ يلاحظ أن 'الأنين' يسترجع أنّات الطبيعة عند سقوط آدم وحواء (الكتاب التاسع ٧٨٣ ، ١٠٠١) وأن 'تنفس الصعداء' يعنى التطلع إلى المستقبل بعد زوال الغمة ، و 'التنفس' صورة أساسية فى القصيدة ، فالإنسان تنفس أول ما تنفس عند الخلق (الكتاب السابع ٦٢٦) وانظر الكتاب الأول ٧ حيث ترد كلمة الوحى المشتقة من الأنفاس .

٥٥١- بدأ ميكائيل روايته 'بالآثار' المترتبة مباشرة على المساس بالشمرة المحرمة (الكتاب الحادى عشر ٤٢٤) وهو ينهيها الآن 'بالثمار' التى تؤتيها . انظر الكتاب الأول - السطر الأول والسطور التالية .

٥٥٩- 'ذلك الوعاء' أى الذهن (لا الجسد) .

٥٦١- 'أحسن الأشياء الطاعة' انظر **صموئيل الأول** (١٥/ ٢٢) "الاستماع أفضل من الذبيحة" .

٥٦٥- 'الرحيم' انظر **المزمور** ١٤٥ (٨-٩) "الرب . . . كثير الرحمة . . . ومراحمه على كل أعماله" .

٥٦٦- انظر **رومية** (١٢/ ٢١) "أغلب الشر بالخير" .

٥٦٧- انظر **كورنثوس الأولى** (١/ ٢٧) "واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء" .

٥٧٦-٥٨١ انظر ما قاله روفائيل فى الكتاب الثامن ، السطور ١٦٧-١٧٨ ، كما يذكرنا التعبير 'أسرار

المحيط' بما جاء فى الكتاب الثالث (السطر ٧٠٥ والسطور التالية) عن عجز أى ذهن مخلوق عن إدراك الحكمة التى تختفى وراء أعمال الله . وانظر أيضًا سفر أيوب (٢٨/٢٨) "مخافة الرب هى الحكمة" .

٥٨١-٥٨٧ انظر رسالة بطرس الثانية (١/ ٥-٧) "قدموا فى إيمانكم فضيلة وفى الفضيلة معرفة . وفى المعرفة تعففًا وفى التعفف صبرًا وفى الصبر تقوى وفى التقوى مودة أخوية وفى المودة الأخوية محبة" .

وإزاء ما يبدو من اختلاف هذا النص بعض الشئ عن نص ميلتون ، فسوف أورد ترجمتين إنجليزيتين له ، الأولى من النسخة المعتمدة (Authorised Version) والثانية من النسخة المنقحة (Revised) .

1. "Add to your faith virtue; and to virtue knowledge; And to konwledge temperance; and to temperance patience; and to patience godliness; and to godliness brotherly kindness; and to brotherly kindness charity".
2. add virtue to your faith, knowledge to virtue, self-control to knowledge, fortitude to self-control, piety to fortitude, brotherly affection to piety, and love to brotherly affection".

ومن هذا يتضح مدى اقتراب ميلتون من نص الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس ، وإن كان يحذف من هذه القائمة 'التقوى' (أو الورع) والمودة الأخوية ، ويضيف الأعمال بل يجعل لها مكان الصدارة ، وأما عن توازى الإحسان والمحبة فانظر الحاشية على السطر ٢١٦ من الكتاب الثالث .

٥٩٤-٦٠٥ تلخيص ميكائيل فى الختام يؤكد الخيطين الفكريين فى الرؤى التى سبقت وهما خيط 'التسليم الخاشع' لله ، أى الخضوع لمشيئته ، وخيط 'الإيمان' ، وتتوازن كفتاهما توازنًا دقيقًا فى عبارة 'الاجتماع على إيمان واحد برغم الأحزان' أى إن على آدم أن يسلّم فى خشوع بعواقب زلّته وأن يتطلع بإيمان إلى انتصار المسيح آخر الأمر .

٦٠٢- 'أيامًا كثيرة' - عاش آدم حتى أصبح عمره ٩٣٠ سنة (تكوين ٥/ ٥) .

٦٠٨- لاحظ التناقض مع ما جاء فى 'الموضوع' (المقدمة النثرية) من أن آدم يوقظ حواء .

٦١١- انظر عدد (٦/١٢) "إن كان منكم نبيٌّ للرب فبالرؤيا أستعلن له فى الحلم أكلمه" ويفرق الشراح بين الحلم والرؤيا قائلين إن الرؤيا التى يراها النبى هو حلم يتحقق .

٦٤٠- تقول ماكافرى فى كتابها المشار إليه "إننا هبطنا الآن مع آدم وحواء إلى عالمنا الدنيوى" (٥٩) .

٦٤٣- انظر تكوين (٣/ ٢٤) .

٦٤٥- يشير بيردن فى كتابه المذكور (ص ٢٠٠) إلى التوازن الدقيق هنا بين الحزن والفرح .

٦٤٨- تشابك الأيدى رمز للإيمان .

٦٤٩- 'عدن' لا تشير إلى الفردوس بل إلى المناطق المحيطة بها .

## للمؤلف

**بالعربية :**

**١ - في النقد واللغة :**

| | | |
|---|---|---|
| النقد التحليلـــى | * | (فى النقد الأدبى) الطبعـة الأولى ١٩٦٣ - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية ١٩٩٢ - الهـيئة المصرية العامة للكتاب . |
| فن الكوميديـا | * | (فى النقد الأدبى) الطبعـة الأولى ١٩٨٠ الأنجلو المصرية (نفد) . |
| الأدب وفنونـــه | * | (فى النقـد الأدبى) الـطبـعـة الأولى ١٩٨٤ - الثـقـافـة الجمـاهيرية - الطبعـة الثانية ١٩٩٢ - الهـيئة المـصرية العامة للكتاب . |
| المسرح والشعر | * | (فى النقد الأدبى) الطبعة الأولى ١٩٨٦ دار غريب (نفد). |
| فن الترجـــمة | * | (دراســة لغويــة) الطبعة الأولى ١٩٩٢ لونجـمان ، ط ٢ (١٩٩٤) ط ٣ (١٩٩٦) ط ٤ (١٩٩٧) ط ٥ (٢٠٠٠) |
| فى الأدب والحياة | * | (فى النقـد الأدبى) الـطبـعـة الأولى ١٩٩٣ - الهـيـئـة المصريــــة العامة للكتاب . |
| التيارات المـعاصرة فى الثقافة العربية | * | ١٩٩٤ - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب . |
| قضايا الأدب الحديث | * | (فى النقـد الأدبى) الـطبـعـة الأولى ١٩٩٥ - الهـيـئـة المصريــة العامـــة للكتاب . |
| المـصطلحـات الأدبيــة الحديثة | * | (فى النقـد الأدبى) الطبعـة الأولى ١٩٩٦ - (لونجمـان) الطبعـة الثانية (١٩٩٧) لونجمان . |
| التـرجمـة الأدبيـة بين النظرية والتطبيق | * | (فى اللغة والأدب) الطبعة الأولى ١٩٩٧ (لونجمان) . |
| مرشد المترجم | * | (مدخل إلى التحولات الدلالية والفروق اللغوية (لونجمان) ٢٠٠٠. |
| نجيب محفوظ في عيون العالم | * | مع د. ماهر شفيق فريد ـ هيئة الكتاب ٢٠٠٢ |

**ب - أعمال إبداعية :**

| | | |
|---|---|---|
| ميت حلاوة | * | (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٨٢ ونشرت عام ١٩٧٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية - هيئة الكتاب - ١٩٩٤ . |
| السجين والسجان | * | (أربع مسرحيات من فصل واحد) - الطبعة الأولى - ١٩٨٠ - هيئة الكتاب الطبعة الثانية ١٩٩٤ - هيئة الكتاب . |
| البر الغربي | * | (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٦٣ ونشرت ١٩٨٥ - هيئة الكتاب . |
| المجاذيب | * | مسرحية قدمت على المسرح ١٩٨٣ ونشرت ١٩٨٥ ، هيئة الكتاب. |
| الغربان | * | (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح ١٩٨٨ ونشرت ١٩٨٧ هيئة الكتاب . |
| جاسوس فى قصر السلطان | * | (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح فى عام ١٩٩٢ ونشرت ١٩٩١ هيئة الكتاب . |
| رحلة التنوير | * | (مسرحية وثائقية مع سمير سرحان والمادة العلمية لسامح كريم) قدمت على المسرح عام ١٩٩١ ونشرت ١٩٩٢ هيئة الكتاب . |
| ليلة الذهب | * | أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ - هيئة الكتاب . |
| حلاوة يونس | * | أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ - هيئة الكتاب . |
| السادة الرعاع | * | (مسرحية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب . |
| الدرويش والغازية | * | (مسرحية) ١٩٩٤ هيئة الكتاب . |
| أصداء الصمت | * | ديوان شعر ١٩٩٧ هيئة الكتاب . |
| واحات العمر | * | سيرة أدبية ١٩٩٨ هيئة الكتاب . |
| واحات الغربة | * | سيرة أدبية ١٩٩٩ هيئة الكتاب . |
| حورية أطلس | * | ديوان شعر ٢٠٠١ هيئة الكتاب . |
| واحات مصرية | * | سيرة أدية ٢٠٠١ هيئة الكتاب . |

## جـ - مترجمات إلى العربية :

| | | |
|---|---|---|
| الرجل الأبيض فى مفترق الطرق | | القاهرة - جمعية الوعى القومى - ١٩٦١ (نفد) . |
| حول مائدة المعرفة | * | القاهرة - مؤسسة فرانكلين - ١٩٦٢ (نفد) . |
| درايدن والشعر المسرحى | * | (مع مجدى وهبة) الطبعة الأولى دار المعرفة - ١٩٦٣ ، الطبعة الثانية الأنجلو ١٩٨٢ ، الطبعة الثالثة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ . |
| ثلاثة نصوص من المسرح الإنجليزى | * | الطبعة الأولى الأنجلو ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية - هيئة الكتاب ١٩٩٤ . |
| الفردوس المفقود | * | الجزء الأول ١٩٨١ - هيئة الكتاب (نفد) . |
| الفردوس المفقود | * | الجزء الثانى ١٩٨٦ - هيئة الكتاب . |
| روميو وچولييت (شيكسبير) | * | (إعداد مسرحى غنائى) دار غريب ١٩٨٦ (نفد) |
| تاجر البندقية (شيكسبير) | * | ١٩٨٨ هيئة الكتاب . |
| عيد ميلاد جديد (أليكس هيلى) | * | ١٩٨٩ - مركز الأهرام للترجمة والنشر . |
| يوليوس قيصر (شيكسبير) | * | ١٩٩١ - هيئة الكتاب . |
| حلم ليلة صيف (شيكسبير) | * | ١٩٩٢ - هيئة الكتاب . |
| روميو وچولييت (شيكسبير) | * | (الترجمة الشعرية الكاملة) هيئة الكتاب ١٩٩٣ . |
| الملك لير (شيكسبير) | * | (الترجمة الشعرية الكاملة) هيئة الكتاب ١٩٩٦ . |
| هنرى الثامن (شيكسبير) | * | (الترجمة النثرية الكاملة الأولى) هيئة الكتاب ١٩٩٧ . |
| الفردوس المفقود | * | الجزء الثالث ـ هيئة الكتاب ـ ٢٠٠١ |
| الفردوس المفقود | * | الجزء الرابع ـ هيئة الكتاب ـ ٢٠٠٢ |

سيرة النبى محمد ﷺ * (كارين آرمسترونج-سطور- ١٩٩٨ (مع د. فاطمة نصر) .

القـدس: مدينة واحـدة وعقائد ثلاث * (كارين آرمسترونج-سطور ١٩٩٨ (مع د. فاطمة نصر) .

مأســاة الملك ريتــشارد الثانى (شيكسبير) * هيئة الكتاب - ١٩٩٨ .

معارك فى سبيل الإله * (كارين آرمسترونج-سطور ٢٠٠٠ (مع د. فاطمة نصر) .

مـختـارات من الشعـر الرومـانسي لـلشـاعـر وردزورث * مع مقدمة ـ هيئة الكتاب ـ ٢٠٠٢

**مؤلفات بالإنجليزية :**

**Dialectic of Memory** : A Study of Wordsworth's Little Prelude, Cairo 1981, State Publishing House (GEBO) .

**Lyrical Ballads 1798:**ed with an introduction, Cairo, GEBO, 1985.

**Varieties of Irony** : an Essay on Modern English Poetry, Cairo, GEBO, 1985, (2nd ed. 1994) .

**Naguib Mahfouz Nobel 1988 (ed)** : a Collection of critical essays (Cairo, GEBO, 1989).

**Prefaces to Arabic Literature** : (the post - Mahfouz era) with a miniature anthology of modern Arabic Poetry since the 1970s by M.S. Farid, Cairo GEBO, 1994 .

**The Comparative Tone** : Essays in Comparative Literature, with a Bibliography of Arabic Literature in Translation by M.S. Farid. GEBO, 1995.

**Comparative Moments,** : Essays in Comparative Literature and an Anthology of Post-modernist Arabic poetry in Egypt, with appendices by M. S. Farid, GEBO, 1996 .

**On Translating Arabic : A Cultural Approach,** Gebo, 2000.

**The Comparative Impulse:**With M.S El-Komi and M.S. FARID, GEBO, 2001.

**مترجمات إلى الإنجليزية :**

**Marxism and Islam** : (by Mostafa Mahmoud), Cairo, Dar Al-Maaref. 1977 (reprinted several times. the last in 1984).

**Night Traveller** : (by Salah Abdul-Saboor) with an introduction By S. Sarhan. Cairo, GEBO, 1979, 2nd ed. Cairo, 1994.

**The Quran : an attempt at a modern reading,** : (by Mostafa Mahmoud) Cairo, 1985.

**The Music of Ancient Egypt** : (by M. Al-Hifni) Cairo. 1985 Belgrade. MPH, 1985. 2nd ed. Cairo (in the Press) .

**The Trial of an Unknown Man** : (by Izz El-Din Ismail) Cairo, GEBO 1985.

**Modern Arabic Poetry in Egypt** : an anthology with an introduction Cairo, GEBO, 1986 .

**The Fall of Cordova**: (by Farooq Guwaidah) Cairo, GEBO, 1989 .

**The Language of Lovers' Blood,** (by Farooq Shooshah) Cairo GEBO, 1991.

**Time to Catch Time** : (by Farooq Shooshah) Cairo, GEBO, 1996 .

**A Thousand Faces has the Moon** : (by Farooq Guwaidah) Cairo, GEBO, 1997 .

**Shrouded by the Branches of Night** : (by M. Al-Faytouri) Cairo, GEBO, 1997 .

**Leila and the Madman (Laila wal-Majnoun)** : (by Salah Abdul-Saboor). Cairo, 1998.

**An Ebony Face (by Farooq Shooshah)** : Cairo, GEBO, 2000.

**Time in the Wilderness** : (Habiba Muhammadi) Cairo, GEBO, 2001.

**On the Name of Egypt,** : (Salah Jaheen) Cairo, GEBO, 2002.

**Short Stories ,:** (Mona Ragab) with A. Gafary,Cairo,GEBO, 2002.

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٣٩٦ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 8182 - X